هذا الكتاب

يعرض هذا الكتاب لآراء المفكر الهيجلي الأستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام في مجالات شتى : في الأخلاق ، والسياسة ، والمجتمع ، والأدب ، والفلسفة ، والدين .. إلخ ، في أسلوبٍ شيّق ، وفكر واضح : فالمؤلف في مقالات كثيرة يعالج ما يسميه بانفصام الشخصية العربية التي تقول ما لا تفعل ، وتؤمن بشئ وتسلك سلوكاً يتناقض مع إيمانها . وتعيش في عالم الواقع وهي تخلط بينه وبين عالم المثال ؛ ففي المقال الأول « **كلكم يبكي .. فمن سرق المصحف** ؟ » تجد هذه الفكرة واضحة ، وقل مثل ذلك في مقالات «**مجتمعات من ورق** » و « **تماثيل .... وتماثيل** » و « **عين الحسود** » و «**تقبل الله منا ومنكم** » إلخ . وهي كلها تعالج تخلف المجتمع العربي من زوايا متنوعة .

وفي مجال الأدب : يقدم لنا دراستين هامتين هما تحليل لقصتين من قصص أديبنا الكبير نجيب محفوظ هما « **ثرثرة فوق النيل** » و « **اللص .. والكلاب** » الأولى تحت عنوان « **نجيب محفوظ .. والمسطول** » والثانية بعنوان « نجيب محفوظ .. والخيانة » كما يفسر لنا في مقال «حزن الأديب » ما يخيم على الأديب من حزن وهم وقلق ؛ نتيجة لسعيه نحو الكمال ، وعدم رضاه « **بالكمال المنقوص** » - وهو في ذلك يشبه الرجل الصوفي !

كما أنك تجد كثرة من الدراسات في فلسفة الدين ، وتحليلاً للزمان في القرآن ، والزمان والأزل ، وإله الفلاسفة ، و « **العلم الإلهي** » ، و « **المعجزة** » ، و « **رحلة الإنسان إلى الله** » ... إلخ .

وفي الأخلاق : يعالج نسبية الأخلاق ، ويرى أنها وهم ؛ فالأخلاق لابد أن تقوم على مبادئ ثابتة وراسخة لا تختلف باختلاف المجتمعات : فليس ثمة مجتمعه طوال التاريخ أقام أخلاقياته على الرذائل : إباحة السرقة ، أو النصب ، أو الكذب ، أو الخيانة ... إلخ . كما أن ما يسمى « **بالكذب الأبيض** » وهم آخر ! وينتهي المؤلف إلى أن الأخلاق طبيعة ثانية تضاف إلى طبيعة الإنسان الحيوانية الأولى .

وهناك ، فضلاً عن ذلك ، موضوعات أخرى كثيرة عن ، الفرد ، والمجتمع ، والمرأة ، والطفل ، والبخل ... إلخ . إلخ .

الناشر

مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١
MADBOULI BOOKSHOP 6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

أفكار... ومواقف

تأليف
أ.د/ إمام عبد الفتاح إمام
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت

في فلسفة الدين
عن الحرية
في الأخلاق
عن الثقافة والبحث التجريبي
الأخلاق والزمان
في القرآن
المجتمع والمرأة والطفل

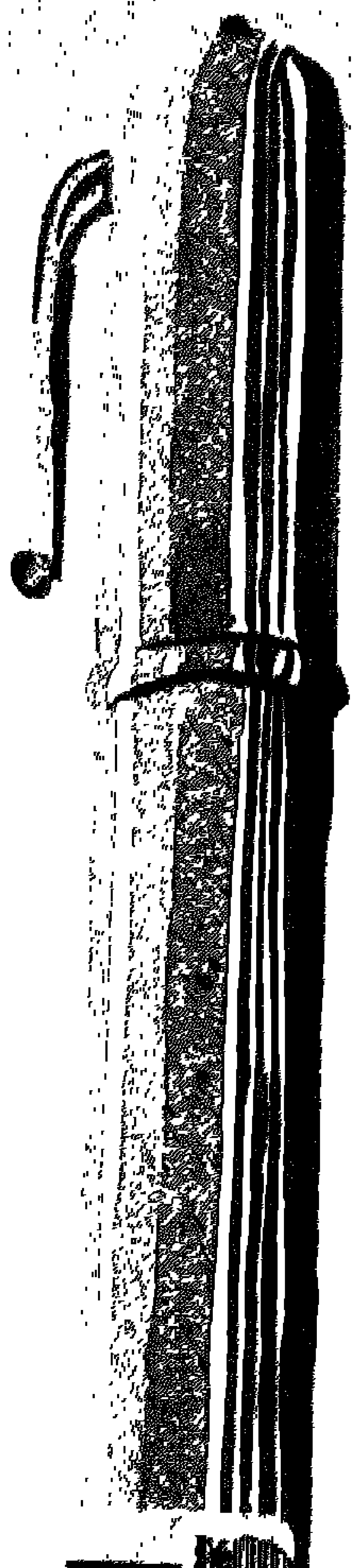

مكتبة مدبولي

Bibliotheca Alexandrina
0143690

أفكار ... ومواقف ..

أفكار ... ومواقف ..

تأليف

أ. د. إمام عبد الفتاح إمام

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

جامعة الكويت

(طبعة أولى)

١٩٩٦

الناشر

مكتبة مدبولى بالقاهرة

٦ ميدان طلعت حرب

اسم الكتاب : **أفكار ... ومواقف**

(طبعة إولى)

المؤلف : أ . د . إمام عبد الفتاح إمام

مكتب الجمع : **آرمس للكمبيوتر**

ت : ٣٥٦٤٤٠٤ القاهرة

غلاف : **محمد لطفى**

الناشر : **مكتبة مدبولى**

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

** الإهداء ١١
** كلمة إلى القارئ ١٣
** أولاً : تخلف المجتمع العربى ١٥
١ ـ كلكم يبكى ... فمن سرق المصحف ؟! ١٧
٢ ـ مجتمعات من ورق ٢٠
٣ ـ حديث خرافة ٢٦
٤ ـ عين الحسود ٣١
٥ ـ تماثيل ... وتماثيل ٣٦
٦ ـ « العروبة » .. إعادة نظر ٤٠
٧ ـ نعم ... وحدودها ٤٧
٨ ـ رأيتُ فيما يرى النائم ٥٢
٩ ـ والقط يأكل ويشرب ٥٩
١٠ ـ من حكم النسر إلى حكم العِمامة ٦٤
١١ ـ أحقاً مستقبلنا هو ماضينا .. ؟! ٦٩
١٢ ـ العقل العربى والمستقبل ٧٦
١٣ ـ طاخ طيط .. ! ٨٠
١٤ ـ ... وتقبل الله منا ومنكم ٨٥
** ثانياً : اجتماعيات ٨٩
١ ـ وكان الإنسان هلوعاً ٩١
٢ ـ ذلك المجهول ٩٤
٣ ـ دفاع عن الصمت ٩٩
٤ ـ ودفاع عن الكلام أيضاً ١٠٤
٥ ـ منْ يحفر فوق قبرى ؟! ١٠٨
٦ ـ أفراح وأتراح ! ١١٣

٧ ـ محكمة ! ١١٧
٨ ـ لا تغفر لهم يا أبتاه ١٢٣
٩ ـ أهى حقاً أحاديث المقاهى والبارات ! ١٢٧
١٠ ـ عودٌ إلى المجتمعات الورقية ١٣٣
**** ثالثاً : فى فلسفة الدين** ١٣٩
١ ـ كفاح الإنسان إلى أين .. ؟! ١٤١
٢ ـ إيمان إنسان بلا إيمان .. ! ١٤٥
٣ ـ الزمان والأزل ١٥٠
٤ ـ إله الفلاسفة ١٥٧
٥ ـ محاولات لتعريف الدين ١٦٤
٦ ـ الحس الدينى بين التأييد والتفنيد ١٨٢
٧ ـ الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل ٢١٣
٨ ـ الرؤية الدينية .. والمستقبل ٢١٩
٩ ـ عندما خسر الشيطان الرهان ٢٢٦
١٠ ـ من التواكل إلى التوكل ٢٣٥
١١ ـ العلم الإلهى وفلسفة القضاء ٢٥٩
١٢ ـ التطرف الدينى ٢٦٧
١٣ ـ عن المعجزة ٢٧٣
١٤ ـ العلم الإلهى ٢٧٨
**** رابعاً : عن الحرّية** ٢٨٥
١ ـ أنا حر ... ! ٢٨٧
٢ ـ أنت حر .. فأنت مقيد ! ٢٩٢
٣ ـ هل الإنسان حر بالطبيعة .. ؟ ٢٩٧
٤ ـ الحرية هى التحديد الذاتى ٣٠٢
**** خامساً : متفرقات** ٣٠٧
١ ـ الحب ... أنواع .. ! ٣٠٩

٢ ـ حول « الرغبة » .. والحب .. والإرادة .. ! ٣١٧
٣ ـ حدث فى المدينة ٣٢٢
٤ ـ حديث عن النار ٣٢٨
٥ ـ بين فلسفة البخل وبخل الفلاسفة .. ! ٣٣٤
٦ ـ نعمة النسيان وسهوات الحكماء .. ! ٣٤٦
٧ ـ التجربة المصرية بمنظور هيجليّ .. ! ٣٥٤
**** سادساً : مقالات لا تروق** ٣٦٧
١ ـ يا منْ كنتَ صديقى ٣٦٩
٢ ـ فى أعماق النفس البشرية ٣٧٤
٣ ـ إلى زوجتى ... ! ٣٨١
٤ ـ عذر الظالم ... ! ٣٨٦
٥ ـ كما يموت الكلب ... ! ٣٩٠
**** سابعاً : فى الأخلاق** ٣٩٥
١ ـ أخلاق الانفعال ٣٩٧
٢ ـ أخلاق الإنسان نسبية أم مطلقة ... ؟ ٤٠٢
٣ ـ الكذب الأبيض ... ! ٤٠٨
٤ ـ الأخلاق طبيعة ثانية ... ! ٤١٣
**** ثامناً : عن الثقافة** ٤١٩
١ ـ أحمق من يعير كتاباً ٤٢١
٢ ـ الهوة الثقافية ٤٢٨
٣ ـ أزمة ثقافية ٤٣٣
٤ ـ تأثير الكلمة ٤٤٠
٥ ـ القارئ وكاتبه ٤٤٤
٦ ـ تشجع واعرف ٤٤٨
٧ ـ رهان ... ! ٤٥٣

**** تاسعاً : الفرد والمجتمع** ٤٥٧
١ ـ أنتيجونا تطرح المشكلة .. ! ٤٥٩
٢ ـ القضاة القتلة .. ! ٤٦٤
٣ ـ وفاة أعزب .. ! ٤٧٠
**** عاشراً : دراسات قرآنية** ٤٧٥
١ ـ الأخلاق فى القرآن ٤٧٧
٢ ـ الزمان فى القرآن ٤٨٣
٣ ـ القرآن والبحث التجريبى ٤٩٤
**** حادى عشر : عن اليهود** ٥٢٥
١ ـ الألوهية فى أسفار اليهود ٥٢٧
٢ ـ أخلاق اليهود من أسفارهم ٥٤٨
٣ ـ من أسفارهم تعرفونهم ٥٨٧
**** ثانى عشر : مقالات فى الأدب** ٥٩١
١ ـ حزن الأديب ٥٩٣
٢ ـ نجيب محفوظ ... والمسطول ٥٩٨
٣ ـ نجيب محفوظ ... والخيانة ٦٠٦
٤ ـ الرسم بالكلمات ٦١٧
٥ ـ حوار مع القلم ٦٢٣
**** ثالث عشر : فى عالم الفلسفة** ٦٢٩
١ ـ أنت فيلسوف .. ! ٦٣١
٢ ـ فكر الفكر ٦٣٦
٣ ـ قال الفتى ٦٤٢
٤ ـ تكلم حتى أراك ٦٤٨
٥ ـ الماركسية أفيون الشعب ٦٥٣
٦ ـ أفكار وجودية ٦٥٨
٧ ـ أفكار أخرى وجودية ٦٦٣

٨ ـ العميان والفيل ... ! ٦٦٩
٩ ـ لا جديد تحت الشمس ٦٧٣
١٠ ـ التاريخ لا يعيد نفسه ٦٧٧
١١ ـ ثلاثية النفس ٦٨٢
** رابع عشر : عن المرأة ٦٨٧
١ ـ ذكر وأنثى ٦٨٩
٢ ـ قصة المرأة ٦٩٣
٣ ـ المرأة .... ونيتشه .. ! ٧٠٥
٤ ـ المرأة .... فى حياة هيجل ٧١١
٥ ـ خدعوها .... فقالوا .. ! ٧١٨
** خامس عشر : الأطفال ٧٢٥
١ ـ يا أطفال العرب اتحدوا ٧٢٧
٢ ـ براءة الأطفال ٧٣٢
٣ ـ هالة حبيبتى ... نشالة ؟ ! ٧٣٦
٤ ـ طفل صغير ينتقم من كبير الآلهة ٧٣٩
*** مؤلفات أ . د . إمام عبد الفتاح إمام ٧٤٣

* * *

الإهـــداء

إلى روح أستاذى العظيم :
زكى نجيب محمود

أهديتُك باكورة إنتاجى ، وأنتَ فى دار الفناء ،

فهل تسمح لى أن أهديك هذا الكتاب ، وأنت فى دار البقاء ؟!

إنه نبتةٌ من غرسك ، وسيرٌ على دربك ، ووفاءٌ لذكراك !

القاهرة فى يونيو ١٩٩٢ .

أ. د. إمام عبد الفتاح إمام

كلمة إلى القارئ !

فى هذا الكتاب مجموعة من المقالات المنوعة ، كُتِبَتْ على فترات متباعدةٍ . نُشِرَ بعضها فى « ليبيا » عندما كنت معاراً لجماعة طرابلس فى أوائل السبعينات ، كما نُشِرَ بعضها الآخر فى صحيفة « الوطن » الكويتية فى الفترة ما بين (١٩٨٦ ـ ١٩٩٠) ، فى زاوية كنت أكتبها أسبوعياً تحت عنوان « أفكار .. ومواقف ، ولم ينشر بعضها الثالث قط ! وهى كلها ، على تفاوتها فى الموضوع والحجم ، تعبر عن رأيى فى كثير من المسائل التى تتعرض لها ، وكم أكون سعيداً لو شاركنى القارئ هذا الرأى !

وقد يكون من المفيد أن تجمع بين دفتى كتاب ؛ حتى يستطيع من يريد قراءتها أن يحصل عليها فى سهولة ويسر ! ورأيت أيضاً أن تظل بعنوان الزاوية الأسبوعية التى كانت تظهر فى صحيفة الوطن « أفكار .. ومواقف . » .

وإني لآمل أن تفتح هذه المقالات أمام القارئ أبواب التساؤل الثقافي ، فمأساتنا الحقيقية أننا نملك من الأجوبة أكثر بكثير مما نطرح من الأسئلة ، وهذا هو المعني الدقيق للانغلاق ، بل للتخلف الفكري الذي يمنعنا من الحركة والانطلاق .

والله أسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد ،

أ . د. إمام عبد الفتاح إمام

القاهرة فى يونيو ١٩٩٢ .

أولاً : تخلف المجتمع العربى

١ ـ كلكم يبكى .. فمن سرق المصحف ؟!

٢ ـ مجتمعات من ورق .. !

٣ ـ حديث خرافة .. !

٤ ـ عين الحسود .. !

٥ ـ تماثيل ... وتماثيل .. !

٦ – « العروبة » .. إعادة نظر .. !

٧ ـ نعم .. وحدوها .. !

٨ ـ رأيت فيما يرى النائم .. !

٩ ـ والقط يأكل ويشرب .. !

١٠ ـ من حكم النسر إلى حكم العمامة .. !

١١ – أحقا مستقبلنا هو ماضينا ؟!

١٢ ـ العقل العربى .. والمستقل .. !

١٣ – طاخ .. طيط .. !

١٤ – و .. تقبل الله منا ومنكم .. !

كلكم يبكى .. فمن سرق المصحف ؟!

جلس أبو الحسن الأشعري « ٦٠ـ ٣٣٤ هـ » يلقى درسه على تلاميذه فى مسجد البصرة ، فأفاض الشيخ وأجاد . لكنه ما أن انتهى من الدرس ، وتلفت حوله حتى اكتشف أنه فقد المصحف . وقبل أن ينطق لسانه بسؤالٍ كانت آيات التقوى ، والورع ، والخشوع ترتسم على وجوه التلاميذ ، وكانت الدموع الغزيرة تبلل منهم اللحى ! فعجب الشيخ مما رأى ، وشاهد ، وتساءل فى دهشةٍ : كلكم يبكى .. فمن سرق المصحف ؟! ..

هذه القصة الطريفة تفرض نفسها علىّ فى وطأة ضاغطة كلما أجلت البصر حولي فى مجتمعنا العربى ، فلا أجدَ إلا كذباً وزيفاً ونفاقاً يغلفه صدق ، أمانة وإخلاص ـ إنه انفصام الشخصية الظاهر الذى لا تخطئه العين العابرة! إننى اتذكرك يا أبا الحسن صباح مساء ، كلما أُجيل النظر فى أى مجال من مجالات الحياة التى يؤمن فيها المرء بأفكارٍ ويسلك سلوكاً يتناقض مع هذه الأفكار، فيحدث هذا « الصدع» العجيب بين الفكر والواقع ، وبين النظر والعمل الظاهر والسلوك المعوج ، وبين الاعتقاد من ناحية والحياة من ناحية أخرى . وأفهم ما الذى يعنيه الفيلسوف الألمانى هيجل عندما قال : إن الأمانة والوداعة وبراءة الوجه لا علاقة لها بالأخلاق !

انفصام الشخصية بارز جداً فى مجتمعنا العربى من الرأس حتى القدم ، ومن القمة حيث تتربع الحكومات إلى القاع حيث يقف الفرد ، كلنا يعيش فى عالمين منفصلين لا يلتقيان مهما امتدا .. والأمثلة لا آخر لها : اقرأ صحف الصباح تجد الطيران الإسرائيلى يقصف المخيمات الفلسطينية ، فيبدأ الصراخ والعويل والنواح يشق عنان السماء فى الوطن العربى كله ـ والدموع تبلل اللحى ! إذا كنتم حقاً على هذا القدر من الوعى ، والتضامن ، والتعاون فمن أضاع

فلسطين ؟! ومَنْ قَتل من الفلسطنيين بطريقٍ مباشر أو غير مباشر ، أضعافَ أضعاف مَنْ قتلهم الإسرائيليون؟!

المجتمعات العربية كلها تُمجد الحرية ، وتتغنى بالتحرر ، والسجون تبتلع الأحرار يوماً بعد يوم ، وهى كلها تتحدث عن الديمقراطية وتُفاخر بها ، ولم تمارسها يوماً !! وهى تلوح بقبضتها القوية للدول « الإمبريالية» الإستعمارية ، مع أنها لا تعيش إلا بها وعليها ! .. وهى تقف ؛ لتعلن فى غضبٍ أنها لن تتخلى عن القضية الكبرى والمصير المشترك ، ثم تعود إلى النوم من جديد مستندة إلى سيفها ، معتمدة على ذاكرة الجماهير المهلهلة ! لكن إياك أن تعتقد أننا نلقى المسئولية على «الحكومات» ، ونعفى الأفراد « المظلومين» – إنهم ، على دين ملوكهم ، مصابون أيضاً بانفصام الشخصية « فالكل فى هذا الهَم سواء » !ـ وربما لن تجد شيئاً أعدل قسمةً بين المواطنين العرب من هذا المرض اللعين ! وكم من مرة ضُبطتْ فيها طالبة « محجبة» تغش فى الامتحانات ! وكم من مرةٍ نُبهتْ طالباً تكاد لحيته تحجب ورقة الإجابة ـ أن يكف عن النظر إلى ورقة زميله ! وكم من مرةٍ قلتُ لهم جميعاً : إنَّ « مَنْ غش ، فليس منا » ، وإنَّ غضَّ البصر لا يقتصر على النظر إلى الجنس الآخر فقط ـ إن كان يُغَضّ حتى فى هذه الحالة !ـ بل يعنى أيضاً ألاَّ تسرق غيرك، وألاَّ تتلصص على الناس ، وكم من مرة علتْ الدهشة وجوههم ، وقرأتُ عليها ذلك التساؤل ، الذى يعبر أدق تعبير عن انفصام الشخصية : « وما دخل ذلك بالدين؟» والطالب المتدين الذى يغش فى الامتحان هو نفسه التاجر الذى يرفع السعر ، وينقص الوزن ، ويسرق زبائنه – فإذا أذّن المؤذن هرع إلى المسجد ؛ حتى لا تفوته الصلاة ! إنه انفصام بين الاعتقاد والسلوك ، وبين النظر والعمل !

ولا يقتصر هذا الانفصام الغريب على مجال السياسة أو الدين وحدهما ، وإنما يتعداه إلى مجال العلم ، والفكر ، وغيرهما من

المجالات ! ولا أنسى يوم وقف أستاذ مبجل يتحدث عن الدور الذى ينبغى على المفكر (١) أن يقوم به فى مجتمعه ، ورسالته « الخالدة» ، وواجباته نحو أمته - ثم مال على المسؤول قائلاً : كم تدفعون نظير المحاضرة ؟! ومثله مثل العالم يخرج من قاعات الدرس ليستقل سيارته ، وقد علّق بها « خرزة » زرقاء ، تقيها عين الحاسدين ! شخصية هنا وشخصية هناك ، دون أن يمن الله عليهما ، فيجمع الشمل فى شخصية واحدة لا تقول إلا ما تؤمن به !

والعجيب أن انفصام الشخصية فى بلادنا لا يقتصر على «فئة» ولا طبقة ، فسواء كان الفرد عندنا من علْية القوم أو أوسطهم أو أدناهم ، فهو يعانى من هذه الشخصية المَزدوجة ، كلنا يعانى انقسام الشخصية ، وشعارنا واحد توارثناه عن الأجداد « قلوبنا مع على ، وسيوفنا مع معاوية » - عقولنا فى وادٍ وسلوكنا فى وادٍ آخر ! كلنا يحمل شخصيتين مستقلتين « بينهما برزخ لا يبغيان» !

انظر إليه وهو ينتقد « الوجودية» بحماسٍ دافق ، مع أنه لم يقرأ حرفاً واحداً لأحد أعلامها ، ولا كتاباً واحداً فى شرحها وتفسيرها - وكذلك تراه يرفض « الماركسية» و«البرجماتية» « والمادية »... إلخ إلخ ، بوصفها جميعاً مستوردة من الغرب « الكافر» ! مع أنه يتحدث فى ميكروفون الغرب ، ويستقل سيارة الغرب ، ويشاهد تليفزيون الغرب ، ويسافر فى طائرته ويقاتل بأسلحته ، باختصار : هو مستهلك طوال حياته كلها لفكر الغرب ، وما ينتجه من آلات وأدوات ، لكنه لا يريد أن يفهم هذا الفكر نفسه ؛ ليظل سؤال الأشعرى حائراً فى سمائنا !!

سلهم يا أبا الحسن ، فى اليوم مائه ألف مرة ، « كلكم يبكى ، فمَنْ سرق المصحف » !! ذلك لأنهم يقولون مالايفعلون ! .

---

(١) ديوان الشافعى ١٠٣

انشد الشافعى رضى الله عنه فى فساد العالم المتهتك والجاهل المتنسك قال :

فساد كبير عالم متهتـــك ... وأكبر منه جاهل متنسك
هما فتنة فى العالمين عظيمة ... لمن بهما فى دينه يتمسك

مجتمعات من ورق

أنا من الذين يميلون إلى العزلة والانطواء ، وحتى اتجنب اتهامات الناس ، والأصدقاء ، وعلماء النفس جميعاً بأن « ذلك مرض عضال ينبغى عليك أن تتخلص منه ! » - فإننى أبرر هذا الميل لنفسى . تبريراً فلسفياً ، صواباً كان أم خطأً ، فأقول لها : إن الفكر لا يوجد فى العالم الخارجى ، وإنما هو حبيس النفس وحدها، إنه بالداخل فقط،فإذا ما عاد الإنسان إلى نفسه بين الحين والحين ، نضج عقله ، واستقام فكره ، فما بالك لو عاد إليها دائماً ، وأبداً ، ؟! .. أليس المفكرون جميعاً يميلون هذا الميل ، وينحون هذا المنحنى ، ألا نقلدهم فعسى أن نكون مثلهم؟..

فإذا لم تقتنع عُدتُ إلى تبرير هذا الميل تبريراً دينياً ، هذه المرة ، وقلت لها : لو كان ذلك مرضاً لحاربته الديانات جميعاً ، ونهت عنه ، لكننا نجد - على العكس من ذلك - أن الأنبياء والرسل جميعاً مالوا إلى اعتزال الناس ، ولا سيما فى اللحظات الحاسمة التى سبقت دعوتهم مباشرةً ، وكأنهم يستمدون من ذوات أنفسهم قوةً وجلداً وصلابةً ؛ لمواجهة ما هم مقدمون عليه من صعابٍ وعقباتٍ ، وكأنهم يراجعون موقفهم لآخر مرة قبل الانطلاق ! هكذا أراد الله لنبيه « يونس » أن يختفى فى جوف الحوت فترة قبل أن يتصدى لما سرى ، واستشرى من شرور فى المدينة العظيمة « نينوى» . واختلى «موسى » فى جبل سيناء ثلاثين يوماً ثم زادها عشرة قبل أن يهبط إلي بنى إسرائيل ؛ ليحسم موقفه معهم حسماً نهائياً ، وظل المسيح على الجبل أربعين يوماً ، فيما يُعرف فى المسيحية «بتجربة الجبل» قبل أن ينطق ؛ ليجوب فلسطين طولاً وعرضاً . واعتكف نبى الإسلام فى غار حراء زمناً قبل أن يتصدى لجحافل الشر والظلام فى مكة !

هكذا كنتُ أقول لنفسى تعزية لها ، وتبريراً لميلى إلى الانطواء

والعزلة ، وحتى استطيع أن أواجه علامات الاستفهام ، والتعجب التى ترتسم على شفاة الآخرين !

غير أن مشكلة المشاكل التى كانت ، ولا زالت تواجهنى ، ولا أستطيع تدبرها عندما أقف موقفاً يصعب علىّ تبريره أو التخلص منه . وذلك عندما يفرض علىّ فرضاً أن أنضم إلى جمع من الناس فى لجنة من اللجان ، أو اجتماع من الاجتماعات ! عندئذ أجد نفسى فى موقف صعب : فإما أن استنفر طاقتى كلها ، وأستدعى قواى جميعاً ؛ لمساعدتى على تحمل ما يدور حولى من حوار ومناقشات يغلب عليها فى الأعم الأغلب طابع المجاملات حيناً، وهز الرأس حيناً آخر ، والنفاق أحياناً كثيرة - أو أن ألجأ إلى ميزة مَنَّ الله بها علىَ دون كثير من عباده ! ولقد خجلت أن أكشف عنها للصديق الذى سألنى بعد أن انفض الاجتماع على خير : ما رأيك فيما دار فى هذه « الجلسة» من مناقشات ومداولات ؟ أخجلت أن أجيبه بالحقيقة وأقول له : إننى يا صديقى قد حصّنتُ نفسى ، بفضل من الله ومنّة ، ضد هذه الاجتماعات وأمثالها من ندوات ومناقشات ، فأنا أحمل فى رأسى مفتاحاً أديره ، فتتعطل أجهزة الاستقبال عندى ، فلا تلتقط ولا تذيع !

بل أكاد لا أسمع من حولى شيئاً ، وكأننى انتقلت إلى كوكب آخر فُرض عليه الصمت ، فلا حوار ولا نقاش؛ أو قل إنها « الجنة» التى لا تسمع فيها لغواً !

تلك ميزة يا صديقى ، أو منّة مَنَّ الله بها علىّ ، وأحمده كثيراً عليها ، ذلك لأننى أعتقد أن اجتماعاتنا فى الأعم الأغلب اجتماعات عقيمة ، ومناقشاتنا مجدبة لا تقول شيئاً ، ولا تفعل شيئاً ، ولا تنتهى إلى شئ ! لجان فى لجان ، وأوراق وأوراق فوق أكداس من الأوراق ، ثم المحصّلة النهائية : لا شئ ! والسبب الرئيسي في رأيى ، أننا نسير فى طريق معكوس ، أعنى عكس سائر عباد الله عندما يدرسون مشاكلهم بالطرق العلمية السليمة التى تبدأ من الوقائع الموجودة . فتدرسها

دراسة جيدة ، ثم تقترح الحلول الملائمة . نحن يا صديقى نسير - على العكس - من الفكر إلى الواقع ، فما فى أذهاننا نصبه على الورق ، ثم نحاول فرضه على الواقع ! طريق السير عندنا من أعلى إلى أسفل ، من الرسم والتخطيط لما نتصوره ، من إعداد الأمانى ، والمثل العليا ، ثم نلوى الواقع القائم ليتلاءم معها ! ولا تحسبن ذلك « مثالية» - سامحك الله ! - إنها كما يقول هيجل مثالية زائفة ، أو هى كما يقول هيجل أيضاً ، سمة من سمات الشخصية الشرقية الحالمة التى تجيد الخلط بين الحلم والواقع! إن هذا الطريق المعكوس هو الذي نسير فيه جميعاً : حكومات ومؤسسات وهيئات وأفراد .. إلخ ، فلا غرو أن تكون مناقشاتنا بعد ذلك عقيمةً مجدبةً ، ولا عجب أن تجئ خططنا فتقيم « مجتمعات من ورق » تنهار بمجرد ما تصطدم بأرض الواقع الصلبة ! .

وإن أردت مئات المئات من الأمثلة سقناها لك فى يسر وسهولة لكنى سأكتفى ببعض الأمثلة - « القليلة الصارخة » على سيرنا المعكوس - من القمة إلى القاع - من المثال المزيف إلى أرض الواقع الصلبة ، من تصوراتنا الذهنية إلى بناء مجتمعات ورقية ! .

ما قولك مثلاً ، فى رئيس دولة يقف ليقول عقب كارثة ، هى بجميع المقاييس أسوأ كارثة ، لحقت بالعرب فى تاريخهم الحديث : « لقد تصورنا أنهم سيهاجموننا من الشرق ، لكنهم هاجمونا من الغرب ! » - « تصورنا » !! أيها الإخوة العرب لأننا لا ندرس الواقع دراسة دقيقة ، تقوم على الفكر العلمى ، كما يفعل سائر عباد الله ، ولم نضع جميع الاحتمالات التى يمكن أن يلجأ إليها العدو ، ولم نعرف كل إمكاناته ، وطاقاته ، وقدراته ، وما يستطيع أن يفعل وما لا يستطيع - وإنما انطلقنا من فكرنا نحن ، وما قلناه عن أنفسنا من «أننا أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط » ! هكذا تمنينا لأنفسنا وأقمنا «مجتمعنا الورقى » - فلما اصطدم بجدار الواقع الصلب كان ما كان - وأطلقنا على «الكارثة» اسم الدلع الذى تمنيناه لها ، مجرد « نكسة» ! حتى ونحن فى

أسوأ حالاتنا لا نحاول أن ننطلق من الواقع ، وندرسه ، ونفهمه ، ونسمى الأشياء بأسمائها ، نريد أن نرسم لأنفسنا « صورة مثلى » ! ثم نطلق بها أجهزة الإعلام عندنا لتبثها على الناس صباح مساء ، وترسخها في عقول المواطنين بعد أن تضيف إليها كل ما تستطيع إضافته من زخرف وزينة ثم يفرض على جميع المواطنين بقوة السلاح فى جميع البلدان والأمصار الإيمان والتصديق والتسليم بهذا البناء الورقى ! أن تقول .. نعم ! مصداقاً لقول أبى العلاء :

تَلَوْا بَاطِلاً ، وَجَلَوا صـارمـاً   وقـالُوا : صَدَقْنَا .. ؟ فَقُلْنَا : نَعَمْ !

خذ مثالاً آخر من الميدان العسكري أيضاً :

اذكر أن « موشى ديّان » كتب يوماً فى مذكراته ، إنه التقى بأحد اللواءات العرب الذين أسرهم العدو فى عام النكسة ، وأنه طلب من القائد العربى أن يرسم له تخطيطاً لمعركة حربية معينة يديرها بنفسه ، وكم كانت دهشة « ديان» عندما وجد القائد الأسير يرسم المعركة على الورق بدقة متناهية ، وبراعة أخّاذة ، لكن دهشته زالت عندما سأله ، افرض أن العدو فاجأك بكذا أو كيت ، أو أدخل فى المعركة هذا العنصر أو ذاك مما لم تكن تعمل له حساباً فماذا تفعل ؟ فلم يستطع القائد العربى أن يجيب !!

إننا يا « ديّان» نجيد الرسم على الورق ، إننا نبنى كل شئ من تصوراتنا الذهنية بمثالية زائفة ، لأن المثالية الحقيقية تبدأ من الواقع ، من التجربة كما يقول هيجل، لكنها لا تقف عندها ـ أما نحن فنبدأ مما نضعه من مُثل ، ثم نسير إلى أرض الواقع !

ألا ترانا نتجادل طويلاً فى اختيار اسم للمولود قبل أن يولد ؟! لكن ألا يحدث ذلك فى كل اجتماع وفى « كل جلسة» ؟ إذ ترانا نجلس وأمامنا حزمة من ورق ، وفى يدنا أقلام ترسم كل شئ كما نشتهى ، ونتمنى ! وما أشبهنا بذلك الشاعر اليابانى خفيف الظل الذى كان فقيراً معدماً ، لكنه كان يتغلب على فقرِه بطريقة سهلة : فإذا ما

اشتهى فاكهةً ، كالتفاح مثلاً ، أتى بصورته وعلّقها على جدار غرفته ، وإذا أراد أن يأكل الدجاج جاء بصورته وألصقها على جدار الغرفة .. وهكذا حتى تكتمل له وجبة شهية كان يتمناها !

هكذا نحن ، نريد إصلاح التعليم ؛ فنستجلب أحدث ما وضعه علماء التربية من نظريات ، وآخر ما ابتكروه من اختبارات في التحصيل والذكاء ، ونشيح بوجهنا عن دراسة الواقع الذى نعيشه ، لا ندرس بدقة مشكلات المدرسة ، وأهمها مشكلة المشاكل ألا وهى : الطالب ! لِمَ لا يقرأ ويطالع ويثقف نفسه ؟! لِمَ يكره القراءة ودينه يأمره كل يوم أن « يقرأ » ، ويرددها هو نفسه ألف مرة ، لكنها لا تتخذ طريقها إلى التنفيذ، ؟! لِمَ يعتبر الكتاب من ألد أعدائه ، ما أن ينتهى العام الدراسى حتى يتخلص منه ، وكأنه وباء لا يطيقه ؟! لِمَ يدفع فى لفافة تبغ أو وجبة شهية أضعاف ما يدفعه فى مجلة ثقافية ؟!

كيف نجعل من قيمه قيماً ثقافية ؟ أعنى كيف نعلّمه أن يقدّر الناس على أساس ثقافتهم لا على أساس ما لديهم من ثراء أو جاه ؟

وإذا ذهب علماء التربية المحدثون إلى أن العقوبات البدنية يجب أن تمنع ، سارعنا إلى منعها ، دون أن نسأل أنفسنا : أهى ممنوعة فى المنزل أيضا ؟ وهل التربية فى المدرسة ستلقى ما يُكمّلها فى البيت ؟ أعنى هل ستكون الأسرة امتداداً للمدرسة ؟! وهل تعامل الأسرة التلميذ نفس المعاملة التى نريدها له فى المدرسة ؟! بل هل يعامل المجتمع نفسه ولى أمره هذه المعاملة ؟!

إننا نسير بتفكيرنا من أعلى إلى أسفل ، لا العكس ، من أمانينا وتصوراتنا الذهنية إلى أرض الواقع الصلبة التى تتحطم عليها هذه الأمانى والتصورات ! وهل هناك أمنية أعز من أمنية « الوحدة العربية » .. ؟! انظر: كم من مرة تحققت فيها هذه « الوحدة الورقية » ؟! لأنها جاءت من أعلى إلى أسفل ، إذ يجتمع الرئيسان ، ويقرران الوحدة بين شعبيهما ، وتستيقظ الشعوب ذات صباح ، وإذا

هى شعوب « متحدة» ! واعجب العجب أن تهلل الجماهير لهذه الوحدة : لأنها اعتادت أن يأتى إليها التفكير من أعلى ! ولا أحد من القمة يدرس السفح !ـ ثم تنام الجماهير ، وتستيقظ فإذا البناء الورقى قد تهدَّم ، وأُعلن الانفصال !

إننا نضع الأفكار أولاً ثم نرغم الأحداث ، والوقائع ، والأشخاص على الدخول فى هذه الأفكار ، وفيما رسمناه من صور وأشكال جاهزة !

إننا جميعاً نفعل ما كان يفعله « بروكرست Procruste » ـ وهو يا صديقى القارئ إن كنت لا تعرفه ـ قاطع طريق فى الميثولوچيا اليونانية ، كان يسكن جبلاً عند مفترق طرق ، ويدعو الغرباء لزيارته فى بيته ، ولم يكن لديه سوى سرير واحد ، وكان يرغمهم على النوم فيه ، فإن كانوا أطول من السرير قطع الزيادة ، وإن كانوا أقصر شدهم حتى الموت !!

إننا يا صديقى نلوى الواقع لكى يتفق مع فكرنا ، بدلاً من أن نفكر فى هذا الواقع كما هو! ومن هنا يأتى إليك ، أينما كنت ، كم هائل من الأوراق على صورة : نشرات ، وتعميمات ، وتخطيطات ، وأهداف .. تُعبِّر كلها عن مثالية الخيال التى تبنى مجتمعات من ورق .. !

* * *

حديث خرافة .. !

أما «خُرافة» فهو رجل من بنى عذُرة ، كما جاء فى بعض الروايات ، أومن «جهُينة» كما جاء فى روايات أخرى – اختطفه الجن ، وظل غائباً عن أهله زمناً لا يعلم أحد عنه شيئاً : ثم ظهر فجأةً ليقصّ على الناس أنباء تلك الرحلة العجيبة ، التى قادته فيها عرائس الجن ، فرأى مالا عَينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَر على قلب بشر !

أما «الحديث» الذى قصَّة فلا أحد يعلمه حتى الآن ، فقد اكتفت كتب التراث بالقول بأنه « رجع إلى قومه ، فكان يحدّث الناس بأحاديث مما رأى .. يعجب منها الناس ، فكذبوه ، وجرى على ألسنتهم قول يطلق على مالا يصدق من الأحاديث ، وعلى كل ما يستملح ويتعجب منه ، وأصبحت الخرافة تعنى «الحديث المستملح من الكذب » - (لسان العرب لابن منظور مجلد ٩ ، ص ٦٥ - ٦٦) .

ترى ما الذى كان يقوله الرجل لقومه حتى كذّبوه ، وضربوا به المثل فى « الحديث المستملح من الكذب » .. ؟! ماذا رأى ، وماذا سمع فى عالم الجان المستور ؟ أقال لهم ، مثلاً ، إنه شاهد بنفسه الثور الذى يحمل الأرض على قرنه؟! وإنه كان عندما يعتريه التعب ينقلها من قرن إلى القرن الآخر ، فتحدث الهزّة الأرضية التى يحس بها الناس ، ويسمونها بالزلازل ؟! أم أخبرهم أنه رأى نجوماً بعدد البشر ، وأن لكل إنسان نجماً ، كُتبَ عليه اسمه ، « ومَنْ مات سقط نجمه ، واختفى اسمه » ؟! أو ربما قال لهم إنه شاهد القنفد يتكلم ، ويحدث الناس بالماضى ، وينبئهم بالمستقبل .. ما كان وما سيكون ؟! أو إنه رأى بنفسه قطاً له سبعة أرواح ، يرتطم بالأرض في عنف شديد « فتخرج» روح من أرواحه السبعة لكنه ينهض سليماً معافي !

ترُى لو قُدِّرَ لهذا الرجل أن يبُعث فينا من جديد ، أكان الناس

يكذّبونه لو روى لهم تلك الأحاديث التى نسميها « بالخرافة » نسبة إليه ؟! أم أنهم كانوا يتقبلونها ، ببساطة شديدة ، بوصفها «حقائق » معروفة ، وأحاديث معادة ليس فيها «جديد» ؟! أيعنى ذلك أن الأجداد كانوا أشد وعياً ، وأكثر تقدماً من أحفادهم ، فرفضوا فى إصرار ما قبله هؤلاء بتسليم ، وإذعان ؟!

الحق أن المرء ليعجب أشد العجب ، عندما يقرأ أن القدماء جعلوا من « خرافة» أضحوكة ومثلاً ، فى الوقت الذى نسلم فيه نحن بمئات ، بل بالآلاف من «الخرافات» التى تعشش فى صدور الناس ، على نحوٍ جعل اقتلاعها مرادفاً لانتزاع مبادئ وجودهم ، وقيم حياتهم .. ؟!

وتتجلى خطورة هذه الخرافات عندما نعرف أن التفكير الخرافى ، والأفكار الخرافية من أكثر الأنماط ، والاتجاهات الفكرية خطراً على سعادة الإنسان ، وتعطيلاً لنموه وتقدمه .. فى حين أن التفكير العلمى ، والأفكار العلمية التى تسير فى خط مضاد هى الدعامة التى أقام عليها الإنسان الحديث نهضته الراهنة !

وفئات الخرافات السارية فى مجتمعنا العربى تكاد لا تقع تحت حصر : فهناك مئات منها تدور حول موضوع الزواج ، ومئات أخرى حول الحمل والولادة والإنجاب ، وثالثة حول إنجاب البنين ، والمحافظة على حياتهم ، وحل مشكلات الأطفال . ورابعة حول مكانة المرأة « وبدقة أكثر حول موضوع التقليل من مكانة المرأة » . وخامسة حول التغذية ، والصحة والمرض ، والفأل ، والتطير ، والتنبؤ بالأحداث المقبلة ، أو تخفيف حدة الصدمات والآثار الضارة المترتبة علي أحداث بعينها ، أو حول الظواهر الطبيعية ، أو ظاهرة الموت أو الحسد أو الأرواح والأسياد ، أو حول الضيوف والأصدقاء ، أو الخلافات بين الخصوم .. إلخ إلخ .

ولقد قام الدكتوران نجيب إسكندر ، ورشدى فام ببحث تجريبى عن « التفكير الخرافى » جمعا فيه « عينة » من الخرافات الشائعة ، بلغ

عـددهـا مـا يـقـرب مـن ثلثمائة خـرافـة ! حتى أنهـمـا رقمـا هـذه الخـرافـات الكثيرة ؛ ليسـهل على القارئ متابعتها أثناء تفسيرهـا !

وسـوف أكتفى بأن أعـرض عليك « نماذج » من مـوضـوع واحد ، وهـو فئة الخرافات التى تدور حول الحيوان :

الـواقـع أن الحيوان كـمـا تدل على ذلك الدراسـات الإنثروبولوجـيـة ـ قـد اجتذب اهتمام الإنسان الأول منذ أقدم العصـور . ولقد كان للحيوان فى تفكير الإنسان ، وفى عقيدته مكانة خاصـة تشهد عليها عقيدة الطوطم الشهـيرة ، ولقد دارت حـول الحيوان خـرافات كـثيرة ، أحـياناً باعـتـبـاره رمـزاً للفأل الحسن كالخرافة التى تقـول : « أن دخـول العـصـفـور إلى البيت بـشـير خـير » ، أو الخـرافة التى تقـول : « إن السلحفاة فـى البيت بركة » ، وأن « لعب القط فى السـجـاد يعنى أن ضـيـفـاً سـوف يحـضـر لزيارة أهل الدار » .. إلخ إلخ . ويفسر المؤلفان الخـرافة الأولى بقولهما : « لعل فى صـغـر حجم العصـفـور ، وجمال منظره ، وصـوته ، وارتباطه بالخـضـرة ، والأشـجـار مـا يوحى بالطـمأنينة مما يفسـر لنا الأصل فى هذه الخـرافة» ! أمـا السلحـفـاة فربما رجـعـت «البـركـة » إلى استكـانتهـا وطول عـمـرهـا. فـمن المعروف أنهـا من الحـيوانات المعمّرة التى قـد يبلغ عمـرهـا المديد ثلثلمـائة سنة ! أما لعب القط ، وحـضـور الضـيوف ، فـقد يصعب تخـمين منشأ هـذه الخـرافة ، وإن كان من اليـسير توضـيح سر استـمرارهـا ، فإذا كـان حـضـور الضـيوف أمـراً مألوفاً ، فـاحـتـمال الربط بين هذه الظاهرة وبين حـضـورهـم كبيـر ، ممـا يسـاعـد على تدعيم هـذه الخـرافـة ! لكن مـن الطيـور أيضـاً مـا تروى الخـرافـات أنه نذير شـؤم ، فهناك خـرافة تقـول : « إن نعيق البـوم يجلب المصائب» ، والتـشـاؤم من البوم ونعـيقه مرجـعه إلى فكرة خرافيـة شائعة تقول : إن البـوم يسبب الكوارث فى الأماكن التى يحل فيها . وأغلب الظن أنها ترجع فى الأصل

إلى أن البوم يقطن الأماكن الخَرِبَةَ المعزولة عن الناس ، والخالية من العمران(١) ، ولهذا اتخذ منه أهل الشرق رمزاً للخراب ، والدمار ، فى حين اتخذ منه الغرب ، للسبب نفسه رمزاً للحكمة ، والصمت ، والهدوء ، والاستغراق فى التأمل ، والتفكير !. لكن الواقع أن «البوم» لا يأوى إلى الأماكن الخربة حباً فى الشر ، كما يقول الشرقيون ، ولا حباً فى التأمل ، والتفكير كما يقول الغربيون ، وإنما المسألة ترجع إلى سبب « بيولوچى» هو أنه يتعذر على البوم الرؤية الواضحة بالنهار ، فيختبئ فى الخرائب ، ولكنه يرى جيداً فى الليل ، فيصحو ؛ ليصيد غذاءه من الحيوانات الصغيرة مثل الفئران ، ولما كان من الطيور غير الأليفة ، وغير المألوفة أيضاً ، فإنه يختفى بالنهار ، ويظهر بالليل ، وينعق بالليل عندما يكون بعيداً عن الأعين ، فيحيط به لون من الغموض . لذا فقد أصبح صوته ـ وهو رمز وجوده ـ نزير سوء ! وقريب من ذلك ما تقوله خرافة أخرى : « كلما عوى الكلب ، كان ذلك نذيراً بموت إنسان ! » ، وربما كان السر فى ذلك يرجع إلى التشابه بين صوت الكلب وهو يعوى وبين نواح بعض النسوة ، خاصةً العجائز عندما يموت لهن عزيز !

ومن الخرافات التى تدور حول الحيوان أيضاً ما هو محايد ، فلا تجعل من الحيوان بشير خير ولا نذير سوء كالخرافة التى سبق أن ذكرناها ، والتى تقول : إن ثوراً هائلاً هو الذى يحمل الأرض على قرنه ، وإن الهزّة الأرضية ترجع إلى انتقال الأرض من قرن إلى قرن آخر ، ولا شك أن هذه الخرافة تقوم بدور « هام » ، فهى تطمئن الإنسان إلى أنّ الهزّة الأرضية موقوتة ، ومن ثَمّ فلا خوف منها !

وقل مثل ذلك فى الخرافة التى تقول : إن للقط سبعة أرواح ، فهى

---

(١) وكما يقول الشاعر :

أيا بومةً قد عشّشَتْ فوق هامتى ... على الرَّغم منّى حين طار غُرابُها

رأيتِ خرابَ العُمرِ منّى فزُرْتِنى ... ومأواكِ من كلِّ الدِّيارِ خَرابُها

ترجع فى الأعم الأغلب إلى أن حركة القط تبلغ درجة كبيرة من المرونة ، بحيث يستطيع أن يتكيف سريعاً مع الصدمات فى حوادث الارتطام على نحو يفوق تصورات الإنسان العادى ، وبذلك يتجنب القط التعرض لمخاطر قد تودى بحياته !

أما الخرافات التى تدور حول الإنسان وبيئته ، وخاصةً تلك التى تُروى عن السحر والأرواح والأسياد .. إلخ إلخ .. فلا نهاية لها ، وربما عدنا إليها مرة أخرى ؛ لنروى لك أنباء « خرافة» الحديث الذى يصدقه الناس فى مجتمعنا بغير شكٍ ، ولا تكذيب ! .

* * *

عين الحسود..!

دفع الباب ، فأطاع دون مقاومة ، ودخل متجهم الوجه ، عابس النفس ، يكاد يتميّز من الغيظ ، وما كدت أسالة عن سر غضبه حتى انفجر في ثورة عارمة :

ـ « صديقك فلان ! التقيت به الآن وأنا في طريقي إليك ـ اللهم سترك ! أنا لا أحب هذا الرجل ولا أطيق رؤيته ، ملعون هو وزوجه في الأرض وفي السماء !!

فهما من أكثر الناس نحساً وشراً !! زارني لأول مرة في يوم لا أنساه ، وكنت قد فرغت لتوي من تسلّم سيارتي الجديدة ، فوقف أمامها لا يريد أن يرفع عينه عنها ، نظراته الفولاذية جعلتني أرتعد ! وفي أول مرة أخرج بها ، بعد أن ذهب عني ، اصطدمت بشجرة ضخمة ، وأنا أتفادي رجلاً يعبر الطريق مسرعاً !

أما زوجته فهي بدورها لا تقل عنه سوءاً ، وكأنهما توأم شر ! زارتنا مرة وكان ولدي يذاكر دروسه استعداداً لأداء الامتحان في اليوم التالي ، وأبدت إعجابها بهمته ونشاطه ومثابرته ؛ فرسب فى الامتحان !!

وجاءتنا مرة أخري ، وقد أعجبها ـ فى هذه الزيارة ـ طفلى الصغير الذي لم يكمل عامه الثاني بعد ، فراحت تداعبه وتمتدح ظرفه ولطفه وشقاوته ، وما كادت تخرج حتي سمعنا صراخاً يهز جدران البيت ، وهممت مسرعاً لأجد الخادمة قد أغلقت الباب بعنف ـ دون قصد منها ـ علي سبابة الصغير اليمني فكسرتها تماماً ! وحملته إلي الطبيب ، وطال علاجه أشهراً ، ومازال حتي بعد أن التأم الجرح يمسك الأشياء بيده اليسري ! وقد يشب أعسر أيسر ، بسبب عين تلك المرأة اللعينة !!

وها أنذا ألتقي بهذا الرجل ذي العين المشئومة ولم يمض علي استلامي للسيارة الجديدة أسابيع قليلة ، ولست أدري ما الذي ينتظرني اليوم مما تجلبه عينه !

اطرقت صامتاً أتدبر ما يقول وأسأل نفسي : أيمكن لرجل مثقف أن يؤمن بمثل هذه التفسيرات الخرافية للظواهر .. ؟! وماذا عساه أن يكون هذا الضرب من تفسير الحوادث إنْ لم يكن خرافياً ؟! ألسنا نقول : إن التفسير العلمي للظاهرة المادية أن تربطها بظاهرة مادية أخري ربطاً يكون مطرداً ودائماً ، لا صدفة ولا اتفاقاً ، وأما غير ذلك فهو « حديث خرافة» ؟! وما الذي يوجد في « عين الحسود» بحيث يعطيها القدرة علي تحطيم سيارة أو كسر إصبع .. ؟! وتذكرت سيارة زميل لنا بالجامعة كانت تقف أمام الكلية ، وقد علّق عليها « حدوة حصان » ! ولما أبديت له ملاحظتي تبسم ضاحكاً وهو يقول : ألم تسمع المثل الشعبي الذي يقول : « أن العين فلقتْ الحجر ..؟! » أيمكن أن يحدث لمثقف انفصام للشخصية علي هذا النحو المزري ؟! أيمكن أن تكون ثقافته وعلمه في وادٍ ، ومعتقداته وطرق تفكيره وأسلوبه في الحياة في وادٍ آخر .. ؟!

وأفقت من تأملاتي علي صوت صديقي يقول غاضباً .

- ماذا دهاك ؟! ألم تسمع هذا الذي قصصته عليك ؟!

أجبته :

- بلي ! لكني أعجب ، كيف يمكن لمثقف مثلك أن يؤمن بهذه المعتقدات الخرافية ؟!

فازداد غضبه واستدار ، وهو يلوي عنقه من فرط الغضب ليقول :

- ماذا ؟! أكفرت بالذي خلقك .. ؟! ألم تقرأ قوله تعالي : ﴿ أم يحسدون الناس علي ما أتاهم الله من فضله ﴾ (٥٤ النساء) ألم يطلب منا أن نستعيذ به ﴿ من شر حاسد إذا حسد ﴾ (٥الفلق) أفأنت تنكر الحسد بعد ذلك كله ؟! هذا ، إذن ، فراق بيني وبينك ! وخرج كما جاء متجهم الوجه ، عابس النفس ، يكاد يتميّز من الغيظ !!

والحق أن صديقي لم يستطع معي صبراً لأقول له : إنني لا أنكر « وجود الحسد» لكني أنكر فهمه له !! الحسد موجود ، هذا الأمر لا شك فيه ، لكن المشكلة في تفسيره ، ما المعني الذي يقصده هو نفسه وما يفهمه الناس ، عادةً من الحسد ؟! علينا أولاً ، وقبل كل شئ ، نعود إلي قواميس اللغة ومعاجمها ؛ لنعرف ما المقصود بالحسد .

يقول ابن منظور فى لسان العرب ص ١٤٨ من المجلد الثالث : « الحسد أن تتمنى زوال نعمة المحسود ، قال عليه السلام : « لا حسد إلا فى اثنين رجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار ، ورجل أتاه الله قرآنا فهو يتلوه .. » .

والحسد « أن يري الرجل لأخيه نعمة فيتمني أن تزول عنه ، وتكون له دونه ، والغبط أن يتمني أن يكون له مثلها ، ولا يتمني زوالها عنه »

وفي المعجم الوسيط المجلد الأول ص ١٧٢ « حسد حسداً : تمني أن تتحول إليه نعمته أو أن يسلبها ، ويقال حسده النعمة ، وحسده عليها وتحاسدا : حسد كل منهما الآخر ، وفي الحديث : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ..... » والحسود مَنْ طبعه الحسد ذكراً كان أو أنثي»

هذا هو المعني الموجود في قواميس اللغة .

الحسد أن تتمني لغيرك زوال النعمة ! أو أن يذهب عنه ماالديه من خيرات ونعمَ . ترى الرجل وقد أصبح يمتلك بناية شاهقة ، فتتمنى أن تنهدم علَي رأسه ! أو تراه وقد اشتري سيارة جديدة ، « فتتمني » أن تتحطم وتصبح رماداً ..! أو حتي يرتدي زياً جديداً ، فتودّ لو عثرت قدمه فسقط في الوحل .. إلخ .. إلخ هذا هو الحسد كما نفهمه من اللغة ، وكما يقصده القرآن الكريم ، وكما هو موجود بالفعل ، لون من الحقد ، وضرب من تمني الشر للآخرين ، وهو يختلف أتمّ الاختلاف عما يفهمه الكثيرون من الحسد ، ويحمّلون آيات الكتاب الكريم خرافاتهم وسوء فهمهم !

ذلك لأن المسافة واسعة بين « التمني» و« التحقق بالفعل» ، وفي هذه المسافة وحدها تكمن الخرافة !! القرآن الكريم يتحدث عن الحالة الأولي : أن تتمني لغيرك زوال النعمة . نوايا وأمنيات شريرة عند بعض الناس ـ أما التفسير الخاطئ فهو يجعل هذا « التمني» يتحقق بالفعل ، ويخرج النوايا الى حيز الوجود الفعلي ! ولكي نزيد الأمر وضوحاً ، علينا أن نأخذ حالة مضادة لشخص لا يتمنى زوال نعمة شخص آخر ، بل على العكس يتمنى له أو لنفسه كثرة من الخيرات و النعم ، فأنا أتمني لك مثلاً ، أن تكون مليونيراً ، أو أن تمتلك بناية من عشرين طابقاً ، أو أن تكون وزيراً ، أو أن يتقدم ولدك الصفوف في جميع مراحل التعليم .. إلخ إلخ .

أيمكن أن أقول لك : إنه بنظرة عين مني أصبحتَ مليونيراً ؟ . أيمكن بنظرة عين منك أو من غيرك أن يصبح لك ما تمنيت ؟! افرض أنني قلت لك : إنني تمنيت أن يكون عندي سيارة ، ولقد حقق لي صديقي فلان هذه الأمنية بنظرة من عينه السحرية ـ أيمكن لك أن تقبل مثل هذا الكلام ، أو أن تقتنع به ولو أقسمت لك أغلظ الأيمان ؟! كلاً ! بالطبع! فلماذا نقول إذن : إن فلاناً حين يتمني أن تزول بنايتك ، أو أن تتحطم سيارتك كان له ما تمني بطرفة عين حاسدة ؟! كلاً ! لا يمكن أن يكون في استطاعة « العين » أن تفني الأشياء أو أن تعدمها ، كما لا يمكن لها أن توجدها ، ولا دخل للقرآن الكريم في الحسد كما يفهمه الناس عادة ، حين يحمّلون الآيات أكثر مما تحتمل ! ذلك لأن ما يعنيه هو ضرب من الحقد الأسود ، الحقد الشرير الذي لا يكتفي الحاسد فيه بأن يغبطك ، أعني أن يتمني أن يكون مثلك ، بل يود أن يزول ما عندك من خيرات ! لكن القرآن الكريم لم يقل : إنه بهذا « التمني» وحده يزول ما عندك بالفعل ! انظر إلي هذه الآية الكريمة : ﴿ ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبيّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفحوا .. ﴾ (١٠٩ البقرة) تمني كثير من اليهود والنصاري أن يردوا المسلمين إلي الكفر حسداً منهم ، ولكن هذا التمني لن يتحقق فاعفوا عنهم ..!

بقي أن نسأل : إذن ، من أين جاءت فكرة « العين» كما يفهمها الناس ؟! يقول لنا علماء النفس : إن الفكرة جاءت عن طريق التربية ، فقد ترسبت في أذهاننا منذ أن كنا أطفالاً ، وظلت تعمل في اللاشعور كجزء من تكوين الفرد ! ذلك أن الأب قد يوجد في موقف يريد أن يعاقب فيه طفله ؛ لأنه ارتكب شيئاً من الخطأ ، لكنه لا يريد أن يضربه لسبب ما « وجود ضيف ، أو لأنه مرهق ، أو لأن الأمر لا يستحق الضرب وإن كان جديراً بالعقاب » فيكتفي الأب أن ينظر إلي ابنه نظرة ذات معني ، أو يحملق فيه بعين واسعة ، أو يضربه « بالعين الحمراء » كما نقول أحياناً ، فتحدث هذه العين أثرها السحرى في الطفل ؛ لأن العين الواسعة أو الحمراء هذه « تضرب» الطفل بالفعل ، أو هي تؤذيه حقاً وكأنها سوط عذاب ! ومن هنا يشب الطفل وهو يخشي هذه العين ، ويعتقد أنها تصدر إشعاعات تؤذي أو شراً يصيب الناس والأشياء بما يود الحاسد ، ويتمني ! وكما لو كانت هناك موجات كهربائية تخرج من العين « تلسع» أو « تكهرب» . ومن هنا ظهر التعبير الشائع الذي يقال للوقاية من الحسد وهو « امسك الخشب » ؛ لأن الخشب ردئ التوصيل للكهرباء أو هو موصل سيئ للحرارة عموماً ، فكأنه «عازل » إذا أمسكت به ، وأنت تحسد فإنه سوف يمتص ما يخرج من عينيك من إشعاعات وموجات وشرر ، فلن يصيب من تحسده !! وكما أنك تحمي وجهك أحياناً بأن ترفع يدك وتضع « كفك» ؛ لتصد أشعة الشمس الحارقة أو تحمى رأسك من ضربة عصا ، فكذلك يمكن أن تكون « الكف» مانعة لأشعة « الحسد» ، ولذلك كثيراً ما ترسم علي الدور ، أو تعلّق عليها ، وكذلك أيضاً ظهر العدد «خمسة» ومشتقاته كوقاية من الحسد ، لأن الكفّ تحوى خمسة أصابع !!

هذا هو التفسير الصحيح يا صديقي لـ « عين الحسود» ولا دخل لآيات الكتاب الكريم بما نفهمه نحن من هذه الظاهرة ، أتراني قد أقنعتك؟ وهل تعود إليّ هذه المرة باسم الوجه راضي النفس ..؟! أتمني ! وأرجو منك أن تحقق لى هذا التمنى فى « طرفة عين» .. !!

تماثيل .. وتماثيل !!

كان الرجل يروى للقوم ، فى شئ من الحسرة الممزوجة بالدهشة والألم ، مشكلة يراها بالغة الغرابة ، مرَّ بها هذا الصيف ، وهو يجتاز حدود إحدى الدول الإسلامية ، خلاصتها أنه كان يحمل معه مجموعة من « التماثيل» الصغيرة التى يعتبرها قمة فى الجمال ، والفن ، والذوق الرفيع ! لكنّ موظف الجمارك كان له رأي مخالف ، فقد اعتبرها « أصناماً » تستحق التحطيم ، واتخذ قراره بالفعل ، وحكم عليها بالإعدام ، ومن ثَمَّ فقد راح يمسك بالتمثال الصغير ويضربه فى حديد المبنى فيحيله رماداً وهو يكبّر : « الله أكبر !!» ، ثم يعود إلى تمثال آخر ليحطمه بنفس الطريقة ، وهو يهلل « جاء الحق ... ! » ..

وهكذا راح يحطم التماثيل واحداً .. إثر الآخر ، وكأنه يجدد يوم الفتح العظيم .. ! ! وتوقف الرجل لحظة عن رواية قصته عندما انقطع التيارالكهربائى فجأةٍ ، وتوقف التليفزيون عن بث برامجه .

وحَمَدَ الجالسون الله كثيراً أولاً : لأن الجو قد ساعدهم على مواصلة الاستماع إلى رواية الصديق عن « التماثيل» الجميلة التى ما زال يتحسر عليها ، كما سمح بإدارة نقاش فى جو هادئ ، حول هذه « القضية الهامة» ، وثانياً : لأننا كنا لا نزال فى وضح النهار ، فضلاً عن أنه ليس فى البرامج التليفزيونية التى توقفت شئ يؤسف عليه .. وهكذا انخرط الفريقان فى نقاشٍ حاد .

قال قائل منهم ، وهو يعبث بمسبحته : بالطبع ، هذه مسألة لاشك فيها : التماثيل حرام من جميع الوجوه ، فقاطعه شخص آخر قائلاً :

- وما الذى جعلك تجزم ، بأنها حرام ، فى حسم قاطع على هذا النحو .. ؟!

- لأنها أصنام ، وعبادة الأصنام رجس من عمل الشيطان علينا أن نجتنبه ، بل قُل : إنها كفر صريح والعياذ بالله .. ! ثم راح يتمتم : « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام » .

ـ أرجو أن نتحدث بهدوء وبلا انفعال : هل كل تمثال صنم ؟ ! وما رأيك فى التماثيل المتناثرة ؟! أهى معبودات تقام لها الاحتفالات ، وتقدم إليها القرابين تقرباً وزلفا ؟! أعندما أقام المصريون تماثيل لسعد زغلول أو إبراهيم باشا أو أحمد شوقى ... أكانوا يفعلون ذلك لعبادتهم : هل هذا حديث رجل عاقل ؟!

ـ صحيح أن هذه التماثيل أُقيمت لتخليد قادة ، أو أعمال ، أو مواقف معينة ـ لكن مَنْ ذا الذى يضمن لك ألا تتحول فى مستقبل الأيام إلى « معبودات» .. و«أصنام» .. كيف نضمن أن الناس لن يحيلوها ـ هى أو غيرها ـ إلى « اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » أليست الوقاية خيراً من العلاج ؟! أليس من الأفضل أن نبتعد عن مزالق الخطر فنحرم نحت التماثيل أصلاً ، ونقضى على المشكلة فى مهدها ؟ ! .

ـ لا ضامن ولا عاصم سوى ثقافة الناس ، وتحضرهم ، وتقدمهم ، وارتفاع مستوى عقائدهم وإيمانهم .

ـ فقاطعه وحبات المسبحة تجرى مسرعة فى يده ، وكأنه يستحثها أن تسعفه بردود مفحمة .

ـ أليس الأجدر والأوفق إذن أن نبعد الناس عن مكان الشر فنحطم التماثيل القائمة خشية تحولها إلى أصنام تُعبد ؟ وأن نمنع ، بل ونحرّم صناعة التماثيل أياً كان نوعها .. ؟! فأجاب وعلامات الدهشة ترتسم على وجهه :ـ

ـ لو أننا طبقنا هذا المعيار الغريب لحرّمنا أعواد الثقاب ، ومنعنا إنتاجها لأنها كثيراً ما تتحول إلى حرائق هائلة ، ولرفضنا استخدام الغاز والكهرباء .. إلخ .. لما تسببه أحياناً من كوارث ، ولقتلنا المرأة خشيةً أن يرتكب الرجل معها فسقاً . وهكذا . وهكذا ..

ـ هذا قياس ، مع الفارق فإذا كانت النار تنفع الناس من ناحية ، وتذكرهم بعذاب السعير من ناحية أخرى ، وتجعلهم يتعظون من

ناحية ثالثة ـ فإن التماثيل لا فائدة منها ، وتوقف يلتقط أنفاسه ، وتوقفتْ معه حبّات المسبحة عن التدفق المسرع ، وبدأت تهبط متثاقلة ، ثم استطرد قائلاً :

ـ ثم إن صناعة التماثيل التى يمكن أن تتحول إلى أصنام حرام من زاوية أخرى . فعملية النحت و« تجسيد » إنسان فى حجر محاولة للتشبه بعملية الخلق ، ومن ثُم فإن الفنان الذى يقيم تمثالاً لإنسان ما يحاول محاكاة الخالق ، جلَّ وعلا ، فى خلقه للبشر !!

فأجاب الآخر في هدوء وثبات :ـ

ـ لابدُ أن تعلم يا سيدى أن وجود صفات مشتركة بين الله والإنسان مسألة أساسية ، ولا يجادل فيها أحد :

وهى تبدأ من صفات الوجود : فالله موجود والإنسان موجود وهكذا ، إلى صفات العلم ، والقدرة ، والوعى ، والعقل ، والإرادة .. إلخ .. إلخ .. لكن الفارق هائل بين الوجود الإلهى الدائم الذى لا يغيب لحظة واحدة والوجود البشرى الفانى العابر الذى يدوم لفترة محدودة ، وكذلك بين العلم الإلهى الشامل وعلم الإنسان المحدود ، وقدرة الله على كل شئ ، وقدرة الإنسان على أشياء بعينها .. إلخ .. إلخ .

وعاد التيار الكهربائى فجأةً كما انقطع فجأةً ، وبدأ التليفزيون يبث « برامجه من جديد » ، لكنا لم نتبين على وجه اليقين ، أهو برنامج ذلك الذى يذيعه أم أنها «أحداث الأسبوع » ، أو « نشرة الأخبار» .. لأن المذيع بدا عابساً متجهماً وهو يقول:

« أعلن راديو العدو الإسرائيلى أن إسرائيل أطلقت أول قمر صناعى لها إلى الفضاء الخارجى ، وهو الذى أطلقت عليه اسم « أفق ١ » وصرّح إسحاق شامير « رئيس الوزراء الإسرائيلى » بأن إطلاق القمر الصناعى يعتبر إنجازاً تكنولوجياً عظيماً وأن عدداً قليلاً من الدول هى القادرة على إطلاق قمر صناعى مماثل !! واستطرد المذيع العابس يقول : هذا وقد صرح البروفيسور كوهين بأن إطلاق القمر الصناعى

الإسـرائيلى يعـتـبـر خطوة هامـة جداً فى مـجـال الصناعـة والتطور التكنولوجى الإسرائيلى ، إذ سوف تصـبح إسـرائيل فـى المسـتـقـبل صانـعة وبائعة للأقمار الصناعية !! وذكر خبراء إسرائيلون أن إطلاق القـمر « أفـق ١ » سوف يفـتح المجال أمام إسرائيل لاسـتـخدام الفضاء الخارجى لأغراض عسكرية ، ويشكل عنصراً إستراتيجياً جديداً فى الصراع العربى الإسرائيلى ، وأكدوا أن نجاح إطلاق هذا القمر الصناعى يعنى فـى المسـتـقبل أقـماراً صناعـيـة للتجـسس ، قادرة على نقل معلومات « فورية» ، كما أشار المراسل العسكرى لصحيفة هارتس المستـقلة !! هذا وتؤكد معلومات القاهرة وخاصة المعلومات المطروحة للتداول فى أكاديمية ناصر العسكرية ، أن إسرائيل تمكنت من بناء قاعدة تكنولوجية متقدمة لصناعة الصواريخ والإلكترونيات تسمح لها بإطلاق الأقـمار الصناعـيـة للأغـراض العسكرية والسلمية على السواء !! » .

ثم اختفى المذيع لحظة عاد بعدها إلى الظهور على الشاشة الصغيرة ليقدم أغنية: « أمجاد يا عرب أمجاد .. !! » .

نهضتُ واقفاً وأنا أقول :آن لى الآن أن أذهب فقد بدأ يحل الظلام .. !!

فقال قائل : لكنا لم ننته بعد من مشكلة « التماثيل » ؟! فتساءلتُ فى صدق: أى تماثيل تعنى .. ؟!

* * *

العروبة : إعادة نظر !

عجيب أمر هذه الأمة العربية ! فهى أمة واحدة تربطها روابط لا حصر لها من اللغة ، والدين ، والقيم ، والعادات ، والتقاليد ، والتاريخ ، والألم ، والمعاناة .. إلخ إلخ حتى مشكلاتها تكاد تكون واحدة ! ومع ذلك فالاختلافات والمشاحنات والانقسامات بين أبنائها لا تهدأ إلا لفترات قليلة متقطعة ! ونيران الفتن والدسائس بينهم لا تخبو إلا لتشتعل من جديد ! كانوا على هذا النحو منذ كانت الأمة قبائل متنافرة ، تقوم القبيلة بالإغارة على جارتها ، وتسلب ممتلكاتها ، وتنهب ثرواتها ، وتقتل أبناءها لخلافات قد تكون بالغة الضآلة ، دون احترام للجار أو لحقوقه إلا فى فترات «الهدنة» أو السلم القليلة المتقطعة ..! حتى جاء الرسول العظيم ـ ﷺ ـ ليصرخ فيهم « الجار .. ! الجار .. ! » ، وليقول فى حديث شريف : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ! كذلك يوصى القرآن الكريم بالجار القريب ، فله عليك حق الجوار وحق القرابة ، « والجار الجُنب » أى الجار الأجنبى الذى لا قرابة بينك وبينه ! إلى هذا الحد كان الإسلام يدعو إلى العناية بالجار ، ورعاية حقوقه وصيانتها حتى ولو كان الجار السابع ، أى مهما بعدت المسافة بينك وبينه !

ومع ذلك كله فما زالت عادة التشاحن والاختلاف لحد القتال تطل برأسها بين الحين والحين فى العصر الحاضر !

ولو أنك ألقيت نظرة سريعة على خارطة الأمة العربية من المحيط إلى الخليج لما وجدت دولتين جارتين عاشتا فى سلام دائم أبداً ، وإنما ستجد العكس ، أعنى أن فترات الاختلاف والاقتتال بينهما كانت أطول من فترات الهدنة والسلام والوئام !

لكن هذه المشاحنات اتخذت فى القرن العشرين مظهراً « حضارياً ،

تقدمياً » فهى تبدأ من وسائل الإعلام التى يكون لها نصيب الأسد فى ميزانية كثير من هذه الدول ، وتنطلق الصحافة المحلية فى نقد النظام الحاكم للدولة المجاورة ، وتتخذ الخلافات صورة المقالات الصحفية المتبادلة فى نقد الأنظمة ، ثم تتحول إلى قذائف من الشتائم ، وألوان من السباب الموجه إلى الحكومات فى البداية ، ثم رؤساء الدول بعد ذلك ! وعندما تشتد المعركة لا تكفى الشتائم ، وإنما تشترك الإذاعة ـ وهى عادةً ترصد لها ميزانية ضخمة ؛ لتقوية أجهزة البث ومحطات التشويش فى آن معاً ! ثم تتصاعد المعركة فتتحول الشتائم إلى تهديد ووعيد ، وكثيراً ما يتحقق التهديد على أرض الواقع بالدعوة إلى حمل السلاح !

انظر إلى خارطة الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها تجد الخلاف يشتد بين المغرب والجزائر حتى يصل إلى قمته بحمل السلاح ! كذلك تتصاعد الحملات الإعلامية بين تونس وليبيا إلى حد القطيعة ! وبين ليبيا ومصر إلى حد حمل السلاح ! كذلك بين سوريا ولبنان ، وبين العراق وسوريا ! حتى يصل إلى قمة المأساة باجتياح العراق للكويت مما ترتب عليه انتهاك شرعيتها واستقلالها ، وتعذيب أهلها ، وتدمير مؤسساتها ، وإشعال آبارها النفطية .. إلخ إلخ .. مما يجعل السؤال يلح عليك فى وطأة ضاغطة : ألم يؤثر الإسلام ـ آيات الكتاب الكريم ، وأحاديث الرسول العظيم ـ في هؤلاء القوم أدنى تأثير ؟! أما زالت الأمة العربية تحمل بين جوانحها أخلاق القبائل التى عاشت فى الجاهلية الأولى ؟ وإلاّ فأين هى أخلاق الإسلام من سلوك هؤلاء الناس ؟ ! أين المحبة والإخاء والتعاون ، والبنيان المرصوص والجسم الواحد ؟ أين الصدق ، والأمانة ، والإخاء « والمسلم للمسلم» .. إلى آخر هذه الصفات الرفيعة ؟ أين الجار وحقوقه ورعايته ؟!

وسط هذا الخضم الهائل من الأسئلة ، وألوان الحيرة التى تعصف بالمواطن العربى إبان الأزمات العنيفة ، يعاد طرح فكرة العروبة

نفسها ، وتكون موضعاً للتشكيك : مالنا ولهذه الأمة العجيبة المليئة بالمتناقضات ؟! أليس ما حدث لنا من مصائب ونكبات كان بسببها ؟! صدّقنا ما سمعناه عن الأشقاء والإخوة ، والنخوة العربية فعشنا مطمئنين ، وكان ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أننا نعيش وسط ذئاب جائعة ، متربصة ، لا أمان ولا أخلاق لها ! لماذا لا ننسلخ ، بطريقة أو بأخرى عن هؤلاء القوم ، ونبحث لنا عن انتماء جديد ؟! فلنكن أسيويين ، أو إفريقيين ، أو من سكان البحر الأبيض ، أو فلنكن مسلمين وكفى ! وهكذا توضع العروبة موضع الشك كما تظهر ضرورة المطالبة بإعادة النظر فى موقعنا من فكرة « العروبة» وانتمائنا إليها، أو الدعوة إلى التقوقع على أنفسنا بعيداً عن هؤلاء القوم .. إلخ إلخ !

وهذه التساؤلات كلها ليست سوي ردود أفعال للأحداث المؤلمة التى تمر بها هذه الدولة أو تلك نتيجة لسلوك جارتها غير المتوقع .. إلخ ، ومن هنا تأتى أهمية إثارة هذا الموضوع لنقول بوضوح ـ منذ البداية ـ : إنه ينبغى ألا تطرح عروبة العربى للمزاد بالغاً ما بلغت فى فكرة « العروبة» ، ولا مراجعة هذه الفكرة أو طرحها للنقاش فذلك كله جهد ضائع ، لأن العروبة ليست قراراً سياسياً فى استطاعة هذه الدولة أو تلك أن تصدره ، بل هى مركب ثقافى يعيشه المواطن فى حياته اليومية ، ولا يستطيع العربى نفسه أن ينسلخ عنه إذا أراد ، أو أن يعيده إليه إذا أراد ... لا ... ليست عروبة العربى قميصاً يلبسه إذا شاء ، ويخلعه إذا شاء .. بل هى مجموعة من الخصائص توشك أن تبلغ منه ما يبلغه لون الجلد والعينين .. فهى مجموعة من القيم ، والعادات ، والتقاليد ، وطرائق النظر يتداخل بعضها فى بعض ، تداخل الخيوط فى قطعة النسيج ؛ كى تكون هذه الخصائص ، فى النهاية هوية العربى : إنها ثقافته وتراثه وتاريخه ، وليس فى استطاعته أن

ينسلخ عنها ، ولو أنه حاول فسوف يقوم بعمل يائس ، سيكون كمن يقفز مسرعاً محاولاً أن يتخلص من ظله !

وإذا كنا نقول أحياناً : إن اللغة من بين هذه الخصائص الكثيرة فإننا لا نعنى بذلك أن تكون اللغة العربية هى لغة العربى فى الحديث والكتابة ، لأن المستشرق الذى درس اللغة العربية قد يتكلمها ويكتبها ، ومع ذلك فإننا لا ندرجه من بين أبناء العروبة ، لأن اللغة قد درست من الظهر ، أو من السطح ، كما تدرس الرموز الرياضية ، لكنها لم تنغرس فى دارسها حبّةً تَنْمُ بداخله ، فيحمل كل خصائصها ! فالشاب العربى المعاصر الذى يريد أن يكون شاعراً لابدّ له من دراسة بحور الشعر ، كما وضعها الخليل بن أحمد ، اعنى أنه لابدّ له من مراعاة قواعد العروض ، أو العلم الخاص بمعرفة أوزان الشعر العربى ، يأخذ عنهم ، ويحتذى بهم ، فهم المثل العليا فى ميدانه : فالشاعر الشامى أو المغربى ، العراقى أو الكويتى ، المصرى أو اليمنى ، السودانى أو السعودى .. إلخ لابدّ له من دراسة المعلقات السبع ، ومن استلهام قصائد أبى تمام ، والبحترى ، وأبى الطيب المتنبى ، وابن الرومى .. إلخ إلخ ، « فالمعلقات» ، وقصائد فحول الشعراء توحّد بين العربى المعاصر أينما كان ؛ لأنها تمثل جذوره التى لا يستطيع أن يقلعها ، أو يتخلى عنها إلا إذا أسقط هويته نفسها ! وإذا أراد العربى المعاصر أن يكون أديباً فلا بدّ له أن يدرس التراث الأدبى القديم ، وأن يقرأ سيبويه ، ويحذو حذو الجاحظ ، وابن المقفع ، والأصفهانى ، وأبى حيان التوحيدى ، والثعالبى ... وغيرهم .

والمواطن العربى أينما كان مسقط رأسه يفاخر بالكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن خلدون .. وغيرهم من الفلاسفة ، وكذلك ابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والخوارزمى ، والرازى وغيرهم من العلماء .. ومعنى ذلك أننا عندما نقول : إن «العروبة» نمط ثقافى

تجد اللغة فى مقدمة عناصره ، فإننا نقصد بذلك إلى ما هو أعمق من مجرد عملية التفاهم بلغة معينة ، فضلاً عن أن خصائص اللغة تكون هى نفسها خصائص أصحابها أى أن أبناء العروبة على إمتداد الوطن العربى الكبير ، قد جاءوا فى طرائق النظر على غرار ما تتميز به لغتهم من صفات ، فالمشاركة فى لغة عربية واحدة تتضمن أن يكون المشاركون ذوى رؤية واحدة فى موقفهم من العالم ، ومن الحياة مما يبرر أن يعدّوا أمة واحدة ..

ولقد عرض أستاذنا الكبير الدكتور « زكى نجيب محمود » لهذا الموضوع الهام فى كثير من كتبه [راجع مثلاً « فى مفترق الطرق » ، « هموم المثقفين» ، « ثقافتنا فى مواجهة العصر » ... إلخ] . وانتهى إلى تحديد مجموعة من الخصائص العامة التى يتميز بها العربى عن غيره ، أينما كان مسقط رأسه ، وهى محاولة جديرة بالدراسة ، والتعمق ، والمناقشة .. وهو يرى أن أولى خصائص العروبة هى لغتها ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ويتحدث عن اللغة العربية فى شئ من التفصيل مقارنا بينها وبين اللغة الإنجليزية مبرزاً الاختلافات بين اللغتين من حيث تقسيم مفردات اللغة ـ فى العربية إلى أسر ، أسر ، ترتد كل منها الى الثلاثى الذى انبثقت منه ، بحيث يكفى للعربى أن يلمّ بالثلاثى مثل « ضرب» ، أو «كتب» ، ليكون على علم باستخراج المشتقات التى يريدها فى المناسبات المختلفة ـ وهو تقسيم لا وجود له فى اللغة الإنجليزية ، كذلك التقسيم الكمى إلى « مفرد » و« مثنى » و« جمع » فى حين أن اللغة الإنجليزية اكتفت بالمفرد والجمع فقط .. !

كما يذهب أستاذنا إلى أنه من خصائص العربى التى تجعله عربياً فى نظرته ، إيمانه بأن الحضارة الصحيحة إنما تُدار على محور الأخلاق « فجوهر» ، العروبة اعتقاد بأن الخالق يشاء ويأمر ، والمخلوق يطيع بغير سؤال .. هذا هو تعليل الإلزام الخلقى عند العربى أينما كان ، والمشاركة فى تعليل واحد للظاهرة الخلقية مبرر آخر لاعتبار

المشتركين أعضاء فى جماعة واحدة ، وهكذا تزداد الفكرة قوة بأن تلك الجماعة منتمية إلى قومية واحدة .

ومن خصائص العربى أيضاً طيرانه بخياله إلى اللامتناهى ، قافزاً من الواقع إلى ما وراءه، كما هو ظاهر فى الفن العربى ، فجانب كبير منه يتخذ شكل وحدات متكررة ، كالوحدات الزخرفية على جدران المساجد أو المشربيات ، فإذا ما انتهى الحائط ينتهى دور البصر ، ويأتى دور الخيال لأنه هو الذى سيكمل تسلسل الوحدات إلى ما لا نهاية « .. تلك طريقة للنظر خاصة بنا وتميزنا عن سوانا ، سواء أجاء مسقط رؤوسنا فى وادى النيل أم فى وادى دجلة ، أم فى الجزيرة العربية أم فى بلاد المغرب ، أم فى أرض اليمن .. »

وهناك خاصية خطيرة ، إن صحَّتْ ، وهى ميل العربى إلى التجريد دون الاهتمام بالأفراد من حيث هم أفراد فهو يقفز بسرعة من الأفراد الجزئية إلى تجريدها وتعميمها فى أنواع وأجناس ، فهو لا يهمه هذا الطائر المفرد الواقف هناك على ذلك الفرع من تلك الشجرة ، بل يكفيه أن يعرف الطائر فى عمومه من حيث هو نوع بأسره من الأحياء ربما كان السر فى زوال الأفراد ، أما ما يبقى فهو الأصول فى تجريدها وتعميمها .

وهذه النظرة خطيرة ، إذا ما طُبقّت فى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية ، لأنها تعنى أن العربى لا يهتم كثيرا « بالفرد» فهو زائل ، ولا قيمة له ، أما « الرؤوس» و«الذوات» التى لها بروز وارتفاع فهى وحدها ذات القيمة ! وهى نظرة يترتب عليها نتائج ، وآثار سياسية ، واجتماعية بعيدة المدي .. !!

لستُ أقول : أن هذه الخصائص هى التحليل الوحيد الصادق

لشخصية المواطن العربى ، لكننى أقول أنها ضرب من الدراسة لهذه الشخصية ، تكشف عن عناصر مشتركة كثيرة تبرر القول بأن العرب أعضاء فى جماعة قومية واحدة ، هى ما نسميه « بالعروبة» . هذه العروبة هى الوجود الثقافى المتميز للمواطن العربى ، وهى لا تمنح بقرار ، ولا تسحب بقرار .. !

* * *

نعم .. وحدّوها ... !

ألقى بجسده المنهك على مقعد وثير غاص فيه ، ثم تنفس الصعداء كمن أفاق من كابوس مرعب ، فقد قضى أياماً ، لا يُحسد عليها ، بين أروقة الوزارات والقنصليات ؛ ليستكمل دخول أبنائه مدارسهم بعد نقلتهم الجديدة ، التى تتم للمرة الثالثة ، إلى بلد عربى جديد !

قلتُ وأنا أداعبه :

ـ أهو تقدم العمر ، أم هموم الدنيا قد أثقلت ظهرك على هذا النحو الفاضح .. ؟!

ـ بل هى الدول العربية ومشاكلها !

ـ وما دخلك أنت بالدول العربية ومشاكلها ؟!

ـ ما دخلى ؟! ألستُ منها وبها ولها ؟!

ـ أدرى .. ! أدرى .. ! لكنى قصدت ما دخل مشكلاتك الحاضرة ، وهمومك البادية الآن ، بالدول العربية ومشكالها ؟! . شرد بذهنه بعيداً ثم قال :

تخيل معى أنك مصرى أعارتك دولتك للعمل بتونس لمدة عامين ، ثم ذهبت بعدها لمدة عامين أيضاً إلى الجزائر ، ثم انتقلت إلى العمل بالكويت ، وكان لك طفل واحد لا ثلاثة ولا أربعة ـ ترى كم من « الشهادات» يطلب منك إعتمادها وتوقيعها ، وكم قنصلية وزارة خارجية عليها تصديق شهاداتك ، ثم كم من «المعادلات» تحتاج إلى إجرائها لكى يلتحق ابنك بالمدرسة ؟! ثم افرض بعد ذلك كله أن لديك أربعة أطفال ـ أى أن عليك أن تقوم بجميع هذه الإجراءات مضاعفة أربع مرات !! ـ لو تخيلتَ ذلك كله لعرفتَ مصدر همومى ومتاعبى التى أثقلت ظهرى كما تقول !

قلتُ ، وأنا أحاول التخفيف عنه :

- هذه كلها أمور أصبحنا نألفها من كثرة ما اعتدنا عليها حتى خُيِّل إلينا أنها هى الوضع الطبيعى !

- لقد عملتُ فى أكثر من دولة عربية ، ولو أن هذه الدول العربية تكف عن المناداة بالوحدة من المحيط إلى الخليج ، لكان سلوكها أمراً مفهوماً ، إما أن تجند أجهزة الإعلام عندها ليل نهار ؛ لتنادى فى الإذاعة مرة ، وفى الصحف ألف مرة - بأننا أمة واحدة ، ودولة واحدة .. إلخ ، ثم لا تعمد إلى توحيد هذه الأمور البسيطة فهذا شئ لا يصدقه عاقل !

- أنت تعرف أن مسألة الوحدة ليست هينة ، ولا سيما الوحدة السياسية .

- يا أخى أ، نا لا أتحدث عن الوحدة السياسية التى عزَّت وأصبحت حلُماً يصعب تحقيقه ، لكنى أتحدث عن أمور بسيطة لا تكلف شيئاً ، فأنظمة التعليم العجيبة فى الدول العربية ، تختلف فيما بينها اختلافاً تكاد تشعر معه أنك انتقلت إلى وطن آخر: فها هنا شئ اسمه التعليم الإعدادى ، ونفس المرحلة تسمى فى بلد آخر باسم التعليم المتوسط ، وهناك التعليم الابتدائى ست سنوات وهنا أربع .. وهكذا وهكذا .. وهذه الاختلافات تصب كلها فوق رأسك ، إذ عليك أن تقوم بإجراء « معادلة» فى كل مرة ينتقل فيها عملك من بلد عربى إلى بلد آخر ، فتجد مَنْ يسأل ماذا «يساوى» الصف الثانى الإعدادى هناك فى المرحلة المتوسطة هنا ؟! والطفل فى الصف السادس الابتدائى إلى أين يذهب هنا ، والأول والثانى هنا ، وهناك .. وهكذا وهكذا ، مع أن هناك وزراء للتربية والتعليم فى جميع الدول العربية ، وهم يجتمعون وينفضّون ، ثم يجتمعون من جديد .. وهكذا دواليك فلمَ لا يوحدون مراحل التعليم فى الوطن العربى كله ؟! وماذا يكلفهم ذلك ؟ اللهم إلا إذا قلنا أنه يعزّ عليهم أن يرتاح المواطن العربى !

لا أظن المسألة على هذا النحو ، وربما كانت هناك صعوبات فنية .

ـ ما هى هذه الصعوبات الفنية ؟! ليست هناك صعوبة واحدة إن أرادوا حقاً توحيدها ! وحتى لو افترضنا وجود صعوبات . لمَ لا تدرس هذه الصعوبات وتُذلل إذا كان فى ذلك راحة المواطنين ؟! صدقنى إننى لا أفهم لماذا لا تلجأ الدول العربية إلى توحيد هذه المسائل التى لا تكلف شيئاً . ولا تضر الحكومات فى قليل أو كثير ، ولا ترهق الميزانية بعبء جديد ! إن أشدَّ ما يحزُّ فى نفسى أن نجد أموراً هى غاية فى البساطة ، لكنهم يصرّون على الاختلاف فيها ، وكأنهم لا يريدون لشعار الوحدة أن يتحقق أى قدر من التحقيق ! يريدون له أن يبقى مجرد « شعار» لا يتحول إلى واقع ! خذ مثلاً آخر : إنهم يرددون ليل نهار أننا سبقنا الغرب فى كثير من العلوم ، ومن أهمها علم الفلك ، وحساباته ، ومراصده ، وأن الإسلام يؤيد العلم ، ويبارك جهود العلماء ـ ثم تراهم بعد ذلك كله يستطلعون هلال رمضان بالعين المجردة فى كل عام .. ! وينتج عن ذلك خلط لا يقبله عاقل .. دول يبدأ العيد عندها اليوم ، وأخرى بدأ بالأمس ، وثالثة سوف يبدأ غداً أو بعد غد ! وذلك لأن بداية الصوم كانت خاضعة لنظر « الرائى» فى كل دولة .. ! أهذا أمر مقبول ؟! أيمكن أن تجد له تبريراً ، أى تبرير .. ؟! وماذا يضيرهم ، بالله عليك ، لو أنهم أخذوا بالحساب الفلكى ، فوحدوا بداية الشهر الكريم فى الدول العربية كلها ؟! أهذا يدخل أيضاً فى السياسة ويؤثر فى مقاعد الحكم ؟! خذ مثلاً أخيراً « العملات» هل يصدق أحد أن نكون فى وطن واحد ولا نستطيع أن نشترى صحيفة ، أو كتاباً ، أو مجلة إلا بعد الاطلاع على جدول العملات واستخدام الآلة الحاسبة فى التحويل من عملة إلى عملة ؟!

ـ وربما لهذه العملات أصول قومية فى كل بلد ، ولهذا يتمسك بها أهلها!

ـ أنا أتحداك أن تجد عملة واحدة مستخدمة فى أى دولة عربية ، ولها أصل عربى!! جميع العملات ، للأسف الشديد ، أجنبية !

ـ أصحيح هذا .. ؟!

ـ إليك الأمثلة حتى تتأكد بنفسك !

فى مصر والسودان يستخدمون « الجنيه» ، و«القرش» ، و« المليم ».
أما الجنيه Gine أو Cuinea فهو مأخوذ من اسم بلاد غينيا Guinea ، لأنه صنع لأول مرة فى القرن السابع عشر من ذهب كان يستخرج من مناجم تلك البلاد !

وأما «القرش» فهو مأخوذ من كلمة جرمانية بمعنى الكبير ، وأصل تلك الكلمة « جروشن ـ Groschen» ونطقت بعد ذلك « جروشى » ، ثم تسربت على ألسنة الترك فى البندقية ، التى كانت تتاجر معنا منذ القرن السابع عشر ، فتحولت من لفظ « جروشى » إلى «جرش» ثم تحولت فى الكتابة إلى «قرش» كما تكتب الآن !

ـ أما المليم فهى كلمة فرنسية ، بمعنى جزء من ألف Millieme أطلقت على العملة المعروفة بعد أن قُدِّر بمائة قرش ، وقُدِّر القرش بعشرة مليمات ، فأصبح الجنيه يحتوى على ألف مليم .

ـ أما الدينار Dinar فقد كان فى الأصل عملة فضية صغيرة تُستخدم فى روما القديمة Denarius ، ثم أصبح عملة ذهبية فى عهد الإمبراطورية الرومانية ، وهو الآن وحدة النقد فى الكويت ، والعراق ، والأردن ، وتونس ، ويوغسلافيا ..

ـ أما الدرهم .Drachma فهى مأخوذة من عملة مستخدمة الآن فى اليونان ، وهى « الدراخمة» !

ـ أم الريال Rial أو Riyal فهى كلمة مأخوذة من اللغة الأسبانية نقلاً عن اللاتينية ، ومعناه بتلك اللغة الملك أو السلطان Regal ، ثم تحولت الجيم إلى ياء ..!

ـ أما الليرة .. Lira فهى وحدة نقد إيطالية ، واللفظ مشتق من اللاتينية ، وهى نقد استعمل فى مدينة البندقية .. ! والغريب أنك لو

تأملت استخدام هذه العملة - الليرة - لوجدت عجباً .. ! إذ تجتمع دول عربية مع دول إسلامية ، مع دول لا هى عربية ولا هى إسلامية ، مع دولة العدو فى استخدام هذه الوحدة النقدية ! فالليرة هى وحدة النقد فى إيطاليا ولبنان وسوريا وتركيا وإسرائيل !!

- أيعنى ذلك أنه ليس عند العرب وحدة نقد عربية الأصل على الإطلاق ..؟!

- هناك عملة واحدة هى « الفَلس» بفتح الفاء لا كسرها - معناها فى الأصل « القشرة على ظهر السمكة » ! وهى الآن جزء من ألف من الدينار!

- لعل هناك عقبات اقتصادية كبيرة أمام توحيد هذه العملات ؟!

- أنا لا أفهم كثيراً فى الاقتصاد ، وربما كانت المسألة معقدة ، لكنى ضربت لك أمثلة بأمور لا تدخل فى السياسة ، ومن ثَّم فهى جديرة بالبحث فى توحيدها ، وتذليل العقبات أمام المواطن العربى ، الذى يحتاج إلى أن يحمل معه « محل صرافة» إن أراد أن يقوم بجولة فى الوطن العربى ! ثم هذه وغيرها لو توحدت ، فربما أحيت الأمل فى التوحيد السياسى الذى أصبح حلماً بعيد المنال .. ولقد حدث شئ من هذا القبيل « أعنى توحيد الأمور البسيطة» عندما وحدّوا الرتب والألقاب العسكرية فى أيام قلائل - لأنهم أرادوا - فأصبحت الآن ، على ما أعلم ، واحدة فى معظم الدول العربية !

شدّنى الحماس المتدفق الذى كان يتحدث به .. فجعلنى « أصادق » على ما يقول وأردد وراءه : نعم .. وَحِّدوها .. !!

* * *

رأيتُ فيما يرى النائم .. !

عدتُ ، بعد يوم طويل من العمل المضنى ، منهك القوى ، مشتتُ الفكر ، لا أريد من الدنيا سوى أن أنام قليلاً فيستريح الجسد المنهك لكن الطعام جاهز ، ولا بد من تناوله ، جلستُ أتناول طعامى ، وأنا أشاهد التليفزيون فهى عادة درجت عليها منذ سنوات ، حتى أضرب عصفورين بحجر واحد ! ـ ظهر المذيع وهو يرسم ابتسامة عريضة على وجهه ـ صحيح أنها مصطنعة ، لكنها ابتسامة على كل حال ، أفضل كثيراً من الوجه العابس الذى يصدك عن مشاهدته ، ويجبرك على أن تسرع فتغلق الجهاز ، وأنت تلعن مَنْ اخترعه !

أعلن المذيع المبتسم ، انعقاد مؤتمر القمة العربى ، وسط جو شديد التفاؤل بتحقيق أمانى الأمة العربية، التى تطلعتْ إليها سنوات وسنوات .. إلخ

كاد النعاس يغلبنى، من شدة الإعياء وأنا أتناول طعامى ، فرأسى يترنح كمن سكر سكراً خفيفاً فلم يعد قادراً ، على حفظ إتزانه ، ولذا لم أستطع أن أكمل ما قاله المذيع ، ولا أن أستوعب ما سمعت ، وما أن انتهيتُ من طعامى حتى أسرعت أقذف بنفسى فى الفراش !

ظلّت أصداء صوت المذيع المبتسم المتفائل تتردد فى مسامعى ، حتى أننى لم استطع أن أتبيّن على وجه الدقة ، أهو حلم ذلك الذى أراه ، أم أنه استكمال للمشاهد التى يعرضها التليفزيون ، فالمذيع يكمل الأنباء ، ويعرض معها الكثير من الصور المتلاحقة مرة فى الكويت ، وأخرى فى عمّان ، وثالثة فى القاهرة ـ وهكذا . فها هو أحد الرؤساء يخرج من قاعة المؤتمر ، فيقول المذيع إنه أصبح متحدثاً باسم الرؤساء جميعاً ، وأنه خرج ليرد على أسئلة الصحفيين والمندوبين .. جميعاً ! تقدّم منه أحد الصحفيين اللامعين ، أظن أننى أعرفه لكنى نسيت اسمه ، يقول :

ـ سيادة الرئيس ، أصحيح أننا أصبحنا مثل الدول الأوروبية بغير تأشيرة دخول ؟! أعنى هل أُلغيتْ هذه التأشيرة بين الدول العربية أُسوة بالدول الأوروبية ، وأصبح المواطن العربى كالأوربى ، يستطيع أن يجوب بلاده كلها بغير « تصريح» ولا تأشيرة ؟!

اختفت ابتسامة الرئيس وهو يجيب :

ـ أرجوك ! لا تقل إننا نُقلد أوروبا ! هذا خطأ من أفدح الأخطاء التى نقع فيها، والصحيح أننا عدنا إلى « الأصل » وإلى الوضع الطبيعى ، لقد كان الشعراء والأدباء والمفكرون جميعاً يجوبون الوطن العربى كله بلا تصريح ولا تأشيرة ، ولك أن تقرأ سيرة الإمام الغزالى ، أو المتنبى ، أو ابن خلدون .. وغيرهم وغيرهم ؛ لتجد أنهم سبقوا الأوروبيين جميعاً فى تنقلاتهم ، فى أرجاء الوطن بلا تصريح للدخول أو الخروج ! فنحن الأصل وهم التقليد ! فرح الصحفى اللامع بإجابة السيد الرئيس الذى استطرد قائلاً :

ـ يا أخى ما كان قائماً هو « الوضع الشاذ » غير الطبيعى ، فهل يُعقل مثلاً أن تسمح بعض الدول العربية للرجل الأوروبى أن يدخل بلادها بلا تأشيرة دخول ، ثم تمنع المواطنين العرب من ذلك ؟! بل هل يعقل أن « تحرّم» بعض الدول العربية دخول مواطنين عرب من أقطار معينة ؟! هذا وضع شاذ ، وكل ما فعلناه هو تصحيح هذا الموقف الغريب ! وهذا كل ما فى الأمر !

فعاد الصحفى وهو فى نشوة لا توصف ، فقد منُع هو نفسه من دخول بعض الدول العربية ، وبقى فى المطار إلى أن عاد أدراجه ـ عاد يسأل الرئيس :

ـ أصحيح يا سيدى الرئيس أن الدول العربية سوف تسحب أرصدتها من البنوك الأوروبية والأمريكية ؟!

ـ هذا ما إتفقنا عليه . وفى ظنى أن التنفيذ سوف يبدأ من اليوم ، وإن كان الأمر ليس كما ذكرت تماماً ، فسوف تسحب الأرصدة من

بنوك الدول المعادية فقط ، لتوضع فى بنوك عربية خالصة ، ولا سيما فى الدول التى تعانى ضائقة مالية ، على أن تنفق على مشاريعها من عائد هذه الأرصدة !

كانت المشاهد تتلاحق أمامى بغير ترابط منطقى ، ولستُ أدرى كيف انقلب المشهد لأجد نفسى أسير فى شارع أكسفورد فى قلب لندن ، وأسرع الخطى نحو إحدى المكتبات الشهيرة ، وما هى إلا لحظات حتى وقفت مندهشاً أمام الصحف الإنجليزية التى تحذر حكومتها مما يحدث فى العالم العربى ، وأمسكتُ بالجريدة وإذا بالكاتب يقول : إن بعض الحكومات العربية نشرت نداءات حارة فى الصحف الأجنبية - فى أوروبا وأميركا على وجه التحديد ، « إلى مَنْ طال شوقهم إلى بلادهم » بالعودة إلى أرض الوطن ، وهى تَعِدُ كل أصحاب الخبرات بأنهم سوف يكونون موضوع رعاية خاصة ، وسوف يعمل كل منهم فى موقعة ! وقال الكاتب : إن أحد أصحاب الملايين العرب قد تبرع برقم ضخم من ملايين الجنيهات الإسترلينية ؛ لبناء مستشفى للقلب تحمل اسم عالم القلب والجرّاح المصرى الشهير الدكتور / مجدى يعقوب ، ولم يشترط سوى أن يعود الدكتور ليشرف بنفسه على تجهيزها بما يشاء من أدوات ومعدات ، ثم ليديرها بنفسه بعد ذلك ! كما أعلنت الحكومة السورية أنها على استعداد تام للتبرع ، بجزء من « غوطة دمشق» الشهيرة الجميلة ، ليقيم عليها الدكتور / مجدى مستشفاه إذا أراد ! ويستطرد الكاتب قائلاً : « لقد كانت دهشتى كبيرة عندما علمتُ أن العالم الكبير وافق أن يعود إلى وطنه ، وأنه يقوم الآن بتصفية أعماله فى لندن ؛ ليعود إلى القاهرة ، ومعه أكثر من عشرين ألف طبيب مصرى يعملون فى إنجلترا ، يقرر بعدها أين تكون المستشفى الجديدة ..! . وقلت فى نفسى هذه ثروة أغلى من كنوز الدنيا !

لكنى لم أكد أقرأ بقية الأخبار ، التى تدعو كل عربى يعمل فى أوروبا

أو أمريكا إلى العودة إلى بلاده بعد أن زالت كل معوقات النمو والتقدم من « روتين» « كبت للفكر » حتى وجدتُ مقالاً بعنوان « هذا مؤشر خطر! » يقول فيه صاحبه أن الدول العربية مجتمعة سوف تصدر جواز سفر فلسطينياً باسمها جميعاً ، يمكن الفلسطينى من العمل ، والعيش ، وكافة حقوق المواطن العربى فى أى مكان ، على أن يكون الجواز مؤقتاً إلى أن يعود الفلسطينى إلى فلسطين فيكون دائماً !

لكنى لم أكمل المقال فقد وجدتُ نفسى أسير فى حى من أحياء القاهرة القديمة ، لعلّه حى « السيدة زينب » ، وأتوقف عند إحدى المقاهى لاستمع إلى الراديو ، الذى التفت حوله مجموعة من الناس ، وهو يعلن : إنه تم بحمد الله وبتوفيق منه - إنشاء قيادة عربية موحدة باسم « القيادة العليا للقوت العربية المسلحة » لا من الرؤساء - بل من الخبرات العربية العاملة فى الحقل العسكرى ، والتى اشتركت فى القتال بالفعل ، وتمرست بالمعارك العديدة ، وإن القيادة لها كافة الصلاحيات التى للرؤساء فى الميدان العسكرى ، ولهذا فقد بدأت تجهيز جيشاً يتألف من ثلاثة ملايين جندى تقوم مصر بتجهيز نصفه على الأقل ، وتقوم دول لم أتبّين اسمها على وجه الدقة بالإنفاق الكامل على هذه القوات ! وسارت همهمة بين رواد المقهى تقول إن السبب فى تجهيز هذا الجيش الضخم ، هو أن مصر على وشك أن تعلن إلغاء معاهدة « كامب ديفيد» وأن ذلك يعنى الحرب فى الحال بيننا وبين إسرائيل، وأن الجيوش العربية فى المشرق والمغرب ، قد وضعت تحت أمرة هذه القيادة العليا ، كما أن الدول العربية قد أعدت جيشا احتياطيا يكاد يصل إلى ضعف الجيش العامل!

انقلب المشهد ورأيت نفسى مرة أخرى فى الكويت ، وإذا بى أهم بدخول المبنى الجديد لمكتبة كلية الآداب ، وما أن وضعتُ قدمى على الدرج ، حتي خُيل إلىّ أننى أخطأت المبنى ، وكدت أسحب قدمى ! فالمبنى ضخم للغاية ، فرفعتُ بصرى لأقرأ اللافتة من جديد ،

فوجـــدتها « مكتبة كلية الآداب » فواصلت السير وأنا أعجب من المبنى الهائل ، فليس هذا ما أعرفه: إنه مبنى مرتفع لا يقل عن ستة طوابق وقد يزيد ، خُصصّ لكل قسم بالكلية طابق خاص : فها هنا ما كتب فى اللغة العربية من أدب أو نحو وصرف .. إلخ ، وفى الطابق الثانى ما كتب فى التاريخ ، والثالث للجغرافيا والرابع للفلسفة وهكذا وهكذا .. وكل طابق قُسّم ثلاثة أقسام ، وإن كان القسم يتسع حتى يكاد يصبح هو نفسه طابقاً جديداً ! فها هنا قسم الدوريات : حجرات داخل حجرات ! وهذا قسم للمراجع العربية تمتد ما إمتد البصر ، والقسم الثالث للمراجع الأجنبية .. إلخ .. إلخ ، وفى كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة حجرات صغيرة مغلقة كُتِبَ على كل منها « صومعة ١» ، «صومعة٢» ، و«صومعة ٣» ، وهى مخصصة لقراءة الأساتذة ! ولكل قسم أمين خاص يساعده ثلاثة من الموظفين هم غاية فى النشاط والحيوية ، والكل يعمل كما لو كانوا خلية نحل!!

على أن ما أدهشنى حقاً ـ إلى جانب ضخامة المبنى وكثرة الكتب هو هذا الزحام الشديد من الطلاّب ، حتى إننى كدت أختنق رغم أن المبنى مكيف ومجهز على أحدث طراز ! ربما زاد من ضيقى أننى لم أجد مقعداً واحداً خالياً فقلتُ لنفسى : وكأننا فى يوم الحشر !! شعرتُ برغبة فى أن أخرج مسرعاً من هذا المبنى الضخم ، ومن هذا « الجو العلمى الخانق» ! لكنى لم أخرج إلى الشارع ؛ وإنما سرتُ فى ردهة طويلة ، أدت بى إلى ما يشبه ساحة واسعة غاصة بالكتب ، وعندما سألتُ أحد المارة : أين أنا ؟ أجابنى فى دهشة : أنت فى « المعرض العربى للكتاب» ماذا .. ؟! » على كل حال لا بأس ! من المكتبة إلى المعرض ليس ثمة فارق ! لكنى عندما سرتُ قليلاً فى أرض المعرض أدهشنى أن أجد « دائرة المعارف البريطانية » بأجزائها الثلاثة والثلاثين مترجمة إلى اللغة العربية ، وقد كتَبَ على كل مجلد الثمن دينار واحد ، سألتُ البائع، دينار واحد ؟ ! هذا أقلّ من سعر التجليد ! فأجاب

الرجل وهو يبتسم : الكتبُ يا سيدى مدعومة من الدولة ، وكذلك إسطوانات الموسيقى الكلاسيكية فهذه « غذاء للروح » ومن ثمَّ فهى كرغيف الخبز تماماً !

فسألته : ومنْ قام بترجمة هذا العمل العلمى الجليل ؟!

أجاب :

ـ لجنة كبرى للترجمة على مستوى الوطن العربى كله ، تتفرع عنها لجان متخصصة فى العلم ، والقصة ، والتاريخ ، والفلسفة .. ، وهى التى تقوم بالترجمة ، كل فيما يخصه ، ثم توزع الكتب على دور النشر العربية فى مختلف أرجاء الوطن بالتساوى وبعدالة تامة ! ثم تقوم هذه الدور باستلام حصة مجانية وكبيرة من الورق ! ألم تسمع عن التكامل الاقتصادى بين الدول العربية ؟! لم نعد نستورد الورق كما كان فى الماضى ، وإنما نحن الآن نصنعه ! ، فلما بدت علىَّ الدهشة سألنى الرجل : من أين أتيت ؟

ـ من مصر ، وأعمل بجامعة الكويت ، ولا أدرى كيف جئتُ إلى هذا المكان؟! فقال الرجل : جئتَ من القاهرة ، وتعمل فى الجامعة ، ولم تسمع أنه قد تم التعاقد مع اثنتى عشرة داراً من كبريات دور النشر فى العالم على ترجمة كل ما أصدرته فى الماضى ، وما سوف تصدره فى عشر سنوات قادمة ؟! وتقول إنك تعمل فى الجامعة ، ولم تشترك فى حركة الترجمة الضخمة ، ولا فى النهضة الثقافية التى يعج بما الوطن العربى كله ؟ على كل حال من حقك أن تقاضيهم فلم يعد يضيع الآن حق لمواطن !

شكرتُ الرجل على نصيحته ، وسرت فى طريقى لأجد ما يشبه « السرادق الضخم » ، كتب عليه من الخارج « حفل تكريم العلم والعلماء » ! ووجدتُ رجلاً مهماً يتصدر المنصة الرئيسية ، وهو يستقبل صفاً من العلماء يصافحهم ، ويسلم كلاً منهم « شهادة» ملفوفة ، لا أدرى إن كانت شهادة تقدير أم شهادة استثمار ! ووجدتنى

أحشر نفسى بمشقة فى الصف لأمد يدى أصافحه ، وإذا بالرجل يبتسم ويهم بمد يده .. لكننى أفقت على صوت زوجتى تصيح ، « ألم تكف بعد عن هذه العادة السيئة ، عادة الهذيان أثناء النوم ؟» تتكلم فى الحلم بانفعال شديد كما تفعل وأنت يقظان ، فلا تكاد تستريح ليلاً أو نهاراً !! انظر لقد ركلت الغطاء ، فسقط على الأرض !! لم أستطع أن أتبيّن ملامح وجهها فى غُبشة الحجرة ، وأنا بين النوم واليقظة فنهضت وأنا أتمتم :

« خيراً ! اللهّم اجعل ما رأيت خيراً .. ! » .

* * *

والقط يأكل ويشرب !

كنتُ طالباً بالجامعة عندما وقع في يدي كتاب لأحد أساتذة القانون في بلادنا ، إنسانى الزمن اسمه ، لكنه لم ينسنى ذلك اليوم الذي فتحت فيه الصفحة الأولى من هذا الكتاب ، لأجدها بيضاء من غير سوء . ليس فيها سوى كلمات ثلاث غريبة كتبها الأستاذ في منتصف الصفحة وتركها وذهب . أما هذه الكلمات الغريبة فهي « .. والقط يأكل ويشرب !» هكذا بلا شرح أو تعليق أو تفسير ! وقفتُ يومها أتأمل هذه العبارة الغريبة . ماذا يعني بها أستاذ القانون ؟! ولماذا صدَّر بها كتابه على هذا النحو العجيب ؟! وأشهد أني لم أستطع تفسير هذه العبارة إلا بعد ذلك بسنوات طويلة ، عندما درست فلسفة هيجل « ووقفت طويلاً طويلاً أتأمل التفرقة التي وضعها بين الإنسان والحيوان ، وهي تفرقة تستند أساساً على فكرة « الوعى » عنده أما الحيوان : فلديه فى رأى هيجل ، ضرب من الوعى « أو الإدراك » الذى يدرك به ما حوله من بيئة ، ومن حوله من البشر : فهو يدرك طعامه ويتجه إليه ، ويعي صاحبه ويُقبل نحوه ، ويدرك العصا في يده فيخاف ويفر هارباً ، وعن طريق استخدام حواسه يشكلّ ضرباً من « الوعى » لكنه ذو إتجاه واحد ، لأنه يسير في خط مستقيم: يري طعامه أو يتشمم رائحته فيتجه نحوه ليأكله .. إلخ . غير أن هذا الوعى يصبح عند الإنسان ما يسمى « بالوعى الذاتى » أو الوعى بالوعى ، فإذا كنت كإنسان ، أشترك مع الحيوان في رؤيتي للطعام أو الشراب وإقبالى عليه ، فإنى أعود وأختلف عنه في أمر بالغ الأهمية هو أنني أتناول الطعام ، وأدرك أنني أتناول الطعام ، أري صديقي في الشارع وأعي أنني أراه .. إلخ ، وعبارة « أنا آكل » تعبّر عن هذا الوعى المزدوج ، ومن هنا كان الإنسان وحده القادر علي أن يقول : « أنا » ، وتلك خاصية إنسانية ، في غاية الأهمية، ذلك ؛ لأن وعى الحيوان يذهب إلى الأشياء ولا يعود ، بل يظل منغمساً

فيها، ومن ثم لا يستطيع الحيوان أن يخرج عن نطاق الحس ؛ لأن وعيه لا يتجاوز هذه الحدود : إنه وعي منغمس في الطبيعة غارق في المادة !

أقول : إن هذه التفرقة بالغة الأهمية ؛ لأن الوعي الواحد الذي يسير في خط مستقيم ولا يرتد إلي نفسه هو الوعي الحيواني أو الوعي ذو الإتجاه الواحد الذي لا ينعكس علي ذاته فيدركها ، ويعرف عيوبها ونقائصها ؛ ليعدّل منها ، ويصلح فيها ، ذلك هو الوعي الحيواني ! الوعي الذي ينغمس في الحس حتي الأذنين هو الوعي الحيواني ! الوعي الذي يكتفي بأن يأكل ويشرب ويمارس الجنس هو الوعي الحيواني ، الذي لا يدرك الفكر المجرد لأنه لا ينعكس علي ذاته . ولا ينشئ علماً ، ولا علاقة له بالفلسفة ؛ لأنه وعي « لا يفكر» ، وهذه المجالات كلها يشيدها الفكر وحده : أيكون غريباً إذن أن تكون الكلمة الدالة علي التفكير في اللغات الأجنبية وهي Reflection تعني الانعكاس أيضاً ؟ ذلك لأن التفكير انعكاس أو وعي ذاتي ، وهي خاصية للإنسان دون الحيوان !

إننا كثيراً ما ننسي ـ أو نتناسي أن الإنسان في جانب هام منه « حيوان» أيضاً ! وأن هذا الجانب الحيواني هو الذي يبدأ منه الإنسان ، فهو يولد حيواناً وعليه أن يصير إنساناً ! إنّ كثيراً من الناس يظنون أن الإنسان يكتسب هذه الصفة بحق المولد ، أي أنه بمجرد الميلاد يكون إنسانا وذلك وهم باطل ، لأن الإنسان عندما يولد لا يكاد يفترق عن الحيوان ، فلا يكون لديه سوي وعي واحد ذي اتجاه مستقيم لا يرتد إلي ذاته ، ولهذا نجده منغمساً في الحس مرتبطاً بالمادة ارتباطاً وثيقاً حتي « الأم» نفسها لا تكون عنده سوي مصدر للإشباع والدفء والنظافة .. إلخ ، ويحتاج الأمر فترة طويلة لكي تتحول كلمة الأم وحدها إلي معني مجرد يثير النشوة عند سامعه ، حتي إذا لم تكن الأم علي قيد الحياة !

ونمو الطفل في تعلمه وتحصيله للثقافة ، يقترب كثيراً من تطور المجتمع في ميدان الحضارة ، فلا بدّ لهما معاً من تجاوز البداية الحسية التي انطلق منها تطورهما: خذ الطفل مثلاً ، وانظر كيف يسير تطوره : كيف نعلمه الفكر المجرد ؟! إننا قد نبدأ في تعليمه الرياضيات بأن نجعله يعد الحساب علي أصابعه ، أو يقطع البرتقالة نصفين ؛ ليعرف أن الواحد الصحيح ينقسم نصفين ، أو يقسم حبات الحصي علي زملائه .. إلخ ، وذلك كله عبارة عن طريقة تربوية في تدريس الرياضيات ، فلما كان الطفل يرتبط بالحس وبالمادة فإن علينا أن نسير معه شيئاً فشيئاً فتربط الفكرة المجردة بشئ مادي . غير أن نمو الطفل في مرحلة تالية مرهون بتجاوزه لمجال الحس لكي يعمل في ميدان الفكر المجرد وحده ، فهو لابدّ في المرحلة الثانوية مثلاً أن يتعلم الرياضيات بما فيها من رموز جبرية دون الرجوع إلي شئ حسي : لابدّ أن يستعيد الوعي الذي انغمس في الحس لينعكس علي ذاته ، لابدّ أن يسترد « الوعي المفقود » ؛ ليتمكن من التفكير ، وإذا لم يفعل ، أعني إذا وجدنا أنه في المرحلة الثانوية مازال يعد علي أصابعه ، أو أنه لا يستطيع فهم الفكرة إلا إذا تجسدت في شئ حسي - قلنا إنه « متخلف عقلياً » أي أن قدراته العقلية هي قدرات طفل عمره ست سنوات ، وهي لا تتناسب مع عمره الزمني ، أي عمره في شهادة الميلاد ، وهو ست عشرة سنة مثلاً !

وهذا هو نفسه معني التخلف الحضاري ، فالمجتمع المتخلف حضارياً ، هو الذي تسوده طرائق في التفكير كانت سائدة في العصور الوسطى مثلاً مع أن عمره الزمنى هو القرن العشرون !

الإنسان ، إذن يولد حيواناً ، وعليه أن يصير إنساناً بأن يفكر ، وأن يسترد وعيه المفقود الضائع في عالم الحس ليعود إليه ، عليه أن يتخلي عن البقاء في عالم « الطبيعة المادية » ، وأن يرتفع إلي عالم الفكر ، والغريب أنك كلما هبطت فى سُلَّم التطور وجدت المجتمعات المتخلفة

غارقة في الحس حتي الأذنين ، في حين أن المجتمعات المتقدمة هي التي انفصلت عن الحس والمادة إلي عالم الفكر والروح علي العكس مما هو شائع تماماً ! ولهذا فإنه يصعب عليك أن تجد في المجتمعات المتخلفة أي تطور للعلم ، أو الفن ، أو الفلسفة ، وهي مجالات رئيسية لنشاط الإنسان الروحي ! . والعجيب أننا نظن أن العلم وحضارة العلم أمور « مادية! » أليست هي الحضارة التي أنتجت السيارة ، والطائرة ، والباخرة ، والأسلحة ، والأجهزة ، والأدوات .. إلخ .. إلخ وهي كلها أمور مادية ! ولكن أود أن أقف فوق قمة جبل شاهق لأنادي بصوت جهير ؛ ليسمع مجتمعنا بأسره : يا أيها الناس ، ليست هذه أموراً مادية ، وإنما هي « أفكار» تجمدت في قطع من حديد ، أو نحاس هي فكر رفيع تجسد في خشب ، أو معدن ، هي نشاط روحي لإناس ترهبنوا للعلم وسهروا الليالي لا للسمر ، أو الأكل والشرب ، بل قضوها في التفكير المبدع الخّلاق ، فهذا عالم يكشف عن سر مرض ، وآخر يصنع «دواء» ، وثالث يطور وسيلة اتصال .. إلخ .. إلخ ونحن نكتفي بأن نستهلك ما ينتجون ثم نصفهم « بالمادية » الكريهة ، أما نحن فلدينا « روحانيات الشرق »! لقد كان هيجل يصف « الروح» في المجتمعات الشرقية بأنه غارق في الطبيعة المادية ، وإنه يسعي حثيثاً إلي الخروج منها ، وأخشي ما أخشاه أن أقول إن وصف الفيلسوف الألماني رغم قسوته ما زال سليماً حتي يومنا الراهن ، ولا تغرنك هذه القشرة الروحية الخارجية : انفذ منها إلي الداخل تجد عجباً ! الإغراق في الحس حتي الأذنين ! مثلنا العليا مادية : أن أكون غنياً وأن أمتلك كذا وكذا ، وأن أستمتع بمالذّ وطاب من طعام ، وشراب ، وجنس ! ليست المثل العليا : أن اخترع وابتكر ، أو أن أكتشف ، أو أن أكون عالماً ، أو أديباً كبيراً ، أو فناناً عظيماً ، أو فيلسوفاً ينضاف مذهبه إلي التراث البشري، ويعيد أمجاد الكندي والفارابي وابن سينا .. إلخ .. لا ! المهم أن يعلو الرصيد فى البنك ، وأن تزداد رقعة الممتلكات المادية ، وأن

استمتع بكل جوانب الحياة الحيوانية .. وأنسي في غمرة التهالك علي المادة أنه إذا كان الإنسان يولد حيواناً فليس من الضروري أن يصير إنساناً ، وأن من البشر مَنْ يولد حيواناً ، ويظل كذلك طيلة حياته ، أنه يَعْبُر حياته ، ولا يعيشها كإنسان ، ويوم يموت لا يزيد الأرض إلا حفنة من تراب ! فليس الإنسان هو الذي يأكل ويشرب .. فالقط أيضا يأكل ويشرب !

* * *

من حكم النسر ..
إلى حكم العِمامَة ..!

أما حكم النسر فهو رمز للاستبداد العسكري ، عندما يتربع علي منصة الحكم فيأمر : ليطاع ! في حين أن حكم العِمامَة رمز للاستبداد الديني ، عندما يكمم الأفواه باسم الدين ، وبينهما وشائج قربي وصلات رحم ، علي ما يروي الأستاذ الدكتورفؤاد زكريا في كتابه الهام « الصحوة الإسلامية في ميزان العقل » فهما معاً يقومان علي الطاعة ، فلا نقاش ، ولا تبادل للرأي ، ولا اقناع ، ولا حجة ! وتلك كارثة كبري : « إذ أن أعظم صفة يستطيع أن يبثها الحاكم في المحكومين ، عندما يكون بشراً كسائر الناس .. هو أن يناقشوه ، ويعارضوه ، ويقفوا منه موقفاً نقدياً ، كلما وجدوا ما يستحق النقد .. أما صفة الطاعة فهي أسوأ علاقة يمكن أن تربط محكوماً بحاكم » ! (ص ٣٤) ومن هنا فإنك تجد هذين اللونين من الحكم . حكم النسر وحكم العمامة ـ يرفضان الديمقراطية ويشنان ضدها حملات كاسحة من التشويه وسوء الفهم : فهي فاسدة ، وفاشلة ، ومليئة بالأخطاء ! مع أن أعظم مزايا الديمقراطية ، فيما يري المؤلف ، بوصفها تجربة بشرية فى الحكم ، تَكْمُن فى نفس تلك الصفة ، التي يعيبها عليها خصومها من أنصار الحكم المرتكز علي السلطة العسكرية ، أو السلطة الدينية : فهؤلاء الأخيرون بصفة خاصة ، يتهمون الديمقراطية بأنها تستند إلي اتجاهات البشر وآرائهم ، وتفضيلاتهم ، والبشر بطبيعتهم متقلبون معرَّضون للخطأ ، علي حين أن الحكم الدينى يستمد تشريعه من مصدر يعلو علي البشر، وعلي أخطائهم ، ومظاهر ضعفهم ! غير أن المؤلف يري أن هذه الصفة بعينها هى التى تكمن فيها عظمة الديمقراطية : فالبشر ،حقاً ، كائنات تتسم بالضعف ، والتغير ، وربما الجهل وسوء التقدير . غير أن الديمقراطية هى التى

تتيح للبشر فرصة التعلم من أخطائهم وتصويبها بالتدريج ، واكتساب خبرة جديدة من كل تجربة فاشلة يمرون بها ، إنها هي التي تُنْضِجُ الإنسان ، وتُصحح أحكامه ، وتُكسبه وعياً بجوانب الضعف فيه ، وقدرة علي تجاوز هذا الضعف . أما التحكم الديني فإنه لا يعترف بأن الإنسان يتعلم من تجربته ، بل يفرض علي الإنسان وصاياه منذ بادئ الأمر، بحجة أنه « قاصر»، وهكذا يظل هذا « القاصر» عاجزاً عن النمو والوصول إلي مرحلة النضج ، ما دام يؤمن بحاجته الدائمة إلي مصدر للتوجيه ، أرفع وأسمي وأحكم منه !

ثم يناقش المؤلف القضية الأساسية في دعوة الجماعات الدينية إلي الجمع بين الدين والدنيا ، وهي القول بأنهم يحكمون بواسطة «نصوص دينية» صالحة لكل زمان ومكان ، فيري أن هذا المبدأ في ذاته يولد تناقضاً أساسياً عند تطبيقه ، لأن «الدنيا» بطبيعتها متغيرة ،وأحوال المجتمع والإنسان والسياسة لا تكف عن التطور.

وهذه في نظر أي إنسان لديه الحد الأدني ، من الثقافة العصرية بدهية لا تناقش .

فكيف يمكن التوفيق في هذه الحالة بين مبدأ سريان النص علي كل زمان ومكان، إذا كانت الدنيا لا تكف عن التغير ـ والتغير معناه أن ما يصلح في زمان لا يصلح فى زمان ومكان آخرين ؟! إن المخرج الوحيد من هذا التناقض هو الاقتصار علي تأكيد الجوانب العامة فقط في النصوص الدينية ، وترك التفضيلات لاجتهادات كل عصر..!

وهنا زاوية أخري ، ربما كانت أكثر أهمية ، يشير فيها المؤلف إلي أن النص الديني لا يفسر نفسه بنفسه ، ولا يطبق ذاته بطريقة آلية ، بل يظل في حاجة دائمة إلى البشر لكى يصبح حقيقة واقعة ، وحتى يطبق فى مجال إنسانى ملموس .

وعلي الرغم من أن الإسلام لا يعرف كهنوتاً ، ولا يعترف بهيئة كنسية مُنظَّمَة تكون «وسيطاً » شرعياً بين كلمة الله وأفعال الإنسان ،

فإن تفسير النص الديني على يد إنسان ما ، يظل أمراً لا مفر منه ، حتي يصبح النص حقيقة واقعة ! وهكذا يبدو من الضروري وجود « توسط» بشري من نوع ما ، بين النص، والواقع ، وفي عملية التوسط البشري هذه ، تظهر كافة الأخطاء والتحيزات التى يتعرض لها بنو الإنسان، فإذا كان النص إلهياً مقدساً ، فإن مَنْ يطبقه ويفسره إنسان يتصف بكل جوانب الضعف البشرية ، وأخطر ما في الأمر أن الإنسان الذي يتصدي لهذا التفسير والتطبيق ، سواء أكان رجلِ دين شغل منصباً كبيراً ،أم حاكماً تستند سلطته إلي أساس ديني - يضفي علي نفسه قدراً « يزيد أو ينقص» من تلك القداسة التي تتسم بها النصوص الدينية ، ويقدم أوامره ، أو فتاويه للناس بوصفها تعبيراً عن رأي الدين ذاته ، لا عن فهمه هو للدين ، ويصف معارضيه بأنهم أعداء للدين ، لا بأنهم أعداء طريقته الخاصة في تفسير الدين !!

وينتهي الدكتور زكريا إلي أن « جوهر الإيمان هو الطاعة » وتلك هي نفسها « الفضيلة الكبري للجندي إزاء قائده » !! ومن هنا فإن حكم النسر وحكم العمامة يلتقيان علي صعيد واحد هو الطاعة ، مع أن علاقة الحاكم بالمحكوم ، ينبغي ألا تكون مماثلة، لعلاقة الجندي بقائده : إذ ليس للجندي أن يناقش ضابطه ، أو ينقده ، أو يطلب منه إذا أخطأ أن يعتزل ! وكل الكوارث التي لحقت بالعالم الاسلامي عامة ، والعالم العربي خاصة ، علي يد الحكومات العسكرية أو « توارث» الضباط - إنما ترجع إلي أن العسكريين يقيمون في ميدان السياسة علاقة مع المحكومين ، توازي علاقات الضابط بالجندي ، وأخشي أن أقول أن الدعوة إلي الحكومة الدينية هي الوجه الآخر لهذا النمط من الحكم ، فكلا النوعين حكم سلطوي لا يرتكز علي العقل ، والإقناع ، والنقد ، وكل ما في الأمر أن الحكم العسكري يرتكز علي سلطة القوة والبندقية . والحكم الديني يرتكز علي سلطة الإيمان والمنبر ! وإذا كانت أقطار إسلامية كثيرة قد خضعت طويلاً لحكم النسر ،واعتادت أسلوب

الحكم المرتكز علي القوة ، وإفْتَتَنَتْ بسلطة القوة وجبروتها في بعض الأحيان ، فإن حكم النسر هذا هو خير تمهيد لحكم العمامة ، لأنه عوّد الناس طويلاً علي الطاعة ، وفقدهم ملكات النقد والاعتراض »! (ص ٣٥)

وأخيراً يتساءل الدكتور زكريا عن « الصحوة الإسلامية » أهي صحوة كمية أم كيفية ؟! أعني هل المظهر الواضح للصحوة وهو انتشار الجماعات الدينية وازدياد عدد المنضمين إليها ، يوازيه ارتفاع في مستوي تفكير هذه الجماعات وموضوعات اهتمامها وطريقة فهمها للإسلام وتطبيقها له في ظروف عالم سريع التغير ؟!

هل قدمت هذه الجماعات حلولاً واقعية قابلة للتنفيذ لمشكلة العدالة الاجتماعية ، ولمشكلة توزيع الثروة ؟! هل لديها برنامج واضح المعالم لاستغلال الثراء النفطي الخيالي ، وللانتفاع بأموال المسلمين الطائلة ؛ من أجل النهوض بالمجتمعات الإسلامية الفقيرة ؟! هل حددت بوضوح موقفها من التحالفات الخارجية ، التي تتفق مع المصالح الحقيقية للشعوب الإسلامية ؟!

هل أصدرت حكماً صريحاً وقاطعاً علي أساليب الاتفاق السفيه الذي يبدد به الأثرياء من المسلمين أموالاً تحتاج إليها الأجيال المقبلة ، والملايين الفقيرة من الأجيال الإسلامية الحالية أشد الاحتياج ؟!

لكن إذا لم يكن هذا كله قد تحقق فكيف نفسر الزيادة العددية للجماعات الإسلامية ؟! أعني كيف اجتمعت الصحوة الكمية مع الكبوة الكيفية فى وقت واحد ؟! : « التعليل الواضح لهذه الظاهرة ذات الوجهين المتنافرين هو أن تلك «الصحوة» في حقيقتها مظهر من مظاهر الإحباط ، وخيبة الأمل ! فدلالتها الحقيقية سلبية ! سخط ، ونفور علي الأوضاع القائمة ، وعجز عن الاهتداء إلى طريق جديد ، وهكذا تكون النتيجة العملية الارتماء فى طريق الدعوة الدينية ، وكأن إعلان العودة إلى طريق الدين سيحل بطريقة آلية ، مشكلات السياسة

والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والانتماءات الدولية !! وفي تصوري أن الانتشار الكمي الهائل لهذه الدعوات الإسلامية ، إنما يعبر أساساً عن رغبة في البحث عن مخرج لمنْ لا مخرج لهم ، إن الطرق جميعها مسدودة أمام التجمعات الإسلامية والقهر هو الوسيلة الوحيدة لضمان بقاء الأنظمة القائمة ، وأهم ما يترتب علي القهر هو تلطيخ سمعة البدائل الأخري :

كالليبرالية ، وحكم الأحزاب واليسار ، والإتجاه الديمقراطي بكافة أشكاله ! وهكذا يقترن الانتشار الكمي الهائل بخواء وهزال في المضمون ، وتصبح اليقظة التي لا تقاس إلا بالعدد والمقدار ، غفوة فكرية ، وتغدو الصحوة كبوة عقلية ، ويظل أعداؤنا ، رغم هذا كله يهتفون : احذروا الصحوة الإسلامية ! » ولكن لسان حالهم يقول : مرحباً بها ، ما دامت لا تهدد شيئاً من مصالحنا ، ولا من مصالح حلفائنا المسكين بدفة الأمور فى العالم الإسلامى » !

* * *

أحقاً مستقبلنا .. هو ماضينا .. ؟!

كان من بين الآثار المدمرة التى خلفتها هزيمة ١٩٦٧ أن أصابت الشباب بالإحباط ، ومازالت نفوسهم حتى الآن تنطوى على شعور بالمرارة ، وإذا كان الكبار قد أحسوا بها أيضاً ، فإن إحساس الشباب كان أشد وأقوى !

فما الذى ترتب على هذا الشعور القاسى بالمرارة والإحباط والفشل .. ؟ ترتب عليه من بين أمور كثيرة أن بدأ الإنسان العربى المهزوم من الداخل ، قبل الخارج ، يبحث عن ركن يأوى إليه . ومن الطبيعى جداً أن يكون هذا الملاذ عند أى إنسان ، هو العودة إلى ماضيه ؛ ليحتمى به ، حتى يقنع نفسه ـ ولو بالمخادعة ـ أنه مازال قوياً منتصراً ، وأنه لم يتحطم بعد ! إنه هروب إلى الماضى ، يرتدى فيه درع الأجداد يقاتل به ، حتى وإن قاتل طواحين الهواء مثل « دون كيشوت» ، إنه يبحث عن نصر ، بأى ثمن يخفف عنه مذاق الهزيمة المُرّة ، فلا يجد أمامه سوى درع الجدود هذا ، يرتديه لعله يستعيد بواسطته الشعور بأنه مازال على شئ من القوة ، أو إنه على الأقل لم يُقتل تماماً ولم يتحطم نهائياً !!

ومن هنا اشتد ظهور الجماعات الدينية ، التى تتطرف فى الدعوة إلى العودة الى الماضى ، فإذا كان « الحاضر هزيمة» والمستقبل مظلماً ، فإن علينا أن نعود إلى نور الماضى وانتصاراته ـ ومن ثَمّ كانت هزيمة ١٩٦٧ الساحقة من بين أسباب ظهور التطرف الدينى ، الذى نعانى منه الآن ـ إلى جانب عوامل أخرى كالتدهور الاقتصادى وإفلاس الفكر القائم .. إلخ ، ولكن ما تلجأ إليه الجماعات الدينية ليس فى الواقع سوى حل خيالى ، لأنه يصطدم بعقبة كبرى يعرفها كل مثقف ، وهى أن الحاضر لا تُحلَ مشاكله بمعايير الماضى ! إننا لا يمكن أن نستفيد من التاريخ كما قال هيجل بحق ـ إلا بضعة مبادئ عامة ، ومجموعة

من الدروس الأخلاقية نُعلّمها لأولادنا فى المدارس ، ولكن من غير المجدى أن نرتد إلى ظروف مماثلة فى الماضى ؛ لنحكم فى ضوئها على الحاضر ، فنصلحه أو نطوره ، لأن مصائر الشعوب والدول ومصالحها وعلاقاتها ، ونسيج شؤونها المعقد فى الحاضر تمثل أمامنا ميداناً يختلف أتم الاختلاف عن المصالح والعلاقات ، والنسيج فى الشؤون الماضية ! وفكرة الإرتداد إلى الماضى هذه ، بوصفها أملنا فى المستقبل هى التى يناقشها الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا فى كتابة الهام « الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل » يقول : لو إننا نظرنا إلى الوضع السائد فى العصر الحاضر لوجدنا أن عدداً غير قليل من الجماعات الدينية المعاصرة فى العالم العربى ، تلخص فلسفتها الإصلاحية فى عبارة واحدة هى : « لقد كان المسلمون الأوائل منتصرين فى جميع الميادين ، وهزموا أعظم دول العالم فى زمانهم ، عندما كانوا يتبعون تعاليم دينهم ، ثم تدهورت أمورهم لما انصرفوا عن الدين ، إذن فلنعد إلى حظيرة الدين كيما نصبح مرة أخرى أعظم أمم العالم .. » قد تختلف التعبيرات من جماعة إلى أخرى ، ولكنى أعتقد أن هذه العبارة تلخص الدعوة الفكرية لعدد من أهم الجماعات الإسلامية الحالية .. ص ٧٧ . غير أن هذه الجماعات حين تحاول الإرتداد إلى الماضى لكى ترتدى درع الأجداد ، فإنها تتجاهل الفروق النوعية الهائلة بين عصر الدعوة الإسلامية والعصر الحاضر ، وتُسقط كل التغيرات التى طرأت على العالم كله فى الفترة الواقعة بين الحقبتين ! وفى ظنى أن هؤلاء الناس يحمّلون الدين أكثر مما يحتمل ، فإذا كانت هذه العودة يمكن أن تبعث فيك قوة الإيمان وحرارته ، وتضع أمامك قواعد عامة للسلوك ، أو تقدم لك مجموعة من المبادئ الأخلاقية الهامة فإنها لن تعلمك كيف تصنع « دبابة» أو تخترع طائرة جديدة ، أو تطور صاروخاً ، أو تُطلق سفينة فضاء ، أو حتى كيف تضع خطة عسكرية .. !! فهذه علوم لابدّ من تعلمها ودراستها على

نحو ما هى عليه الآن فى العلم المعاصر ، فلابدّ أن نبذل الجهد بعد الجهد ؛ لنلحق بالركب إنْ استطعنا ! . صحيح أن الدين يعطيك مبادئ أساسية عن ضرورة « التعلم » و « القراءة » و « التفكير» وأن عليك أن تعد ما استطعت من قوة لأعدائك .. إلخ .. لكن لاحظ أن هذه مبادئ عامة يحتمها العقل أيضاً ، ولهذا تجد العدو قد عرفها ونفذها قبلنا ، ودون أن يستخرج آيات تحضه على ذلك !!

على هذا النحو تسير بنا هذه الجماعات إلى سمة بالغة الغرابة ، هى أنه لا مستقبل لنا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ! بالمعنى الذى يكون فيه المستقبل آتياً بأمور جديدة غير مسبوقة ، بل جفت الأقلام وطويت الصحف ، انتهى التقدم ، وتوقف التطور عند عصر الدعوة الإسلامية الأول ! وإن أردنا بناء مجتمعنا من جديد ، إن أردنا أن نمحو آثار الهزيمة وأن نعيد حياتنا الاقتصادية والثقافية والاجتماعية مرة أخرى ، فإن علينا أن نحاكى إن استطعنا ، هذا العصر الأول . وهكذا أصبح أقصى حلم يتمناه هذا الفكر للمستقبل ، هو أن يتخذ شكل الماضى البعيد ، وأصبح الإحياء والتجديد هو الأمل الأكبر أما التجاوز فمستحيل !! ص ٧٧

والواقع أن هؤلاء الناس يخلطون بين الدين كوحى ونص وأمور تتعلق بالقلب والوجدان ، وبين طرق المعرفة المرتبطة بالعقل ، فهم يظنون أنه مادام الوحى كان فى العصر الأول ، وما دام الدين كدين قد وصل بذلك على ذروته فإن جميع المعارف الأخرى لابدّ أن تكون كذلك . ومن ثمّ لابدّ أن يكون هذا العصر « أزهى العصور» ، أو « هو العصر الذهبى » من كل وجه ، ومن ثَمَّ علينا أن نكتفى بأن نتمنى أن نعود إليه ، لأن مسار التاريخ لابدّ أن ينطوى بعد ذلك على حتمية السير نحو الأسوأ !! وعلينا هنا أن نكون على وعى بأن جوانب الوجدان والقلب ، ومن بينهما كل مسائل الإيمان ، ليس فيها تقدم ، فقد يكون نقاء القلب ، وحلاوة الإيمان وصلابته عند المسلمين الأوائل أروع بكثير

مما هو موجود فى جميع العصور التالية ، لكن ذلك لا يعنى أن عصرهم كان أكثر تقدماً من العصور التى تلته ، أو من عصرنا الحاضر ، أو أن تكون معرفتهم بالكون وظواهر الطبيعة ، أو حتى بفنون القتال أو طرق التجسس .. إلخ ، أكثر تقدماً مما هى عليه الآن ! إنك تستطيع أن تقول إن صوفية القرن الأول الهجرى أفضل بمراحل من صوفية العصر الحاضر ، وإن شعر المتنبى أروع من كل ما أنتجه العرب المحدثون من شعر ! نعم ! لكن يستحيل عليك أن تقول ـ رغم ذلك كله ـ إن العلم فى هذا العصر الأول كان أفضل مما هو الآن ! إننا حين نتحدث عن التقدم ، فإننا نقصد تقدم العلوم والمعارف بجميع أنواعها ، فالتقدم لا يكون إلا فى الجانب العقلى سواء ما يتمثل منه فى تفسير ظواهر الطبيعة ، وهو ما نسميه بمجموعة العلوم الطبيعية ، أو مجموعة العلوم الرياضية ، أو ما ينتجه العقل من أفرع أخرى للعلوم كعلم اللغة أو علم الفقه .. إلخ

ومن ثَمّ فكل مَنْ يجعل العصر الذهبى المجيد فى العالم الإسلامى هو عصر الوحى الأول هكذا بإطلاق ، يعنى فى جميع الميادين ، إنما يخلط بين الأمرين خلطاً فاحشاً ، يترتب عليه نظرة خاطئة ، تعتقد أن قصارى الأمل هو أن نكرر فى المستقبل لحظة معينة من لحظات الماضى ، وعندئذ يفقد المستقبل قيمته بوصفه غاية يتجه إليها نشاط الإنسان ، ومن ثم لا تعود هناك حاجة إلى جعله موضوعاً أساسياً للتفكير ! ص ٧٥ .

والغريب أن أصحاب هذه الدعوة يقتبسون حديثاً نبوياً يقول : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .. »

مما يعنى أن التاريخ الإسلامى بعد عصر الخلفاء الراشدين ، كان ينطوى على حتمية التقدم إلى الأسوأ ، ومن هنا وجد الإحساس بتقهقر الحياة الاجتماعية والسياسية فى الإسلام صدى عظيماً ، وقوة عارمة فى حياة المسلمين ص ٧٦ .

والواقع أن هذا الحديث الشريف لا يمكن ، منطقياً ، أن يعنى أن عصر الرسول ﷺ كان خير العصور من جميع الوجوه ، وفى جميع الميادين : من حيث وسائل المواصلات مثلاً ، أو معلومات الإنسان عن الفلك ، أو العناصر الكيميائية ، أو الفيزياء ، أو تحليل الجراثيم .. إلخ .

فمثل هذا التفسير يعنى المصادرة على كل تقدم ، بل المصادرة على قيمة الإسلام نفسه باعتباره معيناً على التقدم ! فإذا كان كل ما هو مقبل من أحداث وعصور وتاريخ سيكون بالضرورة أسوأ من سابقه فما الذى يفيدنى فيه الإسلام إذن ؟! وكيف يمكن له أن يفيدنى فى مواجهة متاعب الحياة المقبلة بحيث تصبح أفضل ؟! ولماذا أنزل أصلاً مادام الحكم بالتطور السيئ أمراً حتمياً لا مفر منه ؟! ألم يكن من بين أهدافه أصلاً تطوير الحياة ودفعها إلى الأمام ؟!

ثم لماذا لا يكون مغزى الحديث الشريف ، إنه « خير العصور» من الناحية الدينية فحسب ، من حيث أن الإسلام ظهر فيه وهو آخر الديانات ، أو القمة التى وصل إليها الدين كدين ؟! أو قد يكون المقصود « حرارة الإيمان وصلابته » عند المسلمين الأوائل ؟! وبمعنى آخر لِمَ لا نجعل مغزى الحديث منصباً على « الجوانب الوجدانية» التى هى بطبيعتها لا تتقدم .. ؟!

ثم لماذا لا يكون مغزى الحديث مختلفاً عما يفهم منه لأول وهلة ، ولِمَ لا نقول إنه يتحدث عن « الصداقة » أو « الصحابة» ؟!ـ فالقرن فى اللغة الصديق والصاحب .. « فخير الصحابة هم صحابتى .. إلخ »

ولاسيما وأنه يتحدث بالجمع فيقول : « ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .. » ولم يقل « ثم الذى يليه .. » أعنى لا يتحدث بالمفرد ، ثم هل كانت كلمة «قرن» فى ذلك الوقت تستخدم بمعناها الحالى ، أعنى مائة سنة ؟! نحن نعرف أن العرب كانوا يؤرخون لا بالسنين ، بل بالأحداث الكبرى ، فيقولون مثلاً « عام الفيل .. » إلخ ، ولم يبدأ التقويم بالسنين إلا فى عهد عمر بن الخطاب ، عندما أرخ بالهجرة ،

ومن ثَمَّ فالأرجح أن كلمة « قرن» بمعنى مائة سنة أخذت بعد ذلك عن الغرب !

ولو أننا استطردنا فى عرض مجموعة أخرى من الأفكار الهامة التى يعرض لها الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه عن « الصحوة الإسلامية» لوجدنا أنه يختتم حديثه عن المستقبل بمناقشة فكرة « الإمام » أو « المهدى المنتظر» ، فيرى أن هناك مَنْ يعتقد أن « فكرة المهدى المنتظر » استثناء عن الإتجاه العام الذى ينظر إلى التاريخ نظرة ارتدادية ، ولكنى أعتقد أن التحليل الدقيق لفكرة « المهدى المنتظر» ، كفيل بأن يدرجها ضمن الإطار التقليدى الذى يجعل الزمن اللاصق لعصر الوحى ، أو الرسالة إرتداداً أو تراجعاً .. ص ٧٨ والسبب الذى يجعل هذه الفكرة تكراراً للفكرة السابقة وصورة حرفية منها ، إن أقصى ما نأمل أنْ يصل إليه حكم « المهدى المنتظر » ، هو « عودة» العدل إلى ربوع الإسلام مرة أخرى ، ومهمته كما يتصورها الخيال الشعبى ، هو أن يقضى بسيفه البتَار على تلك القوى الظالمة التى أفسدت حياة المسلمين ، ويعود بهم مرة أخرى إلى العصور الزاهية الأولى !!

لكن ألا يمكن أن نتصور إمكان قيام « المهدى المنتظر» بثورة شعبية ، مثلاً يقيم بواسطتها عدلاً من نوع جديد لم تعرفه البشرية من قبل .. ؟! يجيب الدكتور فؤاد زكريا بقوله :« إنَّ اشتراط كون الإمام» أو « المهدى المنتظر» من آل البيت أمر له دلالته البالغة فى هذا الصدد ، ذلك أن انتماءه إلى بيت الرسول يرمز للاستمرار بين الماضى والحاضر ، ويحدد سمات المستقبل المنتظر والمأمول بأنها « بعث» لعصر العدل الأول من جديد ص ٧٨ .

والواقع أن الأمل فى « المهدى المنتظر » كان من الممكن ، فى ظروف أخرى أن يؤدى إلى تصور « يوتوبيا» مستقبلية محددة المعالم ، يسقط عليها الإنسان المضطهد كل آماله فى مجتمع أفضل وأعدل ، ويتخلص

فيها الإنسان من قيود الماضى والحاضر ، مطلقاً العنان لخياله كيّما يبنى هذا المجتمع المثالى بصورة حرة طليقة ، لكن كل ما قيل عن « المهدى المنتظر » لم يشكل « يوتوبيا » بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، وكان السبب الحقيقى لذلك ، هو أن حلم العدالة هذا لم يكن حراً طليقاً ، بل كان مقيداً بجميع القيود التى تحكمت فى نظرة المجتمع الإسلامى إلى التاريخ ، وهى النظرة التى لا يطلب فيها من المستقبل ، فى حالة التفاؤل الشديد ، أكثر من أن يكون ترديداً لأزهى العصور الماضية ص ٧٩ .

وهكذا تقضى هذه الجماعات الدينية على كل أمل فى التقدم ، وتجعل أقصى حلم يتمناه المسلم للمستقبل ، هو أنْ يرتد إلى شكل الماضى البعيد - والسبب أنها خلطت بين « دين » و « علم» بين ما هو خاص بالوجدان ، وبين ما يتعلق بالعقل الأول ،لا تنطبق عليه فكرة التقدم بل قد يكون الماضى فيه أنقى وأروع من الحاضر « فلا يمكن أن يفنى العاشق اليوم فى عشق حبيبته ، بأكثر مما فنى قيس فى عشق ليلاه !» ، أو « أن تحزن الأم الثكلى على فقيدها على نحو أكمل من حزن أو بكاء الأمهات بالأمس ! » كّلا ! إن التقدم لا يكون إلا فى معرفتنا العلمية بمعناها الواسع ! وإذا لم يعِ المسلمون هذه التفرقة بوضوح ، فسوف نظل بلا مستقبل ، وسوف يكون مستقبلنا هو ماضينا حقاً .. !!

* * *

العقل العربى.. والمستقبل

كيف ينظر الإنسان إلى المستقبل ؟

ذلك سؤال بالغ الأهمية إذ يتحدد ، بناء على الإجابة عنه ، موقف هذا الإنسان فى سلّم التقدم ! فلا شك أن التفكير فى المستقبل بطريقة علمية منظمة ، أصبح سمة من سمات المجتمعات المتقدمة ، ومن هنا فقد ازداد الإهتمام فى هذه المجتمعات ، بما يسمى بالدراسات المستقبلية أو علم المستقبل FUTUR 0LOGy ، فلا شئ يترك للصدفة ، ولا شئ يبقى على سبيل التمنى والرجاء ، وإنما كل شئ يدرس عليها بقدر ما تتيحه له إمكاناته الحاضرة .. فهل بدأ « العقل العربى » ..؟!

- ثم هل هناك طرق أخرى منوعة ومختلفة إلى جانب الطريقة العلمية للتفكير فى المستقبل .. ؟!

فى إجابتنا عن السؤال الأول لابد لنا أن نعترف مقدماً ، أن العقل الإنسانى واحد عند جميع البشر ، أوهو كما قال أبو الفلسفة الحديثة « رينيه ديكارت ١٩٥٦ - ١٦٥٠ R. DESCARTES » ، « أعدل الأشياء قسمة بين الناس ! » إلا أننا حين نتحدث عن « العقل العربى » ، فإننا نستخدم مثل هذا التعبير على سبيل التجاوز ؛ لنقصد به ملامح الفكر كما هى سائدة فى مجتمعاتنا العربية الآن ، وكما تركها لنا التاريخ ، أى أن هناك موروثا فكرياً تركته لنا العصور الغابرة يتجلى فى طرق التفكير الحاضرة ، وفى سمات خاصة من التفكير يمارسها الإنسان العربى فى الوقت الحاضر ، وذلك هى ما نطلق عليه تعبير « العقل العربى » .. !

أما السؤال الثانى : هل هناك طرق مختلفة للتفكير فى المستقبل ؟ . فإن الجواب بالإيجاب : يقول الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه الهام « الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل » : « لقد إتخذ التفكير فى المستقبل خلال فترات طويلة من التاريخ أشكالاً غير علمية تمثلت فى

العرافة ، والتنجيم ، وقراءة الطالع بوسائل متعددة، ولكن هذه الأشكال كانت ترتبط كلها بنظرة إلى المستقبل على أنه شئ مُقَدَّر سلفاً رسمته وخططت له قوى خارقة للطبيعة - ولا تتاح معرفة هذا المستقبل المُقدَّر و«قراءته» إلا لأولئك الذين يملكون بدورهم قدرات خارقة « ص ٦٥» ، فكان يُنظر إلى العرَّاف ، على سبيل المثال ، بوصفه شخصاً بعيد « النظر الروحى » ! ويقولون كما أن هناك فى العالم الطبيعى « قِصَر نظر وطول أو بُعد نظر » فكذلك هناك فى العالم الروحى أناسَ لديهم « طول نظر » أو « بُعد نظر» ، روحى ، أى فى استطاعتهم قراءة المستقبل البعيد الذى لم يقع بعد ، وهكذا يصبح لدى العرَّاف قوة تمكنه من رؤية الأشياء والحوادث غير المنظورة فى الزمان والمكان !!

لكن فى أحقاب أخرى كان التفكير فى المستقبل يتخذ أشكالاً خيالية ، فيتقن الروائيون والأدباء فى رسم صورة لما سيكون عليه العالم بعد زمن يطول أو يقصر ، دون أن يكون لهذه الصورة من أساس سوى تخيلاتهم وحدها ، مضافاً إليها تمنياتهم بمستقبل أفضل للبشرية ، كما فعل أصحاب « المدن الفاضلة » ولاسيما المحدثون منهم ، توماس مور Thomas More «١٤٧٧ - ١٥٣٥ » فى كتابه « يوتوبيا Utopia أو المدينة الفاضلة .. » يرحل بك فى رحلة طويلة إلى أرض خلقها خلقاً بخياله ؛ ليعرض عليك هناك شعباً يعرف كيف يعيش سعيداً ، فلا حروب تفتك بالناس ، ولا استبداد عند الحاكمين . و« هـ . ج . ولز H. G. Wells ١٨٦٦ - ١٩٤٦ » فى كتابة «يوتوبيا حديثة » يتنبأ كذلك بحياة اشتراكية ، لا تعرف الفوارق بين الأفراد ولا بين الأمم : إنه يُبشِّر بمدينة واحدة عالمية ، ولغة واحدة وحياة تستفيد بمخترعات العلم الحديثَ ، ويتمنى للناس حرية الحب ، وتعاون العلماء فى الجامعات ، واشتراكية الأرض ، وأن يكون لكل إنسان حد أدنى من العيش !

وبرغم ذلك كله فإن المعرفة العلمية هى التى أتاحت لأول مرة ، وضع المستقبل فى إطار دقيق ، لكن ما هى سمات النظرة العلمية إلى المستقبل التى تجعلها تختلف عن نظرة العرّافين والمنجمين الخرافية ، من ناحية ، وعن النظرة الخيالية عند الأدباء والشعراء من ناحية أخرى ؟! يجيب الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه السالف بقوله : « إن السمة الأساسية للنظرة العلمية هى النظر إلى المستقبل فى الميدان البشرى على أنه ليس شيئاً مُعداً سلفاً ، وإنما هو شئ يُسهم الإنسان بصورة متزايدة ، فى صنعه « ص ٦٥» هذا بالنسبة للميدان البشرى ، فكيف تكون النظرة العلمية فى ميدان الطبيعة .. ؟! يقول : « أما فى الميدان الطبيعى فإن المعرفة الكافية للعالم فى وضعه الحاضر كفيلة بإيجاد تنبؤات دقيقة عنه ، والفرق بين تنبؤات العلم ، وتنبؤات العرّافين واضح كل الوضوح : فالأولى مبنية على دراسة كاملة للواقع الحاضر ، والثانية مبنية على « قراءة» لأوضاع يفترض إنها مكتوبة فى مكان ما ، لا يمكن إدراكها بقوى الإنسان العادية » ص ٦٦ .

ويرى الدكتور فؤاد زكريا أن الدراسات المستقبلية ، أو النظر إلى المستقبل بطريقة علمية مدروسة لا تزال محدودة جداً فى العالم العربى ، وهى إنْ وجدت لا تخرج عن النطاق الأكاديمى ، ولا تكون جزءاً من نسيج التفكير الاجتماعى ، أو من الممارسات الفعلية سواء على مستوى الأفراد أو الحكومات ، أعنى على المستوى الشعبى أو الرسمى ! وهو يضرب على ذلك أمثلة ابتداءً من رجل الشارع حتى الحكومة !

يقول : « حين نفكر بعمق فى حالة رب الأسرة ، ذى الموارد المحدودة الذى ينجب عشرة أطفال ، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الوسيلة التى سيدبر بها احتياجاتهم فى مختلف مراحل حياتهم المقبلة ، نجد أن الموقف الفكرى الكامن من وراء هذا التصرف ، هو أن المستقبل فى أساسه « مجهول» ، وبالتالى فهو يسمح بجميع الاحتمالات ، وأن

مجرد رسم خطة فى الحاضر لما يمكن أن يحدث فى المستقل هو تدخل من العقل الإنسانى فى أمور يجب أن تترك ؛ لتأخذ مجراها تلقائيا ، بل إن هذا التصرف يكون عادةً مصحوباً فى معظم الأحيان بنوع من الأمل الساذج فى حدوث تطورات غير متوقعة ، تختلف تماماً عن الحاضر . وبعبارة أخرى فالفكرة الكامنة هنا هى أن المستقبل ليس نتيجة منطقية للحاضر ، وليس تطوراً طبيعياً له ، وإنما هو يحمل فى طياته إمكانات كثيرة لا تستمد من الوضع القائم فى الحاضر ، صحيح أن جميع الأفراد لا يتصرفون على هذا النحو ، وأن هناك من يخططون ، على المستوى العائلى ، وصحيح أيضاً أن هناك عوامل معروفة ترتبط بهذا النوع من التصرف ، مثل انخفاض المستوى التعليمى والاقتصادى ، إلخ .. لكن ما يهمنا فى الموضوع هو تحليل الاتجاه الفكرى ، الذى يكمن خلف مثل هذا السلوك ، الذى لا يفكر أحد أنه واسع الانتشار فى العالم العربى .. ص ٦٧ .

ومعنى ذلك أن الفرد ، فى مجتمعاتنا العربية ، لا ينظر إلى المستقبل ، بصفة عامة ، نظرة علمية لكن إذا كان ذلك يصدق على المستوى الشعبى فكيف ينطبق على المستوى الرسمى ؟! أعنى : كيف يمكن أن نقول إن « الحكومات العربية » لا تخطط للمستقبل ، مع أن هناك كثرة من وزارات التخطيط فى بلادنا ؟! هذا أمر تجدر مناقشته بشئ من التفصيل .

* * *

طاخ .. طيط .. !

يرى الأستاذ الدكتور / فؤاد زكريا فى كتابه الهام : « الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل » أن كل من البلاد الغنية والبلاد الفقيرة ، فى العالم العربى ، لا تفتقر إلى الدراسات والتخطيطات ذات الاتجاه المستقبلى : فالفنيون والأخصائيون يقدّمــون للمسؤولين ، بلا انقطاع ، تِلالاً من الأبحاث والتقارير ، ولكن الفجوة تظل قائمة بين البحث التخصصى والممارسة الفعلية للمجتمع . ولكنّا نجد مع ذلك أن كثيراً من البلاد العربية وزارة للتخطيط ، وحتى فى البلاد التى يوجد فيها وزارة كهذه ، فإنها تكون عادةً من أقل الوزارات قدرةً على تنفيذ برامجها وإلزام الآخرين بها ، مع أن الواجب فى بلاد العالم الثالث بالذات ، أن تكون هذه أكبر الوزارات أهمية . لكن « التخطيط » عندما يتلخص على مستوى السياسة الفعلية فى « إسكات المشكلات » ، بدلاً من إيجاد حلول طويلة الأمد لها ، فأسلوب العمل عندنا هو العيش يوماً بيومٍ بغير اكتراث للمستقبل From Hand To Mouth

كما يقول المثل الإنجليزى ، أعنى : أن المهم هو الخروج من الأزمة المباشرة على أى وضع ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث . أما الوعود التى تصدر بشأن المستقبل فليست لها أية دلالة جدية . ولقد كان بعض النقاد يحاولون من آن لآخر تسجيل هذه الوعود ، ومتابعة مدى تنفيذها على مدى السنوات التالية . وكانوا يخرجون من ذلك بنتائج سلبية طريفة . لكن حتى هذه المتابعة توقفت الآن ، وأصبح الناس يفترضون مقدماً أن الوعود تُقدّم إليهم لاستهلاك الوقت فحسب ، ولا يجدون لذلك ضرورة لمحاسبة أصحابها عليها بعد . ويرى الدكتور فؤاد : « إننا لو اقتصرنا على تفسير هذا الإخلال بالوعود على أنه علامة من علامات الضعف الأخلاقى ، أو على أنه برجماتية سياسية ، لكان هذا التفسير غير كافٍ على الإطلاق ، والحقيقة أن هناك ، بالإضافة إلى

العوامل السابقة ، موقفاً معيناً من المستقبل ، يَحُول دون السعى الجاد إلى التحكم فيه ، وتحديد إتجاهه مسبقاً ، وتوجه عام نحو ترك المستقبل يحدث عندما يحدث ، لأن من طبيعته أن يظل مجهولاً ، ولأنه يأتى دائماً على صورة غير متوقعة ، ومن ثَمَّ فمن العبث أن نحاول استباقه بالفكر ، أو التحكم فيه بالفعل » ص ٧٠ .

وهو يضرب لنا أمثلة بحكومات الدول العربية بنوعيها محدودة الموارد والبلاد الغنية بالبترول معاً يقول : « لنبدأ بمثال من الدول محدودة الموارد :

فالأوضاع التى أصبحت عليها مدينة كالقاهرة ، تكفى للحكم بأنها ستصبح ـ لو استمرت على ما هى عليه ـ مختنقة تماما بعد سنوات قلائل ، بل أن جوانب الحياة فيها ستصاب بالشلل التام ، كالمرور فى مناطق رئيسية ، وخدمات المياة والكهرباء والمواصلات العامة ، .. إلخ ، وليست المسألة هنا متعلقة بالازدحام ، أو صعوبة الحياة اليومية ، بل إنها تتعلق بمجرد إمكان الحياة أصلاً . ولا شك فى أن معظم المشكلات الراهنة ، كان من الممكن توقعها ، ومع ذلك فقد تُركتْ المرافق ليلحق بها الخراب ، دون أن يحرك أحد ساكناً . كذلك فإن المشكلات المقبلة فى التسعينات ، أو فى بداية القرن الجديد ، واضحة منذ الآن ، ولكن ترك الأمور تسير يوماً بيوم ، وتسكين المشكلات مؤقتاً بدلاً من حلها جذرياً ، هو القاعدة السائدة ، وحين يسود فى وقت ما اتجاه إلى الاهتمام فى المستقبل بمشكلة أساسية ، يكون ذلك فى الأغلب من قبيل الدعاية ، التى لا تؤخذ مأخذ الجد . فمنذ سنوات قلائل انتشرت فى مصر موجة من الاجتماعات ، والدراسات ، والكتابات الصحفية ، حول شعار « إعادة بناء القرية المصرية فى مدى عشرين عاماً » وبقدر ما شاركت الحكومة ، والهيئات الأكاديمية فى هذه الموجة ، لم تسفر فى النهاية عن شئ ملموس ، ويتضح الآن بعد مضى ما يقرب من ثلاثة أرباع المدة المحددة لإعادة البناء، أن الموضوع كله كان شعاراً دعائياً

فحسب ، وأن الطاقات الفكرية والعلمية التى استنفدت فى بحثه قد ضاعت هباء ، مما يوحى بأن المسألة لم تكن قد أُخذت بجدية من بادئ الأمر !! ص ٦٧

ويواصل الدكتور فؤاد حديثه قائلاً : « ومثل هذا يقال عن كل الجهود التى بُذلتْ من أجل بحث موضوع « مصر فى سنة ٢٠٠٠ » ، وهو الموضوع الذى استنفدت فيه طاقات عديدة ، ولكن نتائجها ستظل نظرية ، وستظل الفجوة بينها وبين الممارسة الفعلية غير قابلة للعبور ، إنَّ الموقف الفكرى الرسمى فى هذه الحالات ، لا يختلف كثيراً عن موقف رب الأسرة الذى عرضناه فى المقال السابق، فعقلية « ربنا يفرجها» هى السائدة فى الحالتين ، دون أن يبذل الإنسان أى جهد لكى يساعد على تحقيق هذا « الفرج » المرتقب ص ٦٨ .

ثم ينتقل الدكتور فؤاد إلى البلاد العربية الغنية بالبترول ، والتى لا نجد أن نصيب التخطيط فيها أفضل حظاً من شقيقاتها !

يقول : « لننتقل الآن إلى الطرف الأعلى فى سلَّم الثروة ، ونتأمل وضع البلاد الغنية بالبترول ، والتى تمر حاليا بفترة ازدهار هائل ، وإن كان الجميع متفقين على أنه ازدهار مؤقت ، وعلى أن الثروة الخيالية التى تتمتع بها هذه البلاد موقوته بفترة لن تمتد - فى رأى المتفائلين - أكثر من خمسين عاماً ، ولا أحد ينكر تلك الحقيقة الواضحة ، وهى أن هذه الدول لم تعمل حتى الآن على الإفادة من تلك الفرصة الهائلة ، التى أتيحت لها فى وقتنا الراهن للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخها ، كيّما تشيد بناء اقتصادياً متيناً قادراً على الاستمرار بقواه الذاتية ، وإعاشة الأجيال التالية على مستوى معقول بعد أن تنضب مواردها تحقيقاً لرغبات استهلاكية ومتع وقتية تنطوى على إسراف خيالى فى الترف ، ولكنها كلها ترتبط بتحقيق لذة «اللحظة الحاضرة» ، ولا تعمل حساباً للمستقبل إلا على المستوى الفردى بالنسبة إلى مَنْ يملكون تأمين هذا المستقبل لأبنائهم فحسب . ويقارن الدكتور : فؤاد

بين الفرص المتاحة للدول العربية البترولية ، وبين ما حدث فى أوروبا فى عصر النهضة وأوائل العصر الحديث ، لتبيّن لنا الفارق الهائل بين نمطين من التفكير ففى أوروبا تراكمت ثروات كبيرة فى عصر النهضة والقرن التالى ، نتيجة لازدهار التجارة وفتح أسواق جديدة ، وعلى الرغم من أن هذه الثروات لا تقارن بما جلبته الثروة النفطية .، فإنّ ذلك الرخاء الأوروبى قد استغل كله فى إيجاد تراكم رأسمالى كان هو الأساس المباشر للنهضة الاقتصادية وللتحول الصناعى فى أوروبا الحديثة . وقد كشف لنا كثير من الكُتّاب الغربيين عن صفات رجل المال ، ثم رجل الصناعة فى أوروبا فى ذلك الحين .

وأوضحوا كيف كان أشبه بالزهاد ، فيما يتعلق بمتعته الشخصية . وكيف كان طموحه كله يتجه إلى التوسع فى أعماله ، ودعم قاعدتها الاقتصادية .. ومثل هذا التفكير مستقبلى فى الأساس ، لأنه يرتكز على تجاهل المتعة الحاضرة فى سبيل تحقيق أهداف لن تؤتى ثمارها الكاملة إلا فى المستقبل . وحين نقارن بين هذا النمط وبين النمط العادى للثراء البترولى العربى فى الوقت الحاضر ، نستطيع أن ندرك بوضوح الاختلاف بين العقلية المسقبلية ، والعقلية التى تستبد بها إحساسات اللحظة الحاضرة .. ص ٦٩

وينتهى الدكتور فؤاد زكريا من بحثه الهام إلى نتيجة أساسية ، هى أن الرؤية العربية إلى المستقبل ليست علمية ، فالعقل العربى مازال ينظر إلى المستقبل بطريقة خرافية ، كما كان فى الماضى ، أما ما يوجد من دراسات مستقبلية على المستوى الأكاديمى ، فلا قيمة له ، لأنه لا يشق طريقه إلى عالم الواقع ، ولا يتحول إلى ممارسات فعلية . ولقد علّق بعض الظرفاء قائلاً : الواقع أن كلمة « التخطيط » لا معنى لها فى بلادنا ، لأن ما يوجد عندنا هو « طاخ .. طيط !!» أى أخماس فى أسداس يضرب بعضها بعضاً .. ! مع أننا من أكثر دول العالم وضعا للخطط : خطة للتعليم ، وخطة للإسكان ، وخطة خمسية وعشرية إلخ

إلخ ومع ذلك ينتهى هذا كله إلى لا شئ !! فليست هناك خطة توضع ، وتنفذ ، وترى النور بكل أبعادها .. وإنما ترانا نقوم بوأدها فى المهد .. !!

لكن ما هى الأسباب التى جعلت نظرتنا إلى المستقبل متخلفة إلى هذه الدرجة.. ؟! أهى أسباب دينية ؟! أو أنها أسباب حضارية ؟ أهى أسباب اجتماعية وسياسية ؟! أم أنها ذلك كله فى آن معاً ؟! إنّ ذلك يحتاج إلى وقفة لتعليل هذه المشكلة وبيان أسبابها الرئيسية .

* * *

و .. تقبل الله منا ومنكم .. !

ليلتها لم تنم المدينة الصغيرة ، فغداً عيد الأضحى المبارك لسنة ١٢٠هـ .. والكل يستعد لاحتفالات الصباح : الأطفال يُعدّون الملابس الجديدة ، ويحتضنون هداياهم ، ويمنون النفس بقضاء عيد سعيد ! أمّا الكبار فقد أخذوا يهنئون بعضهم بعضاً .. « أعاده الله عليكم باليمن والبركات ! » لنسهر الليلة سهراً طويلاً ، ولنتسامر شَطراً طويلاً من الليل !! حتى إذا أذنّ المؤذن لصلاة العيد تجمعوا للصلاة، وساروا في موكب حافل يتقدّمهم « خالد بن عبدالله القسرى » والى الكوفة ، وهو يصطحب معه واحداً من كبار المفكرين في ذلك العصر « الجعد بن درهم» ، شخصية لها وزنها وقدرها في عالم الفكر في ذلك الوقت : فقد اختير ؛ ليكون مؤدباً ومربياً لـ « مروان بن محمد » أحد أمراء بنى أمية ، وآخر خلفائهم ، ولقد كان من قوة الشخصية ، بحيث طبع الخليفة بطابعه حتى لُقِّب بـ « مروان الجعدى» سار الموكب الحافل إلى المسجد لصلاة عيد الأضحى المبارك ، واعتلى « خالد القسرى » والى الكوفة ، المنبر وخطب فى الناس خطاباً جامعاً قال فى نهايته : « أيها الناس اذهبوا وضحّوا بضحاياكم ، تقبل الله منا ومنكم ، أما أنا فإنى مضحٍ اليوم بالجعد بن درهم ، فإنه يقول : ما كلّم الله موسى تكليماً ، ولا اتخذ خليلاً تعالى الله عمّا يقول علواً كبيراً .. !! ثم نزل واستلّ سكيناً وذبح الجعد بيده فى أسفل المنبر !!

كانت جريمة الجعد المعلنة للناس أنه نفى الصفات عن البارى تعالى ، أو أنه يمكن أن يتخذ خليلاً بمعنى صداقة الند للند ، وذلك لأن نفى الصفات عن الله تعالى يعنى أنه سبحانه لا يمكن أن يكون شخصاً حتى يتخذ أحداً صديقاً ! كما أن الله لا يمكن أن يحابى أحداً ويفضّله على سائر الأنبياء ! فضلاً عن أن نفى الصفات أدى به إلى نفى الكلام عن البارى تعالى ! وأياً ما كان موقفنا مما أراد «الجعد بن درهم» فلا

أظن أحداً يوافق على أن يكون « رأى المفكر» مبرراً لأن يُذْبَح أسفل المنبر ، وأن يضحى به كما يضحى بالشاة ! ومن هنا فإنك تجد بين المؤرخين ما يشبه الإجماع على أن « ذبح» الجعد كان لأسباب سياسية ارتَدَتْ ـ كالمعتاد ـ زىّ التدين الزائف !

باسم الإسلام السمح ، الذى حرّم قتل النفس البريئة قُتل « الجعد بن درهم» ! ومازال يذبح كل يوم على مرأى ومسمع منا جميعاً لأسباب سياسية ترتدى مسوح الدين وتتوارى خلفه ! وماذا تقول فى أمر الطائرات التى تُخْطَف باسم الدين ، ويُقْتَل فيها الأبرياء ، وتُلقى بجثثهم خارج الطائرة فى استهتار بالغ ! ويعذب غيرهم بغير ذنب .. ثم يقال لنا : إن هؤلاء القتلة فى الجنة يوم يبعثون ! هم « الناجون من النار» ـ هكذا حكموا على أنفسهم ، أما غيرهم فهم فى عذاب السعير ! تماماً كما فعل خالد القسرى ! ، ويدخل «متدينون» على مفكر عربى يقتحمون بيته ، ثم يطلقون عليه وابلاً من الرصاص : مئات الأعيرة النارية لأنه لا يقول فى رأيهم إلا كفراً وهم الحفظة على الدين ، وقتل الزنادقة ، كما فعل خالد القسرى ـ فى رأيهم واجب يحتمه الدين ! وكأن إسرائيل وما فيها ، ومَنْ فيها ـ تخلو تماماً من الكَفَرَة والزنادقة ، ولا تضم إلا أنقياء القلب من « أهل الكتاب » فهم أطهار أبرار لا يجوز مسهم ـ دع عنك ذبحهم ـ وإلا عرضت نفسك لعذاب النار !

وتقوم الفتن الطائفية فى كل ركن من أركان العالم الإسلامى حتى تتحول إلى حروب طاحنة ، كل ذلك باسم الدين ! وتوضع القنابل فى الطرق العامة ، والأماكن المزدحمة ، وتلغم السيارات ؛ لتنسف أكبر عدد من المتاجر ، وتقتل أضخم عدد من المسلمين .. و« تقبل الله منا ومنكم .. ! » فالجهاد الحقيقى أن يُقْتَل المسلم ، ثم يبحث لقتله عن مبرارت وأعذار !

حدثنى صديق فقال :

- هل تتصور أن هذه الجماعات قتلت جندياً أثناء نوبة حراسته ؛ لكى تستولى على سلاحه ؟!

ولما سألته مندهشاً : ولِمَ ؟!

قال « لأنهم يرون الجهاد فى سبيل الله ، ولا جهاد بغير سلاح ، ومن ثمَّ فهم فى حاجة إلى سلاح هذا الجندى ، حلال ذبحه .. !! » .

« الجعد بن درهم» يُذْبَح عندنا فى اليوم مائة ألف مرة ومرة باسم الدين ، والدفاعِ عن الدين ، والمحافظة على القيم الدينية ، والجهاد فى سبيل الدين ! يذبح الفكر كل ساعة أسفل المنبر ! وتُقتل النفس البريئة التى حرَّم الله إلا بالحق ، وتراق دماء المسلمين فى كل مكان .. « وتقبل الله منا ومنكم .. !»

عجباً !! أى تدين هذا .. ؟! أى تدين يبيح لك أن تقتل إنساناً لا تعرف عنه شيئاً ، ولا تدرى ما الذى يخلفه موته على أسرته وأولاده ؟! أى تدين يبيح لك أن تقتل نفساً بريئة لكى تستولى على سلاحها ؛ لكى « تُسلِّح» نفسك « للجهاد» .. ؟ وما الذى سوف يسفر عنه جهادك يا تُرى ؟! نشر العدل ؟! كيف وقد نشرت الظلم والذعر والإرهاب بين الناس ؟!

أيمكن لمثلك أن يعمل يوماً على نشر الحب ، والسلام ، والإخاء ، والعدل ، والحرية ، والمساواة بين الناس ؟! كلا ! لأن مَنْ يؤمن حقاً بهذه القيم الرفيعة يستحيل أن يُشهر سلاحه فى وجه برئ ، يستحيل أن يقتل شخصاً لمجرد رأى كتبه ، أو قاله - أو جاهر به ، ولنتأمل قول الله تعالى ﴿ إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ « ٤٨ النساء» وحرية الرأى والفكر والقول مكفولة داخل حظيرة الإسلام - والمرأة التى وقفت فى وجه عمر خير شاهد على ما نقول ، ورد الفاروق عليها « أخطأ عمر وأصابت امرأة » تبرهن لك على أن

الإسلام لا يرفض الرأى المعارض ، ولا يواجهه بقوة السلاح ، حتى وإن كان هذا الرأى الذى نعارضه هو رأى الخليفة أمير المومنين عمر بن الخطاب الذى جعل الله الحق على قلبه ! لم نسمع أنه آذى مفكراً لأنه يفكر أو شخصاً لأنه يجتهد ، أو شجَّع أحداً على أن « يقتل » الناس بغير حق .. ويسميه جهاداً !!

أما الآن فذلك كله يحدث ... والعجيب حقا أن يظن أصحابه أنهم « ناجون من النار » بعد أن جعلوا شعارهم « اقتل ، واذبح كل مَنْ يعترض طريقك ، اسحل هؤلاء القوم فهم فى جاهلية جديدة ، عذبوا مَنْ لا يتفق معكم فى الرأى ، أطلقوا الرصاص على كل كاتب يسخر منكم ، وأشعلوا الحرائق ، وفجروا القنابل فى كل مكان ، اذبحو « الجعد بن درهم » أسفل المنبر ، داخل المسجد لا خارجه ، وضحّوا بالفكر والمفكرين ، وبالعلم والعلماء ، وبالرأى وأصحابه ... « وتقبل الله منا ومنكم !! »

* * *

ثانياً : اجتماعيات

١ ـ وكان الإنسان هلوعاً .

٢ ـ ذلك المجهول .

٣ ـ دفاع عن الصمت .

٤ ـ ودفاع عن الكلام أيضاً .

٥ ـ مَنْ يحفر فوق قبرى ؟

٦ – أفراح وأتراح .

٧ ـ محكمة ..!

٨ ـ لا تغفر لهم يا أبتاه.. !

٩ ـ أهى حقاً أحاديث المقاهى والبارات ؟!

١٠ ـ عود إلى المجتمعات الورقية .. !

وكان الإنسان هلوعا ..!

يُروى عن سقراط أنه قال : « لو أن مصائب البشر كلها جُمعتْ ثم أعيد توزيعها مرة أخرى فيما بينهم بالتساوى لرأى الذين يظنون أنفسهم أكثر الناس بؤساً أن ما يعانونه منها الآن أقل مما أصابهم بعد إعادة التوزيع » .

ولقد كتب الأديب الإنجليزى جوزيف أديسون J. Addison « ١٦٧٢ ـ ١٧١٩ » يقول : إنه كان يفكر فى عبارة سقراط هذه عندما غلبه النوم ، فرأى فيما يرى النائم ، أن « الأله زيوس Zeus » كبير الآلهة فى الميثيولوجيا اليونانية ، قد أذَّن فى الناس أن يحمل كل واحد منهم أحزانه ومصائبه ؛ ليلقى بها فى ساحة واسعة من الأرض أُعدَّت لهذا الغرض ، وسرعان ما هرول الناس جميعاً مقبّلين بعضهم فى إثر بعض يحمل كل منهم حِمله ، ويلُقى به فى هذه الساحة ، حتى تجمع من المصائب فى وقت قصير جبل شامخ علت قمته فوق السحاب !

وتنوعت الأحمال التى ألقى بها أفراد البشر :

فهذا يحمل بعناية كومة يقذف بها فى الساحة وإذا بها « الفقر» ، وآخر يلهث من التعب ثم يلقى حِمله عن عاتقه فإذا به زوجته ! وجماعة كبيرة من العجائز يلقون غضون وجوههن ، وعدد من الفتيات يتخلّصن من بشرتهن السمراء ، كما امتلأ جبل المصائب هذا بأكوام عالية من الأنوف الحمراء ، والشفاه الغليظة ، والأسنان المهترئة ، والحق أن الجزء الأكبر من الجبل قد تكون من العيوب الجسمية دون غيرها !

ولما ألقى جميع الناس أحمالهم ، سرّهم أنهم قد تخلّصوا من أحزانهم وآلامهم ومصائبهم ، وإن كانوا فى الوقت نفسه ، قد تبّينوا وهم واقفون حول الكومة يتأملون المواد المختلفة التى تتألف منها ، إنه

لا يكاد يوجد إنسان فى الجمع الحاشد من حولها إلا ورأى فيها ما يعتقد أنه من نعمَ الحياة وملاذها ، وتعجب من أصحابها كيف يعتقدون أنها من أسباب بلاياهم وأحزانهم ؟!

لكن الناس أفاقوا من تأملهم لهذا الخليط من البلايا ، وهذه الفوضى من المصائب على صوت « زيوس Zeus » كبير الآلهة ، وهو يصدر أمراً ثانياً يبيح فيه لكل إنسان أن يستبدل بمصيبته مصيبة أخرى مما ألقاه غيره فى هذه الكومة ، وأن يعود إلى داره بما يقع عليه اختياره من الجبل الذى أمامه !

تقدم رجل أشيب طاعن فى السن يشكو المغص ، ويريد وارثاً لثروته الكبيرة ، يلقى عنه مغصه ، ويختطف ابناً عاقاً ألقاه أبوه على الكومة ، وهو غاضب عليه ، ولم يمض على اختطافه ربع ساعة حتى أمسك الولد بلحية الرجل المسن وكاد يهشم رأسه ! ـ فلما قابل الرجل والد هذا الفتى توسل إليه أن يأخذ منه ولده ويرد إليه مغصه ! لكن أحدهما لم يكن فى مقدوره أن يرد إلى الآخر ما أخذه باختياره !!

وهذا عبد مقيد بالسلاسل وقد أُلقى عنه أغلاله واستبدل بها آلام المفاصل ، ولكنه ما كاد يبرح مكانه حتى أخذ يلوى وجهه ويقطب جبينه ، وكان فى وسع كل من رآه أن يدرك فى الحال أنه لم يكن الرابح فى هذه الصفقة !

وانهمكت النساء ، فيما بينهن ، فى استبدال عيوبهن ، فهذه تستبدل بظهرها الأحدب خُصلة من الشعر الأشيب ، وأخرى تستعيض عن وسطها القصير بكتفين مستديرتين ، ولكنك لا تجد واحدة منهن إلا وقد وجدت أن بدت فى العيب الجديد أسوأ من عيبها القديم ، ولم يكن هذا خاصاً بالنساء وحدهن ، بل إن كل إنسان فى هذا الجمع الحاشد قد تبّين بعد قليل أن الكارثة التى اختارها لنفسه أشد وقعاً عليه من كارثته الأولى التى أراد أن يتخلص منها . ولعل منشأ

هذا أن الكوارث التى تنزل بنا تلائم قوانا وتتناسب معها ، أو لعلنا وقد ألفنا ما يحل بنا من الكوارث وأصبحنا أقدر على تحملها والصبر عليها !!

وفى النهاية تمّ توزيع جبل المصائب والهموم مرة أخرى بين الرجال والنساء ، فكان منظرهم كلهم وهم يسيرون مثقلين بأعبائهم الجديدة مما يدعو إلى الأسى والحزن ثم الرحمة والشفقة !

وضج السهل كله بأصوات الشكوى ، والتذمر ، والألم ، والأسف ، ورقّ قلب « زيوس Zeus » كبير الآلهة ، وأخذته الرأفة بهؤلاء المساكين من البشر ، فأذّن فيهم ، مرة أخرى ، أن ألقوا عنكم أحمالكم ، وليأخذ كل منكم حظه الأول ! ولم يكد هذا الأمر يصدر إليهم حتى هرولوا مسرعين إلى الكومة ، يلقون عليها أحمالهم الجديدة ، ووجوههم تتهلل بشراً .. ! واسترد كل إنسان مصيبته الأولى ، وحملها وسار بها راضياً يحمد ربه على أنه لم يترك وشأنه ؛ ليختار لنفسه الشر الذى يريده !

ذلك هو « الحلم» الذى رآه « أديسون» وتعلم منه ألا يحزن على ما يصيبه من الآلام ، أو يحسد غيره على ما يناله من أسباب السعادة ، لأن أحد من الناس لا يستطيع أن يحكم حكماً صحيحاً على آلام جاره .. !

أرأيت ، إذن كيف أن الإنسان خُلِقَ هلوعاً ، إذا مسّه الشر جزوعاً .. ؟! وأنك لن تجد إنسانا بغير عبء من الهموم ينقض ظهره ؟ وإنه إن أراد أن يستبدل بها هموماً أخرى سوف يجد أن الثانية أشد ألماً وسوءاً من الأولى التى ألفها ، وروّض نفسه عليها ؟! ألا إن الإنسان ليطغى .. !

* * *

ذلك المجهول ..!

القصة باختصار شديد ، إن المحقق لم يجد بالمكان شيئاً غير مألوف يمكن أن يستفيد منه فى حل لغز الجريمة : فكل شئ مرّتب منظم ، لا أثر لعراك ، أو مقاومة فى حجرة النوم ، أو بقية الشقة ، ولا دليل على سرقة بل كل شئ طبيعى جداً ، عادى جداً ، فكيف قُتل ، إذن ، ذلك المدرس ؟ لقد مات الرجل مخنوقاً بحبل ، هذا أمر لا شك فيه ، فكيف تمكن القاتل من لف الحبل حول عنقه ؟! ها هى النوافذ مغلقة بإحكام ، كذلك باب المنزل ، فكيف تسلل ذلك المجرم الغريب إلى الشقة ، وأزهق روح صاحبها ، ومضى لا أثر ، وكأنه نسمة هواء لطيفة ، أو شعاع من الشمس ، دون أن يترك بصمة أو شعرة أو أى أثر مما يتركه المجرمون .. ؟!

وضاعت جهود المحقق أدراج الرياح ، وشعر بغُصة الهزيمة ومرارتها على نحو لم يحدث له من قبل . لكن لم يكد يمضى شهر واحد ، حتى استدعى للتحقيق فى جريمة مماثلة ، وكأن الجريمة الأولى قد وقعت من جديد ، تكرار بالغ الغرابة ! فيما عدا أن القتيل هذه المرة لواء قديم متقاعد ، لكنه كان مخنوقاً بنفس الطريقة وأثر الحبل محفور حول عنقه ، وفى عينيه جحوظ فظيع ، وحول الفم والأنف ، دم لزج ! أما الحجرة فلم يختل بها نظام ، وفراش الرجل كما هو ، لا عبث فيه ولا فوضى ! ـ لم يسمع صوت فى الليل ؛ ليوقظ النائمين معه من أفراد الأسرة ! صفوة القول أن الضابط المحقق وجد نفسه مرة أخرى ، أمام اللغز المحير الذى هزه بعنف منذ شهر واحد فى مسكن المدرس ! فَمَنْ يكون ذلك القاتل الرهيب ؟ لا هو لص ، لأنه لا أثر لسرقة ، ولا هو منتقم لأن التحريات أثبتت أن الرجل بغير أعداء ، ولا هو مجنون ، لأن المجنون قد يمثل ، ولكنه لا ينفذ جريمته بهذا الإعجاز الساحق !

أخذ الرجل يدير فى رأسه هذه الأسئلة دون جواب ، إنه يقف أمام

لغز محّير ، فماذا يقول للناس ، وكيف يتحمل مسئولية حماية الأرواح بعد ذلك ؟! ولم يكد يفيق من أسئلته حتى وقعت الجريمة الثالثة :

شابة فى الثلاثين ، زوجة لمقاول صغير وأم لثلاثة أطفال ، وكالعادة ، وجد كل شئ على مألوف وحاله ، عدا أثر الحبل الملتف حول العنق ، والدم حول الفم والأنف ، وجحوظ العينين ، ولا أثر بعد ذلك لشئ ! وازداد اللغز غموضا أمام المحقق ، وتطايرت شائعات تقول : إن المجرم معروف لدى رجال الأمن ، ولكنهم يتستررون عليه لصلته القوية بشخصية هامة !

وإشتد حنق المحقق فأمر بانتشار المخبرين فى مواطن الشبهات ، لكنهم كانوا يبحثون عن سراب لا وجود له ! وضاعف عدد الشرطة بالشوراع ، لكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى اكتشاف جريمة جديدة : جثة رجل شبه عار ملقى لصق جدار المخفر الذى يعمل فيه المحقق : رباه ! حتى هذا الشحات ! وتَفَحّصَ جلبابه البالى ، لكنه لم يجد فيه شيئاً ، لم يكن ثمة سوى حبل الخنق حول العنق ! ولم يكد يمضى إسبوعان حتى وقع حادث لا يقل غرابة ، إذ عثر الناس على جثة سيدة فى آخر عربة الترام مقتولة بالطريقة عينها ! ونوقشت المسألة فى الصحف ، وعلى نطاق واسع :

وانحصر التفكير فى هذا الخطر الداهم ، الذى يزحف غير مكترث بشئ لا يفرق بين شيخ وشباب ، غنى وفقير ، رجل وامرأة ، صحيح ومريض ، فى بيت أو فى ترام ، أو فى الطريق !

أخذ المحقق يتجول فى الشوارع متفقداً رجال الشرطة والمخبرين دون أن يصل إلى شئ ، ثم عاد إلى مكتب منهوك القوى يبتلع يأسه ، وفشله ، وهزيمته المرة ! ويدخل عليه زميله فيجده قد استلقى برأسه على المكتب كالنائم فيناديه لكنه لا يرد ، ويكرر النداء دون جدوى ، فيهزه ؛ ليوقظه لكنه يجد الدم فى فمه ، والحبل الجهنمى حول عنقه! .

وتنتهى هذه القصة الغريبة إلى « لا شئ » وتتقيد الجريمة ضد مجهول ، وهو عنوان القصة التى كتبها أديبنا الكبير نجيب محفوظ ، وواضح أن فى القصة رمزا ـ والأدب كله لا يكون إلا رمزاً ، إذ يستحيل على الأديب أن يقول فكرته مباشرة ، وإلا لكان باحثاً لا أديباً ـ فما الذى يرمز إليه ـ « ذلك المجهول » عند أديبنا الكبير؟!

من الواضح أنه يعالج في صورة أديبة ، موقفنا مما تسميه الفلسفة المعاصرة «بالمواقف الحدِّية » ـ وهو « النهاية » أو « الموت» ويقصد بالمواقف الحدِّية تلك المواقف التى تشكل جزءاً من ماهية الإنسان ، وهى فى الوقت ذاته تمثل « حداً لقدرته وحريته » بحيث لا يكون فى استطاعته أن يتغلب عليها من ناحية ، كما أنه لا يستطيع تفسيرها من ناحية أخرى ، ولا يبقى أمامه سوى أن يستسلم لها ! ومن أوضح الأمثلة على هذه المواقف الحدِّية عدم قدرة الإنسان على الإفلات من الموت ، فسواء أكان يعمل كالمدرس الذى تحدثت عنه القصة أو متقاعداً كاللواء ـ القتيل الثانى ـ وسواء أكان رجلاً أو امرأة غنياً أو متسولاً ، فى البيت أو فى الترام ، أو بجوار مخفر الشرطة أو حتى داخل المخفر نفسه ـ فإن ذلك كله لا يحميه من الموت ولا يمكنه من الفرار من النهاية المحتومة !

وإذا كان فى استطاعة العلم أن يعمل على إطالة عمر الإنسان ، فإن هذه الإطالة لا يمكن أن تمتد بحيث تساعده فى النهاية على الإفلات من الموت ، أو تمنع وقوعه ! لك أن تقول أن متوسط عمر الإنسان كان كذا فى الماضى وأصبح الآن كيت بفضل تقدم الطب ، واكتشاف الأمراض مبكراً ، وتطور أدوات التحليل ودقتها ـ وابتكار الجديد من العقاقير .. إلخ إلخ ـ فذلك كله صحيح ولا غبار عليه، لكن الأصحٌ منه أن تقول إن المحصلة لابدّ أن تهبط فى النهاية مهما يطل الأمد ! فالموت يمثل الجدار الصلب الذى تصطدم به قدرات الإنسان ـ فتعجز أمامه، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الاستسلام ! وهذا ما عبَّر الأديب الكبير بما كان

يشعر به المحقق من مرارة الهزيمة من ناحية ، وأنه من ناحية أخرى أمام لغز محيّر لا يستطيع فك رموزه !

وإذا كانت نهاية الإنسان لغزاً محيراً لابدّ أن يستسلم له كل مَنْ يجاهد فى حله أو تفسيره ، فإن بدايته هى أيضا لغز ، لأنها تعبّر عن موقف آخر من المواقف الحدّية، ونحن نقصد بالبداية « اللحظة التاريخية» المعينة التى يجد المرء نفسه فيها ، وقد قُذفَ به ، فجأة ، إلى العالم بغير رأى ولا مشورة ! فلم يسأله أحد متى تحب أن توجد ؟! فى أى عصر تود أن تقضى حياتك .. ؟! فى أى مجتمع تريد أن تعيش ؟. وأى لون من ألوان الثقافة تفضله أكثر من غيره ؟ لا أحد يسأله ولا أحد يطلب رأيه، وإنما يجد نفسه وقد أُلقى به فى قلْب الوجود ، ثم يُترك حائراً أمام لغز محيّر ليقول مع الخيام :

لبستُ ثوبَ العيشِ لم أستشرْ وحرتُ فيه بين شتى الفكر !

ومن هذه المواقف الحدّية أيضا : العذاب ، والألم ، والمعاناة ، والشعور بالأسى .. إلخ فقد يعجب الفقير أشد العجب ، عندما يجد الغنى يشكو ويكاد صدره يتميز من الغيظ ، والضيق والأسى . لأنه يعتقد أن « الفقر» هو وحده مصدر العذاب والضيق والألم ، أما الأغنياء فلا يحق لهم الشكوى لأنهم لا يعناون ولا يتألمون .. ! لكنه لا يعرف أن العذاب والألم .. من المواقف الحدّية التى هى جزء من جوهر الإنسان وماهيته ، ومن ثّم فلابدّ للإنسان - أياً ما كانت أحواله الاقتصادية أو أوضاعه الاجتماعية - أن يتألم ويتعذب بدرجات متفاوتة بين الناس !

يحكى أن ملكاً فى غابر الأزمان مرض بمرض عضال أعيا الأطباء وإن كانوا قد أجمعوا فى نهاية الأمر ، أنه لا شفاء للملك من هذا المرض الغريب إلا إذا لبس قميص رجل سعيد ! وانتشر أعوان الملك وحاشيته - يجوبون أرجاء المملكة بحثاً عن ذلك السعيد ، الذى سيكون فى قميصه شفاءاً للملك ، لكنهم كانوا كلما مروا فى طريقهم بواحد من

الرعية سألوه : أسعيد أنت ؟! فيجيب الرجل فى إمتعاض : أنا ؟! لن تجد فى هذه الدنيا مَنْ هو أشد منى شقاء وتعاسة ! واحتار الأعوان وازداد عذابهم وضيقهم ! لكن الفرج جاء بعد الكربة عندما وجدوا راعيا فوق الجبل يرعى غنمه وهو يغنى جذلان فرحاً ، فهرولوا إليه ؛ ليطرحوا سؤالهم التقليدى : أسعيد أنت ؟ فأجاب الرجل : نعم ! سعيد سعادة لا حد لها ! فتتنفسوا الصعداء : إذن ، إلينا بقميصك يرتديه الملك فيشفى ! فابتسم الرجل وهو يقول : قميصى ؟! لم يحدث أن ارتديت قميصا فى حياتى !! وتركوه وذهبتْ مثلاً فقيل : « السعادة عند مَنْ لا قميص له » فكان ذلك تعبيراً سلبياً عن الفكرة الفلسفية التى تقول : إن العذاب والألم من المواقف الحدّية التى تلازم الإنسان ولا يستطيع منها فكاكاً .

وقل مثل ذلك أيضاً فى الخطأ ، فلابدّ للإنسان أن يخطئ ، ومن هنا قيل : «لا أحد معصوم من الخطأ » ، أو أن « الإنسان خطّاء بطبعه » وإذا كانت مظاهر المدينة الحديثة هى الميدان ، الذى تتجلى فيه عبقرية الإنسان ، وذكاؤه ، وسلامة تفكيره على نحو ما يعبر عنها هبوطه على القمر ، وبناؤه للصواريخ عابرة القارات وسفن الفضاء ، فضلاً عن الطائرات ، والقطارات ، وغيرها من الآلات والأدوات .. إلخ ، فإن مصرع رواد الفضاء ، وحوادث الطائرات ، وغرق السفن فى المحيط ، واندلاع الحروب .. إلخ إلخ ، دليل قاطع على أن الإنسان يقع فى الخطأ . فأنت لا تملك أمام هذه الكوارث البشرية سوى أن تقول : هنا أخطأ إنسان ما .. فما دام الإنسان يعمل فلابدّ أن يخطئ ! بل إن امتناعه الكامل عن العمل قد يُعَدُّ هو نفسه إهمالاً، أو عدم اكتراث ، أعنى خطأ ، وربما كان خطأ يؤدى إلى عواقب وخيمة، ونتائج أشد خطورة من العمل نفسه !

أعرفت إذن ، مَنْ هو « ذلك المجهول » الذى عبّر عنه أديبنا الكبير ؟ إنه واحد من المواقف الحدّية التى تشكل جوهر الإنسان وماهيته !

***

دفاع عن الصمت ... !

ضحك الجميع عندما روى الزميل ، الذى زار الهند منذ سنوات تلك القصة الغريبة ، وذهبوا فى تفسيرها مذاهب شتى ، أما أنا فقد تواريت عنهم وراء ستار من الصمت المطبق استرجع فيه دلالة هذا الذى رواه الصديق الفاضل !

وملخص الحادثة الطريفة ، هو أن هذا الصديق كان فى زيارة قصيرة للهند توقف خلالها بضعة أيام فى مدينة « كلكتا» ، وقد عَنَّ له أثناء وجوده بهذه المدينة أن يقوم بزيارة جامعتها ، لكى يتعرف على أساتذة الفلسفة والاجتماع هناك . وعند مدخل القسم - الذى يضم هذين الفرعين من العلوم الإنسانية - فى كلية الآداب ، أدهشه منظر رجل يجلس على الباب الخارجى فى هدوء تام وسكون كامل وكأنه تمثال أصم ، لا يضع على جسده من الثياب إلا ما يكاد يستر جسده ألقى عليه الزميل تحية الصباح فلم يرد ، سأله أين يمكن أن يجد رئيس القسم أو أساتذة الفلسفة فلم يجب ! فتركه وشأنه ، ودخل حيث ألتقى ببعض الأساتذة ولقد كانت دهشته لا حدّ لها عندما طلب منهم مقابلة رئيس القسم فأخبره القوم أنه هو ذلك الرجل الذى كان يجلس بالباب الخارجى ! وعندما أبدى الزميل تعجبه من أنه حيّاه فلم يرد ، وسأله عن الأساتذة فلم يجب أفهموه أنه لم يكن فى استطاعته الإجابة لأنه صائم عن الكلام ثلاثة أشهر للتأمل !

هنا ضحك الحاضرون وأطرقتُ صامتاً أسترجع المغزى العميق ، الذى يستهدفه هذا الفيلسوف الهندى من صومه هذا الطويل ! وتذكرتُ ما كان يقوله واحد من أشد المعجبين بالفلسفة الهندية هو : الفيلسوف الألمانى شوبنهورSchopenhauer « ١٧٨٨ - ١٨٦٠ » فى عبارته الشهيرة : « من رأيى أن مقدار الضوضاء الذى يمكن للإنسان أن يحتمله دون أن يثيره يتناسب تناسباً عكسياً مع مقدرته العقلية ،

فيمكننا بهذا أن نتخذ الضوضاء مقياساً للكفاءة بالغاً في الدقة .. فالضوضاء تعذيب لكل مَنْ يعمل بعقله من الناس !! » ، وشعرتُ في الحال أننا في مجتمعنا العربي ، أحوج ما نكون إلى هذا الدرس الهندي الصامت !

إننا في حاجة ماسة إلى الصوم عن الكلام ، أو حتى الإقلال منه ، حتى نتمكن من العمل ، بل خُيِّل إليَّ أننا ينبغي علينا أن نُعوِّد أطفالنا ونحن نعلمهم النطق ، أن يكفوا عن الكلام بين الحين والحين ، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه : إما أن يتكلم أو يفكر ، إما أن يثرثر أو يعمل ، إما أن يتحدث أو ينتج ! ولهذا كان مقياس الرجل المتحضر ـ كما قال شوبنهور بحق ـ عدم قدرته على تحمل الضجيج ، والجلبة ، والأصوات المرتفعة ! وكانت المجتمعات المتخلفة هي التي تحتشد فيها أصوات السيارات مع صراخ الناس مع الإذاعات المختلفة مسموعة ومرئية . أما المجتمع المنتج فهو الذي يَقِلُّ فيه الصوت المرتفع وتكاد تتلاشى الجلبة والضوضاء ؛ ليحل محلها الفعل ، والعمل ، والإنتاج ! وإني لأذكر ما رواه صديق من أن بعض المطاعم في أوروباقد لجأت في الآونة الأخيرة إلى الموسيقى الصاخبة تديرها لزبائنها الكرام ، وهم يأكلون لكي يتحولوا إلى وحوش ضارية تلتهم أكبر كمية ممكنة من الطعام ليدفعوا أكبر قدر من المال !! ولهذا أيضاً إتخذ القدماء من « البوم» رمزاً للحكمة وللآلهة منيرڤا Minerva إلهة الحكمة ـ لأن هذا الطائر لا يعيش إلا في الأماكن البعيدة المعزولة التي يجد فيها الهدوء والسكينة ؛ ليستطيع التأمل ! وذلك مغزى القصة التي رواها الكتاب المقدس عن « محنة بابل» ومنها اشتق اسم بابل نفسه ـ عندما عوقب أهل هذه المدينة لعصيانهم وتمردهم حينما : « قالوا : هلُمَّ نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء . قال الرب : هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم .. هلمَّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض .. لذلك دعي اسمها بابل لأن الرب هناك

بلبل لسان كل الأرض » ، سفر التكوين إصحاح ١١ : ١ – ٩

ولقد أدركتُ الآن فقط المغزى العميق الذى ترمى إليه الآيات القرآنية ، التى تشير إلى أن « الصوم عن الكلام» كان فى يوم من الأيام فريضة دينية كالصوم عن الطعام تماماً ! ومن هنا فقد فرض الصوم عن الكلام على « مريم » بعد أن وضعت طفلها ، حتى إذا سألها قومها ، « أشارت إليه » دون أن تجيب ! وعندما نادت الملائكة « زكريا» وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشره بيحيى ـ « وهو فى الكتاب المقدس يوحنا المعمدان » ـ كان مطلبه أن تكون له آية ، أو علامة يعرف بعدها أن البشرى قد تحققت وكان الجواب : الصوم عن الكلام ثلاثة أيام : ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ﴾ « ٤١ ـ آل عمران » ، والقرآن الكريم يُعلّم المسلمين آداب الحديث ، ويعلن كراهيته للأصوات المرتفعة التى هى علامة على الهمجية والتخلف ، ومن هنا نراه يحثهم على ألا « ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » ، وهو يثنى على ﴿ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوي .. ﴾ « ٣ – الحجرات » ، ولقمان يعلم ابنه : « اقتصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير .. » ١٩ ـ لقمان .

والواقع أن بعض الناس يتوهم أنه إذا رفع صوته فإنه يصل إلى الحق ، وذلك غير صحيح ، فإن أكثر المحامين صراخاً فى المحكمة هم أبعدهم عن الحق ، وأنت لكى تقول أن ٢ + ٢ = ٤ لست فى حاجة إلى أن تصرخ وتتشنج إذا حاولت اقناعى بأن ٢ + ٢ = ٧ ! وأنت تصرخ ؛ لأنك لا تجد أحدا يلتفت إليك ، وأنت فى حاجة أن تصرخ لتدفع عن نفسك تهمة الجهل ، أو الجنون ، ثم عليك أن تقنعنا إنْ استطعت . وهذا يفسر لك لمَ يلجأ بعض خطباء المساجد عندنا إلى تغيير نبرة الصوت أحياناً ! وإلى الصراخ أحياناً أخرى !!

هل تعتقد أنها كانت مجرد مصادفة أن يعتزل صنّاع الحياة ، وروّاد

البشر من الأنبياء ، والفلاسفة ، والمفكرين ، والمخترعين حياة الناس وما فيها من ضجيج وصخب فى اللحظات الحاسمة التى تسبق مباشرة القيام بدورهم الخلاّق ؟! أكانت مصادفة أن نجد أنبياء الديانات السماوية الثلاثة ينسحبون من زحمة الحياة قبيل القيام بتأدية رسالتهم مباشرة ؟ ! نبى الإسلام يعتزل فى غار حراء حتى لتقول العرب « إن محمداً عشق ربه » ، والمسيح يقضى - وحده أربعين يوماً فوق الجبل قبل أن يشرع فى تحمل أعباء الرسالة - وهو ما تسميه المسيحية ، بتجربة الأربعين يوماً ، يهبط بعدها مبشراً بدعوته .. ! ويكلِّم الله موسى بعد أن يواعده أربعين ليلة فى جبل سيناء يتجه بعدها لتخليص اليهود من قبضة المصريين !! ثم هل هى مصادفة أيضاً أن يوعد المؤمنون بجنات لا يسمعون فيها لغواً ؟! كلا ! ليست هذه من قبيل المصادفات ، وإنما هى تقدير لأهمية « الصمت» فى حياة الإنسان ! ذلك لأن أكثر الأشياء إحداثا للجلبة والضجيج هو الطبل الأجوف ، وأكثر الناس قدرة على إحداث الجلبة والصياح والثرثرة هم أقلهم إنتاجا وأشدهم سطحية واتفههم علماً وفكراً !! أذكر أننى قرأتُ بعد نكسة ١٩٦٧ حديثاً لأحد الأدباء الفرنسيين المتعاطفين مع القضية العربية يقول فيه : « كم كنتُ أتمنى من العرب أن يكفوا قليلا عن الكلام ، وأن يكثروا من الفعل !! » فهل استطاع هذا الأديب بثاقب نظره أن يضع يده على إحدى مشكلاتنا الأساسية ، وهى أننا نحتاج إلى قليل من الصمت وكثير من العمل ؟! أم أنه أراد أن يذكرنا بأن « التفاخر» و « العنتريات» ليست سوى رِدَة إلى الجاهلية الأولى و « السر فى مأساتنا هو أنّ صراخنا أضخم من أصواتنا فإذا خسرنا الحرب .. لا غرابة لأننا ندخلها بكل ما يملكه الشرقى من مواهب الخطابة!! »

وكان الأجدر بنا أن نستعين على قضاء حوائجنا بالكتمان حتى لو كنا سنلقى بإسرائيل فى البحر !! ومَنْ منا يصبر على « كتمان» فكرة أو رأى حتى ينضج ويكتمل ؟! ما أروع هذا الدرس الذى يقدمه لنا ذلك الحكيم الهندى ، مما أحوجنا فى بعض الأحيان إلى أن نقول مع البتول : ﴿ ... **إنى نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ « ٢٦ ـ مريم » .

* * *

ودفاع عن الكلام أيضاً .. !!

كأنما أرادتْ الأقدار أن تلقنني درساً في عدم التحيز ، أو كأنها أرادت أن تقول لي : لِمَ تخليتَ عن مبدئك الذي يقول إن « الحقيقة متعددة الجوانب » ، أو أنها عينية Concrete بلغة الفليسوف العظيم هيجل - فعرضتَ موضوعاً من زاوية واحدة دافعت فيه عن الصمت ، فكنت بذلك تأخذ بالنظرة وحيدة الجانب One - Sided ؟! الآن الصمت ، والعزلة ، والوحدة من الأمور المحببة إليك فقد انبريت للدفاع عنها بحماس شديد ، وأفردت للصمت مقالاً خاصاً ، ونسيت أهمية الكلام والدور الخطير الذي يلعبه في حياة الإنسان ؟!

أقول : كأنما أرادت الأقدار أن تردّني إلى جادة الصواب ، فما أن فرغت من مقالي السابق الذي جعلتُ عنوانه « دفاع عن الصمت » ، حتى عثرتُ على مقال بديع لأحد الأدباء الإنجليز المعاصرين هو روبرت لند .. Robert Lynd يعلن فيه : « أن الصمت مخالف للطبيعة البشرية ! » ودليله : أن الإنسان يبدأ حياته بصرخة وينهيها بسكتة ! وفيما بين البداية والنهاية تراه يبذل كل ما يستطيع لملء العالم بالأصوات !!

ومن هنا فقد قررتُ أن أعرض عليك عزيزي القارئ - وجهة النظر الأخرى التي تدافع عن الكلام ، وتجعله أساسياً في حياة الإنسان ، حتى لا أتهم بالتحيز فيما أعرضه عليك من أفكار !

يرى « لند » أنك لن تستطيع أن تجد في هذا الكون الواسع شيئاً يمكن أن يرهبه الإنسان كما يرهب الصمت ! وليس حديثه لنفسه في معظم الأحيان ، إلا جهداً يبذله لمنع الصمت الرهيب من حوله ! كما أنه إذا اجتمع مع شخص آخر وتخلل حديثه معه فترات من الصمت اعتبر نفسه شخصاً حقير الشأن عاجزاً عن الحديث ! وحسد أكثر الناس

ثرثرة حتى ولو كانت رؤوسهم فارغة خالية من أى فكر ! وعلى الرغم من أنه يعرف أن تسعة أعشار ما يتحدث به الناس ليس فيه من الأفكار أكثر مما فى طنين الذباب ، فإنه يحرص كل الحرص على أن يشترك فى هذا الطنين ! وأن يثبت لنفسه ولمن حوله ، أنه إنسان وليس دمية ! وقد لا يكون الغرض من الحديث فى الأعم الأغلب شيئاً آخر سوى مواصلة الطنين وليس تبادل الأفكار ! على أن هناك بالطبع ألواناً مختلفة من الطنين بعضه مزعج يضايق الإنسان أشد المضايقة مثل أزيز الناموس مثلاً ، لكن الإنسان يفضل إذا ما وجد فى اجتماع ، أو حفل ، أو ما شابه ذلك أن يكون « ناموسة» عن أن يكون تمثالا أبكم !

حذار من أن تظن أن الناس تتحدث لأنهم يريدون أن يعرفوا شيئاً جديداً ، أو أن يقولوا شيئا جديداً .. كلا ! إن الكثرة الغالبة من الناس لا تطلب سوى أن يسمح لها بالطنين فى آذان غيرهم ! ولهذا تراهم يستمتعون بالوجود فى جماعة ما ، إذا كانوا من أكثر الناس لغطاً فيها ، وإذا كان ذلك خطأ كبيراً فإن منشأه كراهيتنا الطبيعية للصمت !

ولذلك كانت حالة الجو بين الإنجليز من الموضوعات الصالحة للحديث ، لأنها تجمع الناس فى الحال حول موضوع يشتركون فيه جميعًا ، ويمكنهم أن يطنو فيه طنيناً متحد النغمة ! فإذا ما حدث الانسجام بينهم استطاعوا أن يتقدموا نحو موضوعات جديدة تلائم عواطفهم ، ثم تتابع النغمات حتى يصبح حديثهم كله نغمات منسجمة تطرب لها الآذان ، ويرضاها العقل ! ولما كان الناس يميلون إلى هذا الحديث المتناغم ، أى الذى تنسجم فيه الأنغام ، فإن الحديث بين ثلاثة كثيراً ما يفشل ، ذلك لأن اثنين منهم يجدان موضوعاً مشتركاً فيندفعان إلى التحدث فيه ، وينسيان أن معهما رفيقاً قد لا يجد فيما يتحدثان فيه لذة ! . والذكريات القديمة خير موضوع يتحدث فيه اثنان ، فهى تثير حماس المتحدثين لأنها تتصل بتجاربهما اتصالاً وثيقاً ، ولاسيما إذا كانا قد درسا سوياً فى مرحلة من مراحل التعليم ،

أو تجاوروا فى السكن فترة ، لكن إذا كان معهما ثالث لم يمر بمثل هذه الخبرات فسوف يكون الحديث مملاً ، وقد يضحك ضحكا آليا كما يضحك غيره ممن تطربهم الذكريات ، ولكنه ضحك أجوف مصطنع !

ويستمر « روبرت لند» فى عرض وجهة نظره فيقول : إننا نحب الضجيج أكثر مما نعرف حتى ولو لم يكن معنا رفيق مَنْ بنى الإنسان ! وكل من يظن أنه يهرب من ضجيج المدينة إلى سكون الريف وهدوئه ، إنما يخدع نفسه فى الواقع إذ الحقيقة إنه يهرب من صخب إلى صخب آخر ، أو يفر من ضجيج ألفه إلى ضجيج لم يألفه بعد ، فسوف يجد أن الأصوات فى الريف لا تنقطع أبداً وأن الطيور لا تقل ثرثرة عن النساء ، ولا يقل النحل عداء للصمت عن الأطفال ، كذلك تحمل الريح إلى أذنيك أصوات العصافير ، ونباح الكلاب ، وثُغاء الغنم .. إلخ ، ويمر عليك اليوم كله والأصوات تتوالى بعضها فى أثر بعض ، فإذا جنَّ الليل وسكتت أصوات الحيوان والطير شعرت برهبة ووحشة ! وأهم أسباب الخوف من الظلام هو الخوف من الصمت ، ذلك أن من أصعب الأشياء على الإنسان ، أن يعتقد أن الكون قد خلا من ساكنيه جميعاً ! فإذا لم يمتلئ العالم بأصوات الناس ، والحيوان ظنَّ الإنسان أن ثَمَّة شيئاً خفياً رهيباً ، فالأصوات نوع من الرفيق الذى تألفه فلا تستطيع الاستغناء عنه ! إنك قد تفزع أحيانا إذا ما عُدتَ إلى منزلك ليلاً وطرق أذنيك صوت مفاجئ ، حتى لو كانت بقرة تتنفس وراء سور الحظيرة ، لكن الذى يفزعك فى هذه الحالة هو سكون الليل لا صوت البقرة ، ولو أن الطبيعة وجدت وسيلة تمكنها من أن تحتفظ بجميع أصواتها وجلبتها أثناء الليل لفَقَد الظلام أكثر من نصف ما فيه من رعب ! ذلك أن السكون التام يُلقى فى قلوبنا الرعب حتى فى وضح النهار ، فلو أنك تصورتَ نفسك آخر من بقى على ظهر الأرض من الكائنات ؛ لشعرت برعب شديد فى عالم انعدمت فيه الأصوات ! أما إذا كان معك على ظهر الأرض طيور ، وكلاب ، وقطط ، وضفادع ، وبقر ، وغنم ، فقد يكون

فى وسعك أن تصبر على وحدتك قليلا ! إن الناس يتحدثون عن صمت القبور ، ولستُ أشك فى أن العالم إذا خلا من الأصوات كان هو والقبر سواء ، ومَنْ يعشْ فى عالم تنعدم فيه الحياة يكن كمنْ دُفن فى القبر حياً ! ولستُ أشك فى أن الكثرة الغالبة لن تتردد فى الانتحار ؛ لتتخلص من هذا النوع من الحياة !

ذلك وجهة نظر « روبرت لند » وهى وجهة نظر قوية يدافع فيها صاحبها عن ضرورة الكلام ، ويعلن رهبته من الصمت !

وهى وجهة نظر تذكرنا بما كان يقوله الفيلسوف الفرنسى المعاصر لافل L. Lavelle « ١٨٨٣ ـ ١٩٥١ » من أن الصوت يمثل خطوة أكثر تقدما فى طريق مشاركة الإنسان فى الوجود : إذ مع الصوت يحدث تغلغل بين الذات والموضع ، أو بين الأنا والكون أكثر مما يحدث مع اللون أو مع حاسة البصر .. ! » ، ولهذا فإنه يرى أن « الصمت هو ليل الصوت » ! . وكما أنه لا يوجد ظلام مطبق فإنه لا يوجد صمت مطلق ! ومن هنا فقد ذهب إلى أن هناك ألواناً مختلفة من الأصوات عكف على تصنيفها من أدناها ، حيث نجد أصوات الجوامد التى تبدأ من ضجيج الطبيعة .. الرعد والبرق ، وصوت البحر ، وصفير الريح ، وحفيف الأوراق .. إلخ ، إلى أن نجد نوعاً آخر يعلوها هو أصوات الحيوانات ، ودرجة صوتها أكثر ثراء من صوت الجوامد ، وأشد منها تأثيراً ..ثم غناء الطيور الذى يبدو على حد تعبير «لافل» وكأنه يشق الهواء كطيرانها نفسه ، ويرتفع بغير جهد ، وهكذا إلى أن نصل إلى الأصوات الأكثر حدة .. ثم ينتهى عند أعلى الأصوات فى التتابع الموسيقى !

أتراني يا صديقى القارئ : قد أطلتُ عليك ؟ أتراك تعتقد أنه آن لى الأوان أن ألزم « الصمت» ؟! ألستَ ترى معى إذن ، أننا فى كثير من الأحيان نكون فى أمس الحاجة إلى قليل من الهدوء والصمت ؟!

***

مَنْ يحفر فوق قبرى . ؟!

دخل الشاب متجهم الوجه عابساً مقطب الجبين ، وما أن جلس حتى انفجر كالسيل الجارف يقول فى حسرة وأسى :

ـ ماذا حدث فى هذه الدنيا ؟ كيف يتغير الناس بين ليلة وضحاها على هذا النحو فينقلبون من النقيض إلى النقيض ؟! كيف يمكن أن ينعدم الوفاء والإخلاص على هذا النحو المزرى ؟! حقاً سمىّ الإنسان إنساناً لكثرة نسيانه ولكن أيمكن أن يكون الإنسان سريع النسيان بهذا الشكل ؟ أيمكن أن يحمل ذاكرة مهلهلة تحتوى من الثقوب أكثر مما تحتوى من الجيوب ؟! فهى لا تعى شيئاً ولا تحتفظ بشئ ؟!

أخذتُ فى تهدئة الشاب الثائر حتى يقص علىّ أسباب ثورته وانفعالاته العنيفة . قال وعروق وجهه تنتفض :

ـ أنت تعرف والدى جيداً ، وتعرف أنه كان ـ رحمة الله ـ ملء السمع والبصر ومحبوباً من الجميع ، حتى أن بيتنا كان يعج بألوان من البشر لا حصر لها . فلم يكن يخلو فى ساعة من ساعات الليل أو النهار من إنسان ، صديق أو قريب ، سائل أو زائر .. فلم يكن والدى يصدّ أحداً أو يرفض طلباً ، وكأنه كان يتخذ شعاراً له قول السيد المسيح : اسألوا تُعْطَوا . أُطلبوا تجدوا ، اقرَعُوا يُفتح لكم .. ! ثم جاء المرض اللعين . ورقد أبى رقدته الأخيرة : لكن حتى هذه اللحظة كان الجميع يهتمون بعيادته يومياً .. بل إن منهم مَنْ تبرع بوقته ؛ ليقوم على خدمته .. فهذا ينفق ساعات طويلة سهراً معه ، وذاك يعرض مساعدات مالية ، أو رعاية مصالح الأسرة .. إلخ إلخ . لكنه مات !! فكأن الجميع ماتوا معه .. انفضّ الحشد بعد أيام قلائل ، ولم يعد يزورنا زائر أو يطرق بابنا طارق !!

وتذكرت قول الشاعر :

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا حكم القضاءُ
ولا تجزع لحادثة الليالى فما لحوادث الدنيا بقاءُ
ولكن رجلاً على الأهوال جلداً وشيمتك السماحة والوفاءُ

وتوقف قليلاً يلتقط أنفاسه ويستجمع ذكرياته المرة ثم استمر فى شكواه :

أنهيتُ دراستى الجامعية ، وأنا أكبر إخوتى كما تعرف ، وبدأت أبحث عن عمل ، ونحن فى أشد الحاجة إليه ، إذ لم يعد الدخل يفى بالغرض بعد هذا الغلاء الفاحش .. ورحتُ اتلمس العون من أصدقاء والدى .. فلم أجد أحداً !! حتى فلان الذى كان يُعرف بأنه الصديق الصدوق لأبى، زرته بعد تخرجى من الجامعة طلبًا للمساعدة فى البحث عن عمل فاستقبلنى فى المرة الأولى بترحاب ، ثم قلّ الترحاب شيئاً فشيئاً حتى فتر .. ثم راح يتهرب ، ويختلق الأعذار والمبررات حتى مللت الذهاب إليه !! فعدت أتذكر ما قاله الشاعر :

إذ المرء لا يرعاك إلا تكلفًا فدعه ولا تكثر عليه التأسُفا .
ففى الناس إبدالٌ وفى الترك راحة وفى القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا

ماذا حدث يا سيدى للناس .. وماذا جرى فى هذه الدنيا ؟ ماذا نقول فى أمر الصديق ، والرفيق ، والزميل ، والقريب ؟؟ أم أن هذه كلها لافتات من زبد سريع الذوبان؟؟

قلت للشاب الثائر :

ـ أما أن الإنسان سريع النسيان فتلك حقيقة لا يشك فيها أحد ، ولقد كان الشاعر العربى القديم يقول وما سُمّى الإنسان إلا لنسيانه !! مشيراً بذلك إلى أن ظاهرة النسيان خاصية أساسية للإنسان ، حتى أنه اشتق منها اسمه . وإذا كان النسيان ظاهرة عامة فى البشر ، فنسيان الأموات أشد عمومية ! فكم من الأحباب ، والأصحاب ، والرفاق ،

والعشاق طواهم التراب وأصبحوا نسياً منسياً . وليست تلك ظاهرة «عربية» تقتصر على مجتمعاتنا وحدها ، وإنما هى ظاهرة إنسانية عامة ! ولقد عبَّر عنها أجمل تعبير الشاعر الإنجليزى الكبير توماس هاردى « ١٨٤٠ ـ ١٩٢٨ فى قصيدة بعنوان « مَنْ يحفر فوق قبرى » !؟ يسخر فيها من ذاكرة البشر ، ويتهكم على الأموات الذين يظنون أن الأحياء ما زالوا يذكرونهم ! فهذه سيدة يتخيلها الشاعر ، وهى ترقد فى قبرها .. تسمع صوت حفر فوق القبر ، فتظنه حبيبها جاء ؛ ليزرع لها الأزهار والرياحين ، لكنها كانت مخطئة فلم يكن هو هذا الحبيب ، فتظنه أحد أقربائها .. وهكذا حتى تنتهى القصيدة نهاية مفجعة .. وهاك بعضاً من أبياتها :

أهذا أنت يا حبيب جئت تحفر فوق قبرى ؛ لتغرس الزهور والرياحين ؟! ويجيبها صوت من الفضاء الواسع : كلا .. لقد ذهب حبيبك بالأمس ؛ ليتزوج من فتاة رائعة الجمال فاحشة الثراء ، وهو يقول عنك : « إنها لا يمكن أن تغضب ، أو أن يسوءها الآن أن لا أكون وفياً .. !؟ »

ـ إذن : مَنْ يحفر فوق قبرى .. أهو أحد أقاربى الأوفياء !؟

ـ كلا .. إن الأقارب يجلسون الآن وهم يقولون أى جدوى من غرس الأزهار والرياحين .. إن العناية بقبرها لن تعيد إليها الحياة .. ولن تخلّص روحها من شباك الموت ؟!

ـ ولكن مَنْ الذى يحفر فوق قبرى .. أهى عدوتى فلانة ؟

ـ كلا .. إن فلانة لما سمعت إنك اجتزت الباب المفضى إلى الدار الآخرة ، لم تجدك بعد ذلك أهلاً للبغض أو الكراهية ، ولم تعد تعبأ بك أو بمرقدك !!

ـ إذن ، مَنْ يحفر فوق قبرى .. خبرونى فلم أعد أجيد الحدس والتخمين !

ـ إنه أنا يا سيدتى العزيزة كلبك الصغير الذى لا يزال يعيش قريباً منك أرجو ألا تكون حركاتى قد أزعجتك !

ـ آه .. نعم ، أنت يا كلبى الحبيب مَنْ يحفر فوق قبرى ؟! أنت الذى جئت تغرس لى زهرة .. آه كيف لم يخطر ببالى أنى تركتُ ورائى قلباً وفياً بهذا القدر !؟

أى إحساس بالإنسان يضارع وفاء الكلب ؟

ـ عفواً يا سيدتى .. فأنا لم أغرس شيئاً ، لقد كنتُ أحفر فوق قبرك ، لكى أدفن «عظمة» تكون لى قوتاً إذا جعتُ وأنا أطوف بالقرب من هذا المكان !! إنى لآسف يا سيدتى .. فقد نسيت أنه هاهنا قبرك .. وأنه فى هذا المكان مرقدك ! أرجو ألا أكون قد أزعجتك!

وهكذا يا بنى ، يسخر توماس هاردى من الذين يظنون أنهم سيكونون موضع اهتمام الناس بعد موتهم !! بل إنك لتجد أن الكلب نفسه كان يجعل من قبرها « مخزنا » لطعامه ، بعد أن نسى تماما أن سيدته ترقد هنا !

ولعل هذا هو السبب فى أن هذا الشاعر الكبير كان يعتقد أن قدراً كبيراً من البكاء الذى تذرفه العيون على إنسان فى لحظة الموت .. لا لزوم له ! . ومن هنا فقد كان يدعو الناس إلى الامتناع عنه تخفيفا من الرياء والنفاق ! ولهذا فعندما كتب إليه صديقه «بركتور» ـ وكان يحتضر ـ يطلب منه أن يكتب له أبياتا تنقش على شاهد قبره ، نظم له توماس هاردى هذه الأبيات :

إذا كان البكاء على من يستغرق فى ... النوم ضربا من الغفلة والجنون

فأى غافل أو مجنون ذلك الذى يبكى ... على الموت أحلى أنواع النوم .. !!

وعلى كل حال ، فقد كان الشاعر الإنجليزى أكثر رقة فى الإيحاء بما

يريد أن يقول من الشاعر الياباني الذى أوصى أن تحرق مجموعة من الأكياس أثناء جنازته ، وكان قد أعدَّها هو لهذا الغرض ، وعندما مات نفذ الأصدقاء وصيته ، إذا بالأكياس مليئة بالمفرقعات التى يلهو بها الأطفال فى الأعياد !! ولم يتمالك الأصدقاء أنفسهم فانفجروا فى الضحك بعد أن كانوا قد رسموا صورة الحزن على وجوههم .. وهكذا قال لهم الشاعر بطريق غير مباشر كفى تجهماً ورياءً ، إنكم سرعان ما تعودون إلى بيوتكم ، وغداً ينخرط كل منكم فى مشاغله وأعماله وينسى كل شئ !

وعندما التقيتُ بالشاب الثائر ، هذا الصيف ، تذكرت انفعالاته العنيفة منذ أكثر من عشر سنوات ، ونسيتُ أن أسأله : بالله لا تكذب ، وقل لى بصراحة ، متى زرت قبر والدك لآخر مرة .. « ربما لم أسأله لأنى أعرف أنه منذ سنوات طويلة يهبط إلى القرية التى دفن فيها والده ، ولكنه ينسى زيارة قبره ، أو حتى قراءة الفاتحة على روحه .. ولم أشأ أن أقول له يا بنى : « إن والدك يسأل : مَنْ يحفر فوق قبرى » ؟!

* * *

أفـراح .. وأتــراح .. !

مات الملك الصـالح نجم الـدين بن أيوب « عام ١٢٤٠ » وأرادت زوجـته ـ شـجـرة الدر ـ أن تـخلفـه على عـرش مصـر ، لكن الخليـفـة فى بغـداد أرسل إلى المصريين كتاباً موجزاً يحـدد فيه رأيه : « إنْ كانت الرجال قد عُدِمتَ عندكم ، فـأعلمونا حـتى نسير لكم رجـلاً .. ! » ، لم يبق أمامـها إذنَ ، سوَى أن تتخذ من أحد مماليكها وأقربهم إليها ـ عز الدين أيبك ـ ستارا تحكم من ورائه !

ولقد كـتب كثيـرون قصـتهـا .. وروى أحد الأدباء ـ الأسـتـاذ العريان ـ هذا الحوار بينهما وبين أيبك وهـى تُملى عليه شروطها قبل الزواج :

ـ الزواج يا أيبك نعم ! لكن لك إمرأة وولداً

ـ هى وولدهـا جارية من جواريك يا مولاتى !

ـ أشريك فى الحكم وشريك فى الزوج ؟!

ـ بل لكِ الحكم ، والزوج ، والولاء ، كله يا سيدتى !

ـ تُطلِّقها يا أيبك ؟!

ـ وأطلقها فلا تَمُتُّ إلىَّ بسبب ، ولا شيجة !

ـ وتهـجر دارهـا فـلا تراها ولا تراك ، ولا تتـحـدث إلى علىّ ولدها ولا يتحدث إليك .. ؟

ـ وأقطعها قطيعة بائنة ، فليس بينى وبينها آصرة ، لأخْلُص لشجرة الدر فليس لغيرها فى القلب مكان ولا فى النفس ذكرى !

ونُودى بالملك المعز ـ عـز الدين أيبك التـركمـانى ـ ملكاً عـلى مصـر وعـمَّت الأفـراح البـلاد من أقـصـاها إلى أقـصـاهـا . وتوارت الأتراح ؛

لتتجمع فى ركن قصى كانت تعيش فيه « أم على » ـ زوجة أيبك السابقة ـ وعلىّ ولدها منه ! .

ويدور الزمن دورته .. فيجلس الملك إلى غلامه قطز حزيناً مهموماً يقول :

ـ كنتُ امل أن يكون لى ولد من شجرة الدر أتعوض به عن علىّ وأوليه عهدى، ولكنها لم تحبل ولم تلد !

ويشير عليه غلامه بالزواج :

ـ إنْ شئتَ مولاى .. فاخطب إلى الملك الرحيم صاحب الموصل ابنته « لؤلؤة» وإن شئت فاخطب إلى الملك المنصور ، صاحب حماة ، ابنته ؛ ليتصل نسبك ببنى أيوب ... !

ويجيب الملك :

ـ كليتيهما يا قطز ! وقد رخصّ الله للمسلم فى أربع حرائر .. !

وبعث الملك المعز منذ الغد رسولين إلى حماة والموصل .. وشاع النبأ حتى تحدثت به المماليك والجوارى .. ثم زاد شيوعاً حتى عرفته شجرة الدر فمسّ منها كبرياء الملكة ، وغيرة الأنثى فى آن معاً ! وفكرت فى الانتقام ! لكن فليكن انتقامها إذلالاً لكبريائه ولرجولته فى وقت واحد .. فأرسلتْ إليه رسولا يدعوه ويتلطف فى الدعوة ، فأجاب دعوتها نشيطاً راضياً .. وبذلت له ما تبذله كل أنثى لمن تحب .. ثم قام إلى حمامه ؛ ليغتسل .. وأسرع غلمانها يدخلون عليه الحمام ، بأمر منها وينهالون على رأسه ضرباً بالقباقيب وهم ينزعون خُصيتيه ؛ ليموت حين يموت وقد تحطمت كبرياؤه وذلت رجولته .. !

وصاح الملك تحت العذاب :

ـ الغوثُ يا شجرة الدر ! الغوث .. !

وأدركتها رقة الأنثى لحظة حين سمعته يهتف باسمها ، فأشارت إلى غلمانها أن يكفوا .. واستمع إليها جماعة ، ولكن قائلاً منهم ابتدرها :

ـ إنْ تركناه ، فلن يُبقى علينا ولا عليك يا خوند ـ أى يا أميرة ! وعاد الغلمان يدقون رأسه بالقباقيب ويشدون اثنييه . ! وبلغ النبأ « أم علىّ » زوجة أبيك الأولى ، فصحبت فتاها يهرولان إلى قصر القلعة ..

وقالت المرأة وقد وقفت إلى جانب ولدها « علىّ » أمام جثمان أبيه :

– لا إنه لم يمت بل قتلته شجرة الدر !

ـ من أين لك علم هذا يا سيدتى ؟

ـ لأنه أراد أن يتزوج عليها !

ـ ولماذا لم تقتليه أنت يوم تزوج شجرة الدر ؟

ـ كنتُ أتربص به !

ونظر علىٌّ بن أبيك إلى أمه منكراً لما تقول ، فرأى دموعاً تنحدر على خدها ! ونودى بالمنصور علىّ بن أيبك « عام ١٢٥٧ » ملكاً على عرش مصر ، وصعد وأمه إلى قصر القلعة ، وقام على أمره الأمير سيف الدين قطز مملوك أبيه !

لم يبق سوى تصفية الحساب بين « أم علىّ » وشجرة الدر ! وأيقنت شجرة الدر، بعد أن احتمت بالبرج الأحمر فى القلعة ، أن مماليكها لن يقدروا على حمايتها طويلاً ووراءها ضرتها « أم علىّ » تطلب الثأر ! فلم تخش المو ت ، ولم تفكر فى الهرب ، بل استأثر بتفكيرها شئ آخر ـ هو الذى يستأثر بفكر المرأة دائماً ـ جواهرها ، وحليها ، وأسباب زينتها ، فإنها لتخشى أن تقع فى يد ضرتها حين تموت ! فجمعت شجرة الدر كل ما كانت تملك من حلًى وجواهر فسحقتها فى هاون وأذرته فى الريح ، ثم أسلمت نفسها .. وأمرت « أم علىّ» جواريها فانهالوا على شجرة الدر بالقباقيب والنعال حتى ماتت !

ونُودى فى أحياء القاهرة أن « أم علىّ» قد أولمت ابتهاجاً بهذا النصر المبين ، ودعت الناس جميعاً ؛ لتناول طعام خاص أعدته هى بنفسها لهذه المناسبة السعيدة ، وهو عبارة عن « ثريد ممزوج باللبن

والسكر » ، وجبة خاصة أطلق عليها الناس فيما بعد اسم « أم علىّ » نسبة إلى صاحبة الفكرة ، وأول صانعة لها ، وقد وضعت « أم علىّ» أمام علْية القوم قصعة كبيرة مليئة بالثريد الممزوج باللبن والسكر وعليها خُصلة من شعر شجرة الدر وحلمتا ثدييها !!

وظل هذا التقليد الغريب سارياً فترات طويلة ، حتى كان من المألوف إذا وجدت ربة البيت شعراً فى هذا الطعام - أو تلك الوجبة الخاصة المسماة بأم علىّ - قالت إنه شعر شجرة الدر مع أنه يكون ، فى الأعم الأغلب ، خصلات من شعرها هى !

ولا يزال المصريون حتى يومنا هذا يأكلون طعاماً حلوا إسمه « أم على» ، يضعون فيه الزبيب رمز لحلمة الثدى ! وانزاح ما لهذا الطعام من تاريخ طويل فى الصراع بين امرأتين إلى عالم النسيان ! لم يعد أحد يذكر كيف يلخص هذا الطعام جبروت المرأة وقدرتها القاهرة ، إذا ما أحبت ودافعت عمنْ تحُب حتى أنها لتلتهمه إذا ما حاول الإفلات منها ! نسى الناس تاريخ « أم علىّ » وما تجمع فى طعامها من « أفراح .. وأتراح » .

* * *

محكمـة ... !

أقـبل « بيـراست الحكيـم » ـ ملك الجـان ـ يرفل فى ثوبـه الأحـمـر الأرجوانى الفـضفاض ، ووراءه حـاشيته الموقـرة ، وحرسه المهـيب ، وما أن رآه الحـاجب العـمـلاق حـتى صـاح بصـوت جـهـير اهـتـزت له أرجـاء الجـزيرة الهادئة :

محكمة .. !

وخيّم صمت رهيب على الساحة الوحيدة الرحبة فى تلك الجـزيرة الصغيـرة الواقعة وسط البحـر ! وانتظمتْ صفوف الحيـوان فى ناحية ، ووقف أفراد البشـر فى الناحية الأخرى ، فى حـالة انتباه تام .. ! وجلس « بيـراست الحكيم » على أريكتـه الذهبيـة ، وراح يُقلِّب بضع صـفحـات من أوراق فى يده ، ثم نظر إلى الحضور وهـو يقول :

فُتِحَتْ الجلسة !

كانت البـهائم والأنعام ، وجـميع صنوف الحيـوان ، قد استعـدتْ لهذا اليوم العظيم، فـجمعتْ ما لديهـا من زعماء وخطباء ، وأصـحاب اللسـان الذرب ، لحضـور هذه الجلسـة التاريخية التى يفـصل فيه مـلك الجان ، فى الشكوى التى تقدم بها الحـيوان ، ضد بنى الإنسان .. ! كمـا استعد الإنسان ، بدوره فجمع من بنى البشـر طائفة عددها نحـو سبعين رجلاً من أمهر المحامين ، وأقواهـم حجة ، وأروعهم فصاحة ، وأشدهـم إقناعاً ، وأعـذبهم بلاغة وبيـاناً .. ! نظر الملك العظيم «بيـراست» ناحيـة الحيـوان ثم قال بصـوت هـادئ :

ـ الاتهام .. !

تقـدم « البـغل» ، أحـد زعمـاء الحـيـوان خطوات نحـو أريكة الملك ، ثم وقف مطـأطأ الرأس إجـلالاً وإكـبـاراً ، وراح يـعـرض الشكوى ببـلاغـة وإيجاز :ـ

ـ لقد تقدمنا بشكوانا إليكم ، يا صاحب الجلالة ، بعد أن أعيانا ما لقيناه من بنى الإنسان ، من خسف وهوان ، فهم يعاملوننا أسوأ معاملة ، يذيقوننا العذاب ألواناً ، إنهم قوم لا يعرفون عدلا ، ولا رحمة ، ولا يرعون فى الله إلاً ولا ذمة ! لقد تصوروا ، خطأً ، أننا عبيد عندهم !ـ فى الوقت الذى نعاملهم فيه أفضل معاملة : نتعاون معهم فى الحِل والترحال ، ونحمل المتاع ، والأثقال ، لا نتكاسل ولا نتباطأ ، ونطيع بغير عصيان أو تمرد ! حتى طفح الكيل ، وبلغ السيل الربى ، ولسنا ندرى من أين جاءهم ما يتسمون به من غطرسة وعنجهية .. ؟! مع أننا جميعا ـ البشر والحيوان على السواء ـ عبيد لله .. ؟! إننا ، يا مولاى ، نلتمس من عدالتكم تخليصنا من هذا الظلام ، وتحريرنا من هؤلاء الجبابرة ! تلك شكوانا بإيجاز ، والأمر متروك لكم ، فانظر ماذا ترى .. ! اعتدل ملك الجان فى جلسته ، ثم إتجه ناحية بنى البشر وهو يقول :

ـ الدفاع ..!

تقّدم واحد من المحامين ناحية المنصة ، رافعاً بيده ، وهو يقول : « حاضر عن المتهمين ، وإن كنتُ أنا نفسى واحد منهم !» ، ثم استهل مرافعته بقوله :

ـ إنّ قضيتنا ، يا صاحب الجلالة ، غاية فى البساطة والوضوح ، فهذه البهائم ، والسباع ، والوحوش جميعا عبيد لنا ونحن أربابها ، لكننا نراها إما هاربة أو أبقة عاصية ، وحتى فى الأوقات التى تعمل فيها أو تطيعنا ، فإننا نجدها تعمل على مضض ، فهى كارهة لنا ، منكرة لحقوقنا عليها إنها ..

فقاطعه الملك : وما هى حجتك فيما زعمت للإنسان من سلطان على الحيوان ؟ كيف تقول : « إنهم عبيّد لنا ، ونحن أربابها » ـ ما المبررات التى استندت إليها فى زعمك هذا ؟!

فأجاب زعيم الإنس :

ـ لنا على ذلك الكثير من الحجج والدلائل منها الشرعية كقوله تعالى : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون** ﴾ « آية ٥ ـ النحل » . وقوله ﴿ **... جعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون** ﴾ « ١٢ ـ الزخرف » . ﴿ **وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ...** ﴾ . « آية ٧ ـ النحل » ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾ . « آية ٨ ـ النحل » . تلك يا صاحب الجلالة ، آيات بينات ، وغيرها كثير ، تدل دلالة لا يرقى إليها الشك على أن صنوف الحيوان ، إنما خُلقتْ للإنسان ومن أجله ! استدار الملك إلى جماعة الحيوان قائلاً :

« ـ قد سمعتم معشر الحيوان ما قاله الإنسان ، من آيات القرآن فاستدل بها على دعواه فماذا تقولون فى ذلك ؟!

عندئذ تقدّم زعيم الحيوان وهو يقول :ـ

ـ يا صاحب الجلالة ، ليس فى شئ من الآيات الكريمة التى ذكرها هذا الإنسان ما يدل على زعم من أنهم أرباب لنا ، ونحن عبيد لهم ، وإنما هى آيات تحصى نعم الله عليهم وتذكرهم بها ! فقوله تعالى : ﴿ سخّرها لكم ﴾ لا تعنى أننا أصبحنا عبيداً عندهم ، وإلا فما قولك فيما تذكره الآية الكريمة ﴿ **وسخّر الشمس والقمر** ﴾ « ٥ ـ الرعد» ﴿**وسخّر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره** ﴾ ، و ﴿ **سخّر لكم الأنهار** ﴾ . « ٣٢ ـ إبراهيم » وكذلك سخر البحر والسحاب والرياح .. إلخ .

ثم ماذا ترى فى هذه الآية الجامعة ﴿ **وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً ..** ﴾ « ١٣ ـ الجاثية » .. ؟ أفترى أيها الملك الحكيم إنها قد أصبحت بذلك عبيداً للإنسان ؟! وأن الناس هم أربابها .. ؟! ألا إن الإنسان ليطغى ! إن الله تعالى خلق كل ما فى السموات والأرض وجعلها مسخّر بعضها لبعض فى نظام محكم دقيق : إما لجلب منفعة ، أو لدفع ضرر ! فليس فى الأمر سيد ولا مسود!!

ثم استطرد زعيم الحيوان قائلا :

ـ أيها الملك العظيم ! كنا نحن وآباؤنا سكان الأرض ، قبل خلق آدم أبى البشر ، قاطنين فى أرجائها ، تذهب وتجيئ كل طائفة منا فى بلاد الله طلباً للعيش ، كل منا مقبل على شأنه فى مكان يوافق مآربه من برية أو أجمة ، أو جبل ، أو ساحل ، أو تلال ، أو رمال ، آمنين فى أوطاننا معافين فى أبداننا ، ومضتْ على ذلك الدهور والأزمنة ، حتى جاء بنو آدم وانتشروا فى الأرض براً وبحراً ، وسهلاً وجبلاً ، وضيقوا علينا الأماكن والأوطان ، وأخذوا منا مَنْ أخذوا أسيراً من الغنم ، والبقر ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، وسخروها ، واستخدموها ، وأتعبوها بالكد والعناء فى الأعمال الشاقة ، من الحمل والركوب والشد فى الدواليب ، والطواحين ، بالقهر والضرب ، والهوان ، وألوان من العذاب لا تحصى ، فهرب منا مَنْ هرب فى البرارى ، والقفار ، والجبال ، لكن بنى آدم تعقبونا حتى وقع فى قبضتهم منا مَنْ وقع ، فشدوه بالغل ، والقيد ، والقنص ، والذبح ، والسلخ ، وشق الجوف ، وقطع المفاصل ، ونتف الريش ، وجز الشعر ، والوبر ، ثم نار الطبخ والوقد والتشوية وألوان من العذاب لا يبلغ الوصف كنهها !

فسأل الملك زعماء الإنس « بعد أن حصَّن نفسه بأعوانه » ما تقولون فيما تحكى هذه البهائم والأنعام من الجور ، وما يشكون من الظلم والعدوان ؟!

فأجاب زعيم الإنس :

ـ مازلنا نصرُّ يا صاحب العظمة ، على أن هؤلاء عبيد لنا ونحن مواليها ، ولنا أن نتحكم عليها تحكم الأرباب ، فهى .. » فقاطعة الملك قائلا : تذكر أن البينة على من إدعى ، ولا تصح الدعاوى أمام القضاء الا بالبينات ، وألا تقبل إلا بالحجة الواضحة !

ـ لنا هذه المرة حجج عقلية ودلائل فلسفية : منها حسن صورتنا ، وتقويم هيكلنا وانتصاب قامتنا ، وجودة حواسنا ودقة تميزنا ، وذكاء

نفوسنا ، ورجحان عقولنا .. ! لكن زعيم الحيوان ردَّ على هذه الحجج بقوله :

ـ ليس شئ مما قال بدليل ، فإن الله جلَّ جلاله ، ما خلقهم على تلك الصورة ؛ لتكون دالة على أنهم أرباب ، ولا خلقنا على هذه الصورة ؛ لتكون دالة على أننا عبيد ، ولكن لعلمه بأن تلك البنية أصلح لهم ، وهذه أصلح لنا : فأفراد البشر عراة بلا ريش على أبدانهم ، ولا وبر ، ولا صوف على جلودهم يقيهم الحر والبرد . ولما كانت أرزاقهم من ثمر الأشجار ، ودثارهم من أوراقها ، وكانت الأشجار منتصبة فى جو الهواء ، خُلقت قامة بنى آدم منتصبة ، ليسهل عليهم تناول الثمر والورق منها ، أما نحن فلان أُرزقنا من حشيش الأرض ، فقد جعلت أبداننا منحنية ليسهل علينا تناولها ، وإذن فلا أحسن ولا أردأ ، بل هى طبيعة العيش فى كلتا الحالتين وما تقتضيه ..

فقال الملك لزعيم الحيوان : وماذا تقول فى قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ ؟! فأجاب الزعيم : الآية تعنى أنه خُلق فى تناسب تام مع ظروفه ، فلم يجعله طويلاً دقيقاً ، ولا قصيراً لزيقاً ، بل ما بين ذلك ، وكذلك الأمر معنا ، فنحن من هذه الناحية سواء ..

فاعترض زعيم البشر : من أين لكم اعتدال القامة ، واستواء البنية وتناسب الصورة ، وقد نرى الجمل عظيم الجثة ، طويل الرقبة ، صغير الأذنين ، قصير الذنب ، ونرى الفيل عظيم الخِلقة ، طويل النابين ، واسع الأذنين ، صغير العينين .. ؟

فأجاب زعيم الحيوان : ذهب عليك أيها الإنسان أحسنها ، وخفى عليك أحكمها . أما علمت أنك لما عبْت المصنوع فقد عبْت الصانع ؟ أو لا ترى أن هذه كلها مصنوعات البارى لا يعلم عللها إلا هو والراسخون فى العلم ؟! فإذا كان الجمل طويل الرقبة ، فلكى يكون ذلك مناسباً لطول قوائمه لينال الحشيش من الأرض ، وليبلغ مشفره إلى سائر

أطراف بدنه فيحكها . وأما خرطوم الفيل فعوض عن طول الرقبة ، وكبر أذنيه ؛ ليذب البق والذباب عن ما فى عينيه وفمه ، إذ كان فمه مفتوحا أبداً ، لا يمكنه ضم شفتيه لخروج أنيابه منه ، وأنيابه سلاح يمنع به السباع والضوارى ..

أما دقة حواسكم فليس ذلك خاصة تنفردون بها . فحاسة الشم أقوى وأدق عند الكلب منها عندكم ، والجمل يرى موضع قدميه فى الطرقات الوعرة فى ظلمة الليل مما لا يرى أحدكم إلا بسراج ، والفرس يسمع وطء الماشى فى الظلام من بعد ، حتى إنه ربما نّبه صاحبه من نومه بركضه حذراً عليه من عدوه .. وأما الذى ذكرته من رجحان العقول فلسنا ترى له أثراً أو علامة ، لأنه لو كان لكم عقول راجحة لما افتخرتم علينا بشئ ليس هو من أفعالكم ، وإنما العقلاء يفتخرون بأشياء هى أفعالهم من صنائع ، وأفكار ، وعلوم ، ومذاهب ، ومن استقامة ، وعدل ... إلخ إلخ

على هذا النحو الممتع يصور لنا « إخوان الصفاء » فى رسائلهم تلك المحاكمة الفريدة التى أقامها للإنسان ، ملك الجان ، بناء على شكوى الحيوان ! والتى انتهتْ بحكمه أن الحق فى جانب صنوف الحيوانات ، وأن بنى آدم جائرون بالحيوان ظالمون ! أتراهم كانوا بذلك أول المبشرين « بحقوق الحيوان ؟! » وإنهم أول من نّبه الإنسان إلى هذه الحقوق ؟! أو أنهم كانوا أول مَنْ تنبأ بقيام جماعات الرفق بالحيوان ؟! ربما !! وإنْ كان هناك مَنْ يرى أن المسألة أعمق من ذلك بكثير! فالصورة كلها رمزية ! إنهم يصورون ما لحق بالناس من صنوف الجور والظلم ، والطغيان فى حكم بنى العباس ، وكيف استعبدوا الناس وكانوا لهم أرباباً..! أياً ما كان التفسير ، فالأمر الذى لا شك فيه أننا نقف فى هذه الصورة المشرقة من تراثنا على قطعة فريدة من الأدب الفلسفى الجميل : فيها الفكر العميق ، وفيها الأدب الرفيع ! ألا فليقرأ كل مَنْ له عينان ! ..

لا تغفر لهم يا أبتاه ..!

يحتفل العالم المسيحي الغربي بعيد الميلاد المجيد ، وسوف يذهب قادته ـ قادة العالم الحر ـ إلى الكنائس ، سوف يذهب « رونالد ريجان » و « جورج بوش » ومعه قادة سابقون « جيمي كارتر» ، و « ريتشارد نيكسون» ... إلخ إلخ ؛ « ليصلّوا هكذا : أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة ، لكن نجنا من الشرير ـ لأن لك الملك ، والقوة ، والمجد إلى الأبد . آمين » . سوف يتلو جبابرة الأرض هذه الصلوات بخشوع وتقوى ! منكسين الرؤوس من خزى أفعالهم مخبئين الأيدى الملوثة بدماء ضحايانا ، حتى لا يراها الأب السماوى ! إلا أن دماء شهدائنا سوف تصرخ بأعلى صوت : لا تصدقهم ، يا أبانا ، لأنهم كَذَبَة مراؤون : « يأتوك في ثياب الحملان ، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة » ! في أعماقهم تكمن وحوش كاسرة « من ثمارهم عرفناهم » وتعرفهم أنت أيضاً !

لا تصدقهم فليس هناك في الأرض ، ولا في السماء من إله غيرهم ، وليس هناك اسم مقدس إلا اسم الولايات المتحدة ومن لفّ لفها وهم منها على القمة ! هم الآلهة الجدد ، هم أرباب الأرض ، والكواكب ، والنجوم ، فقد انعقدت لهم المشيئة والملكوت بمدافع الأرض وبصواريخ السماء !

لا تصدقهم فقد قتلوا أهلنا في فلسطين ، وشردوهم في أرجاء الأرض جميعاً ، ومزقوا شملهم ، وقسموا شعبها مائة ألف فرقة . وأقاموا بينها الفتن والدسائس حتى بين أفراد الأسرة الواحدة ! وقالوا ، كذباً وبهتاناً ، هناك في كل عصر من عصور التاريخ شعب زائد عن الحاجة ، والشعب الفلسطيني في عصرنا الحاضر هو هذا «الشعب

الزائد » ! هكذا بكل تبجح ، دون أن يراعوا ضميراً ، ولا ذمة ! ولم يكتفوا بذلك ، بل مدّوا شرهم إلى لبنان ، فتحولت إلى غابة يأكل أهلها بعضهم بعضاً ! لقد حدثنى صديق عائد من هناك فقال : إنه يستحيل عليك ، بالغاً ما بلغ علمك ، أن تعرف مَنْ يقاتل مَنْ فى لبنان : المسلم يقاتل المسلم ، والمسيحى يقاتل المسيحى - إلخ إلخ - أكثر من عشرين فرقة يقتلون بعضهم بعضاً ، ليعودوا بلبنان إلى « حالة الطبيعة » التى تحدث عنها الفيلسوف الإنجليزى « توماس هوبز» والتى كان فيها الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان ! .. هكذا تحولت عروس البحر الأبيض ، بفضل قادة العالم الحر ، إلى بحر من دماء الأبرياء ! هؤلاء القادة الذين جاءوا اليوم ؛ ليقولوا إنهم يغفرون ذنوب غيرهم ! وأنهم قانعون بخبز اليوم فهو كفافهم ! أى كذب ! وأى نفاق ! وماذا فعلوا من تعاليمك حتى تغفر لهم .. ؟!

قلتَ لهم : « لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تطرحوا دُرَرَكم قُدَّام الخنازير .. » لكنهم فعلوا !!

قلتَ لهم : « إنْ كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها .. » فقلعوا عيوننا نحن اليمنى واليسرى معنا !

قلتَ لهم : « مَنْ لطعك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضاً » لكنهم لطمونا نحن على الخدين وركلونا فى كل اتجاه !

قلتَ لهم : « مَنْ سألك فاعطه ، ومَنْ أراد أن يقترض فلا ترده » - لكنهم سلبوا منا كل نفيسٍ وغالٍ ، ونقلوا ثرواتنا إلى منازلهم ، وحولوا أموالنا إلى مصارفهم ، وأخذوا ممتلكاتنا إلى بلادهم .. فكان أن جاءت القاهرة ، ودمشق ، وبغداد ، وغيرها من عواصم الشرق لكى تتخم لندن ، وباريس ، ونيويورك ، وواشنطن وغيرها من عواصم الغرب ! قلتَ لهم: «طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يُدْعون .. » فلم يكونوا قط أبناءاً لله ، بل فضلوا أن يكونوا أبناء الشيطان فنشروا الفتن وأشعلوا الحروب فى كل مكان .

لأن مصانع السلاح عندهم تعمل ليار نهار ، ولابدّ أن تجد سوقاً ؛ لتبيع وتربح ، فلابدّ من إشعال الحروب والاستمتاع بألسنة اللهب ! وهكذا ضحكوا علينا وسخروا منا ! وكلما هدأت أوار الحرب قليلاً أرسلوا السلاح على عَجَل ، وقذفوا بالوقود أطناناً فى أتون اللهب المستعر ، ولو أنهم امتنعوا - فقط امتنعوا ! عن إرسال السلاح أسابيع قليلة ، لتوقف القتال حتماً بين الفريقين رغماً عنهم ، ولو أرادوا الاستمرار فى القتال لحارب بعضهم بعضاً بالحجارة !!

وكلما حاولنا التوسط لإصلاح ذات البين ، أقنعونا بأن الوساطة لا فائدة منها، هكذا يقتتل هؤلاء الناس منذ فجر تاريخهم ! إتركوهم وشأنهم . إن شيئاً من مشاكلنا لم يحل ، وأننا نتردى فى هوة سحيقة يوماً بعد يومٍ !

قلتَ لهم :« المجد لله فى الأعالى ، وفى الناس المسرّة ، وعلى الأرض السلام »! فجعلوا المجد كله لهم ونشروا الأحزان فى كل بيت فى وطننا العربى من عام النكسة حتى اليوم ! ولم يدَعوا شبراً واحداً فى الأرض يسوده السلام ، أهؤلاء ، هم « نور العالم » .. ؟! أهؤلاء هم « ملح الأرض » .. ؟!

قلتَ لهم لا أحد يقدر أن يخدم سيدين « الله والمال» ، لكنهم بألاعيب الحواه ظنوا أنهم قادرون على ذلك !! فلا تعطهم ، يا أبانا ، ولو سألوا ، ولا تفتح لهم وإنْ قرعوا ، ولا تدخلهم من الباب الضيق وإنْ طلبوا .. !!

إننا نشكو إليك ما فعلوه بنا ، لأنهم جعلونا لا نملك سوى الشكوى ، أصبحنا كالعجزة لا نملك سوى النحيب ، كما تفعل نساؤنا كمداً على ضحايانا ، ليس أمامنا سوى أن نقول مع الشاعر الزنجى « سوف أخبر الله عن كل متاعبى حين أعود إلى الدار .. !» جعلونا مستضعفين فى الأرض لأننا نحبك ونثق بك ! لا تصدقهم ، يا أبانا الذى فى السموات فهم كذبة مراؤون ، ولا تستمع إلى صلواتهم ، ولا تستجب لدعائهم ، بل صّدق ما كان يقوله شيخ الفلاسفة فى

إنجلترا برتراند رسل : « الأمم الغربية ، جميعاً ، تمجد المسيح مع أنه لو عاش اليوم لكان ، يقيناً ، موضع ريبة البوليس السرى فى إنجلترا، ولا متنعت عليه الجنسية الأميريكية على أساس نفوره من حمل السلاح » !!

تلك هى الحقيقة التى ينطق بها شيخ الفلاسفة ، فلا أحد من ساساتهم يتبع تعاليمك ووصاياك ، إنهم مدعون مراؤون فحسب ، وهم لا يفعلون ما يفعلون لأننا مسلمون ، بل لأننا شرقيون فحسب ، فقد عانى المسيحيون العرب على أيديهم قدر ما عانينا ، عانى المسيحيون الفلسطينيون بعد أن سلَّمَ مسيحيو الغرب ديارهم المقدسة إلى الصهاينة : سلَّموا بيت المقدس ، وبيت لحَم ، والناصرة ، والجليل ، وجميع الأماكن المقدسة فى تراثهم إلى الصهاينة ، الذين لا يفرقون فى ضربهم للمخيمات بين مسلم ومسيحى ، إذ يكفى أن يكون عربياً ليقتل ويشرد ويمثل بجثته .. !

كل ذلك يفعله قادة الغرب باسم المسيح مما يجعلنا نتذكر قول أمير الشعراء أحمد شوقى :

يا حامل الآلام عن هذا الورى   كثرت لدينا باسمك الآلام

وهم يفعلون ذلك ، وما هو أبشع منه ، معتمدين على أن السيد المسيح ـ بعد ذلك كله ـ سوف يشفع لهم ! سوف يطلب لهم الغفران ، ألم يطلبه للذين عذبوه وآلموه عندما صرخ « يا أبتاه : اغفر لهم ، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » ؟؟!

كلاَّ لا تغفر لهم ، يا أبتاه ، لأنهم يعلمون ، ويتعمدون ما يفعلون !

أهى حقاً
أحاديث المقاهى .. والبارات ؟!!

من أتعس اللحظات التى يمر بها الكاتب ، تلك التى يشعر فيها أن فكرته لم تصل إلى الناس ، أو أن أحد القراء قد قام عن عمد أو غير عمد ، بتحريفها أو تشويهها ، أو أنه على أقل تقدير ، أساء فهمها ، ثم بنى عليها أحكاماً هى أبعد ما تكون عن المراد منها !! ولقد شعرت بهذا الشعور وأنا أقرأ للقارئ الهمام الذى انبرى للرد على مقالى : « .. والقط يأكل ويشرب » الذى نشرته الوطن فى ٣ / ١٢/ ٨٦ . فبغض النظر عن الأوصاف غير اللائقة التى يصف بها المقال من أنه «أحاديث المقاهى والبارات » ! .. إلخ إلخ ـ وهو أسلوب يستطيع حتى غير المثقف أن يستخدمه ببساطة شديدة ـ ولكنى لن ألجأ إليه لأننى والحمد لله ، لستُ من روّاد المقاهى والبارات ـ !! ـ أقول بغض النظر عن هذا الأسلوب ، فقد شعرتُ أن القارئ يتحدث فى وادٍ ومقالى فى وادٍ آخر : فهو يتصور ـ سامحه الله ! أننى أردد الذى « مازال يردده العديد من العنصريين والصهاينة حول هيمنة ما يسمى «بروحانيات الشرق » ، وإن هذه الروحانيات هى « التفسير الأكثر إقناعا لتخلف الشرق ، وهى أكبر العقبات التى تقف فى طريق تقدم أهل الشرق » .. !! هذه هى عبارة القارئ الهمام بنصها ، وهى تحريف ـ إن لم أقل تشويهاً ـ واضح لما جاء فى المقال الذى كتبته ، أو هى على أقل تقدير ، تعبر عن « سوء فهم» غريب ! إننى وصفت الشرق ـ على عكس ما يقوله العنصريون والصهاينة ـ بأنه « حسى» وأن المجتمعات الشرقية «مادية» وليست روحية !! فمن أين يا ترى جاء القارئ الهمام بهذا « التفسير الصهيونى» ؟! عبارتى ، أيها القارئ ، هى كما يأتى بالحرف الواحد: « لا تغرنك هذه القشرة الروحية الخارجية : انفذ منها إلى الداخل تجد عجباً ! الإغراق فى الحس حتى الأذنين ! مثلنا العليا مادية :

أن أكون غنياً ، أن أمتلك كذا وكذا ، أن أستمتع بما لذ وطاب من طعام وشراب وجنس ! ليست المثل العليا : أن أخترع ، وأبتكر وأن أكتشف ، أن أكون عالماً ، أو أديباً كبيراً ، أو فناناً عظيماً ، أو فيلسوفاً ينضاف مذهبه إلى التراث البشرى ، ويعيد أمجاد الكندى والفارابى وابن سينا .. إلخ إلخ ! المهم أن يعلو الرصيد فى البنك ، وأن تزداد رقعة الممتلكات وأن أستمتع بكل جوانب الحياة الحيوانية ، وأنسى فى غمرة التهالك على المادة أن الإنسان يولد حيواناً .. إلخ إلخ » !! أهذا كاتب يصف الشرق بالروحانية .. ؟! أهذه أحاديث عنصرية صهيونية تدور فى المقاهى والبارات؟؟ لأننا نريد للناس ألا يتكالبوا على المادة ، وأن يكون منهم مَنْ يجعل هدفه أن يكون «كندى» آخر ، أو « ابن سينا» القرن العشرين ؟! أيمكن لأى قارئ مهما تكن ثقافته أن يفهم من هذه العبارة أنها تعنى : « أن هذه الروحانيات هى التفسير الأكثر إقناعاً لتخلف الشرق ، وأنها أكبر العقبات التى تقف فى طريق تقدم أهل الشرق ؟؟ » كما قال القارئ الهمام ؟! اسمح لى ، يا سيدى ، أن أكرر فكرة المقال نفسها من جديد لعلها تصل هذه المرة ! الفكرة ببساطة شديدة تقول : إن الحيوان يظل قابعاً فى إطار العالم الحسى وهو لهذا لا يشيِّد حضارة ، أما الإنسان فهو يبدأ أيضاً ملتصقاً بهذا العالم الحسى ، لأنه فى جانب منه حيوان لكنه لكى يصير إنساناً ويشيِّد حضارة فإن عليه أن يتخلى عن هذا المستوى الحسى ، لا بمعنى أماتة هذا الجانب ، إنما بمعنى أن يأخذ من عالم الحس ما يعينه على الحياة ، باختصار أن يأكل ؛ ليعيش ، لا أن يعيش ؛ ليأكل ، ويشرب ، ويمارس الجنس ! والمجتمعات المتخلفة أياً كان نوعها ، فى الهند ، أو السند ، أو حتى فى المريخ «ولا علاقة لذلك لا بالعنصر ولا بالصهيونية !! » - شديدة الالتصاق بالحس ، وبالمادة ، ومن ثَمَّ فإن عليها أن تجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة أعلى ، لأن ما يشيِّد الحضارة هو أنشطة الإنسان الروحية: « فالمجتمعات المتقدمة هى التى انفصلت عن الحس والمادة ،

وانتقلت إلى عالم الفكر والروح ! عكس ما هو شائع تماماً ! ولهذا فإنه يصعب عليك أن تجد فى المجتمعات المتخلفة أى تطور ، العلم أو الفن أو الفلسفة - وهى مجالات رئيسية للنشاط الروحى ! » أهذا كلام يصعب فهمه حتى على رواد المقاهى والبارات ؟!

يواصل القارئ الفاضل حديثه قائلاً : « وباعتبار الدكتور إمام معجباً بالحضارة المتقدمة ومفكريها ، ولذلك غالبا ما يستشهد بآرائهم ، فإليك أيها الدكتور الفاضل ، ما قاله ماركس حول الأمم ومصائرها « ليس هناك أى أمة فى العالم استطاعت أن تختار مسيرة تاريخها بنفسها .. » وبناءاً عليه فإن هناك ظروفا تاريخية معينة فرضت على مجتمعات العالم مستويات مختلفة من التقدم والتخلف .. إلخ إلخ » وهذا نص آخر من حديث القارئ الفاضل ملئ بالمغالطات .

أولا : - ما قاله ماركس على العين والرأس ، لكنه لا علاقة له بموضوعنا ، ومثله ما قاله عالم التربية البرازيلى !

ثانياً : لو سألت أى إنسان فى الدنيا عن تخلف المجتمعات وتقدمها سوف يقول لك ، بغير الرجوع إلى ماركس أو غير ماركس ، لابدَّ أن تكون هناك عوامل وظروف تاريخية معينة هى التى تتحكم فى مسيرة المجتمع ..

ثالثا : رغم ما قاله ماركس وغير ماركس ، يظل ما قلته أنا صحيحاً أيضاً لأنهما ليسا نقيضين : فتشخيص الظاهرة شئ ، والبحث عن أسبابها شئ مختلف أتمَّ الاختلاف ! وعندما أقول لك « إن الأمية متفشية فى بلادنا » .. وترد أنت بأن هناك أسبابا كثيرة منها الفقر والاستعمار ومنها - ومنها .. إلخ فإنك لا تنفى «وجود الظاهرة» ، ولكنك تبحث فى موضوع آخر هو أسبابها والعوامل التاريخية التى أوجدتها .. ومن ثمَّ فعندما نقول « يجب أن لا ننسى الظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية التى فُرضت « بضم الفاء» على ما يسمى بالدول المتخلفة .. » فأنت تتحدث فى موضوع آخر .

رابعاً : يرى القارئ الفاضل ـ أننى « معجب بالحضارة المتقدمة » ـ ولست أدرى ، أتعنى عباراته هذه أنه ليس معجباً بها بدوره ؟! لا أظن ذلك بدليل أنه يخبرنا أن موضوعات فكرية هامة كالتى نناقشها الآن . تناقشها هناك « العامة» وأين ؟ ! فى المقاهى والبارات .. ! فما بالك بما تناقشه« الخاصة» والمثقفون فى هذه المجتمعات .. ؟! بل ما بالك بما تقوم به الجامعات والأندية العلمية والثقافية ، والصالونات الأدبية ـ التى لا أشك لحظة واحدة ـ أن القارئ الفاضل قد زارها أيضاً . !!

أما « بديهية البديهيات » ـ كما تفضل القارئ الكريم ووصف قولى عن الإنتاج المادى كالسيارة ، والطائرة ، وغيرها من الأجهزة ، والآلات بأنها أفكارتجمدت فى قطع من حديد أو نحاس .. إلخ فأظنها لم تصل هى الأخرى بدليل أن يقول : « أن مَنْ ينتج السيارة ، والباخرة ، والطائرات ، والكمبيوتر ، والأسلحة الفتاكة هى مؤسسات اقتصادية وسياسية نشأت وتطورت لخدمة أغراض اقتصادية ونظم سياسية معينة .. إلخ » !! ليست المسألة ، يا سيدى ، بهذا التبسيط المسرف ، مع أنك تقول إنها بديهية ، بل هى بديهية البديهيات .. !! إن القول بأن السيارة أو الطائرة أفكار تجمدت فى قطع من حديد ، تعنى أن هناك سلسلة طويلة ومعقدة من النظريات والآراء والأفكار العلمية ، وأن هناك تاريخاً طويلاً من العلوم المختلفة : فيزياء وكيمياء ، وعلم فلك .. إلخ وعلماء كثيرون فى أجيال متعددة قدّموا لنا فكراً نظرياً مجرداً ، كان بمثابة الأساس فيما سيأتى من اختراعات ! ثم هناك فى مرحلة ثانية مخترعون قاموا ، اعتماداً على الأساس السابق ، باختراع هذا الجهاز أو ذاك .. مستفيدين من نظريات العلماء السابقين ، ومن هنا جاءت التفرقة بين « العلم» بما فيه من أفكار مجردة وبين التكنولوجيات التى هى التطبيقات الفنية للعلم ! ثم تأتى فى مرحلة ثالثة تقوم فيها المؤسسات باستغلال هذا الاختراع أو ذاك ! ولاحظ يا سيدى ، أن « العالم» أو « المفكر» أو « المخترع» هو ابن مجتمعه !

ولهـذا فـإذا شـئنا الإيجاز قلنا ، إن الذى يـنتج السـيـارة والطائرة هـو المجتـمع بما فـيه «من فكر مـتقـدم» وهـو الفكر الذى رفض أن يقف عند حدود الإشباع المادى الحيوانى ! ولهـذا نقول إنه « علم القرن العشـرين» وحـضـارة العلم فى القـرن العـشـرين، هـى التى اخـتـرعـت وابتكرت ، وأبدعت هـذه الأجهـزة والأدوات أو أنه « العقل الكلى » فى المجتـمع - إن شئنا اسـتـخـدام التعبير الهيجلى ، الذى لا أظنه قـد وصل بعد إلى ثقافة المقاهى والبارات !! ولهـذا فإنك تستطيع أن تقول عن الإتحاد السـوفيتى رغم مـا له من أنظمة اقـتـصـادية مـخـتلفة مع المجـتـمع العربى إنه أيضـاً «مجتمع متقدم » ، وهـو ينتج السـيارات ، والطائرات ، والأسلحة الفتاكة حتى بغير مؤسـسات اقتـصادية تستغل ما لديها من عمالة ؟! وعن هـذا « الحديث » لابدّ لى أن أتوقف لأشير إلى نقطتين هامتين :

الأولى : إننى لم أتحدث عـن المجتمـعات الغربيـة ، وأجعلها نموذجاً يحتذى به ، وإنما كنت أتحدث عن « التقدم والتخلف » الحضارى بصفة عـامة ، سـواء فى الشـرق ، أو الغرب ، أو حـتى فى المريخ ! ووصـفتـه إنْ كان صـوابا أو خطأ ، بأنه تقدم أو تخلف - فى الفكر وقـارنت بينه وبين ما يقال أحياناً عن التخلف العقلى عند الطفل .. إلخ

الثانية : إننا حتى عندما نضرب مثـلاً بمجتمع غربى لا نُسقط أبداً ما فيه من عيـوب ونقائص ، وليس هناك وطنى مخلص يتمنى أن ينقل إلى بلده ما فى البلاد المتقدمة من عيـوب ، فأنا عندمـا أقول إننى أتمنى لمجتـمعى أن يصبح « كأميركا» مـثلا فإننى بداهة لا أقـصـد أن ينقل إلى بلادى كل مـا هـو سـيئ فى الولايات المتـحـدة من بطالة ، وطرق نصب واحتيال ، أو أن يقلّد شـبابنا ما لديهم من عادات سيئة ، أو أن يحترفوا السرقة كالصوص فى شيكاغو ؛ وعصابات المافيا .. إلخ .. إلخ .

وبالمناسـبة هـؤلاء جـمـيعاً ليسـوا هم الذين يصـنعـون الحضـارة الغربية ، ولو حـُذفوا أى لو ألقيناهم فى البحر لبقيتْ كما هى بل ربما كـانت أنظف وأنقى ! . لكنى طبـعاً أريد لمجتـمعى أن ينقل ما هـو مفيد

من « علم » و«فكر» و « أدب» و «فن» و « فلسفة» .. إلخ إلخ ، إننى أريده أن ينقل كل ما هو حسن ، أى كل ما يعمل على نموه ، وما يعمل على تقدمه ورقيه لا أن يقلد تقليدا أعمى ، أو أن ينقل نقلاً حرفياً تماماً ماهو قائم هناك عندما أقول لك: « كن أسداً .. ! » فإننى أقصد بالطبع أن تكون « شجاعاً » لا أن يكون لك ذيل وأنياب ومخالب !

فإذا كنتُ معجباً « بالحضارة المتقدمة » - فأنا لا يعجبني ما يعاني منه العامل الألمانى عندما « يصل سن الخمسين وقد تشكل لديه مرض مزمن نتيجة الإرهاق وضغط ظروف العمل » فأنا أشفق ، عليه ، ولا أريد للعامل في بلادى أن يكون علي هذا النحو - وإن كنتُ أعرف حالات من العمال العرب أسوأ من ذلك بكثير ! لكني أريد لمجتمعي أن يكون لديه ما لدى المجتمع الألمانى من «فكر متقدم» يصنع الطائرة ، والدبابة ، والأجهزة الأخري كما يصنعها ذلك المجتمع .

كلمة أخيرة أود أن أهمس بها فى أذن القارئ الفاضل : هناك يا سيدى ، ما يسمي بآداب الحديث أو أدب النقاش ، وليس منْ أدب الحوار أن تصف أحاديث مَنْ لا يعجبك رأيه « بأنها أحاديث العامَة في المقاهي والبارات » أو أنها ترديد لأقوال العنصريين والصهاينة .. إلخ ، فأى إنسان كما سبق أن ذكرت لك في مقدمة هذا الحديث - حتي من غير المثقفين - يستطيع أنْ يرد عليك بنفس المستوى وما أسهله ! لكن صدقني : إن الإسفاف والهبوط بالنقاش إلي هذا المستوى علامة لا تخطئ على الخواء الفكرى !!

***

عودٌ إلى « المجتمعات الورقية ..!

فى ظنى أن تحليل الواقع المتردى الذى يعيشه مجتمعنا العربى هو مهمة قومية ، وواجب وطنى ، ينبغى أن يضطلع به كل مَنْ يحمل القلم فى ميدان الأدب ، أو الفلسفة ، أو الصحافة ! ولقد قمتُ بهذا الواجب الوطنى على مدى سنوات طوال ، ثم كتبتُ منذ عهد قريب مقالاً بعنوان « كلكم يبكى فمنْ سرق المصحف » . حلّلت فيه الشخصية المزدوجة التى نعيشها « جريدة الوطن ٢٨ أكتوبر ١٩٨٦» ، ثم كتبت مقالاً آخر أحث فيه الشباب على دراسة موضوع « النفس» فى ميدان الفلسفة ، والدين ، وعلم النفس » جريدة الوطن ٥ نوفمبر ١٩٨٦» ثم كتبتُ مقالاً ثالثاً عنوانه « مجتمعات من ورق» أحلّل فيه عادة فكرية سيئة ، هى ذهابنا من فكر الذات إلى الواقع بدلاً من التركيز على دراسة الواقع الذى نعيشه ، ولستُ أعتقد أن فى هذا التحليل « قنوطاً » لأن القنوط سلب أو انسحاب من عالم الواقع ويأس من إصلاحه ، أما الكتابة والتحليل والتشريح ـ بالغاً ما بلغت قسوتها ـ فهى كلها نشاطات إيجابية وفاعلية بالغة الأهمية . ولقد تفضل أديبنا الأستاذ عبدالرزاق البصير، مشكوراً فعرض لمقالى الأخير « مجتمعات من ورق» بالدراسة والنقد والتحليل ، ولا شك أن الحوار مفيد فى جميع الحالات ، فبذلك يثرى الفكر ويتعدى بدماء جديدة ، ومواصلة للحوار الذى بدأه أديبنا أود أن أوضح بعض الأمور الهامة :ـ

أولا : ـ أنا عاتب على أستاذنا بادئ ذى بدء ، أنه أحياناً يقتطع العبارة من سياقها ليبنى عليها حكماً هو أبعد ما يكون عن المراد منها ! مثال ذلك أنه يقتطع عبارة تقول : إن الفكر لا يوجد فى العالم الخارجى ، وإنما هو حبيس النفس وحدها ، إنه بالداخل فقط » . ثم يحكم على العبارة : « مع كثير من الاستغراب والألم » بالخطأ طبعاً ! لأن الفكر الصحيح ، في رأيه ، وفى رأيى أيضاً ، يأتى من الواقع ، ومن

دراسة العالم الخارجى ! وإذا جاز لى أنا أيضاً أن أبدى « شيئا من الاستغراب والألم » ـ فلابدّ أن أقول إن مقالى كله ، من ألفه إلى يائه ، ينصب على ما يطالب به أديبنا ـ أعنى ضرورة البدء من الواقع ، من دراسة العالم الخارجى ، والمقال يهاجم الطريق المعكوس الذى نسير فيه والذى يبدأ من الفكر ، ويهبط منه إلى دنيا الواقع ! أما العبارة المقتطعة فهى « حوار مع النفس » أبرز لها فيها ميلى إلى للعزلة والانطواء ، وليس فيها حديث عن الواقع ولاعن العالم الخارجى!

ثانيا : من ذلك أيضاً ما يذكره أديبنا عن قصة نبى الله يونس من « أن ذهابه إلى بطن الحوت لم يكن من اختياره » .. إلخ وهو يفيض فى الحديث ، فيكتب فقرة كاملة يستشهد فيها بآيات من القرآن الكريم ، تثبت أن الاختفاء فى جوف الحوت لم يكن بإرادته وإنما كان مرغماً عليه .. إلخ ، ولو أن أستاذنا ذكر عبارتى بنصها لتبّين للقارئ فى الحال أنه ليس ثمة مشكلة فأنا لم أقل سوى ما يقوله الأستاذ البصير والعبارة تبدأ على هذا النحو : « هكذا أراد الله لنبيه يونس أن يختفى فى جوف الحوت فترة قبل أن يتصدى لما سرى واستشرى من شرور فى المدينة العظيمة «نينوى» .. » العبارة التى قلتها إذن تبدأ بالاعتراف بأن المشيئة الآلهية هى التى أرادت هذا الاختفاء ، وهى لم تقل أنه ذهب طائعاً مختاراً ؛ ليختفى فى جوف الحوت !

ثم أن الصورة تعنى فى النهاية أن العزلة أو الانطواء ليست مرضاً ولا عيباً وإلا لحاربتها الديانات السماوية ، وهذا كل ما فى الموضوع !

ثالثا : أما مسألة « اللجان» التى يقول عنها أستاذنا « من المعروف أن مكافأة تُدفع إلى جميع أعضاء اللجان .. إلخ » فالأمر فيها ليس أمر مكافآت وليست تلك هى المشكلة « وبالمناسبة هذا الذى يسميه بالمعروف خطأ ! » ، لأن اللجان ليس فيها مكافآت وليست تلك هى المشكلة بطبيعة الحال » ، بل المهم أنك تشعر أن أعضاء اللجنة يجلسون فوق قمة جبل شاهق يبلغ السحاب ، ويتحدثون حديث مَنْ

لا علاقة له بما يدور عند السفح ـ وهو أيضاً لون مـن ألوان الرسم ـ « علي الورق» أو البداية من فكر الذات لا من عالم الواقع ، ومعنى ذلك أننى أردت إبراز الهوة السحيقة بين ما تناقشه اللجان وما تضعه من « صور مثالية» ـ وبين الواقع السيئ الذى كان علينا أن ندرسه أولا ! أما مسألة « المفتاح » فهى صورة رمزية لا تخفى على أديبنا ، وليست حرفية ، بطبيعة الحال ، وإلا فمن أين عرفت ، ببساطة شديدة ، ما يدور فى الجلسة وأنه ضرب من « الفكر الذاتى» أو « المثالية الزائفة» التى أنقدها ؟!

رابعا : وأغرب من كل ما تقدم ـ هكذا يقول أديبنا ـ « هو تصديق الدكتور إمام لما رواه موشى ديان فى مذكراته .. » ـ والحق أن هذا المثل الذى ضربته استخدمه أستاذنا ببراعة حتى أن القارئ الذى لم تمكنه ظروفه من قراءة مقالى سوف يظن أنه المثل الوحيد ! ومع ذلك فهو ليس مثالاً سيئاً على أية حال ، فليس المهم هو «تصديقى أو عدم تصديقى » لما يقوله ديان ، فأنا أعرف بالطبع مَنْ هو ، وأعلم أنه ليس حاقداً فقط لكن من ألد أعدائنا وعلى يديه « تجرعنا كئوساً مريرة » عدة مرات ـ لكن الأهم من ذلك كله أن نسأل أنفسنا : أحقا ما يقوله ديان ؟! وكيف يمكن إصلاح هذا النقص الذى يتندّر به العدو ؟! إننا يا سيدى ، نبحث عن الحقيقة فهى ضالتنا حتى ولو قالها أعداء الأمة !

خامسا : سعدتُ كثيراً عندما قرأتُ فقرة طويلة يتفق فيها أديبنا مع ما قلته عن الوضع السيئ الذى نعانيه فهو مثلي « يشعر بأعظم القلق من هذا التخلف الذى تعانيه أمتنا العربية والإسلامية .. » . لكن ما أن نقوم بتحليل هذا التخلف الذى تعانيه امتنا حتى يطلق عليه اسم « الأفكار السوداء » و « الرؤية السوداوية » !! وليسمح لى القارئ أن اقتبس فقرة واحدة من مقالى وأنا أحلّل نكسة ١٩٦٧ وكيف أنها جاءت نتيجة منطقية ، لعدم اهتمامنا بدراسة الواقع الموجود أمامنا . وإليك ما قلته بالحرف الواحد:!

« .. إننا لا ندرس الواقع دراسة دقيقة تقوم على الفكر العلمى ، كما يفعل سائر عباد الله ، لم نضع جميع الاحتمالات التى يمكن أن يلجأ إليها العدو ، لم نعرف كل إمكاناته وطاقاته وقدراته ، وما يستطيع أن يفعل وما لا يستطيع ـ وإنما انطلقنا من فكرنا نحن ، وما قلناه عن أنفسنا من أننا أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط ! . هكذا تمنينا لأنفسنا ، وأقمنا « مجتمعنا الورقى » ـ فإذا ما أصطدم بجدار الواقع الصلب كان ما كان ـ وأطلقنا على الكارثة اسم الدلع الذى نتمناه لها مجرد « نكسة» ، حتى ونحن فى أسوأ حالاتنا لا نحاول أن ننطلق من الواقع وندرسه ونفهمه ونسمى الأشياء بأسمائها ، نريد أن نرسم لأنفسنا « صورة مثلى» ! ثم نطلق بها أجهزة الإعلام عندنا لبثها على الناس صباح مساء نرسخها فى عقول المواطنين بعد أن نضيف إليها كل ما نستطيع أن نضيفه من زخرف وزينة إلخ .. إلخ »

أحقاً هذه « الأفكار سوداء» ؟ ! هل نحن بهذا الأسلوب نزرع القنوط فى قلوب أبنائنا وبناتنا ؟! أهذا ما يسعى إليه أعداء هذه الأمة ؟! ثم ماذا تكون «الأفكار البيضاء التى تزرع الأمل والتفاؤل »؟! أن نقول للناس: عيشوا أحلامكم الوردية لا تدرسوا الواقع وارسموا ما تشتهون على الورق ؟! انطلقوا من فكركم أنتم لا من دنيا الواقع ، فالواقع بخير والحمد لله ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟! فى ظنى أن أعداء الأمة يا سيدى ، هم الذين يقولون ذلك ، لأن اليقظة والصحوة وهز الناس بعنف لكى يفيقوا من سباتهم العميق ـ وهى كلها أمور يستهدفها المقال ـ هى آخر ما يفكر فيه أعداء الأمة !

سادسا : أسعدنى كثيراً أن يقول الأستاذ الفاضل :« إن تخلفنا يفرض علينا أن ننقد أنفسنا بكل صراحة وقوة » .. وهذا هو فى ظنى على الأقل ، ما قمتُ به بكل دقة ! .. لكنه يشترط أن يكون تشخيص

أمراض أمتنا تشخيصاً واضحاً مستمداً من أدلة لا تأتى من أعداء أمتنا الحاقدين علينا .. وهو يعود فيشير مرة أخرى إلى مثال « ديان» .. مع إننى ذكرتُ أمثلة كثيرة غيره ومن مجالات مختلفة : ما قاله أحد الرؤساء من أننا « تصورنا» هجوم الأعداء على نحوٍ فجاء على نحو آخر ، وكذلك ما تفعله أجهزة الإعلام عندما ترسم « الصورة المثالية» .. ثم ذكرتُ أمثلة كثيرة من إصلاح التعليم ، وكيف إننا نستجلب ما وضعه علماء التربية من نظريات وآخر ما ابتكروه من اختبارات فى التحصيل والذكاء ، ونشيح بوجهنا عن دراسة الواقع الذى نعيشه « لا ندرس مشكلة الطالب الذى لا يقرأ ، والذى يجعل من الكتاب ألد أعدائه ، والذى يدفع فى لفافة تبغ أو وجبة شهية أضعاف ما يدفعه فى مجلة ثقافية ... إلخ إلخ » .

وكذلك ضربتُ أمثلة « بالعقوبات البدنية» كما ضربتُ أمثلة أخرى من ميدان السياسة « كالوحدة العربية» ، وكيف تتم من أعلى فتكون « وحدة ورقية » سرعان ما تتحطم إذا اصطدمت بأرض الواقع الصلبة .. إلخ إلخ . وهى كلها أمثلة مستمدة من قلب الواقع الذى نعيشه ، هى كلها تشخيص لأمراض تنخر فى عظامنا ، وليست مستمدة من « أعداء أمتنا الحاقدين علينا » ومع ذلك أسقطها الأستاذ ، ولم يذكر سوى « ديّان ومذكراته» ! ومع ذلك كله فالمثال الذى ضربه ديان فى مذكراته ، هو للأسف الشديد .. صحيح أيضاً ! رغم أن ديان من أعدائنا ، ومن الحاقدين علينا !!

سابعا : عندما ذكرتُ ما ذكرتُ من أمثلة تؤيد وجهة نظرى فى وجود طريقة سيئة فى التفكير هى السير من أفكارنا وتصوراتنا وهبوطنا لدنيا الأشياء ـ إنما أردت أن أشخص مرضاً . ولم أكن فى معرض الحديث عن « إيجابيات موجودة » ولم أنكر : « أن فى أمتنا

مفكرين قادرين على إنقاذ هذه الأمة من معاناتها ، شرط أن يفسح لهم المجال أن يقوموا بدورهم الذى تخصصوا فيه .. » ـ ولم أذكر ذلك لأنه ليس طرفاً فى الموضوع الذى أتحدث فيه ، فعندما يذهب مريض القلب إلى الطبيب ؛ ليشخص حالته لا نطلب منه أن يقول للمريض « قلبك فى حالة سيئة لكن يدك سليمة ، وقدمك راسخة ، وبصرك اليوم حديد !!» ليس هذا دوره بل مهمته تشخيص المرض الذى يشكو منه المريض !!

على إنى أعود فى النهاية لأتقدم بالشكر الجزيل لأديبنا الذى تفضل بقراءة ما أكتب والتعليق عليه ، والحق أن مجرد التفاته إلى مقالاتى وتحليلها لأمر أعتز به وأقدره تمام التقدير ، فله منى أيضاً كل تحية وكل احترام .

* * *

ثالثاً : فى فلسفة الدين

١ ـ كفاح الإنسان إلى أين ؟!
٢ ـ إيمان إنسان بلا إنسان !
٣ ـ الزمان والأزل .
٤ ـ إله الفلاسفة .
٥ ـ محاولات لتعريف الدين .
٦ ـ الحس الدينى بين التأييد والتفنيد .
٧ ـ الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل
٨ ـ الرؤية الدينية ... والمستقبل .
٩ ـ عندما خسر الشيطان الرهان .
١٠ ـ مِنْ التواكل إلى التوكل .
١١ ـ رحلة الإنسان إلى الله .
١٢ ـ التطرف الدينى .
١٣ ـ عن المعجزة .
١٤ ـ العلم الإلهى .

كفاح الإنسان إلي أين .. ؟!

حبات العرق تتصبب من جبينه ، وهو يلهث دون أن يتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه ! لا يثنيه عن عزمه غموض الهدف ، أو جهله بالنهاية ! ولا يفل من عضده وعثاء السفر ، ووعورة الطريق ! كلّما تحقق له هدف ظهر فى إثره هدف آخر ، وكلما ظفر بخير تطلع إلى خير أكبر ، وكلما نال حظاً أمل فى حظٍ أوفر ! ترُى ما الذى يصبو إليه هذا الإنسان .. ؟! كفاحه وصراعه إلى أين .. ؟! بؤسه وشقاؤه وعذابه وألمه ـ لماذا .. ؟! متى يظفر بالسكينة وينعم بالسلام والطمأنينة .. ؟! متى يرضى ، ويقنع ، ويكف عن النهم والجشع ؟! ما الهدف النهائى الذى يروم الوصول إليه ، ومن أجله يسعى ويشقى .. ؟!

هذا شاب مفتول العضلات ، مكتمل الصحة والعافية ، يضرب الأرض بقدميه كما لو كان يريدها أن تنفطر ، ومع ذلك فهو ساخط ناقم ؛ لأنه يسير راجلاً بغير سيارة ! بيد أنه عندما يشترى السيارة لا يقنع ، ولا يهدأ فهو يريد أكبر حجماً وأحدث صنعاً ! ثم أسرع وأقوى ! ولو نالها لتلفت حوله باحثاً عن مطلب جديد ، فهو لا ينظر قط إلى ما بين يديه من خيرات وحظوظ ، وبما حققه من أهدافٍ وغايات ، وإنما يتطلع إلى ما حوله من خيرات لم يمتلكها بعد ! إن تزوّج لا يقنع ، مع أنه هدد بالانتحار ، ذات يوم ، إذا لم يتزوج هذه الفتاة بالذات ، لكنه بمجرد زواجه منها يملها ! إنه يريد الآن امرأةً أكثر جمالاً ممن بنى بها ، ولو عثر على هذه الفتاة الجديدة وتزوجها ، لأراد زوجة أخرى أوفر ذكاءً ، فليس المال أو الجمال هو كل شئ ! ولو تحقق له مطلبه لأرادها أكثر أناقة ، حوراء العين ، شقراء الشعر ، أطول أو أقصر ، مكتنزة فى غير سمنة ، بيضاء أو سمراء .. وهكذا إلى ما لا نهاية ، باستمرار يتطلع الإنسان ، إلى ما ليس يملك ، ويزهد فيما حققه أو وصل إليه ، إنه دائم الملل مما عنده ، شديد الشوق للمطالب الجديدة ! مطالب لا

تنتهى ، وأطماع لا تتوقف ، ونَهَم لا يرتوى ، ورغبات تتجدد دوماً .. ! مَنْ يمتلك ضيعة يريد لها أن تتضاعف ، وأن تتسع حتى لتلتهم ما حولها ! أريد مسكناً ملكى ، كلا أريده من طابقين ، وماذا يضيركم لو كان قصراً منيفاً ..؟! ما رأيكم فى بناية شاهقة من عدة طوابق ، كلا، أريد ناطحة سحاب !

هذا النهم أو الجشع الذى هو جوهر الإنسان .. ما خطبه ؟! ويقول الحديث « لا يملأ عين ابن آدم إلاّ التراب » ـ وهو يعبر أصدق تعبير عن هذا الجوهر الجشع النهم المتطلع إلى المزيد دائماً ! ولو أنك قدمت له تراب الأرض جميعاً لتطلع إلى ما فى القمر والمريخ من تراب ! فليست المسألة متوقفة على أنه خيراً جزئياً محدوداً ، ولا سعادة متناهية معينة ، ولا لمدة موقوتة ، لكنه يريد الخير كله : الخير الأقصى اللا محدود ، والسعادة اللامتناهية ، واللذة الأبدية ! وقد لا يكون هو نفسه على وعى واضح بسعيه المستمر نحو خيرٍ لا متناه ! لكن تلك هى طبيعة البشر النهمة التى لا تشبع أبداً ! فهذا السعى الدؤوب للإشباع روّاغ ، ينبع من أغوار سحيقة فى قلب الطبيعة البشرية ، فهو ليس نزوة طارئة أو قلقاً عارضاً ، لكنه دليل عميق عميق .. على شوق الإنسان إلى اللامتناهى ! إنها الرغبة العارمة للروح البشرى المتناهى للاتصال بالروح المطلق اللامتناهى ! من أجل هذه الغاية كان كفاح الإنسان ، وجهده ، وعدم توقفه مهما يكن من أمر الصعاب التى يلتقى بها والعقبات التى تعترض طريقه ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ (٤ سورة البلد) ـ نعم ! وهو لهذا ينتقل حائراً من موضوع إلى موضوع ، ومن هدف إلى هدف ، دون أن يستقر على حالٍ أبداً ، إذا وصل إلى خير جزئى لا يشبعه ؛ لأنه يعرف أن هناك خيرات كثيرة من حوله لا يمتلكها ، ويجرفه تيار الحياة فيفلت من يده ما كان لديه ، أو يتركه بإرادته لكى يسعى وراء خيرٍ آخر ، وهو يتخلص من لذة لكى يشتاق إلى لذة أخرى ، وهو يشعر بالضجر والملل من تلك

اللذة إذا تحققت ، ويندم عليها إذا ما انقضت ، ولكنه فى نفس الوقت يتطلع إلى إشباعٍ جديدٍ : إنه يريد أن يصل بضربة واحدة إلى كل ألوان اللذة الممكنة ، إلى لذة دائمة أبداً ، ومن هنا يأتى الجنون الذى يجعله يفشل حتى فى الاستمتاع باللذة الراهنة ، فيتركها طمعاً فى لذة آتية لكنها تنقضى بدورها !

الواقع أن نهم الرغبة البشرية وعدم ارتوائها ، وتنقل الإنسان من خير إلى خير يعنى أنه لن يقنع إلا بالخير اللامتناهى ، أعنى بالوصول إلى الله ! وكفاحه وعذابه وسعيه كله ، إنما يعود إلى أنه يريد أن يصل إلى مصدره الأول . ونفوره من كل خير جزئى معين ، وضجره ومَلله من اللذات التى ينالها ، ليس إلا شعوره بالهوة التى تفصل ما بين يديه من لذة ، وما يريد أن يصل إليه ! ليست هذه اللغة الحسية مطلبه ، كلا! ولا هذا الخير الجزئى ، وإنما هو - بشعور غامض لا يدرى كنهه - يسأم ويمل ويشعر أن هدفه من لون آخر ! إن عذاب الإنسان يأتى من أنه يبحث عن الله دون أن يعرف ما الذى يبحث عنه ، وبالتالى دون أن يعرف أين يبحث عنه ، لكن كفاحه سوف يكلل بالنجاح فى نهاية الأمر ﴿ **يأيها الإنسان ، إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ (٥ الانشقاق) . المخلوقات تدين بوجودها لله ، فالله هو الذى أراد الأشياء جميعاً ولاسيما ذلك المخلوق العاقل الذى هو الإنسان لكى يكون خليفة له على الأرض ، وهذا يعنى أن كل نشاط يعود بالضرورة إلى الله بوصفه غاية له ، وكل ما هو مخلوق لله ، إنما يتجه إليه تلقائياً بفضل قانون إلهى مسجل فى جوهر وجوده ذاته ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم علي أنفسهم ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلي شَهِدْنا** ﴾ (١٧٢ الأعراف) .

هذا الميثاق المسجل فى قلب الطبيعة البشرية منذ الأزل ، نسيه الإنسان لطول العهد ، لكنه لا يزال قائماً ، ولهذا فإنه يسعى وراء الغاية العظمى بدافع من شعورٍ باطنى غامض لا يعرفه . سل مَنْ شِئْت من

الناس : لماذا لا تقنع بما لديك ؟ ولماذا لا تكف عن السعى وراء الخيرات أياً كان نوعها ؟ يجبك بأنه : لا يعرف ! كل ما يعرفه أنه لا يستطيع أن يتوقف عند خير جزئى معين ، سواء كان « صحة » ، أو مسكناً ، أو مالاً ، أو زوجة ، أو ولداً .. ! باستمرار يتطلع إلى خير آخر ، وإلى سعادة أخرى ، وإلى لذة لا تنقضى ! ولن يتحقق ذلك إلا إذا وصل الروح البشرى المتناهى إلى الروح الإلهى ، إلى المطلق اللا متناهى بحيث تكتمل الدائرة وتنغلق ! لقد كان فى البداية مع الله فى الجنة أو فى ضمير الغيب ، ثم حدثت فجوة نفصل فيها الإنسان عن الله ، عندما عصى الأمر الإلهى ، فحاول بذلك أن يستقل بوجوده وأن يعلن عدم تبعيته لخالقه ، وكان تمرده هذا سبباً مباشراً لاتساع الهوة .. ! ومنذ ذلك اليوم وهو يكافح ويكابد ويجاهد ؛ ليعود مرة أخرى إلى مصدره الأول ! فتلك هى السعادة الأبدية ، واللذة الدائمة التى لا تنقضى **﴿ وُجُوهٍ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾** (٢٢ ، ٢٣ القيامة).

وشقاء الإنسان يأتى من أنه ينخدع أثناء سعيه ، ويضل الطريق ، فَيُقْبل بنهمٍ على هذه اللذة أو تلك ، ويجرى وراء هذا الخير أو ذاك ، ثم يكتشف أنَّ هذه اللذات الدنيا لا ترويه ؛ لأنها ليست مطلبه الحقيقى ، فيسأم ويشعر بالضجر والملل . فإذا كان الإنسان قد بدأ رحلته مع الله فإن نهاية هذه الرحلة هى الوصول إلى الله أيضاً **﴿ هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن .. ﴾** (٣ الحديد). وعندئذٍ يستطيع الإنسان أن يقول فى اطمئنانٍ عميقٍ **﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله ربِّ العالمين .. ﴾** (١٦٢ الأنعام).

ولهذا فقد كان بعض المتصوفة من العمق ، وبُعد النظر حتى أنهم اتخذوا من وجود الجشع والنهم والطمع الذى لا يرتوى ، ولا يشبع فى الإنسان دليلاً على وجود الله ! فهذه الطبيعة البشرية النهمة التى لا تقنع بشئ جزئى ، لن تجد السكينة إلا إذا وصلت إلى الله ! وهو إشباع يحتاج إلى حياة أخرى تستمر إلى الأبد !!

إيمان إنسانٍ بلا إيمان .. !

كنتُ أسـيـر فى نفق للمـشـاة فى أحـد شـوارع « لندن» عنـدمـا استـوقفتنى مـجمـوعة من الكتب معـروضة على رصـيف الشارع ، وأنا عادة أنجذب بشـدة إلى الكتب على نحو ما ينجذب العـاشق الولهان إلى حـبيبته التـى غابت عنه زمـناً ! لكنى ما كـدت ألقى نظرة سـريعـة على أسمـائها حتى اكتشفت أمـراً غريباً هـو أنهـا كلهـا ، تقريبـاً ، تدور حول مـوضـوع واحـد هـو « الإلحـاد» ! فـهـذا كـتـاب للفـيلـسـوف الإنجليـزى المعـاصـر « برتراندرسل » « ١٨٧٢ – ١٩٧٠ » عنـوانه : «لماذا لـست مسـيحـيا ؟» ـ وذاك كـتاب آخر للفـيلسوف الألمانـى الشهـيـر « لو دفـيج فـويرباخ ١٨٠٤ ـ ١٨٧٢ » عن « جـوهـر المسـيحـيـة» ، وتلك مـجـموعة كـتب فـردريك نيتـشـه « ١٨٤٤ ـ ١٩٩٠ » ـ وعلى رأسـهـا « هكذا تكلم زرادشـت » ثم هـناك كتب « تـوماس بين » وإلى جـوارها كـتـب «جان بول سـارتر » .. إلـخ إلـخ فـعـجـبـتُ من هـذه « المظاهـرة الإلحـاديـة » وسـألت البـائع أصدفـة هـى أن تجـتـمـع هـذه الكتب كلهـا فى الإلحـاد ، أم أن الأمـر فيه قـصـد وتدبير .. ؟!

فـأجاب الرجل : إننـى يا سـيدى ، أبيع فـحـسـب ولا أعـرف شـيـئاً عن مـضـمـون هـذه الكـتب ، فـإن أردت عنهـا اسـتـفسـاراً أو مـزيداً من المعلومات فاسـأل هـذه السـيدة ، وأشـار بيده إلى عـجـوزٍ تناهـز السـبـعين ، جلسـت على كـرسـى بعـيـد تـتلمس قـدرا من أشـعـة الشـمـس الدافـئـة ؛ لتساعدهاعلى مقاومة الشيـخوخة ، وتعينها على تحمل شتاء « لندن » القارص !

وذهبتُ أطرح على المرأة السؤال نفسه ، وازداد عجبى عندمـا قالت : نعم ! هـى مقـصـودة ومـتعمـدة فنحن قد شكلنا « جـمعيـة عالمية لنشر الإلحاد!» وافتتحنا لها أفرعاً فى جميع أنحاء العالم !؟ ثم صمتت تلتقط أنفاسها ، وعادت تسألنى : من أين جئت ؟

ـ من مصر ! فقالت : لا ليس لدينا فرع فى مصر . وإنْ كان لدينا فرع فى تركيا ! ويمكن أن تكون وكيلنا فى مصر ! أتريد مجموعة الاستمارات الخاصة بالجمعية لكى تملأها ، فتكون عضواً عاملاً ووكيلاً دائماً لنا فى العالم العربى ..؟! وقاطعتها متسائلاً : أليس من الأفضل فى البداية أن أقف على أهداف جمعيتكم « الموقرة » أن أكون عضواً ، عاملاً ، أو غير عامل .. ؟!

فأجابت العجوز بامتعاض : أهداف ؟! أى أهداف يا هذا ؟! لقد قلتُ لك أن هدفنا هو نشر الإلحاد فى ربوع الأرض ، ألا يكفى أن يكون ذلك هدفاً ؟! أما إذا كنت تسأل عن أهدافٍ سياسية ، فنحن لا علاقة لنا بالسياسة ، إن كل ما يشغلنا هو موضوع « الدين» .. !

وعدتُ أسألها : لكن أتعتقدين أن فى استطاعتكم انتزاع الإيمان من نفوس الناس ؟! أيمكن لكم اقتلاع الحس الدينى من أعماق البشر ، باختصار أيمكن لكم « القضاء على الدين » ؟! وأجابت المرأة بسرعة : كلا ! نحن لا نعتقد ذلك ، ولا نتصوره ، بل ولا نفكر فيه ، إن هدفنا الأساسى ـ وهو هدف نبيل ورائع للغاية ، ولو نجحنا فيه فسوف نكون قد انتصرنا انتصاراً سحيقاً ـ هو : أن نمنع تدريس الدين للأطفال فى المدارس ، لأن الطفل ، ولا سيما فى سنينه الأولى التى يلتحق فيها برياض الأطفال ، لا يكونِ سوى عجينة « طيعة » يشكّله المربون على هواهم ، إننا لا نريد أن يفرض شئ على الطفل فى مرحلةٍ لا يستطيع فيها أن يدافع عن نفسه ! كل ما نود أن نصل إليه هو أنَّ نمنع تدريس الدين فى المدارس ، فإذا ما شب الطفل ، وتمكن من أن يقرأ بنفسه ولنفسه وأن يتجول فى مختلف الديانات ، وأن يدير أفكارها فى رأسه ، فله أن يختار منها ما يشاء !

تركتُ العجوز وكتبها وجمعيتها وأهدافها ، وواصلت السير فى طريقى أفكر ، لا فيما قالته فحسب ، بل قبل ذلك فيما تمارسه ، فى قدرتها على النشاط والحركة ، امرأة تناهز السبعين من عمرها

وتقترب من نهاية رحلتها ، مازالت تؤلف جمعية تستهدف كذا وكيت وتدعو إلى الاشتراك فيها ، وتحمل استمارات جاهزة يملأها من يريد الاشتراك فى العضوية والمساهمة معها فى النشاط ؟! أى حيوية وتدفق عند هؤلاء الناس ؟! فى هذه السن ومازال أمامها « هدف» ـ أياً كان نوعه ـ تسعى إلى تحقيقه !

اللهم سبحانك ! المرأة فى بلادنا مازالت تُقبر وهى فى عنفوان الشباب ، وكأن مجتمعنا قد استعذب وأد البنات ، فإذا كان الإسلام قد نهى عن ذلك مادياً ، فلا أقل من أن نفعله معنوياً ! لو كانت هذه العجوز فى بلادنا لقيل لها إن عمرك « الافتراضى » قد انتهى منذ زمن ! وأنت الآن « تلعبين فى الوقت الضائع » إما أنْ تبقى فى المنزل فى انتظار الموت ، أو أن ندفنك حية ، وسوف يشكرنا على صنعنا هذا كثيرون!

سرتُ أكمل طريقى ، وأفكر هذه المرة فيما قالته العجوز : لا ! نحن لا نفكر فى اقتلاع الإيمان من نفوس الناس ، فذلك مستحيل ؟ المرأة التى تترأس جمعية لنشر الإلحاد ، تعترف فى الوقت ذاته أن الإيمان راسخ فى أعماق البشر ، وليست المشكلة : أن تؤمن أو لا تؤمن ـ فأنت فى جميع الحالات مؤمن دائماً ، وإنما المشكلة : بماذا تؤمن ؟ فذلك لابد أن يكون فى رأيها باختيارك ، ولماذا يُفرض عليك الإيمان بأفكار دون أخرى ؟! لماذا يفكر لك الآخرون ، ولا تفكر أنت لنفسك ؟ لماذا لا يترك للطفل ـ هكذا تقول ـ حرية اختيار الديانة التى يعتنقها ويراها أكثر اتساقاً ، وأقرب إلى العقل والمنطق ؟! ذكرتنى عبارة العجوز بما قاله فيلسوف ملحد هو « ڤويرباخ» عندما عرّف الإنسان فى بداية كتابه « جوهر المسيحية » بأنه «حيوان متدين» ! وأن الدين ضرورة لا غنى عنها للإنسان ! حتى قيل عن « فورباخ » إنه « الملحد التقى » ، أو « الملحد الورع» ! فذلك إيمان فيلسوف بلا إيمان .. !

أيكون الحس الدينى فطرياً عند الإنسان ؟! ألا يوجد فى الفلسفة ما

يسمى باسم :« الإيمان الغريزى بالله » ؟! بمعنى أن وجود الله مفطور فى النفس البشرية، وأن هناك استعداداً وميلاً غريزياً عند الإنسان للإيمان بالله ؟!

لقد وَجَدَتْ هذه الفكرة نفسها فى التصوف الإسلامى ، وأُطْلِق عليها اسم « الميثاق الأعظم » مستندين إلى الآية رقم ١٧٢ من سورة الأعراف : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم علي أنفسهم . ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلي شهدنا .. ﴾ وأخذت الآية الكريمة برهانا على وجود الله ، وسميت « برهان ألستُ » وذهب فريق من الصوفية إلى أن الميثاق أُخِذَ على بنى آدم قبل هبوطهم إلى الأرض ، وذهب فريق آخر إلى أن ذلك يعنى استعداداً طبيعياً وضعه الله فى النفس البشرية تستطيع بواسطته أن تتعرف على وجوده ! بل ذهب بعض الفلاسفة إلى القول بأن الناس ليسوا بحاجة إلى أن يتعلموا أن الله موجود إلا بمقدار حاجتهم أن يتعلموا أن العالم موجود ! ومن هنا فقد هاجم فيلسوف مثل « سيرن كيركجور » « ١٨١٣ ـ ١٨٥٥» S.Kierkegaard، ـ مؤسس الوجودية ـ كل محاولة للبرهنة على وجود الله ، مع أنه هو نفسه كان من أقطاب الفكر الدينى فى الدنمارك ، وذهب إلي أنه « إذا كان من التجديف على الله أن ننكر وجوده ، فإنه لمن التجديف عليه أيضا أن نبرهن على وجوده !» إنَّ الإيمان فى القلب إحساس ، وشعور ، ووجدان ، ولا يحتاج إلى برهان ، فهو ليس قضية علمية تحتاج إلى برهنة وإثبات .

يقول : « بأى حماس لا ينال منه الأعياء ولايهن بمرور الزمن ، بأى فيض زاخر من الكلمات ، حاول الفكر النظرى فى عصرنا أن يقدم لنا برهاناً قوياً علي وجود الله ! ومع ذلك فكلما زادت البراهين وقويت ، قلَّ الإيمان وضَعُفَ !» وكل منْ حاول البرهنة على وجود الله ، هو فى رأيه يهوذا آخر ؛ لأنه يبيع الدين بقبله ! الإيمان مغروس فى قلب الإنسان مفطور فى النفس البشرية ، ولهذا ذهب «ديكارت R.Descartes

١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ » إلى أن الله بعد أن خلق الإنسان «وقّع» على وجوده كما يوقّع الفنان فى نهاية اللوحة التى يصورها ، وهذا القبس لألهى المطبوع فى وجود الإنسان هو الذى يدفعه ـ وربما بغير وعيٍ - إلى البحث عن مصدره ! وهو المهماز الذى يحث الناس على السير إلى الله ! فحتى الإنسان البدائى كان يبحث عن الوجود الإلهى دون أن يدرى ، لكنه لقلّة ثقافته ، كان يتنكب الطريق ، ويتوقف عند هذا النهر أو ذلك الجبل ، أو هذا النجم قائلاً : هذا ربى ! الإيمان ، إذن ، كامن فى أعماق كل قلبٍ بشرىٍّ ، بل هو يدخل فى صميم ما هية الإنسان ، كما يقول أحد الهيجلين المعاصرين ، مثله فى ذلك مثل العقل سواء بسواء !

لكن إذا كان الحس الدينى متأصلاً فى أعماق الإنسان ، وجزءاً لا يتجزأ من تكوينه ، فإنه لا يوجد عند جميع البشر بدرجةٍ واحدة ، فهو عند بعض الناس مدفون ، ومطمور فى أعماقهم ، لكنه عند البعض الآخر ظاهر وطافح عند السطح ، وقد نظن أن صاحب الحالة الأولى إنسان بلا إيمان ! ولو دققت قليلاً لوجدت الإيمان موجوداً فى القاع . أما الحالة الثانية فهى حالة الرجل الصوفى العظيم الذى لا يرى فى الكون كله إلا فعلاً واحداً هو الفعل الإلهى ! والأمر هنا هو شبيه بالإحساس بالجمال فهو أيضاً موجود عند البشر جميعاً . لكنه مطمور ومدفون عند البعض وفى حين أنه يكون قوياً وعارماً عند الفنان العظيم الذى يرى الجمال فى كل شئ !

فالمسألة ، يا سيدى ، ليست إيماناً أو غير إيمانٍ ، وإنما هى درجة الإيمان ، فالإيمان يكون إيماناً بدرجات متفاوتة ، وكل إنسان لديه درجة من الإيمان ، حتى ذلك الإنسان الذى يبدو .. بلا إيمان !.

* * *

الزمان ... والأزل

النظام الطبيعى هو الزمان الذى يرتبط بحركة المادة ، أما النظام الإلهى فهو اللازمان أو الأزل ، وهناك فى القرآن الكريم ، آيات كثيرة تتحدث عن النظام الأول: اليوم ، الشهر ، أو السنة ، وقد ذكرناها فى مقالٍ سابق ، وهناك آيات أخرى تتحدث عن النظام الأخير اللازمانى أو الأزلى ، وهى شديدة الوضوح بالغة الدقة . وسوف نتحدث عنها بعد قليل لكن هناك آيات تعبر عن مرحلة انتقال من الزمان إلى الأزل صيغت فى ثوب الزمان الأرضى حتى يستطيع العقل البشرى عند عامة الناس فهمها . لكن القرآن الكريم يعود فينسخ هذه الآيات حتى لا تستقر فى أذهان الناس كما هى ، ويبيِّن أن الثوب الأرضى للزمان ليس هو المقصود بذاته ، وإنما المقصود منه إعطاء صورة تقريبية مجازية فحسب ، وها هنا كان الخلط والاضطراب والحيرة عند كثيرين من الذين لم يضعوا فى أذهانهم أن القرآن يتحدث عن نظامين هما : « الزمان .. والأزل » . وأن هناك آيات كثيرة تمثل مرحلة وسطى بين الطرفين ، لأنها تعبر عن العلاقة بينهما . فإذا كان الزمان يمثل النظام الأرضى القائم فى العالم ، وإذ كان الأزل يعبر عن النظام الإلهى ، فإن العلاقة بين الله جل جلاله وبين العالم ، هى بالطبع علاقة الخالق بالمخلوق ، ومن ثم كانت الآيات التى نتحدث عنها ، والتى تمثل مرحلة وسطى بين الزمان والأزل هى الآيات التى تتحدث عن عملية الخلق مثل ، ﴿ **لقد خلقنا السموات ، والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام** ﴾ (٣٨ سورة ق) أو ﴿ **الذى خلق الأرض فى يومين ...** ﴾ . ﴿ **وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام** ﴾ (آية ١٠٩ من سورة فصلت) و﴿ **ربكم الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ (٥٤ ـ الأعراف) .

لكننا لا نستطيع أن ننظر إلى هذه الآيات الكريمة نظرتنا إلى الآيات السابقة ، فنتوهم أن عملية الخلق قد استغرقت ستة أيام من أيامنا

البشرية ، أعنى أنها قد استغرقت أسبوعاً كاملاً كما قد يظن السذج ، وإلا لضاع منا المغزى الدقيق لهذه الآيات التى ليست سوى قنطرة ومعبر من الأزل إلى الزمان البشرى ، من الوجود الأزلى إلى الكون ، من الله سبحانه وتعالى إلى العالم ، فهى تريد أن تعبّر عن تلك الرابطة بين الله الخالق الأزلى ، وبين العالم المخلوق الحادث ، ومن هنا كانت تتحدث بلغة الأيام « لغة العالم الحادث» ، لكنها لا تقصد معناها الحرفى ؛ لأنها صادرة عن النظام الإلهى « الأزلى الخارج عن الزمان ، أى أنها تتحدث بلغة الأزل » .

ولقد أخذ اليهود بالمعنى الحرفى ، فذهبوا إلى أن الله تعالى قد خلق العالم فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع ، بعد أن تعب من العمل المضنى ستة أيام كاملة ! ولقد سخر منهم القرآن الكريم لسذاجتهم ، أولاً ، ولفهمهم الحسى والحرفى ثانياً ـ قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السموات ، والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام، وما مسنا من لُغُوبٍ** ﴾ (٣٨ - ق) . « واللغوب : التعب والإعياء » ويقول القرطبى فى تفسيره لهذه الآية « لقد نزلت هذه الآية فى يهود المدينة الذين زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيامٍ ، ثم استراح فى اليوم السابع ، فجعلوه يوم راحة ، فكذبهم الله تعالى » (مجلد ١٧ص٢٣) ولهذا نجد القرآن الكريم يسخر منهم أيضا لتقديسهم يوم السبت يوم الراحة المقدسة ! الذى حرموا فيه العمل تماماً ومنعوا حتى سعى الناس لأرزاقهم ، من صيدٍ وحرثٍ (وهذا واضح فى معارضتهم للسيد المسيح كلما التقط سنابل من الأرض يوم السبت ، « إنما عليهم . « إنما السبت للإنسان، وليس الإنسان للسبت » مرقس : ٢-٢٧) ـ أقول إن القرآن الكريم سخر من فكرتهم هذه سخرية مريرة ، حتى أن الله تعالى كان يبعث إليهم بالأسماك والحيتان شارعة الرؤوس ظاهرة للعيان يوم السبت بالذات ويمسكها عنهم بقية الأسبوع فلا يظهر منها شئ لأهل القرية « قرية كفر ناحوم » الذين

كانوا يشتغلون بصيد الأسماك : **﴿ وَسْئَلْهُم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعاً ، ويوم لا يَسْبِتُونَ لا تأتيهم ﴾** . (١٦٣ - الأعراف) وسخرية القرآن الكريم من اليهود الذين تصوروا أن عملية الخلق قد تمت فى ستة أيامٍ من أيامنا البشرية ، واستراح الله فى اليوم السابع ، تعطينا بداية الخيط فى الفكرة التى نزعمها ، وهى أن الآيات التى تتحدث عن عملية الخلق ينبغى ألا تؤخذ بمعناها الحرفى ، لأن الصورة هنا رمزية أو مجازية فحسب ، أو هى تعبير عن فعل الله الأزلى فى صورة زمانية لأنها تصور عملية هى همزة الوصل بين النظام الإلهى ، والنظام الطبيعى ، بين الخالق والمخلوق، بين الأبدى والحادث ، يقول الإمام محمد عبده : « أما هذه الأيام الستة فهى من أيام الله التى يتحدد اليوم منها بعمل من أعماله يكون فيه ، فإن اليوم فى اللغة هو الزمن الذى يمتاز بما يحصل فيه من غيره ، كامتياز أيامنا بما يَحُدُّها من النور والظلام ، وأيام العرب بما كان يقع فيها من الحروب والخصام ، وأيام الله التى أمر موسى أن يذكر قومه بها ، هى أزمنة أنواعٍ نعمة عليهم ، ولا يعقل أن تكون هذه الأيام الستة من أيام أرضنا التى يعد ليل اليوم ونهاره بأربعٍ وعشرين ساعة من الساعات المعروفة عندنا ، فإن هذه الأيام إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض ، فكيف يكون أصل خلقتها فى أيام منها؟! » . (تفسير المنار مجلد ٨ ص ٤٤٥) ويريد الأستاذ الإمام أن يقول إن الزمان مخلوق من بداية خلق العالم ، فكيف يكون هناك زمان قبل الزمان ؟ والأيام تحددت على أساس دوران الأرض ، فكيف يكون هناك أيام قبل خلق الأرض ؟!

والواقع أن الفكرة اليهوية عن عملية خلق العالم هى التى شاعت فى التراث البشري بأسره ، حتى أن بعض المفسرين المسلمين قد شايع هذه الاسرائيليات فذهب إلى أن « الله خلق التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الأثنين ، وخلق المكروه يوم

الثلاثاء ، وخلق النوم يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » . « النسفى فى التفسير» وهو تفسير ظاهر البطلان :

أولاً : لأن الأيام من السبت حتى الجمعة سبعة أيام لا ستة ، مع أن الآية التى يفسرها تتحدث أصلاً عن ستة أيام !

ثانياً : لأن تقسيم الأيام إلى سبتٍ أو أحدٍ .. إلخ مرتبط بدوران الأرض ، فكيف يمكن أن توجد قبلها ؟!

ثالثاً : الأخذ بالمعنى الحرفى لأيام الخلق فيه مسايرة شديدة للتفكير اليهودى الذى سَخِر منه القرآن الكريم أكثر من مرة (*) .

رابعاً : هناك آيات كثيرة سوف نتعرض لها بعد قليل ، تنسخ هذه الأيام الستة التى اجتهد المفسرون فى تفسيرها ، وتصنيف ألوان الخلق فيها ، ونحن نريد أن نفهم « النسخ» هنا بالمعنى الهيجلى لكلمة «الرفع» أى الإلغاء والإبقاء فى آن واحد ! ومن الآيات التى تنسخ الآيات السابقة قوله تعالى : ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ (٤٧ ـ الحج) ، ومعنى ذلك أن عملية الخلق لم تستغرق ستة أيام فقط كما تصورنا فى البداية حين أخذنا بالمعنى الحرفى للآية السابقة ، ولكنها استغرقت ستة آلاف سنة من حسابنا الزمنى ! وهذا هو المعنى الذى أخذ به القرطبى حيث يقول : « ستة أيام أى من أيام الآخرة ، كل يوم ألف سنة ، وذلك لتفخيم خلق السموات، والأرض » ، (الجامع ـ مجلد ٧ ص ٢١٩) أى أن القرآن الكريم يريد أن يبيِّن لنا مقدار ضخامة خلق العالم ، كما يعتقد القرطبى ، فذكر أن اليوم ليس يوماً عادياً ، ولكنه يساوى بحسابنا ألف سنة . لكنى أعتقد أن مغزى الآية الكريمة

(*) قارن فيما بعد مثالنا « الزمان فى القرآن » ص ٣٧٨ فقد عرضنا لهذا الموضوع فى شئ من التفصيل .

أعمق من ذلك بكثير : إنها تريد أن تحذف معنى « اليوم» الذى نعرفه تماما ، تريد أن تمهد للانتقال إلى اللحظة الإلهية الأزلية التى تخرج عن نطاق الزمان تماماً . وهكذا تنقلنا الآيات القرآنية بالتدريج من عالم الزمان الذى ألفناه إلى عالم النظام الإلهى الأزلى أى عالم الخلود !

والواقع أن اليهود بتركيبهم المادى والحسى الذى لا يؤمن إلا بما هو مادى ، وبما هو محسوس ، لم يكن فى استطاعتهم فهم النظام الأزلى ، أو النظام الإلهى اللازمانى ، أو الأبدية الخالصة المجردة من كل ما هو محسوس ، فى حين أن القرآن يكشف عن هذا النظام بالتدريج فإذا كانت هناك آيات هى بمثابة القنطرة التى تمكننا من أن نعبر بواسطتها من النظام الزمانى إلى النظام الإلهى ، فتتحدث عن الخلق فى ستة أيام ، فإن القرآن يحرص على أن يُخْرِج « اليوم الإلهى » تماماً من نطاق الزمان ، الذى هو أصلاً نظام مخلوق ، أو حادث بقوله تعالى : ﴿ **ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ (٥ - السجدة) فكأن الخلق قد تمَّ فى ستة آلاف سنة كما ذكر القرطبى ، لكن الرائع حقاً أن نجد القرآن يحرص على ألا يستقر هذا المعنى فى أذهان الناس ؛ لأن السنوات الكثيرة الضخمة هى فى النهاية سنوات ، أعنى جزءاً من الزمان ، فى حين أن القرآن يريد أن يصل بنا إلى النظام الإلهى الأزلى اللازمان ، ومن هنا نجد نَسْخاً لهذه الآيات السابقة ، فليس المقصود ستة آلاف سنة بشرية ، بل المقصود إعطاء صورة بالغة الضخامة عن اليوم الإلهى بقوله تعالى : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ (٤- المعارج) وهكذ نصل إلى خطوة أعلى ، ودفعة إلى الأمام على طريق الأزل ، فاليوم الواحد يعادل خمسين ألف سنة ، كأن عملية الخلق تمت فى ثلاثمائة ألف سنة مضروبة فى ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً « وهى مقدار السنة» ؛ لتجد أنها استغرقت أكثر من مائة مليون يوم ! لكن حتى هذا الملايين من الأيام ليست مقصودة بذاتها وإنما هى رمز يعبر

عن اللحظة الإلهية ، ويريد أن يقول إن عملية الخلق تمت فى لحظة هى ذرة من الأزل الذى يخرج تماماً عن نطاق الزمان .. هذه اللحظة الإلهية ليس فيها يوم ، ولا أمس ، ولا غد لأنها كما قلنا تبعد عن مجرى الزمان فى آن أزلى ، أو لحظة أبدية ، أو حاضر سرمدى يعلو فوق جميع اللحظات ، ولا يخضع للتغيير أو التطور ، ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أن « المراد باليوم هنا مدة من الزمن لا يعلم مقدارها إلا علّام الغيوب ، وكل ما ذكر فيه من قبيل التقريب لعقولنا » أى تقريب معنى « الأزل» للعقل البشرى ! إذ يمكن للمرء أن يتصور معنى الأزل تصوراً خاطئاً ، فيظن أنه زمان لا نهاية له أو هو الزمن غير المحدد ، وهذا بالطبع تصور فاسد ، وهو الذى أطلق عليه « هيجل» اسم اللا متناهى الزائف الذى يعبر فقط عن الكثرة ، أو الضخامة ، لكنه لا يعبر عن اللامتناهى الحقيقى ، إن الزمان الذى لا نهاية له يتكون من آنات ، أو لحظات ، كلٌ لحظة لها « قبل» و«بعد» فهى من ثَمَّ محدودةٌ ، ومجموع المحدود مهما تبلغ ضخامته محدود أيضاً ، أما الأزل فهو اللازمان وهو الحاضر الأبدى الدائم الذى يبعد تماماً عن شريط الزمان .

والواقع أن القرآن الكريم يصور هذه الأبدية الإلهية تصويراً رائعاً للغاية ، حين يسقط الماضى والحاضر والمستقبل بضربة واحدة ، بحيث لا يكون قائماً سوى الفعل الإلهى الذى هو ذرة من الأزل: **﴿ إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون! ﴾** (٤٠ النحل) وهكذا يصور القرآن الكريم ببساطة شديدة المرحلة الثالثة ، مرحلة النظام الإلهى أو الوجود اللازماني أو الأزل : لا أيام ، ولا أسابيع ، ولا أشهر ، ولا سنوات ، **﴿ وما أَمرُنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾** (٥٠ القمر) . وهذا هو الوصف الدقيق والصحيح لعملية الخلق « كن ، فكان كل شئ » وهو أيضاً الوصف الصحيح لكل أمر إلهى **﴿ قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾** (٦٩ ـ الأنبياء) ولهذا يتساوى

الليل والنهار ، أو قل لا ليل ولانهار ـ إلا عندنا نحن البشر .. ﴿ ... أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس ﴾ (٢٤ – يونس) ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ (٣٨ ـ الأحزاب) ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ (٤٧ ـ النساء) لأن فعله تعالى غير تدريجي ، أى لا يحتاج إلى وحدة أو زمان أرضى ، لأن الأزل يخرج عن نطاق الزمان كما قلنا . يقول الأشعرى : ﴿ إن الله هو القادر منذ الأزل ، وهو الذى يخلق إذا شاء ، ومتى شاء . وهو بخلقه لعالم المادة يضع له حدود الزمان والمكان ، ويوم يذهب المؤمنون للقاء ربهم فإنهم يلجون باب الأبدية ؛ ولهذا يقال لهم «ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود ﴾ (٣٤ ـ ق) لم يعد يوماً زمانياً عادياً ، لكنه يوم الدوام والبقاء ، يوم الأبدية والأزل .

* * *

إلــه الفلاسفــة ..!

ليس للفلاسفة إله آخر غير الباري تعالي ، كلا ! ولا هم يعبدون موجوداً غير الله ، لكن ما كان يقصده « أنطونى كينى A.Kenny » من إطلاق هذه التسمية علي كتابه ، هو أن يعرض لصفات الله من منظورٍ عقليٍّ .. ولهذا نراه يقول في الصفحات الأولى من كتابه : « هذا الكتاب دراسة فلسفية ، وليست لاهوتية لصفات الله ، إنها مناقشة لمفهوم الصفات الإلهية في ضوء العقل ، ودونما قبول لسلطة دينية معينة – بل وبغض النظر عما تقوله الكتب المقدسة » ! باختصار لو أنك كنت من المؤمنين الموحِّدين ، فما هى الصفات التي يحتِّمها العقل - فى رأيك - للوجود الإلهى ؟! وكيف يمكن أن ترتبها بحيث تجيء صفات بعينها قبل غيرها ؟!

أذكر أن أستاذنا الكبير الدكتور زكي نجيب محمود كان يتمني أن يقوم من بين ظهرانينا مَنْ يأخذ علي عاتقه ترتيب أسماء الله الحسني ترتيباً عقلياً بحيث يقول : إن هذه الصفة تسبق - من الناحية العقلية - تلك الصفة ، وهذه تلي تلك ، منطقياً .. وهكذا حتي تكتمل الصفات التسعة والتسعون جميعاً – وهي أمنية لا تزال حتي الآن مطروحة أمام الباحثين ! وإذا جاز لنا أن نجتهد فى هذا الموضوع برأىٍ لأ مْكن أن نقول أن الصفة الأولي لله هي صفة الوجود ، إذ لابد من وجوده بصفة مستمرة ، فمن الضروري أن يكون الله حاضراً على الدوام ، بحيث لا يجوز في حكم العقل أن يغيب لحظة واحدة ، وذلك لأن السمة الأساسية للمخلوق أنه لابد أن يغيب ، طال هذا الغياب أم قصر ، لحظة

أو لحظات ، أو ربما انعدم تماماً عندما ينتهي وجوده ، والسبب أن المخلوق مركب من « الوجود والعدم » فهو من العدم خرج إلى الوجود عن طريق عملية الخلق ، أو من ثم فقد ظل يحمل صفة « العدم » ، أو لاغياب ، بوصفها سمة أساسية في نسيج وجوده ، وهي تظهر واضحة في عمليات التغيير والصيرورة ، لأن التغير هو انتقال من الوجود إلي العدم أو العكس ، أما الوجود الإلهى فهو لا يتغير ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ (٦٢ الأحزاب) ، ﴿ **ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ (٤٣ فاطر) ، ويستحيل أن يغيب ، لأن الغياب كلما قلنا سمة للمخلوقات ، ولهذا فإننا نجد نبى الله إبراهيم – وهو يرمز للإنسان العابد بصفة عامة الذي يبحث عن الإله الحق – يعطينا السمة الأساسية لهذا الإله : الوجود الدائم المستمر الذي لا يغيب ﴿ **فلما جنَّ عليه الليل رأي كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين** ﴾ (٧٦ – الأنعام) ، لأن الأفول – أى الغياب – من شأن المخلوق لا الخالق ! ومن هنا كان فلاسفة الإسلام علي جانبٍ كبيرٍ من الدقة عندما أطلقوا على البارى تعالى اسم (واجب الوجود بذاته) – فنعتوه بصفة الوجود الضرورى الذي يجب أن يكون موجوداً فى كل لحظة ، فضلاً عن أن هذا الوجود ينبع من تصوره نفسه لا من شيءٍ آخر ! فهو لا علة له ، ولا وجود يسبقه ، بل هو يسبق كل وجود ، وهو العلة الأولي لسائر الموجودات الأخري ! يقول الفارابي: « إن كل موجود فهو إما موجود واجب الوجود ، أو ممكن الوجود ، وليس ثمة سوى هذين الضربين من الوجود ، والممكن لابد له من علة تخرجه إلي الوجود، فلابد لنا من القول بوجود موجود واجب الوجود لا علة لوجوده ، له بذاته الكمال الأسمي ، وهو قائم بذاته منذ الأزل لا يعتريه التغير من حال إلي حال.. » « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

وكان فلاسفة المسيحية يذهبون هذا المذهب نفسه ، يقول «دنزسكوت Duns Scot » : آه يا إلهي ! عندما سألك موسي بوصفك أعظم الحكماء ، بأى اسم ينبغي عليك أن يسميك لبني إسرائيل ، ولأنك تعرف تماماً ما الذي يمكن أن يتصوره العقل الفاني عنك ، كشفت له عن اسمك المبارك ، وأجبته : « أهيه الذي أهيه » – فأنت إذن الوجود الحق : الوجود الشامل ! » « كلمة أهيه عبرية تعبر عن فعل الكينونة » ويشير الفيلسوف بذلك إلي ما رواه سفر الخروج – في العهد القديم – حين نودي موسي من جانب الطور ؛ ليخلص بني إسرائيل ، وأراد أن يعرف ماذا يقول لهم لو سألوه مَنْ الذى أرسله إليهم ، وجاءه الجواب مباشرة : « أنا أكون ما أكون Ego Sum qui Sum هكذا تقول لنبي إسرائيل أهيه أرسلني إليكم » «سفر الخروج ٣ : ١٤ » فكأنه يشير إلي أن الصفة الأساسية لله هي الوجود الضرورى ، أو الكينونة الدائمة ، أو الحضور الذي لا يغيب ، فقيل أية صفة : كالحي القيوم مثلاً .. لابد أن تفترض صفة الوجود ، ولهذا نجد القرآن الكريم يبدأ أولاً بصفة الوجود أو الكينونة ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ (٢٥٥ البقرة) ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ (٦٥ غافر) ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد** ﴾ (٧٠ القصص) : ﴿ **سبحانه هو الواحد القهار** ﴾ (٤ الزمر). والتركيز المستمر علي الكينونة يعذينا الصفة الأولي لله : الوجود الضروري ، أو الحضور الشامل ! .

الصفة الأولى ، أذن ، لله تعالى هى الوجود الدائم الذي لا يغيب أو هي الوجود بذاته Perse الذي يستبعد اللاوجود ، أو العدم استبعاداً مطلقاً ، كما يستبعد بالتالي كل تبعية يمكن أن تنتج عن اللاوجود ، الوجود الإلهي هو الوجود القائم بذاته ، الكامل بكل ما يحمله الكمال

من معني ، ومن هنا كان الحضور الكلى لله ، فهو موجود في كل مكان في السماء والأرض ، وهو ما عبر عنه النبى داود في مزاميره بقوله « أين أذهب من روحك ؟! أين أفر من وجهك؟! إنْ صعدتُ إلي السماء فأنتَ هناك ، وإن اضطجعتُ في الجحيم فأنت حاضر .. » مزمور ٣٦ لكن القرآن الكريم يوجز القول فى الحضور الكلى لله ببلاغة رائعة عندما يقول : ﴿ **فأينما تولوا فثَّم وجه الله** ﴾ (١١٥ – البقرة) ، ﴿ **فهو حاضر في كل مكان وزمان ، وهو مع الإنسان قريب منه يجيب دعوته** ﴾ (١٨٦ – البقرة) ، ﴿ **بل هو أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ (١٦ – ق)، وإذا كانت الصفة الأولي لله هي الوجود الضروري الذي لا يغيب ، أو الحضور الكلي الشامل ، فهو سبحانه ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ (٢٥٥– البقرة) فإن الصفة الثانية تنبع منها منطقياً ، وهي الوحدانية : ذلك لأن الوجود الإلهي وجود فريد Unique – لا مثيل له ، فليس ثمة وجود ضروري أو دائم غيره ، ومن هنا فلابد أن يكون واحداً ! يقول الفارابي : « إن معني الموجود الواجب بذاته ، يحمل في ذاته البرهان علي إنه يجب أن يكون واحداً لا شريك له .. » « آراء أهل المدينة » وإلي مثل هذه الفكرة يذهب الشيخ الرئيس ابن سينا : « الموجود الأول هو واجب الوجود ، وهو واحد بالضرورة » .

والتوحيد لم يوجد بصفائه ونقائه إلا في الإسلام ، بل إننا نستطيع أن نقول أن تلك كانت مشكلته الكبري ، فهو لم يهبط في بيئة كلها « ملاحدة » بل في بيئة تحتوي علي كثرة من الآلهة ! ولهذا فإنه يلح إلحاحاً لا حدَّ له علي مسألة التوحيد ، حتي نستطيع أن نقول أنها المركز الذي يدور حوله ، ومن هنا نجد القرآن الكريم يقول قولاً حاسماً قاطعاً : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك** ﴾ (٤٨ –

النســاء)، وهـو يكررهـا في الســورة نفسـهـا آية ١١٦ فتلك هـى القـضية الكبري ! وقـول الرسـول الكريم ﷺ لمُعَاذ بن جبل : « يا معَاذ ، مَنْ قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ! .

والتوحـيد فكرة أكثر تطوراً وتقدمـاً ، ولـهذا بدأت الديانات البـشرية بالتعـدد والكثرة في جمـيع الحضارات القـديمة ، ولم تصل هـذه الفكرة إلي نقائهـا الكامل إلا في الإسـلام ، ولـهـذا فإنى أعـتقد أن أمـير الشـعراء أخطأ في قوله أنها قـديمة قدم الفلسـفة اليونانيـة - وذلك عندما قال فى « الهمـزية » يناجي الرسـول الكريم :

بك يا بن عـبـد الله قـامت سمـحـة ... بالحـق من مـلل الـهــدي غـــراء
بُنِيتْ علي التوحـيد وهـي حقيـقة ... نَادى بـهـا ســقـراط والـقـدمـاء
ومشى على وجـه الزمان بنورها ... كُـهَّـان وادي النيـل والعـرفـاء

كلا لم يقل واحـد من فلاسفة اليـونان بالتوحـيد ، والسبب إنهـم لم يعرفـوا « فكرة الخلق من عدم » ، أو « مؤيس الأيسات عن ليس » كما قال الكندي في تعبيره الجمـيل - أي موجد الموجودات عن عدم ، فعلي الرغم من سمـو الـفكرة الأفلاطونية عن الإله فقـد ظل صانعاً Demiurge لا خالقاً ؛ ولـهذا كـانت المادة « أزلية » وكذلك المثل .. إلخ إلخ - وقل مثل ذلك في تلمـيـذه أرسطو رغم رفـضـه للفكرة السـيـئة التي أشـاعـتـهـا الأساطير اليونانية عن الآلهة - فقد ظلت فكرة الوحدانية غريبة عنه .

أما « إخناتون » الذي ربما يشـير إليه شـوقي بـ « كُهَّان وادي النيل والعرفاء » فقد نادى بإله واحـد هـو « أتون الحي مبدأ الحياة » لكن علينا

ألا ننسي أنه وَحَّدَ بينه وبين الشمس ، فضاعت فكرة « التوحيد » النقية الخالصة من كل الشوائب .

يقول في أنشودة التوحيد الشهيرة : « إذا ما أشرقت في الأفق ملأت الأرض بجمالك .. أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت ... وإذا ما غربت في أفق السماء الغربي ، خَيَّم علي الأرض ظلام كالموت » ! .

صحيح أن ديانة « إخناتون » كانت خطوة كبري في طريق التوحيد ، ولهذا وصفه الكهنة بأنه ملك مارق ، وقال المؤروخون أنه قاد ثورة دينية ضد تعدد الآلهة – لكنها مع ذلك ظلت تحمل الكثير من شوائب المادة والحس ! .

وعلى الرغم من أن اليهودية ديانة توحيد Mono Theism أيضا « اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا إله واحد .. » « سفر التثنية ٦ : ٤» فإنها تحتوي علي كثير من النصوص التي تعكر صفو التوحيد ! يقول ديوارانت « لم يكن يهوه الآله الوحيد الذي يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه في الوصية الأولى من الوصايا العشر ، هو أن يكون مقامه فوق مقام سائر الأرباب » « قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٢ » – ثم يستطرد قائلاً : « ذلك لأن النزعة الانفصالية التى كانت تتملك نفوس أولئك القوم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية قد أدت إلي أن يقول موسي في أغنيته الشهيرة : « من مثلك بين الآلهة يا رب » ! خروج ١٥ : ١١ ، ويقول سليمان « إلهنا أعظم من جميع الآلهة » وجاء في سفر أرميا قوله : « علي عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا » .. أرميا ١ : ٢٨ .

أما المسيحية فلا جدال في أن السيد المسيح ذكر أكثر من مرة أن الله واحد ، فهو ، مثلاً يقول لواحد من الكتبة جاء يسأله عن الوصية التي هى أول الوصايا جميعاً : « أجاب يسوع أن أول كل الوصايا هي .. البر الهنا رب واحد ، هذه هي الوصية لأولي » « إنجيل مرقس ١٢ : ٢٨ – ٣٠ » لكن كان تأويل بعض عبارات السيد المسيح تأويلاً يخلو من الدقة ، وينزع إلي الحرفية مما أدى بالمسيحية إلي عقيدة التثليث ، ففقدت النقاء الأصلي للتوحيد ، وأصبحت طبيعية الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الأب والله الابن ، والله الروح القدس ..

صحيح أن تعدد الأقانيم لا يمنع وجود وحدة جوهرية كالشمس التي هي مصدر الدفء ، ومصدر النور ، والضياء .. ومع ذلك فهي جوهر واحد .. إلخ إلخ ، لكن هذه المحاولات المضنية التي بذلت للجمع بين التثليث والوحدانية باءت كلها بالفشل ! وإنْ كان هناك مَنْ يري أن المسيحية نوعان : مسيحية المسيح التي ذكرت التوحيد صراحة ، ومسيحية القديس بولس التي أدخلت التثليث ..

والنتيجة أن فكرة التوحيد ، مرة أخري ، لم تكن بصفائها ونقائها إلا في الإسلام ، فالله « ليس كمثله شيء » ١١ – الشوري لأن وجوده فريد Unique وهذا ما لخصته سورة الإخلاص في إيجاز رائع « قل هو الله أحد .. » لاحظ أن كلمة « أحد أدق من كلمة واحد ، إذ أن الواحد يمكن أن ينقسم » ، ومن هنا جاء التأكيد الذي لا مثيل له علي الوحدانية وهو ما تجده أيضاً في الشهادة التي تبدأ بالنفي أو السلب ؛ لتصل في النهاية إلي الوحدانية « لا إله إلا الله » .. !

* * *

محاولات لتعريف الدين

(ا) تمهيد :

كثيراً ما نستخدم في حياتنا اليومية ألفاظاً تعبر عن أفكارٍ ، وتصوراتٍ معينة ، لكننا لا نحاول تحديدها أو تعريفها ظناً منا أنها واضحة بذاتها لا تحتاج إلي تفسير أو تحديد ، وهي تبدو بالفعل كذلك من فرط إلفنا لها ، لكن ما أن نحاول تحديدها أو تعريفها حتي نصطدم بما فيها من غموض ، وإبهام كامن تحت الوضوح الظاهري الذي كان يغلفها ، ولعل السبب في أننا كنا نجد فيها وضوحاً وبساطة وسهولة هو أننا كنا نستعملها في دائرة ضيقة لا يكاد يكون هناك خلاف بيننا في حدودها ، وقد نجاوز هذه الدائرة ، وعندئذٍ يظهر غموض هذه الأفكار . يقول الفيلسوف الإنجليزي المعاصر « ش – د – برود (C.D. Broad) » في هذا المعني : « إننا قد نسأل عن مكان دبوس فنتفق جميعاً علي مكانه ، ثم نري صورته في المرآة ، فنسأل عن مكان تلك الصورة ، وهل نقصد بالمكان هنا نفس ما نقصده حين نسأل عن مكان الدبوس .. ؟ عندئذٍ نعجز عن الجواب حتي نحدد أولاً معني المكان .. »(١) . ومن هنا تبرز أهمية التعريف والتحديد في التفكير حتي

---

(١) اقتبسه أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه ‹‹ خرافة الميتافيزيقيا ›› ص ١٨ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة عام ١٩٥٣ م ، والكلمات التي تستخدم بغير تعريف أو تحديد كثيرة في حياتنا اليومية مثل ‹‹ الحقية ›› ، و ‹‹ الدهم ›› ، و ‹‹ غير الحقيقي ›› ، و ‹‹ العقل ›› ، والسبب ، والظاهر ، والباطن ... إلخ إلخ راجع كتابنا ‹‹ مدخل إلى الفلسفة ›› ص ٣٩ وما بعدها من الطبعة السادسة مؤسسة دار الكتب بالكويت عام ١٩٩٣ – وقارن أيضاً مقالنا ‹‹ الزمان فى القرآن ›› مجلة الثقافة العربية عدد إبريل ١٩٧٦ م .

ليقال أحيانا : « لعل موضوع التعريف أخطر ما يتناوله المنطقي من موضوعات دراسته ، إذا استثنينا موضوع الاستدلال ، لأنه محاولة لتحديد ما يريده القائل حين يقول شيئاً .. » [٢] « بل الفلسفة في جوهرها بناء من تعريفات ، أو قل هي وصف للطريقة التي تتحدد بها صياغات التعريف » [٣] ، وليس العلم في كثيرٍ من الأحيان إلا تحديد المراد بكلمة معينة « كالحرارة » أو « الحركة » أو غيرها ...

وتعتبر لفظة « الدين » من الألفاظ المتداولة في شتي حضارات الإنسان ، وربما كانت أكثر هذه الألفاظ قُرباً من الإنسان ، والتصاقاً به ؛ لأنها تمس حياته وأخلاقه وسلوكه وعاداته .. إلخ باختصار ، تتغلغل في جوانب الحياة البشرية بأسرها ، وتسيطر عليها ، وتوجهها في كثير من الأحيان ، ومع ذلك فإن تعريفها أو تحديدها أمر بالغ الصعوبة والتعقيد ، حتي أنك تجد من الباحثين من يعلن إفلاسه فيذهب إلي أن الدين لا يمكن تعريفه ! .. فيما يرى فيلسوف مثل كلمنت وب ... (C.C. Webb) [٤] بينما يري غيره أن البحث في التعريفات المتعددة للدين لن يكون سوي عملية تجميع للمعلومات أكثر منه تقديم تعريفٍ جديدٍ للدين ... [٥]

---

(٢) المنطق الوضعي للكتور زكي نجيب محمود الجزء الأول ص ١١٦ من الطبعة الخامسة مكتبر الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٧٣ م .

(٣) رامزي P. Ramsey في كتابه أسس الرياضيات The Foundations of Mathematics ص ٢٦٣ (نقلا عن الدكتور زكي نجيب في كتابه السابق ص ١١٦) .

(4) C.C.J. Webb : " Problems in the Relations of God and Man " Introduction (Qouted By R.Robinson , in his Definition " P. 4)

(5) Encyclopaedia of Religion and Ethics , edited by James Hastings,Volume X . Edinburgh T. & T. Clark N.Y.C Scribner's Sons ,1971 (Art Religion) P. 662.

(٢) مشكلات وصعوبات :

والواقع أن المشكلات التي يثيرها تعريف الدين ، والصعوبات التي تعترض طريق الباحث في هذا الموضوع كثيرة ، حتي أنك لتجد ما يبرر القول بأننا لن نستطيع أن نصل إلي تعريفٍ مقنعٍ للدين ! وقد يظن أن انتشار الظاهرة الدينية في جميع المجتمعات البشرية ، وملازمتها للإنسان طوال تاريخه وفي شتي مراحل تطوره يذلل البحث عن تعريف للدين . لكن الواقع أن العكس هو الصحيح فهذا الانتشار نفسه يجعل الأمر أكثر صعوبة ؛ لأنك في هذه الحالة تريد أن تصل إلي تعريف جامعٍ مانعٍ ، كما يقول المناطقة ، يجمع مختلف الديانات بدائية وبشرية وسماويةً .. إلخ ويمنع غيرها من ألوان المعارف البشرية من الدخول في هذا التعريف ، وأنّي لك هذا ... ؟ ! وكيف يمكن لك أن تصل إلي تعريفٍ يشمل العناصر الهامة في الديانات جميعاً لا يستبعد شيئاً ، ولا يطرد شيئاً ، بل يحوي جميع العناصر في كل دينٍ ، ويقدمه في عبارة موجزة هي ما نسميه بالتعريف ... ؟!

وهذا التعدد لجوانب الظاهرة الدينية ، وللصور التي تشكل فيها الدين منذ فجر البشرية حتي يومنا الراهن يؤدي إلي ظهور شرط جديد لتعريف الدين يمثل هو نفسه عقبة أمام الباحث ، وأعني به أن الباحث ينبغي عليه ألا يتناول جانباً جزئياً من جوانب الدين ، أو مرحلة جزئية خاصة من مراحله ؛ لتكون هي الأساس والمحور الذي يدور حوله التعريف ، ذلك لأن طبيعة الموضوع نفسه ، وتشعبه تستبعد كل دراسة تكون هي نفسها « أحادية الجانب (One - Sidedness) .

ومن ناحية أخري فإن أي دراسة لموضوع الدين لابد أن تتضمن مجموعة من الآراء غير الدينية .. وأعني بها مجموعة من الآراء الدنيوية التى قد يسوقها الباحث ، أو يفترضها ، أو ينتهي إليها .. إلخ

لكن هذه الآراء الدنيوية قد ينظر إليها في الوقت نفسه علي أنها آراء لا دينية ، أو معادية للدين (Anti - Religiens) طبقاً للشعار المعروف : «« مَنْ ليس معنا فهو ضدنا »» ... فإذا لم تكن هذه الآراء دينية فهي إذن ضد الدين ... !

مشكلة أخري هي أن الدراسة العلمية للدين مشروعة ، وهي تكون نزيهة ومحايدة بشرط ألا يكون الدين موضوع الدراسة هو دين الباحث نفسه ! وإلا لأصبح حكمه مختلفاً ، فقل ما شئت في جميع الأديان ، لكن إياك أن تقترب من معتقداتي الخاصة !

مشكلة ثالثة هي كيف نفرق بين الدين ، والقانون ، والأخلاق ، وعادات السلوك.. إلخ ، وغير ذلك من أمورٍ تختلط في المجتمعات البدائية بحيث يصعب التمييز بينها .. ؟ ها هنا يظهر سؤال هام وحيوي : كيف نفرق الديني عما ليس دينياً .. ؟ هل هناك خط فاصل بينهما ؟ ولو أننا وضعنا تفرقة بين ما هو ديني ، وما ليس دينياً بحيث نعزل كل ما هو ديني تمهيداً لمعرفة الخصائص المشتركة ، لكي نصل منها إلي تعريفٍ للدين ، فإننا نجد أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا إذا اعتمدنا علي تعريف سابق للدين ، فكيف نشأ مثل هذا التعريف .. ؟ ألسنا بذلك نقع في دور منطقي ، أو نقع علي أحسن الفروض في قلب الطريقة القَبْلية (أي العقلية السابقة علي التجربة في التفكير ، وهي طريقة غير مأمونة العواقب).. ؟ ومن ناحية أخري فإن أي تعريفٍ للدين مهما يكن وضوحه ، وبساطته ، وشموله ، يفترض سلفاً فكرة مبدئية عما يندرج تحت هذه المقولة .. !

مشكلة رابعة وأخيرة نضيفها إلي المشكلات التي يثيرها تعريف

الدين هي مشكلة « تعريف التعريف » ! فما المقصود « بالتعريف » حين نتساءل عن « تعريف للدين » . ؟ ما الذي ننشد الوصول إليه علي وجه الدقة .. ؟ الواقع أن « التعريف » في حد ذاته كلمة غامضة ، ولا أدلّ علي ذلك من أن أحد الباحثين – يحصي في كتابٍ له عن التعريف .. (Deflnition) ثمانية عشر نوعاً من التعريف جمعها ؛ ليشكل منها قائمة بأنواع التعريفات التي وجدها «عند الكتاب المتازين » علي حد تعبيره منها : التعريف الشيء والاسمي ، التحليلى أو التركيبى ، التعريف بالإشارة ، والتعريف بالوصف ، التعريف الوظيفي والإجرائي .. إلخ ... إلخ [7] وقد ينضاف إلي ذلك كله جهل الباحث بما في « التعريف » من غموض ، بل بما تحمله كلمة « الدين » نفسها من غموض ، « فالملاحظ أن مؤرخ الأديان يكشف عن افتقارٍ كاملٍ للاطلاع الفلسفي حول معني التعريف ومغزاه عندما يناقش المشكلات الخاصة بتعريف الدين ، ويميل مؤرخو الأديان في العادة ، إلي افتراض أن التعريف كلمة واضحة ، بل أنها هي نفسها في وضوح كلمة الدين ! ومن ثمّ فلا كلمة « التعريف » ، ولا كلمة « الدين » بحاجة إلي توضيح ما دمنا نعرف معني كل منهما ومغزاه ، في حين أن الافتراضين خاطئان .. ! » فيما يري « روبرت بيرد (Robert Baird) » [8] .

(٣) تعريفات مختلفة للدين :

هذه الصعوبات التي تعترض طريق الباحث الذي يريد أن يُعرِّف

(6) Ibid ,

(7) Richard Robinson : Definition : P. 7 Oxford at the Clarendons Press - London , 1962 ..

(8) Robert Baird : Category For nations and the History of Religions , Moutors , the Hague Paris , 1971 - P.I .

الدين ، لم تمنع المفكرين من المحاولة ، ومن هنا فإننا نجد تعريفات شتي سواء في تاريخ الأديان أو في فلسفة الدين ، وربما كان الفلاسفة أكثر جرأة من المؤرخين في القيام بهذه المحاولة ؟! وسوف نعرض فيما يلي نماذج من هذه المحاولات التي غامر أصحابها فحاولوا التغلب علي هذه الصعوبات :

* يقول (هربرت سبنسر) (Herbert Spencer) : « الدين هو الاعتراف بأن جميع الأشياء الموجودة ليست سوي تجليات لقوة تجاوز معرفتنا » (٩) .

* ويقول (جون ستيوارت مل) (J.S. Nill) : «جوهر الدين هو الاتجاه القوي المتحمس للعواطف والرغبات نحو هدف مثاليٍّ يُعتبر أسمي ، وأشرف من كل غرض أناني ، أو رغبة ذاتية » (١٠) .

* ويري (ماثيو أرنولد) (M. Arnold) أن : ›› الدين هو الأخلاق ، وقد سمَت وأضاءها نور الشعور ›› ... (١١) .

* ويقول (جيمس مارتينو) (Janmes Martineau) : ›› الدين هو الإيمان بإله دائم الحياة ، أعني الإيمان بعقل إلهي ، وإرادة إلهية يحكمان الكون ويرتبطان مع البشر بعلاقات أخلاقية ›› (١٢) .

* ويقول (شيشرون) (Ciceron) : ›› الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله ... (١٣) .

---

(9) The Eneyelopedia of Philosophy ; edited By Paul Edwards , Volume Seven ; The Free Press , N.Y. 1967 (art Religion) P. 140 .

(١٠) د . محمد كمال جعفر : ›› في الدين المقارن ›› ص ٢١ دار الكتب الجامعية بالقاهرة عام١٩٧٠م.

(11) The Eneyclo. of Philosophy Vol . 7 P. 140 .

(12) Ibid .

(١٣) د . محمد عبد الله دراز : « الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان » ص ٣٤ دار القلم بالكويت الطبعة الثانية عام ١٩٧٠ م .

* ويقول (كانت) (I. Kant) : « الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة علي أوامر إلهية ... » [١٤] .

* ويقول (تيلور) (Taylor) : « الدين هو الإيمان بكائناتٍ روحية » [١٥].

* ويقول (ماكس ميلر) (Max Mulle) : « الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه ، هو التطلع إلي اللانهائى ، هو حب الله ... » [١٦] .

* ويقول (هوفدنج) : « ما هية الدين هي الإيمان بدوام القيم في العالم»[١٧].

* ويقول هيجل : « الدين هو المعرفة التي تكتسبها الروح المتناهية (Finite Spirit) بجوهرها بوصفها روحاً مطلقة » .

* وقد يُعّرف الدين بأنه : « التأمل الصامت ، والسيطرة التامة علي البدن لنيل السكينة النفسية ، والوصول إلي جوهر النفس المطلق ، اللامحدود » [١٨] . وهذا التعريف يتفق تماماً مع المذاهب الهندية التي يغلب عليها طابع التأمل والزهد والسيطرة علي البدن ...

ولو أننا تأملنا هذه التعريفات لوجدنا أن بعضها يُضّيق معني الدين تضييقاً شديداً حتي ليقصره علي دينٍ معينٍ ، هو « المسيحية » في بعض الأحيان ، وهو عقيدة الفلاسفة والعلماء في أحيانٍ أخري ،

---

(١٤) نفس المرجع في نفس الصفحة .

(١٥) نفس المرجع ص ٣٥ .

(١٦) نفس المرجع .

(17) The Ency . ot Philosophy Vol . 7 . P. 140 .

(١٨) د . محمد كمال جعفر « في الدين المقارن » ص ٢٠ دار الكتب الجامعية .

كما هي الحال مثلا في تعريف (ماكس ميلر) ، وتعريف (هربر سبنسر) : فما لا يمكن تصوره عند (ميلر) قد تعني الإشارة إلي أن المسيحية تفرض علي معتنقيها الإيمان بأمور لا يقبلها العقل ولا يمكن للذهن أن يتصورها ، وكذلك تعريف (سبنسر) للدين بأنه الإيمان بقوة تجاوز معرفتنا ، أو لا يمكن تصور نهايتها : « فقد ينطبق التعريف علي عقيدة الفلاسفة والعلماء ، ولكنه لا ينطبق علي المشبّهة ، ولا المجسّمة ، ولا القائلين بأن ربهم في السماء . » (١٩) كذلك تعريف «جيمس مارتينو» و « تيلور » : الأول يشترط الإيمان بوجود « إله » ، ومن ثم يخرج منه الديانات التي تؤمن بتعدد الآلهة فهي لا تعترف بوجود إله واحد يحكم الكون .

والثاني يشترط الإيمان بموجودات روحية لم نتّبين كُنْهَهَا ولا المقصود بها ولعلّه يقصد وجود إله أو تعدد آلهة . لكن ها هنا سوف تثار مشكلة هي : هل حقاً لا يبدأ الدين إلا إذا ظهرت فكرة الإله .. ؟ ذهب « دور كايم » إلي أن هذا التحديد غير صحيح إذ أن هناك أدياناً متعددة لا آلهة لها منها البوذية (Buddhism) .

فالبوذية كما يقول : « بيرنوف Burnof » : « أخلاق بغير دين ، فهي لا تعترف بدين يتعلق بإلَه .. وقد سمّاها (أو لدنبرج) (Olden-burg) « ديناً بغير إله » ، فهي تقوم علي قضايا أربعة يسميها المؤمنون بها الحقائق الأربعة النبيلة هي :

(١) يوجد الألم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأشياء كلها .

(٢) الشهوة تبدو في كل شيء ، وهي علّة الألم .

---

(١٩) د . محمد عبد الله دراز « الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان » ص ٣٧ – ٣٨ .

(٣) القضاء علي الشهوة هو الوسيلة للتخلص من الألم .

(٤) هناك خطوات ثلاثة للقضاء علي الشهوة هي : الاستقامة ، والتأمل، والحكمة .[٢١]

وما يقال عن البوذية يقال كذلك عن الجينية ...Jainism .

وهي ديانة هندية نشأت في نفس عصر البوذية ـ أى فى القرن السادس قبل الميلاد ـ لا تعترف هي الأخري بإله .

ويقول الأستاذ : (بارت) ... (Barth) : ‹‹ أنهم لا يعترفون بوجود إله، والعالم عندهم قديم ، وينكرون بصراحة أي وجود كامل خالد كل الخلود ›› .

وعلي العموم فإننا لا نستطيع أن نعرف الدين بفكرة الاعتقاد في الآلهة.[٢٢] . فدور كايم – مثلاً – يري أن فكرة الاعتقاد في الآلهة ليست هي العنصر المشترك بين جميع الديانات في حين أن جميع الديانات ـ ساذجة أو غير ساذجة ـ تحتوي علي عنصر هام هو تقسيم الأشياء إلي مقدس ، وغير مقدس ، وتقسيم العالم إلي هاتين الصفتين هو الصفة المميزة للفكر الديني : ولا يعني بالأشياء المقدسة الآلهة ، فقد تكون : الصخرة ، أو الشجرة ، أو قطعة من الخشب ، أو أي شيء آخر مقدساً ، إنها كل ما يتميز عن الأشياء الدنيا أو غير المقدسة .[٢٣] .

وهناك تعريفات تكاد توحد بين الدين والأخلاق في هوية واحدة ، كما هي الحال مثلاً في تعريف (أرنولد) السالف الذي ينص صراحة

---

(٢١) د . علي سامي النشار ‹‹ نشأة الدين : النظريات الشطورية والمؤلهة ›› . ص ٢٣ – دار نشر الثقافة الإسكندرية ١٩٤٩ م .

(٢٢) نفس المرجع السابق ص ٢٤ .

(٢٣) المرجع نفسه .

علي أن : ‹‹ الدين هو الأخلاق ›› وكـذلك تعريف صراحة علي أن ‹‹ الدين هو الأخلاق ›› وكذلك تعريف (كانت) (I. Kant) الذي يجعل الدين معتمداً علي تأدية واجباتنا . لكن هناك مجتمعات بدائية كثيرة لا تربط بين إيمانها بموجودات عليا وبين النظم الأخلاقية ، فشرعية الأخلاق عندها لا تقوم علي أساس أن الآلهة هي التي أوجدت النظام الأخلاقي ، أو هي التي سوف تجازي الناس وتحاسبهم عليه ، ومعني ذلك أننا يمكن أن نجد ديناً بغير أخلاق ، أعني لا يرتبط بنظامٍ أخلاقيٍّ معين . (٢٤) .

وهكذا نجد أن التعريفات السابقة كلها ‹‹ أحادية الجانب One Sided-ness فهي تركز علي جانبٍ واحدٍ ، وتترك بقية الجوانب ، ترك مرة علي الإيمان بآلهة ، ومرة أخري تركز علي الأخلاق ، وثالثة علي الشعور والعاطفة ... إلخ ، أي أن بعضها يهتم اهتماماً أساسياً بالتركيز علي الجانب الموضوعي للدين الذي يتمثل في وجود إله ، في حين أن بعضها الآخر يركز علي الجانب الذاتي المتمثل في أخلاقيات الإنسان ، ومشاعره ، وعواطفه ... إلخ ، ومن هنا كانت التعريفات ‹‹ وحيدة الجانب ›› أعني أنها تعبر عن جانب واحد فحسب . إما الجانب الموضوعي الخارجي أو الجانب الذاتي الداخلي . ولعل السبب يرجع إلي أن كل مفكر إنما يصوغ تعريفه من واقع معتقداته الخاصة : ‹‹ فمعظم تعريفات الدين قد صدرت من وجهة نظر بعض العقائد الدينية ولا سيما المسيحية بصفة خاصة ، ونتيجة لذلك فقد فشلت في إبراز الماهية الكلية للدين بصفة عامة ، والواقع أن الاشتقاق اللغوي لكلمة الدين قد يلقي الضوء علي التعريف السليم الذي نبحث عنه ›› (٢٥) ...

---

(24) The Ency . of Philosophy Vol . 7 . P. 140.
(25) The Eneyelopaedia of Social Sciences ed , gy Edwin R.P. Setingman .Vol 30 , The Mac . Caomp. N.Y. 1963 , (art Religion) P. 282-292 .

الواقع أن الاشتقاق اللغوي لكلمة الدين في العربية ، وليس في اللغات الأجنبية كما يوحي الكاتب ، هو الذي يعطينا الجانبين معاً : الموضوعي ، والذاتي للدين ، ثم هو الذي يربط بينهما في نفس الوقت أيضاً .

لكن قبل أن ننتقل إلي التحليل اللغوي لكلمة «الدين» في اللغة العربية فلا بد لنا أن نتساءل : ألم يحاول المفكرون المسلمون تقديم تعريف للدين .. ؟ هناك تعريفات إسلامية من ضمنها : يقول التهانوى في كشاف اصطلاحات الفنون : «الدين بالكسر والسكون في اللغة يطلق علي العادة ، والسيرة ، والحساب ... إلخ وفي الشرع : يقال الدين هو وضع إلهي سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلي الصلاح في الحال ، والفلاح في المآل ، وهذا يشتمل العقائد ، والأعمال ، ويطلق علي ملّة كل نبي ..» (٢٦) . وهو يريد أن يقول أن الدين عبارة عن وضع إلهي يرشد الناس إلي الحق في اعتقاداتهم ، وإلي الخير في سلوكهم ومعاملاتهم ، وهو يتضمن ما جاء به الأنبياء ، وواضح أن التعريف متأثر بعقيدة التهانوي تمام التأثر . ونفس الشيء يقال عن تعريف الجرجاني الذي يقول فيه : «الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلي قبول ما هو عند الرسول صلي الله عليه وسلم . والدين والملّة متحدان بالذات ، مختلفان بالاعتبار – فإن الشريعة من حيث إنها تُطاع تسمي ديناً ، ومن حيث إنها تجمع تسمي ملّة ، ومن حيث إنها يُرجع إليها ، تسمي مذهباً ، وقيل أن الفرق بين الدين والملة والمذهب : أن الدين منسوب إلي الله تعالي ، والملة منسوبة إلي الرسول ، والمذهب إلي المجتهد ...» (٢٧) . وفي العصور الحديثة يذهب محمد فريد وجدي

(٢٦) «كشاف اصطلاحات الفنون» المجلد الأول تأليف الشيخ محمد بن علي التهانوي طبعة كلكتا عام ١٨٢٢ م .

(٢٧) كتاب التعريفات للعلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني – مادة دين ص ١١١ مكتبة لبنان ١٩٦٩ م بيروت .

إلي تعريف ليس فيه جديد حيث يقول : «« الدين هو الطاعة والانقياد ، وهو اسم لجميع ما يعبد به الله ... »» [٢٨] .

(٤) الاشتقـــــاق اللغــوى :

علينا الآن أن نتجه شطر الاشتقاقات اللغوية عملاً بنصيحة «« موسوعة العلوم الاجتماعية »» السالفة لعلها تهدينا في النهاية إلي تعريف أكثر دقة من التعريفات السابقة .

سوف نبدأ بكلمة الدين في اللغات الأوروبية وهي (Religion) ، وهي مشتقة من اللغة اللاتينية من (Religaie) أو (Religio) بمعني يربط أو يجمع أو يصل ، أو يعلق ، ولهذا كانت الكلمة تعني العلاقة (وفي هذا السياق ستكون العلاقة هي علاقة ما هو إنساني بما هو إلهي) .

لكن الكلمة في اللغة العربية تثير مشكلة ، علينا أولاً ، حلها قبل أن نعرض لتحليلها ... والمشكلة تتلخص في أن المستشرقين يذهبون إلي أنه لا توجد كلمة عربية خالصة هي «« دين »» ! ويذهب أصحاب «« دائرة المعارف الإسلامية »» إلي أن الدين في اللغة العربية ليس إلا كلمة آرامية عبرية مستعارة معناها الحساب ! ويذهب فريق منهم إلي أن كلمة الدين العربية هي كلمة فارسية مستقلة معناها «« ديانة »» ... ! ولقد عارض «« فولرز.. (Vollers) »» الرأي القائل بوجود كلمة عربية خالصة هي كلمة «« دين »» ، وبيّن أن الكلمة الفارسية «« دين »» بمعني ديانة كانت مستعملة بالفعل في اللغة العربية أيام الجاهلية ، وذهب إلي أن المعني «« عادة »» أو «« استعمال »» قد اشتق من هذه الكلمة .. [٢٩]

---

(٢٨) دائرة المعارف ـ القرن العشرون – تأليف محمد فريد وجدى – المجلد الرابع ص ١٠٦ (مادة دين) الطبعة الثالثة – دار المعرفة – بيروت عام ١٩٧١م.

(٢٩) دائرة المعارف الإسلامية المجلد التاسع ص ٣٦٨ .

ويستنتج ((فولرز)) وغيره من المستشرقين هذه النتيجة الغريبة : ((وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الاضطراب إلي وقوع مفسري القرآن في مصاعب لا تنتهي ، وشاهد ذلك أنهم عندما تعرضوا لتفسير آية ((مالك يوم الدين))[30] غلبوا أن هذه الآية تحمل بالضرورة معني الحساب أو الجزاء ، ولكنهم حاروا حيرة شديدة في التماس ما يؤدي بهم إلي هذا المعني ..)) معني ذلك أن المستشرقين ينسفون المحاولة منذ البداية ، فهم يرفضون حتي الاعتراف بأن هناك كلمة في اللغة العربية هي كلمة ((دين)) ! والواقع أننا إذا ما رجعنا ، من ناحيةٍ إلي مفسري القرآن لنري مبلغ ما وقعوا فيه من حيرة واضطراب ، وإذا ما رجعنا إلي قواميس اللغة من ناحية أخري ؛ لتبيَّن لنا مدي زيف الحملة التي شنها (فولرز) ، وغيره من المستشرقين ضد اللغة العربية وأصحابها .. !

ففي تفسير ((القرطبي)) الذي يضرب به ((فولرز)) المثل علي ما يقول ، ويستشهد ((بحيرته)) علي صدق دعواه ، نقرأ ما يلي : « الدين : الجزاء علي الأعمال ، والحساب ، ويدل عليه قوله تعالي : ((يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق)) ...[32] أي حسابهم ، وقال لُبَيد :

حصادك مازرعت وإنما ... دان الفتي يوماً كما هو دائن

وقال غيره :

وأعلم يقينا أن ملكك زائل ... واعلم بأن كما تَدِين تُدَان

---

(٣٠) آية ٤ من سورة الفاتحة .

(٣١) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد التاسع من الترجمة العربية ص ٣٦٨ (مادة دين) .

(٣٢) آية ٣٥ من سورة النور .

وفي اللغة دنته بفعله دَيْناً بفتح الدال ودينا بكسرها : جزيته .. ›› [٣٣] . هذا ما يقول القرطبي وهو يفسر آية : ‹‹ مالك يوم الدين ›› التي يشير إليها ‹‹ فولرز ›› ، أي دون أن نجده يضطرب أو يقع في الحيرة التي كشف عنها الاستشراق وحده !

ويقول الزمخشري وهو يفسر الآية نفسها : و ‹‹ يوم الدين ›› هو يوم الجزاء ، ومنه قولهم كما تدين تدان . وبيت الحماسة :

ولم يبق سوي العدوان   دناهم كما دانوا[٣٤]

وإلي ما يقرب من ذلك يذهب تفسير أبي السعود المسمي : ‹‹ إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم ›› [٣٥].

أما إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية لوجدنا في لسان العرب لابن منظور ما يأتي : ‹‹ دين : الديان من أسماء الله عز وجل معناه الحكم القاضي ، وسأل بعضهم عن علي فقال : كان ديان هذه الأمة بعد نبيها ، أي قاضيها وحاكمها ، والديان أيضاً بمعني القهار ، أي قهر الناس علي الطاعة .. والدين الجزاء والمكافأة ، ودنته بفعله جزيته .

ويوم الدين : يوم الجزاء . وفي المثل كما تدين تدان ، أي كما تَفعل يُفعل بك . قال خويلد بن نوفل الكلابي للحرث بن الغساني ، وكان قد اغتصب ابنته :

---

(٣٣) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي الجزء الأول ص ١٤٣ من الطبعة الثالثة - دار الكتب المصرية بالقاهرة عام ١٩٦٦ م .

(٣٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف : أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر - الجزء الأول ص ٥٧ .

(٣٥) قارن الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١١ - مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة .

يا أيهـا الملك المخــــوف ، أما تري ليلاً وصبحاً كيف يخـتلفان .. ؟
هل تستطيع الشـمس أن تأتي بها ليـلاً ، وهل لك بالمـليك يـدان ... ؟
يا حار ، أيقِـــن أن ملكــك زائل وأعــلم بأن كما تـدين تــــدان

أي تجازي بما تـفعل . ودانه ديناً أي جـازاه . وقـوله تعـالي : ‹‹ إنَّا لمدينون ›› [٣٦] ، أي مجزيون مـحاسبون ، وقـوله : ‹‹ ذلك الدين القيم ›› [٣٧] أي ذلك الحســاب الصـحـيح . والدين : الـطاعـة . وفي الحـديث : «الكيِّس مَنْ دان نفسه ، وعـمل لما بعد الموت ، والأحـمق من اتبع نفسه هـواها وتمـني علـي الله ›› – وقـوله دان نفسـه أي أذلهـا وأستـعـبدها ، وقيل حاسبها . [٣٨] .

الكلمة إذن ، موجودة في اللغة العربية ، ويذكرها القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته ، ويفسـرها المفسـرون بغـيـر حـيـرة ، وبدون اضطراب لأصالتـها في اللغة ، بـل إنا لنذهب أكثر من ذلك إلي القـول بأن كلمـة ‹‹ الدين ›› في اللغـة العـربية تعبـر عن ‹‹ مضـمـون ›› الدين ، وتعطينا الجـانب الموضوعى من نـاحـية ، والجـانب الذاتي مـن ناحـيـة أخـري ،

---

(٣٦) آية ٥٣ من سورة الصافات .

(٣٧) آية ٣٦ من سورة التوبة . ولـقد ورد ذكر الدين في القرآن الكريم في كثير من آياته مثل : ‹‹ والذين يصدقـون بيوم الدين ›› آية ٢٦ من سـورة المعارج و ‹‹كنا نكذب بيـوم الدين ›› ٤٦ المدثر ، و ‹‹ إن الفجار لفى جـحيم يصلونها يوم الدين ›› آية ١٥ سـورة الانفطار ‹‹ وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين ›› آيات ١٧ و١٨ من سورة الانفطار . وقارن أيضاً آية ١٢ من سورة الذاريات وآية ٣٥ من ســورة الحجر . وآية ٥٦ من سـورة الواقعة ... إلخ .. إلخ .

(٣٨) لسان العرب للـعلامة أبي الفضل جمـال الدين محمد بن منظور الأفـريقى المصرى المجلد الثالث عشر ص ١٦٦ – دار صادر بيروت عام ١٩٥٦ م.

والرابطة بينهما من ناحية ثالثة أفضل بكثير مما تفعل الكلمة نفسها في اللغات الأجنبية التي يعتز بها أصحابها ! .

فلو أننا نظرنا في اشتقاق هذه الكلمة ، ووجوه تصريفها لوجدنا أن معانيها الكثيرة تعود في نهاية الأمر إلي ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة . فكلمة «الدين» وخذ تارة من فعل متعد بنفسه «دانه يدين» . وتارة من فعل متعد باللام «دان له» – وتارة من فعل متعد بالباء «دان به» ..

(١) فإذا قلنا دانه ديناً – عنينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه ، وساسه ، وقهره ، وحاسبه ، وقضي في شأنه ، وجازاه ، والدين في هذا الاستعمال يدور علي معني الملك ، والتصرف ، والحكم ، والقهر ، والمحاسبة ، والمجازاة . ومنه «مالك يوم الدين» أي يوم المحاسبة والجزاء . وهو ما قصده الحديث السابق ذكره «الكيِّس من دان نفسه ..» أي مَنْ حكمها ، وضبطها .

(٢) وإذا قلنا «دان له» أردنا أنه أطاعه ، وخضع له ، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة ، والعبادة ، والورع . وكلمة «الدين لله» يصح منها كلا المعنيين : الحكم لله ، أو الخضوع لله ، وواضح أن هذا المعني الثاني ملازم للمعني الأول «دانه فدان له» أي قهره علي الطاعة – فخضع وأطاع .

(٣) وإذا قلنا «دان بالشيء» كان معناه اتخذه ديناً ومذهباً ، أي اعتقده واعتاده أو تخلق به ، فالدين هنا هو المذهب أو الطريقة التي يسير عليها المرء نظرياً وعملياً . كما يقال هذا «ديني وديدني» . وجملة القول في هذه المعاني اللغوية أن كلمة الدين عند العرب

تشير إلي علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له . فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً ، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً وحكماً وإلزاماً ، وإذا نظر بها إلي الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذي يعبِّر عنها .

ونستطيع أن نقول أن المادة كلها تدور علي معني لزوم الانقياد ، فإن الاستعمال الأول : الدين هو إلزام الانقياد . وفي المعني الثاني الدين هو التزام الانقياد . وفي الاستعمال الثالث هو المبدأ الذي يلزم الانقياد به .

وهكذا يظهر لنا جلياً أن هذه المادة بكل معانيها أصيلة في اللغة العربية ، وأن ما ظنه بعض المستشرقين من أنها دخيلة معّربة عن العبرية ، أو الفارسية في كل استعمالاتها ، أو في أكثرها ، بعيد كل البعد عن الصواب ، ولعلها نزعة شعوبية تريد تجريد العرب من كل فضيلة ، حتي فضيلة البيان التي هي أعز مفاخرهم .. (٣٩) فالدين إذن ، علاقة بين طرفين : الأول يعظم الثاني ، ويقدسه ، ويرتبطان بمبدأ ، وهذا التعريف ينطبق علي الديانات السماوية من حيث أن الإنسان فيها يعظم الله ، ويخضع له ، ويرتبط بشريعة منزلة . كما ينطبق علي الديانات البدائية التي يعظم فيها الرجل البدائي شيئاً ما ، سواء أكان شجرة أم كوكباً أم نهراً .. إلخ ، كما أن الكلمة تنطبق أيضاً علي الذين يجعلون من الدين شريعة أو سلوكاً أخلاقياً فقط ، أو مبدأ يلتزم به الإنسان . ألستَ تري معي و أن كلمة الدين في اللغة العربية

---

(٣٩) راجع في ذلك كله الكتور محمد عبد الله دراز : ›› الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ›› ص ٣٠ وص ٣١ وص ٣٢ - دار القلم بالكويت عام ١٩٧٠ م ط ٢ .

مـشـحـونة بكثيـر من المعاني الجليـلة والـهامـة .. ؟ ألم يكن شاعـر النيل حافظ إبراهيم علي حـق حين جعل اللغة العـربية تشكو عقـوق أبنائها ، وكسلهـم عن التنقيب في جـوفها بحـثاً عن مـعانٍ أكثـر عمـقاً ، و أوفـي مضـموناً :

أنا البـحـر في أحـشـائه الدُّر كـامن　　　فهل سألوا الغـواص عن صدفاتي .. ؟

* * *

الحس الدينى ... بين التأييد والتفنيد

تمهيـــد :

لسنا ننوي أن نناقش في هذا المقال الظاهرة الدينية من منظور اجتماعي أو ديني ، لكننا نود مناقشتها من زاوية فلسفية تطرح علي نفسها هذا السؤال : هل الدين ، كما يقول مالك بن نبي : ((ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان ، وحضارته كما تحكم الجاذبية المادة ، وتتحكم في تطورها ..)) ؟[1] وبمعني آخر .. هل هناك ما يمكن أن نسميه ((بالحس الديني)) ، أو الميل الفطري نحو الدين .. ؟ ! أيمكن أن يكون هناك ما يسميه بعض الباحثين ((بالغريزة الدينية)) ، أم أن الدين ظاهرة مكتسبة (تَصَادف أن صاحبت الإنسان) ، وكان في استطاعته أن يتخلي عنها .. ؟ ـ لاحظ أننا لا نتساءل عن مدي انتشار الظاهرة الدينية ، وإنما عن ((وجود غريزة دينية)) – والفرق بين السؤالين واسع جداً : فقد تكون الظاهرة الدينية قد انتشرت في جميع المجتمعات البشرية ، وسارت مع الإنسان أينما سار ، لكن ذلك لا يقبلها ((حساً دينياً فطرياً)) ، وهو موضوع مناقشتنا في هذه الدراسة إن سؤالنا ينصب علي البحث عن الميل الفطري لدي الإنسان ، أو الحس الغريزي للتدين ، الذى يقال إنه جزء من تكوين هذا الإنسان بحيث يجيز لنا أن نقول عنه إنه حيوان متدين بالطبع ، أو بالفطرة ، كما نقول إنه يأكل ويشرب بفطرته . وبعبارة أخري فلو كنا نتساءل

---

١ – مالك بن نبي : ((الظاهر القرآنية)) ترجمة عبد الصبور شاهين ص ٢٨ – مكتبة دار العروبة بالقاهرة عام ١٩٥٨ م .

عن مدي انتشار الظاهرة الدينية فإن سؤالنا ينصب في هذه الحالة علي ماضي الإنسان ، لكن تساؤلنا عن «الحس الديني» الفطرى ، أو الغريزة الدينية ، يعني أننا نستفسر عن مكوناته التي تصاحبه في الماضي والحاضر ، وتستمر معه أيضاً في المستقبل ، ولا تنعدم إلا بفنائه .

وينقسم الباحثون أمام هذه المشكلة إلي فريقين أساسيين : أما الفريق الأول فقد أنكر تماماً أن يكون لدي الإنسان حس ديني ، أو أن توجد مثل هذه «الغريزة الدينية» وقدم لموقفه مبررات شتي ، في حين أيد الفريق الثاني وجود هذا الشعور الديني الفطري ، ودلل علي موقفه بحجج مختلفة ، وسوف نعرض فيما يلي لرأي كل فريق علي حده :

أولاً : المعارضون ...

سوف نبدأ بالفريق الذي ينكر وجود مثل هذه الغريزة الدينية لنناقشه فيما يذهب إليه ، ثم نعقب علي ذلك برأي الفريق المؤيد .

ولما كانت الآراء التي قيلت في معارضة الميل الديني الفطري كثيرة ، فسوف نكتفي بأهمها ويمكن أن نوجزها في أربعة آراء علي النحو التالي :-

١ - هناك فريق من الباحثين يرفض القول بوجود غريزة دينية ، أو حس ديني فطرى عند الإنسان بحجة أن مثل هذا القول يتعارض مع نظرية التطور لدارون Ch.Darwin ، التي يذهب فيها إلي أن الإنسان قد تطور من السلالة الحيوانية ، والتسليم بهذه النظرية يتعارض تماماً مع القول بوجود غريزة دينية عند الإنسان ، يقول قائل منهم : «إننا

إذا ما قبلنا نظرية تطور الإنسان عن بعض الصور الحيوانية الدنيا ، فإننا مضطرون في هذه الحالة إلي أن نبحث عن أصل العواطف ، والبواعث الدينية في تلك الغرائز التي ليست في أصلها دينية بصورة محدد وقاطعة .. ››[٢] . ومعني ذلك أن هذا الفريق يُسِّلم أولاً : بنظرية التطور عند دارون ، ثم يقيس ميول الإنسان بناء عليها ، ويعتقد أن مثل هذا التسليم يتعارض مع القول بوجود ‹‹ غريزة دينية ›› ، لأننا لو نسبنا إلي الإنسان مثل هذه الغريزة وجب أن نرتد بجذورها إلي الحيوان ، تماماً كما أن الغريزة الجنسية ، أو غيرها من الميول البيولوجية الفطرية (كالطعام والشراب) قد جاءت إلي الإنسان من أجداده الحيوانات ، فكانت استمراراً لما هو قائم بالفعل عند أسلافه . ومن ثَمَّ فإذا كان هناك حس ديني فطري عند الإنسان ، فإن ذلك يتطلب بالضرورة أن نَتَلَمَّس أصول هذا الحس الديني في حياة الحيوانات الدنيا ، ولما كان هذا الحس غير موجود عند الحيوان فهو إذن غير موجود أيضاً عند الإنسان .

ويحاول بعض الباحثين التوفيق بين الفكرتين ، نعني بين نظرية التطور عند دارون وإثبات غريزة دينية عند الإنسان ، فيذهبون إلي أننا نستطيع أن نقول : إن هناك بعض المظاهر الدالة علي الإحساس بالخطيئة أو بالذنب Sence of Sin ‹‹ أو الشعور بالإثم ، أو الخطأ ›› نتيجة لطرد بعض أفراد القطيع الذي ارتكب خيانة ، أو ‹‹ خطيئة ›› ، أو خطأ يمس الجماعة كلها ، ويذهبون إلي أن هذا الإحساس بالإثم هو ‹‹ الأصل الشاحب للغريزة الدينية ››[٣]. الذي سوف يكتمل نموه ، وتتضح صورته عند الإنسان فيما بعد .

---

٢ – نظر في ذلك كتاب الدكتور محمد كمال جعفر ‹‹ في الدين المقارن ›› ص ٢٧ وما بعدها دار الكتب الجامعية عام ١٩٧٠ م .

٣ – المرجع السابق ص ٢٨ .

هذا هو أول آراء المعارضين وهو في اعتقادنا رأي متهافت للغاية ، لأن موقفه يتلخص في أنه يريد أن ينظر إلي الإنسان علي أنه ليس أكثر من مجرد حيوان شأنه شأن غيره من الحيوانات الأخرى ، ومادامت الحيوانات الأخرى بغير دين ، فلابد أن يكون الإنسان بلا دين أيضاً ، أو بمعني أكثر دقة لابد أن يكون الدين نافلة وليس فرضاً بالنسبة للإنسان ، وليس ميلاً ضرورياً فطرياً . ومن هنا فإن المشكلة التى يثيرها هذا الفريق يمكن أن تُلخص علي نحوٍ أوضح في هذا السؤال : هل الإنسان مجرد كائن طبيعي ليس فيه زيادة علي الإطلاق عن الموجودات الطبيعية الأخرى ... ؟ هل هو جزء من الطبيعة لا يختلف عن الجماد ، ولا يمتاز عن الحيوان ، والنبات إلا في درجة التعقيد ؟ أم أن الإنسان موجود فريد Unique يتميز عن غيره من الموجودات الطبيعية ، والكائنات الحية ، بخصائص لا توجد فى أى منهما رغم اشتراكه معهما في خصائص أخرى..؟!

ونعتقد أن هناك جوانباً معينة يتميز بها الإنسان عن كثير من موجودات الطبيعة سواء أكانت جماداً ، أم نباتاً ، أم حيواناً بحيث تجعله موجوداً فريداً لا يمكن رده إلي هذه الموجودات : خذ مثلاً حرية الإرادة ، وشعوره بالقدرة علي الاختيار في المواقف المختلفة ، كيف يمكن أن ترد هذا الجانب إلي الحيوان .. ؟ أو كيف يمكن من ناحية أخري أن ننكر حرية الإرادة ؛ لأن نظرية دارون تجعل الإنسان فرعاً من أصلٍ هو الحيوان ، وهذا الأصل لا إرادة له ، ولا حرية فى اختيار موقف ما دون موقف آخر ؟! خذ مثلاً آخر : الوعى الذاتى عند الإنسان ، كجانب يتميز به هذا الموجود عن غيره من الموجودات ، صحيح أن الوعى موجود عند الحيوان عندما يدرك طعامه أو يعى صاحبه ، أو يستشعر بالخطر فى

موقف مـا ... إلخ ، لكننا نتحدث عن الـوعى الـذاتي ، فلا يكفي أنه يدرك طعامـه لأن الإنسان يدرك طعامه ، ويعنى عـملية الإدراك هـذه ، أنه يعي الموقف ، ويـكـون لديه في نفس الوقـت وعـــى بـهـذا الـوعى ... إلـخ باختـصار يـستطيع أن يعى نفسه فـي جميع العـمليات التي يقـوم بها ، وهي عـملية فـريدة ، ومـتـمـيـزة ، عمـا هـو مـوجـود لدي الـحـيوان . خـذ أيضاً قدرة الإنسـان علي الـتـفكير ولا سيما التفكير المجـرد ، وخذ مثلاً أخـيراً : قـدرة الإنسـان علي الـتـذكر ، وعلي الـخـيـال نعني أن يمد فكره نحو الماضـي فيـستعيده علي شكل ذكـريات ، وإلى المستقبل فـيـتصوره علي شكل خطط وآمال .. !!

ومـهـمـا يقـال في أمـر هذه الـخـصـائص التي يـتـمـيـز بهـا الإنسـان ، وينفـرد بهـــا عن الـحـيـوان ، فـــإن علينا أن نـثـبـتـهـا ، أو ننفـيـهـا عند الإنسـان ، ومن واقـع حياته وإدراكه ومعـرفته .. إلـخ . فمن المصادرة علي المطلوب أن نقـول أن الإنسـان لا يتمـيـز عن الـحـيـوان بشـيءٍ خـاصٍ به ، والدليل علي ذلك أن ما تقولون به من صـفـات وخصـائص لا نجدهـا عند الـحـيـوان ! إذ المفروض إثبـات الـصـفـة أو نفـيـها عند الإنـسـان نفـسـه ، لأن ذلك يتـوقف عليه أن يكون الإنسـان مـجـرد حيـوان فـحـسـب أو أن يكون كذلك وزيادة . أمـا نفي كل مـيـول الإنسـان الفطرية بـحـجة أنهـا لا تـوجـد عند الـحـيـوان ، فـهـو أمـر بـالـغ الـسـوء لأنه يـسـد الـطـريق أمـام أي بـحث مفترضاً أن القضـية قد حكم بها وانتهي الأمـر .. !

٢ - هـناك فريق آخر من المعـارضين يذهب إلي أن الغريزة التي قـام عليها الدين لـيست هى الغريزة الدينية ، وإنما هي غـريزة حب البقاء ، وما يصـاحبـهـا من شـعـور بالخـوف ، فـقد عـبد الإنسان البـدائى ظـواهـر الطبـيـعـة ؛ لأنه كـان يخـشـاهـا ، ويرهـب تـهـديـدهـا لحـيـاتـه ، ومـن ثـم

فالأساس هنا هو الخوف . يقول ريتشارد تيلور Richard Taylor في هذا المعنى :

›› يبدو أن للإيمان بالآلهة جذوراً في رغبات البشر ومخاوفهم ولا سيما ما يرتبط منها بالبقاء والمحافظة على الذات ، فالناس ، كغيرهم من المخلوقات ، لديهم رغبة عارمة في الحياة ، وهي الأساس الذي يضفي على حياة الناس معنى من شروق الشمس حتى غروبها ، ثم ظهورها في اليوم التالي ... ومن المرجح أن يكون جانباً من استجابة الإنسان لهذا القلق ، والهلع ، والخوف هو الذي جعله يلجأ إلى الآلهة بوصفها الموجودات التي تملك القوة التي يمكن أن ترد هذا القضاء الذي تقضي به الطبيعة . ››(٤) . وفي مرحلة أدنى من هذه المرحلة يقف الإنسان عند الظاهرة الطبيعية ، أو الحيوانية ، ويعبدها ، ويقدّسها ، ويقدم لها القرابين تقربا وزلفى : ومن هنا عَبَد الأنهار والكواكب ، والعقرب ، والثعبان .. وكل ما يهدد حياته من ظواهر طبيعية أو حيوانية ، وأيضاً كل ما ينمّيها ويدعّمها . الأصل - إذن - الذي قام عليه الدين عند هذا الفريق هو الخوف ، وهم يذهبون إلى أننا نجد عنصر الخوف قائماً في جميع الديانات ابتداء من أدنى الديانات الطبيعية إلى أرقى الديانات البشرية حتى يصل إلى الديانات السماوية الكبرى ... اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ، فهي أيضاً ، في رأي هذا الفريق ، اعتمدت على عنصر التخويف وأبرزته جدا :

- ففي الديانة اليهودية يلتقي المرء بألوان كثيرة من التخويف مما يفعله الرب في المنحرفين عن شريعته أو الخارجين عن قانونه : ›› فهو

٤ - Richard Taylor . Metaphysics P.84 (Foundations of Philosophy Sevics - 1964).

يعرض رحمته علي الذين يحبونه ، ويتبعون أوامره ، ولكنه يفعل ما تفعله جراثيم الأوبئة الفتاكة بالمنحرفين ››[٥] . فقد ورد في سفر ‹‹ التثنية ›› قوله : ‹‹ أنا الرب إلهك ، إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي ... ››[٦] إن اللعنات التي يهدد بها ‹‹ يهوه ›› .. ‹‹ شعبه المختار ›› إذا ما عصاه ، لجديرة بأن تكون نموذجاً في القدح ، والسب كما يقول ديورانت.. W. Durant [٧] ‹‹ ملعوناً تكون في المدينة ، وملعوناً تكون في الحقل .. ملعونة تكون كل ثمرة في بطنك وفي أرضك .. يضربك الله بقرحة مصر ، وبالبواسير ، والجرب ، والكحة حتي لا تستطيع الشفاء ، ويضربك الرب بجنون ، وعمي ، وحيرة قلبٍ .. فتتلمس في الظهر كما يتلمس الأعمي في الظلام .. تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها ، تبني بيتاً ولا تسكن فيه ، تغرس كرماً ولا تستغله .. ››[٨] وخوفاً من السهو والنسيان يسوق ‹‹ يهوه ›› هذا التهديد الجامع : ‹‹ أيضاً كل مرض ، وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتي تهلك .. ››[٩] .

– وعلي الرغم من أن الديانة المسيحية قامت أساساً علي فكرة المحبة ، فإنها لا تخلو بدورها من عنصر التخويف ، فهي توجه

---

٥ – ول ديورانت ‹‹ قصة الحضارة ›› الجزء الثاني من المجلد الأول ترجمة الأستاذ محمد بدران ص ٣٣٨ – لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٦ – سفر التثنية الإصحاح الثامن والعشرون آية ٣١ .

٧ – ول ديورانت نفس المرجع السابق ص ٣٣٨ .

٨ – سفر التثنية الإصحاح الثامن والعشرون ٢٩ ـ ٣١.

٩ – سفر التثنية الإصحاح الثامن والعشرون ٦٢ .

كاليهودية ألواناً من التهديد للمنحرف ، وإن كانت قد سمت بالمعاني ، والألفاظ المستخدمة كثيراً - فالسيد المسيح في موعظة الجبل الشهيرة يقول : « إنْ كانت عينك تعثرك فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقي جسدك كله في جهنم . إنْ كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقي جسدك كله في جهنم .. »[١٠] .

- ويستمر أصحاب هذا الرأي فيقولون أن الإسلام لا يخلو كذلك من عنصر التخويف ، فهو يتحدث في كثيرٍ من الآيات عن أهوال يوم القيامة ، وعما أُعدّ للكافرين من عذاب : « مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً »[١١] «والكافرون لهم عذاب شديد .. »[١٢] . « لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .. »[١٣] . وسوف يقف الكافر موقفاً بالغ السوء « من ورائه جهنم ويبقي من ماء صديد ... »[١٤] . « وإنْ يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه : بئس الشراب وساءت مرتفقا .. »[١٥] . « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب .. »[١٦] وآيات أخرى كثيرة تثير الرعب والهلع في نفوس الناس مما يلقاه العاصي من ألوان العذاب ..

---

١٠ - إنجيل متى - الإصحاح الخامس آية ٢٩ - ٣٠ .

١١ - آية ٩٧ من سورة الاسراء .

١٢ - آية ٢٦ من سورة الشورى .

١٣ - آية ٧٠ من سورة الأنعام .

١٤ - آية ١٦ من سورة إبراهيم .

١٥ - آية ٢٩ من سورة الكهف .

١٦ - آية ٥٦ من سورة النساء .

« يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سقَر »(١٧) .
« وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً »(١٨) .

لكن الرأى الذى يقيم الدين على أساس الخوف من القوي الطبيعية ، أو التخويف الدينى رأي متهافت هو الآخر لأسباب الآتية :

أ - هذا الرأي يخلط أولاً بين الخوف الذي كان يعاني منه الإنسان البدائي من قوي الطبيعة ، وبين التخويف الديني الذي سُقْنَا أمثلة منه الآن تواً ، فالخوف من القوي الطبيعية ليس سوي رعب غاشم ، يُوَجَّهُ إلي الناس كافة ، وبلا سابق إنذار ، فالعقرب لا يوجه لدغاته إلي المنحرف أو الطالح وحده ، ولكنه يصب أذاه وسمومه علي الناس جميعاً بغير تفرقة أو تمييز . والإعصار الذي يهب فيدمر الأكواخ ، ويقتلع الزرع ، ويقضي علي الضرع لا يتجنب الصالحين والأبرار ، وإنما هو يتجه للناس عامة . أما التخويف الديني فهو يوجه إلي العصاة والمنحرفين وحدهم ، والتخويف الديني - من ناحية أخري - تخويف هادف ، إن صَّح التعبير ، بمعني أنه لا يستهدف الانتقام من الأشرار بقدر ما يسعي لإصلاحهم ، ولهذا فإننا نجد السيد المسيح يقول : « إني أريد رحمة ، لا ذبيحة ؛ لأني لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلي التوبة .. »(١٩) والله يفرح بعودة الضال كما يفرح الراعي لعودة الخِراف الضالة ، ولهذا فإنه كثيراً ما يلخص رسالته في أنه أتي لهداية « خِراف إسرائيل الضالة » ... !وهذا المعني ، معني الهداية والإصلاح ، بارز

---

١٧ - آية ٤٨ من سورة القمر .

١٨ - آية ٦ من سورة الفتح .

١٩ - إنجيل متى ، الإصحاح التاسع آية ١٢ .

جداً في كثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن أهوال العذاب التى يلقاها الكافرون في جهنم ، ثم تعقب : « .. إلا من تاب وآمن »[٢٠] . « فمن تاب بعد ظُلْمه ، وأصلح فإن الله يتوب عليه .. »[٢١] .. « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بَعْدِها ، وآمنوا إن ربك مِنْ بَعْدِها ، لغفورٍ رحيم ..»[٢٢] .. « فإن تبتم فهو خير لكم .. »[٢٣] . بل إنه يدعو الناس إلي التوبة ويُحثِّهم عليها « أفلا يتوبون إلي الله ويستغفرونه..؟»[٢٤] . وكأنه يستعجلهم عليها ، وينتشر تلك الخطوة التي يقومون بها ؛ ليغفر لهم فهو « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول..»[٢٥] . وهو يحب الذين يتوبون « إن الله يحب التوابين »[٢٦] لأن الله في الإسلام « كَتَبَ علي نفسه الرحمة .. »[٢٧] فليست المسألة قاصرة علي التخويف في ذاته وكأنه هدف ، كما يظن الذين يقرأون خطفاً ، ويكتبون خطفاً ، وإنما التخويف يقصد الإصلاح ، والهداية فهو أشبه بتخويف الأب لابنه الذي يريد فقط إصلاح ما أعوجّ من سلوكه دون أن يضع في ذهنه أبداً أن ينتقم منـــه ، بل أنه قد يضع في ذهنه ـ

---

٢٠ – آية ٦٠ من سورة مريم ، وكذلك آية ٨٢ من سورة طه ، وأيضاً ٧٠ من سورة الفرقان ، و٦٧ من سورة القصص .

٢١ – آية ٣٩ من سورة المائدة .

٢٢ – آية ١٥٣ من سورة الأعراف .

٢٣ – آية ٣ من سورة التوبة .

٢٤ – آية ٧٤ من سورة المائدة .

٢٥ – آية ٣ من سورة غافر .

٢٦ – آية ٢٢ من سورة البقرة .

٢٧ – آية ١٢ من سورة الأنعام ، وأيضاً آية ٥٤ من سورة الأنعام .

على العكس من ذلك ، أن يصفح عنه فى نفس اللحظة التى يهدده فيها .. !

ب – ومن ناحية أخري فلماذا يقال : إن الإنسان حين عبد ظواهر الطبيعية وهو يخشاها فقد قام تَدَيُّنُه هذا علي شعورِ الخوفِ فقط ؟! . لماذا لا يعد ذلك دليلاً علي انه بغريزته يسعي إلي الوصول إلي قوة كبري لا يدري كُنهها ، فهو يعي بشعورٍ مبهم غامض ، أن هناك قوة أعلي منه تتحكم في حياته ، وتسمو علي وجوده وهو يحاول أن يتلمس الطريق إلي هذه القوة .. ؟! لماذا لا نقول إن هناك حساً دينياً فطرياً لدي الإنسان لكنه يخطيء بسبب ثقافته ، أو تخلفه فيقف عند الظاهرة التي يتصورها قوة كبري .. ؟ لماذا لا نقول إن الإنسان بفطرته يريد أن يعبر الهوة التي تفصل بينه ، وبين اللامتناهي ، يريد أن يصل إلي الله ، لكنه يعتقد في بعض مراحل تطوره ، أن هذا اللامتناهي هو الكواكب أو الشمس أو القمر ، أو العقرب أو الثعبان .. إلخ ؟ بمعني أوضح لماذا لا نقول أن الحس الديني فطري أو الميل إلي التدين، والوصول إلي الله غريزي ، لكن « موضوع » هذا الحس الدينى هو المكتسب ؟ تارة ظاهرة طبيعية ، وتارة حيواناً أو نباتاً ، حتي يعبد الإنسان نفسه في فترة من الفترات ، ويظل هكذا حائراً إلي أن يصل الي الموضوع الصحيح للعبادة . ؟! وسوف نعود إلي هذه الفكرة بعد قليل .

جـ – ومن ناحية ثالثة ، لو صحّ وكانت الظاهرة الدينية قائمة علي الشعور بالخوف فحسب ، لكان معنى ذلك أن تكف عن الوجود فحسب لكان معنى ذلك أن تكف عن الوجود عندما يصل الإنسان إلى الطمأنينة والأمان ، نعنى لزَال الدين بزوال الخوف ، لكن الملاحظ أن

الدين يظل قائماً ، وكل ما يحدث هو أن يتغير موضوع الدين ، فيتحول من ظاهرة إلي ظاهرة أخري . من الطبيعة إلي الحيوان ، ومن الحيوان إلي الإنسان وهكذا يسير صُعداً حتي يصل إلى الموضوع الصحيح للعبادة وهو الله .. ؟!

د - وأخيراً فهناك مَنْ يري أن الشعور المناسب في موضوع الدين هو علي العكس ، الشعور بالحب لا الخوف ، علي اعتبار أن الحب هو المعين الذي لا ينضب للحياة الدينية ، وهو الذي يفسر الأعباء ، والتضحيات التي يتحملها المتدينون وإلا فكيف تفسر القتال ، والاستشهاد فى سبيل الله على أنه يقوم علي الشعور بالخوف من عذاب جهنم .. ؟! يقول الغزالى لقد كانت المحبة أول حال لرسول الله وهو يتبتل في غار حراء : « حتى قالت العرب أن محمداً قد عشق ربه .. »[٢٨] .

ويقوم التدين علي الحب عند كثير من المتصوفة في الشرق ، والغرب . ولقد عبرت «رابعة العدوية» متصوفة الإسلام الشهيرة عن هذه الفكرة أصدق تعبير في قولها وهي تناجي الله : « إن كنت أحبك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، وإن كنت أحبك خوفاً من نارك ، فاحرقنى بنار جهنم ، أما إذا كنت أحبك ، من أجل ذاتك ، فلا تحرمني من رؤية جمالك الأزلي يا إلهى ! »[٢٩] وقولها أيضاً : « ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه .. »[٣٠] .

---

٢٨ - المنقذ من الضلال نشرة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٢ .

٢٩ - الدكتور محمد مصطفي حلمي : « الحياة الروحية في الإسلام » ص ٧٩ طبعة ثانية ١٩٧٠ .

٣٠ - نفس المرجع السابق ص ٧٩ - الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ .

وثـ ـأي ثالث يعارض وجود غريزة دينية ، أو حس ديني ـري عند الإنسان فقد كتب « ول ديورانت W.Durant » في موسوعته الكبري ،، قصة الحضارة ،، فصلاً بعنوان ،، الملاحدة البدائيون ،، . يقول فيه أن بعض القبائل البدائية لا تعرف شيئاً عن الآلهة ، وعندما سأل رجل من قبيلة ،، الزولو،، عن خالق الشمس والقمرأجاب في بساطة : ،، لا نستطيع أن نعلم من أين جاءت ، ويظهر أنها جاءت من تلقاء نفسها .. ،،[٣١] وهذا يعني بالطبع أنه ليس هناك حس ديني ، أو ميل فطري ، أو غريزة دينية عند الإنسان ، وإلا لكان التدين عاماً لا يخلو منه مجتمع .

وقد يكون في استطاعتنا أن نرد علي هذا الرأي بما يقوله الدكتور محمد عبد الله دراز من أن ،، وجود منكرين أو ملاحدة هم دائماً أقلية في كل أمة ، وهذا الاستثناء من القاعدة لا ينفي كمون الغريزة الدينية بصفة عامة في طبيعة النفس البشرية ، كما أن غريزة بقاء النوع لا يمنع من عمومها أن بعض الناس لا يتزوجون ولا ينسلون ،،[٣٢] . لكننا نضيف إلي ذلك ملاحظتين:

الأولي : أن وجود الآلهة ليس شرطاً لقيام الدين ، فهناك ديانات كثيرة كالبوذية والجينية ، لا تعترف بآلهة ، ولا يمنعنا ذلك من تصنيفها في مقولة الدين ، فما بالك بسؤال عالم الأجناس لرجل بدائي عن فكرة دينية بالغة الدقة هي ،، فكرة الخلق ،، ؟ الواقع أن هذه الفكرة

---

٣١ – قصة الحضارة . الجزء الأول من المجلد الأول ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ص ٩٨ لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٩ .

٣٢ – دكتور محمد عبد الله دراز : ،، الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ،، ص ٨٢ الطبعة الثانية دار القلم بالكويت .

لم تصل إليها الحضارة اليونانية كلها ، ولم تظهر إلا مع الديانات السماوية الكبري : اليهودية والمسيحية والإسلام . فلا يجوز من ثم ، أن يُسأل عنها رجل من قبيلة الزولو .. !

الثانية : أن ديورانت نفسه يعلق علي الواقعة التي رواها بقوله : ‹‹ هذه حالات نادرة الوقوع ، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعاً اعتقاداً سليماً .. ››[٣٣] . وأغلب الظن أن المؤلف أراد أن يعرض علينا موضوعاً طريفاً حين يتحدث عن ‹‹ ملاحدة بدائيين ›› فهو أقرب إلي المزاح منه إلي الدراسة الجادة ، والكتاب مليء بكثيرٍ من الملح والطرائف التي اشتهر بها ‹‹ ديورانت ›› بأسلوبه العذب الشيق !

٤ – هناك رأي رابع وأخيرا لا يكتفي برفض الغريزة الدينية ، لكنه يتجه إلي إلغاء الدين تماماً ، ويذهب أصحابه إلي أن الأذكياء من البشر هم الذين حاولوا خداع الأغبياء والسذج بوجود آلهة تحاسبهم ، وأن هؤلاء الأذكياء هم ‹‹ وسطاء ›› للسماء ! فذهب الماركسيون مثلاً إلي أن الدين ليس سوي (تحذير) للضعفاء ، والمقهورين ، والكادحين بما في الحياة الأخري من نعيمٍ مقيمٍ حتي لا يثوروا ، أو يطالبوا بحقوقهم من الأغنياء المستغلين ! ومن هنا قال ماركس عبارته الشهيرة ‹‹ الدين أفيون الشعوب ›› أي أنه عامل تخدير للطبقة الكادحة ، وفي نفس هذا المعني يقول لينين : ‹‹ تذهب الماركسية إلي أن جميع الأديان والكنائس الحالية ـ مثلها في ذلك مثل التنظيمات الكنسية علي اختلاف أنواعها ـ هي أدوات الرجعية البرجوازية التى تُسخر للاستمرار في استغلال الطبقة العاملة ›› – وعلي ذلك فالدين عامل معوق لتقدم الإنسان ،

---

٣٣ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الأول من المجلد الأول ص ٩٩ .

وتطوره ، وما يهمنا الآن من هذا الرأي – الذي نرجو أن نناقشه بإفاضة قريباً – أن الحس الديني ليس فطرياً ولا غريزياً في نفس الإنسان ، وإنما هو مكتسب ، وكان يمكن له ألا يكتسبه ، ومن الأفضل أن يتخلي عنه !

والواقع أن هذا الرأي ظاهر البطلان فلو أن المسألة كانت مجرد « تخدير » ، لتخلي الناس عن الدين عندما اكتشفوا الخدعة ! لكن الملاحظ أن صور التدين تختلف لكنها لا تختفي !

ومن ناحية أخري فليس صحيحاً أن يقال أن الدين « يخدر » المستضعفين والفقراء حتي يقنعوا بما هم فيه من فقر ومسغبة ، ولينعم الأغنياء بما هم فيه من خيرات ، فالإسلام ـ مثلا ـ يكره المستضعفين في الأرض وينذرهم بعذاب أليم ، ولسنا ندري ماذا يقول الماركسيون في أمر تلك الآية القرآنية التي تجعل المستشعفين في الأرض الذين يقبلون الذل ويرضون الهوان ، علي صعيدٍ واحدٍ مع الكفّار ، وتتوعدهم بأن لهم نار جهنم وسوء المصير .. « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم .. ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجرون فيها.. ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً .. »[٣٤].

وفضلاً عن ذلك فان الإسلام لم يجعل من الاعتقاد في حياةٍ أفضل في الآخرة عزاء عن فشله ، وعجزه في الدنيا ، فقد جاء في القرآن أيضا قوله : « ومَنْ كان في هذه أعمي فهو في الآخرة أعمي وأضل سبيلاً »[٣٥] فبقدر ما ينجح الإنسان في تحقيق رسالته علي الأرض

---

٣٤ – آية ٩٧ من سورة النساء .

٣٥ – آية ٧٢ من سورة الإسراء .

دنيوية كانت أو روحية ، يستطيع أن يأمل في رحمة الله ، ومثوبته ... [٣٦]. ومن ناحية ثالثة ، فإننا نستطيع أن نطرح هذا التساؤل عما فعلته الماركسية : أحقاً تمكنت الماركسية من اقتلاع جذور الحس الديني من نفوس الناس ؟ أم أنها حاولت أن تستبدل بالصورة الدينية القائمة صورة أخري جديدة هي الماركسية نفسها .. !؟ ألا تتضمن هي ذاتها كل مقومات الدين : من تأليه المادة ، إلي وجود الكتب المقدسة ، إلى زيارة الأضرحة في طابورٍ طويلٍ قد يستمر يوماً كاملاً .. ؟!

ألم تُشعل الشموع في المعبد المقدس بورعٍ أكثر بكثيرٍ من الورع السابق.. ؟! يخيل إلينا أن هذا هو السبب ، الذى جعل الفيلسوف الإنجليزي المعاصر برتراند راسل B.Russell يقارن بين ماركس وكالڤن Calvin على اعتبار أنهما يمثلان ديانتين مختلفتين هما :

،، الماركسية ،، أو ،، المسيحية ،، ![٣٧] .

هذه هى بايجاز شديد مجموعة الآراء المعارضة ، التى تنكر فطرية الحس الدينى ، وعلينا الآن أن ننتقل لنرى الآراء المؤيدة .

ويمكن أن نلخص الآراء المؤيدة في مجالين هما : مجال اللاهوت ، ومجال الفلسفة ، وسوف نتحدث عنهما فيما يلي بإيجاز :

---

٣٦ – الدكتور احمد عروة : ،، الإسلام في مفترق الطرق .. ،، ص ١٤٥ ترجمة الدكتور عثمان أمين – دار الشروق عام ١٩٧٥ م .

٣٧ – ب . رسل : ،، العقائد والأيديولوجيات ،، مقال في كتاب ،، التغير الاجتماعي ،، .. ترجمة الدكتور محمد خيري ص ٢٣١ – ٢٣٢ (الهيئة العامة لشؤن المطابع الأميرية بالقاهرة عام ١٩٦٩) .

ثانياً : المؤيدون ...

الآراء التي تؤيد وجود حس ديني ، أو غريزة دينية كثيرة للغاية إذ يبدو أن الإنسان بطبيعته يميل ـ ناحية إلي ـ التسامي ، أو « التعالي » ، أو التطلع دائماً نحو وجود أعلي ، ومن هنا كان شوق النفس البشرية إلي الله ، ومحاولة الإنسان « المتناهي » المستمرة الاتصال بالوجود اللامتناهي . ويبدو أنه من ناحية أخري كثيراً ما « يدهشه » ما في هذا الكون من ظواهر واتساق ونظام : فمن جميع الضمائر البشرية ينطلق نفس السؤال الذي يصوره في خشوع هذا المقطع من أغنية « الڤيدا » الهندوسية :

مَنْ يعرف هذه الأشياء ... ؟ ومَنْ يستطيع الحديث عنها ... ؟

من أين تأتي هذه الكائنات ... ؟ وما حقيقة هذا الإبداع ؟!(٣٨)

ويبدو أن الإنسان إذا خلا لنفسه يحس هذا العروج نحو الله الذي يشبه في مجال الوعي أثر الضوء الشمسي علي نمو النبات ، إن غريزة الإنسان هذه هي التي تدفعه إلي البحث عن الإله ، وقد استطاعت أن تأخذ من الأسطورة والفيتشية أكثر الصور غرابة ... والأمر يتعلق هنا ، من جهة ، بحركة متصاعدة تأتي من الإنسان الذي يبحث بعقله عن اكتشاف سبب كلي لوجوده ، ولوجود الكون ، ويتعلق من جهة أخري ، بحركة متعالية تأتي من الله ؛ لترشد الوعي الإنساني ، ولتلقن الإنسان المعني الإلهي لحياته ، ولمصيره ، والنظام الأخلاقى والروحى الذي يترتب عليه ...(٣٩) .

---

٣٨ – مالك بن نبى « الظاهرة القرآنية » ص ٢٩ (والأبيات لطاغور) .

٣٩ – الدكتور أحمد عروة « الإسلام فى مفترق الطرق » ص ٤٥ – ٤٦ .

ويمكن أن نلخص الآراء المؤيدة في مجالين هما : مجال اللاهوت ، ومجال الفلسفة ، وسوف نتحدث عنهما فيما يلي بإيجاز:

مجال اللاهوت ...

لعل أول مجال يدافع بقوة عن الحس الديني عند الإنسان ، يثبت وجود غريزة دينية هو مجال الدين نفسه : ففي الديانات السماوية الكبري . اليهودية، والمسيحية ، والإسلام نلمس اتجاها واضحا إلي إثبات الميل الفطري عند الإنسان نحو التدين ، فهو عند هذه الأديان يتجه بفطرته إلي البحث عن الله ، والعروج إليه بدافع من طبيعته ذاتها :

أ – ففي الديانة اليهودية نقرأ في مزامير داود : ‹‹ وكما تشتاق الإبل إلى جداول المياه ، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله ، عطشت نفسي إلي الله ، إلي الإله الحى .. ››[٤٠] . كما نجد أيضاً في نفس هذه المزامير : ‹‹ يا الله ، إلهي أنت : عطشت إليك نفسي ، يشتاق إليك جسدي في أرضٍ ناشفةٍ ويابسةٍ بلا ماء ، لكي أبصر قوتك ، ومجدك في قدسك .. ››[٤١] . ‹‹ فقد التصقت نفسي بك .. ››[٤٢] . ومعني ذلك أن النفس البشرية مفطورة علي الاتجاه إلي الله ، فهي بطبيعتها تشتاق إليه ، كما تشتاق الإبل إلي جداول الماء ، وكما تتعطش الأرض الجافة اليابسة إلي الارتواء بالماء .

---

٤٠ – مزامير داود – مزمور رقم ٤٢ آية ١ – ٢ .

٤١ – مزامير داود – مزمور رقم ٦٣ آية ١ – ٢ .

٤٢ – نفس المزمور السابق آية ٨ .

ب – كما نجد نفس هذا المعني في الديانة المسيحية ، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش مكتفياً بما في الحياة من جوانب مادية ؛ لأن ذلك ضد « طبيعته » إذ : « مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من الله »[٤٣] وهذا « المكتوب » هو الفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها ، فهناك قانون إلهي أو ناموس يسري في الوجود كله ومن بينه الوجود البشري ، والسيد المسيح هو حلقة مكملة لهذا القانون الإلهي : « لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس ، ما جئت لأنقض ، بل لأُكْمِل ، فإني الحق أقول لكم إلي أن تزول السماء والأرض .لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتي يكون الكل »[٤٤]

جـ – وربما وجدنا هذه القضية في الإسلام واضحة غاية الوضوح ، ذلك لأن الإسلام يعتبر الإيمان بالله استجابة لحاجة نفسية موجودة عند البشر ، فالإنسان بفطرته يتجه إلي الله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. »[٤٥] كما أن الإسلام يثبت وجود الحس الديني ، أو الغريزة الدينية عند الإنسان بما يسمي « بالميثاق الأكبر » ومفاده أن أفراد البشر جميعاً قد تعرفوا علي ربهم وهم لا يزالون بعد في ضمير الغيب : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألستُ

٤٣ – إنجيل لوقا – الإصحاح الرابع ، آية ٤ – وأيضا إنجيل متى الإصحاح الرابع آية ٤ .

٤٤ – إنجيل متى الإصحاح الخامس آية ١٧ .

٤٥ – آية ٣٠ من سورة الروم .

بربكم ..؟! قالوا : « بل شهدن .. »[٤٦] . ومهما يكن من أمر الاختلاف الذي وقع بين المفسرين ، والعلماء ، والفقهاء ، والفلاسفة ، والمتصوفة في المعني الذي يقصده القرآن الكريم بهذا الميثاق فإن الآية تشير بوضوح إلي فطرية الحس الديني أو النزوع الطبيعي إلي الله ، وسيّان بعد ذلك أن يفهمها بعض العلماء علي أنها : « تعبير عن لقاء فعلي بين الله وجميع الخلق قبل أن تتلبس أرواحهم بأبدانهم »[٤٧] . أو أن يذهب غيرهم إلي أن الآية لا تعني أكثر من أن الله وضع في الإنسان عقلاً يستطيع أن يتعرف به علي الله ، ويقر بربوبيته : « فكأن الله استشهد الناس ، وكأن الناس قد شهدوا فعلا بالربوبية »[٤٨] . أو أن يقال علي نحو ما فعلت الصوفية حين فهمت الآية علي أنها « تسجيل لإشهاد حقيقي بين المخلوقات ، وبين الله جلّ جلاله في مرتبة من الوجود تغاير المرتبة الحالية ».. « وعلي ذلك ففي رأي الصوفي أن كل روح ، أو كل نفس شاهدت ربها ، وأقرت بربوبيته ، وهذا الإقرار كان حتمياً ؛ لأنها صَنْعَتُه المباشرة ، وهي في عالم الحق لا تنطق إلا بالحق ، تماماً كما في يوم القيامة حين تشهد الجوارح علي صاحبها ، أو يصدق الكافر في اجابته »[٤٩] .

وتوجد في القرآن الكريم أيضاً قصة هي رمز حقيقي لما لدي الإنسان من تجربة دينية وحس غريزي نحو الدين ، تلك هي تجربة

---

٤٦ – آية ١٧٢ من سورة الأعراف .

٤٧ – د . محمد كمال جعفر : « التصوف : طريقاً ، وتجربةً ، ومذهباً »، ص ١٨٧ – دار الكتب الجامعة – القاهرة عام ١٩٧٠ م .

٤٨ – نفس المرجع السابق .

٤٩ – نفس المرجع ص ١٩٠ .

نبى الله إبراهيم ، وهو يسعي إلى اكتشاف الله فى تأمل الكون : « فلما جَنّ عليه الليل رأي كوكباً ، قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين ، فلما رأي القمر بازغاً قال هذا ربي . فلما أفل قال لئِنْ لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلتْ قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إني وجهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين..»[٥٠] .

ويمكن أن نلاحظ في هذه القصة عدة جوانب هامة هي : تطور موضوع الشعور الديني عند الإنسان ، وانتقاله من موضوع للعبادة إلي موضوع آخر ، فها هنا الكواكب ثم القمر لأنه منير فهو أولي بالعبادة ، ثم الشمس بازرغة وهي « أكبر » .. وهكذا يتطور الموضوع حتي يصل إلي الموضوع الجدير حقاً بالعبادة في نهاية الآية وهو الذي فطر السموات والأرض ، كما نلاحظ أيضاً أن الآية توجهنا إلي أن الأشياء « المتغيرة » التي تظهر ، وتختفي لا تصلح أن تكون موضوعاً للعبادة ؛ لأن الله ضروري الوجود ، أو هو دائم الوجود، أو « واجب الوجود بذاته » كما يقول فلاسفة الإسلام . وأخيراً فإن الإله لابد أن يكون « خالقاً » للسموات والأرض .. فكأننا هنا أمام تطور الوعي الديني عند الإنسان ! يقول الدكتور أحمد عروة معلقاً علي هذه القصة ما يأتي :

« هذه القصة تبرز ما لعقل الإنسان وذكائه من دور يؤديانه ، وما للوعى من جهد شخصى يبذله لتخليص الاعتقاد الدينى شيئاً فشيئاً

---

٥٠ – أيات ٧٦ – ٧٩ من سورة الأنعام .

من جميع الوسائط المادية التي تزيف معناه . ولكن هذه القصة لا تقتصر علي بيان ما يعانيه إنسان باحث عن الحقيقة من تطور جواني ، إنها تعبّر عن مراحل المغامرة الروحية الكبري التي تمر بها الإنسانية ، وقد تلكأت آلاف السنين في مرحلة عبادة الشمس .

لقد كان لديها من المبررات ما يدعوها إلي التوقف عندها ، ولكن لا إلي الثبات عليها ، فهذه الكواكب مصدر الإشعاع ، كان باديا للعيان أنه واهب الضوء والحرارة والحياة ، بحيث لم يكن يسع الذهن الإنساني إلا أن يؤلهه في أماكن كثيرة وفي أزمانٍ طويلة ›› (٥١) .

مجال الفلسفة ...

تعطينا الفلسفة أيضاً عدة شواهد علي فطرية الغريزة الدينية منها :

(١) لعل الشاهد الأول :

هو سعي النفس البشرية إلي الاتصال باللامتناهي ، وهو سعي يبدو واضحاً فيما نجده عند الإنسان مِنْ نهمٍ ، وجشع لا يرتوي ، فالإنسان لا يقنع أبداً بالوصول إلي خير جزئي محدود ، بل سرعان ما يَمِلُّه ، وينتقل إلي موضوع آخر غيره يشعر نحوه بالملل بعد قليل ، وهكذا يظل حائراً متنقلاً من موضوعٍ إلي موضوع ، ومن خيرٍ إلي خيرٍ ، ومن لذةٍ إلي لذةٍ دون أن يشبع أبداً . وذلك النهم هو جوهر الإنسان . وإذا تساءلنا عن الدلالة الفلسفية لهذا الظمأ الذى لا يرتوى ، كانت الإجابة المباشرة هى أن الإنسان يريد أن يصل إلى خير لا ينتهى

٥١ – الدكتور أحمد عروة : ‹‹ الإسلام في مفترق الطرق ›› ص ٣٣ .

أو لذة دائمة ، يريد أن يصل إلي الخير الأقصى ، أو المطلق ، أو اللامتناهي ، وهذا الخير اللامتناهي هو الله . وما يشعر به الإنسان من ملل وضجر مما يحصّله من خيراتٍ ، ولذاتٍ يكشف عن طبيعته التواقة إلي اللذة الدائمة ، وإلي السعادة الأبدية ، يريد أن يصل إلي موقف المؤمن الذي عبَّر عنه القرآن بقوله : ﴿ **وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلي ربها ناظرة** ﴾[٥٢] أما عذاب الإنسان وألمه فيأتيان من أنه يبحث عن الله دون أن يعرف ما الذي يبحث عنه ، وبالتالي دون أن يعرف ما الذي يبحث عنه ، وبالتالي دون أن يعرف أين يبحث عنه ، لكن القرآن الكريم يبشر الإنسان بأن كفاحه سوف يكلل في النهاية بالنجاح : ‹‹ يا أيها الإنسان ، أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه .. ››[٥٣] . فلقد بدأ الإنسان رحلته مع الله ، وسوف يُنهي رحلته بالعودة إلي الله مرة أخري : ﴿ **إنَّ إلي ربك الرجعي ..** ﴾[٥٤] وهكذا يبدو واضحاً أن ‹‹ الله هو الأول والآخر .. ››[٥٥] وأن الحافز الديني الموجود لدي البشر ، إنما يكمن في أعمق أعماق كل قلب بشري ، بل هو يدخل في صميم ماهية الإنسان مثله في ذلك مثل العقل سواء بسواء[٥٦] .

ب – هناك أيضاً أفكار فلسفية كثيرة أيدت وجود الحس الديني عند الإنسان منها مثلاً ، ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي

---

٥٢ – آية ٢٢، ٢٣ من سورة القيامة .

٥٣ – آية ٥ من سورة الانشقاق .

٥٤ – آية ٨ من سورة العلق .

٥٥ – آية ٣ من سورة الحديد .

٥٦ – ولتر ستيس ‹‹ الزمان والأزل ›› ص ٣٩ – ٤٠ ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم – المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر – بيروت عام ١٩٦٧ م .

‹‹ ديكارت ›› من أن وجود الشك عند الإنسان دليل علي أنه موجود ناقص ، لكن الناقص لا يفهم إلا بالمقارنة بالكامل ، والكامل فكرة إيجابية ، فمن أين عرفتُها .. ؟ ومَنْ الذي وضع في نفسي فكرة الكمال هذه .. ؟ لا يمكن أن أكون أنا الذي خلقت هذه الفكرة لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فإن كنتُ موجوداً ناقصاً فكيف أضع في نفسي فكرة : « الموجود الكامل » .. ؟ إن هذه الفكرة هي التي تجعلني أفهم حدودي ، ووجودي ، ونقصي فهي تدل علي الله ، وكأنها ‹‹ علامة الصانع وتوقيعه علي ما صنع ›› ! علي حد تعبير ديكارت .

يقول في هذا المعني : ‹‹ الحق أنه لا ينبغي أن نعجب من أن الله حين خلقني غرس فيَّ هذه الفكرة لكي تكون علامة للصانع مطبوعة علي صنعته››[٥٧] . ومعني ذلك أن فكرة الله في رأي ديكارت ‹‹ مفطورة ›› في النفس البشرية ، لكن ذلك لا يعني أنها حاضرة دائماً في فكرنا ، إذ لا نستطيع أن نزعم أن للطفل في بطن أمه معرفة فعلية بالله ، وأنه ينظر في الأمور نظرة ميتافيزيقية ، أى بمعني أن ـ لديه مع ذلك ـ فكرة عن وجود الله علي نحو ما تكون عليه هذه الفكرة عند البالغين ، وبعبارة أخري إن تلك الفكرة موجودة لدي الطفل ‹‹ القوة ›› علي حد تعبير أرسطو ، أي إله الاستعداد والقدرة علي استخدامها بمحض ملكة التفكير ، فالفكرة ‹‹ مفطورة ›› في نفوس البشر كما يكون السخاء ، أو يكون مرض من الأمراض وراثيا في بعض الأسر [٥٨] .

---

٥٧ – ديكارت ‹‹ التأملات في الفلسفة الأولي ›› ص ١٦٣ ترجمة الدكتور عثمان أمين – الطبعة الرابعة مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة عام ١٩٦٩ م .

٥٨ – د . عثمان أمين ‹‹ ديكارت ›› ص ١٦٥ من الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٦٩ م ، وانظر ايضاً كتاب الدكتور نجيب بلدي عن ‹‹ ديكارت ›› في سلسلة نوابغ الفكر الغربي – دار المعارف بمصر .

جـ – وهناك أفكار فلسفية أخري تكشف عن ميل الإنسان الغريزي نحو التدين ، ولقد كشف عالم الأديان الهولندي « تيليه .. C.P. Tiele » عن بعضها في قوله : « إن أصل الدين هو حيناً الإدراك الفطري في الإنسان الخاص بالسببية ، وانتهاء الأسباب إلي سبب أخير ، وعلة نهائية عليا. وحيناً آخر شعور الإنسان بالتبعية لقوة عليا . وحينا ثالث حد من اللانهائي ، وحينا رابع الزهد في العالم وإطراحه – كل من أولئك يمكن أن نتعرف فيه علي أصل الدين وجرثومته .. »[٥٩] .

ولهذا فقد ذهب بعض الباحثين إلي القول بأن ظاهرة التدين تستند في أصلها إلي مبدأين أساسيين مرتكزين في بداهة العقول هما قانونا « السببية ، والغائية » ، وأن هذين القانونين متي فُهِمَا علي كمالهما انتهينا إلي أسمي العقائد الدينية : عقيدتي التوحيد والخلود ، وأن عقائد الشرك ، والوثنية ، والفناء ، إنما هي وليدة ضرب من الغفلة ، أو الكسل العقلي التى تقف بها في بعض الطريق[٦٠] .

أما قانون السببية .. Law of Causality فيقرر أن : « لا شيء يحدث بنفسه من غير شيء » ، وبالتالي فكل شيء يحتاج إلي سبب يظهره إلي الوجود ، وهذا السبب الخارجي إنْ لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلي غيره ، فلا مفر من الانتهاء إلي سبب ضروري للوجود يكون هو سبب الأسباب .. وهو الله . ومعني ذلك أن فطرية السببية في ذهن الإنسان تقوده إلى الله بوصفه سبباً أول صدرت عنه الأشياء جميعاً ، فكأن الميل الفطري إلي السببية هو نفسه الميل الفطري إلي التدين !

---

٥٩ – جولد زيهر : « العقيدة والشريعة في الإسلام » ترجمة د . محمد يوسف موسي وآخرين ص ٣ . دار الكتاب المصري بالقاهرة .

٦٠ – د . محمد عبد الله دراز « الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان » ص ١٠٤ – دار القلم بالكويت – الطبعة الثانية عام ١٩٧٠ م .

أما قانون الغائية Teleology فيقرر أن كل ما يحدث إنما يستهدف غاية، وكل نظام وتناسق لا يمكن أن يتم من غير قصد أو غرض ، ومن ثَمّ فكل شيء يستهدف غاية جزئية ، لكنها سرعان ما تتحول هي نفسها إلي وسيلة لتحقيق غاية أخري وراءها . وهكذا تستمر سلسلة الوسائل والغايات حتي تصل إلي غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات [٦١].

نعني أننا نصل إلي غاية تُطلب لذاتها ، ولا يمكن أن تتحول إلي وسيلة لتحقيق غاية أخري ، نصل إلي الغاية المطلقة اللامتناهية : وهي الله ! فكأن فكرة الغاية هي طريق يُفضي بنا في النهاية إلي الله ! وهكذا يصبح هذا الطريق تعبيرا عن الحس الديني الفطري عند الإنسان ..

د – وهناك أيضاً ما يُعرف في الفلسفة باسم «المواقف الحدّية» التي يلتقي بها الإنسان ، وتثير تفكيره ، وتفضي به في النهاية إلي الله ! ويقصد بالمواقف الحدية تلك المواقف التي تمثل «حدّاً لقدرة الإنسان وحريته بحيث لا يستطيع أن يتغلب عليها من ناحية ، كما أنه لا يستطيع تفسيرها من ناحية أخري إلا بالرجوع إلي موجود أعلي ! ومن أمثلة هذه المواقف عدم قدرة الإنسان علي الإفلات من الموت ، فإذا استطاع العلم أن يعمل علي إطالة عمر الإنسان فإن هذه الإطالة لا يمكن أن تمتد بحيث تساعده علي الهرب من الموت! لابد أن تهبط المقصلة مهما طال الأمد ! ومثل هذا الموقف الذي يمثل حائطاً صلباً يصطدم به الإنسان ، ولا يستطيع تخطيه ، يجعله يتطلع إلى تفسير للموت ، ولما بعد الموت . وهكذا يجد نفسه فى قلب الموضوعات الدينية ! .

---

٦١ – قارن نفس المرجع السابق ص ١٠٥ .

وإذا كانت نهاية الإنسان تدفعه إلي التأمل ، وتقوده في النهاية إلي الله ، فإن بدايته هي بدورها لغز محير ! ونحن نقصد بالبداية : اللحظة التاريخية المعينة ، التي يجد المرء نفسه فيها فجأة دون رأي ولا مشورة ! فلا أحد يسأله متي تود أن تولد ، وفي أي مجتمع تريد أن تعيش ، وفي أي لون من الثقافة تحب أن تنشأ وتربي ! وما العصر الذي تفضله أكثر من غيره .. ! لا أحد يسأله ، ولا يأخذ رأيه لكنه يجد نفسه فجأة وقد قُذِفَ به في العالم . !

ومن هذه المواقف الحدّية أيضاً العذاب ، والمعاناة ، والألم ، والشعور بالأسي ، والوقوع في الأخطاء : خذ مثلاً ارتكاب الخطأ ، تجد أننا نحاول أن نتجنب هذا الخطأ أو ذاك لكننا لا نستطيع أن نعيش ، وأن نعمل ، دون أن نقترف إثماً أو نقع في خطأ ! وحتي لو توقفنا تماماً عن الفعل ، وامتنعنا امتناعاً كاملاً عن العمل حتي لا نخطيء ، فإننا قد نكون في موقف إهمال ، وقد تكون له هو نفسه نتائج أشد خطورة علينا وعلي غيرنا من الناس أكثر بكثير من الإقدام علي الفعل ! وغير تلك المواقف الحدّية كثير ..(٦٢) مما يجعل الإنسان يتوقف كثيراً ليعيد حسابه ويرتب أوراقه ، ويسرع بخطي حثيثة نحو حظيرة الدين .. !

هـ – وهناك أخيراً ما يسمي ›› برهان الإجماع ‹‹ ونعني به القول بأن ظاهرة التدين موجودة عند جميع الناس ، ولابد أن يكون لهذا الإجماع دلالته ! إن أولئك الذين يظنون أنهم رفضوا الدين تماماً ،

---

٦٢ – Erich Frank : Philosophical Under standing and Religious Truth P.B.17 Oxford Press 1952.

وقارن أيضاً في هذا الموضوع كتابنا ›› مدخل إلي الفسلفة ‹‹ ص ١١٧ وما بعدها من الطبعة الثالثة – دار الثقافة للطباعة والنشر عام ١٩٧٤ م .

نراهم يتجهون إلي الأخذ بصورة من صور التدين ، ويرفضون صورة أخري ، وهم يتعصبون لهذه الصورة الجديدة أشد بكثير من تعصب المؤمنين لدينهم ! ومعني ذلك أنه كُتِبَ علي المرء أن يكون متديناً بطريقة أو بأخري ، وبالتالي فليس في استطاعته أنَ يتخلي عن الدين ؛ لأن الحس الديني جزء من تكوينه .

يقول هنري برجسون H.Bergson الفيلسوف الفرنسي المعاصر : « لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم أو فنون أو فلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة من غير دين »[٦٣] . ويقول معجم لاروس « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتي أشدها همجية ، وأقربها إلي الحياة الحيوانية ، والاهتمام بالمعني الإلهي ، وبما فوق الطبيعة ـ هي إحدي النزعات العالمية الخالدة للإنسانية »[٦٤] . ويقول أيضاً : « أن هذه الغريزة الدينية لا تضعف ، ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عددٍ قليل جداً من الناس »[٦٥] . ولقد عبر عن هذا المعني أيضاً الأستاذ «عباس محمود العقاد» بقوله : « إن الدين لازمة من لوازم الجماعة البشرية ، ولم يكن الدين لازمة من لوازم الجماعة البشرية ؛ لأنه مصلحة وطنية أو حاجة نوعية ، لأن الدين قد وجد قبل وجود الأوطان ، ولأن الحاجة النوعية (البيولوجية) تتحقق أغراضها في كل زمان ، وتتوافر أسبابها في كل حالة ، ولا يزال الإنسان بعد تحقق أغراضها ، وتوافر وسائلها في حاجة إلي الدين ، وغرائز الإنسان النوعية واحدة في كل فرد من أفراد النوع ، وكل

---

٦٣ – د . محمد عبد الله دراز « الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان » ص ٨٢ .

٦٤ – نفس المرجع ص ٨٣ .

٦٥ – نفس المرجع السابق .

سلالة من سلالاته ، ولكنه في الدين يختلف أكبر الاختلاف ؛ لأنه يتجه من الدين إلي غاية لا تنحصر في النوع ، ولا تتوقف علي غرائزه ، وليس الغرض منها حفظ النوع وكثرته ، بل تعزيز مكانه في هذا الكون أو في هذه الحياة ، فالإنسان يتعلق من النوع بالحياة ، ولكنه يتعلق من الدين بمعني الحياة ››(٦٦) ويقول أيضاً ‹‹ ومهما يبين من رأي العلماء والفلاسفة في الإيمان بالله ، فهم لا يجهلون ، ولا يستطيعون أن يجهلوا أن الإيمان ضرورة كونية لا تخلقها مشيئة أحد من الآحاد ، ولو كان في قدرة الرسل والأنبياء ! فإذا أجمع الناس علي الاعتقاد كيفما كان اختلافهم في الجنس والزمن ، والوطن ، والمصلحة ، فليس هذا عمل فرد ، ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضاً واتفاقاً من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوي الكون لا يفلح الرسل والأنبياء في نشر دعوته ما لم يكن في تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وسر الكون ››(٦٧) .

* خاتمة :

نصل الآن إلي نهاية هذه الدراسة عن الحس الديني ، ويبدو أن جانب التأييد هو الأرجح .. ! وأن الميل إلي الدين فطري في الإنسان ، أو هو جزء لا يتجزأ من تكوينه ، أو هو - علي أقل تقدير - أقرب إلي طبيعته ، وأكثر اتفاقاً مع استعداده وميوله : ‹‹ فأنا حين أقول إن العالم موجود ، وإن الله الذي لا يُعرف في ذاته ، ولكنه يتجلي في الآفاق بصنعه ، قد خلق العالم من المادة وفقاً لقوانينٍ نعرفها معرفة جزئية ، فإن هذا القول يرضي ذهني خيراً مما يرضيه القول بأن العالم موجود

---

٦٦ – عباس محمود العقاد : ‹‹ الفلسفة القرآنية ›› من المقدمة .

٦٧ – نفس المرجع السابق .

منذ الأزل ، وأنه لم يخلق بتاتاً ، وأنه يتطور مستقلاً عن غيره ، وبغير تدخل من عقل أسمي ››[٦٨] .

ويُخيل إلينا أن النتيجة الهامة التي نخرج بها من هذه الدراسة هي أن كل الطرق تؤدي إلي الله ! ومهما سلكت من سبل فسوف تصل في النهاية إلي الله ! حتي الإلحاد نفسه الذي يبدو عصياناً وتمرداً وانحرافاً عن الدين ، ليس سوي صورة فجة من التدين ! وإلا فماذا تقول في رجل يُؤَلّه لك المادة ؟! ألا يعني ذلك أنه يعود بنا إلي الوراء قرونا حيث كان الإنسان البدائي يعبد المادة ، ويؤله ظواهر الطبيعة ؟! أليست هي صورة ‹‹ قديمة ›› بأساليب ومبررات جديدة .. ؟!

كل الطرق تؤدي إلي الله . اصعد إلي السماء ، أو اهبط في جوف الأرض ، أو في أعماق المحيط ، اقرأ في الميتافيزيقا ، أو العلم فقط ، كن أميناً مع نفسك وسوف تصل في النهاية إلي الحق اللامتناهي ، إلي المطلق ، وإلي الكامل ، إلي الله ! : ‹‹ أيا كان الطريق الذي يسلكه الإنسان فإنه سيلاقي الله ، ولكن الكثيرين يغمضون أعينهم كيلا يروه .. ! ››[٦٩] .

ولقد عبّرت الديانات نفسها عن هذه الفكرة بطرق مختلفة ، وبأساليبِ شتي ففي اليهودية يقول النبي داود في مزاميره مخاطباً ربه : ‹‹ أين أذهب من روحك ، وأين أفِر من وجهك .؟! إن صعدتُ إلي السماء فأنت هناك ، وإن اضطجعتُ في الجحيم ، فأنت حاضر ››[٧٠] .

---

٦٨ – د . أحمد عروة : ‹‹ الإسلام في مفترق الطرق ›› ص ٤٤ .

٦٩ – نفس المرجع السابق .

٧٠ – مزامير داود ، المزمور ١٣٨ .

ولقد عبّرت الفلسفة عن هذه الفكرة نفسها بمصطلحاتها الخاصة عندما وصف الله بأنه : ‹‹ كلي الحضور Omnipresence ›› نعني أن وجوده دائم في كل مكان ، وفي جميع الأوقات ، كما عبّر القرآن الكريم عن القول بأن كل السبل التي يسلكها الإنسان تؤدي به في النهاية إلي الله مهما يكن من أمر المنعطفات التي يلجأ إليها بين الحين والحين ، وعندما قال : ‹‹ لله المشرق والمغرب : فأينما تولوا ، فثّم وجه الله ››[٧١] لكن معرفتنا لله لا تتم إلا تلبية لفطرتنا الدينية ، ولما لدينا من حس ديني فطري وكما يقول ‹‹ ولتر ستيس W.Stace ›› :ـ

‹‹ إننا لا نعرف الدين إلا لأن الجانب الإلهي فينا قد نطق به ، فما أن سمعنا صوت الله فينا حتي بادرنا إلي الاستجابة له ، ولا ريب فإن الأعماق تنادي الأعماق .. ! ››[٧٢]

***

---

٧١ – آية ١١٥ من سورة البقرة .

٧٢ – ولتر ستيس : ‹‹ الزمان والأزل ›› ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم ص ٣٨ المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت عام ١٩٦٧ م .

الصحوة الإسلامية .. في ميزان العقل .. !

هذا عنوان كتاب بالغ الأهمية لواحد من ألمع مفكرينا المعاصرين هو الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا الذي انشغل بهموم أمته ، وقضاياها ، وأوضاعها ، ومشكلاتها طوال حياته ، ومن هذا المنطلق جاء هذا الكتاب الهام الذي يضع فيه الصحوة الإسلامية في ميزان العقل ! – « والكتاب أصدرته دار التنوير ببيروت عام ١٩٨٥ ، ثم أعادت دار الفكر المعاصر بالقاهرة طبعه في العام الماضي ١٩٨٦ » – وترجع أهمية الكتاب إلي الحشد الهائل من الأفكار الخصبة التي يتضمنها ، والفكرة الخصبة ليست بالضرورة ، الفكرة الصادقة أو الحقة ، وإنما هي الفكرة التي تثير فيك أفكاراً أخري مؤيدة أو معارضة – إنها أشبه بالخلية الحية التي تنقسم علي نفسها فتنتج خلايا جديدة – وذلك كله يعمل علي إثراء الفكر وتنشيطه ، ويدفعه إلي التقدم والنماء ! – وما قولك في كتاب يدعوك منذ فاتحته ، إلي النزال : « ... في ساحة العقل والحجة المنطقية ، وهي الساحة التي تتسع للجميع ، ويكمن في داخلها تسوية كافة الخلافات ، أو علي الأقل إلقاء أضواء كاشفة عليها ، تتيح لصاحب كل موقف أن يتبيَّن بوضوح ما يتفق فيه وما يختلف مع أصحاب المواقف الأخري ؟! ».. وما قولك في كتاب يستهدف المساعدة « علي فتح أبواب حوار رشيد ومتعقل حول موضوع « الصحوة الإسلامية » . موضوع يتخطي أسوار التحريمات المتزمتة ، ويتجاوز مستوي الاتهامات الرخيصة بالهرطقة والجديف » ؟! لا شك أنه كتاب يستثيرك للقراءة المتعمقة والمناقشة الجادة !

وهو يبدأ بتشخيص الحال السيىء الذي آل إليه العالم الإسلامي ، فيحزنه أن يري : « الكل في بلاد العالم الثالث ينهضون ، وإن لم

ينهضوا يقاومون ، وتنتفض قلوبهم بروح الثورة والسخط علي الأوضاع ، ويتملكهم الأمل في مستقل يتغير فيه مجتمعهم وإنسانيتهم إلي الأفضل ... إلا العالم الإسلامي ، فكل شيء فيه هامد خامد ، وكل شيء فيه مبعثر ومنقسم ، وكل روح فيه منطفئة ، مكدورة .. »» «« ص ١٢»» ثم يعود بعد صفحات قليلة إلي رنة الحزن نفسها فيقول : «« إن واقع العالم الإسلامي ـ في معظم أرجائه ـ هو واقع جماهير أمية ينقصها الوعي السياسي والعقلانية ، وهو أيضا واقع بطش واستبداد من جانب القوي المعادية للجماهير .. »» «« ص ١٨»» لكن كيف يمكن أن يتفق هذا التشخيص الحزين للعالم الإسلامي مع ما يقال عن «« الصحوة »» الإسلامية التي تهز أرجاءه ؟!

يري المؤلف أن فكرة «« الصحوة الإسلامية »» تتعرض لقدرٍ كبيرٍ من الخلط ، حتي أنك لتجد من كُتَّابنا منَ يَتحدث عن أحد أئمة المساجد في القاهرة – وهو يعبر عن فكر رجعي شديد التخلف – فيصفه بأنه : مظهر لحركة البعث الإسلامي في مصر «« وإمام المسجد هذا ، الذي اكتسب شهرة هائلة في السنوات الأخيرة ، وأصبحت الشرائط التي سجلت عليها خطبه تباع في طول البلاد العربية الإسلامية وعرضها – يعتمد علي رصيد واحد أساسي هو طريقته في الإلقاء ، ورفع نبرة الصوت وخفضها !

أما المضمون ذاته ، وأما البرنامج الذي يدعو إليه ، وأما الأفكار التي يتقدم بها إلي الناس ، فإنها آخر ما يهتم به ، وهي علي أية حال رجعية شديدة التخلف .. »» ! «« ص ١٩ »» ثم يستعرض المؤلف بعضا من المشكلات الرئيسية ، ويدعو القاريء في ضوئها أن يحكم : « إن كانت هناك صحوة إسلامية ، حقيقية أم أنها في حقيقتها نكسة وغيبوبة تنسب إلي نفسها القدرة علي «« البعث »» زوراً وبهتاناً .. ! » .

من ذلك مثلاً مشكلة «« الشكل والمضمون »» حيث يري المؤلف أن الغالبية العظمي من الحركات الدينية تركز ««كفاحها »» علي الجوانب الشكلية من العقيدة ، دون الدخول في المشكلات الحقيقية التي يتعرض لها الإنسان المسحوق في معظم أرجاء العالم الإسلامي : فهل يقبل الدين ذاته أن نولي موضوع الاختلاط أو الحجاب اهتماماً يفوق بكثير ما نوليه لموضوع العدالة الاجتماعية ، أو نوع التحالفات الدولية التي تخدم قضايانا ؟! هل يرضي الدين أن نتجاهل هذه الأمور التي تمس صميم حياة كل فرد في المجتمع ؟!

لكن ما هي هذه الشكليات التي يشير إليها المؤلف ؟! هي فئات ثلاثة :ـ

١ – أولي هذه الفئات تتعلق بالمظهر الخارجي والملبس ، فإطلاق اللحية ، وحلق الشارب ، وارتداء الجلباب إلي منتصف المسافة بين الركبة والقدم – أمور يرونها أساسية للشاب المتحمس لدينه ، مع أن الملابس ، فيما يري المؤلف ، تقوم بوظيفة اجتماعية ، ولكل عصرٍ ، بل ولكل بيئة ، ملابس تتحدد تبعاً لنوع الأعمال التي يقوم بها الناس في البيئة المعنية ! وهو يتساءل : لماذا نقتدي بالسلف في شكل ملابسهم ، ولا نقتدي بهم في ركوب دوابهم ، أو سكن خيامهم ، أو أكل ثريدهم وقديدهم ... ؟! «« ص ٢٢ »» .

٢ – أما الفئة الثانية فهي الأمور المتعلقة بالحياة الجنسية ، بوجه عام ، ولا شك أن حجاب المرأة ينتمي إلي هذه الفئة ، وكذلك منع اختلاط الجنسين الذي يمثل جانباً رئيسياً من جوانب «« كفاح »» الجماعات الإسلامية ! ويري المؤلف أن التحريف المفرط لأبسط مظاهر الاختلاط ، وإعطاء الجنس ـ عموماً ـ حجماً أكبر بكثير من حجمه الحقيقي ، وكأنه المشكلة الكبري التي تتواري إلي جانبها مشكلات الخبز والمأوي والإحساس بالعدل والأمان ، هذا التحريم المفرط هو ذاته

شكل من أشكال الاهتمام الزائد بالجنس ، وهو الوجه الآخر لنفس العملة ، أعني الحرمان ، وربما الشبق : « ومن المؤكد أن أي محلل نفساني قادر علي أن يكتشف الكثير من العقد وراء هذا التصور المبالغ فيه لدور الجنس في حياة الإنسان » ... ! « ص ٢٣ » .

وينقل المؤلف عن الدكتور الترمانيني في كتابه « الرق » « ص ١٢٥ - ١٢٦ » إشارته إلي الأصل الاجتماعي الموقوت بظروف معينة لظاهرة حجاب المرأة ... فيقول : إن الوضع الاجتماعي للجواري كان يستلزم أن تكون الجارية مكشوفة لترغيب الناس في شرائها ، ومن ثم كان الحجاب ضرورياً للحرائر حتي يتميزن عن الجواري ، ولا يصيبهن مكروه من أولئك الذين كانوا يتعرفون علي الجارية من ملبسها ، وهكذا كان ارتداء الجلباب في الآية الكريمة « يأيها النبي قل لأزواجك ، وبناتك ، ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدني أن يعرفن ، فلا يؤذين .. » « ٥٩ - الأحزاب » - كان ذلك دعوة إلي دفع الأذي عن الحرائر حتي لا يخلط الناس بينهن وبين الجواري . وينبهنا المؤلف إلي حقيقة هامة ، وهي أن عمربن الخطاب كان يمنع الجواري من التحجب بالقوة ، حتي لا يتشبهن بالحرائر ! وينتهي من ذلك إلي القول بأن حجاب المرأة الحرة كان تدبيراً قضت به الظروف الطارئة علي المجتمع الإسلامي ، وهكذا لم يكن الحجاب تشريعاً عاماً للنساء . بل كان مرتبطاً في أصله بظروف خاصة ، هي الرغبة في التمييز بين الحرة والجارية ، ومن ثم تثور علامة استفهام كبيرة في هذا الصدد : لمصلحة مَنْ تنشر الآية المذكورة علي أنها تشريع غير مقيد بزمن معين ؟! وما معني التحجب في عصرٍ اختفت فيه الجواري ، ولم تعد المرأة الحرة بحاجة إلي الحجاب لكي تتميز به عن الجارية ؟! « ص ٢٤ » .

٣ - أم الفئة الثالثة من الاهتمامات الشكلية ، فهي فئة الشعائر

الدينية ، وهذه الفئة ، وإن كانت تقصد لذاتها في الدين بوصفها أركاناً أساسية فيه ، فلابد أن تترجم إلي أفعال تنعكس إيجابياً علي حياة الناس ، وإلا فقدَت فعاليتها ، ولم تعد مقبولة حتي من وجهة نظر الدين نفسه ، فكم من أحاديث نبوية تؤكدا أهمية المعاملة بوصفها المظهر الأساسي للدين ، وتندد بأولئك الذين يقومون ويقعدون دون أن ينفعوا الناس بشئ ! وأمثلتنا ونكاتنا الشعبية حافلة بالسخرية من أولئك الذين يؤدون فروض الصلاة ، والصوم ، والحج ، ولكنهم يغتالون أموال الناس أو يغشونهم ، ومعني ذلك ـ بعبارة أخري ـ أن القيمة الحقيقية للشعائر إنما تكمن في تلك القوة المعنوية التي تمكن الإنسان من مواجهة الظلم والطغيان ، والسعي إلي أداء عمل نافع للمجتمع ، أما التركيز علي شكلية الشعائر دون اكتراثٍ بما تؤدي إليه من مضمون ، فهو في حقيقته تستر علي المظالم ، ومساندة للاستبداد ! « ص ٢٣ » .

ويشير المؤلف كذلك إلي أن أكبر المشكلات التي تواجه الجماعات الإسلامية المعاصرة افتقارها إلي برنامج اجتماعي محدد المعالم . وهو يقصد بالبرنامج :

أ – وجود تخطيط واضح يبين الاتجاه الذي سيسير فيه المجتمع ككل بصورة محددة ، والوضوح والتحديد هنا ضروريان ، لأن المجتمع لا يمكن أن يسير بعبارات إنشائية ، ومباديء هلامية ، واتجاهات شديدة العمومية !

ب – وجود خطة قابلة للتطبيق في المجتمع الحديث ، فالاستشهاد المستمر بحكم ، ومباديء ، وأحداث ، ووقائع تفصلنا عنها مئات السنين يمكن أن يقيد في ضرب المثل وحفز الهمم ، ولكنه لا يكفي لإدارة شئون مجتمع يعيش وسط عالم تتفاعل أحداثه وتتبدل مواقعه يوماً بعد يوم ، ومن هنا كان من الشروط الواجب توافرها في أي

برنامجٍ تتقدم به أية جماعةٍ ، أو أي حزبٍ أن يحدد لنا الطريقة التي يمكننا أن نواجه بها ظروف عالم سريع التغير ، وتيارات عالمية لا ترحم المتخلف ، أو الخيالي ، أو الغارق في أحلام الماضي ، ولابد لمثل هذا البرنامج أن يدرك بوضوح ووعيٍ كاملين ، الاختلاف الأساسي بين تلك المجتمعات القديمة البسيطة التي يُنظر إليها باعتبارها مثله الأعلي ، وبين المجتمعات الحديثة الشديدة التعقيد !

فهل توافق ، ياصديقي القاريء ، علي ما قاله الزميل الفاضل الدكتور محمد الرميحي في تقديمه لكتاب آخر للكتور زكريا هو «خطاب إلي العقل العربي» – عندما قال : «إن عدم تناول كتابات فؤاد زكريا بالعمق الذي تستحقه مثال علي فشل حركة النقد العربي في توضيح الصورة وإجلائها ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وتأصيل الحوار ، من أجل تأكيد المسار الثقافي العربي ...»؟!

إنْ كان لا يزال لديك ظل من شك في أهمية دراسة هذه الأفكار بالعمق الذي تستحقه ؛ لنقدها بطريقة علمية ناضجة – فأرجوك أن تقرأ المقال القادم!

* * *

الرؤية الدينية ... والمستقبل .. !

لستُ أشك لحظة واحدة في أن هناك خلطاً واضحاً عند كثيرٍ من الناس في مجتمعنا الإسلامي حول فهم المستقبل من الناحية الدينية ، وهذا الخلط مصدره في رأيي ، التصور الخاطيء للزمان ، أو قل إنه نتيجة للخلط بين فكرتي « الزمان والأزل » أن الذين يتصورون أن الله يكتب مقدماً مستقبل الإنسان بحيث تجيء حياته بعد ذلك تنفيذاً « للمكتوب » ، يجعلون الوجود الإلهي خاضعاً للزمان الذي تنقسم لحظاته إلي ماضٍ ، وحاضرٍ ، ومستقبلٍ ! لكن إذا ما فهمنا أن الزمان نفسه مخلوق ، لكان من المستحيل أن نتصور أن الله سبحانه موجود في الزمان « والفكرة نفسها تقال أيضاً عن المكان » ، ولكان من التخلُف أن نتحدث عن ماض أو حاضرٍ أو مستقبلٍ بالنسبة لله ! إن الله لا يكتب « المستقبل » ؛ لأنه لا مستقبل هناك ، وهو لا يفرض عليك شيئا «مقدما» لأنه ليس ثمة « مقدم ومؤخر » بل الكل « حاضر » . إن الله يدرك ما يحدث الآن ، وما حدث من الآف السنين ، وما سوف يقع بعد مئات القرون في لحظة واحدة هي « الآن الأبدى » ؛ لأنه يدرك مجري الزمان الذي خلقه في لمحة واحدة ! فلا مستقبل ، ولا كتابة ، وإنما كل شيء حاضر محض !!

غير أن الدكتور فؤاد زكريا عندما يتحدث عن الأسباب الدينية لرؤيتنا المتخلفة للمستقبل في كتابه الهام « الصحوة الإسلامية » لا يناقش الموضوع من هذه الزاوية ، وإنما هو يقوم بتحليل الواقع القائم كما هو دون أن يُقحم نفسه في معركة النصوص الدينية ؛ ليري إن كانت تؤيد هذا الرأي أم ذاك يقول : « ... ستكون نقطة انطلاقنا من الواقع نفسه ، أي من الطريقة التي يفكر بها المسلمون فعلاً ،

ويتصورون أنها هي المطابقة للدين ، سواء أكانت هذه المطابقة صحيحة بالمعني المطلق ، أم لم تكن ›› ص ٧٠ .

ومن هذا المنظور لا يدخل في نقاشٍ حول ما إذا كانت صفة ‹‹ التواكلية ›› المنتشرة بين كثيرٍ من المسلمين صفة أصيلة في الإسلام أم دخيلة : ‹‹ ...فالأمر الذي لا شك فيه هو أن السلوك الفعلي لأعدادٍ كبيرة من المسلمين - المبني علي طريقة فهمهم الخاص للدين - ينطوي علي قدر غير قليل من التواكلية ، والإيمان بالمكتوب والمحتوم ، وفي ظل هذا الاعتقاد يكون من الطبيعي أن تسود الفكرة القائلة بأن المستقبل ليس شيئاً يصنعه الإنسان ، وإنما يدخل في نطاق ‹‹ المجهول ›› و ‹‹ المخبأ ›› ، بل أن أية محاولة لتدخل الإنسان في تحديد مصيره ، أو تغيير مجراه يُنظر إليها علي أنها خروج من جانب الإنسان علي وضعه الفاني المحدود ، وإقحام لنفسه فيما ينتمي أساساً إلي نطاق المشيئة الإلهية . وهكذا ينبغي أن نترك المستقبل في غموضه ، ونتقبل أية تطورات مفاجئة تحدث فيه الآن . هذا هو الميدان الذي تتجلي فيه الإرادة الإلهية ، وحين يقول المثل الشعبي الشائع ‹‹ المستقبل بيد الله ›› فإنه لا يشير فقط إلي تأكيد القدرة الإلهية علي التحكم في المجري القادم للأحداث ، بل أنه يمنع الإنسان بطريقة ضمنية من التدخل في هذا الميدان الذي لا يملك فيه شيئاً وحين يوصف التكهن بالمستقبل في التعبير الشعبي أيضاً ، بأنه ‹‹ رجم بالغيب ›› فإن الكلمات المستخدمة في هذا التعبير تكشف عن فلسفة كاملة تجاه التفكير المستقبلي ، فالمستقبل هنا يرتبط ‹‹ بالغيب ›› ، والغيب يجمع بين المجهول والمقدس ، وما يخرج عن نطاق العقل البشري ، وما لا تتحكم فيه سوي المشيئة الإلهية ، فليس من حق الإنسان إذن ، أن يتلاعب بهذا «الميدان» المحفوف بالمخاطر ، وإنما يجب أن يقف إزاءه صامتاً ويتلقاه - حين يحدث - راضياً . صحيح أن

وصف « الرجم بالغيب » قد حال دون تمادي العرافين في نبوءاتهم الخرافية ، ولكنه في استخدامه الشائع علي الأقل لا يرمي إلي محاربة الخرافة وحدها ، بل إلي النهي عن أية محاولة للتدخل في ميدانٍ لا شأن للإنسان به أصلاً »، ص ٧١ .

وما يقوله أستاذنا الفاضل في هذه الفقرة صحيح تماما ، لكنا نسوق بعض الملاحظات التي نراها هامة في هذا الموضوع :

أولاً : أن المسلمين يخلطون بين « التوكل » ، و« التواكل » ، وهو موضوع قد نعود إلى تفصيله في مقالٍ مستقلٍ فيما بعد ، وقد يقول الدكتور فؤاد إنني أناقش هنا « الوضع القائم بالفعل لتفكير المسلمين » ونحن نتفق معه في ذلك ، لكن جزءاً من هذا الوضع الحالي هو هذا الخلط أيضاً !

ثانياً : أن المسلمين كثيراً ما يلقون بخُرافاتهم ، وأفكارهم المتخلفة علي عاتق الدين ؛ ليريحوا أنفسهم من عناء البحث ، وجهد التحصيل ، وهذا واقع قائم أيضاً – ولا أنسي يوم خرج طالب يجري خلفي بعد المحاضرة ليسألني مستنكراً « كيف تقول إن الإسلام يحارب الخرافات ، ولا يعتمد علي غيبياتٍ قط في تفسيره لظواهر الطبيعة ؟ » لقد عزَّ عليه أن يُحرم الإسلام من «شرف» الخرافة ! ثم هو من ناحية أكثر أهمية يريد سنداً لما يعشعش في ذهنه من أفكار متخلفة ، فإذا لم يكن للإسلام فيها يد فأين يذهب بها ؟! هذا واقع قائم !!

ثالثاً : في ظني أن تعبير « رجماً بالغيب » لا يحتمل كل هذه المعاني التي استخرجها أستاذنا ببراعة شديدة ، فعندما أقول أن فلاناً يتحدث « رجماً بالغيب » فإننى أعني أنه يقول « ظناً » ، أو يتحدث في أمورٍ لا يعلمها.

ويعتقد أستاذنا الكبير أن «« الشكل الوحيد من أشكال المستقبل المعترف به صراحة من وجهة النظر الدينية ، هو المستقبل ««الأخروي »» وهذا المستقبل نتيجة لأفعال الإنسان في هذه الدنيا وجزاء عليها ، ولكنه في واقع الأمر كان حسب تفسير كثير من المتدينين العاديين يقف بوصفه قوة مضادة للمستقبل «« الدنيوي »» وهذا التضاد يتمثل علي وجهين : الأول هو أن المستقبل الدنيوي بيد الله والأخروي بيد الإنسان ، وهذه مفارقة غريبة ! ، ولكنها تظل مع ذلك صحيحة ، لأن ما يطرأ علي مستقبل الإنسان من تحولات في هذه الدنيا يدخل في مجال المجهول ، أو «« الغيب »» بحيث لا تستطيع الإرادة الإنسانية أن تتحكم فيه إلا في أضيق الحدود ، أما المستقبل الأخروي فهو النتيجة المنطقية لأفعال الإنسان في هذه الحياة ، وهو الجزاء العادل علي تصرفاته ، وصحيح أن الله هو الذي يأمر بهذا الجزاء ، ولكن العدل الإلهي يعطي كل ذي حقٍ حقه كاملاً في الحياة الأخري ، وبعبارة أخري فإن نوع المستقبل الذي يستطيع الإنسان أن يتحكم في تحديده تحكماً كاملاً هو المستقبل الأخروي ، بينما يفلت منه زمام المستقبل الدنيوي ، وهنا نصل إلي الوجه الثاني من أوجه التضاد بين المستقبل الأخروي . يبدو بناءً علي ما سبق أن هناك قوة تقف في وجه الاتجاه الدنيوي . وإذا كان العدل الحقيقي الذي يكتسبه الإنسان ، والجزاء الوفاق علي أفعاله الحاضرة ، هو ما يناله في الحياة الأخري ، فقد يؤدي ذلك بالكثيرين إلي الاعتقاد بأن عدم تحقق العدل في هذا العالم لا يهم ، فيكفّون عن بذل الجهد اللازم لإقراره .

وإذا كان المستقبل الوحيد الذي يضمن الإنسان التحكم فيه هو «المستقبل الأخروي» ، فقد يدفع ذلك الكثيرين إلي الارتكان علي هذا الأمل تاركين المستقبل بوصفه مجهولاً خارجاً عن سيطرة البشر »» .. ص ٧٢.

والتخوف الذي يبديه الدكتور فؤاد في موضعه تماماً ، وإنْ كان علينا أن ننبه مرة أخري إلي ان الإسلام يكره المستضعفين في الأرض ، والخانعين الأذلاء الذين لا يعملون علي انتزاع حقوقهم من غاصبيهم ، وهو يتوعدهم بنار جهنم ﴿ .. الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم .. ؟! قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض .... فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً .. ﴾ آية ٩٧ النساء) .

علي أن أهم النقاط جميعاً التي يشير إليها الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا ، هي النتائج التي يستخلصها المسلمون من القول بأن الإسلام هو آخر الديانات السماوية ، يقول : « حين نتأمل جيداً موقع العقيدة الإسلامية ، والوحي القرآنى في التاريخ العام للبشر ، كما تحدده وجهة النظر الدينية ، يتكشف لنا أحد الأسباب الهامة التي تحول دون سيادة الاتجاه المستقبلي في الفكر الإسلامي ، ذلك لأن الإسلام هو آخر الرسالات التي بُعِثَت للبشر ، ورسول الإسلام هو خاتم الأنبياء ، والوحي الذي كان يهبط علي البشرية منذ أقدم عهود الأنبياء قد اكتمل بنزول القرآن ، وبمجيء الإسلام تكون البشرية قد بلغت سن الرشد ، واستكمل كل ما كان ينقص الرسالات السابقة . وهكذا ينطوي الإسلام علي عقيدة أساسية هي أنه دين البشرية التالية كلها ، وتعاليمه هي أعلي قمة للتشريع ، والأخلاق والحكمة يمكن أن يهتدي بها الإنسان » ص ٧٢ . ثم يتحدث الدكتور فؤاد عن النتائج المستخلصة من هذه الفكرة وانعكاسها علي الرؤية المستقبلية يقول : « في وضعٍ كهذا ، كيف يمكن أن يوصف التاريخ التالي للبشرية ، أعني تاريخها الذي أعقب وصولها إلي تلك القمة ؟ لن يكون هذا التاريخ في واقع الأمر سوي شروحٍ علي متنٍ ، هو الوحي في صوته المكتملة ، أو إذا جاز في هذا السياق أن نستخدم تعبيراً فنياً – تنويعات على لحن أساسي هو الرسالة المحمدية ، وفي إطار وجهة نظرٍ كهذه ، كيف يمكن

أن يكون للمستقبل دور جوهري في فكر الإنسان المسلم .. ؟! إن مسار التاريخ بعد الإسلام ، إما أن يكون تدهوراً وإما أن يكون علي أحسن الفروض ، محاولة دائمة للعودة إلي الإشعاع الأول . وفي كلتا الحالتين لا ينطوي المستقبل علي جديد ، ولا يمثل تطور البشرية خطاً صاعداً إلي أعلي وربما تصور المؤمن المتمسك بحرفية عقيدته أن الأمل في مستقبل أفضل من أي شيء وعُرف في الماضي ينطوي علي نوعٍ من التجديف : إذ يتضمن الاعتقاد بأن التاريخ سيبلغ يوماً ما نقطة تعلو علي المستوي الذي بلغه عند نزول الوحي ، وهو أمر ممتنع بالنسبة إلي عقيدة اكتمل بها رشد الإنسان ، أعني عقيدة يستحيل – بحكم تعريفها ذاته – أن يتم تجاوزها في أية لحظة لاحقة من تاريخ البشر ›› ص ٧٣ .

في ظني أنني سوف أختلف مع أستاذنا الكبير في هذه النتائج التي أستخلصها وذلك لما يلي :ـ

١ – القول بأن الإسلام آخر الرسالات لا يغلق الباب أمام التطور في شتي المجالات ، ولا التقدم البشري أياً كان نوعه ، لكنه يغلق الباب أمام ديانات جديدة فحسب !

٢ – ‹‹ بمجيئ الإسلام تكون البشرية قد بلغت سن الرشد ، واستكمل كل ما كان ينقص الرسالات السابقة ›› هذا حق لكن ألا يمكن أن تعني هذه العبارة أن الإسلام بذلك يضع البشرية التي بلغت سن الرشد علي طريق العلم؟! ألا يمكن أن نقول أنه لما كان الإسلام آخر الديانات فليس ثَمّةَ ديانات قادمة تصحح فليس أمامه إذن ، في تفسير الكون سوي مناهج العلم ؟!

٣ – ‹‹ لن يكون التاريخ سوي شروحٍ علي متن ›› ؟! تاريخ ماذا ؟ تاريخ العقيدة ؟ ! ربما .. ! لكنه ليس بالقطع تاريخ الفن ، أو العلم ، أو الاقتصاد ، أو السياسة .. إلخ ... إلخ .

٤ – يري أستاذنا الفاضل أن الاعتقاد بأن التاريخ سيبلغ يوماً ما نقطة تعلو علي المستوي الذي بلغه عند نزول الوحي ، تجديف ، وهو أمر ممتع ... إلخ لكني أعتقد أننا لن نجد مسلماً ـ اللهم إلا إذا كان في الدرك الأسفل من التخلف ـ يعتقد أن تفسير الكون وظواهر الطبيعة مثلاً لن يعلو يوماً المستوي الذي كان عليه في عهد الرسول ﷺ ، أو الصحابة ، أو الخلفاء ! ولا أن تطور البريد ، أو وسائل المواصلات تجديف ... إلخ إلخ ، إن ما يشير إليه الدكتور فؤاد صحيح بالنسبة «للعقيدة» فقط أو للدين كدين ، بل إن النصوص الدينية نفسها يتطور تفسيرها ، ويختلف تأويلها من عصرٍ إلي عصر وفقاً لثقافة الناس ، وقد يجدون فيها أبعاداً فلسفية لم تكن الأجيال السابقة تعلم عنها شيئاً .. !!

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات فإنها دليل قوي علي أن فكر الدكتور فؤاد زكريا جدير بالعرض والمناقشة ؛ لأنه فكر جاد اتفقنا أو اختلفنا معه .. يتسم بقدر كبير من العمق والأصالة ! ، وهذا واضح كل الوضوح في الفكرة التي يعرضها في الأسباب الحضارية لرؤيتنا المتخلفة للمستقبل ! .

* * *

عندما خسر الشيطان الرهان ..!

صعد الشيطان إلي السماء بادي الإرهاق ، فقد نال منه التعب كل منالٍ بعد يوم عمل مرهق أداه في إخلاصٍ ، وأمانةٍ ـ بمقدار ما يجوز للشيطان أن يكون مخلصاً في عمله أميناً في أداءه ـ ! لقد جاب الآفاق ، والتقي بضروب مختلفة من البشر : ملوكاً ، ورعاة ، وأغنياء ، وفقراء ، رجالاً ونساءً من كل نحلة ولسان ! ووسوس لكل منهم بما استطاع ، وما ترك الأرض إلا وكل شيء فيها أسوأ مما كان ! ..

صعد إلي السماء ؛ ليقدم تقريره اليومي إلي الله :

– ماذا وجدت ؟!

– لا جديد .. !

– ماذا تقول ؟!

– أقول كل شيء يسير في دورته المألوفة تحكمه قاعدة صلبة لا تلين : ((خذ واعط)) ! فبمقدار ما تعطي للناس من خير ونعم ، بمقدار ما تأخذ منهم من صلواتٍ وعبادات !

– يا لك من شريرٍ أحمق ! وهل زرت أرض عوص ؟ !

– أعرف كل رجل وامرأة في أرض عوص ، وأدوم ، وما بين سوريا ، والفرات – وكان لي فيها صولات وجولات !

– وماذا وجدت من أمر عبدنا ((أيوب)) ؟ أم تقول أنه هو الآخر يتبع قاعدتك اللعينة ؟! لقد شهد الله ، والملائكة ، والناس أجمعون أنه رجل صالح ، بل أقرب ما يكون إلي الكمال والتقوي ، وشهدت له امرأته نفسها – أم أنك تنكر ذلك ؟!

– أنا لا أنكر صلاحه وتقواه ، لكني أنكر أن يكون ذلك بغير ثمن ،

فلاشيء في هذه الدنيا بغير ثمن ! الدنيا أخذٌ وعطاء ! وهي قاعدة البشر قبل أن تكون قاعدتي ! بمقدار ما تعطي تأخذ ! وماذا تريد من رجل «« ولد له سبعة بنين وثلاث بنات . وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف حمل ، وخمس مائة فدان بقر ، وخمس مائة أتان ، وخدمه كثيرون جداً ؟ ! ماذا تتوقع من رجل لم يكن من علِّيه القوم فحسب ، بل «« أعظم كل بني المشرق »» ؟! ماذا نتوقع من رجلٍ له مثل هذا الثراء العريض ، والمكانة الرفيعة إلا أن يحيد عني ، ويرفض الانصياع لأوامرى ، فيكون له ما ذكر عنه من «« الصفات الطاهرة والأعمال الصالحة »» ؟! وهل يمكن أنه انتظر خيرا من أولئك الذين دفعت لهم الثمن مقدماً ؟! ولكن : ابسط يدك الآن ، ومس كل ماله فإنه في وجهك يجدف عليك .. !

– لك هذا يا ملعون ! وسوف تري أن عبدنا أيوب لم يعمل الصالحات ؛ لينال أجرها فحسب ، بل فعلها لأنها واجبات تؤدي إلى محبة الله ، وكان لابد أن يعملها لو خسر .. !

* * *

اجتمع أولاد أيوب – البنون والبنات – في بيت أخيهم الأكبر علي مائدة زاخرة بصنوف الطعام ، وألوان الشراب ، والكئوس متنوعة بخمرٍ عتيق ، والضحكات الحلوة المرحة يتردد صداها في جنبات القصر العامر !

أما أيوب فقد كان يجلس في بيته – كعادته – وحيداً متعبداً شاكراً الله علي نعمائه عندما دخل الرسول مهرولاً يلهث من هول ما جري :

«« سيدي جئتك بأبناء سيئة فاغفر لي ! كانت الأبقار تحرث ، والأنثي ترعي بجانبها ، فسقط عليها السبئيون وأخذوها ، وضربوا الغلمان بحد السيف ، وشاء حظى العاثر أن أنجو أنا وحدى ؛

لأخبرك .. ! ولم يكد الرجل ينهي كلامه حتي دخل رجل آخر وهو يصرخ : « سقطت من السماء نار هائلة أحرقت الزرع والضرع ، والتهمتْ الغنم ، والغلمان ، فأتتْ عليهم جميعاً ونجوت أنا وحدي ؛ لأخبرك .. !

ورجلٌ ثالث :

« الكلدانيون عينوا ثلاث فرق فهجموا علي الجمال وأخذوها ، وضربوا الغلمان بحد السيف ، ونجوت أنا وحدى ؛ لأخبرك » !

ورابع : بَنُوك وبناتك كانوا يأكلون ، ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر ، وإذا ريح شديدة جاءت من عبر القفر وهدمت زوايا البيت الأربع فسقط علي الغلمان فماتوا جميعاً ونجوت أنا وحدي ؛ لأخبرك .. ! »

حزن الرجل حزناً شديداً حتي مالت به الأرض لحظة ، لكنه عاد إلي نفسه فخرَّ ساجداً وهو يقول : « عُرياناً خرجت من بطن أمي ، وعُرياناً أعود إلي هناك ، الرب أعطي ، الرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركاً .. ! » .

كل هذه المصائب العظيمة تتوالي في يوم واحد يوم أن أُولم الأخ الأكبر فمات البنون والبنات جميعاً ، وانهدمت الدار عليهم ! ثم ذهب البقر ، والأتن ، والغنم ، والغلمان ، والجمال .. دون أن تكون هناك فرصة واحدة للرجل كي يتعزي ! « وانتظر الشيطان من أيوب أن يقف ، ويجدف علي الله بوجهه » بعد أن حلَّت به هذه المنايا كلها ، لكنه لم يفعل !

* * *

صعد الشيطان إلي السماء في اليوم التالى ؛ ليقدم تقريره اليومي :

- ماذا وجدت ؟!

- وماذا تريدني أن أجد ؟! وهل كل خيرات الدنيا ، ونعيمها هي المال والبنون ؟! ألا تعي أيضاً الجسم القوي المفتول والعضلات والصحة البادية ؟ بل إن ما يمس الإنسان نفسه أهم عنده مما يمس ماله وولده ! : « فابسط الآن يدك ، ومس عظمه ، ولحمه ، فإنه في وجهك يجدف عليك ....» !

ويخرج الشيطان من لدن الحضرة الربانية ؛ ليضرب أيوب « بقرح رديء من باطن قدمه إلي هامته » ! ولا يختار الشيطان سوي مرض غريب عجيب احتار العطارون فى تشخيصه بعضهم قال : إنه « الجُذام » ، وقال غيرهم : إنه « داء الأسد » ؛ لأنه يهجم علي المريض كما يهجم الأسد علي فريسته وفريق ثالث قال : إنه « داء الفيل » ؛ لأن رجلي المصاب « تتورمان فتشبهان قوائم الفيل » ! وهو علي كل حال مرض يجعل شعر الأجناب يتساقط - دع عنك شعر الرأس ! والأطراف تتآكل والجلد ينزف من شدة التقرح !! ويتناول أيوب « شقفة ليحتك بها وهو جالس وسط الرماد ؛ فيزداد ألماً علي ألم .. !

لكن آلام الجسد تهون إذا ما قورنت بآلام النفس وعذابها ، وأي ألم يكن إن يستشعره الإنسان أقسي علي النفس من أن تجد رفيقة عمرها تتخلي عنها وقت الضيق ! هكذا نجح الشيطان اللعين في مضاعفة الآلام ، والعذاب عندما وسوس لـ « دينه » زوجة أيوب فانصاعت له وأطاعت أوامره ؛ ليقتر عذاب الجسد بعذاب الروح ؛ ولِتصبح الحياة جميعا ما بعده - جحيم ! فتقول الزوجة لزوجها : « متْ » ! خلاصك بيدك فجدّف علي الله ومتْ ! إلي هذا الحد يهون كل شيء ! أين الوفاء والإخلاص والمحبة ؟ أم تَراها هي الأخري ذهبت مع ما ذهب من مالٍ وولد ؟! .. لكن الرجل الذي كان تحمله مضرب الأمثال في الصبر والجلد يكتفي بأن يقول لها في إخبات العابدين : « أنت تتكلمين كإحدي الجاهلات ! الخير نَقْبل من عند الله ، والشر لا نَقْبل ؟ ! »

ماذا تريد هذه القصة أن تقول علي وجه الدقة ؟! أقدم تفسير لها - علي ما نعلم - هو تفسير أصدقاء أيوب أنفسهم الذي لا يخلو من خبث ، وخلاصته أن الله عادل خّير ، ولا يصدر عنه إلا كل ما هو كذلك ، وبالتالي فإنه لا يعذب إلا من أخطأ إليه فحسب ، ومن ثم فلابد أن يكون أيوب قد « اقترف » خطايا عظيمة ، وإلا ما أصابته تلك البلايا العظيمة ! لكن أيوب نفسه يرفض هذا التفسير لأنه لم يقترف شيئا من الخطايا التي ينسبها إليه أصحابه ظلماً ، بل إنه لم يتخل قط عن محبته لله : فهو وسط آلامه الشديدة كان يعبِّر عن اشتياقه له : « مَنْ يعطني أن أجده فآتي إلي كرسيه » (أيوب ٢٣ : ٣)

« إنه يعرف طريقي : إذا جربني أخرج كالذهب » (٢٣ : ١١) ولقد كان دائماً مطيعاً لله : « بخطواته استمسكت رجلي ، حفظت طريقه ولم أحد . من وصية شفتيه لم أبرح » (١٢ - ١٤) فليست المسألة ، إذن ، أنه أخطأ فنال منه العقاب : إنه لم يرتكب إثماً قط ، فضلاً عن أنه ظل مخلصاً ومطيعاً لله حتي أثناء محنته وبلواه !

عُدنا إلي السؤال من جديد : ما هو مغزي هذه القصة ؟!

لقد أنهي بعض اللاهوتيين المشكلة فأعلنوا « أدريتهم » واكتفوا بالقول بأن القصة تشير إلي « الابتلاء » بوضعه حكمة إلهية لا نعرفها ، وأن كل ما نستطيع أن نقوله هو أن الإنسان لا يقدر أن يفهم كل طرق الرب ! إننا نعرف من ناحية أنه عادل ، وخّير ، وقادر علي كل شيء ، وأنه يحب الإنسان ويريد له الصلاح ، ونعرف من ناحية أخري أن العالم يزخر بالخطايا والشرور ، وأن الناس تتألم لما يوجد فى الدنيا من ألوان العذاب التي لا تحصي ، لكننا لا نستطيع أن نوفق بين الأمرين معاً ، فعلينا أن نكتفي بالإيمان بأن الله يدبر كل شيء تدبيراً حسناً ، وأنه ليس في الإمكان أروع مما كان - فعلي الله نتوكل وإليه نسلم أمرنا وكفي !

وذهبت أخرون إلي أن المغزي هو أن محبة الله لا يمكن أن يمحوها من قلب المؤمن الحق مهما مرّ ويمرُّ به من بلايا ومحن ، ولا يكن للحوادث مهما عَظُمَت أن تهز إيمانه ، أو أن تشوب محبته لله بأية شائبة . إنها هنا خالصة لوجه الله لا طمعاً في مالٍ ، ولا أملاً فى جنة ، ولا تَحَسُّباً لمنصب أو مركز فى هذه الدنيا ، ولا حتي تجنباً لعذاب الجحيم في الآخرة ، وهو الموقف الذي عبّرت عنه رابعة العدوية أجمل تعبيرٍ في قولها مخاطبة ربها : « إنْ كنتُ أعبدك خوفاً من عذاب جهنم فاحرقني بنارها ، وانْ كنت أعبدك طمعاً في جنتك ، فاحرمني منها ، أما إنْ كنت أعبدك أملاً في رؤية جمالك ، فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلى »!.

* * *

وللفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (١٥٥٨ - ١٦٧٩) تفسير طريف يتفق بصفة عامة مع سياق مذهبه السياسي يجدر بنا أن نقف عنده قليلاً :

يقول هوبز لقد كانت هناك مشكله ناقشها القدماء وتنازعوا حولها ، وهي كيف يمكن أن نفسر ذلك التناقض الظاهر في حياة الناس ، فالأشرار حياتهم سعيدة وخيراتهم كثيرة ، والأبرار الصالحون يعانون الآلام والمحن ؟! ما الأساس الذي يتم بناء عليه توزيع الأرزاق ؟ علي أي أساس توزع الخيرات ، والنعم ، والمحن ، والنقم ، في هذه الدنيا ؟ ولقد هزت هذه المشكلة إيمان العوام فقط ، بل أيضاً إيمان الفلاسفة - وأيوب نفسه ›› كم جادل الله بعنف بسبب المحن الكثيرة التي ألمت به رغم استقامته ! .. ويري هوبز أن لله حق ابتلاء الناس ، ولكن هذا الحق لا يستمد من خطيئة البشر وإنما من قوة الله ›› (التنين ص ٣١٢ طبعة فونتانا) فمنْ له هذه القدرة اللامتناهية ، والقوة التى لا يكن مقاومتها ، له كذلك على الناس حق الطاعة

الكاملة ..! إنَّ جميع البشر ليعلنون الولاء علي نحوٍ طبيعيٍّ لأصحاب القوة الفائقة ، ومن ثَمَّ فإن القوة اللامتناهية لله القادر علي كل شيء هي وحدها التي تعطيه الحق في ابتلاء الناس وفق مشيئته . إن هذا الحق لا يرجع إلي الله بوضعه خالقاً ولا لما له من فضل ونعمة علي الناس ، بل لقدرته اللامتناهية علي كل شيء ›› (المرجع السابق ص ٣١٣) فإذا كانت العقوبة الإلهية تُفرض علي الناس أحياناً بسبب ما اقترفوه من خطايا ، وآثام ، فإن الابتلاء لا يكون دائماً بسبب هذه الآثام . وإنما مرجعه إلي قوة الله وحدها .

ويري هوبز أنه إذا كان أصدقاء أيوب قد فسروا المحن التي مّر بها بما قد يكون ارتكبه من آثام ، وإذ كان أيوب قد دافع عن نفسه بأنه بريء ، ومستقيم وسيظل كذلك – فإن الله نفسه قد حسم الموقف وبرر الابتلاء بحجج من قوته هو :

‹‹ أجاب الرب أيوب من العاصفة وقال : مَنْ هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة ؟ اشدد الآن حقويك كرجل فإني أسألك فتعلمني : أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم . مَنْ وضع قياسها .. ؟ إنك تعلم ، من مدّ عليها مطماراً ؟ علي أي شيء استقرت قواعدها ، أو من وضع حجر زاويتها ؟! (أيوب ٣٨ : ١ – ٦) وغير هذه الأمثلة الدالة علي القوة الإلهية كثيرة – وهي كلها تؤكد براءة أيوب من ناحية ، وتستنكر من ناحية أخري فكرة أصدقائه الخاطئة إن المسألة هنا هي أشبه ما تكون بمن ولد أعمي ، فلا هو ارتكب خطيئة حتي يمكن أن يقال أنه بسببها أصابه ما أصابه، ولا ارتكب أبواه خطيئة فكانت نتيجتها ولداً كفيف البصر . لكن أعمال الله يمكن أن تتجلي – مظهرة قوته التي لا تقاوم – في كل مكان . وعلي الرغم من أن القديس بولس حاول أن ينشر الشر بقوله إن الموت دخل العالم عن طريق الخطيئة مشيراً إلى خطيئة آدم التى لو لم يرتكبها ما مات أبداً – فإنه لا

ينتج من ذلك أن الله لم يكن يستطيع أن يبتليه ، أو إنه ليس له الحق في ذلك لو لم يخطيء ، كما يبتلي كائنات حية أخري لا يمكن أن تخطيء ›› (التنين ص ٣١٣)

لقد كانت النظرة القديمة ، فيما يرى هوبز : تري أن الناس ملزمين بطاعة الله لأنه خلقهم ، ويحبهم ، ويرغب في خيرهم . وهكذا تكون السيادة الإلهية بسبب أن الله خالق ، وصاحب نعَم وخيراتٍ علي الناس ، لا بسبب أنه قادر علي كل شيء . والإلزام في هذه النظرة إلزاما أخلاقيا فحسب ، فَمِنْ واجبي أن أطيع الله لأنه مصدر النعَم التي أعيش بها وعليها لكن الإلزام عند هوبز ليس إلزاماً أخلاقياً ؛ لأن مصدره القوة الإلهية من ناحية ، وطبيعة تركيبي من ناحية أخري ، من حيث إنني لون من المخلوقات تعمل دائماً للحصول علي المنفعة ، وتجنب الضرر والأذى . وبالتالي فلما كان هناك إله قادر علي كل شيء يأمرني بكذا ، وكذا ، وينذرني بالعقاب إن عصيته ، فليس أمامي سوى طاعته ؛ لأن كل ما أعمله مكشوف أمامه ، وهو يعرف عني كل شيء ، وهو يستطيع أن يفعل بي ما يشاء ! إنّ الإلزام الذي يطيع الناس غيرهم حتي في عالمنا هذا الدنيوي لا يختلف كثيراً عن هذا النوع من الإلزام ؛ لأن مصدرها واحد : القوة التي لا تقهر !

لكن إن كان ‹‹ الابتلاء ›› يبرره شيء واحد : القدرة الإلهية القادرة علي كل شيء ، ألا يتعارض ذلك مع العدل الآلهي ؟ أعني أ كانت فكرة الامتحان أو الابتلاء تعود فقط إلى أن الله قاهر فوق عباده ، ألا يصطدم هذا التفسير بالعدالة الإلهية ؟! يجيب هوبز : كلا ! إنّ العدل والظلم يحددهما القانون ، وقبل وجود القانون لا عدل ، ولا ظلم ، وإذا كان الأمر الإلهي هو القانون الكلي الشامل هو نفسه عادل دائماً ، أي أنه هو الذي يحدد العدل والظلم .. ومن ثّم فلا حق لي في الاعتراض من أى وجه من الوجوه !

* * *

أصحيح هذا .. ؟ أصحيح أن الإنسان كانت له الغلبة علي طيور السماء وحيوانات البرية ؛ لأنه أقوي منها عقلاً ، وأشد منها ذكاءً ؟ ! أصحيح أن المقهورين لا أمل لهم في الخلاص إلا أن يقفوا علي أقدامهم ، ويثبتوا أنهم جديرون بالبقاء ؟!

أصحيح أن الحاكم لا يجعل من الناس عبيداً علي الدوام ، أعني أنه ليس هو المسؤل دائماً عن عبوديتهم ، بل العكس إن الناس أنفسهم قد يخلقون السيد المستبد بسلوكهم الخاضع الذليل ؟ ! فعلاقة « السيد والعبد » كما يقول هيجل علاقة جدلية ، كل طرف فيها يخلق الطرف الآخر ويعتمد عليه!

أما بعد : فقد ذهب الإمام الغزالي في « المقصد الأسني » إلي أن المسلم لا يكون مسلماً علي الأصالة إلا إذا شارك في أسماء الله الحسني : فكان قوياً جباراً منتقماً ، متعالياً ، خالقاً ، مصوراً ... إلخ - ألا فليصغ كل من له أذنان ! .

* * *

من التواكل ... إلى التوكل ...

(أ) تمهيد :

يتفرع عن موضوع حرية الإرادة البشرية ، أو علاقة « الفعل الإلهي بالفعل البشري » علي نحو ما عالجناه في مقالٍ سابق(1) ، موضوع آخر بالغ التعقيد والأهمية في آن معاً : هو موضوع « القضاء والقدر » ، أما أنه بالغ التعقيد فهذا واضح من أن النقاش فيه بدأ في حياة الرسول ﷺ ، وما زال محتدماً حتي يومنا هذا(2) ، أما أهميته فيكفي للتدليل عليها أن الإمام محمد عبده علّق إصلاح المجتمع الإسلامي كله بالوصول إلى تفسيرٍ سليمٍ لفكرة القضاء والقدر ، يقول الإمام الأكبر في هذا المعني : « .. ينبغي أن يقوم المفكرون منا بإصلاحٍ شاملٍ ، وذلك غير ممكن إلا إذا رجعنا إلي فكرة صحيحة عن معني القضاء والقدر .. »(3) . وهو محق في ذلك تماماً ، فالفكرة الخاطئة عن هذا الموضوع الهام قد أدت إلي التكاسل ، والتخاذل ،

---

(1) مجلة الثقافة العربية – العدد الخامس من السنة الثالثة – مايو ١٩٧٦ م – من ص ٣٨ إلي ٤٣ .

(2) علي الرغم من أن عمر بن الخطاب قد وصفه بأنه « طريق مظلم وبحر عميق » فإن النقاش فيه لا يزال محتدماً حتي الآن – قارن مثلاً كتاب « الإنسان بين الجبر والاختيار » للأستاذ محمد سلامه جبر ص ٧ – وكان آخر ما صدر في هذا الموضوع كتيب قيّم لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بعنوان « القضاء والقدر » أصدرته دار الشروق في يوليو ١٩٧٥ م .

(3) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده – جمعه السيد رشيد رضا – الجزء الثاني ص ٣٩١ (نقلاً عن رائد الفكر المصري للدكتور عثمان أمين ص ١٢٨ من الطبعة الثانية عام ١٩٦٥ م) .

والتجمد ، والإهمال ، بحجة أن العمل لا قيمة له ، فكل شيء مسجل منذ الأزل ، وكل شيء مُعَدٌّ سلفاً ، وكل ما سوف يحدث مكتوب ، ومن ثم فالعمل واللاعمل سواء !

وماذا يجدى إرهاق الجسم بالعمل ، وانشغال الذهن بالتفكير ، وبذل الجهد في التخطيط والإعداد ، وكل شيء : من أصغر حبات الرمل في الصحراء ، وما يطرأ عليها من تغير ، حتي أعظم أفعال البشر مسجل في لوحٍ محفوظ ؟! ‹‹ويقال أحياناً أن الله يكتب ذلك بطريقة مباشرة ، أو أن هناك قلماً يسجل باستمرار في اللوح المحفوظ ، فقد كتب الله الأعمال كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسة آلاف سنة ! ››(٤) .

ويقول عُبَادة بن الصامت : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : إن أول ما خلق الله : القلم ، ثم قال له : اكتب . فقال يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء ، ما هو كائن إلي يوم القيامة من عمل ، وأثر ، ورزق ، وأجل ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلي يوم القيامة ››(٥) . وسمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : ‹‹ يا بني : مَنْ مات من غير أن يؤمن بهذا فهو ليس مني .. ››(٦).

والحق أن هذه الفكرة عن ‹‹ المكتوب ›› أو ‹‹ المسجل ›› أو ‹‹المقدّر ›› قد أُسيء فهمها إساءةً بالغةً فاتخذ منها الكسالى مرتعاً وملاذاً ومبرراً

---

(4) Watt, Montgomer : " Free Will & Predestination " , London , 1948

(٥) رواه أحمد ، والترمزي ، وابن عساكر ، وغيرهم بألفاظ متقاربة – نظر المرجع السابق – وقارن أيضاً الإمام الغزالي في كتابه ‹‹ معارج القدس في مدارج معرفة النفس ›› تحقيق الشيخ محمد مصطفي أبو العلا – مكتبة الجندي بالقاهرة ص ٢٣ .

(٦) المصدر نفسه .

« دينياً » للتجمد والإهمال ، فإذا كان كل شيء « مقدراً سلفاً » وإذا كان كل ما يحدث « مكتوب منذ الأزل » فسيّان التحرك ، والسكون علي حد تعبيرهم ! فما الذي يمكن أن تفعله لو أنك تحركت وعملت وأرهقت نفسك وأضنيت بدنك سهراً وكداً .. ؟؟ لن تفعل شيئاً سوي أن تنال ما قد كُتب لك ، أو ما قد قُدِّر عليك ، أو « نصيبك » فانتظره يأتك بغير إرهاق ولا تعب !

ولقد تلقف المستشرقون أقوال هؤلاء الكسالي (وسوف نعرض بعد قليل نماذج منها) ونسجوا منها نظريات عريضة مُفَادها أن الإسلام هو دين التكاسل ، والتخاذل والمسكنة ، وأنه بدلاً من أن يحض الناس علي العمل ، وبذل الجَهد يدعوهم إلي اليأس والاستسلام ! فذهب « جولدزيهر » Goldziher إلي أن كلمة « الإسلام » نفسها تعني الطاعة والخضوع غير الإداري ، أي التسخير لإرادة قاهرة – يقول : « إن كلمة الإسلام نفسها تعني الخضوع ، أي خضوع المؤمن لله .. وهذه الكلمة عليها طابع ظاهر من الشعور بالتبعية لا تحيط به حدود ، ويجب علي الإنسان أن يستسلم لها متبرئاً من كل حول له وقوة »(٧) . أي أنها تعني الإذعان التام لإرادة قاهرة ، والاستسلام لكل ما تخطه هذه الإرادة في لوحها المحفوظ(٨) . وذهب (أرنست رينان)

---

(٧) جولدزيهر : « العقيدة والشريعة في الإسلام » ترجمة الدكتور محمد يوسف موسي وآخرين – دار الكتب الحديثة بمصر عام ١٩٥٩ م – ص ٩ – ١٠ .

(٨) لاحظ أن التفسير نفسه ظاهر البطلان لأن كلمة « المسلم » معناها المخلص لله ، من قوهم . سم الشيء لفلان أي خلص له ، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة ولهذا فإننا نري نوحاً يقول لقومه : « وأُمرت أن أكون من المسلمين » آية ٧٢ من سورة يونس ، ويعقوب يوصي بنيه : « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » آية ٣٢ من سورة البقرة . والحواريون يقولون لعيسي « آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون » آية ٥٢ من سورة آل عمران – وقارن أيضاً آية ١٣٣ من سورة البقرة وكذلك آية ٨٤ من سورة يونس ، وأيضا آية ٥٣ من سورة القصص . وانظر أيضاً للشيخ مصطفي عبد الرازق « الدين والوحي والإسلام » مطبعة عيسي الحلبي بالقاهرة ، وأيضاً الدكتور محمد عبد الله دراز « الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان » دار القلم بالكويت عام ١٩٧٠م ولاسيّما ص ١٧٥ وما بعدها .

E.Renan – في محاضرته الشهيرة التي ألقاها في السربون في ٢٩ مارس عام ١٨٨٣ . عن تعاليم الإسلام والعلم - إلي القول بأن عقيدة الجبر عند المسلمين واستسلامهم لكل ما هو مكتوب ، ومقدّر عليهم من شأنهما أن تخنق فيهم الروح العلمية ، وأن تحول دون المضي في سبيل التقدم .. !! وذهب (مونتجمري وات) Montgomety Watt – إلي أنه : « .. في كل من القرآن والحديث هناك شيء يمكن أن نسميه بالنظرة القضائية أو النظرة المقدرة سلفاً . ! »(٩).

لكن لابد من الاعتراف ، إذا أردنا أن نكون منصفين ، بأن المستشرقين لم يخترعوا الفكرة ، ولم يختلقوا هذه الأقوال ، لكنهم اختاروها ، وتغاضوا عن أفكار أخري كثيرة علي نحو ما سنبين فيما بعد ، واعتبروها الأساس الذي يقوم عليه التصور الإسلامي للحياة البشرية ! ونسوا أن هذه الأقوال لم تظهر إلا في عصور التدهور ، أو عندما يعمل الحكام علي إشاعة روح الاستسلام ، والخنوع ، والإذعان كما حدث في زمن بني أمية عندما تدخلت الأهواء السياسية ؛ لترويج فكرة « القضاء والقدر » و« الجبرية » لكي يستسلم الناس لحكمهم بحجة أن الإنسان ليس له يد في مجري الأمور ، وبالتالي فكل ما حدث من معارك ، وكل ما سُفِكَ من دماء بل حتي مقتل الحسن والحسين ، واستيلاء الأمويين علي مقاليد الحكم لم يكن سوي قدر مكتوب من الله لا حيلة للناس فيه !

ولقد أدت هذه الظروف ، سواء أكانت سياسية أو خاصة إلي تدهور الحضارة الإسلامية في فترة من الفترات ، إلى إشاعة روح الاستسلام ، والتواكل ، والخنوع بين الناس فظهرت طائفة من

(9) Watt, Montgomery , op . cit .

الدراويش البلهاء ، وأشباه الصوفية ، وانضم إليهم المتنطعون والكسالي والمتسولون باسم الدين يشبعون الاستسلام ، والتكاسل ، والتجمد باسم «« القضاء والقدر »» ، أو «« التوكل علي الله »» ، وترك الأمور تجري علي نحو ما هو محدد لها ، ويكفي أن نلقي

نظرة سريعة علي نماذج من أقوال وأفعال هذه الطائفة ، ولا يزال منهم مجموعة كبيرة منتشرة في أرجاء الوطن العربي حتي الآن – لكي نعرف من أين استقي المستشرقون مادة هجومهم علي الإسلام والمسلمين .

(٢) نماذج من التواكل :

ولقد حفظت لنا كتب التراث الكثير من الأقاصيص من حياة هؤلاء الكسالي : فهذا أحد دراويش الصوفية كان يكسب قوته بالعمل بالمغازل فدخل عليه كاتبه يقول : «« بلغني أنك استعنتَ علي رزقك بالمغازل ، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك ، الرزق علي منْ .. ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها .. »»[١٠] . إلي هذا الحد يعشعش الجهل ، والتخريف ، وسوء الفهم في صدور الناس ، فلا يفقهون من أمور دينهم شيئا ويقدمون للآخرين مادة للسخرية والتندر ! وهذا صوفى آخر يرسل تابعه إلى المدينة برقعة كتب فيها هذين البيتين :

أنا حامدٌ ، أنا شاكرٌ ، أنا ذاكر   أنا جائع ، أنا ضائع ، أنا عارى .

هي ستة وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها يا بارى .

فعاد إليه بصُرةٍ فيها ستمائة دينار[١١] . في حين أن الواجب أن

---

(١٠) الإمام الغزالي : إحياء علوم الدين ، المجلد الرابع ص ٢٣٢ .

(١١) نفس المرجع السابق .

تلقي عليه الشرطة القبض بتهمة التسول ! ويقول غيره (وأنا أتصوره وهو يستلقي علي ظهره وقد وضع ساقاً علي ساق وأزاح العمامة إلي مقدمة رأسه !) – يقول إمعانا في الكسل : ‹‹ المتوكلون تجري أرزاقهم علي أيدي العباد بلا تعب منهم ، وغيرهم مشغولون مكدودون . ! ››[١٢] . وما أشد جمود هؤلاء الناس ، وتواكلهم ، وإشفاقهم علي أنفسهم من السعي والكفاح ! فكأن لسان حالهم يقول : « ما دامت قدرة الله قد حددت من قبل كل شيء ، فليس من الحوادث ما يقع خلافاً لما أراد الله ، وإذا كان الله يعلم المستقبل منذ الأزل ، فلابد أن يكون المستقبل علي نحو ما يعلمه الله . وإذن ، فما فائدة العمل ؟ وفيم نتكلف العناء والنَصَب .. ؟ إننا لا نغيّر قط شيئاً مما كُتِبَ علينا في لوح العالم الآخر ، أفليس خيراً لنا أن نُسَلّم أمورنا إلي المقادير دون أن نَفرض علي أنفسنا جهوداً مقضياً عليها بالضياع . ؟ »[١٣] . وما دام غيرنا يعمل ، ويرهق نفسه ، ويأتي إلينا بطعامنا لأننا متوكلون فلماذا نشغل أنفسنا ونكدر صفونا ؟ !

ومنهم طائفة لا تكتفي بالكسل والتجمد ، لكنها تحاول أن تدعم موقفها دينياً فتتلمس لنفسها الأسانيد من آيات القرآن مثل ‹‹ وفي السماء رزقكم ، وما توعدون .. ››[١٤] . فنجد المتكاسل المتقاعد عن العمل يحتج بهذه الآية قائلاً : ‹‹ رزقي في السماء فكيف أطلبه علي الأرض .. ؟؟ إن الله هو الذي يتكفل بكل شيء ، فهو الرازق ، وهو الخالق ، وهو الوهاب ! ولو أنك نظرت في ملكوت السموات والأرض

(١٢) المرجع نفسه ص ٢٣٠ .

(١٣) ‹‹ رائد الفكر المصري : الإمام محمد عبده ›› للدكتور عثمان أمين ص ١٢١ .

(١٤) آية ٣٣ من سورة الذاريات .

لانكشف لك أن الله قد دبّر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضراب [أي العمل وكسب العيش] - أمـا تري الجنين في بطن أمه لما كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرّته بالألم حتي تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السُّرة ؟ ولم يكن ذلك بحيلة الجنين . ثُمَّ لما انفصل سلطَّ الحب والشفقة علي الأم ؛ لتتكفل به شاءت أم أبت ، اضطرارا من الله تعالي إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلـي المضغ ؛ ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف ، فأدرَّ له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله علي حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل ، أم بحيلة الأم ؟ فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع ، وطواحين لأجل المضغ . فإذا كبر واستقل يسرّ له أسباب التعلم ، وسلوك سبيل الآخرة . أما سمعت قول الشاعر :

جـري قلم القضـاء بما يكون	فسيّـان التحـرك والسكـون
جنونٌ منـك أن تسـعي لرزقٍ	ويرزق في غشاوته الجنين(١٥) .

تأمل قليلاً هذين البتين تجد فيهما كل ما نعانيه اليوم من تخلف وتجمد ! فالتحرك والسكون سيّان ! والسعي في طلب الرزق جنون ! فقد جري قلم القضاء بما يكون الشعب العربي فيه من ذل واستعباد ، وخضوع للمستعمر ، واستسلام لتيارات العصر تقتلعه ، وتلقي به كيفما تشاء ! فإذا كان السعي في طلب الرزق جنوناً ، فما بالك بالسعي في طلب العلم أو الوقوف علي الثقافات المعاصرة ، أو

---

(١٥) قارن أحياء علوم الدين للغزالي ـ المجلد الرابع ص ٢٣٤ .

التخطيط لبناء المدن ، أو علاج المرض ، أو القضاء علي مشكلات الإنسان أياً كان نوعها ! ولاغريب أن هؤلاء القوم يذهبون إلي أن الرزق يعم الجميع وليس للعقل أي دور[١٦] . فالمجنون يُرزق كالعاقل سواء بسواء ، وكل أبله أو معتوه يُرزق أيضاً ، فلا أحد يُحرم من الرزق ، ولو كانت الأرزاق تُوزع حسب العقول لماتتْ الحيوانات جوعاً !

ولو كانت الأرزاق تجري علي الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم

ونسي الشاعر أن الغريزة في الحيوان تقوم مقام العقل في الإنسان ، وأن « البهائم » التي يتحدث عنها لا تنام حتي يأتيها الرزق ، لكنها تتحرك وتسعي للحصول علي الطعام ! ولعلك سمعت من حولك تلك « الحكمة » البهائم التي تتردد في مجتمعاتنا « ليس هناك من يبيت علي الطوي ! » ولعلك تعلم أيضاً من خبرتك أن هناك آلافاً مَنْ الناس يبيتون علي الطوي ليالي وليالي ! ولست أدري ما الذي يقوله هؤلاء الناس في أمر المجاعات التي كانت ، ولا تزال تفتك بالآلاف ، إن لم نقل بالملايين ، طوال عصور التاريخ ! ولكم كان الإمام محمد عبده رائعاً حين شَنَّ علي أولئك الكسالي حرباً بالغة العنف ، ووصفهم بأنهم رؤوس نشأت بين الناس كأنهم رؤوس الشياطين[١٧] : « أولئك الدراويش الخبثاء أوْ البلهاء الذين لا يخلو منهم اليوم قُطرٌ من أقطار الإسلام ممَنْ اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام[١٨] ، وجعل ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطَغَام..»[١٩] .

---

(١٦) نفس المرجع ص ٢٣٥ .

(١٧) رائد الفكر المصري : الإمام محمد عبده للدكتور عثمان أمين ص ١٢٣ ط ٢ مكتبة الأنجلو المصرية

(١٨) الحطام = ما تكسر من اليابس ، والطغام = أوغاد الناس ، الواحد والجمع فيه سواء .

(١٩) رائد الفكر المصري : الإمام محمد عبده ص ١٢٢ .

وليس السعي لكسب العيش فقط مما يكف عنه هؤلاء القوم ، بل إنك لتجد منهم من يرفض حتي العلاج من الأمراض ! فهذا صوفي مريض يقول له أهله : لو تداويت .. ؟ فيقول : هممت أن أفعل لكني تذكرت عاداً وثموداً ، وأصحاب الرس ، وقروناً قبل ذلك كثيراً[٢٠] ، كان فيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوي ! ويقول غيره : «مَنْ توكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي »[٢١]. ويقصد العبد في رأيهم بترك التداوي استبقاء المرض ، لينال ثواب المرض بحسن الصبر علي بلاء الله . فعندهم أن « علل الأجسام رحمة ، وعلل القلوب عقوبة » !

(٣) بغضاء الله في أرضه .. !

لكن أصحيح أن الإسلام يدعو إلي الكسل ، والجمود ، والتخاذل ، وينهي المؤمن عن الحركة ، والسعي ، والعمل باسم التوكل علي الله . ؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي : فكيف تفسر الآيات الكثيرة التي تدعو المؤمنين إلي التوكل علي الله ، والاعتماد عليه .. ؟ سوف نحاول في البداية أن نجيب عن السؤال الأول ، ثم نشرع بعد ذلك في تفسير معني التوكل الذي أساء الكثيرون فهمه .

الواقع أن الإسلام يحث في أكثر من موضع ، وأكثر من مناسبة ، علي العمل والسعي لكسب العيش ، وينهي عن الكسل ، والخمول ، والدعة ، وهناك الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الصحيحة في هذا المعني . قال تعالي : « وجعلنا النهار معاشاً ..»[٢٢] .

---

(٢٠) يشير إلي الآية الكريمة : « وعاداً ، وثموداً ، وأصحابَ الرس ، وقروناً بين ذلك كثيراً » . آية ٣٨ من سورة الفرقان .

(٢١) احياء علوم الدين المجلد الرابع ص ٢٤٥ .

(٢٢) آية ١٠ من سورة النبأ .

أي وجعلنا النهار ، لتعملوا فيه ، وتكسبوا عيشكم في حياتكم . وقال أيضاً : ‹‹ لقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا فيها معايش ››(٢٣) ، ‹‹ وآخرون يضربون في الأرض ، يبتغون من فضل الله ››(٢٤) ، أي هناك قوم آخرون يسعون في الأرض ، وينتقلون من بلدٍ إلي بلد ، ومن قُطر إلي قُطر آخر للبحث عن زرقهم ، راجين من الله أن ييسر لهم الحصول علي ما يكفيهم من الطعام ، والشراب ، ومطالب المعيشة(٢٥) . وقال عليه السلام : ‹‹ من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمُّ في طلب المعيشة ›› . فالهمُّ ، والقلق ، وانشغال الفكر بسبب كسب العيش في الحياة تكفر بعض الذنوب التي يرتكبها الإنسان . وقال كذلك : ‹‹ مَنْ طلب الدنيا حلالاً ، وتعففاً عن المسألة ، وسعياً علي عياله ، وتعطفاً علي جاره ، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر ›› . أى مَنْ فى عمل الدنيا بإخلاصٍ ، وكسب عيشه بعرق جبينه ، بالوسائل التي أحلَّها الله – وقد قبل رسول الله يداً تورمت في العمل وقال : ‹‹ هذه يد يحبها الله ورسوله ›› ؛ لأنها تعمل ، وتكد ، وتكسب عيشها . وكان العلماء من المسلمين يعتمدون علي أنفسهم في السعي وراء الرزق ، ويتخذ كل منهم حرفة يجيدها ؛ ليأكل منها لقمة العيش(٢٦) .

ولقد لقي عمر بن الخطاب قوماً لا يعملون من اليمن فقال : ما أنتم ؟ قالوا : متوكلون . فقال : كذبتم ، أنتم متواكلون : إنما

(٢٣) آية ١٠ من سورة الأعراف .

(٢٤) آية ٢٠ من سورة المزمل .

(٢٥) ‹‹ عظمة الإسلام ›› للأستاذ محمد عطية الإبراشي ، الجزء الثاني ، ص ٣١٨ – ٣١٩ مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٦٨م .

(٢٦) كان أبو حنيفة خزازر يتاجر في الحرير ، والخليل بن احمد نحاساً ، كما كان أبو حيان التوحيدي والحسن بن الهيثم نساخين .

المتوكل رجل ألقي حبة في التراب ، وتوكل علي رب الأرباب ››[٢٧] . وهذا هو المعني الدقيق للتوكل علي نحو ما سنعرف فيما بعد : أن تعمل ، وتجد ، وتسعي ، وتبذل أقصي ما تستطيع ، ثم تترك الأمر بعد ذلك كله لله . وعن عمر أيضاً قوله : ‹‹ إني لأري الشاب فيعجبني فأسأل هل له من كسب .؟ فيقال : لا فيسقط من عيني››[٢٨]. فالإسلام ينهي عن الخمول ، والكسل ، ومد اليد للاستجداء وطلب العطاء . يقول النبي (ﷺ) : ‹‹ لأن يأخذ أحدكم حبله علي ظهره فيحتطب خير له من أن يسأل الناس : أعطوه أو منعوه ›› . وقال عليه الصلاة والسلام : ‹‹ التمسوا الرزق في خبايا الأرض ›› بزرعها ، وتصنيع محصولاتها ، واستخراج المعادن من خباياها للانتفاع بها . وقال عمر : ‹‹ ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي : أبيع وأشتري ›› . وقال أبو سليمان الداراني : « ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ، لكن أبدأ برغيفيك فاحرزهما ، ثم تَعبَّد »[٢٨] . فليس من العبادة في شيء أن يقدّم غيرك القوت والطعام ، بل إبدأ أنت أولاً فاحصل علي عيشك بجدك وعملك . وقال مُعَاذ بن جبل : ‹‹ ينادي مناد يوم القيامة : أين بغضاء الله في أرضه .. ؟ فيقوم السائلون في المساجد ››[٢٩] . فكما تكثر القاذورات والجراثيم في الماء الراكد وفي المستنقعات ، كذلك تكثر المفاسد ، والرذائل بين الكسالي ، والخاملين من بني الإنسان[٣٠] . فكيف يمكن

(٢٧) عظمة الإسلام – الجزء الثاني ص ٣٢٠ .

(٢٨) نفس المرجع ، ص ٣٧٥ .

(٢٩) قارن أيضا المرجع السابق ، وكذلك الإمام الأكبر محمود شلتوت ‹‹ من توجيهات الإسلام ›› دار القلم بالقاهرة عام ١٩٦٦م .

(٣٠) دعائم الإسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، لأبي حنيفة النعمان – تحقيق أصف بن علي أصغر فيضي – الطبعة الثانية دار المعارف بمصر عام ١٩٦٥ م .

بعد ذلك أن يقال أن الدين يدعو إليها ؟! وهل عميت أبصارهم عن الآيات الكثيرة التي تحث علي العمل : ((وقل اعملوا فسيري الله عملكم ، ورسوله ، والمؤمنون))(٣١) ، ((إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو أنثي))،(٣٢) ولكل درجات مما عملوا))(٣٣) ((ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ..)) (٣٤) ، ((قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ..))(٣٥) . ((ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس))(٣٦) . ((فالقرآن حينما يذكر الإيمان يذكر العمل الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان ، فليس الأمر مجرد مشاعر ، وإنما هو مشاعر تفرغ في حركة ؛ لإنشاءِ واقع ..))(٣٧) .

والغريب أن الآيات التي تتحدث عن الرزق ، والتي يستند إليها هؤلاء الكسالي واضحة أشد ما يكون الوضوح ، ولا تحتاج إلي تفسيرٍ ، أو تأويل خذ مثلاً قوله تعالي : ((وما من دابة في الأرض إلا علي الله رزقها(٣٨) .. تجد أنها غاية في الوضوح والدقة ، وإن كان

---

(٣١) آية ٩٤ و٥ من سورة التوبة .

(٣٢) آية ١٩٥ من سورة آل عمران وأيضاً آية ٣٠ من سورة الكهف .

(٣٣) آية ١٩ من سورة الأحقاف وأيضاً ١٣٢ من الأنعام .

(٣٤) آية ٣٥ من سورة يس .

(٣٥) آية ١٤ من سورة التوبة .

(٣٦) آية ٤١ من سورة الروم – وقارن أيضاً ٧١ من سورة يس ، وكذلك آية ٧٠ من سورة الزمر وآية ٦٤ من سورة النور وكذلك آية ٢٣ من سورة لقمان وآية ١١٠ من سورة البقرة وآية ١٣٥ من الأنعام وآية ٩٣ من سورة هود .. إلخ إلخ .

(٣٧) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته – سيد قطب ص ١٨٣ الطبعة الثانية ١٩٦٥م مطبعة عيسى البابى الحلبى .

(٣٨) آية ٦ من سورة هود .

الكسالي لا يفهمون منها إلا أنها دعوة إلي الكسل والتقاعد ! فلا يعقل أن يكون ما تقصده الآية الكريمة أن كل حيوان علي الأرض يمكن أن يتسمر في مكانه حتي تنزل قوة من السماء فتفتح فمه وتطعمه ! لكن المعني الذي تقصده بالطبع هو أن ما تأكله الحيوانات موجود في الكون ، في الأشجار وأعالي الجبال ، وعند السفح ، وفي الأنهار وباطن التربة .. إلخ إلخ . ولقد كانت الآية رائعة ودقيقة عندما استخدمت تعبير « ما من دابة » لأن الدابة هي ما يدب ، وما يدب هو ما يسعي ويتحرك ! وهذا أوضح ما يكون عندما يتحدث القرآن عن الإنسان حيث يقول : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه .. »[39] . أي أنه يحث علي السعي والمشي والحركة قبل الأكل : أن تزرع ، وتروي ، وتحصد ، ثم تأكل بفعلك ، وعملك ، وكدك ، لكن يبقي بعد ذلك أنك لا تخلق تربة الأرض التي تزرعها ، ولا ماء المطر الذي تسقي به الأرض ، ولا أشعة الشمس التي تنضج لك النبات .. إلخ ، وإنما ذلك كله عناصر الطبيعة التي خلقها الله رزقاً لك ، فالعناصر موجودة ، وإمكانية الزراعة متوافرة لكن عليك أن تسعي : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعي .. »[40] فالكون غني بالمواد الأولية التي يحتاجها الإنسان في نموه ، وتربة الأرض مليئة بالعناصر التي تفيده في حياته والوسائل التي تساعده علي البقاء والتطور والنمو : « إن هذا لرزقنا ما له من نفاد .. »[41] . والقرآن الكريم يذكر هذا المعني صراحة في كثيرٍ من آياته ، وهو القول بأن الرزق قائم في العناصر

---

(٣٩) آية ١٥ من سورة الملك .

(٤٠) آية ٣٩ من سورة النجم .

(٤١) آية ٥٤ من سورة ص .

الطبيعية ، التي خلقها الله وجعلها متوافرة لبني الإنسان : « وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً .. »[٤٢] : « وما يستوي البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومِنْ كلٍّ تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حِلْيَة تلبسونها .. »[٤٣] لاحظ أن الآية تنص صراحة علي استخراج الحلي فليس هناك تقاعد ، وتكاسل ، بل عمل وكد لاستخراج الرزق من عناصر الطبيعة ، فالله هو الذي خلق البحار والأنهار : «وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم »[٤٤] فكأن المقصود بالرزق هنا ما تنتجه العناصر الطبيعية التي خلقها الله للإنسان ، وتركه يبحث عنها ، ويؤلف بينها ، ويستفيد من اكتشافها واستخدامها : فالماء في الأنهار رزق ، والتربة الخصبة رزق ، والنفط في باطن الأرض رزق ، والذهب في المناجم رزق ، والشمس التي تساعد علي نمو النبات ، والهواء وما يحتوي عليه من أوكسجين ، والأسماك واللآليء ، والأصداف في جوف البحر – ذلك كله رزق من الله : « قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل : الله »[٤٥] . « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض »[٤٦] . كلا ! ولاحظ أن الآية تتساءل هل من خالق . أي أن المقصود هنا هو عملية « خلق » العناصر الطبيعية التي تساعد الإنسان علي البقاء ، واستمرار الحياة ، وازدهارها إنْ هو عرف كيف يستخدمها ، ويستغلها علي أكمل وجه ممكن .

---

(٤٢) آية ١٤ من سورة النحل .

(٤٣) آية ١٢ من سورة فاطر .

(٤٤) آية ٣٢ من سورة إبراهيم .

(٤٥) آية ٢٤ من سورة سبأ .

وهناك أيضاً منْ يحتج علي ترك العمل والقعود والتكاسل بقول النبي الكريم : « لو أنكم توكلتم علي الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطاناً »[٤٧] . وهم يفسرون ذلك بأننا لو ألقينا أثقلنا علي الله ، وتركنا أسباب السعي في معاشنا ، وكسبنا ، ومأكلنا لرزقنا كما يرزق الطير ! ويري الأستاذ الإمام محمد عبده أن ذلك تفسير بالغ الخطأ للحديث ، إذ لو صحّ ما يذهبون إليه لقال النبي : « لرزقكم كما يرزق الطير ، تلبث في أعشاشها ، وتفتح أفواهها فتصبح خماصا ، وتمسي بطاناً ! » . فالحديث نفسه يقول أن الطيور « تغدو وتروح » تغدو جائعة ، وتروح وقد شبعت ، وفي هذه الحركة سعي في تحصيل الطعام وفقاً للغريزة التي أودعها الله فيها فألهمها معرفة الأماكن التي فيها أقواتها ، كما ألهمها السعي إلي تلك الأماكن ؛ لتصيب أقواتها منها ، فهي تعمل بإرادتها وفقاً لذلك الشعور الذي أودعه الله فيها ، وبهذا المعني ينبغي أن نفسر التوكل ، والعقل للإنسان بمثابة الغريزة عند الطيور ، ولسنا أناساًحقاً إلا إذا عشنا علي وفاق مع العقل[٤٨] .

(٤) اعقلها .. وتوكل .. !

هنا نصل إلي السؤال الثاني الذي سبق أن طرحناه وهو : ما التفسير الصحيح لمعني التوكل .. ؟ وكيف نفهم الآيات الكثيرة التي

---

(٤٦) آية ٣ من سورة فاطر .

(٤٧) أي أنها في الغدو تكون جائعة وهى فى الرواح تكون قد شبعت ، ولعلك تلاحظ الحركة والسعي والنشاط بين الغدو والرواح !

(٤٨) « رائد الفكر المصري : الإمام محمد عبده » للدكتور عثمان أمين ص ١٢٥ .

تدعونا إلي التوكل علي الله .. ؟؟[٤٩] .

لقد رأينا كيف يحث الإسلام علي العمل ، والسعي في طلب الرزق ، فالإنسان عليه أن يستعمل ملكاته العقلية استعمالاً مشروعاً باحثاً عن أفضل الوسائل لغايات فعّاله ، وبعد أن يتخذ الأسباب يناجي ربه بسره : «أني قد أتيتُ بما في استطاعتي علي قدر ما وهبتني ، وما بقي مما لا أعلم ، ولا أملك فهو في يدك ، فأعني بقدرتك ولا تحرمني معونتك ..» ثم يمضي في عمله : فالتوكل إذن ، ليس شيئاً آخر غير الثقة بالله مع استعمال العلل الطبيعية من أجل غايات ترسمها عقولنا : «فلا نكونن متوكلين حق التوكل حتي نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا إلي بلوغ الغاية من أعمالنا ، وأن نجيد الاستعمال حتي لا يقع لنا ضلال في طرق الوصول إلي المقصود..»[٥٠] . فالتوكل مشتق من الوكالة : يقال وكّلَ أمره إلي فلان ، أي فوضه إليه ، واعتمد عليه [٥١] . أما التواكل فهو التخاذل ، والتكاسل ولهذا يقال في اللغة «تواكل القوم أي اتكل بعضهم علي بعض .. والمتواكل الضعيف الذي يتكل علي غيره»[٥١] . أما التواكل فهو التخاذل والتكاسل ولهذا يقال في اللغة «تواكل القوم أي اتكل

---

(٤٩) يتحدث القرآن الكريم عن التوكل فى كثير جداً من الآيات . قارن مثلاً آيات ١١ ، و ٢٣ من المائدة ، وآيات ١٢٢ ، و ١٥٩ و ١٦٠ من آل عمران وآية ٥٨ من الفرقان و ٤٩ من الأنفال ، و٥١ من التوبة ، و ٦٧ من يوسف و ١١ ، و١٢ من إبراهيم وآية ٣٨ من الزمر وآية ١٣ من التغابن ، و ٣ من الطلاق ، و٨١ من النساء ، و٦١ من الأنفال ، و١٢٣ من سورة هود .. إلخ إلخ .

(٥٠) تفسير سورة العصر للإمام محمد عبده ص ٩٠ (نقلاً عن رائد الفكر المصري ص ١٢٦) .

(٥١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي المجلد الرابع ص ٢٢٣ .

بعضهم علي بعض .. والمتواكل الضعيف الذي يتكل علي غيره ››[٥٢] .
ويقول الإمام الغزالي : ‹‹ قد يظن أن معني التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط علي الأرض كالخرقة الملقاة ، أو كاللحم علي الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أثني علي المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ›› [٥٣] . فالتوكل إذن ، مشروط بالسعي ، والعمل ، والحركة ، وإلا كان باطلاً ، ولهذا يستطرد الإمام الغزالي فيقول : ‹‹ كما أن الطعام إذا كان موضوعاً بين يديك ، وأنت جائع محتاج ، ولكنك لست تمد إليه اليد ، وتقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه سعي وحركة ، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك علي أسافله ، فهذا جنون محضٍ ، وليس من التوكل في شيء . فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالي فيك شبعا دون خبز ، أو يخلق في الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكاً ؛ ليمضغه لك ويوصله إلي معدتك فقد جهلت سنة الله تعالي . وكذلك لو لم تزرع الأرض ، وطمعت في أن يخلق الله نباتاً من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع ولا جماع كما وَلَدَتْ مريم عليها السلام ، فكل ذلك جنون محض ‹‹ وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه .. ››[٥٤] .

ويذهب الإمام محمد عبده إلي أن الله لم يأمرنا أن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه ، فإن مثل هذا لمن سخف الرأي ، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا خلاق لهم ولا دين ، وهذا الموقف التعس نتيجة لتأويل

---

(٥٢) المعجم الوسيط .

(٥٣) أحياء علوم الدين للإمام الغزالي ص ٢٥٢٠ من طبعة دار الشعب بالقاهرة .

(٥٤) نفس المرجع السابق .

فاسد وتحريف للعقيدة ، ولطالما ارتفع صوت الأستاذ الإمام معلناً أن الإسلام يخالف الجبر ، وأن القرآن قد أيد الحرية بصراحة ، ومن غير مواربة في نحو ستٍ وأربعين آية(٥٥) . وأقوال النبي وسلوكه وتصرفاته تشهد كلها بما كان له من إيمان لا يتزعزع بحرية الأفعال . أفنحن بحاجة إلي أن نفيض القول في نشاطه ، وفي مثابرته ، وجده ، وعلو همته ؟. ((هل نقل عنه إنه اتكأ يوماً علي وسادته ، واكتفي بالاستسلام للقدر في إتمام دعوته قائلاً : الذي كفل لي النصر يكفيني التعب، وضمان الله لإعلاء ولإعلان كلمة دينه تغنيني عن النَصَب ! كلا ، بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً(٥٦) فالدين يحثنا علي العمل ، والسعي ، والاجتهاد ، وبذل أقصي ما نستطيع ثم التوكل علي الله فيما لم نستطع عمله ، أي أن التوكل يأتي تتويجاً للعمل وليس بدلاً له : ((فإذا عزمت فتوكل علي الله ، إن الله يحب المتوكلين))(٥٧) . فالآية تقول ((إذا عزمت)) أي إذا عقدت النية وهممت بالشروع في عمل ما ، وأعدت خططه ووسائل تنفيذه عندئذٍ توكل علي الله ، فالتوكل لا يعني الكسل ، والإهمال ، والتراخي ، والوخم بدعوى أن العمل لا يغني شيئاً ، ولا يجدي فتيلاً ، يقول الإمام الغزالي : ((ليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة : كالنوم في الأرض المسبخة ، أو في مجاري السيل من الوادي ، أو تحت جدار مائل أو سقف منكسر ، فكل ذلك منهي عنه ، وصاحبه قد يعرض نفسه للهلاك بغير

---

(٥٥) رائد الفكر المصري ص ١٢١ .

(٥٦) المرجع نفسه ص ١٢٢ .

(٥٧) آية ١٥٩ من سورة آل عمران .

فائدة ››[٥٨] . ونسي أن الله تعالي يقول : ‹‹ ولا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة ››[٥٩] فأنت إذا عملت ، واجتهدت ، وأخذت حذرك أثناء العمل ، واتخذت الاحتياطات اللازمة ضد الأضرار المحتملة الوقوع ، فإن ذلك لا يعني أنك تركت التوكل ، بل علي العكس ، إن التوكل لا يصلح إلا مع العمل ‹‹ ... نِعْمَ أجر العاملين ، الذين صبروا وعلي ربهم يتوكلون .. ››[٦٠] أما الصبر علي أذي الحيات والسباع والعقارب وترك دفعها فليس من التوكل في شيء ، إذ لا فائدة فيه . كما أن التوكل من ناحية أخري لا ينقص إذا أغلقت باب منزلك عند الخروج خوفاً من اللصوص ، ولا بأن تعقل الدابة خشية فرارها ؛ لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله ، ولذلك قال النبي عليه السلام للأعرابي لما أهمل ربط بعيره قائلاً : ‹‹ إنني توكلت علي الله ›› – قال له الرسول : ‹‹ اعقلها وتوكل››.. أي اربط بعيرك جيداً في البداية ، ثم توكل علي الله بعد ذلك ، والقرآن نفسه يقول : ‹‹ خذوا حذركم ... ››[٦١] . وقال : ‹‹ وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة.. ››[٦٢] . وقال لموسي : ‹‹ فأسر بعبادي ليلاً .. ››[٦٣] والتحصن بالليل ، كما يقول الإمام الغزالي ، اختفاء عن أعين الأعداء[٦٤] . ‹‹ فإن قلت : فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو ، وأغلق بابه حذراً من اللص ، وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ،

---

(٥٨) إحياء علوم الدين المجلد الرابع ص ٢٤٠ مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة .

(٥٩) آية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٦٠) آية ٥٨ ، ٥٩ من سورة العنكبوت .

(٦١) آية ٧١ وأيضاً ١٠٢ من سورة النساء .

(٦٢) آية ٦٠ من سورة الأنفال .

(٦٣) آية ٦٢ من سورة الدخان .

(٦٤) الإمام الغزالي : إحياء علوم الدين ، المجلد الرابع ص ٢٤٠ .

فبأي اعتبار يكون متوكلاً ؟ فأقول : يكون متوكلا بالعلم والحال ››[٦٥] . فالتوكل كما يقول الجرجاني هو : ‹‹الثقة بما عند الله ، واليأس عما في أيدي الناس .. ››[٦٦] والتوكل في حقيقة أمره ، ولا سيما عند عظماء الصوفية ، مقام وراء الزهد . قال جعفر الحداد وهو شيخ الجُنيِّد رحمة الله عليهما ، وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق ، كنت أكتسب كل يوم ديناراً ولا أبيت منه دانقاً ، ولا أستريح منه إلي قيراط ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجُنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته ، وكان يقول : أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي..››[٦٧] .

لكن هل يفيد التحصن ، وأخذ الحذر ، وإغلاق الأبواب .. إلخ – في رد القضاء ؟! وهل يمنع من وقوعه .. ؟ وما المقصود بالقضاء والقدر ؟ وكيف يمكن تفسيرهما تفسيراً عقلياً مفهوماً لا يتعارض مع الدين من ناحية ، ولا يؤدي إلي شلل الحياة الإنسانية ، وتجمدها من ناحية أخري .. ؟! سوف نحاول الإجابة عن هذه الأسئلة في الفقرتين القادمتين ؛ لننتهي منهما ، أى أن القضاء والقدر لا يعنيان شيئاً آخر سوي العلم الإلهي ، أو علم الغيب علي حد تعبير القرآن الكريم .

(5) أفَرارٌ من قدر الله ... ؟ !

هناك فكرة غريبة شائعة عن القدر قد لا ينتبه إليها كثيرٌ من الناس ، وهي أنه يرتبط دائماً بالمصائب ، والكوارث ، والأحزان ، والآلام

(٦٥) نفس المرجع السابق ص ٢٤١ .

(٦٦) التعريفات للجرجاني – (مادة توكل) .

(٦٧) الإمام الغزالي : أحياء علوم الدين المجلد الرابع ص ٢٣١ .

فهو لا يجلب خيراً أبداً ، ولا يرد ذكره مع السرور والفرح والمتعة والبهجة ! وفي هذا المعني يقول « ريتشارد تيلور .. R.Taylor » إن الإنسان يميل إلي التواكل والاستسلام للقدر ، أو الفكرة القدرية (Idea of Fatalism) في حالات الضعف ، والألم ، والمرض ، ووفاة عزيز ، أو فقدان شيء نفيس ، أو الحرمان ، أو الثكل .. إلخ .. إلخ (٦٨) . « ففي هذه الحالات تخالجنا فكرة القدر ، أو الاستسلام للقدرية ، وهي الفكرة التي تعني أن ما حدث كان لابد أن يحدث ولا رادّ لقضائه ، فليس في استطاعتنا منعه أو دفعه . ذلك لأننا نجد أنفسنا في بعض الأحيان في ظروف ليست من صنعنا ، ظروف يرتبط بها وجودنا نفسه ، عندئذ تغمرنا فكرة القدر ، وكثيراً ما يكون فيها العزاء بالنسبة لنا (٦٩).

ولا شك أن الفكرة التي يسوقها « تيلور » هنا دقيقة فنحن بالفعل أميل إلي الإيمان بالقدر في حالات الضعف والألم والفشل ، وأبعد ما نكون عنه في حالات الصحة ، والسعادة ، والنجاح، والتفوق ، إذ تُرانا ننسب الحالات الأخيرة إلي أنفسنا ! ولقد عبر أبو نواس عن هاتين الحالتين أصدق تعبير : فقد عاش ما عاش « طالب لذة » متهالكاً علي مواقعتها ، مدفوعاً إليها بجنون الشباب ، وفورة الصبا ، وأنت تراه وسط اللذات ينشد ويترنم :

يا ناظراً في الدين ما الأمر لا قَدْرٌ صحّ ولا جَبْرُ !

---

(٦٨) يصدق ذلك علي الفرد كما يصدق علي الجماعة : فلا شك ان المجتمعات المتخلفة التي تعاني من المرض والفاقة ، وتحاصرها الالام والمشاكل من كل صوب ، اقرب إلي الاستسلام لفكرة القدر والتواكل ، من المجتمعات المتقدمة التي اخذت بأسباب المدنية وعرفت وسائل النجاح والتفوق والتقدم .

(69) Richard Taylor : Metaphysics P. 54 (Foumdations of Philosophy Series - 1964) .

لكنه حين ينقلب عليه الخليفة هارون الرشيد في أخريات أيامه نراه ينشد وهو في سجن «المطبق» ببغداد :

ليس للإنسان إلا ما قضي الله وقدر ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر

وكأن مجونه ، وشرابه وتهالكه علي اللذات أمور لم يكن له حيلة فيها ، فهي بقضاء الله وقدره !

وكلنا أبو نواس ! فنحن في حالات النجاح والتفوق ، ولحظات السعادة والمتعة ، والشعور بالصحة والعافية والإحساس بالقوة ، لا نعرف شيئاً عن القدر : ومن منا راجت تجارته ، أو تفوق في عمله ، أو اجتاز مأزقا ، أو تغلب علي صعوبة ، أو تقدم في أمر من أمور الدنيا علي أية صورة من الصور ، إلا ونسب النجاح والتفوق إلي ذكائه هو ، وتفوقه هو ، وكفاءته وقدراته ومهارته «وفهلوته» ! وإلا «فلماذا لا يتدخل القدر مع الناس مثلاً بحيث يأتي أول الشهر فيمتنع أحدهم عن صرف راتبه ؟ مَنْ الذي امتنع أول الشهر عن الذهاب لصرف راتبه ؟ لا أحد بالطبع»[٧٠] هنا لا يتدخل القدر قط لكنك تتعرف عليه في مواضع الأحزان والآلام حين تدلهم الحوادث ، أو تقع النوائب والكوارث ، أو حين يجد المرء نفسه في مأزق لا يستطيع الإفلات منه ، أو حين تبور تجارته .. إلخ فإن ذلك كله لا يرجع إلي إهماله ، أو كسله ، وتراخيه ؛ وإنما بسبب «القدر» أو «الحظ» أو «النصيب» أو «المكتوب» ؛ أو لأن الله أراد ذلك ، وقضي به ولا حيلة لنا في رد قضائه : فتراه يقول مع شاعرنا العربي :

---

(٧٠) الشيخ محمد متولي الشعراوي : «القضاء والقدر» ص ٥٤ – ٥٥ دار الشروق بالقاهرة عام ١٩٧٥ م .

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ولعلك تلاحظ أن القدر والكدر مترابطان ! إذ يصعب أن يأتي القدر بخير فهو خاص بالكدر والهم والكرب العظيم !

علينا الآن أن نحاول الإجابة عن السؤال الذي سبق أن طرحناه . وهو : هل العمل يرد من قدر الله ؟ إذا كان مقدراً لي أن أمرض فما قيمة الذهاب إلي الطبيب ، وتناول الدواء ، والمواظبة علي العلاج .. ؟ هل استخدام الدواء يعني أننا نحاول الفرار من قدر الله .. ؟! سوف نجيب من ناحية : ‹‹ كل واحد يقول : مادام الله قد كتب عليَّ فماذا يكون عملي أنا.. ؟! يكون ردنا عليه : وما الذي أدراك .. ؟ هل قد أطلعت علي اللوح المحفوظ فعرفت نفسك أنك مكتوب من أهل الشقاء .. ؟! مَنْ الذي قال لك ذلك.. ؟! ›› (٧١) .

وعلي الرغم من أن هذا الرد مفحم إلا أنه لا يفسر لنا معني ‹‹ القضاء والقدر ›› وكيف يمكن التوفيق بين وجوده ، وبين حرية الإرادة البشرية ؟ كيف يمكن أن نقول إن الإنسان حر مع أن الله قد قدَّر عليه كذا وكذا ، وكتب عليه أن يفعل كيت وكيت .. ؟! قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة نسوق أمثلة من حياة النبى ﷺ وأصحابه تبيَّن لنا كيف أن إيمانهم بالقدر ، وتوكلهم علي الله لم يمنعهم من العمل ، واتخاذ الأسباب المناسبة لكل حال : فقد تداوي النبى ﷺ غير مرة من العقرب وغيرها ، وكان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء . وقال عليه السلام : ‹‹ تداووا ، فإن الله خلق الداء والدواء .. ›› . وسُئل عن

---

(٧١) نفس المرجع السابق ، ص ٥٧ – ٥٨.

الدواء : هل يرد من قدر الله شيئا .. ؟ فقال : هو من قدر الله ! »» ، وقد روي أبو هريرة قوله ، عليه الصلاة والسلام ، «« لكل داءٍ دواء »» . كما أنه أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي ، وقطع لسعد بن معاذ عرقاً ، أي فصده [٧٢] . وكوي سعد بن زرارة[٧٣] . وقال لعلي وكان رمد العين : لا تأكل من هذا (يعني الرطب) وكُلْ من هذا ، فإنه أوفق لك[٧٤] . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين : تأكل تمراً وأنت أرمد .. »»[٧٥] .

خذ مثلاً آخر علي أن الكسب لا يتنافي مع الإيمان بالقدر ، والتوكل علي الله من حياة الصدّيق لما بويع بالخلافة أصبح آخذاً الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ، ودخل السوق ينادي حتي كرهه المسلمون ، وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة .. ؟! فقال : لا تشغلوني عن عيالي ، فإني إن أضعتهم كنتُ لما سواهم أضيع ، حتي فرضوا له قوت أهل بيته من المسلمين، ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق ممن يؤمنون بالقدر ، أو لم يكن في مقام المتوكلين : فمن أولي بهذا المقام منه ؟[٧٦] .

خذ مثلاً آخر ، وأخيراً ، ما روي عن عمر بن الخطاب ، وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلي الجابية ، بلغهم الخبر أن به موتاً عظيماً ، ووباءً ذريعاً فافترق الناس

---

(٧٢) من حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف .

(٧٣) رواه أبو داود والترمذي .

(٧٤) قارن في ذلك كله الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين المجلد الرابع ص ٢٤٤ .

(٧٥) نفس المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(٧٦) المرجع نفسه ص ٢٣١ .

فريقين : فقال بعضهم لا ندخل على الوباء ، فنلقي بأيدينا إلي التهلكة ، وقالت طائفة أخري بل ندخل ، ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله ، ولا نفر من الموت فنكون كمن قال القرآن فيهم : « ألم تر إلي الذين خرجوا من ديارهم ، وهم ألوف حذر الموت »(٧٧) . فرجعوا إلي عمر فسألوه عن رأيه ، فقال نرجع ، ولا ندخل علي الوباء . فقال له المخالفون في رأيه : أفراراً من قدر الله يا عمر .. ؟! فأجاب : نعم ! نفر من قدر الله إلي قدر الله ! ووافقه عبد الرحمن بن عوف فرجعوا بالناس(٧٨) .

(٦) العلم الإلهى ... وفلسفة القضاء والقدر :

وصلنا الآن إلي خاتمة المطاف : ما التفسير الصحيح ، في رأينا ، للقضاء والقدر .. ؟ وكيف نوفق بين وجوده وبين حرية الإنسان وإرادته .. ؟ وقبل ذلك كله : ما هو تعريف القضاء والقدر من الناحية اللغوية .. ؟! يقول الجرجاني في تعريفاته : « القضاء هو وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة » أما : « القدر فهو وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها » . أي أن القضاء هو سجل الممكنات منذ الأزل ، أما القدر فهو تحققها بالفعل في العالم الخارجي ، ولهذا نجد الجرجاني يعرف القدر بأنه : « خروج الممكنات من العدم إلي الوجود واحداً بعد واحدٍ مطابقا للقضاء »(٧٩) ، فهما يمثلان خيطاً

(٧٧) آية ٢٤٣ من سورة البقرة .

(٧٨) قصة الطاعون هذه مشهورة في التاريخ الإسلامي ، وقدرواها كثيرون انظر مثلا « العقد الفريد» لابن عبد ربه ، وإحياء علوم الدين للغزالي .. إلخ إلخ .

(٧٩) كتاب التعريفات للعلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني ، مادة قضاء مكتبة لبنان بيروت عام ١٩٦٩ م .

واحداً طرف البداية فيه هو القضاء كشيءٍ ممكن ، وطرف النهاية فيه هو القدر الذي يعني أن هذا الشيء الممكن قد تحقق ، وبلغة الفلسفة فإن القضاء هو الماهية ، والقدر هو تحققها الفعلي ، وعلينا أن نلاحظ جيداً أن هناك طرفان : الأول هو الممكن [القضاء] ، والآخر هو الوجود بالفعل [القدر] ، والممكن لا يخضع لزمان أو مكان ؛ لأنه لم يوجد بعد وكل ما لم يوجد لا زمان له ، ولا مكان ، فهو أقرب إلي الفكرة التي لا يكون لها زمان إلا إذا تحققت ، وأصبحت شيئاً قائماً بالفعل في العالم الخارجي . وهذا الإمكان أو هذا الجانب الفكري أو الروحي هو ما يعبّر عنه الدين تعبيراً رمزياً باسم «اللوح المحفوظ» ، و«قلم القضاء» أو «ممكنات اللوح المحفوظ» ليست شيئاً آخر سوي العلم الإلهي : فالله الخالق اللامتناهي ، صفاته مطلقة ، ومن ثم فعلمه مطلق لا يحده شيء ، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : ﴿ الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ [80] . فهو ﴿ بكل شيء عليم ﴾[81] و ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾[82] . ﴿ يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ [83] . ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء؟! ﴾[84] . ﴿ وسع ربى كل شيء علما : أفلا تتذكرون ؟ ! ﴾[85] فكل ما يحدث في الكون مهما يكن ضئيلا يعلمه الخالق العظيم : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها .. ﴾[86].

وفي استطاعتنا أن نفهم هذه الفكرة ببساطة شديدة ، لو أننا فهمنا فهماً دقيقاً الفكرة التي سبق أن أشرنا إليها في مقالنا عن

---

(٨٠) آية ١٢ سورة الطلاق .

(٨١) آية ٦٢ من العنكبوت .

(٨٢) آية ١١٠ من سورة طه .

(٨٣) آية ١١٠ من سورة الأنبياء .

(٨٤) آية ٢٥٥ سورة البقرة .

(٨٥) آية ٨٠ من سورة الأنعام .

(٨٦) آية ٥٩ من سورة الأنعام .

« الزمــان في القرآن » والتي تذهب إلي أن الله تعـالي لا يخضــع للزمان ، لأنه خالقه ، ولكنه في أن أبدي ، أو حـاضـر سرمدي ، وبالتالي فـلا يوجد عـنده الأقسـام التـقليـدية الثـلاثة للزمان : الماضي والحاضر والمستقبل ، بل كل شيء حاضر أمـامه يتسـاوي في ذلك ما أفعله الآن ، ومـا سـوف أفـعله بعـد أسبوع أو شهـر ، ومـا فعله غـيري من عشـرات السنين ، ومـا يفـعلونه الآن ، ومـا سـوف يفـعلونه بعـد سنوات : كل شيء موجـود في وقتٍ واحد أمـام الحضرة الألهـية : لا زمـان ، وبالتالي لا حـاضـر ، ولا مـاضـي ، ولا مسـتقبل . إن حـياتي كلهـا ليست سـوي شـريط طويل يمتد أمـامه عند مـيلادي حتي وفـاتي ، ويري بالفعل مـا سـوف أقـوم به من أعـمـال حـسنة أو سيـئـة لا لإنه كـتب علي كـذا ، أو فـرض علي أن أفعل هـذا الفـعل أو ذاك ؛ بل لأن كل شيء مـفـتـوح أمامه في كـتاب كـبـير هـو الذي يطـلق عليه القـرآن الكريم عـادة اسم « اللوح المحفـوظ » . وهـذا هـو التفسـير الصـحيح للقضـاء والقدر وهـو لا يعـني سـوي أن الله يعلم مـقدماً ما سـوف أفـعله في المستقبـل [مع مراعاة أن المستقبل هـو كذلك بالنسـبة لي أنا فقط] . فلو أنك نظرت إلي الأحداث من الزاوية الإلهـيـة ، أعـني من زاوية علم الله لهـا منذ الأول ، فـإنهـا في هـذه الحـالة تسـمـي قـضـاء أو ممكنـات ، ولـو نظرت إليـهـا من الزاوية البشرية أعني من حـيث تحققها في العالم الخـارجي بالفعل لكانت قدراً أعني تحـققاً للـمـمكنات . وعلينا أن نلاحظ أن مـعرفـة المستـقبل هـذه لا تكون ممكنة إلا بالنسـبة لله وحده لأنهـا تعني عدم الخضـوع للزمان ، ولكم كان القرآن الكريم دقيـقاً حين احـتفظ لله وحده بعلم المسـتقبل أو ما يسميه بعلم الغيب : ﴿وعنــده مفاتــح الغيب لا يعلمها إلا هو ..﴾(٨٧) . فهـو ﴿ عـالم الغيـب والشهـادة ﴾(٨٨) . والآية تجـمـع بعـمق شـديد بين

---

(٨٧) آية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٨٨) آية ٤٦ من سورة الزمر وقارن أيضا آية ٢٢ من سـورة الحشر وكذلك آية ١٨ من سورة التغابن .

الفكرتين معاً : أي أن الله ، سبحانه ، يعلم أفعال العباد وأحداث الكون ، وهو ما تسمونه أنتم بالمستقبل أو الغيب لكنه عند الله حضور وشهادة . ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحداً .. ﴾[٨٩] . دعوة قوية لفهم العلم الإلهي ، ولطمة شديدة لكل مشعوذ ودجال يوحي للناس أنه مطلع علي المستقبل أو أنه بالغيب عليم ! ، بل هو يسخر سخرية مريرة من هؤلاء المحتالين ، ويستنكر بشدة كل ادعاء من هذا القبيل لأنه ادعاء بمشاركة الله عز وجل في صفة إلهية لا يتصف بها بشر ﴿ أعنده علم الغيب فهو يري .. ؟ ﴾[٩٠] . ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون .. ﴾[٩١] . بل لابد أن يكون شعار الجميع : ﴿ لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب .. ﴾[٩٢] . ﴿ قل لا يعلم مَنْ في السموات والأرض الغيب إلا الله ..﴾[٩٣] . ﴿ فقل إنما الغيب لله ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾[٩٤] . لأن العلم بالغيب من صفة الموجود الكامل الذي لا يخضع لزمان ، أعني ليس عنده مستقبل ، بل ما نسميه نحن بالمستقبل هو حاضر عنده ! ومن ثم لا يشترك معه أحد من العباد في هذه الصفة ، وإلا لكنا نصفه بعدم الخضوع للزمان ! ولهذا فإن القرآن يطلب من النبي أن يعلن هذه الحقيقة صراحة : ﴿ ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ..﴾[٩٥] . ولكي يدعم

---

(٨٩) آية ٢٦ سورة الجن .

(٩٠) آية ٣٥ سورة النجم.

(٩١) آية ٤١ من سورة الطور وآية ٤٧ من سورة القلم .

(٩٢) آية ١٠٩ من سورة المائدة ، وأيضاً ١١٦ وكذلك آية ٨٧ من سورة التوبة ، وأيضا آية ٤٨ من سورة سبأ .

(٩٣) آية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٩٤) آية ١٤ من سورة سبأ .

(٩٥) آية ٥١ من سورة التوبة .

القرآن هذه الخاصية الآلهية ، وينفيها عن كل موجود آخر غير الله ، فإنه ينبهنا إلي أن علم الغيب ليس محالاً علي الإنسان وحده ، بل إن الجن نفسه لا يستطيع أن يصل إلي هذه المعرفة ، فها هم في خدمة سليمان الذي يموت وهو يستند إلي عصاه لكنهم يستمرون في عملهم ، ولا يدلهم علي موته إلا حشرة صغيرة ضئيلة ! وهي صورة رائعة لنفي العلم بالغيب عن الجن ! ﴿ **وما دلَّهم علــى موته إلا دابةُ الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾(٩٦) ولعلك تلاحظ وصفه للعمل الذى يقومون به بأنه كان عذاباً مهيناً يود الجن التخلص منه بأسرع ما يمكن .. !

بقي سؤالان : الأول : لو صحَّ وكان القضاء هو ممكنات الأزل ، والقدر هو تحققها في الزمان فلماذا إذن يقول القرآن الكريم صراحة ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ..** ﴾(٩٧) . ألا تدل هذه الآية الكريمة علي أن هناك « مكتوباً » مسجلاً هو الذي يصيب الإنسان ، وليس مجرد ممكنات تخرج من القوة إلي الفعل .. ؟ ألا تعمل هذه الآية علي نسف هذا المقال من ألفه إلي يائه بضربة واحدة ؟! وجوابنا ببساطة شديدة هو أن الآية تدعيم للمقال ، وليست هدماً له ، فهي في صفه وليست ضده . إننا في الواقع كثيراً ما نقرأ آيات القرآن مسرعين ، ثم نفسرها كما نشاء ! وسوف اكتفي بأن أنقل هنا قصة نزول هذه الآية كما يرويها القرطبي : « قال النبي للجد بن قيس أخي بني سلمة لما

---

(٩٦) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي المجلد الثامن ص ١٥٩ – ١٦٠ دار الكتاب العربي بالقاهرة .

(٩٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد السابع ص ٢٠٣ .

أراد الخروج إلي تبوك : يا جد ، هل لك في جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء ›› فقال الجد : قد عرف قومي أني مغرم بالنساء، وأني أخشي إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن ، فلا تفتني وأذن لي في القعود وأعينك بمالي فنزلت الآية ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ، ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا ، وأن جهنم لمحيطة بالكافرين . أن تصبك حسنة تسؤهم وأن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ (التوبة : ٤٩ ـ ٥٠) - أي احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم فلم نخرج للقتال : ‹‹ ويقولوا ›› أي عن الإيمان ‹‹ وهم فرحون ›› أي معجبون بذلك ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي ما كتب لنا في كتابه [القرآن] من أنا إما أن نظفر فيكون الظفر حسني لنا ، وإما أن نُقْتَل فتكون الشهادة أعظم حسني لنا . ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده ، أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون .. ﴾ والتربص يعني الانتظار ، والمراد بالحسنيين : الغنيمة والشهادة ››[٩٨] . فالمقصود بالمكتوب في الآية الكريمة خلاف ما يفهمه الناس تماماً ؛ لأن المعني المراد هو ما كتبه الله في القرآن من أن المجاهدين إذا انتصروا كانت لهم الغنيمة وإذا قُتلوا كانت لهم الشهادة ، وفي الحالتين لهم الحسني ! فليس هنا شيء علي الإطلاق عن المكتوب بمعني الأمر أو القضاء كما يظن الكسالي ! وينقل القرطبي عن عبد الرحمن بن المهدي قول : ‹‹ العلم والقدر والكتاب سواء . ثم عرضت كلامه علي يحيي ابن سعيد فقال : لم يبق بعد هذا

(٩٨) آية ٦٦ من سورة النساء وقارن : ‹‹ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ›› للزمخشري ص ٥٣٩ الجزء الأول .

قليل ولا كثير..»[٩٩] . فها هنا توحيد للقدر مع العلم الإلهي والكتاب !

وهناك آية أخري يتجاهلها أنصار « المكتوب » مع أنها تهدم زعمهم تماماً وهي قوله تعالي : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم ، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ... ﴾[١٠٠] وسبب نزولها ما روي عن ثابت بن قيس بن شماس ، وتفاخره مع رجل يهودي فقال له اليهودي : والله لقد كتب علينا أن نقتل أنفسنا [بعد عبادتهم للعجل] فقتلنا وبلغت القتلي سبعين ألفاً . فقال ثابت والله لو كُتب علينا أن أقتلوا أنفسكم لفعلنا[١٠١] . فنزلت الآية تشجب النفاق ، وتقول أنا « لو كتبنا عليهم » ما فعلوا .. ! إلي هذه الدرجة يؤكد القرآن حرية الإرادة وينفي الجبر والمكتوب ! .

السؤال الثاني : الذي نود أن نختم به هذه الدراسة هو : إذا كنا سنوحد بين العلم الإلهي ، وبين القضاء والقدر بحيث يكون المعني هو أن الله يعلم مقدما ما سوف أفعله في المستقبل - ألا يكون في هذا العلم الإلهي جبر وإكراه علي أفعال معينة .. ؟ فما دام الله يعلمها فلابد لها أن تحدث ، ومعني ذلك أنها ستحدث طوعاً أو كرهاً ولا دخل لي فيها ، فكأننا نعود مرة أخري إلي التسليم بالفكرة الشائعة عن القضاء والقدر .

وجوابنا من زاويتين الأولي هو أن نتساءل « هل العلم الألهي صفة جبر .. ؟ كلا .. العلم ليس صفة جبر لكنه صفة انكشاف فقط ..

---

(٩٩) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ، المجلد الخامس ص ٢٦٩ - ٢٧٠ دار الكتاب العربي بالقاهرة عام ١٩٦٧ .

(١٠٠) الشيخ محمد متولي الشعراوي « القضاء والقدر » ص ٥٩ دار الشروق القاهرة ١٩٧٥ م .

تنكشف الأشياء علي ما هي عليه بغير جبر أو إكراه[١٠٢] . فليس المقصود بالعلم الإلهي حدوث أشياء معينة كرها وإنما انكشاف ما في اللوح المحفوظ من ممكنات أزلية بحيث تنتقل إلي عالم التحقق الفعلي ، وهذا الانتقال من عالمين : عالم الأزل حيث كانت ممكنات وعالم الزمان حيث تحققت ، هو ما نعنيه بالقضاء والقدر .

والثانية هي ذلك المثل الذي ضربه الفيلسوف الأمريكي «وليم جيمس» ؛ ليوضح به أن العلم الإلهي لا يعني إكراه الإنسان علي أفعال معينة وهو مثال بطل العالم في الشطرنج يلاعب شخصاً ساذجاً مبتدئاً في هذه اللعبة . بدهي أن بطل العالم هذا يعلم جميع الحركات الممكنة التي يمكن أن يقوم بها الشخص إذا ما وقف في الموقف الفلاني ، وما هي النقلات التي سيقوم بها لقطع الشطرنج في هذا الموقف ، أو ذاك : لكن «علمه» هذا لا يجبر هذا الشخص المبتديء علي أن يفعل كذا أو كيت ، ولا يأمره بأن يحرك القطعة الفلانية بالطريقة الفلانية .. إلخ إنه لا يتدخل بعلمه علي الإطلاق في فعل ذلك الشخص الآخر ! كذلك ، مع الفارق بالطبع ، لا يتدخل العلم الإلهي علي الإطلاق في أفعال البشر ، إن الله يعلم مقدما ما الذي ستفعلونه ، وسوف يحاسبكم عليه لأنكم أحراراً وعليكم وحدكم تقع تبعة هذه الحرية ! .

***

التطــرف الــدينى ...!

متي يكون الإنسـان متدينا فحسب ، ومتي يكون متديناً ومـتطرفاً في آن معـاً ؟! بمعني آخر ماذا يقصد بتعبير «التطرف الديني» الذي ملأ حياتنا الثقافية في الآونة الأخيرة ؟! لأستاذنا الكبير الدكتور زكي نجيب محمود جواب رائع عن هذا السؤال من الأهمية بما كان أن أعرضه عليك ، صديقي القاريء ، ولك بعد ذلك أن تمعن فيه النظر ، ثم تكون لنفسك رأياً خاصاً في هدوء وبغير تطرف» !

يبدأ أولاً بالتفرقة بين طرفين هامين هما : «الدين» كما هو قائم في الكتب السماوية من ناحية ، و «المتدين» بذلك الدين من ناحية أخري ، فبينما الكتاب واحد فإن المتدينين به كثيرون ، وليس هو من الأمور الشاذة في طبيعة الناس أن يختلفوا في طريقة فهمهم لنص واحد قرأوه . وهذا هو ما حدث للمسلمين ، كما حدث لغيرهم ، فهم متفقون علي الكتاب الكريم ، لكنهم مختلفـــون في فهمهم لبعض آياته ، ومن هنا نشأت المذاهب المتعددة ، ومن ثم يكون معني التطرف أن يأخذ المسلم بطريقة معينة في الفهم ، أو بمذهب معين ، ثم يعلن أنه هو وحده الصحيح ، وقد أخطأ الآخرون ! ولو وقفت المسألة عند هذا الحد لهان الأمر ، لكنه ينقلب «متطرفاً» إذا هو أراد أن يحمل الآخرين «بالقوة» - كائنة ما كانت صورة القوة - علي مشاركته فيما اعتقد !

وينتهي مفكرنا الكبير من تحليله لمفهوم التطرف ، إلي أن هناك أربع خصائص للمتطرف في مجال الدين - أو في أي مجال غير الدين هي :

أولاً : سمة أساسية للتطرف – وهي سمة تؤخذ عليه – أن يقوم بإرهاب الآخرين لإرغامهم علي قبول ما يدعو إليه هو وزمرته ، وفي هذا الإرهاب يكمن جوهر التطرف ، فليست المسألة أنه يختار لنفسه وجهة نظر يري الأفكار والمواقف من خلالها ، وإنما المسألة أنه يريد أن يرغم الآخرين « بالقوة » علي الأخذ بها وهو يضرب مثلاً بالخوارج ، في التاريخ الإسلامي . فقد كانت وجهة نظر تخلو مما يؤخذ عليهم ، ومع ذلك فقد نفرت منهم الأمة الإسلامية ، لماذا ؟! لأنهم كانوا يلجأون إلي القسوة العنيفة إرهابا لكل مَنْ وقعت عليه أيديهم حتي يوافق علي وجهة نظرهم ، وإذا لم يفعل قتلوه بأفظع صور القتل وأبشعها ، مع أنهم كانوا لا ينقطعون عن عبادة الله لحظة واحدة – ويديمون الصلاة حتي لقد كانوا يعرفون بما كانت تتقرح بها جباههم من السجود من حصباء الأرض العارية !

ثانياً : إذا كان اتخاذ الإرهاب وسيلة لإرغام الخصوم هو العلامة الحاسمة التي تميز المتطرف عمن سواه ، كان محالاً أن يلجأ إليه إنسان قوي واثق بنفسه وعقيدته ، إنما يلجأ إليه من به ضعف في أي صورة من صوره – لماذا .. ؟! لأن الإنسان إذا أحس في نفسه ضعفاً تملكه الخوف من أن يطغي عليه أصحاب المواقف الأخري ! .. وكأي خائف تري المتطرف هلعاً جزوعاً يسرع إلي أقرب أداة للفتك بخصمه إذا استطاع قبل أن تسنح الفرصة أمام ذلك الخصم ! وليس هذا النزوع العدواني مقصوراً علي المتطرف في الدين ، بل هو نزوع نلحظه في كل ضروب التطرف الأخري ، فإذا أحدثت جماعة انقلاباً في بلدها فإنها تنزل علي مَنْ تتوخي فيهم المعارضة – كل ضروب التنكيل والتعذيب تخلصاً منهم أولاً ، وليكونوا عبرة لغيرهم ثانياً !

ثالثاً : لا يتطرف بالمعني السابق إلا مَنْ حمل علي كتفيه رأساً فارغاً وخاوياً ، اللهم إلا أضغاثاً دفع بها إلي ذلك الرأس ، عن فهمٍ أو عن غير فهم ، وذلك لسببين ، فمن جهة لا تكون الأفكار التي شحن بها رأسه علمية بأي معني من المعاني . إذ الفكرة العلمية لا هي تتطلب أن يتعصب لها أحد بالتطرف فيها ولا الأخذ بما يشعر في نفسه بأي حافز إلي ذلك ؛ لأنها ما دامت فكرة علمية فهي مقطوع بصوابها ، وخالية من أي شحنة انفعالية . وهنا ننتقل إلي السبب الثاني : فما يمتليء به رأس المتطرف – ما دام لا يمت إلي العلم بصلة – فلابد إذن ، أن يكون فيه الخصائص المضادة لخصائص العلم: ومنها حرارة الانفعال ، وغموض المعني ، واحتمال أن تتعدد وجهات النظر في فهمها ، وتأويلها ، واغتراف جانب من جوانبها مع إهمال الجوانب الأخري ! وقد لا تكون هذه الخصائص سيئة إذا كان رأس حاويها فيه القدرة النافذة ، وموضوعية النظر ، بحيث إذا تقدم إليه ناقد بنقد شيء مما في رأسه – لم يقابله بالثورة الغاضبة ، وبالتهديد بالقتل ، أو بالضرب بل أنصت إلي نقده بعقل مفتوح ! ولابد أن نذكر في هذا السياق تلك الواقعة التي لا تنسي : عندما ألقي أستاذ جليل – وهو في نفس الوقت واحد من ألمع مفكرينا – محاضرة عامة في الكويت عن « العلمانية » – وتقدم منه « متطرف » ؛ ليقول له ، بعد المحاضرة : « بعد الذي قلته في المحاضرة يحل سفك دمك ! » فأجابه الأستاذ الجليل في هدوء يحسد عليه « شكراً لك يا أخي ! » هكذا ببساطة شديدة يحل المتطرف سفك الدم حتي ولو كان للمفكرين اللامعين !

أين موقف هذا المتعصب المتطرف ضيق الأفق ، من موقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذي كتب يقول « من أصول الأحكام في

الإسلام : البعد عن التكفير وشرح هذا الأصل بقوله «إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل علي الإيمان ، ولا يجوز حمله علي الكفر» ، فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟! وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه ؟! «الإسلام والنصرانية ص ٧٥» هذا هو الإسلام الحق وموقفه من المفكر ، ودفاعه عن حرية الفكر والرأي والتعبير ، ألا فليقرأ كل من له عينان !

رابعاً : السمة الأخيرة ، في رأي مفكرنا الكبير هي أن التطرف في حقيقته الدفينة حالة من حالات التكوين النفسي ، ولا نقول إنه «وجهة نظر» إلا من باب التساهل . إنه في حقيقته الأصلية «حالة نفسية» – تجعل صاحبها علي استعداد لأن يتطرف وكفي ! فليس المهم هو الموضوع الذي يتطرف فيه ، بل المهم في تكوينه هو أن يتطرف للتطرف ذاته . ومن هنا رأينا أمثلة كثيرة للمتطرفين يقفزون بين يوم وليلة من تطرف في فكرة إلي تطرف في الفكرة التي تناقضها ، فتراه اليوم متطرفا في رؤية إسلامية معينة، ثم نراه غداً متطرفاً في رؤية شيوعية ، أو العكس ، مع أن الإسلام والشيوعية ضدان لا يلتقيان !

والخلاصة أن «التطرف الديني» – لأنه حالة نفسية خاصة – ولأن المتطرف شخص ضعيف يحمل رأساً فارغاً وخاوياً – فإنه يلجأ إلي الإرهاب فيما يدعو إليه ؛ ليرغم الناس علي قبوله بالقوة ! ومن ثم فليست وسيلته هي الموعظة الحسنة ، ولا هي الجدل بالحجة تقارع الحجة ، ولا هي الحكمة وتلك الوسائل الثلاثة هي وحدها المذكورة في القرآن الكريم .

* * *

وفي استطاعتنا أن نضيف أسباباً خاصة بالمجتمع المصري إلي جانب هذا التحليل العميق للتطرف الديني بصفة عامة الذي قدمه مفكرنا الكبير ، فلا يمكن لأي منصف أن يتحدث عن التطرف الديني في مصر الآن ، ويتغاضي عما يعانيه المواطن البسيط من « تطرف » سياسي ، واقتصادي ، وثقافي ، واجتماعي .. إلخ إلخ .. ولن نبدأ من « النكسة » التي كانت هي نفسها هزيمة « متطرفة » غير مسبوقة علي هذا النحو المزري - وإنما سنتحدث عن الدخل البسيط الذي يتقاضاه الشاب في بداية حياته العملية ، ثم ما يواجهه هذا الشاب من متطلبات اقتصادية هائلة . وما يصادفه من عقبات في سبيل تكوين أسرة مثلاً ، كثمن المسكن المغالي فيه علي نحو يجعل الطريق إليه مسدوداً مهما فعل الشاب حتي لو اقتصد دخله مدي الحياة ! أليس ذلك تطرفاً ؟! أعني أمراً « يضاد العقل » ! أليس العجز الكامل في « ميزان المدفوعات » عند الفرد بين الدخل ، وما يحتاج إليه للإنفاق يمثل ضرباً من « التطرف » ؟! ثم ما يواجه الشاب من أسعار - آلاف الجنيهات لتأثيث هذا المسكن مع الدخل الضئيل - بل البالغ الضآلة أليس ذلك تطرفاً ؟! الثقافة بصفة عامة ، أو العلم الذي أصبح بغير ثمن . في مقابل الجهل الذي ارتفع ، وارتفع ، وارتفع حتي وصل إلي أعلي درجات السلم الاجتماعي ؛ لأنه يملك المال - أليس هذا وضعاً متطرفاً ؟! الفكر الهزيل الذي يتولي أرقي المناصب ، والفكر الأصيل الذي يتواري وكأنه أصبح جريمة - ألا يعد هذا الوضع متطرفاً ؟!

وفي استطاعتنا أن نواصل ضرب المئات من الأمثلة عن الأسفاف الفني ، وغير الفني عن « اللامعقول » السياسي .. إلخ إلخ باختصار الواقع نفسه أصبح « متطرفاً في لا معقوليته » ومن ثَمَّ فليس

«« التطرف الديني »» مقطوع الصلة بما يحدث في المجتمع بصفة عامة ، وإنما هو جزء منه ، أو انعكاس للتطرف الذي شمل حياتنا كلها ، لو أننا عالجناه لتبخر التطرف الديني من تلقاء نفسه ! .

***

عــن المعجـــزة ...

في ظني أن موضوع المعجزة من الموضوعات الهامة التي ينبغي علينا أن نتبينها بوضوح ، لأنها مصدر خلط لاحد له بين ما يمكن أن يفعله البشر ، أو ما يجوز لهم أن يقوموا به ، وبين الفعل الإلهي الذي يستحيل أن يكون لغير الله بأي معني من المعاني !

ومن هنا كان القرآن الكريم حريصا حين يتحدث عن المعجزات ألا ينسبها إلي بشر أبداً ، وإنما هو يصفها باستمرار بأنها « فعل إلهي » - «قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً علي إبراهيم » ٦٩ الأنبياء - فالأمر الإلهي هو الذى جعل النار تكف أذاها وليس ذلك مما يقدر علي صنعه بشر ! والأمر الإلهي أيضاً هو الذي يُسخّر لسليمان « الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرّنين في الأصفاد » ٣٧ - ٣٨ ص . ويقول سليمان عن نفسه : « يأيها الناس عُلّمان منطق الطير » ١٦ النمل ، فإذن ليس هو ممنْ يعرفون كيف يتحدث النمل أو الطير بقدرته الذاتية ، فليس ذلك في إمكان بشر ، بل هو فعل إلهي يظهره الله علي يد نبيه لإثبات نبوته ! ومن ثم فلا يستطيع إنسان أن يحتج به ، ويقول إنه يمكن أن يفهم منطق الطير ولغته ، أو أن يُسيّر الرياح أو يسخّر الجان !! لأن سليمان نفسه لم يفعل ذلك ، وإنما هو فعل إلهي لإثبات النبوة ، ولما كان عصر النبوات قد انتهي فلابد أن ينتهي معه عصر المعجزات أيضاً !

ويذكر القرآن الكريم كثرة من المعجزات التي قام بها السيد المسيح لكني أرجو منك ، صديقي القاريء ، أن تتأمل معي قليلاً الآيات القرآنية

الآتية ، وأن تلاحظ كيف تكررت كلمة «بأذني» في كل فعل تأكيداً للقول بأن هذا الفعل لم يكن فعلاً بشرياً ، لأن البشر يعجزون عن القيام به : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتى عليك وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ﴾ !! المائدة . وعلي الرغم من أن الآيات الكريمة تبدأ بتذكير عيسي بنِعَم الله عليه وعلي والدته – وربما كان ذلك وحده كافياً أن يجعلنا نفهم أن الأفعال التي سترد بعد ذلك ستكون ضمن هذه النِعَم إلا أن القرآن يحرص أن يميزها بوضوح تام علي أنها أفعال إلهية ، ولا علاقة لها بالبشر ، وكأنه يقول لنا : إن كل من يأتيكم مُدعياً أنه يصنع شيئاً من هذه المعجزات فهو كاذب ! فلا ديانات جديدة ولا معجزات جديدة ! ولهذا كان الجرجاني دقيقاً في تعريفه للمعجزة عندما قال «المعجزة أمر خارق للعادة ، داعية إلي الخير والسعادة ، مقرونة بدعوي النبوة ، قصد به إظهار صدق من ادعي أنه رسول من الله» «التعريفات للجرجاني مادة معجزة» .

وعلي هذا الأساس نفسه ذهبت المعتزلة إلي أن «غير الله تعالي لا يقدر علي خلق الجسم ، والحياة ، واللون ، والطعم .. كذلك لا يقدر الساحر أن يطير في الهواء ، أو أن يقلب الإنسان حماراً ، أو الحمار إنساناً ! ومن ثمّ فقد رفضوا السحر ، وفسروا الآيات التي ورد فيها كلمة السحر تفسيراً عقلياً يتفق مع العقل – وكانت حجتهم أننا لو أجزنا السحر : «لتعذر الاستدلال بالمعجزات علي النبوات ، لأنا لو جوزنا استحداث الخوارق بواسطة تمزيج القوي السماوية بالأرضية ، لم يمكنا القطع بأن هذه الخوارق التي ظهرت علي أيدي الأنبياء قد صدرت عن الله تعالي ، بل يجوز فيها أنهم أتوا بها عن طريق السحر ،

وحينئذٍ يبطل القول بالنبوات من كل الوجوه كما يقول القاضي عبد الجبار ! وهكذا تمسكوا بأن تظل « الخوارق أو المعجزات » أفعالاً إلهيةً لا يقدر عليها إنسان !

ومع الإسلام تغير مفهوم « المعجزة » لأنه آخر الديانات ، ولن يكون بعده سوي العلم ، ومن ثم فهو لا يلجأ إلي كسر قوانين الطبيعة ، بل عندما يطلب كفار قريش من نبي الإسلام إثبات نبوته لهم بعمل خارقٍ للطبيعة ، أو بمعجزة من تلك المعجزات التي تعطل القوانين ، وتعد خرقاً لنظام العالم ، يدور الحوار الرائع التالي : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تُنزل علينا كتاباً نقرؤه ! قل : سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ ٩٠ – ٩٣ الإسراء ، فالمطالب التي يجعلها الكفار شرطاً لإيمانهم هي كلها من قبيل الأفعال الخارقة للطبيعة التي لا يلجأ إليها القرآن أبداً ، والسبب بالطبع واضح ، لقدآن الأوان للبشرية أن تضع قدمها علي طريق البحث العلمي أو التجريبي ، وأن تقيم العلم الذي سيكون أساساً للحضارة المقبلة . ولما كان الإسلام هو آخر الديانات بمعني « تمام الدين » أو القمة التي تصل إليها الأديان ، فلا ينبغي له أن يلجأ إلي شيء يتطلب تصحيحاً أو تفسيراً أو تدعيماً بعد ذلك ، بل لابد أن يعتمد علي « معجزة » تمتد معه علي مر العصور ، وهذه المعجزة هي القرآن الكريم التي سنتحدث عنها بعد قليل (*).

(*) راجع فى ذلك كله بحثاً مفصلاً عن « القرآن .. والبحث التجريبى » ص ٣٧٨ من هذا الكتاب .

ويسوق المفكر الجزائري « مالك بن نبي » موقفاً آخر يدعم هذه الفكرة تدعيماً قوياً فيقول : « في يوم دفن ولده الوحيد الذي رآه يكبر - إبراهيم - حدث كسوف كلي ، وفسر الناس الظلمات المفاجئة ، بأنها آية علي مشاركة الطبيعية للنبي ، ولكنه صحّح ، في حزم خطأ صحابته قائلاً : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان ، لموت أحد ولا لحياته . « الظاهرة القرآنية ص ١٣٥ - ١٣٦ » فلم يعد الالتجاء إلي كسر قوانين الطبيعة ، أو حتي تعطيلها ، أو الاستعانة بأمور خارقة ، أمراً مطلوباً لتدعيم النبوة ؛ لأن البشرية قد وصلت إلي مرحلة ينبغي فيها الاعتماد علي العقل ، والتفكير العلمي ، واستخدام المواهب والملكات التي منحها الله للإنسان بهذا وحده يتم الإيمان لمن أراد أن يؤمن . أما المكابر المعاند الذي يصر علي مُوقفه ، فلن تجدي معه المعجزات حتي لو رآها رأي العين ، بل يمكن أن يتهم نفسه بالغفلة أو السحر أو السكر لكي يظل علي رأيه : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ..** ﴾ ١٤ - ١٥ الحجر .

لكن إذا كان القرآن الكريم لا يلجأ إلي المعجزات التي تعطل قوانين الطبيعة ، فإن ذلك لا ينفي أنه هو نفسه « معجزة » لكنه معجزة من حيث هو كتاب لا يخرق قوانين الطبيعة ولا يعطل سيرها ، بل علي العكس تستطيع أن تقول أن من إعجاز القرآن عدم التجائه إلي معجزات من هذا القبيل ، وهذا ما أطلق عليه مالك بن نبي ، اسم «الظاهرة القرآنية » ، ذلك لأن معجزات السيد المسيح مثلاً انتهت بانتهاء عصرها ، ولم يرها المعاصرون ، ومن هنا ، فربما ظهرت مشكلة عند الرجل المسيحي المعاصر تتجلي في هذا السؤال : كيف أؤمن الآن ، وأنا لم أرَ

من معجزات المسيح شيئاً ؟! أما المسلم فلا يستطيع أن يقول ذلك ، لأن القرآن كما كان يتحدي العرب في الجاهلية أن يأتوا بسورة من مثله لا يزال يتحدي العرب المعاصرين بنفس الطريقة . ولهذا كان القرآن معجزة ممتدة فهو «ظاهرة مستمرة» علي مر العصور ، وليس مجرد معجزة ارتبطت بعصرها فحسب !!

يقول : «دلالة ما أوتي عيسي من إعجاز ستزول مع زوال موضوعها ، ولنفس الأسباب التي ألغت جانب الأعجاز في دين موسي – ثم تأتي رسالة الرسول الأمين وتتسم بأنها الحلقة الأخيرة في سلسلة البعث .. فهو الدين الذي لا يعقبه دين سماوي آخر .. وعليه يجب أن يكون إعجاز القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال ، وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية الأولي بذوقه الفطري .. وإذا كان المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي ، فإن القرآن لم يفقد بذلك جانب الإعجاز لأنه ليس من توابعه بل هو جوهره .. !» الظاهرة القرآنية ص ٦٦ – ٦٧ » بقي أن نقول إن ذلك كله لا يمنع أن تكون ظواهر الطبيعة – وما فيها من تناسق دقيق ونظام محكم وتدبير بديع – هي نفسها «معجزات» الله ، بمعني آيات تدل علي حكمة وتدبير ، وعناية إلهية : فالكون بأسره آية من آيات الخالق القادر : ﴿ **ما تري في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل تري من فطور ؟! ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾ ٣ – ٤ الملك .

***

العلــــم الإلهــــى ...

يرى بعض الباحثين في فلسفة الدين أن هناك صفتين أساسيتين لله تسبقان غيرهما من الصفات هما «العلم والقدرة» – وفي ظني أن صفة الحياة أسبق منهما، إذ لابد من صفة الحياة؛ ليكون هناك علم وقدرة وإرادة، وإلي ذلك أشارت الآيات القرآنية بوضوح ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ (٢٥٥ البقرة) – ﴿ **هو الحي لا إله إلا هو ..** ﴾ (٦٥ غافر) فصفة الوجود الدائم أولا، وتنبع منها في الحال صفة الوحدانية، ثم تأتي صفة الحياة فهو الحي الذي لا يموت، والدائم الذي لا دوام لغيره. لكن الصفتين الأساسيتين اللتين تليان ذلك مباشرة هما «العلم والقدرة» وهما صفتان تطلقان علي الله بالمعني الكامل اللامحدود، فالإله لابد أن يكون لا متناهياً في عمله، لا محدوداً في قدرته، وإذا كان من الممكن أن تطلق الصفات الإلهية ـ بصفة عامة ـ على بعض المخلوقات، ولا سيما الإنسان، كصفة الوجود والحياة، والعلم، والقدرة ... إلخ فإن الفارق بينها في الحالتين هائل : الإنسان موجود لكن وجوده موقوت بمدة زمانية معينة هي عمره. والإنسان حي إلي فترة .. إلخ. باختصار هذه المجموعة من الصفات هي لله تعالي علي نحو مطلق بغير حدود، وهي كذلك للإنسان علي نحوٍ نسبيٍّ محدود، فلله تعالي العلم كله، العلم الشامل اللامتناهي، وللإنسان بعضه فحسب، ولله القدرة اللامتناهية، والتقدير علي إطلاقه. أما الإنسان فقدرته محدودة وتقديره متناهٍ. وهكذا نجد أن ما يشكل فارقاً حاسماً وأساسياً بين الخالق والمخلوق في صفتي العلم

والقـدرة أن لله « العـلم بكل شيء » ، و « الـقدرة علي كل شيء » – وهما صـفتان لا تطلقان علي الموجـود البشـري ، بالغاً مـا بلـغ علمه ، أو وصلت قـدرته – إلا علـي نحـوٍ نـسبيٍّ مـحـدود ، أما صــفـة الإطلاق واللاتناهـي والإحاطة والشمول التي ننسبها «للعلم والقدرة » الإلهية ، فهي صفات فريدة Unique لا توجد عنـد مخلوق ، وكل صـفـة من هاتين الصـفـتين كانت مـوضـع تفكير عـميق عند الفـلاسفـة أو اللاهـوتيين من أصحاب العقلية الفلسفية .

لقـد كان الشـاعر اليـوناني هـومـيـروس Homer ـ في القـرن الـتـاسع قبل الميلاد ـ يقول منذ أمدٍ بعيد : « إن الآلهة لابد أن تعرف كل شـيء » – وإلي هذا الحـد يكون الشـاعر قـد أدرك بحسه المرهف صـفـة أسـاسـية في الإله الحق . لكنه لم يـستطع للأسـف ، أن يحافظ علي هـذه الصـفـة فنحن لا نجـدها في كتـاباته ، بل إننا نجـد أن كثـرة كثيرة من الأحـداث التي تدور في ملـحمـته الكبري « الإليـاذة » كانت تدور من وراء ظهـــر « زيوس Zeus » كبير الآلهة ، كمـــا أن هنـــاك مؤامـــرات كثيرة في « الأوديسـة » « ملـحـمـة هومـيـروس الثـانيـة » لم تكن تتم إلا بسـبب غفلة « بوزيدن Poseidon إله البحـر في الميثولـوجيا اليونانية ».

أما أفلاطون فقد عرض في محاورة «القوانين» « الكتاب العاشـر » لإثبات وجـود الله ، وللصفـات الإلهيـة الأسـاسيـة التي رأي أن أولهـا هـو « العلم بكل شيء » .. ومن هنا فـقـد ذهب إلي أن الآثام الكبـري التي تستحق العقاب ثلاثة هى : –

١ – إنكار وجود الله ، أو ما يسميه بالإلحاد البسيط .

٢ – القـول بـأن الله لا يكـتـرث بسلوك الـبـشــر ، أو أنه لا يـهـتم بشؤنهم .

٣ – القول بأن العُصاة يستطيعون الإفلات من القضاء الإلهي بالصلوات وتقديم القرابين .

ويري أفلاطون أن الإثم الأول – الإلحاد البسيط بالله – أقلها جدارة باللوم من الناحية الأخلاقية ، أمَّا الثالث فهو أعظمها إثماً وأشدها سوءاً ، فالأفضل لك ألا تعتقد في إله من أن تؤمن بإله مهمل لا يأبه بشيء ، والأفضل كذلك أن تعتقد في آلهة مهملة من أن تعتقد في آلهة تقبل الرشوة ! وما يهمنا الآن أنه جعل صفة « العلم بكل شيء » أساسية للإله الحق ، وربما أخذ الفكرة عن أستاذه سقراط الذي كان يعتقد أن الآلهة لابد أن تعرف كل شيء بالمعني الحرفي للكلمة ! .

أما الأديان السماوية فقد أبرزت العلم الإلهي الشامل باعتباره صفة أساسية من صفات الوجود الإلهي ، فالله ، في العهد القديم يعرف المستقبل سواء أكان مختبئا في ظواهر الطبيعية ، أو معتمداً علي نوايا البشر وخططهم ، ففي تراتيل سفر أيوب « إن الله يعرف أسرار الطبيعية » – وفي سفر أشعيا أن معرفة الله للمستقبل هي العلامة المميزة بأنه الإله الحق في مقابل إله الوثنيين . يتردد نفس المعني في إنجيل متي ، وفي رسائل القديس بولس : « ليست خليقة الله غير ظاهرة قُدّامه ، بل كل شيء عريان ، ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا » .. « العبرانيون الإصحاح الرابع : ١٣ » .

لكنك ستجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد صفة العلم الإلهي المحيط بكل شئٍ علي نحو شديد الوضوح فقد ﴿ **وسع ربي كل شيء علماً** ﴾ (٨٠ الأنعام) ، وهو ﴿ **العليم القدير** ﴾ (٥٤ الروم) . وإذا كان بعض الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطي من أمثال القديس

،، جيروم St. Jerome ،، قد ذهب إلي أنه ،، من الخُلف ، أو من العبث أن نقول أن الله يعلم في كل لحظة كم بعوضة ولدت ، وكم بعوضة ماتت ، وكم برغوث موجود في العالم ، وكم سمكة في البحر .. !! » . فإن القرآن الكريم يرفض مثل هذه النظرة الضيقة ويعتبرها انتقاصاً من العلم الإلهي ، إذ ليس المهم هنا هو حجم الشيء ، أو أهميته ، أو مكانته في الوجود ، وإنما الأمر البالغ الأهمية هو شمول العلم الإلهي وكليته ، فبالغا ما بلغت ضألة ذلك الموجود ، فإن الله لابد أن يعلمه : ﴿**وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء**﴾ (٦١ يونس) . وهذا هو العلم الإلهي الشامل الذي يقبله العقل ويرضاه كصفة من صفات الله . يقول ابن سينا : ،، واجب الوجود إنما يعقل كل شيء علي وجه كلي . ومع ذلك فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .. ،، ،، النجاة ص ٢٤٦،، فليست المسألة الهامة هنا متوقفة علي حجم الشيء ، بل الإحاطة الشاملة بكل شيء ، فمن التناقض العقلي أن تكون هناك أشياء لا يصل إليها العلم الإلهي ! ومن هنا جاء التعبير القرآني الرائع : ،، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ،، ٤٩ الكهف وسواء أكان هذا الشيء بسيطا ضئيلاً مدفوناً في باطن الأرض فإنه سبحانه : ﴿ **يعلم ما في البر والبحر** ﴾ (٥٩ الأنعام) – كما يعلم ما يعتمل في ضمير المرء وما يشغل تفكيره لأنه : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ (٢٣ لقمان) . وأحياناً نجد القرآن الكريم يربط بين العلم الإلهي وبين الخلق والإبداع : ﴿ **وهو الخلّاق العليم** ﴾ (٨١ يس) – والعلم البشري كله قطرة في محيط العلم الإلهي أذن بها الرحمن : ﴿ **لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ (٢٥٥ البقرة) – وسواء أعلن الناس ما في نواياهم

وضمائرهم أم حرصوا على كتمانها فإن العلم الإلهي يصل إليه : ﴿ وإن تجهروا بالقول فإنه يعلم السر وأخفي ﴾ (٧ طه) . ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ (٦ الفرقان) غير أن العلم الإلهي الشامل يثير مشكلة شهيرة في تاريخ الفكر البشري هي مشكلة حرية الإرادة ، أو حرية الفعل البشري فكيف يمكن للأفعال البشرية أن تكون حرة ، إذا كان الله يعلم بالفعل ما سوف يكون حتي قبل أن ترد فكرة الفعل علي ذهن الإنسان ؟! ولهذا ذهب بعض الباحثين إلي أن المحاولات التي بذلت للتوفيق بين العلم الإلهي الشامل ، وبين الحرية الإنسانية لم تتوقف علي الاطلاق ، لكنها لم تنجح علي الإطلاق أيضاً . إذ أن هذه المحاولات ، في رأيهم ، محكوم عليها بالفشل ؛ لأنها تحاول التوفيق بين طرفين لا يمكن التوفيق بينهما ، ولقد وضع هذه المشكلة في صياغة واضحة واحد من الفلاسفة هو بؤتيس Boethius في القرن السادس علي النحو التالي : «إذا كان الله يعلم كل شيء ، وإذا كان الله لا يمكن أن يُخدع .. وإذا كان يعلم منذ الأزل كل أفعال الإنسان وسكنات إرادته ، فلا يمكن أن يكون هذا الإنسان حر الإرادة .. !! غير أن العلم الإلهي الشامل لا يعني بالضرورة حتمية إرادتنا ، لأنه إذا ما كان العلم السابق بأن شيئاً ما سيحدث يجعله يحدث ، لكان معني هذا أن المعرفة بوجود شيء ما تجعله يوجد ! فأنا مثلاً أعلم أن السماء تمطر في اللحظة الحاضرة ، لكن من الواضح أن علمي ليس هو الذي يجعل السماء تمطر ! بل العكس هو الصحيح فأنا أعلم أنها تمطر لأنها تمطر في الواقع ! ولهذا فقد ذهب وليم جيمس .. W.Jams ١٨٤٢ – ١٩١٠ الفيلسوف الأميركي المعاصر في معرض دفاعه عن الحرية البشرية ، إلي أنه ليس ثمة

تناقض بين علم الله السابق والشامل وبين الحرية البشرية ، فالله يعلم منذ الأزل جميع الأفعال الممكنة في كل موقف ، لكنه لا يفرضها علي أحد . ويوضح «جيمس» ما يقصده بمثال لرجلين يلعبان أمام رقعة شطرنج : أحدهما لاعب مبتديء ، والآخر لاعب ماهر يعرف مقدماً جميع الحركات الممكنة التي يمكن أن يقوم بها خصمه في كل موقف فعلي في مجري سير اللعبة ، ويعرف مقدماً كيف يواجه كل حركة من هذه الحركات - لكنه لا يفرض بهذه المعرفة شيئاً قط علي حركة اللاعب المبتديء ، فهو لا يتدخل في فعله ، ولا يجعله يتجه وجهة معينة ، كذلك فإن الله حين يعلم كل ما يفعله البشر لا يتدخل في مجري أفعالهم فيفرض عليهم اتجاهاً معيناً ، أو يحتم أنواعاً بعينها من هذه الأفعال !

والواقع أن المشكلة تنشأ بأكملها - في رأيي - بسبب سوء فهم لكلمة «المستقبل» ، وبالتالي لفكرة الزمان ! إننا نعتقد ، خطأ ، أن العلم الإلهي يخضع للزمان ، وبالتالي لما يسمي عندنا بالمستقبل ! في حين أن المستقبل لمن يعيش في مجرى الزمان فحسب ، أعني للموجود البشري وحده ، أما بالنسبة لله فهو في حاضرٍ دائم ، في آنٍ أزلي ، وبالتالي فهو يدرك ما فعله القدماء من آلاف السنين ، وما أكتبه أنا الآن ، وما سوف أفعله بعد عام ، في لمحة واحدة . أو في آن واحد !

* * *

رابعاً : عن الحريـــة

١ – أنـــا حـــر ... !

٢ – أنت حر فأنت مقيد !

٣ – هل الإنسان حر بالطبيعة ؟

٤ – الحرية هي التحديد الذاتي !

أنــــا حـــــر ... !

كاد يدهم سيارتي التي تقف ساكنة بجوار الطوار ، عندما اندفع نحوها بسيارته الفارهة ، في جنون مذهل ، جعله يحف بها حفاً ظاهراً ، حتي أنه لم يكن يفصل بين السيارتين سوي سنتيمترات قليلة ! وعندما عاتبته برفق أجابني بهذه العبارة السحرية التي لاكتها الألسن بغير فهم صحيح : «« أنا حر .. !! »» . نطقها بقدر غير قليل من الاستخفاف واللامبالاة !! جعلني أتركه وأمضي في طريقي دون أن أجد ما أردّ به عليه !

غير أن هذه العبارة السحرية العجيبة «« أنا حر »» ظلت تتردد في أذني أياماً طويلة : كيف يمكن أن يفهم الناس الحرية علي هذا النحو المزري ؟! أصحيح أن الحرية مرادف للفوضي واللامبالاة .. ؟! أم إنها التزام وقيد .. ؟ أهي هدم وتدمير ، أم إنها بناء وتشييد .. ؟! إن كانت الثانية ، فكيف فهمها بعض الناس علي أنها الأولي .. ؟!

الواقع أن سبب الخلط كله يأتي من أن الحرية فعل ، وهي شأنها شأن كل فعل بشري تتألف من جانبيين أساسيين : هما ـ الشكل ، والمضمون ، والكارثة تحدث عندما نتوقف عند الشق الأول منهما فحسب ، ونتجاهل الثاني – لكن ذلك يحتاج إلي قليل من الإيضاح : –

كل فعل بشري يتألف من هذين الجانبين : الشكل والمضمون ، ولا يكتمل الفعل إلا بهما معاً : خذ مثلاً فعل «« الكتابة »» كنشاط بشري تجد أنه يتألف من هذين الجانبين الأساسيين ، فالكتابة : من

ناحية ـ هي ذلك النشاط الواعي الذي أقوم به في هذه اللحظة الحاضرة ، وتلك هي « الصورة » ، أو « شكل » النشاط البشري . ثم «مضمون » ، أو « موضوع » هذا النشاط ، وهو الذي يؤلف الشطر الثاني ، كأن يكون مضمون ما أكتبه رسالة إلي صديق ، أو مقالاً عن فكرة معينة – إلخ . وذلك هو مضمون الفعل أو جوهره ومحتواه .

فماذا يحدث لو أننا اقتصرنا في فعل الكتابة علي الصورة وحدها أو الشكل وحده دون أن يكون هناك مضمون محدد لهذا الفعل ؟! لن تكون في هذه الحالة كتابة علي الإطلاق ! إن الطفل إذا ما قبض علي القلم بيديه وراح يخط علي الورق ، فإنه يكون في هذه الحالة قد قام بنشاط بشري هو « صورة » الكتابة أو شكلها فحسب لكنه في الحقيقة لا يكتب شيئاً ! إن ما يفعله الطفل من « تسويد » للورق الأبيض يتخذ « شكل » الكتابة لكنه يخلو من مضمونها فهو بغير موضوع محدد ؛ ولهذا فهو ليس كتابة ، ونحن بالفعل لا نطلق عليها هذا الاسم لأنها تفتقر إلي الشق الثاني من فعل الكتابة الذي يُضفي عليها ما هيتها الأساسية أعني « المضمون » . وقل مثل ذلك فيمن يخبط الكرة خبطاً عشوائياً ، إنه في الحقيقة لا يلعب الكرة ، لكنه يأخذ بنشاطه « شكل » اللعب فحسب دون أن يتقيد بمضمونه وخطواته !

والحرية بوصفها فعلاً بشرياً لا تختلف عن الفعل البشري ، بصفة عامة ، فهي : من ناحية ـ وعي الفرد أثناء نشاطه باستقلاله عن غيره من الأشياء ، وقدرته علي هذا الانفصال ، فهو قادر علي أن يجرِّد نفسه من كل شيء بحيث لا يرتبط إلا بذاته فحسب ، وهذا ما يسمونه في الفلسفة باللا تعين أو اللا تحديد ، ويقصدون به قدرة الفرد اللامتناهية علي أن يتحرر من كل قيد ولا يرتبط إلا بنفسه فحسب !

وفي استطاعتك أن تقول : إن الحرية في هذه الحالة حرية مطلقة ، والفعل الذي يعبر عنها فعل مطلق ، لكنه لا يمثل إلا جانباً واحداً من جوانب الإرادة ، وأعني به القدرة التي لاحدٌ لها علي التجرد من كل حالة متعنية من حالات الروح التى قد أجد نفسي فيها : إنه فرار من كل مضمون ، أو هو إقرار من كل قيد !

أما الجانب الثاني من الفعل الحر فهو ـ المضمون الذي يحد هذا اللا تعين ، ويكون قيداً علي هذه القدرة المطلقة التي لاحدٌ لها : ومعني ذلك أن الشق الثاني يُعبِّر عن انتقال الذات البشرية من المرحلة الأولي الهلامية التي لا تحديد فيها إلي مرحلة التحديد والتعين . وقولك « أنا حر .. » إنما هو تعبير عن الشق الأول عن صورة الحرية أو شكل الحرية فحسب ، وهو القدرة أو الإمكانية الممنوحة علي الفعل ، ولكنه ليس فعلاً ؛ لأن فعل الحرية لا يكتمل إلا بالشق الثاني : وهو تحقق ذلك النشاط بالفعل في العالم الخارجي ، بحيث يصبح لها مضمون هو ما تنجزه هذه الحرية . لكن هذا الإنجاز « حد » للإمكانية الهائلة التي كانت موجودة عندي من قبل ! وهذا هو المعني الحقيقي للحرية ، فهي تعني « التعين الذاتي » أو « التحديد الذاتي » الذي هو استقلال حقيقي للفرد وللدولة أيضا ! إن الحرية لا تعني أن تفعل « أي شيء » و « كل شيء » ، فذلك هو شكل الحرية فحسب ؛ لأنك في هذه الحالة تظل في دائرة الإمكان أو القدرة : فأنا قادر علي كذا ، وأستطيع كذا ... إلخ . لكن هذه القدرة ، وهذه الإمكانية التي لاحًد لها ، وهذه الحرية المطلقة ينبغي أن تتحول إلي شيء « جزئي » بحيث يكون لها مضمون محدد وموضوع معين ، لابد أن تتعين وأن تتحدد ، وإلا لتحولت إلي فعل مدمر ! إن الحرية في هذه الحالة هي حرية الفراغ

التي تصل إلي مرتبة الهوي ، وإذا اتخذت شكلاً واقعياً في العالم تحولت إلي أداة هدم وتدمير لكل ما يقف أمامها لأنه « يحد » من نشاطها أو يجعل لها « مضموناً » أو يريد أن يحيلها « حرية حقيقية ! » إنها هي نفسها نشاط الطفل الذي يقبض علي القلم بيدية ويخط علي الورق أشياء سوداء بغير معني وبغير مضمون ! تخيل معي شخصاً انتظم في مدرسة ثم ثار عليها لأنها « تحد » من حديثه بما تتضمنه من نظم وقواعد ، فرفض أن يستمر في مواصلة الدراسة لأنه يريد أن يكون « حراً » لا يقيده شيء ! والتحق شخص آخر للعمل في مصنع ، لكنه سرعان ما اكتشف أنه بما فيه من قواعد ولوائح ونظم يشكل قيداً جديدا علي « حريته » فثار عليه ورفض الاستمرار فيه ! ثم عنَّ له أن يتزوج ، لكنه بعد وقت قصير طلق زوجته وترك أسرته وأطفاله لأنها تشكل التزامات ومسؤولية وقيوداً علي حريته ... إلخ .

هذه الأمثلة تعطيك « شكل » الحرية وليست الحرية ذاتها لأن الحرية لابد أن تتحول في النهاية إلي قواعد ونظم ، أعني إلي قيود !! لكن أليس من التناقض أن يكون للحرية قيد ؟! وكيف يمكن أن أكون حراً وهناك قيد عليَّ ؟ وما الفرق بين الحرية والعبودية في هذه الحالة ؟!

الحرية بغير قيد أعني بغير تحديد هي حرية الفراغ وهي مجرد إمكانية إنْ تحققت في العالم الخارجي أصبحت هدماً وتدميراً فحسب ! ولهذا لابد لها من أن تتحدد وتتقيد . وها هنا يأتي الفارق بين الحرية الحقيقية وبين العبودية : لو أنني أنا الذي أقوم بالتحديد ، لكنت أحدد نفسي بنفسي ، ولكنت حراً ، أما إذا كان التحديد آتياً من مصدر آخر ،

وإذا كان القيد مفروضاً عليّ فإنني في هذه الحالة عبد لغيري . وقل مثل ذلك في قوانين الدولة التي أخضع لها : فلو أنني اشتركت في صنعها ، فإن خضوعي لها ليس في هذه الحالة سوي خضوع لنفسي، وأنا في هذه الحالة حر ، أما إذا كانت القوانين مفروضة عليّ بمعني أنها ليست من صنعي ، ولا تمثل إرادتي ، فأنا عبد لغيري ، وهذا هو الفارق الحقيقي بين الحرية والعبودية .

لكن قد يقال : ألا يعني ذلك أننا لا يمكن أن نمارس الثورة علي النظم والقواعد الموجودة في المدرسة أو المصنع أو المنزل ؟ مادام التمرد عليها يمثل « شكل » الحرية دون الحرية ذاتها ؟! والجواب : إننا عندما نثور علي نظم لابد أن نضع نظماً جديدة تحل محل النظم القديمة ، وإلا كنا كمن يقوّض ولا يبني ! ولكنا في هذه الحالة نردد تلك العبارة السحرية الفارغة « أنا حر .. » مستخدمين الصورة بغير مضمون ، في حين أن الحرية هي شيء يتم إنجازه في العالم الخارجي بحيث أري نفسي فيه في نهاية الأمر !

* * *

« أنت حر ... فأنت مقيد .. ! »

قد يبدو عنوان هذا المقال متناقضاً : إذ كيف يمكن للإنسان أن يكون حراً ومقيداً في آن معاً .. ؟! أليست الحرية تعني التحرر من كل قيد ؟! فكيف يمكن أن تلتقي الحرية والقيد علي صعيد واحد ؟ بل كيف يمكن أن تجتمع الحرية والقانون تحت سقف واحد ؟!

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : أصحيح هذا ؟! أصحيح أن الحرية والقانون ضدان لا يجتمعان ؟! أصحيح أن الحرية تعني التحرر من كل قيد ، والتحلل من كل ارتباط ، والفرار من أي التزام ؟ أصحيح أن الحرية ترادف الفوضي بحيث تعني أن يفعل كل إنسان ما يحلو له ؟! أيكون الإنسان البدائي ، بما أنه أقل ارتباطاً ، وأخف قيوداً ، وأضعف التزاماً ـ أكثر حرية من إنسان اليوم المتحضر الذي تُكبله القيود في كل مكان . ؟!

الغريب أنك تجد من الناس مَنْ يجيب عن هذه الأسئلة جميعا بالإيجاب ، فتعقيدات المدنية الحديثة ، في رأيهم ، ضّيقت نطاق الحرية التي كان يتمتع بها الإنسان البدائي ! بل من الفلاسفة من ذهب هذا المذهب ، فها هو جان جاك روسو « ١٧١٢ – ١٧٧٨ » J.J.Rousseau الفيلسوف الفرنسي المعروف يتبني هذه الفكرة ويقيم عليها فلسفة كاملة ، فالمساواة بين الناس زالت بظهور الزراعة والصناعة والملكية، وشُرِّعت القوانين لتثبيت قوة الظلم والطغيان .. وتلاشت الحرية التي كان يتمتع بها الإنسان في حضن الطبيعة ! ومن هنا فقد كان « روسو» يشعر بحنين غامر إلي العودة إلي الطبيعة ، لكن لما كان من

المستحيل الآن العودة إلي الطبيعة . ولما كان من المستحيل الآن العودة بمجتمعنا الحديث إلي حالة الطبيعة الأولي ، فلا أقل من أن يحل « التعاقد الاجتماعي » محلها ، وأن يترك للطفل الفرصة لتنمية مواهبه الطبيعية دون أن تعطلها مؤثرات الحضارة الفاسدة !

غير أن هذه الفكرة في ظني ، بالغة الخطأ ، فليس صحيح أن المجتمعات الحديثة بما فيها من تعقيدات ، وكثرة من النظم والقوانين قد ضيّقت حرية الفرد وجعلت حياته أكثر عبودية مما كانت عليه حياة الإنسان البدائي الذي كان يعيش مع بساطة الطبيعة بلا قانون ولا قيود

والواقع أن العكس هو الصحيح ، فقد كانت حالة الطبيعة الأولي حالة عبودية كاملة ، حيث رزح تحت نير الطبيعة الخارجية والداخلية علي السواء ! فقد كان عبداً لظواهر الطبيعة ، هذا ما تشهد عليه « أساطير الأولين » الذين عبدوا هذه الظواهر وقدموا لها القرابين تقرباً زلفاً ! فقد كانت ظواهر الطبيعة هي الأقوي ، وهي المسيطرة علي الإنسان ، وكلما هبت الريح فاقتلعت كوخه أعلنت وهي تزمجر أنها هي الأعلي ، وأن الإنسان هو الأدني ! وقل مثل ذلك في الشمس ، والقمر ، والأنهار ، والجبال .. إلخ إلخ .

هكذا كان الإنسان خاضعا للطبيعة وظواهرها ، فهو عبدٌ لها تسيّره كما تشاء وتهوي ! أما الإنسان الحديث الذي أقام منزله من حجارة صلْبة ؛ لتواجه الرياح والعواصف ، فهو وحده الذي تحرر من عبودية الطبيعة عندما سيطر عليها وأخضعها لرغباته ، ومن هنا كان « فرنسيس بيكون » علي حق تماماً في قوله إن « المعرفة قوة » ! أجل فمعرفتك لقوانين الطبيعة تمكنك من أن تكون قوياً ، وأن تسيطر عليها !

كذلك كان الإنسان البدائي عبداً لطبيعته الداخلية ، أعني أنه باندفاعه وراء شهواته ورغباته وغرائزه ، وعجزه عن السيطرة عليها أو تنظيم إشباعها - فإنه كان خاضعاً لها تسيره كما تشاء ؛ ولهذا ذهب بعض الباحثين إلي أن تنظيم الاشباع كما هو الحال في الطعام مثلاً، وتنظيم الوجبات الغذائية ثلاث مرات في اليوم هو نموذج بارز للتحضر ! .... ومن هنا فقد ذهب الفيلسوف الألماني «هيجل» إلي أن «« حالة الطبيعة يغلب عليها الظلم والجور والعنف ، وتسودها الدوافع الطبيعية التي لم تروض ، والأعمال والمشاعر اللاإنسانية ، ولا شك أن المجتمع والدولة يمارسان نوعًا من الحد ، لكنه حد للغرائز الفجة وللأنانية التي تتجلي في النزوات والأهواء ، وهذا اللون من التقييد هو جزء من الوسيلة التي يمكن عن طريقها وحدها أن يتحقق الوعي بالحرية .. فالقانون والأخلاق مستلزمات ضرورية للمثل الأعلي للحرية »» ! (العقل في التاريخ ص ١١٢ - ١١٣) والحق أن الحرية لا تستقيم مع الفوضي ، وانعدام القانون وإلغاء الحدود والقيود الخارجية، وإنما القانون والتقييد مستلزمات ضرورية للحرية ، فكيف يكون ذلك ؟! يكون الإنسان حراً عندما تأتي أفعاله معبرة عن ذاته ، عن شخصيته . والمقصود «« بالذات »» هنا «« الذات البشرية الحقيقية »» ومن هنا فإذا خضعت لقيود وضعتُها فأنا في الواقع لا أخضع إلا لذاتي ومن ثَمَّ ، فأنا حر ، أما إذا خضعت لقيود تفرضها ظواهر الطبيعة فأنا عبد لهذه الطبيعة ، كذلك إذا ما خضعت لضغوط الطبيعة الداخلية (التي هي في الواقع تعبير عن الطبيعة الحيوانية ، أو عن انفعالات وأهواء جزئية) فأنا أيضا لست حراً ، ومن هنا كان الإنسان البدائي أقل الناس حرية لأنه أكثرهم خضوعاً لسطوة الطبيعة ، خارجية

وداخلية في آن معا ، وكان الإنسان في المجتمعات الحديثة أكثر حرية؛ لأنه لا يخضع إلا للقانون الذي وضعه ويعبر عن ذاته ، فهو إذن حين يطيعه فإنه لا يطيع إلا نفسه ولا يتقيد إلا بذاته ، وتلك هي الحرية الحقيقية التي هى ‹‹ التحديد الذاتي ›› ، وهي تعني ألا ترتبط الذات البشرية إلا بنفسها فقط ، ولا يتبع التقييد إلا من داخلها فحسب ، وعلي هذا النحو تكون حرة حرية حقيقية .

غير أن هذه الفكرة تثير عدة تساؤلات :

أولاً : الإنسان الذي يندفع وراء شهواته محاولاً أرضاء نزواته واشباع غرائزه .. إلخ ، ألا يطيع ذاته ويرتبط بها ؟ ألا يكون بالتالي أكثر حرية من غيره ؟!

ثانياً : إذا كانت طاعة القوانين في المجتمعات الحديثة تعبر عن الحرية أكثر مما تعبر عنها ‹‹ فوضي الإنسان البدائي ›› فكيف يمكن أن تكون بعض القوانين ظالمة ؟! أم أن كل قانون فهو ‹‹ حق ›› و‹‹ عدل ›› ، ولا يمكن أن يوصم بالظلم أو الجور ؟! .

ثالثاً : إذا كانت الحرية تعني ‹‹ طاعة القوانين ›› فلماذا نسمي الناس في بعض المجتمعات ‹‹ عبيداً ›› مع أنهم يطيعون القانون ؟ بل لماذا يزداد وصفنا لهم بالعبودية كلما أمعنوا في طاعة القانون ؟!

أمّا التساؤل الأول فالإجابة عنه تكمن في فهم الذات البشرية الحقة ما هي ؟

إنها الذات الكلية أو العاقلة الذات الجوهرية ، فليست الشهوات والرغبات الطبيعية أو الغرائز مما يميز الإنسان ، فالحيوان أيضاً يشاركه هذه الرغبات ، ومن ثمّ فإن الذات البشرية الحقة هي الذات العاقلة أو الذات الكلية .

أما التساؤل الثاني فنجيب عنه بقولنا : إن القوانين التي ينبغي أن يطيعها هي التي تصدر عن الذات البشرية الحقة أو الذات العاقلة الكلية، وهي بطبيعتها لابد أن تكون قوانين عادلة ، لأن الظلم مضاد للعقل فهو تعبير عن جوانب جزئية أو عن مصلحة شخصية ، وبالتالي فالقوانين الجائرة هي تلك التي تعبر عن مصالح طبقة ، أو فئة ، أو فرد ، وهي بالقطع لا تصدر عن الذات الكلية العاقلة .

ومن هذه الإجابة نصل في الحال إلي إجابة التساؤل الثالث : لماذا نسمي الناس في بعض المجتمعات «عبيداً» مع أنهم يطيعون القانون ؟ السبب أنهم يطيعون قوانين جائرة تمثل جانباً جزئياً واحداً هو المصلحة الشخصية ، أو الرغبة الخاصة لفرد ، أو طبقة ، أو فئة معينة من الناس ، كما أن هناك شرطاً أساسياً للحرية ، لكي تكون مرادفة لطاعة القانون - هو أن تكون الذات الكلية هي التي أصدرت هذا القانون أنا أكون قد شاركتُ في صنعه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ومن هنا فإنني في طاعتي لهذا القانون لا أطيع سوي ذاتي الجوهرية الحقيقية وحدها وبالتالي أكون حراً ؛ لأنني لا أطيع سوي نفس : هب أننا اتفقنا كجماعة علي إصدار قانون معين ينظم مرور السيارات في المدينة «وهو قانون يعبر عن صالح الكل» ، ثم حدث في اليوم التالي أن وقفت أنا نفسي في الإشارة الحمراء ، فهل أقول أنني بسبب هذا القيد - لست حراً ؟! كلا ! لأنني وضعت بنفسي «علي نحو مباشر أو غير مباشر» هذا القيد أو هذا القانون ، وبالتالي فإنني حين أطيعه أطيع نفسي ؛ ولهذا السبب فأنا حر حرية حقيقية . وهكذا نصل إلي أن الحرية هي «التحديد الذاتي» هي الخضوع لقانون تضعه الذات بنفسها لنفسها ! .

« هل الإنسان حر بالطبيعة ..؟! »

أيمكن أن يطرح سؤال كهذا للبحث والمناقشة ؟ وماذا يمكن أن تكون حرية الإنسان الحقيقية إن لم تكن حرية – طبيعية – ؟! ولم يكن الإنسان – الطبيعي – أو ما يسمونه بالرجل – البدائي – مستمتعاً بحريته أكثر ألف مرة من إنسان – المدينة – أو الرجل المتمدين الحالي ؟ ألم يكن يتسلق الأشجار كما يحلوله ، ويقطف الثمار وقتما يشاء ، يجيد الصيد والقنص ويلهو مع الحيوانات في ساعات صفوه ورضاه .. ؟ أفيمكن أن تكون هناك حرية أجمل وأروع وأكمل وأتم من هذه الحرية الطبيعية : حرية اللا قيود ، واللا حدود : لا أوامر ، ولا نواهي ولا زواجر .. ؟؟ ألم يعلن الفاروق عمر صدق هذه الفكرة وعمقها في صيحته الخالدة لعمرو بن العاص : « متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .. » فكيف يمكن أن يجيء اليوم كاتب ؛ ليتشكك في هذه البديهية الواضحة ويتساءل : هل الإنسان حر بالطبيعة ؟ !

بهذا السيل الجارف من الاعتراضات ، اتخيل موقف القاريء حين يطالع عنوان هذا المقال ، والحق أنني لا أدهش من هذا الانفعال والحماس ضد محاولة إثارة الشكوك حول حرية الإنسان – الطبيعية – فكثير من الناس يؤمن بها ، ويترحم علي تلك الأيام الخوالي التي كان الإنسان يمارس فيها حريته الطبيعية في المجتمعات البسيطة الساذجة قبل تعقد الحياة الاجتماعية ، أو حتي قبل وجود المجتمع علي الإطلاق .

وليس الإنسان العادي – أو رجل الشارع – هو وحده الذي يعاوده

الحنين إلى الحياة الاجتماعية البسيطة أو حتي إلي حياة الغاب ، بل إنك لتجد من الفلاسفة من دعا إلي العودة إلي حياة الطبيعة هذه والبعد عن المدنية وما فيها من تعقيدات وقيود فهذا - جان جاك روسو - ١٧١٢ - ١٧٧٨ - الفيلسوف الفرنسي الشهير لا يجد غَضَاضَةً في الدعوة إلي العودة إلي الحياة الطبيعية : حياة الحرية الحقيقية لأن «« الاجتماع مفسدة »» علي حد تعبيره والمجتمع هو الذي يكبت الحريات ويقضي عليها !

لكن أصحيح أن إنسان الغابة كَان أكثر حرية من إنسان المدنية ؟ أيكون حراً لأنه يجري ويأكل ، ويشرب ، ويمارس الجنس ، بلا قيد ولاحد .. ؟ وهل المجتمع هو الذي يحد من حرية الإنسان - الطبيعية بحيث لو تفكك هذا المجتمع لاسترد الإنسان حريته التي فقدها بالاجتماع مع غيره من الناس . ؟ الواقع أن هذه الفكرة ظاهرة البطلان .. فلم يكن الإنسان في عبودية في يوم من الأيام أقسي من عبوديته الطبيعية ، ولم يكن يوما مصفداً في الأغلال والقيود من الخارج والداخل معاً قدر ما كان ، وفي حالته الطبيعية الأولي هذه علامة لا تخطيء علي الحرية والعبودية : كلما هبط في سلَّم التخلف وجدت العبودية بنفس نسبة التخلف ، تزيد بزيادتها وتقل كلما ارتقت في سلَّم المدينة .. أجل .. فقد كان الإنسان البدائي عبداً من الخارج ، أعني عبداً للطبيعة الخارجية خاضعًا لها في كل تصرفاته حتي أنه عبد ظواهرها جميعاً : عبد النبات والأنهار ، والجبال ، والشمس ، والقمر، وغيرهما من الكواكب . كما عبد الحيوان بأنواعه من الجعل - الجعران - المصري إلي الفيل الهندي .. وقدَّم لهذه المعبودات جميعاً القرابين والذبائح تقرباً وزلفاً .. أيمكن أن يكون عبد الطبيعة هذا حراً ... ؟ أيهما

أكثر حرية الإنسان : وهو يخضع للطبيعة ويعيش تحت رحمتها إن هو أبتني لنفسه كوخاً جاءت الريح ، لتقتلعه ، أم الإنسان الذي كشف أسرار الطبيعة وعرف قوانينها وتمكّن من السيطره عليها ، واخترع الطائرة والصاروخ وسفن الفضاء ، تشق السماء وتتحدي الرياح ؟ أكان الناس في مصر الفرعونية أكثر حرية عندما عبدوا النيل لأنه مصدر الخير والنماء ، فقدموا لملك الملوك أجمل الفتيات كل عام في موكب مهيب تقربا وزلفاً حتي لا يغيض الماء ، أم أنهم تحرروا حقاً عندما اكتشفوا منابعه ، وأقاموا الخزانات والسدود وشقوا الترع وتحكموا في مياه النهر يحبسونها حيناً ويتركونها أحياناً ؟ لا جدال في أن اكتشاف قوانين الظواهر الطبيعية والسيطرة عليها هي التي تحرر الإنسان من عبودية الطبيعة وأغلالها ، فكلما اكتشف قانوناً لظاهرة ما سيطر عليها وحطم قيداً كان يغله . ومن هنا كان نمو المعرفة البشرية يعني في الوقت نفسه نمو الحرية البشرية وازديادها بحيث يصبح التاريخ تقدماً مستمراً لوعي الإنسان بحريته .

وإذا كان الإنسان الطبيعي عبداً من الخارج ، أعني : عبداً للطبيعة الخارجية وظواهرها ، فإنه كذلك عبد من الداخل أيضاً ، بمعني أن الدوافع والميول الطبيعية الداخلية هي التي تسيطر عليه وتوجهه ، ومن هنا ذهب – مكدوجال – أحد علماء النفس المعاصرين - إلي أن الغريزة هي القوة الدافعة وراء كل نشاط للطبيعة البشرية ، فالغرائز الطبيعية عند الإنسان هي التي تحركه وتدفعه إلي النشاط لكي تحقق إشباعها .

ومعني ذلك أن الرغبات ، والدوافع ، والغرائز ، والميول الطبيعية ، أو ما يسميه الفيلسوف الإنجليزي – توماس هل جرين – بالإغراءات – هي التي تحدد للإنسان – الطبيعي – كيف يسلك ، وكيف يتصرف

أو هي التي تختار له الفعل إنْ جاز لنا استخدام كلمة – الاختيار – في مثل هذا السياق . وهذا الجانب – الطبيعي – في الإنسان لا يأبه إلا بالإشباع ، ولا يسعي إلا إليه فحسب ، ولهذا أطلق عليه القرآن الكريم اسم «« النفس الأمّارة »» التي تفعل السوء دون اكتراث بقيم أو معايير ، ولا تهتم بشيء سوي الإشباع وحده .

ـ متي يكون الإنسان حراً ومتي لا يكون .. ؟ ومَنْ هو العبد ؟ لابد إنْ تتضح هذه المفاهيم أنْ أردنا أن نلقي الضوء علي فكرة الحرية : يكون الإنسان حراً إنْ هو عبَّر في سلوكه عن شخصيته ، بحيث تكون أفعاله ملكه في نهاية الأمر ، أما العبد فهو ذلك الذي ينفذ أوامر وأفكار موجود آخر هو – السيد – وبالتالي ترتد أفعاله إلي إرادة السيد. والإنسان الطبيعي لا يعبر في سلوكه عن شخصيته كإنسان ؛ لأنه أقرب إلي الحيوان منه إلي الإنسان بالمعني الدقيق ، ومن هنا فإن الحياة الهمجية لا تمثل الحرية البشرية ؛ لأنها لا تحقق شيئاً من شخصية الإنسان ، وإنما تسودها أعمال العنف والانفعالات الوحشية ، ويغلب عليها الظلم والجور والقسوة ، لأن الدوافع الطبيعية لم تروض، والغرائز لم تهذب ولم يحدث لها شيء من العلو أو التسامي يرفعها من مرتبة الحيوانية إلي مرتبة المشاعر الإنسانية . وإذا كان المجتمع يضع قيوداً أو حدوداً فإنه إنما يمارس لوناً من ألوان الترويض والتهذيب للغرائز الفجة والانفعالات الوحشية وحدها ، وهو ، فضلاً عن ذلك ، يوضع في مرحلة حضارية أرقي ـ حداً للأنانية المتعمدة التي تتجلي في نزوات الأفراد وأهوائهم .

بقي أمامنا سؤالان : الأول : لو صَّح هذا التفسير للحرية فكيف نفسر إذن عبارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب التي أسلفنا ذكرها : «« متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »» ، فما الذي كان يقصده الفاروق بهذه العبارة ؟

وكيف يولد الناس أحراراً مع أن الإنسان – الطبيعي – هو أكثر الناس عبودية ورقاً ؟ الواقع أن المغزي العميق الذي تشير إليه العبارة هو أن الإنسان بما هو إنسان حر ، إنه حر من حيث فكرته أو ماهيته كإنسان ، فهو ـ أياً كان وضعه ـ عبد ، رقيق ، بدائي .. يمتلك – إمكانية – هذه الحرية بوصفه إنساناً ، وهذه الإمكانية تتحقق بالفعل عندما يرتفع من مستوي الحيوانية ، ويرقي عن حالته – الطبيعية الأولي – لكي يبلغ مرتبة الإنسان الحق الجدير بأن يكون خليفة لله في الأرض .

فكأن الفاروق يقرر مبدأ فلسفياً هو أن أي إنسان وكل إنسان حر بماهيته ومن ثَمّ فليس من حق أحد أن يستعبد غيره من الناس : والسؤال .. الثاني هو : إذا كان المجتمع يضع قيوداً أو حدوداً أمام إرادة الإنسان ؛ فكيف يمكن أن يكون المرء في المجتمع أكثر حرية مع وجود هذه العوائق والعقبات التي تضعها الدولة أمامه ؟ الواقع أن الإرادة التي تطيع القانون هي وحدها الإرادة الحرة لأنها لا تطيع إلا نفسها ، وتلك هي الحرية .

* * *

الحرية هى التحديد الذاتى ..

في يوم من أيام الآحاد المشمسة التي تتطلع إليها العاصمة البريطانية شتاءً، جلس شابان لا يعرف أحدهما الآخر علي واحدة من الأرائك المنتشرة في إحدي الحدائق العامة في مدينة لندن ، ويبدو أن أحدهما انتشي بأشعة الشمس الممتعة فتثاءب طويلاً ماداً ذراعه إلي آخرها حتي لمست أنف جاره الذي نظر إليه محتجاً .

- (ماذا يا صاح ؟ ! ألا تراعي يا هذا ؟!

فأجاب الأول في غير اكتراث (أنا حر ... !)

فاستدار له الجار ؛ ليعلّمه معني الحرية : (كلا يا صديقي ، أنت مخطيء ! إن حرية يدك تنتهي عندما تبدأ حرية أنفي !) . هذه الحادثة البسيطة التي نلتقي بالآلاف منها في حياتنا اليومية المألوفة تكشف لنا عن حقيقة أساسية : هي أن الحرية ليست مرادفة للفوضي أو (التصرف العشوائي) أو « السلوك الطبيعي » أو « الفعل الحيواني » لكن الحرية ، هي علي العكس : الفعل الذي يعّبر أصدق تعبير عن شخصية الإنسان وما هيته :

وهي بالتالي فعل يحد في نفس الوقت من الرغبات الفطرية ، ويهذب الغرائز والميول ، ويروضها .

ومن هنا تبدأ (الحدود أو التحديدات) في الظهور كجزء من مفهوم الحرية ذاته ، لكنها ليست تحديدات تعوق ممارسة الحرية ، وليست عقبات تمنع الفعل الحر من الظهور وتحيله إلي فعل مغلول

مـقـيـد . لكن قـد يسـأل سـائل : كـيف يمكن أن تكون هـناك حـرية مع وجود الحدود ؟ كيف يمكن أن أكـون حراً ومقيداً في آن معاً ؟! وقبل أن نجيب عن هـذا السؤال دعنا نتدبر هـذا المثال :-

افـرض اننا اجـتـمـعنا ثلاثـة أو أربعة أشـخـاص لنضع تنظيـمـاً لمرور السيارات في مجموعة من الشـوارع الرئيسية في إحدي المدن ، وافرض أننا انتهـينا إلي منع المرور في الشارع رقم كـذا إلا في اتجاه واحـد معين فحـسب ، وفي الشارع رقم كـذا في الاتجاه واحـد معين فـحسب ، وفي الشـارع رقم كـذا في الاتجـاه المضـاد ، وأغـلـقنا الشـارع رقم كـذا تمامـاً ومنعنا مـرور السـيـارات فـيـه ، وقـصـرناه علي لـعب الأطفـال ... إلخ . وافـرض أنني في اليـوم التـالـي ركبت سـيـارتي وسـرت فـي الشـارع كـذا فـمنعني شرطي المرور من الـسيـر إلا في الاتجاه المحـدد ، أو منعني من السـيـر في الشـارع تمامـاً لأنه مغلق ومـخـصـص للأطفال ، أيكون بهـذا المنع قد حد من حريتي ؟ أيكون ذلك إجباراً لـي ، وليس فعلا حراً ؟ !

الواقع أن الـقـول خطأ كـامل ؛ لأنـني حـتـي في هـذا المنع أو الحـد لازلت أمارس حريتي ، بل هـذه هـي الحرية الحقيقية ، هـناك حد .. نعم ! ولكني أنا الذي وضـعـت هـذا الحـد أو هـذا التحـديد ، فـالموقف إذاً عبـارة عن (تحـديد ذاتي) أنا أحـدد نفـسي بنفـسي ومن ثم فـالمنع أو الاتجـاه في طريق معين إنما يعـبر عن شـخـصيتي تمامـا ، وكلما كانت الأفـعال تعبر عن شـخـصـيتي كنت أكـثر حـرية . فـما أريده يتـحقق بالفـعل في أرض الواقـع . ولـهـذا قـيـل : إن الإرادة الحـرة هي وحـدهـا التي تطيع القانون لا التي تعصيه . لأنها تطيع نفسها وتخضع لذاتها .

غـيـر أن الـسـؤال المبـاشـر الـذي يطرأ علي ذهـن الـقـاريء هـو : ومـا الفرق إذاً بين الحـرية والـعـبودية ؟ أو بمعني أوضح لماذا نصف الناس في

بعض المجتمعات بأنهم عبيد رغم أنهم يطيعون القوانين في بلادهم ؟ ! وهذا سؤال بالغ الأهمية : الفارق الأساسي هو : أن الإرادة الحرة هي التي تطيع القانون الذي تصنعه هي ، الذي تشرّعه لنفسها ، فالحرية هي التحديد الذاتي : أنا الذي أضع لنفسي الحدود والقيود لغرائزي وللجوانب الحيوانية كي أسمو وأرتفع وأنمو ، وأتطور ، وأتقدم ، ولا أقف عند مرتبة الحيوان . لكن الناس الذين نصفهم بأنهم عبيد رغم أطاعتهم للقوانين تنقصهم هذه الخاصية الأساسية : وهي أنهم لم يضعوا القوانين لأنفسهم ، وإنما وضعها الحاكم ، أو الملك أو الرئيس .. إلخ .. إلخ دون أن يكون لهم فيها رأي ولا مشورة . ولهذا السبب فإننا نصف النظام الديمقراطي الذي ستمتع فيه الناس بحرياتهم بأنه النظام الذي يضع فيه المواطن القانون بنفسه ولا يضعه له شخص آخر ، فإذا ما أشترك المواطنون في تشريع القوانين فإنهم عند الالتزام بها لا يكونون عبيداً ، بل هم أحرار ؛ لأنهم هم الذين وضعوا لأنفسهم هم الذين وضعوا لأنفسهم هذا الالزام وهذا القيد أو الحد ، تماماً كما هي الحال عندما يشرع شخص ما لقواعد المرور ، ثم يقف بسيارته عند ظهور الضوء الأحمر ، ليس ذلك قيداً ولا حداً من حريته ، لأنه هو الذي حدد سلوكه بنفسه ؛ والتحديد الذاتي هو الحرية ؛ لأنه يرادف الاستقلال ، فأفعاله لا يحدها شخص غيره ، وهو لا يطيع أوامر (سيد) يأمر فيطاع ، وإنما هو مستقل في سلوكه يحدد نفسه بنفسه، ولهذا يستخدم مصطلح التحديد الذاتي في العلاقات الدولية للإشارة إلي استقلال الدول ؛ لأن ما يقال عن الفرد يقال عن الدولة أيضاً ، فلا تكون الدولة حرة إن اعتمد اقتصادها ، مثلاً علي دولة أخري، وإنما تكون حرة حقاً إذا كانت مواردها تكفيها ، بحيث يمكن أن تقول عنها : إنها مستقلة اقتصادياً ، أي : هي تحدد بنفسها ، دون تدخل من مصدر آخر ، فيما يتعلق بنشاطها الاقتصادي .

وربما كان ذلك أكثر ظهوراً في الحالة السياسية :

فالدولة التي تعتمد في سياستها علي دولة أخري تنظم لها سياستها ـ سواء في الداخل أو في الخارج ـ لا يمكن أن تكون دولة مستقلة حقيقة ، وبالتالي لا يمكن أن تكون دولة حرة ، لأن الدولة الحرة المستقلة هي التي تحدد بنفسها كل أنشطتها السياسية ، فالحرية هي التحديد الذاتي الذي تصبح به الدولة ، أو الفرد ، أو المجتمع .. ألخ موجوداً قائماً بنفسه ، سلوكه ، وأفعاله ملك له .

ويمكن أن توضح الفكرة بمثال أخير من صراعنا مع العدو الصهيوني : في حرب رمضان عام ١٩٧٣ قرأت تحليلاً لإحدي وكالات الأنباء الغربية تقول فيه : أنه لو امتنعت كل من روسيا وأمريكا عن تزويد العرب وإسرائيل بالأسلحة والذخائر ؛ لتوقف القتال بينهما بغير تدخل من أحد ؛ لأن الفريقين يعتمدان تماماً على الجسور الجوية الممتدة من الشرق والغرب ، ولا يحتفظان بمخزون من الذخائر إلا لعدة أيام تصبح بعدها الدبابات والمدافع قِطعاً من الحديد لا قيمة لها ، وقد تتحول الحرب إلي حرب بالحجارة .. !

ولطالما سألت نفسي : أيمكن أن أكون حراً في مثل هذا القتال، أتحكم فيه كيفما أشاء وأسيِّره وفق ما أريد ، وأنا أعتمد علي مصدر خارجي بيده الأمر كله .. بيده العطاء والمنع ؟ !

الحرية هي التحديد الذاتي الذي هو نفسه الاستقلال ، فأنت حر بمقدار ما تطيع القانون الذي اشتركت في صنعه ، وحددت فيه كيف تسير الأمور في المجتمع :

ولهـذا فإن العـقاب الذي يناله المجـرم الذي يخرج علي القـانون ليس إلا مظهراً لإرادته الحرة فهو الذي سبق أن حـدد ، بطريق مباشـر أو غير مباشـر ، أن مَنْ يسرق يناله كذا وكذا من العقـاب ، فلا يلـومن اليوم إلا نفسه .

* * *

خامساً : متفرقات

١ – الحب – أنواع !

٢ – عن الحب ، والرغبة ، والإرادة !

٣ – حدث في الحديقة !

٤ – حديث عن النار ... !

٥ – من فلسفة البخل ، إلي بخل الفلاسفة !

٦ – نعمة النسيان وسهوات الحكماء !

٧ – التجربة المصرية بمنظور هيجلي .. !

« الحب أنواع ... ! »

– أتكتب عن الحب ... ؟!

– وماذا في ذلك ؟ !

– مجتمعنا لا يجيز مثل هذا الحديث !

– أتراه يجيز الحديث عن « الكراهية » وحدها .. ؟!

– لست أدري !

اجلس ، إذن ، لأقرأ عليك بعض الأوراق المبعثرة للفكرة التي أنوي أن أعرض لها ، فإن راقتك دفعنا بها إلي المطبعة ، وإلا مزقنا الأوراق وكان الله « يحب » المحسنين !!

الفكرة ببساطة تقول : إن للحب أنواعاً كثيرة ، تبدأ من أعلاها وهو «الحب الإلهي » الذي به كل شيء كان في هذا العالم ، بمعني أن الوجود خُلق بفعل من أفعال المحبة الإلهية ، لأن الله يحب مخلوقاته التى أوجدها ، « فالوجود في النهاية أفضل من العدم » ، وهذا ما يسمي في « فلسفة الدين » باسم « ميتافيزيقا الحب » التي تذهب إلي أن النسيج الأول للوجود هو الحب ، وأن الخلق هو في آن واحد « فعل الحب ، والفعل الخالق للحب » ومن ثَمَّ فإن الموجودات كلها تدين بوجودها لله ، ولفعل من أفعال الحب الإلهي !

وأنا أعلم ، يا سيدي ، أن خيالك الخصب سوف يسرح بعيداً ، فيظن أن هذه أفكار من « تراث الغرب » ! وكأن المسلمين لا يعرفون شيئاً عن الحب ! كلا يا صديقي ، فهذه أفكار من تراث المسلمين ،

والغرب هذه المرة هو الذي ينقل عنا ! فها هو الفيلسوف الألماني الكبير هيجل يستشهد بأبيات من شعر جلال الدين الرومي – المعروف في التراث بمولانا جلال الدين «١٢٠٧ – ١٢٧٣» أعظم شعراء الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ، والذي كان يعتقد أن الحب «دواء لكبريائنا ، وفتنتنا بأنفسنا ، وطبيب لضعفنا ، وهو مُخلِّصنا من اثرتنا» .. أقول : إن هيجل يلجأ في نهاية كتابه «موسوعة العلوم الفلسفية» إلي الاستشهاد «بميتافيزيقا الحب» عند هذا الصوفي العظيم الذي يصور بأبيات تقطر جمالاً وحلاوة ، كيف أن الحب هو لُحمة هذا الوجود وسَدَاه ، فاستمع إلي «جلال الدين الرومي» يفسر لك نسيج الوجود .

«سوف أخبرك كيف خلق الله الإنسان من طين : ذلك أنه ، جلَّ جلاله ، نفخ في الطين أنفاس الحب !

– سأقول لك : لماذا تمضي الأفلاك في مداراتها ؟

ذلك أن عرض الله ، سبحانه ، يغمرها بانعكاسات الحب !

– سأقول لك : لماذا تهب رياح الصباح ؟

ذلك لأنها تريد أن توقظ بغزارة أزهار الحب !

– سأقول لك لماذا يتشح الليل بغلائله ؟

ذلك أنه يدعو الناس إلي الصلاة في مخدع الحب !

– إنني استطيع أن أفسر لك جميع ألغاز الكون : وما الحل الوحيد لكل لغز سوي الحب !»

ذلك هو الحب الإلهي ، كما يصوره شاعرنا العظيم ، الذي فاض

فغمر الكون كله ، والذي صوره الكتاب المقدس بقوله : «« مِنْ مِلْئِه نَحنُ جميعاً أخذنا»» ! .

– تلك هي البداية ، فما رأيك ؟ !

أكمل دون أن تسألني ، فقد أصابني ما يشبه الدوار !

ويقابل هذا «« الحب الإلهي »» الذي غمر الوجود بأسره ، حب الإنسان لله .

– وهو الجانب الثاني من العلاقة ، الذي يظهر بوضوح أيضاً عند متصوفة الإسلام الذين اتجهوا إلي الله بفعل من أفعال المحبة البشرية ، فما دمنا قد ولدنا في تيار الحب الإلهي الذي يغمرنا ، فإن هذا الحب يعود الآن مرة أخري إلي منبعه ، ولقد بني صوفية الإسلام مذهبهم في الحب الإلهي بنوعيه «« حب الله للإنسان وحب الإنسان لله »» علي الآية الكريمة : ﴿ **يأيها الذين آمنوا مَنْ يرتدَّ منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبُهم ويحبُونَه * أذلةٍ علي المؤمنين * أعزَّةٍ علي الكافرين ..** ﴾ المائدة آية ٥٤

واعتبروها دعوة صريحة إلي الحب بنوعيه ! فلبوها مغتبطين فرحين ! . فهذه رابعة العدوية تعلن صراحة أن اتجاهها إلي الله ليس مصدره الخوف من النار أو الطمع في الجنة « وإنما أنا أعبدك من أجل محبتك ، فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي » استمع إليها في إحدي مناجياتها تقول :

« إلهي ! اجعل الجنة لأحبائك ، والنار لأعدائك ، أما أنا فحسبي أنت ! » .

«إلهي ! أغرقني في حبك حتي لا يشغلني أحد عنك» !

«إلهي ! أنارت النجوم ونامت العيون ، وغلّقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب لحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك !» وأيضاً :

حبيبٌ ليس يعدله حبيب ولا لسواه فى قلبى نصيب !
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن فى فؤادى لا يغيب !

وأيضاً

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وروائع «عمر بن الفارض في الحب معروفة ، حتي منحه المؤرخون لقب «سلطان العاشقين ، وإمام المحبين !» وكان هو نفسه يفاخر بذلك :

كل مَنْ في حماك يهواك لكن
أنا وحدي بكل مَنْ في حماكا
يحشر العاشقون تحت لوائي
وجميع الملاح تحت لواكا !

فإذا ما هبطنا إلي المستوي البشري ، أعني : الحب بين الرجل والمرأة ، فإننا نستطيع أن نبدأ ببعض التفسيرات الأسطورية التي أوردها أفلاطون في محاورة «المأدبة» التي خصصها لمناقشة الحب ! فأجري علي لسان «أرستوفان» الشاعر اليوناني المعروف تفسيراً

لقوة الحب وسلطانه بين الذكر والأنثي ، ملخصه : أن الإنسان كان في البداية مخلوقاً واحداً يجمع بين خصائص الرجل والمرأة ، أوهما كانا كتلة واحدة ، لها من الأيدي أربع ، ومن الأرجل كذلك ، وله وجهان متشابهان ، ورأس يدور في جميع الاتجاهات ، وله أربع آذان ، وكان هذا المخلوق الغريب بالغ القوة ، يجري بسرعة رهيبة يمشي إلي الوراء وإلي الأمام كما يشاء .. إلخ ، باختصار : كان له من القوة والبأس ما جعله مخيفا حتي ركبه الغرور فحاول أن يرقي إلي السماء ويهاجم الآلهة ! فشطرته الآلهة شطرين ؛ حتي تضعف من قوته وتخفف من غروره ! وعقب شطر الإنسان الأول شطرين إلي رجل وامرأة ، أخذ كل شطر يبحث عن شطره الآخر ، فإذا ما التقي به تعانقا بقوة ، لكأنما يريدان أن يعودا كائناً واحداً كما كانا من قبل ! ويروي سقراط في المحاورة نفسها ، أسطورة أخري تفسر الخصائص المتناقضة للحب ، خلاصتها ، أن الإلهة كانت تحتفل بميلاد « أفروديت » إلهة الجمال ، فأقام كبير الآلهة زيوس Zeus وليمة كبري حضرها بوروس Poros « أو الغني » ، وبعد العشاء ، تسللت بنيا «Penia» «الحاجة أو الفقر » إلي تلك الوليمة تستجدي شيئاً ووقفت بجوار الباب ، وكان « بوروس » قد سكر لفرط ما شرب من الخمر الإلهية فخرج إلي حديقة « زيوس » وغلبه النعاس فنام تحت شجرة ! وفكرت « بنيا » في تخفيف بعض ما تعانيه من بؤس وشقاء بأن تَحْمِلَ طفلاً من « الغني » ، فاجتمعت به وحملت « بالحب » ! فالحب إذن ، حمل به في مولد « أفروديت » ؛ لذلك تجد فيه شوقاً عارماً إلي الجمال ! ولما كان أبوه « الغني » وأمه « الفقر » كان الحب يحمل هذه الخصائص المتناقضة ، فهو فقير معدم يرقد علي الأرض وفي الطرقات ـ ذلك ما ورثه عن أمه ، لكنه من ناحية

أخري ، يسعي دائباً إلي الخير والجمال ، جسور مقدام يطلب الحكمة ! وهذا ما ورثه عن أبيه ، فلا تعجب عندما تجد رجلاً فقيراً يحب امرأة غنية أو العكس ، فتلك خصال الحب ، إنه مركب من الجهل والحكمة ، من القوة والضعف ، من الغني والفقر !!

– فإذا تركنا الأساطير وتفسيرات الحب التي لا آخر لها منذ أقدم العصور حتي الآن ، وأردنا أن نعرف كيف تصور هذه العلاقة بين الرجل والمرأة علي ألسنة الشعراء ، فلستُ أجد عندي أجمل من مثالين هما من أرق ما قرأتُ من شعر في تصوير الحب البشري ، أما الأول فهو لشاعر الهند العظيم ((طاغور ١٩٦١ – ١٩٤١)) الذي كانت أشعاره وأناشيده – وكان ينشيء موسيقاها بنفسه – تهز الهند كلها، وتسمعها علي شفاه أهل الريف السذج ! فهذه فتاة في عمر الزهور تسأل حبيبها عن صدق ما يقوله لها من غزل – وإليك ما قاله طاغور علي لسانها .

- ومَنْ سواه قد عبَّر عن لغو الغرام الذي لا يخلو من قدسية ؟ !
- نبئني يا حبيبي ، إنْ كان ذلك كله صدقا ....
- أ إذا لمعت هاتان العينان ببرقهما ، استجابْت لهما السحائب الدكناء في صدرك بالعواصف ؟ !
- أصحيح أن شفتي في حلاوة برعم الحب المتفتح حين يكون الحب في أول وعيه ؟ !
- أتري ذكريات ما مضي من أشهر الربيع ما تزال عالقة في جوارح بدني ؟ !

- أصحيح أن الأرض كأنها القيثارة ، تهتز بالغناء كلما مستها قدماي ؟ !

- أصحيح ، إذن ، أن الليل تدمع عيناه بقطرات الندي كلما بدوت لناظريك ، وأن ضوء الصبح ينتشي فرحاً إذا ما لف بدني بأشعته ؟ !

- أصحيح .. أصحيح .. أن حبك لم يزل يخبط فريداً خلال العصور ، ويتنقل من عالم إلي عالم باحثاً عني ؟ !

- وأنك حين وجدتني آخر الأمر ، وجدتْ رغبتُك الأزلية سكينتها التامة في عذب حديثي ، وفي عيني ، وشفتي ، وشعري المسدول ؟ !

- أصحيح ، إذن ، أن لغز اللانهائية مكتوب علي جبيني هذا الصغير ؟! نبئني يا حبيبي ، إنْ كان ذلك كله صدقا !! »

تلك هي أبيات شاعر الهند « طاغور » لفتاة تسأل ، فبماذا يمكن أن يجيبها حبيبها ؟ ! أتراه يستطيع أن يجيب معبراً عن شعوره ، بأبيات أشد عذوبة من أبيات شاعرنا الشاب الذي عصر الحب والشعر قلبه ، فمات هو الآخر في عمر الزهور ، ولما يبلغ السادسة والعشرين من عمره !! « أبو القاسم الشابي ١٩٠٩ - ١٩٣٤ » في رائعته المسماة « صلوات في هيكل الحب » ؟ !

عذبةٌ أنتِ كالطفولة ، كالأحلام كاللحن ، كالصباح الجديد !
كالسماء الضَحوك كالليلة القمراء كالورد ، كابتسام الوليد !
يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد !
أنت ، ما أنت ؟! أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود !

فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معبود !
كلما أبصرتك عيناي تمشين بخطو موقع كالنشيد !
خفق القلب للحياة ، ورفّ الزهر في حقل عمري المجرود!
أنت فوق الخيال ، والشعر والفن وفوق النهي ، وفوق الحدود !
أنت قُدسي ، ومعبدي ، وصباحي وربيعي ، ونشوتي وخلودي !
يا ابنة النور ! إنني أنا وحدي من رأي فيكِ روعة المعبود !

– إلي آخر هذه القصيدة الجميلة العذبة .. فما رأيك ؟ !

– تنهد الصديق طويلاً وهو يقول : فتح الله عليك ، وأنار لك الطريق ، وغمر قلبك بالحب .. بكل أنواعه !

* * *

« حول الرغبة .. والحب .. والإرادة !! »

كثيراً ما نستخدم الكلمة ؛ لتشير إلي شيء آخر غير مدلولها الأصلي ، ويألف الناس هذا الاستخدام الخاطيء حتي أنهم يتعجبون كيف يمكن أن يكون لها معني غير المعني الذي يستخدمونها فيه ؟! ولدينا في لغتنا العربية ثلاث كلمات اختلط معناها حتي أصبح من الممكن استخدام أي منها ؛ لتقوم مقام الأخري ، وهي كلمات : الرغبة . والحب ، والإرادة . فقد اختلط مدلولها علي نحو جعل من الصعب علي رجل الشارع أن يفرق بينها . فكثيراً ما يقول : أنا أحب كذا .. لكن الأدق أن يقول : «أنا أرغب في كذا ..» ، وكثيرا ما يقول : «أنا أرغب في كذا» . وكان الأجدر به أن يقول :«أنا أريد كذا..»

ولو سأل سائل : وهل هناك فارق بين الرغبة والحب .. ؟ لأجابنا أن الفارق جد بعيد ، فالرغبة نفعية أو مغرضة ، تستهدف مصلحة معينة فيما يرغب فيه المرء ... أما الحب فهو منزَّه عن كل غرض وكل مصلحة . وعلي ذلك فإن المرء يسيء التعبير حين يقول : أنه يحب هذا الشيء أو ذاك ، في حين أنه في الواقع يرغبه فحسب . فقوله مثلاً أنه يحب هذا اللون أو ذاك من ألوان الفاكهة ، أو أنه – يحب – هذا اللون من الطعام .. إلخ . أمثال هذه التعبيرات ليست دقيقة : أنه « يرغب » في هذا اللون من الفاكهة أو الطعام لأنه يشبع جانباً من جوانبه الجسمية ، ويرضي عملية من العمليات البيولوجية أو يغذي نمواً معينا .. إلخ . إن ما نحبه في هذه الحالة هو أنفسنا ، فنحن لا نريد هذه الأشياء التى تشبع الرغبة إلا من أجل أنفسنا فحسب . فنحن

نرغب في الطعام ؛ لنشبع مطالبنا الخاصة ، لكننا نحب أنفسنا بغير غرض أو مصلحة ، وبالتالي فنحن نرغب في الأشياء لأننا نحب أنفسنا ، فالحب إذن شيء غير الرغبة ، الحب يعني أن تريد شيئاً لذاته فقولي « أنا أحب هذا .. معناه أنني أطلبه لذاته ، أود أن أستمتع بجماله لذات جماله ، وبخيره لخيره نفسه فحسب ، دون أي اعتبار آخر لشيء غير جماله أو خيره ، ولقد عبّرت « رابعة العدوية » متصوفة الإسلام الشهيرة عن هذه الفكرة أصدق تعبير في قولها ملخصة حبها لله : « إن كنتُ أحبك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، وإن كنت أحبك خوفاً من نارك ، فاحرقني بنار جهنم ، أما إذا كنتُ أحبك من أجل ذاتك فلا تحرمني من رؤية جمالك الأزلي يا إلهي ! » وقولها أيضا : « ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه » . فالحب لا يستهدف منفعة ولا مصلحة ، كما أنه من ناحية أخري لا يسعي إلي أي جزاء ولا ينتظر أية مكافأة ، ولو أنه فعل ذلك لتوقف في الحال عن أن يكون حباً ! حب الأب لأبنائه لا منفعة فيه ولا مصلحة ، ولا غرض ، فهو يحب أبناءه لأنهم أبناؤه ، لا أكثر ولا أقل ، وكذلك حب الأبناء لوالديهم حب نزيه يخلو تماما من الغرض .. إلخ .

وكذلك قولك إنني أحب الغروب أو شروق الشمس ، أو هذه اللوحة أو هذه الوردة أو خرير الماء أو هديل الحمام .. إلخ ، فليس في ذلك كله مصلحة أو غرض أو منفعة فأنت تحب الشيء لذات الشيء نفسه ، لكن إذا كنا نحذف من الحب كل غرض أو نفع أو مصلحة ، فإنه لا ينبغي علينا أيضاً أن نطلب من المحب أن يستبعد ما يشعر به من متعة مصاحبة ، ذلك لأن الموضوع الذي نحبه قد يعطينا شيئا من المتعة ، وهذه المتعة جزء من جوهر الحب نفسه ، فلاشك أنني استمتع

بالجمال دون أن يفسد ذلك حبي له ، بل يبقي الحب مع ذلك بغير غرض أو مصلحة .

لابد أن يكون الحب نزيهاً ، فالنزاهة هي ماهية الحب الحقيقي ، ومَنْ لا يبحث في الحب عن شيء آخر سوي الحب يحصل علي المتعة التي تجلبها معه ، ومَنْ يبحث فى الحب عن شيء آخر غير الحب نفسه يفقد الحب والمتعة التي تصاحبه في آن معاً ، فالحب لا يمكن أن يوجد إلا إذا بحثنا عنه بغير جزاء أو مكافأة ..

وهكذا يتميز الحب عن الرغبة التي هي غرضية أو نفعية في جوهرها ، فقولي : « أنا أرغب في كذا .. » ، يعني أنني لا أطلبه لذاته، وإنما من أجل هدف معين أو مصلحة خاصة يحققها : فالرغبة في الطعام لإشباع الجوع ، والرغبة في السيارة لتسهيل الاتصال والانتقال ، والرغبة في تعلم لغة أجنبية للوقوف علي ثقافة معينة أو للتفاهم مع أشخاص معينين ، أو للسياحة في مجتمع ما ... إلخ ـ دائما من أجل غرض أو غاية ـ لكني لو قلت إنني « أحب اللغة العربية .. » فأن ذلك يعني أنني أحبها لذاتها ، ولو قلت : أنني أحب قراءة القرآن الكريم .. فإن ذلك يعني أنني لا أرجو من وراء تلك القراءة نفعاً ولا غاية.

بقي أن نسأل : وما المقصود بالإرادة .. لأننا كثيراً ما نتحدث عنها ونوحد بينها وبين الرغبة فنقول : « أنا أريد كذا .. » في الوقت الذي يكون فيه مقصدي .. « أنا أرغب في كذا » .

الواقع أن الإرادة تختلف عن الرغبة من حيث أن لها جوانب معينة تتميز بها : الجانب الأول ـ أن يكون هناك شيء في ذهني أريد أن أحدثه في العالم . أريد أن أظهره إلي حيز الوجود ، ويكتمل الموقف الإرادي عندما يتم التغير المطلوب إحداثه في العالم بالفعل طبقا للفكرة

التي كانت موجودة في ذهني ، فإذا أردتُ الذهاب إلي المسرح لمشاهدة مسرحية معينة ، فإن هذه الإرادة تتحقق عندما أجلس بالفعل وسط المشاهدين ، فهناك سلسلة من الأفعال أقوم بها لتنفيذ الفكرة في ذهني إذا اكتملت تحقق الموقف الإرادي ، ولهذا فإن من الباحثين من يوحد ، بحق ، بين « الإرادة ، والحرية » فهما الاسم السلبي والاسم الإيجابي لخاصية واحدة ، هي خاصية الفعل الذي نحقق به أغراضنا الخارجية في عالم الواقع : فأنا أريد بمقدار ما يكون سلوكي الخارجي معبراً عن ذاتي ، وفي هذه الحالة نفسها أكون حراً ، ومن هنا كانت الإرادة والحرية شيئاً واحداً ، لأن الإرادة التي نقول عنها أنها « ليست حرة » لابد أن تكون إرادة لا تترجم هدفي الخاص إلي عالم الواقع ، وبالتالي فهي ليست إرادة علي الإطلاق . ومن ثم فالسؤال : هل نحن أحرار ؟ يمكن أن يكون أكثر وضوحاً لو وضع في صيغة مساوية فقلنا : هل أردنا شيئاً قط .. ؟ وإذا ما وُضِعَ السؤال علي هذا النحو فسوف تتولي التجربة والخبرة الإجابة عنه مباشرة ، إذ لا شك أنه كانت لدينا أغراض معينة في حياتنا ، ولا شك أيضا أننا ترجمنا هذه الأغراض إلي سلوك ، ومن هنا فإن الحرية ، يقيناً ، واقع من وقائع الخبرة المباشرة !

إذا ما أراد شخص ما ، فإن إرادته لابد أن تكون حرة ؛ لأن الإرادة هي التحقق الفعلي لفكرة في ذهني يراد إظهارها إلي الوجود ، ولا معني لقولي « أريد .. » فحسب .. ! ومن هنا يشترط في الشيء الذي أريده أن يكون من الممكن تحقيقه ، ولو أنني تصورت شيئاً لا يمكن تحقيقه ، فإنه لا يكون في هذه الحالة إرادة ، بل رغبة . والفرق واسع بين الرغبة والإرادة : الرغبة طموحة يمكن أن تشطح وتنشط حتي لترغب في المستحيل ، فقد أرغب مثلاً في الفرار من الموت ، أو أرغب في تغيير مسار النجوم ، أو استمرار الشروق ووقف الغروب .. إلخ : لكن من الجنون أن أقول : « أنا أريد هذه الأشياء .. ! » ، ذلك لأن

الحمقي ، علي ما يقول أرسطو : هم وحدهم الذين يختارون أمثال هذه الأمور ويريدون تحقيقها ، في حين أن الإرادة لابد أن تستهدف شيئاً يمكن تحقيقه ، أما الرغبة فقد تمتد إلي أشياء لا نستطيع تحقيقها ، كنجاح ممثل ، أو فوز رياضي ، لكنا لا نختار هذه الأشياء عن عمد ، وإنما نختار فحسب تلك الأشياء التي نعتقد أن في استطاعتنا تحقيقها ؛ لأن الإرادة هي ما يستطيع الموجود العاقل تحقيقه ، أو أن يعقد العزم علي تنفيذه ، ويتخذ الخطوات الإيجابية التي تظهره إلي حيز الوجود الفعلي ...

* * *

حَـــــدَثَ في الحديقـــــة ... !

ليست الحدائق دائماً مكاناً يلتقي فيه العشاق حيث يلتفون حول الورود والرياحين ، ويستمعون إلي خرير الماء ووشوشة العصافير ، لكنك قد تجد فيها أيضاً إلي جانب الأزهار كثيراً من الأفكار . وقد تكون مجالاً فسيحاً للتأمل والحوار والدرس والنقاش المثمر الخلاق ! فقد كان أرسطو ، مثلاً ، المعلم الأول ، يحب إلقاء دروسه في الهواء الطلق ، فكان يمشي في حديقة المدرسة التي أنشأها « اللوقيون » ويلتف حوله التلاميذ ، فيشرح ويفسر وهو يمشي وهم يسيرون وراءه ومن حوله حتي لقب هو وأتباعه « بالمشائين » !

وطاغور شاعر الهند العظيم « ١٨٦١ – ١٩٤١ » شكّلت نفسه الصافية تلك الحديقة الهائلة في قصر والده ، فكان يقف ساعات طويلة يتحادث مع الورود حتي عبَّ من هذه الينابيع الثرّة مستصفيا أعذبها وأطيبها ! ولهذا نراه في عام ١٩٠١ ينشيء في إحدي ضواحي كلكتا مدرسة يسميها « مرفأ السلام ! » ويختار أن تكون هي نفسها وسط حديقة جميلة يشترط فيها أن يقوم الطلاب يوميا بعد الغداء بزراعة زهور جديدة في هذه الحديقة ، كما يعملون ساعات في تنسيقها كجزء من برنامج الدراسة العملية !

وما زالت حديقة « هايد بارك » الشهيرة في لندن التي تمتد لأكثر من ثلاثمائة فدان ، وكانت في الأصل مرتعاً للغزلان تقتطع جزءاً منها ؛ ليكون مدرسة سياسية من الدرجة الأولي ، وهو الركن الشهير المسمي « بركن الخطباء » والذي تجده علي مدار العام يعج بالخطباء

من كل نحلة ولسان يرتقون المنابر ؛ ليخطبوا في السياسة ، أو الدين ، أو التربية ، أو الاجتماع ، أو الأخلاق ... أو لينقدوا الحكومة علي مرأي ومسمع من الشرطة التي لا تتدخل إلا لفض شجار نشب بين الرواد أنفسهم من ناحية ، أو بينهم وبين الخطباء من ناحية أخري ! أمَّا مَنْ أراد أن يستمع إلي هؤلاء الخطباء أو يناقشهم بغير خوفٍ ولا حرجاً فله مطلق الحرية في ذلك ، ومن هنا فإنك تجد مَنْ الرواد من يتحلق حول الخطباء ؛ ليناقشهم مناقشة جادة حيناً وهازلة حيناً آخر ، ومنهم مَنْ يذهب للترويح عن النفس وإزجاء وقت الفراغ .. !

لكنك لا تعدم أيضاً وجود أفكار هامة في حدائق فرنسا ، فهناك قصة عن « التعريف الدقيق للحرية » علي نحو ما حددته حادثة حدثت في إحدي الحدائق العامة في باريس ، إذ جلس مواطنان فرنسيان لا يعرف كل منهما الآخر علي أريكة واحدة ، وعندما تثاءب أحدهما بقوة وتمطي في استرخاء ماداً ذراعيه في الهواء ضارباً بقبضة يده أنف جاره الذي يجلس إلي جانبه - نبهه هذا الأخير بلطف ، لكنه فوجيء بالرجل يقول في عدم اكتراث غريب : « أنا حر ! » ، فالتفت إليه الجار دهشاً وهو يقول : كلا يا صديقي ! لست حراً ! وإنما حرية يدك تنتهي عندما تبدأ حرية أنفي ! » . وهكذا حدث أن تحددت الحرية تحديداً دقيقاً في الحديقة : فحريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين : ذلك لأن الحرية المطلقة إنما ترادف الفوضي !

ومن التحولات الروحية العنيفة ما حدث أيضاً في الحديقة ! فلقد قضي القديس أوغسطين st. Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠) فيلسوف المسيحية الأكبر - شطراً طويلاً من حياته في لهو وفجور وعشق لإحدي الغانيات التي أنجب منها طفلاً كان يسميه أحيانا « ابن

خطيئتي ›› أو ‹‹ عطية الله ›› أحياناً أخرى ! وفي إحدي الليالي ، وهو جالس في حديقة مدينة ‹‹ كسكياكم Cassiciacum ›› ، سمع صوتاً يغني ويقول ‹‹ خذ واقرأ ! ›› وإذا بالصوت يكرر ويكرر هذا الغناء عدة مرات ! فشعر كما لو أن صوتاً إلهيا يأمره بالقراءة ! وكان قد وضع الكتاب المقدس إلي جواره ، فتناوله وأخذ يقرأ في رسائل القديس بولس في الصفحة التي فتحها بطريقة عشوائية وإذا بها تقول : ‹‹ لا بالبطر ولا بالسكر ولا بالمضاجع والعهر ولا بالخصام والحسد إلخ . [الرسالة إلي أهل رومية إصحاح ١٣ : ١٣] . وتناول الكتاب مرة أخري وفتحه كما اتفق وإذا به يقرأ في مزامير داود : ‹‹ وقال الأحمق في نفسه ليس يوجد إله .. !! ›› فشعر كأن هذه العبارات تتجه إليه ، وكانت تلك الحادثة نقطة تحول روحي عميق في حياة ‹‹ أوغسطين ›› جعلته يهب حياته للدفاع عن المسيحية ، فعاش ناسكاً يتعبد في الصحراء ، يقرأ ، ويكتب دفاعا عن الدين ولم يقرب امرأة بعد ذلك قط !

لكن ليست كل الأحداث التي تحدث في الحديقة أحداثاً سلمية تخلو من العنف علي هذا النحو ! بل يروي أن الحديقة كانت في بعض الأحيان سبباً في أحداث دامية ! فلقد بعث ‹‹ تاركونيس Targuinius ›› أقدم ملوك روما في القرن السادس قبل الميلاد وهو الملقب بالمتكبر لشدة غطرسته وطغيانه – بعث ابنه لفتح مدينة جابي Gabii القريبة من روما ، وبعد أن أتم الابن غزو المدينة أرسل إلي والده في روما رسولاً و يسأله عن الخطوة التالية التي ينبغي عليه أن يقوم بها بعد أن دانت له المدينة تماماً ! غير أن والده لم يشأ أن يضع ثقته في الرسول ، وبالتالي لم يطلعه علي رأيه ، واكتفي بأن أصطحبه في نزهة في حديقة القصر ، وسارا يتسامران بينما راح الأب يضرب بعصاه الرؤوس

الطويلة للنبات ! وعاد الرسول إلي « جابي » يروي للابن ما حدث ، وهو يقول إن الملك لم يخبره ، بشيء سوي أن أخذه في نزهة راح يضرب فيها النباتات الطويلة في الحديقة ! وفهم الابن ما لم يفهمه الرسول ، وهو أن والده يقول له : إن الخطوة التالية التي ينبغي عليك أن تقوم بها هي أن تتخلص من الرؤوس الكبيرة بين شعب جابي ، أي أن تقتل علية القوم في المدينة فشرع الابن في الحال في تنفيذ الأمر ! وهكذا كان ما حدث في الحديقة وبالاً علي شعب جابي !!

وكادت تحدث للفلسفة « نكبة » مماثلة لولا أن الله سلّم !

فقد حدثت حادثة أيضا في الحديقة كانت إرهاصاً لعنف لا تحمد عقباه ! إذ يروي عن الفيلسوف الألماني العظيم إمانويل كانط I. Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) أنه كان يتنزه في حديقة عامة عندما استوقفه نفر من معارفه وأصدقائه ، وفتحوا معه موضوع الحرب التي كانت دائرة آنذاك بين بريطانيا العظمي والثوار الأميركيين والتي سميت باسم « حرب الاستقلال » وانتهت بالفعل ، باستقلال الولايات المتحدة « عام ١٧٨٣ » ونسي الفيلسوف نفسه وحمل علي بريطانيا حملة شعواء، بل راح يؤيد كل أمة من أمم الشرق أو الغرب تسعي إلي الاستقلال ، وينحو باللائمة علي دول الاستعمار وعلي رأسها « بريطانيا العظمي » !!

ولم ينتبه الفيلسوف وهو ينطلق في هذه الحملة العنيفة ، إلا علي صوت رجل عملاق ، عريض المنكبين ، مفتول العضلات ينحني أمامه في أدب جم وهو يقول : « إنني يا سيدي أدعوك إلي المبارزة ! وأترك لك تحديد الزمان والمكان والشهود ونوع السلاح !! » .

وسأله الفيلسوف مندهشاً :

- ولم يا صاح ؟ ! ››

فأجاب الرجل :

- ‹‹ لأنني إنجليزي ، وأنت منذ ساعة تهين بلادي علي مسمع من هؤلاء القوم !! ››

وأُسقط في يد كانط : ماذا يفعل ؟ ! صحيح أنه كان مارداً فكرياً جباراً في عالم الفلسفة ، لكنه كان قزماً بين الرجال ، إذ لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام ! ضئيلاً نحيلاً قلّما تقوي قدماه علي حمل رأسه الكبير الذي يحمل ثروة من الأفكار .. ! ومن هنا تردد كانط في الجواب وأطال التفكير ! نعم لقد كان يقتحم الأفكار العقلية الهائلة بشجاعته الأدبية ، لكن لم تكن له قدرة علي حمل السلاح والمبارزة ، بل لم يعرف في حياته قط سلاحاً سوي المنطق ! لقد قضي أيامه بين الكتب والمكتبات والتدريس بالجامعة ! فكيف يخرج من هذا المأزق ؟ ! وأخيراً قال للرجل :

- اسمع يا صديقي ، أنت تعتقد أنني أخطأت في حق بلادك ، وأنني أهنتها في حديثي عن الاستعمار ، وتطلب مني المبارزة ، وأنا أوافق بشرط واحد أن نختار أن نتبارز بنفس السلاح الذي تقول إنني أخطأت فيه ، وأعني به ‹‹ سلاح البرهان والمنطق ›› ، إنه السلاح الذي وقعت به الإهانة ، وهو نفسه السلاح الذي ينبغي أن تمحي به !

ولقد اختار ‹‹ كانط ›› سلاحه وهو واثق من قوته وقدته علي ممارسته وبراعته فيه ! فلم يلبث خصمه أن تراجع واعترف بالهزيمة بعد حوار قصير ! وطاب له الحديث مع الفيلسوف فاسترسل فيه ،

وسارا يتحادثان ولم يشعر بنفسه إلا وهو علي مقربة من مسكن كانط والفيلسوف يدعوه لزيارته ، فكانت هذه الزيارة فاتحة لصداقة طويلة بين الخصمين !

أرأيت إذن ، إن الحديقة يمكن أن تكون مجالاً خصباً لكثير من الأفكار التي تنمو وتتألق جنباً إلي جنب مع الأزهار والورود ، فتنعشك بأريجها الطيب ، وإن كانت لا تخلو أحياناً من شوك وحسك ؟ !

* * *

حديــث عن النــار ... !

لم يتـخلف أبداً عن مـوعـده من قـبل ، ولكنه كـان ينتظر لقـاءنا في لهـفـةٍ وشـوق ، ولـم نكـن نلتقي إلا يـوماً في الأسـبـوع نتـسامـر حـيناً ، ونتناقش أحـياناً ، وكـان دائمـاً يلقاني باسم الـثغـر ، منشـرح الصـدر ، تكاد أسـاريره تفـضح نـقـاء قلبـه ، وطاقـة حـبـه ، وقـدراً من الصـفـاء لا يوصف !

لكنني افتقـدته هذا الأسبوع ، علي غير العـادة ، وعندما سألت عنه قيل لي : احـترق بالنار .. ! وصحتُ في جَزع : ماذا ؟! فأسـرع مـحدثي يقول : «« لا تنزعج لقد أصبح الآن أحسن حالاً .. ! »» .

وذهبت لعيـادته في المستشـفي ، فاستقبلني كعادته ، رغم جـراحه باسم الثغـر ، منشـرح الصـدر ! ولما قرأ ما في ضـميري مـن قلق عليه ، أراد أن يطمـئنني ، فأشار إلي قدمه وهـو يقول :

– «« لم يصب سوي قدمي ، والحمد لله علي كل حال ! »»

غريب أمرك ياصـديقي ! النار الجشـعة النهمة التي تأكل نـفسـها إن لم تجد ما تأكله ، لا تنال منك سـوي قدمك !

أتراك قدمتـها أنت إليها طواعية : سـخرية منها وهـزوا ؟! .. أم أردت ركلها احتقاراً من شأنها بوصـفها رمزاً للعذاب ؟ ! أم أنك أردت أن تثبت لنا أن النار لا تحرق مؤمناً ، وحين تجتهد ألـسنتها النهمة ، باذلة أقصـي جـهـدها ، فـإنهـا لا تنال منك سـوي قـدمك ! أفـقـت علي صــوته الحنون وهـو يقـول : لماذا لا تكتب لنا عن النـار ؟ ! إن تجـربتـهـا رهـيـبـة حقـا ، فريدة حقا ، وهي علي كل حال جديرة بمقال !

كيف تريدني ، يا صديقي ، أن أكتب عن النار ؟ ! إن الناس جميعاً يكرهون النار لما تجلبه من آلام أولاً . ثم لارتباطها بالجحيم ثانياً ! أما أنا فقد بت أكرهها مرتين : مرة للأسباب التي من أجلها كرهها الناس ، ومرة أخري لأنها : أذتك ، فكيف يطاوعني قلمي فى الكتابة عنها ؟! ... لكنك تريد .. وأنا لا أملك سوي السمع والطاعة !

الغريب أن النار تمثل نقطة البدء في رحلة الإنسان الطويلة ، وأكاد أقول : نقطة الانتهاء أيضاً ! الاكتشاف الهائل لها هو بداية المسيرة ، والتفجيرات الهيدروجنية أو نار الجحيم قد تكون نهايتها !!

فالمؤرخون علي إجماع يقولون أن اكتشاف الإنسان للنار هو أهم خطوة خطاها علي سبيل التقدم ، حتي أنهم يذهبون إلي القول : أن كتابة تاريخ اكتشاف النار واستخدامها يحتاج إلي مجلد كامل !

واتساقاً مع أهميتها الحضارية فقد نسجت حولها الأساطير، وأقيمت لها الطقوس والشعائر منذ أقدم الحضارات ! ففي الأساطير اليونانية ، نجد أن الإله ‹‹ برومثيوس Prometheus ›› هو الذي خلق الإنسان ‹‹ الرجل فقط ›› ثم جلس علي أكمة عالية يشرف علي عباده الصالحين ، ويفكر في نعمة أخري يسبغها عليه فتكون أجزل النعم ! وفجأة انتصب واقفاً وهو يقول : ‹‹ النار ! النار المقدسة تنفعهم ، فهي تلين لهم حديد الحياة ! ›› ومع أن ‹‹ برومثيوس ›› كان يعلم أنها محرمة علي غير الآلهة ، وأن كل من استباحها لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الإله الأكبر ونكاله ، فقد ذهب إلي جبال الأولمب – مستقر الآلهة – وغافل زيوس Zeus ودس قبساً من النار في تضاعيف ثيابه ، وعاد كالبرق إلى عباده المخلصين ، يقدم إليهم هديته التي سرقها من أجواز السماء... !

ونظر زيوس Zeus كبير الآلهة ، من علياء الأولمب ، فرأي النيران تتأجج هنا وهناك في أديم الأرض ، ففطن إلي السرقة ، المنكرة، وانقذفت من فمه المزبد رعود الغضب ! وارتجف الأولمب ، وزلزلت السماء ! وأمر الإله الأكبر فأحضر « برومثيوس » مكبلاً بالأصفاد ، ملطخاً بالوحل ، وعبثاً حاول الدفاع عن نفسه ، ثم حكم عليه فسيق إلي جبال القوقاز ، حيث غل عنقه الضخم وذراعاه الكبيرتان ، وسخر الإله الأكبر رُخّاً عظيم الجثة ، حاد الأظافر ، كبير المنسر فذهب إلي حيث « برومثيوس » ينوشه ، ويمزق جسمه ، وينفذ أظافره ومنسره في أحشائه حتي تبلغ الكبد فيهرأه ويطعمه حتي يأتي عليه وينصرف إلي غد ! فإذا كان الليل التأمتْ جراح الإله المسكين ، ونما له كبد آخر ، وينام حتي تشرق الشمس ، فيعود الرُّخ ليبدأ ما انتهي منه امس ... وهكذا دواليك .. حتي يلقاه هرقل الجبار في أحد أسفاره فتثور الشفقة في قلبه ، وينقض كالصاعقة علي الرُّخ فلا يتركه حتي تزهق روحه ! فيفكر « زيوس » في عقاب آخر للرجل الذى خلقه بروميثيوس ويستقر رأيه « أن أخلق لهم أنثي تذهب بحرثهم ونسلهم ، إن صحَّ أن يكون لهم نسل ! » وهكذا خلق المرأة ؛ لتكون لهبا جديداً في حياة الرجل ، وناراً في تاريخ البشر لا تهدأ !! وتروي أسفار اليهود أن إلههم « يهوه » هو الذي أعطي سر النار وطريقة استخداامها إلي آدم وحواء ! .

أما الديانة الزرادشتية – وهي المذكورة في القرآن الكريم باسم المجوسية . (والكلمة « ماجوس Magos » يونانية الأصل أطلقها رجال جيش الإسكندر الأكبر علي الكهنة الزرادشتيين عندما دخلوا فارس – وهى تعنى الهائل أو الضخم – ومنها كلمة « السحر » فى اللغات

الأجنبية !) وقد أصبحت النار في هذه الديانة تمثل إلهاً أرضياً هو «أهورا – مزدا»، تقام له الشعائر والطقوس .. ولهذا توقد النيران في المعابد المجوسية طوال الليل ويقوم علي خدمتها مجموعة من الكهنة ! .

ويروي المجوس أن زرادشت عندما ذهب إلي ملك فارس ؛ ليبلغه بدينه الجديد ، ويدعوه للدخول فيه : «هبط علي الملك من سقف أيوانه ، وبيده كرة من النار يلعب بها ولا تحرقه» !!

والنار في الديانة البرهمية هي أول العناصر جميعًا ، ولا يزال تقديس النار قائماً حتي اليوم ، وكذلك السير علي النار تطهراً من الخطايا ! ولقد كانت عادة السير علي النار من العادات الشائعة قديماً في المجتمعات البدائية، فقد كان من المألوف أن تمشي المرأة علي جمرات النار ؛ لتثبت براءتها وطهارتها إذا ما شك فيها زوجها أو إذا ما قذف الواشون في حقها بوصمة عار ! كذلك كان من المألوف أن يمشي الرجل علي النار ؛ ليؤكد حقيقةً ما ، أو يدعم قَسَمًا ، والشرط الأساسى في هذه الحالة ، بالطبع أن يسير الإنسان علي النار دون أن يحترق ، أو أن يفقد حياته !

ولما كانت النار وسيلة طبيعية للتطهر والخلاص من الآلام ، فإن كثيرا من القبائل البدائية كانت تنظر إليها علي أنها وسيلة فعالة لدفع الأرواح الشريرة ، ومن هنا فقد ظهرتْ في هذه القبائل معتقدات كثيرة تحبذ السير علي النار لطرح الأرواح الخبيثة من جسم المريض ، ثم جاءت منها فيما بعد عمليات «الكيّ» بالنار للمصاب بانحرافات عصبية ! ولم تقتصر عمليات «الكيّ» هذه علي الإنسان فحسب ، بل تعدته إلي الحيوان ، فكان من المألوف أن تعالج بعض أمراض الحيوان بالكيّ بالنار ! وأقدم ما حفظته ذاكرة التاريخ من تسجيلات عن

المشي علي النار جاءت من الهند ومن الحكايات الطريفة والغريبة معاً ما ترويه بعض الروايات الهندية عن مسابقة قام بها اثنان من الكهنة للسير فوق النار أطول فترة ممكنة ؛ ليثبت كل منهما أيهما : «« براهما الحقيقي »» ! وتقول الرواية : إن أحدهما لم تحرق شعرة واحدة في رأسه ، فكان هو الفائز في هذه المسابقة الغريبة !

وقد انتشرت قصة شبيهة بذلك في أوروبا في أواخر القرن الماضي عن أسرة أسبانية توارثت المشي فوق النار دون أن يصيبها أي أذي ! وربما انتشرت أقاصيص كثيرة مماثلة في المجتمعات الشرقية عن أناس يضعون الجمر في أيديهم دون أن يصابوا بأذي أو يسيرون عليه أو يأكلونه ! وليست هذه الأمثلة عن اهتمام الإنسان بالنار وتمجيده لها مما يروي عن القدماء أو المجتمعات البدائية فحسب ، فمن الغريب أن الإنسان الحديث ما يزال حتي الآن «« يمجد »» النار بطرقه الخاصة ! فهو حتي الآن يتوج انتصاراته واحتفالاته عن طريق إشعال النار ! وهو يعلن فرحته بإشعال النار ! وهكذا أصبح من المألوف أن تطلق النار في احتفالات الزواج ، وتطلق الصواريخ في الأعياد القومية ! وتشتعل النار في الصحف عندما تفوز الفرق الرياضية ، وتوقد الشعلة في الاحتفالات الرياضية !

لقد كانت النار ضمن العناصر الأربعة الأساسية قديماً عند فلاسفة اليونان ، فمنها تكونت الأشياء جميعاً ، بل ظل الاعتقاد سائداً فترة طويلة في تراثنا العربي بأنها جزء أساسى في تكوين الجسم البشري ، بل إنها لتدخل في تكوين جوهر الإنسان وبخاصة «المزاج »» الذي يوصف صاحبه بأن «« مزاجه ناري »» ! فلا يجوز له مثلاً أن يتزوج من امرأة مزاجها «« هوائي »» ؛ لأن ذلك سوف يؤدي إلي اشتعال ألسنة اللهب بينهما بحيث تكون حياتهما مستحيلة !! .

ويمكن القول عموماً : أن النار كانت عاملاً جوهرياً في تطور الحضارات البشرية : فقد جعلت في استطاعة الإنسان أن يعيش في المناطق الباردة والمعتدلة علي ظهر الكرة الأرضية ، وهي التي جعلته ينتقل من أكل اللحوم النيئة ، كالحيوان ، إلي إنضاجها وتذوقها ، فزادت من نطاق طعامه ، وأمدته بالوسائل التي يخلق بها العديد من منتجاته الصناعية ! عندما عرف صهر المعادن وتشكيل الأواني ، وابتكار رالآلات السريعة ! فاستطاع بذلك أن يخلق مباهج حضارته وزخارفها وأيضاً عوامل دمارها ، ونادراً ما اختلطت في ذهنه منافع النار مع الخوف من آثارها المدمرة !

وربما كان من منافع النار يا صديقي ، أنها جعلتني أكتب هذا المقال ، ومن شرها أنها آذتك ، وهكذا يلتقي الشر والخير معاً في هذا الكائن الغريب.

***

بين فلسفة البخل إلى بخل الفلاسفة !

* أهو حقاً « مباراة في الذكاء البشري » ؟!
* بخل العالم ، وبخل الأديب ، وبخل الفيلسوف .
* السيدة « شوشو » ، وزوجها ،وصياح كل صباح !

كنت ولا أزال ، عاجزاً عن فهم « فلسفة البخل » إن صحّ وكان للبخل فلسفة ! أو قل إني لا أستطيع أن أصل إلي « العلل البعيدة » لسلوك البخيل ! وفي ظني أن البخل لا يمكن أن يكون وراثيا ، وإنما هو سلوك مكتسب ، أو مجموعة من العادات السلوكية التي يتعلمها المرء في حياته ويحرص عليها كل الحرص !

والواقع أن موضوع البخل ينطوي علي مجموعة من المفارقات العجيبة . فلا شك ، مثلاً ، أن التربية في الأسرة تلعب دوراً هاماً ومؤثراً في اكتساب هذا السلوك ، لكنك يمكن مع ذلك أن تجد من بين الأبناء في الأسرة الواحدة : البخيل ، والمسرف ، والمعتدل ! ومن مفارقات البخل أيضاً أنه لا علاقة له بالثقافة . فقد يكون البخيل مثقفاً ثقافة رفيعة ، حاصلاً علي أعلي الشهادات الجامعية ، وقد يكون جاهلاً أميا لا يعرف كيف يكتب اسمه ! كما أنه قد يكون « رجلاً وقد تكون امرأة » !

ومن مفارقات البخل العجيبة أن الناس تلتمس الأعذار دائماً للمرأة البخيلة !! فإن كان زوجها مسرفاً ، قالوا : إنها تقوم بعمل لون من التوازن حتي يتعادلك الإنفاق مع الدخل ، فلا يحدث خلل في « ميزان المدفوعات » الأسري !! وإن كان الزوج « معتدلاً » بفطرته في إنفاقه

في حين أن زوجته « بخيلة » قيل : أنها ليست بخيلة في واقع الأمر، وإنما هي « مدبرة » ألم يتحدث أرسطو قديماً عن « تدبير المنزل » أي اقتصاد الأسرة ؟ ! فهذا هو ما تفعله المرأة حفاظاً علي أسرتها ! أما إذا كان الزوج « بخيلاً » وكانت زوجته بخيلة كذلك ، فإننا نقول في هذه الحالة : إنها زوجة « مطيعة » « وفية » تسير علي هوي الزوج .. والنساء علي دين أزواجهن ! وهل هناك أفضل من الزوجة المريحة التي تفهم بسرعة فى أي اتجاه تسير رياح الزوج ، فتفرد الشراع وتبحر معه !

وهكذا ترانا نتلمس الأعذار والحجج والمبررات للمرأة البخيلة ، أهو لون جديد من الغزل أو المداعبة نسوقه للجنس اللطيف ؟ ربما .. ! لكنا علي كل حال يصعب علينا أن نجد أمثال هذه المبررات للرجل البخيل !

ومع ذلك ، فلنحاول نحن أن نخلق أعذر لبخل الرجال فنقول : إن الرجل باعتباره رب أسرة ، فهو مسؤول عنها ، ولذا فإن عليه أن يعمل حساباً للزمن فيدخر لأولاده ما يعينهم علي مواجهة الحياة ! فإذا كان الرجل بغير أولاد قلنا : أنه يدخر للزمن ، فلا أحد يعرف صروف الدهر وتقلبات الأيام ، وقد تجد الرجل البخيل نفسه يرد عليك بهذا المنطق . فهو يجعل شعاره « الليالي حبالي يلدن كل عجيبة » ! فلابد أن نستعد لها في كل لحظة !

وعلي هذا النحو قد نجد مبررات ، حتي ولو كانت واهية ، لبخل الرجل إذا كان رب أسرة « كاملة » ، أي مكونة من زوج وزوجة وأولاد ، أو أسرة « ناقصة » أى بدون أولاد ، لكن المشكلة تكون محيّرة ، ويصعب جداً أن تجد لها مبرراً مقبولاً ، إذا كان الرجل أعزب لم يتزوج ولم يلد ! وتزداد المشكلة تعقيداً إذا كان هذا الرجل الأعزب البخيل

«ميلونيراً» ثم تزيد تعقيداً إذا كان سليل أسرة ثرية لم تعرف الفقر يوماً !

نعم ! هناك المليونير البخيل الذي تنطبق عليه جميع الأوصاف السابقة ، ولو أنه وزع ثروته علي سنوات عمره الافتراضية التي سوف يعيشها ، ومدّ فيها ما شطح به الخيال ، لظل مع ذلك غنياً حتي ولو عاش مائتي عام !

أما لماذا يكون بخيلاً ؟ ولماذا يقتر علي نفسه مع أنه بغير وريث ؟ ! أي أنه سيتركها لغيره ؟! سألت أستاذنا الدكتور فؤاد زكريا أن يفتينا في أمر البخل وفلسفته ؛ فلا يفتي ومالك في المدينة ! فهو رئيس قسم الفلسفة بالكويت لسنوات ، ومن قبلها كان رئيساً لقسم الفلسفة في عين شمس لسنوات أطول ، ثم هو مفكر لامع - فماذا تقول في فلسفة هؤلاء البخلاء ؟! فأجاب في حيرة : «أنا في الواقع لا أستطيع أن أجد تعليلاً محدداً لمسألة البخل هذه ، ولا سيما إذا كان البخيل مليونيراً وليس له وريث يترك له كل هذه الثروة ، ولقد سألت مرة أحد الأصدقاء البخلاء - وهو أيضا من أصحاب الملايين - عن فلسفته في البخل ، فأجابني :

- ليست المسألة مسألة بخل ، وإنما هي مباراة في الذكاء البشري ، فكيف أثبت أنني أكثر منك ذكاء ؟! .. أثبت ذلك بما جمعته من مال فأصبحت مليونيراً ، لكنك أنت لست كذلك !!»

علي أنني في الواقع لم أقتنع برد صديق الدكتور فؤاد زكريا - «المليونير البخيل» - لأننا لو قلنا إن المسألة «مباراة في الذكاء البشري» وإثبات العبقرية ، عن طريق جمع المال واكتنازه والمحافظة

عليه ، لأمكن أن نعترض علي هذه الإجابة بقولنا : إنه من صميم الذكاء البشري أيضاً أن تسأل نفسك ثم ماذا بعد ذلك .. ؟ إنه جزء من « العبقرية » أيضاً أن تسأل ما الهدف من تكديس هذه الأموال الطائلة ؟! ما الغاية التي أستهدفها من حرمان نفسي من الاستمتاع بدخلي وبأموالي في حدود ما يشير به هذا الذكاء نفسه ؟!

بخل العالم المليونير

هذا الصديق المليونير عالم بحّاثة بكل معني الكلمة ، ثم هو أستاذ لعدة أجيال تخرجت علي يديه ، فضلاً عن أنه يقترب من عقده السابع ولكنه مع ذلك لا يملك سوي « بدلة واحدة » صيفاً وشتاء ، يضع كتبه في « كيس » من الأكياس التي توزعها الجمعية مجاناً ، ويسير متبختراً في ردهات الكلية إلي قاعة المحاضرات ، وكأنه يحمل حقيبة من جلد « الثعبان » ! ليس لديه سيارة ، ويسير في الشارع محتمياً بجدران المنازل من حرارة الشمس ، مع أنه يستطيع أن يشتري أسطولاً من السيارات الفاخرة ! يعيش وحيداً لا أنيس ولا جليس ، لا زوجة ولا ولد ! إنه يبخل حتي علي نفسه ، لا يستمتع إلا بارتفاع « الأرصدة » في البنوك المتعددة ! حتي حديقة المنزل أهملها لدرجة جعلت الفئران تعبث بها بحثاً عن كسرة خبز دون جدوي ! واشتكي أحد جيرانه أن الفئران بدأت تزحف علي حديقته هو الآخر ، ولما كان الجار قد استأجر بستانياً لتنسيق الحديقة مرة كل أسبوع لقاء خمسة دنانير في الشهر، فقد اتفق مع الرجل أن يقوم بتنظيف حديقة المليونير وتنسيقها ، وأنه – أى الجار – سوف يقوم بإقناعه بضرورة

استئجار هذا البستاني ! واستيقظ العالم المليونير علي صوت يعبث بأعشاب الحديقة وقاذوراتها ، فخرج بثياب النوم يصيح في الرجل : مَنْ أنت ؟! وماذا تفعل ؟! ومَنْ أذن لك أن تدخل بيتي وتعبث بالحديقة ؟! فأجاب الرجل : جاركم فلان هو الذي طلب مني أن أنسق حديقتكم وأنظفها ، كما أفعل مع حديقته مقابل خمسة دنانير في الشهر ؟!

– أغرب عن وجهي ! ألا لعنة الله عليه وعليك .. !

والتقي العالم المليونير بالجار وسأله في غضب : أأنت الذي طلبت من البستاني أن ينسق حديقتي لقاء خمسة دنانير كل شهر ؟

– نعم

– ولماذا تفعل ذلك ؟ ! أتراك تقاسمه راتبه ؟! أم أنك تأخذ نسبة علي ما تجلبه له من زبائن ؟!

واضطرت الفئران أن تزحف إلي داخل فيلا العالم المليونير بعد أن يئست من العثور علي كسرة خبز في الحديقة ، فها هو يفتح درجاً في ‹‹دولاب ›› المطبخ وإذ به يعثر علي فأر لا بأس به ، صحيح أنه هزيل الجسم، ضعيف البنية ؛ لأنه لا يجد فتاتاً يأكله ، لكنه مع ذلك لم ييأس فلعل المليونير يترك له شيئاً يطعم به ذات يوم ! واحتار المليونير العالم ماذا يفعل في أمره ؟ إنه لا يستطيع بالطبع أن يكلف نفسه ثمن مبيد للفئران ، فتلك ‹‹ مصاريف ›› لا لزوم لها ! وأخيراً هداه تفكيره إلي أرخص طريقة لقتل الفأر : أن يغلق عليه الدرج بالمفتاح ويتركه ؛ ليموت خنقا ! وكذلك فعل بالفأر الذي وجده في درج فارغ من أدراج خزانة الثياب !!

ومرت عدة أشهر وراح المليونير يفتح الأدراج علي الفئران المحبوسة التي ماتت خنقاً ، وإذا به يفاجأ بأنها قد توالدت بالعشرات فملأت عليه المنزل !

كنا نستمع من جار المليونير إلي هذه القصة التي يصور بها مدي بخل الرجل حتي أنه أبي أن يدفع ثمن مبيد يقتل به هذه الفئران اللعينة عندما قاطعه أحد الخبثاء قائلاً : هناك مسألة غابت عنك ، وهي في غاية الأهمية ، وهي أن الحكومة الكويتية « كانت قد أعلنت عن مكافأة مائة فلس لكل مَنْ يقبض علي واحد من الفئران حياً أو ميتاً ! فالمسألة ليست قتل الفأر بأرخص الأسعار ، وإنما هي استثمار لثروة اسمها الفئران !! وأعجب ما سمعته عن هذا المليونير العالم من قصص البخل ، وهي كثيرة ، أنه أرسل يوما يسأل الأطباء في الولايات المتحدة « كم يتكلف إذا أجري عملية جراحية في عين واحدة ، وكم يدفع إذا أجراها في العينين » ؟!

بخل الأدباء ...

من أشهر البخلاء في أدبنا الحديث أديبنا الراحل توفيق الحكيم ، الذي لم يكن يخفي بخله أو يخجل منه ، بل كان علي العكس يجاهر به ويفتخر ! ولقد روي الدكتور يوسف إدريس طرفاً من نوادر البخل عند أديبنا الراحل ، فقد زامله وصادقه سنوات طويلة ! يقول « منذ أن عملتُ مع توفيق الحكيم بالأهرام سنة ١٩٦٩ ، وهو يكتب بقلم رصاص واحد لم يغيره ، قلم رصاص أصفر رصاصه باهت جداً ، وحين ضقت بالقلم مرة ، وسألته : لماذا لا تغيره بآخر ثقيل الخط ؟ أجابني : الثقيل يخلص بسرعة ! وهكذا كان توفيق الحكيم يبري القلم مرة واحدة فقط في العام ، وبه كتب إنتاجه منذ مسرحية الصفقة إلي مقالاته الأخيرة !! » .

وعندما هدده يوسف إدريس ذات مرة بأنه سوف يكتب عن بخله ويعلنه للناس جميعاً ، فاجأه الحكيم بقوله : « ياريت ، ! يا ليت كل الناس يعلمون أني بخيل فلا يطالبني أحدهم بما يطالب به الناس العاديين » !

ويستطرد توفيق الحكيم قائلاً « اسمع ! هناك مثل شعبي مصري يقول : طولة العمر تبلغ المني – فما هي طولة العمر ؟! هي ألا تنفق صحتك باسراف ، أي أن تقتر في صحتك ، ولكي تقتر في صحتك ، لابد أن تتعلم وأن تمارس التقتير في كل شيء ، إنهم يتهمون المرأة الجميلة دائما ، بأنها لابد بالضرورة أن تكون بخيلة ، وعندها حق ، واحدة عندها مليار جنيه جمال ، لابد بالضرورة أن تكون بخيلة ، لابد أن تحافظ عليه وتنميه ، فالحمقاوات القبيحات وحدهن هن اللاتي ينفقن بقية الجمال فيهن بإسراف ! وأنا فلسفتي أن أعيش طويلاً ، لأجعل الزمن يحل معي كثيراً من القضايا التي أعجز عن حلها وحدي !! » .

هكذا كان توفيق الحكيم يجاهر ببخله ويود أن يعرفه كل الناس ، علي العكس من نجيب محفوظ – الذي ربما كان أشد من الحكيم بخلاً لكنه يخفي هذه الصفة ، لأنه « ابن بلد » ويعتبر البخل صفة معيبة !!

بخل الفلاسفة .. !

روي الجاحظ في كتابه « البخلاء » نوادر كثيرة عن بخل الكندي الفيلسوف ، وإن كان بين المؤرخين مَنْ يذهب إلي أن الجاحظ كان يروي عن « كندي » آخر ! ربما إشفاقا علي الكندي الفيلسوف أن

يكون « أبخل أهل الأرض طراً » كما قيل عنه ! ومع ذلك فمن الثابت أن « ابن النديم » يصفه بالبخل ، ويذكر ابن « أبي أصيبعة » أن من وصايا الكندي لولده « إن الدينار محموم ، فإن صرفته مات ، والدرهم محبوس فإن أخرجته فر ! »

مر عليه « أشعب » الطفيلي الشهير في الأدب العربي القديم، فوجده يجلس في بستانه تحت شجرة على ماء جارٍ ، وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلاً فيه لحم بارد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها أربع بيضات ، فاقترب منه مُسلّماً ، فرد الكندي السلام قائلاً : « هلمَّ ، عافاك الله ! » وإذا بأشعب أسرع من لمح البرق يتراجع ؛ ليقفز من فوق القناة الصغيرة التي تفصل بينهما ، فصاح « الكندي » وهو يأكل : « مكانك » فإن العجلة من أعمال الشيطان ! »

فوقف أشعب مأخوذاً .. « فسأله الكندي : ماذا تريد ؟! »

« أريد أن أتغذي ! » فحملق فيه الكندي وهو يقول « ولم ذلك ؟ وكيف طمعت في هذا ؟! ومن أباح لك مالي . ؟! » فقال أشعب .. « أولست قد دعوتني ؟ ! » فأجاب الكندي ، ويلك ! .. لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام .. ! ماذا كان بيننا غير سلام ، ورد سلام ، أو كلام بكلام .. ولكنك تريد أن يكون كلاماً بفعال ، وقولاً بأكل ، وهذا ليس من الإنصاف ! ».. وازدرد الرجل بيضة وجعل أشعب ينظر إليه ثم قال : « لقد رأيتك تأكل وحدك ! » . فبلع الكندي ريقه ثم قال : « لا بأس ! فأكلي وحدي هو الأصل ! وأكلي مع غيري زيادة في الأصل ! . وإذا كانت الوحدة خيراً من جليس السوء ، فإن جليس السوء خير من أكيل السوء ! »

فقال «أشعب» متخابثاً : لقد أردت أن أشاركك الطعام ، لكي يقال عنك إنك سخي ، وأنفي عنك اسم البخيل !»

فأجاب الكندي وهو يلقي في حلقه بزيتونة : «لا أعدمني الله هذا الاسم ! فانه لا يقال عن فلان إنه بخيل إلا وهو ذو مال فسلم إلي المال ، وادعني بأي اسم شئت !» فقال أشعب وقد أرهقه الحوار مع الرجل :.

- «ولا يقال أيضا عن فلان : إنه سخي إلا وهو ذو مال ! فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، أما اسم البخيل فقد جمع المال والذم ، فأنت قد اخترت أخسهما !!»

فقال الكندي : «بينهما فرق ! ففي قولهم فلان بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه ، فالبخل اسم فيه ذم ، ولكن فيه حفظاً ، والسخاء اسم فيه حمداً ولكن فيه تضيعا ، والمال حقيقة ومنفعة وحيازة قوة ، أما الحمد فهو ريح وسخرية ، والاستماع له ضعف ! وماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن ، وعري الجلد ، وضاع العيال ، وشمتَ الحساد ؟!» .

ومن الطريف أن أديبنا الراحل - توفيق الحكيم - قد حرص علي أن يعقد فصلاً في كتابه عن «أشعب» ؛ ليروي قصته مع الكندي بالتفصيل ، وكأنه يجد متعة خاصة في حوار الكندي البخيل وبراعته مع أشعب ! ويروي الجاحظ أن الكندي كان يملك دُوراً كثيرة يستأجر منه الناس بعضها ، لكنه كان يشترط علي السكان عدداً من الشروط الغريبة منها مثلاً «أن يكون له روث الدابة ، وبعد الشاة ، وألا يلقوا عظماً ، ولا يخرجوا كناسة البيت ، وأن يكون له نوي التمر ، وقشور الرمان ، وغرفة من كل ما يطبخ للحبلي في بيته ، وكانوا يحتملون ذلك لطيبته ، وإفراط بخله ، وحسن حديثه» !!

ويروي أن أشعب أحضر للكندي مستأجراً لدار خالية عنده ، وطلب إليه أن يعد لهما عشاء حتي يحسن استقبال الضيف الوافد ! وعلي مضض راح الكندي يعد وليمة لم يدفع فيها سوي فلس واحد، وضعه في يد شخص رضي أن يتسلق شجرة عالية في بستانه ؛ ليمسك ‹‹ بزوج من اليمام ›› يعشش فوق غصونها .. ! وعلي المائدة أخذ الكندي يرقب بدقة ما يتناولانه من طعام ، وينصحهما بما قال به الحكماء ‹‹ عليكم بشرب الماء علي الأكل ! ›› حتي يبعدهما قدر ما يستطيع عن الإسراف في الأكل ! فقد كان ينفطر قلبه حزناً كلما تناول أحدهما كسرة خبز ! وعندما هم أحدهما بمد يده ؛ ليأخذ الرغيف الثاني ، بعد أن فرغ من تناول الرغيف الأول ، لم يجد الكندي بدأ من أن يمسك رغيفا بيده ويقول : ‹‹ يقولون أن خبزي صغير .. ! لكنهم يكذبون ! فمن الزاني ابن الزانية الذي يستطيع أن يأكل من خبزي هذا رغيفين ؟ ! ›› فسحب الرجل يده علي الفور ! (١) .

فى الشاليه المجاور

جارتنا في المصيف هذا العام كانت السيدة «شوشو» وزوجها وهما يستأجران الشاليه الملاصق للشاليه الذي نسكنه، وأنا أشفق عليها لما تبذله من جهد لإقناع الزوج بضرورة الفرار من حر القاهرة إلي جو المصيف المنعش، ولا تنجح في العادة، إلا بعد حوار يدوم ثلاثة أشهر علي الأقل، ولهذا فهي تستعد من إبريل لخوض معركة المصيف مع الزوج كل عام! ولما كنت أعرف الرجل منذ أكثر من ربع قرن، وأعلم أنه قد انضم إلي «نقابة البخلاء» منذ فترة مبكرة من عمره، وأنه أصبح عضواً عاملاً بل مؤسساً فيها، ومن خيرة أعضائها الأوفياء الملتزمين بمبادئها، المحافظين علي سلوكها، بدقة شديدة – فلم أندهش عندما رأيته يفضل باستمرار أن يجلس علي «أريكة» في مقدمة الشاليه الذي يمتد أمامه في ردهة طويلة تنتهي بالمطبخ المفتوح دائماً، لأنه بغير باب أصلاً، بحيث يستطيع أن يكشف كل ما يجري داخل الشاليه، لا سيما حركة الأكل، وخصوصاً فتح الثلاجة وإغلاقها!

ومع أن هذه الجِلْسَةَ تجعل ظهره إلي البحر، فلا يستمتع بمنظره، لكنها مع ذلك توفر لعينه متعة أكبر هي مراقبة ما يدور في الداخل! أعرف عن الرجل أنه كان سبّاقاً لرفع شعار «ترشيد الإنفاق» بكل أنواعه! وربما كان هو الذي ابتكر فكرة ترشيد الطاقة عندما كان يكره الإضاءة ليلاً، فإذا حكمت الظروف ـ لوجود ضيوف مثلاً ـ أن ينير المنزل، فبأقل قدر ممكن من الضوء بصيص خافت يمكّن المرء من أن

يري موضع قدمه ! وفي غير هذه الظروف القهرية الطارئة تراه يفضل الجلوس في «« بلكونة »» المنزل مستضيئاً بنور الشارع ! وهو يصف هذه الجلسة بأنها «« شاعرية »» ! وكم من مرة عمد إلي إطفاء المصباح وابنته الصغيرة تستذكر دروسها قائلاً لها وهو ينهرها : ««لماذا لا تستذكرين دروسك في النهار »» ألم يخلق لنا الله النهار ؛ ليعمل فيه الكبار ويذاكر فيه الصغار ؟ ! »»

كنتُ أعرف عنه ذلك كله ، وربما أكثر منه ، لكن ما ذنبي أنا حتي أستيقظ صباح كل يوم علي صوته وهو يتشاجر مع أولاده عندما يطلبون منه نقوداً لشراء مستلزمات الفطور ؟! «« كل يوم تأكلون خبزاً ؟ ! كل يوم ، كل يوم ؟ ألا تعرفون الشبع ؟ ! »» والعجيب أنه يؤنبهم علي أكل الخبز : الحد الأدني من الطعام !!

آه لو أنهم اقترحوا عليه القيام برحلة إلي البحيرة المجاورة ! فهذا بالحتم سيكون يوم أغبر ! يستمر فيه الشجار من الصباح إلي المساء ! فإنْ حاولوا إقناعه بأنه مريض – وهو كذلك بالفعل – وأنه في أمس الحاجة إلي التغيير ، ولا أهمية للمال في سبيل صحة جيدة ! فكان يرد عليهم بتلك الحكمة البليغة : «« إني لم أجمع هذا المال بعقولكم ، فأفرقه بعقولكم .. !! »» وكأنه يعود مرة أخري إلي فلسفة البخل التي بدأنا منها وهي أن المسألة «« مباراة في الذكاء البشري »» ! فالعقل الذي جمع هو وحده الذي يعرف أين ومتي يمكن أن ينفق !!

***

نعمة النسيان ... وسهوات الحكماء !

*** من لا يعرف الطريق إلي البريد لا يعرف الطريق إلي السماء !**

*** الفيلسوف الذي دخل المحاضرة بفردة حذاء واحدة !**

*** شاعرة الهجاء الشعبي خطفت توفيق الحكيم !**

كان الشاعر العربي القديم يقول : ‹‹وما سُمّي الإنسان إلا لنسيه !›› مشيراً بذلك إلي ظاهرة النسيان التي هي خاصية أساسية للإنسان، حتي أنه اشتق منها اسمه ! والواقع أن النسيان نعمة من الله لبني البشر . ولا أقصد نسيان الهموم والمشاكل والكوارث فحسب ، بل حتي نسيان المعلومات ، والمعارف ، والخبرات التي يكتسبها الإنسان ... فلو أن المرء تذكر علي الدوام وبوضوح ناصع كل ما يمر به من خبرات أو ما يعرفه من معلومات ، لكانت حصيلته بعد ذلك ضيقة للغاية ، فلابد أن تنزاح المعلومات القديمة إلي عالم النسيان ، وإن كانت لا تضيع تمامًا ، لكي تتيح للمرء فرصة اكتساب معلومات وخبرات جديدة تتحول بعدها إلى مخزون يُنسي .. وهكذا دواليك !

غير إن للنسيان عند الحكماء والعباقرة وضعاً خاصاً ، فهو يرجع في الأعم الأغلب ، إلي استغراق المفكر في موضوع معين علي نحو ينسيه كل ما حوله ، ومَنْ حوله . ومن هنا جاءت سهوات العباقرة ونوادر الحكماء في عالم النسيان وجلّ مَنْ لا يسهو ! وإذا كان لنا أن نروي لك طرفاً من هذه النوادر ، فسوف نبدأ من البداية بأول الفلاسفة في تاريخ الفكر البشري ‹‹ طاليس .. Thales ›› في القرن السادس قبل

ميلاد السيد المسيح ! فقد روي ((أفلاطون)) فى إحـــدى محاوراته أن ((طاليس)) كان يراقب النجوم ، فوقع في بئر وهو شاخص ببصره إلى السماء ! ويستطرد قائلاً : إن فتاة ((تراقية)) ((أي من أهل تراقيا)) كانت تراقبه ، فضحكت من ذلك الذي يبذل جهداً ؛ ليعرف ما يجري في السماء ، في حين أنه لم يكن يري موضع قدمه !

ويذكرنا تعليق الفتاة بقصة ذلك القسيس الذي هبط مدينة لأول مرة ؛ ليلقي إحدي عظاته في كنيستها ، وكان في جيبه خطاب يريد أن يرسله ، لكنه لم يعرف الطريق إلي البريد ، فسأل صبياً صغيراً أن يدله علي مكانه ، وبعد أن وصلا شكر الصبي وهو يقول : ((يا بنى ، إنك صبي طيب ، ولهذا فأنا أدعوك لسماع موعظتي في الكنيسة الليلة وعناونها ((الطريق إلي السماء !)) . فما كان من الصبي الصغير إلا أن قال في براءة : ((يا أبتاه ! إذا كنتَ لم تعرف الطريق إلي البريد ، فكيف يمكن لك أن تعرف الطريق إلي السماء ؟ !)) وكأن الطفل بذلك يردد نفس تعليق الفتاة ((التراقية)) عن ((طاليس)) !

ومما يروي عن الحكماء القدماء أيضاً ، ما قيل عن أرشميدس Archemides ((٢١٢ ق . م)) عالم الطبيعة الشهير الذي خرج من الحمام عارياً وهو يصيح ((وجدتها .. ! وجدتها .. ! .. Eureka ! Eureka ! أي وجدت الطريقة [وتروي أحياناً : وجدته ! أي وجدت الحل] . والقصة تتلخص في أن ((هيرو Hero)) ملك سيراقوصة ، قد ساوره الشك فيما إذا كان تاجه ذهباً خالصاً ، أو خليطاً ، من ذهب ونحاس ، فطلب إلي ((أرشميدس)) أن يحل له هذا الإشكال حتي يعرف أمانة الصائغ الذي صنع التاج ، واشترط الملك ألا يلجأ العالم إلي إذابة التاج ! واحتار العالم الكبير ، كيف يُلبي طلب الملك ؟! ولكنه بعد تفكير طويل حائر

لاحظ حين نزل الحمام أن سطح الماء قد ارتفع عند حلول جسمه فيه ، فخرج من حمامه مهرولاً صائحاً وجدتها ... وجدتها ، أي وجد الطريقة التي يحل بها الإشكال ! إذ أمكن بعد ذلك معرفة حجم التاج عن طريق وضعه في الماء فيرتفع الماء بمقدار حجمه ، ثم إيجاد كثافته ومقارنته بكثافة الذهب الخالص ، وبذلك يتبيّن مدي غش الصائغ أو أمانته ! وانتهي «أرشميدس» بذلك إلي وضع قانون الأجسام الطافية الذي كان له أثر كبير في صناعة السفن بوجه خاص !

ويروي عن عالم طبيعة آخر هو سير إسحق نيوتن .. I.Newton (١٦٤٣ - ١٧٢٧) أنه كان يملك كلباً عزيزاً علي نفسه [وهو الكلب الذى ألقى بمجموعة من أبحاث العالم في النيران ، ووقف نيوتن يتأمله ويقول عبارته المعروفة : أنت لا تعرف ماذا فعلت !] كما كان يملك قطاً أيضاً ، وكان نيوتن كلما دخل غرفته لمواصلة أبحاثه سمع نباح الكلب ومواء القط علي الباب فيفتح لهما ! وسرعان ما كانا يسعيان للخروج مرة أخري .. وهكذا ! فهداه تفكيره حلاً لهذا الإزعاج أنْ يقوم بعمل فتحة كبيرة فى جدار المعمل ؛ ليدخل منها الكب ويخرج كما يشاء ، وبجوارها فتحة أخرى صغيرة ؛ ليدخل منها القط ، ونسي العالم الكبير أن الفتحة الكبيوة التي يدخل منها الكلب يمكن أن يدخل منها القط أيضاً !

أما المثّال الإيطالي الشهير مايكل أنجلو Michel Angelo (١٤٧٥ - ١٥٦٤) فقد شوهد وهو يهرول مسرعاً في الشارع في ختام حياته تقريباً فسئل : «إلي أين تمضي هكذا سريعاً وقد غطت الثلوج شوارع المدينة ؟» .. فما كان منه سوي أن أجاب بقوله : «إنني ذاهب إلي المدرسة ، فلابد لي من أن أحاول تعلم شيء قبل أن يفوت الأوان !» .

ويروي عن الفيلسوف الألماني هيجل Hegel (١٧١٧٠ - ١٨٣١) أنه دخل قاعة الدرس ؛ ليلقي محاضرة في جامعة برلين التي كان أستاذاً فيها ، بفردة حذاء واحدة دون أن ينتبه إلي ذلك ! والسبب أن السماء كانت تمطر يومها بغزارة فغاصت قدمه في الوحل وهو يهم مسرعاً بدخول الجامعة ، وعندما أخرج قدمه ظل الحذاء مغروزا في الطين، فتركه وسار إلي المحاضرة بفردة حذاء واحدة دون أن يدري !

ومن أغرب النوادر التي تروي عن سهوات الحكماء والعباقرة ما يروي عن الشاعر والناقد الألماني المعروف لسنج .. G. Lessing (١٧٢٩ - ١٧٨١) من أنه تعوّد أن يسهر خارج منزله حتي ساعة متأخرة فلا يعود إلي منزله كل ليلة إلا بعد منتصف الليل . لكنه عاد ذات ليلة مبكراً عن موعده ، وعندما طرق الباب ، أطل عليه الخادم من النافذة وهو يقول :

- الأستاذ لم يرجع بعد !

فرجع « لسنج » من حيث أتي وهو يقول : إذن سأعود في فرصة أخري .

ومن سهوات الأدباء عندنا ما رواه الأستاذ العقاد في يومياته عن الأديب الراحل « توفيق الحكيم » عندما قال : كان الحكيم يسهر أيام العزوبية في أحد الأندية العامة ، فهبط عليه صديق يقول بلهجة الأسف والملام :-

يا أستاذ توفيق ! أنت ساهر هنا ، وزوجتك تسهر في سيارة فلان إلي هذه الساعة ؟! .

فوثب « توفيق الحكيم » مهرولاً إلي منزله ، وصاح بالخادم وهو يفتح له الباب في غضب لم يعهده منه قط :

– أين الهانم ؟! أين الهانم ؟! .

قال الخادم دهشاً : أي هانم يا بك ؟ ! .

– قال الحكيم : أي هانم ؟! امرأتي يا أبله !

فغلب الخادم مزيج من الدهشة والضحك وقال ، وهو لا يصدق ما يسمع :

ولكنك يا بك ، غير متزوج !

شاعرة الهجاء الشعبي

لكن لعل أجمل سهوات توفيق الحكيم ماورواه هو عن نفسه في ذكرياته عن « الفن والقضاء » عندما كان وكيلاً للنائب العام ، فهو لم يكن يطيق في جلسات المحكمة ثرثرة المحامين فيلجأ إلي شرود طويل، أو « غياب للذهن » ، فلا يكون حاضراً في الجلسة إلا بجسمه فحسب! وربما أدي حوار قصير بين شخصين تافهين في نظر المحكمة إلي إثارة التأمل والتفكير في نفسه مما يجعله بعيداً تماماً عما يدور حوله ! ولكم سببت له هذه العادة الغريبة الكثير من المواقف الحرجة !!

من ذلك ، القصة التي رواها عن شاعرة الهجاء الشعبي ، وما سببته له من حرج بالغ ! وملخص القصة أنه كان جالساً في كرسي النيابة العامة متشحاً بوشاحه الأحمر الأخضر عندما نظرت المحكمة في قضية اعتداء امرأة علي خفير نظامي بألفاظ جارحة ! وطلب القاضي من الخفير تلخيص ما حدث فقال : أن المرأة كانت تضع كثرة من المساحيق علي وجهها ! وتقف بين الجدعان في وسط الشارع ، في حالة هزار وضحك ، وصهاليل بشكل مخالف للحشمة والكمال .. وعندما قلت لها عيب ادخلي بيتك ، ما كان منها إلا أنها زغرت لي من فوق لتحت وتقصعت وقالت : إخرس يا غفير مصدي قطع لسانك . دا أنا لما أنفض شبشبي الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك » !!

استنكر القاضي هذا القول واعتبره أقصي ألوان التعدي ! أما « توفيق الحكيم » فقد ظهر الإعجاب علي وجهه ! فالمرأة في نظره قد جاءت بأخصب صور الخيال الفني ، فليس هناك أبلغ من هذه الصورة في تحقير الخفير ..! ولو استطاع ذهن هذه المرأة أن يبدع صوراً أخري في التجميل والثناء ، كما فعلت في التقبيح والهجاء ، لكانت شاعرة !

ونظر إليها وهي في قفص الاتهام ، فإذا هي هادئة ساكنة ويدها علي خدها ! وعلي شفتيها ابتسامة ساخرة .. إنها معترفة ، ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه ؟! لقد روحت عن نفسها بما قالت وكفي – وماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟! ومضت به الخواطر في هذا السبيل بعيداً عما يجري في قاعة المحكمة حتي أن القضية انتهت وبدأت قضية جديدة دون أن يدري ، فهو لا يزال مع «« شاعرة الهجاء الشعبي »» ! .. ولم ينتبه إلا علي حركة مفتش النيابة وهو يجلس إلي جواره ويقول له : إنه يريد أن يعرف رأيه في القضية المعروضة ! فاصفر وجهه وهو يسأل نفسه أية قضية .. ؟! والتفت ينظر إلى ما يدور حوله في الجلسة بعيون زائغة شاردة ، فأبصر أحد المحامين « الفطاحل » يرغي ويزيد ويضرب بقبضته في الهواء وهو يصيح :

– هذا كلام فارغ ! النيابة أخطأت في تكييف وصف التهمة لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلي موكلي علي حقيقتها ، لما قدم إليكم يا حضرة القاضي مكبلاً بهذه النصوص ! أهذه نصوص تطبق في حالة موكلي ؟! هذا تخبط من النيابة .. هذه فوضي .. هذا سمك لبن تمر هندي ..! فهمس مفتش النيابة في أذن الحكيم :

– النيابة أهينت .. قم دافع عن كرامة النيابة!

لكن توفيق الحكيم «« الأديب »» كان لايزال واقعاً تحت تأثير الخيال الفني لشاعرة الهجاء الشعبي التي انتهت قضيتها من زمن ! فقال يداري موقفه : كرامة النيابة في الحفظ والصون !

– كيف ذلك ؟ ألا تري النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضي ؟ المحامي يقول النيابة سمك لبن تمر هندي !

– أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندي فقط – فصاح مفتش النيابة صيحة كاد يسمعها القاضي والحضور ... – لا .. لا .. لا .. هذه إهانة

موجهة إلى النيابة .. يجب على الجالس في كرسيها أن ينهض لدفعها .. قم وسجل احتجاجك .. وابسط وجهة نظرك في تطبيق القانون !

لكن الحكيم لم يكن يعرف شيئاً عن نوع القضية المعروضة ، فقد شرد ذهنه مع الشاعرة الملعونة ، ولم يفطن إلي أن قضيتها انتهت وجاء دور قضية أخري يترافع فيها محام نابه يكتفي بالتهويل والطعن في تصرفات النيابة والبوليس .. دون أن يشير إشارة واحدة إلي نوع التهمة أو مضمون القضية . وهكذا شعر وكيل النيابة بحرج بالغ ، ولم ينقذه سوي القاضي الذي كان يعرف عن توفيق الحكيم شرود الذهن ، ويحترم فيه «« الإنسان الفنان »» قبل وكيل النائب العام ! فابتسم إبتسامة ذات مغزي عرفها «« الحكيم »» فتشجع وقام يقول بقوة وحماس :

– النيابة تحتج علي الألفاظ التي صدرت من المحامي !

فقال القاضي : المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها ، وتسمع للدفاع بكامل حريته ، فهو لم يقصد أن يمس كرامة النيابة من قريب أو بعيد !

وصادق المحامي علي قول المحكمة بعبارة مجاملة ، فجلس «« توفيق الحكيم »» في مقعده ، بعد أن خرج من المأزق ، يتنفس الصعداء ويقول لمفتش النيابة :

– هأنذا قد رفعت لكم رأس النيابة !

* التجربة المصرية ... بمنظور هيجليّ

أما التجربة المصرية التي نقصدها فهي ، من ناحية ، التجربة السياسية التي بدأت في أوئل هذا القرن وامتدت حتي عام ١٩٥٢ ، وسوف نسميها « بالفترة الليبرالية أو البرجوازية » ، وهي من ناحية أخري ، تجربة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي امتدت حتي وفاة عبد الناصر ١٩٧٠ وإن كانت أصداؤها لا تزال تتردد حتي يومنا الراهن(١) .

أما المنظور الهيجلي فهو منظور العقل الجدلي الذي يري الوحدة كامنة وراء الاختلاف ، ويرفض نظرة « الفهم » الحادة التي تقْطّع الواقع الحي إلي شرائح منفصلة ، مستقل بعضها عن بعض ، لا علاقة لأي منها بالأخري . الأولي نظرة جدلية تجمع بين الضدين في هوية واحدة ، والثانية نظرة المنطق التقليدي الذي يجعل الأضداد منفصلة ، ومتباعدة ، ولا يجوز الجمع بينها .

فلو أنك مثلاً أخذت ثلاث أفكار رئيسية في الفلسفة السياسية، وهي : الكلي ، والجزئي والفردي ، لوجدت المنطق التقليدي يفصل بينها تماما فالكلي كلى ، ولا شيء غير ذلك ، أي لا يجمع في جوفه بين الجزئي والفردي ، وقل مثل ذلك في العنصرين الآخرين : الجزء، والفرد . أما النظرة الهيجلية فهي تجعل الفرد جزءاً من كل . والكل لابد أن يتجزأ في أفراد ، وإلا لكان بغير معني ... إلخ . فكيف نستفيد

(١) كان الرئيس السادات يقول : إنه خليفة ورئيس القبة الناصرية ، ومع ما في هذا القول من مفارقة ، فقد استفاد كثيراً من عناصر هامة في هذه التجربة ! ولا تزال كثرة من هذه العناصر قائمة في عهد الرئيس مبارك في مواد الدستور والحرص علي القطاع العام .. إلخ.

من هذا المنظور في دراستنا للتجربة المصرية .. ؟! الواقع أن دراستنا لهذه التجربة سواء في صورتها اللبرالية أو الاشتراكية يكشف لنا أن النظرة التي سادت هاتين الفترتين كانت نظرة الفهم ؛ فى حين أننا في حاجة ماسة إلي نظرة العقل الجدلي . لكن ذلك يحتاج إلي شيء من الإيضاح ، فلنعد إلي الوراء قليلاً :

في القرن التاسع عشر خرجت مصر من نمط حياة العصور الوسطي إلي عصر النهضة : من عصر فرسان المماليك ومغامراتهم إلي عصر النهضة الحديثة وبناء الدولة العصرية .. وفي بدايته لخّص محمد علي ، رغم إصلاحاته الكثيرة ، ورغم أنه يمثل جسر العبور من تخلف العصور الوسطي إلي مدنية الحياة الحديثة ، لخّص إقطاع العصر الوسيط كله عندما أعلن أنه « المالك الوحيد لجميع أرض مصر .. ! وفي نهاية ذلك القرن ، ورغم إصلاحات أحفاده المتعددة ، وربما بسببها ، أعلنت البرجوازية المصرية أنها « الوريث الوحيد » لإقطاع محمد علي ...

****

وفي مطلع القرن العشرين ، وبعد أن حصلنا علي الاستقلال، وشرعنا في بناء الحياة السياسية ، الحدثية كان السؤال الذي يشغلنا هو : كيف ننظم هذه الحياة التي أصبحت لنا ، بعد أن تخلصنا من تبعية الأتراك (١٩١٤) ، وحماية الإنجليز (١٩٢٢) فى آن معا .. ؟! كيف نقدم فكراً سياسياً يعبّر عن آمالنا وطموحاتنا فى المرحلة القادمة .. ؟! الفكر السياسي ، كغيره من ألوان الفكر الأخرى ، ليس إلا تلخيصاً للحياة التي يحياها الناس في عالم الواقع ، وحياة الناس كما ذكرنا الآن توا ، برجوازية قلباً وقالباً ، وفضلاً عن ذلك فقد كان

خروجنا من ظلمات العصر الوسيط مواكباً لحركة الانفتاح علي أوروبا ، والتأثر بالأفكار السياسة السائدة وقتذاك لا سيما الفكر اللبرالي الذي مكّن لنفسه هناك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فجاء تدعيماً لحياتنا السياسية والاجتماعية التي يحياها الناس بالفعل ..

وعلي هذا النحو كانت حياتنا في مصر «حياة برجوازية» بكل ما تحمله الكلمة من معني(١) والحياة البرجوازية ، هي بصفة عامة ، تلك الحياة التي يرتكز محورها حول الفرد وما يستمتع به من حقوق ذاتية خالصة (وهي التي يسميها هيجل بالمجتمع المدني) ومن ثمّ فقد أقمنا بناءنا السياسي مركزين أساساً علي حقوق الفرد والعامة والخاصة والسياسة علي نحو ما ظهر في دستور ١٩٢٣ – أول دستور منتظم تشهده حياتنا السياسية ، وعلي هذا النحو تحققت اللبرالية السياسية التي ساءت مجتمعنا نحو ثلاثين عاما (١٩٢٣ – ١٩٥٢) ..

ورغم ما في هذه التجربة السياسية الفردية من خصوبة ، ومع أنها أصلت الكثير من الأفكار الهامة ، ولا سيما في مجال الحرمات الفردية، فإنها انتهت بهزيمة ١٩٤٨ [أعتقد أن حريق القاهرة أهم من هزيمة ١٩٤٨ بوصفه نقطة تحول في تاريخنا] التي كانت بمثابة إعلان حقيقي عن فشل التجربة اللبرالية في مصر – تلك التجربة التي جعلت من الفرد وحده ، وبغض النظر عن الآخرين – الحقيقة الأولي في بناء الدولة .

---

(١) قد يقال أن هذه كانت حياة طبيعية الحاكم لا الناس ، لكن الفكرة تظل علي ذلك صحيحة لأن المقصود أن «المثل العليا» للمجتمع كانت برجوازية ، والعامة تتطلع إلي حياة الخاصة من «علية القوم» فالناس علي دين ملوكهم

ومع ثورة يوليو ١٩٥٢ انتقلنا إلي تجربة جديدة يدور رحاها هذه المرة حول القطب المضاد ، وأعني به الاهتمام ((بالكل)) ، أو بالمجموع، أو الصالح العام ، أو الحياة المشتركة [متي حدث ذلك ؟ فقد بعد ١٩٦١ ومع تخفظات كثيرة] وركزنا علي الجوانب الاقتصادية والاجتماعية التي لم تكن واردة في حساب التجربة الأولي ، وهكذا حاولنا سد ثغراتها واستكمال ما فيها من نقص - لكنا في الوقت نفسه أسقطنا الفرد من الحساب .. ! لا تنسي أن فلسفة الميثاق تنفي هذا نفياً باتاً ؛ لأن ما يميز اشتراكيتها عن الاشتراكيات الأخري هو علي وجه التحديد كونها لا تضحي بالفرد من أجل المجموع ... هكذا قالوا !

ولهذا السبب فإن هذه التجربة الجديدة لم تدم طويلاً ، فقد استغرقت نصف المدة التي استغرقتها التجربة الأولي ، ثم جاءت كارثة ١٩٦٧ ؛ لتعلن بقوة وصوت صارخ : إفلاس الفكر الاشتراكي ، وانهيار تجربته ، وكان الفشل في هذه المرة : مروعا .. !

تجربتان أساسيتان مّر بهما مجتمعنا في القرن العشرين وهو ينظم حياته السياسية الجديدة ، وكلتاهما انتهت بهزيمة عسكرية : [رغم أن حجم الفارق بين الهزيمتين يعبر عن الفارق الهائل في فشل كل منهما .. !] الأولي لخصت حياتنا البرجوازية في النصف الأول من القرن ، ثم جاءت الثانية في بداية نصفه الثاني لتركّز علي الحياة الاشتراكية ((الأولي اهتمت بالفرد وحده وبغض النظر عن الكل الذي يعيش بداخله ، والثانية اهتمت ((بالكل)) المجرد الفارغ الذي لا يتحقق في أفراد عينيين . الأولي جعلت شعارها : ((أنا .. ثم الطوفان !)) والثانية جعلت شعارها ((الكل)) الذي لا يعلم سوي الله مكانه ومعناه ! .

علي هذا النحو كان تطورنا السياسى : فشلت التجربة الفردية التي نسيتْ أو تناستْ ، أن الفرد لا يعيش في فراغ ، وإنما هو يستمد ماهيته من خلال «الكل» ، ولا قيمة له ، كفرد ، إلا داخل هذا الكل ، ومن ثم فإن نموه وتطوره ، وحياته لابد أن تكون من خلال هذا الكل وليس علي حسابه : ومصلحته الشخصية يجب أن تتحقق من منظور كلي ، ولم تكن تلك هي الحال عندنا : وعلينا الآن أن نسوق بعض الأمثلة ؛ لنوضح الفكرة التي نعرضها – ونحن لا نهدف هنا بالطبع إلي تقديم تحليل فلسفي شامل لحياتنا السياسية.. في الفترة الماضية، ولهذا فسوف نكتفي بأمثلة قليلة نوضح بها ما نقول :-

في الفترة الليبرالية كان المجتمع برجوازياً يسمح للفرد أن ينمو في جميع المجالات وأن ينمي ثروته ، وأن يطور إمكاناته بشتي السبل، بغض النظر عن «الكل» الذي يعيش فيه ، والذي هو جزء منه : فالفرد في مثل هذا المجتمع ينظر إلي نفسه علي أنه «الغاية الوحيدة» ومصلحته الشخصية هي الهدف الأول ، ولا عبرة «للصالح العام» ، أو المجتمع ككل ، أو الدولة . ولقد أدي ذلك بالطبع إلي استقطاب الثروة في جانب [القلة القليلة من أفراد المجتمع] والفقر في جانب آخر [الكثرة الغالبة من أفراد الشعب] ، ولم يكن ثمة ما يمنع الفرد من أن «يثري» ثراء فاحشاً حتي ولو كان ذلك علي حساب حياة «الكل» دون أن يستشعر حرجاً ! والمثل الصارخ الذي نسوقه هو قيام الفرد أو حفنة من الأفراد بشراء أسلحة فاسدة للجيش الذي يمثل الكل ، ويحقق مصلحته الشخصية علي حساب المجتمع فيثري الفرد ثراء لا حد له ، أو بغض النظر عن الكل الذي يعيش فيه لأن الفرد هو «الغاية الوحيدة» ، ومصلحته الذاتية هي الهدف الأول ولا أهمية للمجموع، ولا عبرة «للدولة» ..

ومن هنا فإننا نقول : إن هزيمة ١٩٤٨ كانت نهاية لهذه الفترة التي

تم إعلان نهايتها بالفعل عام ١٩٥٢ ولم تكن السنوات الأربعة من ١٩٤٨ حتي ١٩٥٢ سوي فضح لهذه الفترة ، وكشف عن تلك الحقيقة التي غابت أكثر من ثلاثين عامًا ، وهي أن الفرد لا يعيش وحده في فراغ ، وإنما نسيج العلاقات الاجتماعية هو الذي يحدد ما هيته وقيمته ، ومن ثم فإن نموه الحقيقي لابد أن يكون داخل هذا الكل ومن خلاله : لأن الفرد جزء من كل ، وهذه المقولات الثلاثة : الفردي والجزئي، والكلي لا يمكن أن تنفصل ؛ لأن انفصالها بحيث يبدو الفرد مستقلا عن الدولة ، وبحيث يكون موجوداً قائماً بذاته فى مقابل الكل ، يعبر عن نظرة خاطئة هي بلغة هيجل : نظرة الفهم – وهذه النظرة الخاصة علي صعيد الفلسفة تتحول إلي كارثة في عالم الواقع ، ولا يكشفها بوضوح أروع من الاحتكاك العسكري ، ففي لهيب القتال تنصهر الأفكار ويظهر معدنها بوضوح...

****

وجاءت الفترة الثانية ؛ لتقع في الخطأ السابق نفسه وتتبني وجهة النظر السابقة ذاتها « نظرة الفهم » وربما بطريقة أشد سوءاً ، فتفصل بين الكل ومفرداته الجزئية ؛ لتجعله « كلاً » خاوياً فارغاً لا وجود له إلا في الفكر وحده [أعني أنه يكون مجرد فكرة فحسب] فهو لا يوجد في الواقع الحي الذي يعيشه الناس ، وإنما يوجد في « رؤوس » الذين يتحدثون عنه فحسب . والواقع أن التصور الكلي ، أيا كان نوعه لا قيمة له إلا إذا تحقق في مفردات العالم الخارجي ، أعني أنه لابد أن يتجزأ ـ بلغة هيجل . ويحقق نفسه في العالم ، فكلمة الشجرة تصور كلي لكنها مالم تتحقق في أفراد الشجر الموجودة في هذه الحديقة ، وذلك الحقل ، وفى الشارع المجاور فسوف تكون

« تصوراً كلياً »، مجرداً لا يوجد إلا في رأس صاحبها ، ومن ثَمَّ لا أهمية له ! وهل يكون لكلمة « إنسان » معني أو قيمة مالم يوجد زيد وعمرو ومحمد وأحمد – إلخ في أرض الواقع .. ؟! وهل الكلمة وحدها يمكن أن تكون شيئاً سوي فراغ وتجريد كاملين ، والتركيز عليها وحدها يعني التركيز علي فراغ كامل ، لهذا السبب انهارت التجربة الاشتراكية التي أسقطت الفرد من حسابها ، وركزت علي الكل الخاوي الفارغ الذي خلا من سكانه ، فكان من السهل أن يتحطم .. !

والأمثلة كثيرة علي هذا الكل الفارغ الذي لا يتحقق في جزئياته العينية : فالقطاع العام مثلاً يملكه « الكل » ، وهو لصالح « الكل »، لكن لا يملكه أحد علي وجه التخصيص ، ولا حتي ملايين الأفراد ، ومن هنا ذهب بعض الأدباء ، في سخرية ، إلي أن « مالا يملكه أحد حلال سرقته ! »[1] والكل الفارغ أيضاً هو الكفاية والعدل التي كانت شعاراً بغير مضمون ، لا يتحقق عندي ، ولا عندك ؛ لأننا في النهاية لا نجد كفاف يومنا عندما نقف في الطابور بحثاً عن الطعام ! وقل نفس الشيء بالنسبة للمواصلات والمساكن ... « وعليك أن تتحمل من أجل « الكل » ! وكذلك قل بالنسبة للحرية التي تحولت إلي كل فارغ ، أعني تصوراً بغير مضمون ، فهي لا تعني حريتك أو حريتي أو حرية الآخرين ، وإنما هي حرية « الكل » ! ومن هنا كثرت الشعارات العامة - علي نحو ما حدث إبان الثورة الفرنسية - التي تتصف بالكلية الفارغة التى يفسرها الحاكم علي هواه ، وينتهي الأمر إلي فوضي ضاربة نتيجتها الحتمية : الإرهاب !

إن الكل الفارغ الذي لا يتجزأ إلي أفراد عينين تقوم بينهم فروق واختلافات هو الوجود الخالص الذي يتحول إلى عدم فى منطق

---

(١) جسدت قصة نجيب محفوظ « ميرامار » هذه الفكرة تجسيداً رائعا .

هيجل ! أو هو «« أشبه بالليل الذي تكون فيه كل الأبقار سوداء ! »» على حد التعبير الهيجلي الشهير ! «« إن صديق الكل ليس صديقاً لأحد ! »» وما هو من «« أجل الكل »» – هكذا بإطلاق ودون تحديد . لا ينتفع به أحد ! والكل الفارغ الذي لا يتحقق في الواقع العيني والذي لا يعني جميع أفراده باستمرار لا قيمة له ، ولا فائدة منه ، اللهم إلا أن يكون أداة في يد الحكام لتبرير أفعالهم! ولهذا نراهم يتحدثون كثيراً عن «« الشعب »» وليس هو بالطبع أنا أو أنت أو هو .. إلخ إنما كل خلا من مضمونه ، ولا يعلم إلا الله أين يوجد ، وقل مثل ذلك في كلمات مثل «« الجمهور »» و«« الجماهير »» و««الصالح العام »» و««مصلحة الوطن »» – و«« المصلحة العليا »» ... إلخ .

وتلك هي نفسها نظرة الفهم الذي يستخدم «« الكل »» بوضعه تصوراً مجرداً «« فكلما زاد مفهومه قلت ما صدقاته .. ! »» فهو كل بمقدار ما يكون غير متعينٌ ، إنه كما قلنا : الوجود الخالص في منطق هيجل الذي يرادف العدم – وهو بالفعل كل «« فارغ »» يخلو من كل سمة جزئية ، وبالتالي يرادف الصفر..! أو لا شيء !

***

التجربة الليبرالية البرجوازية اهتمت أساساً بالفرد بإطلاق حرياته على أوسع نطاق ، والتأكيد على حقوقه ، ولا سيما حقه في التملك ، ولو على حساب الآخرين ! كما أنها أطلقت حريته في التجارة والصناعة .. وذلك بغض النظر عما يقتضيه تدعيم هذه الحقوق والحريات من التمتع بدرجة معينة من الكفاية الاقتصادية ، فرأينا أصوات الناخبين تنجذب إلي هذا البعد الناقص : أعني البعد الاقتصاد :

حينما يكون المال توجد أصوات الناخبين ، وتتجمع الحريات السياسية الفردية وهكذا كانت هذه التجربة الفردية ، بلغة هيجل ، أحادية الجانب .. Dne - Sidedness ؛ لأنها ركزت علي جانب الحقوق والحريات العامة بجانبها السياسي فقط ! وهي بلغة هيجل أيضا مجردة abstioct ؛ لأنها جردت هذه الحقوق والحريات من سياقها ! فهي لا توجد في أرض الواقع منفصلة عن جناحيها : الاجتماعي والاقتصادي . وكيف يمكن لي أن أكتب بحرية ، وأن أقول رأيي بصراحة حتي ولو أتاحت القوانين ذلك ، وكيف يمكن أن أدلي بصوتي في الانتخابات بحيث أختار المرشح الكفء بغير زيف أو نفاق – كيف يمكن أن أفعل ذلك ما لم أكن في وضع اقتصادى يمكننى من الحد الأدني من الحياة ؟ كيف تقول لي لا تبع صوتك ، وليس عند شيء آخر أبيعه ؟ ! إن الفقر ليكتسح أمامه كل شيء ، حتي ولو كانت قيم الأخلاق ! فما بالك بقيم السياسة ؟! تلك وجهة نظر مجردة هي وجهة نظر الفهم التي ينبغي أن نتخلص منها ؛ لننظر إلي الأمور بمعيار العقل الجدلي ذي النظرة الشمولية الحية !

***

لكن التجربة الاشتراكية لم تكن أسعد حظاً من سابقتها : فجاءت لتؤكد الجانب الاقتصادي . وحده ، وتركز علي الحياة العامة ، حياة الكل ، وتسقط الفرد من حسابها تماماً – مع أنها قامت في الأصل لتنقذه مما هو فيه من بؤس ومسغبة ؛ ولتعيد إليه حقه المسلوب في الحياة الكريمة ، ولتمكنه من ممارسة حقه السياسي بغير ضغط أو إرهاق ، أي بشرف وأمانة ! لكنها للأسف قدمت لنا منظراً عجيباً : جمعت الجناحين الاقتصادي والاجتماعي ، وعانينا معها في جمعها –

لكنها عندما عادت لم تجد الجسد الذي تضع له هذين الجناحين : لأن الفرد لم يكن هناك ! فكان مثلها مثل الطبيب الذي استدعي ؛ ليزيل عن المريض حرارته ، فأزال عنه حياته أيضاً ! ومن هنا كانت كارثتها مروعة؛ لأنها أجهدت نفسها في بناء المعبد ثم نسيت قدس الأقداس : الفرد ! .

وكما كانت التجربة السابقة آحادية الجانب ومجردة .. ! كانت هذه أيضاً وربما بطريق أشد سوءاً !

***

بقي أن نصل إلي التجربة العينية Concrete الحقة التي تمثل بلغة هيجل مركباً من اللبرالية والاشتراكية إن صحَّ مثل هذا المركب ! بحيث يكون للفرد دور فعال من خلال الكل ، وتلك هي التجربة التي حاولت الفلسفة السياسية عند هيجل أن نعرض لها بغض النظر عن مدي نجاحها أو فشلها في تحقيق هذا المركب ! هذه التجربة تري :

‹‹ أن الدولة هي التحقق الفعلي للحرية العينية ›› ، لكنها تسرع وتضيف ‹‹الحرية العينية تعتمد علي الفردية الشخصية ، ومصالحها الجزئية ، بحيث يتم تطورها الكامل [أي تطور هذه الفردية] وتظفر بالاعتراف الصريح بحقها [داخل الدولة] .. (فلسفة الحق ص ١٦٠ من الترجمة الإنجليزية) ، ولهذا فإن هيجل يقول بصراحة :

‹‹ إن الكلي لا يتحقق إلا بتحقق المصالح الجزئية ، ومن خلال تعاون المعرفة والإرادة الجزئيتين ، كما أنه لا حياة للأفراد بوصفهم جزئيين إلا عندما يستهدفون الكلي في نشاطهم ، ويريدون ، عن وعي غاية كلية ›› .. ! (نفس المرجع ص ١٦١) .

وهذا هو المبدأ الصحيح لبناء الدولة الحديثة : السماح للذاتية بالنمو حتي تصل إلي ذروتها ، وتبلغ الحد الأقصي للشخصية المستقلة ، لكنها في نفس الوقت تسترشد بمباديء كلية ، وإلا لهدم المجتمع نفسه بتضارب المصالح الأنانية لأعضائه .. يقول هيجل ! «لو أننا ألقينا نظرة سريعة علي تكوين الدولة لوجدنا : أن الدول تكون قد تأسست تأسيساً متيناً وتكون قوية من الناحية الداخلية عندما تتحد المصلحة الخاصة للمواطنين مع المصلحة العامة للدولة ، وحين يجد كل منهما في الآخر إشباعه وتحققه الفعلي» . لكن هيجل يستطرد فينبهنا إلي أن تحقيق هذا الأمل ليس مسألة سهلة أو أمراً هيناً .. فهو يقتضي صراعات طويلة من جانب العقل ، قبل أن يكتشف التنظيمات المناسبة حقاً ، كما يثير ألواناً من النزاع مع المصالح والانفعالات الجزئية ، ويقتضي غرساً شاقاً بجهداً لهذه الأخيرة حتي يتحقق في النهاية الانسجام المنشود .. (فلسفة التاريخ ط ٢ ص ٩٤ من ترجمتنا العربية) . لكنا سوف نجد في النهاية جزاء ما عانيناه من جَهد ، وما بذلناه من عرق « فاللحظة التي تبلغ فيها الدولة هذه الحالة من الانسجام هي فترة ازدهارها وقوتها وبسالتها وزخائرها .. (نفس المرجع السابق) .

وهكذا نستطيع أن نقول مع فيكتور باش Victor Basch : «أن الدولة في نظر هيجل هي في مجموعها توفيق بين فلسفة السلطة المطلقة ، والديمقراطية المطلقة بين الفردية المفرطة ، وبين السيادة الكاملة للدولة ..» علي أن يُفهم التوفيق هنا بمعني «المركب الجدلي» الذي يتحقق فيه الفرد عن طريق ضده : الدولة ، ولا تقوم للدولة قائمة إلا إذا تحققت مصالح الفرد !

***

أخشى ما أخشاه أن يظن القارىء أنني أقدم الدولة الهيجلية على أنها مثل أعلى يحتذي ! وهو أمر لم يخطر على بال هيجل نفسه ؛ لأنه كان يعتقد أن الفلسفة السياسية ليست سوى دراسة وتحليل للواقع السياسي الذي يعيش فيه المرء لبيان مدى اتفاقه أو اختلافه مع العقل ! وفي سبيل هذه الغاية كتبت هذا المقال !

الحق أنني أردت فحسب أن أقدم مجموعة من الأخطار السياسية الأساسية التي أعتقد أنها خصبة ، ومفيدة ، وتصلح كأدوات للتحليل لكل من أراد أن يدرس الحياة السياسية . وهي قد ترشدنا ونحن نسعى خروجاً من تجربتين مريرتين إلى تلمس الطريق السليم نحو بناء دولتنا الحديثة ، ونحو القضاء على عوامل الضعف التي فتكت بها سنين طويلة . وفضلاً عن ذلك فقد أردت أن أقول : إن الخلاف الناشب بين اللبراليين والاشتراكيين (أو بين أنصار التجربة الأولى ومؤيدي التجربة الثانية) لا يحسم بالقضاء على أحد الأطراف والعودة إلى إحدى التجربتين السابقتين ؛ لنجد الأخطاء من جديد (وفي ظني أن ذلك مستحيل !) فقد يجوز أن يكون كل منهما محق فيما يؤكده مخطىء فيما ينكره[1] : والموقف الصحيح في نظرنا هو الجمع بين ، الجزئي والفردي ، والكلي ، في مركب جدلي واحد ، يعني أن يكون الفرد باستمرار جزء ، من كل ، فيسمح له أن ينمو من خلال هذا الكل ولا يسعى إلا لغاية كلية ، في حين لا يستهدف الكلي إلا المصلحة الجزئية للأفراد .

---

(١) نحن نعيش الآن « هلامية فكرية » غير واضحة المعالم تتمثل في الخليط المتبقي من التجربتين السابقتين : فهناك أفراد يثرون على حساب الآخرين ، كما يحدث في شركات الانفتاح والاستيراد الفاسد .. إلخ وهناك من ناحية أخرى قوانين اشتراكية تتمثل في القطاع العام ، وملكية الدول للصحف وأجهزة الإعلام ومواد كثيرة من الدستور القائم ! ولقد أدت هذه الهلامية بالشباب إلى سلبية غريبة ؛ فهربت الغالبية العظمى ؛ لتحتمي في نوع من الغيبوبة : غيبوبة المخدرات من ناحية ، أو غيبوبة الفكر الديني المتطرف من ناحية أخرى .

سادساً : مقالات لا تروق : !

١ - يا مَنْ كنت صديقى .. !

٢ - فى أعماق النفس البشرية .. !

٣ - إلى زوجتى .. !

٤ - عُـذْرُ الظالم .. !

٥ - كما يموت الكلب .. !

« يا مَــنْ كنـتَ صـديقـي .. ! »

عندما كنا نسيـر سوياً تحت الأشجار ، قُبيل الغـروب أحياناً ، وفي ضوء القمـر أحياناً أخري .. يومها كنتَ صـديقي .. ! وعندما كنتَ تفتح قلبك ؛ لتطلـعني علي مكنوناته ، وتكشف لـي عن أدق أسـرار حـياتك ، حتي خطاياك وحماقتك.. يومها كنت صديقي .. !

وعنـدمـا كنا نجلس نتسـامر سـاعات طـويلة بغيـر ملل ، نتباحث ، ونتناقش، ونتـعـاتب دون أن يعرف الـنفاق إلينا سـبـيلا ... يـومـهـا كنتَ صديقي .. !!

وعندما كنتَ تقـول لـي : أن الصـداقة لا تعـرف رياءً ولا كذباً .. انظر إلي بلاغـة اللغـة العربيـة حـين بـثـت صفــة « الصــدق » فــي كلـمة « الصديق » .. يومها كنتَ صديقي !!

يومها كـان ذلك الحديث الشيق الذي دار بيني وبين أستـاذنا الكبير الدكتور زكي نجـيب محـمود ، ذات مرة ، يتـواري إلي الخلف ! لم أتذكر عـبارته المضـيـئة عندما انـدفعت في إخـلاص عـارم ، وانبـهار سـاذج في عـلاقـتي مـعك ، ظناً مني أنك نعم الـصديـق ! ونعم الزمـيل ! ونعم الأخ والرفـيـق !! كـان أسـتـاذنا الكبـيـر قـد قـال لي ، فـي ذلك الحـديث الذي نسـيـته ، « اسـمـع .. لقـد قلتـهـا مراراً ، وأقـولـهـا لك الآن من جـديد ... تريث في الحكم علي الـناس ... فالمسـألة لـيست سـهـلة كمـا تظن ... لا تحـاول أبداً أن تحكم علي فـلان من الناس حكماً تـطمئن إلي صـوابه إلا إذا تولي منصـباً ، فتـلك هـي اللحظة المناسبـة حقـاً لمعرفتـه ، أو ذلك هـو المعـيـار الدقـيق للـحكم عليـه ، فـعندئذ يكون في اسـتطاعـتك أن تصـدر

عليه حكمك في اطمئنان وصدق !! ويستطرد الأستاذ المعلم ؛ ليقول : «« إن المناصب يا ولدي ، هي البوتقة التي تنصهر فيها معادن الناس ، وتظهر في وضوح وجلاء .. إنها العلامة التي لا تخطىء في تمييز البشر ... فسوف يكون في استطاعتك أن تري أمامك رأي العين : النحاس نحاساً ، والفضة فضة ، والذهب ذهبًا ... دون أن يكون في مُكنة معدن خسيس أن يختلط بمعدن نفيس أو أن يتواري خلفه .. !!» .

رأيتك ، يا صديقي ، بعدها ... وبعد أن تذكرتُ هذه العبارة المضيئة التي أنارت كل شيء حولي .. رأيتك تتوارى وتنكمش شيئًا فشيئاً ، حتي تتضاءل ؛ لتصبح مجرد نقطة من الضوء علي حين كان ««الكرسي»» يكبر ويعظم ويتضخم .. حتي وسع كرسيك الحجرة الفسيحة الأنيقة !! وتحول الجماد إلي كائن حي يتكلم بأنفة وفصاحة ولسان مبين !!

رأيتك ترتدي عباءة واسعة فضفاضة لم تكن لك ، وتتحدث عن مواهبك التي كانت مدفونة ثم انصهرت فظهرت ! وعن قدراتك الخارقة التي لم أكن أعلم عنها شيئاً .. ! وتتحدث باحتقار عن «« فلان »» ، وبسخرية عن «« علان»» ..!!

رأيتك تتحدث معي ، وكأني شخص «« آخر »» غريب عنك لا يعرفك ولم تقل له أسرارك ذات مساء !! وتساءلت نفسي ببراءة : أين الصديق والزميل والإنسان من ذلك المنصب المتحدث في عجرفة وصلف وغرور ؟!! وأين «« الصدق »» ؟! أم أنه هو الآخر قد خان وغدر .. ؟! ومادت بي الأرض ! ماذا حدث ؟! أتراني كنتُ ساذجاً إلي هذه الدرجة حين ارتضيتك صديقاً واتخذتك أخاً .. ؟!

أمن أجل منصب زائل بدأت كفة الغدر والغيرة والحقد والكذب

ترجح ، ومالت كفة الصدق والحب ، والأخوة والزمالة .. ؟!

وتذكرتُ ما قاله واحد من شعراء الإنجليز عن زميل لهم عيِّن في منصب رفيع فخسره زملاؤه بسبب هذا المنصب ، فكتب بيتين عن هذا الزميل يقول فيهما بلوعة وأسي :

«« من أجل حفنة من الفضة .. تركنا وذهب .. من أجل حفنة ضئيلة من الفضة .. تركنا وذهب !! »» أتراني كنتُ مخدوعاً إلي هذا الحد يوم تصديت للدفاع عنك بقوة وحماس نافياً جميع التهم التي ألصقت بك ؟! أتراني كنت ساذجاً إلي هذا الحد يوم استنكرت بشدة ، أن يصفك أحد بمثل هذه الصفات الشنعاء ؟! يومها كان القوم ينظرون إليَّ ولسان حالهم يقول:أصحيح أنك لا تعرف ؟ أحقاً تجهل ذلك كله ؟! إذن فتلك مصيبة المصائب !

وعندما سألتك عن هذا الذي يقال : يومها عاد المقعد يتكلم عن حقد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وتضاءلت أنت ، مرة أخري حتي أصبحت مجرد نقطة ضوء صغيرة حطت عليه من سقف الغرفة الواسعة ! وشعرتُ يومها بضحالة تجاربي وسذاجة حكمي .. ! لكن ما خفف وقع الصدمة عني ، قصة تذكرتها عن موقف الراهب الفيلسوف القديس توما الأكويني St. Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤) - وهو أعظم من شهدته أوروبا من فلاسفة العصور الوسطي ، وكان يغلب عليه الظن بخيرية الإنسان وطيبة عنصره .. ومن ثم فقد كان سريع التصديق لما يقوله الآخرون من الأصدقاء والرهبان ، وحدث يومًا أن ضحكت عليه جماعة من أصدقائه الرهبان .. وكانوا قد عرفوا فيه تلك البساطة البريئة ، فصاحوا به قائلين - أسرع يا «« توما »» : لتري تلك الأبقار التي تطير بأجنحة في أجواز الفضاء !

فأسرع توما إلي حيث تجمع أصدقاؤه من الرهبان عند النافذة ،

ونظر إلي السماء فلم يجد شيئاً ، عندئذ انفجر الزملاء الأصدقاء في موجة عارمة من الضحك سخرية منه لسذاجته ! وهنا نظر إليهم القديس توما في هدوء ثم قال :

– علام الضحك .. ؟! فلئن أصدق أن أبقاراً تطير في السماء ، لأهون علي نفسي أن أري رهباناً يكذبون .. !!

فحسن الظن بالناس ، وبطبيعتهم الخيرة هي الأصل حتي ولو اتهمت بالسذاجة ، فما بالك بحسن الظن بالأصدقاء ؟! ما بالك بالزملاء المفروض فيهم أن يكونوا أوفياء .. ؟! لئن كانت النتيجة اتهامي بالسذاجة والبراءة والغفلة وضحالة التجارب ، فذلك أهون علي نفسي من رؤية صديق يغدر ويخون ويكذب وينافق !! كنت تقول لي ، في محاولة لتبرير مواقفك ، أن عيبك الوحيد أنك تصدق كل ما يقوله «« فلان »» !! وكنت أرد بأن فلاناً هذا أستاذ جليل لم يكذب قط ، ولم ينافق قط – إنه صاحب مبادىء لم تعرفها أنت ... ومواقف لم تمر عليك بعد .. !

كان أرسطو ، المعلم الأول ، يقول إن الصداقة تنقسم إلي أنواع ثلاث بحسب اختلاف موضوعها :

أما النوع الأول ـ فهو الصداقة التي تقوم علي المنفعة أو المصلحة أو الفائدة !

والنوع الثاني ـ فهو الصداقة التى تستهدف اللذة أو المتعة !

وأخيراً ـ هناك الصداقة الحقيقية التى تقوم على الخير أو الفضيلة. ولعلك تعرف النوع الأول من الجموع التي التفت حولك يوم توليك ذلك «« المنصب »» الذي كان وبالاً عليك ! .. والنوع الثاني كنت أنت الذي تجري وراءه لاهثاً ، والعرق يتصبب من جبينك ؛ لتحظي بعلاقات خاصة مع نوعية معينة من الناس .. !! أما النوع الثالث فلم

تعرفه قط ! الصداقة الحقيقية التي توصف بالثبات والدوام والاستقرار، والتي تقوم بين الأخيار من الناس ، لأنهم جميعًا ينشدون موضوعاً واحداً بعينه ألا وهو «« الخير »» .. !! وها هنا لا يريد الصديق لصديقه إلا «« الخير »» كما يقول أرسطو ، أو يكون «« الصديق مرآة لصديقه »» كما يقول شكسبير من حيث إنه لا يري خير نفسه إلا في انعكاس سلوكه علي سلوك صديقه ، ولا يريد له إلا ما يريد لنفسه من خير وسعادة ، والصديق ، كما يقول أرسطو أيضاً «« هو ذلك الشخص الذي يريد الخير ويعمله لصالح صديقه »» وهو الذي يختار لنفسه الموضوعات التي يختارها لصديقه ، وهكذا يعود الصدق مرة أخرى ؛ ليصبح جوهر الصداقة ، وصميمها ، فلا صداقة بغير أن يصدقك الصديق ، ولا صداقة إلا مع شخص يريد لك الخير ويعمل من أجله ... تلك هي الصداقة التي تبقي وتدوم .. !

***

آه ! لو عرفتَ ، يا منْ كنتَ صديقي أن المناصب لا تدوم ، وأن «« المراكز»» ، كالزمن ، حول قلب !

آه ! لو عرفتَ أن الكذب بلا ساقين ، وأنه سرعان ما ينكشف كالزبد الذي يذهب جفاء !

آه ! لو عرفتَ أن المباديء هي عصب الحياة الإنسانية ، وأن الإنسان بغير مبدأ وبلا موقف ... لا قيمة له .. !

آه ! لو عرفت أن الديانات جميعاً كانت تستهدف تقويم سلوك الإنسان وتدعيم أخلاقياته ! وأن الرسول الكريم لخّص رسالته في عبارة جامعة : «« إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق !! »» .

لو عرفتَ ذلك كله ، يا منْ كنت صديقي ، لظللت صديقي ... إلي الأبد..!! .

« فى أعماق النفس البشرية ... ! »

لم أعتد منه أن يلقاني بهذا الوجه العابس ، فقد كان يستقبلني هشاً بشاً ، باسم الثغر ، هاديء النفس ، منشرح الصدر ! لكني أنكرته هذه المرة ، فقد اكتفي بسلام فاتر أشار إليّ بعده بالجلوس دونما كلمة ! بل وكأن لسان حاله يقول : ما الذي جاء بك في هذه الساعة ، لم أكن أود أن تراني علي هذه الحال !

وأردتُ أن أبدأ معه الحديث وأن أكسر الصمت المفتعل ، فقلت :

لستُ أراك علي ما يرام ؟! ماذا حدث ؟ أين ابتسامتك ؟ أم تريد أن أردد علي مسامعك قصيدة «إيليا أبو ماضي» الشهيرة عن ضرورة «الابتسام» والتي مطلعها :

قال «السماء كئيبة !» وتجهما   قلت : ابتسم يكفي التجهم في السما !

أجابني بهدوء : – ليست السماء الملبدة بالغيوم هي السبب ، كلا ، ولا تقدم العمر ، لكنهم البشر .. !

– وهل في ذلك مِنْ جديد عليك ، وأنت الخبير المحنك الذي لا تخفي عليه طبائع البشر .. ؟!

– عندما يكون الشخص الذي يعقد عليك من نفس الحقل الذي تعمل فيه، فقد يكون ذلك مفهوماً ، أو مبرراً ، أما إذا كان يعمل فى ميدان آخر ، ولم تكن لك به أدني صلة ، ولا سابق معرفة ، فهذا أمر محيّر حقاً !

– يكفي أن تكون إنسـاناً ناجحـاً ، أو أن تقـوم بعـمل جيـد ، حـتي يحقد عليك الآخرون لا لسبب آخر سوي نجاحك ، ولا سيما إذا لم يكن في اسـتطاعتـهم أن يصلوا إليـه ! وعلي أية حـال فـإن عليك أن تضع في ذهنك باستمرار ما قاله الشاعـر «« إيليا أبو ماضي »» في نفس القصيدة التي ذكرتُ لك منذ قليل مطلعها :

قال العِـدَى حـولي علَتْ صيـحـاتهم … أأسـر ، والأعـداء حـولـي في الحـمي ؟!
قلتُ : ابـتـسم ، لم يطلبـوك بذمـهـم … لـو لم تـكن مـنهم أجـلَّ وأعـظمـــا !

أرأيت مـا يقوله الشـاعر ؟! ألوان السـبـاب والذم والشـتـائم الحـقـودة ترجع كلهـا إلي شعـورهـم إنك أفضـل مـنهـم ، أو إنك منهم أجل وأعظم ، كما يقول الشـاعر ، فأنت تقوم بأعمال ليس في استطاعـتهم أن يقوموا بها .

– ولماذا لا يحـاولـون هـم مـرة ومـرة ، القيـام بأعـمـال مماثلة ؟! ولـو أنهم نقـدوا ما أكـتب نقـداً موضـوعـياً لقـلنا : نعم ! ونعَام عَيْن ! لكنهـا كلها مسـائل ذاتية ، ما أكتب شيئاً إلا شرعوا يشمرون عن ساعد الهـزل فيتناولـونه بالـهجـوم والتجريح وكأنهم جعلوني تخصصـهم الوحيد !!

– هـذه هـي النقطة الـهـامـة : فهـم يا سـيـدى ، لا يسـتطيـعـون القيـام بعمل إيجـابي خلاّق كما تفـعل أنت وكلما كتبت أكـثر شعروا بعـجزهـم علي نحـو أشد وأعـمق ! ثم إلي جانب ذلك كله ، فلابدّ يا أخي ، أن تكـون هناك تخـصصـات ! أعني أن يكون هناك مَنْ يبني ، وأن يكون هناك من يهـدم ، من يـعـمل ، ومَنْ يسـخـر ممَنْ يعـمل ! مَنْ يكتـب ومَنْ يجلس مـتـربصـاً ، مُـمـسكاً بالقلم ولكنه لا يسـتطـيع الكتـابة ، فـينتظر حـتي يكتب غيره فيشـرع في الـتعليق عليه ، والسـخرية منه ! ألم تقرأ الإهـداء الرائع الـــذي كـتـبـه طه حـسين في واحــد من كـتـبـه : «« إلي الذين لا يعملـون .. ويسـوؤهـم أن يعمل الناس !! »» ؟!

– أعوذ بالله ! لا يعملون ، ويغضبون عندما يعمل غيرهم ؟!

– نعم ! ويشتد غضبهم ، ويتميزون غيظاً ، كلما كان ما يعمله غيرهم ممتازاً !!

– وكيف تفسر ذلك ؟!

– في اعتقادي أنه «« الإعجاب الشديد »» بما تكتب ! أجل إنه الإعجاب الذي يصل إلي حده الأقصي فينقلب حقداً وكراهية ، لو أنك تكتب شيئاً غثاً أو سطحياً كما يقولون ما قرأوه ، وما اهتموا به ، اللهم إلا إذا كانوا لا ينجذبون إلا إلي ما هو غث وسطحي . لكنى اعتقد أنهم معجبون بها أشد ما يكون الإعجاب ! والإعجاب يا سيدي ، «« إذا زاد عن حده ، انقلب إلي ضده!!»» .

– لكن لماذا ينقلب الإعجاب الشديد حتي في حالاته القصوي إلي ضده علي هذا النحو ؟ !

– السبب واضح جداً .. وهو أن هذا الإعجاب الشديد يُشعر صاحبه في الوقت نفسه ، بعجزه ، وبعدم قدرته علي الوصول إلي تلك المكانة الرفيعة – ولابدّ أن تكون مكانةً رفيعةً ما دامت موضع أعجاب ، شديد ، التي وصل إليها الشخص الذي يُعجب به !! وكأنه يريد أن يقول لنفسه أولاً وللناس ثانياً ، لماذا هذا الإعجاب كله !! إنه لا شيء ! إنه في الحقيقة لا يقول شيئاً : انظروا ، في استطاعتي تفنيد كل ما يقول ، وبالتالي فلستُ عاجزاً عن الوصول إليه ، أو يعجز الإنسان عن الوصول إلي «« اللاشيء »» ؟!

– هذه حقيقة غريبة من حقائق النفس البشرية !

– اتذكر أستاذنا فلان ؟! وهل تذكر الأستاذة فلانة التي كانت تكيل

له علي الدوام ألواناً من الشتائم والانتقادات المضللة المغرضة حتي أمام الطلاب وفي قاعات الدرس ؟!

– طبعاً أذكر ذلك جيداً ، وكنا نعجب من هذه السيدة التي ما تفتأ تسب هذا الأستاذ الجليل بمناسبة وبغير مناسبة ، وكنا نسأل لماذا هذا القدر من الكراهية !!

– اتذكر أننا يومها ، ذهبنا نستطلع رأي واحد من علماء النفس في بلادنا ، فقال أن المسألة في غاية الوضوح : فهذه السيدة كانت تكن لهذا الأستاذ حبا يبلغ درجة العبادة ، فلما فشلت في تحقيق هذا الحب والزواج منه ، انقلب الحب وبنفس درجة الجنون هذه إلي كراهية !!

– نعم ! تذكرت هذه الواقعة جيدا .. ويومها رحنا نستقصي وقائع الطفولة عند هذين الأستاذين فوجدناها مؤيدة لما قاله عالم النفس ، تماماً ! فقد كانا أصدقاء أيام الشباب ، بل كانت الأسرتان ترتبطان بروابط وثيقة حتي لكان يقال أن فلاناً سوف يتزوج من فلانة ! ثم «خاب سعي العشاق» ! كما يقول شكسبير . واستطاع أستاذنا أن يفلت بجلده من هذه المرأة ـ وخيراً فعل !! فتحول الحب الكبير في قلب صاحبتنا إلي كراهية واستمر حتي بعد أن ترك لها الجامعة لسنوات ، وسنوات !!

وهأنذا قد قدمت لك تفسير الشاعر ، ثم تفسير عالم النفس وإليك تفسير الأديب في صورة قصة خرافية ، فهل أتاك حديث «الثعلب رينار Renard مع العنب» ؟!

– لم أسمع قط عن ثعلب له اسم ! دع عنك أن يكون له حديث يروي مع العنب !

ـ أما الثعلب «« رينار »» فهو بطل مشهور في ملاحم العصور الوسطي التي كانت تكتب عن الحيوان ، وله الكثير من المغامرات مع مختلف الحيوانات ، أما قصته هذه المرة فهي مع العنب ، وقد رواها الأديب الفرنسي الشهير «« جان دي لافونتين Jean de la Fontaine »» (١٦٢١ – ١٦٦٥) في حكاياته الخرافية المعروفة ، ومفادها أن الجوع كاد يودي بحياة «« الثعلب رينار »» عندما رأي عريشا فوقه عنب ظاهر النضج بحباته المستديرة اللامعة التي تشبه عيون الشهب ولونه الجميل يشبه لون الذهب ، فاشتهي أكله ، وأراد أن يعد لنفسه مأدبة منه وحاول أن يصعد إليه لكنه هوي علي الأرض ، ونهض متثاقلاً وأعاد الكرّة مرة ومرة دون جدوي ، ولما أيقن من فشله قال لنفسه لا ! هذا عنب شديد الاخضرار ، إنه حصرم ، غير ناضج !! ويختتم ««لافونتين»» هذه القصة بتعليق ساخر علي ذم الثعلب للعنب ، فيقول : «« أليس هذا خير من الشكوي »» !! عبارة موجزة تتضمن مغزي الخرافة التي تكشف عن خُلق فريق من الناس يذمون الشيء الذي يعجزون عن الوصول إليه بدلاً من أن يلوموا أنفسهم ويعترفوا بخيبتهم !!

وفي منتصف القرن الماضي نقل أديبنا «« محمد عثمان جلال »» (١٨٢٨ – ١٨٩٨) حكايات لافونتين الخرافية إلي اللغة العربية في كتابه الشهير «« العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ »» .

فقال في هذه الحكاية :

حكاية عن ثعلب
قد مرَّ تحت العنب
وشاهد العنقود في

لـــون كـــلـــون الـــذهـــب
والجـــــوع قـــــد أودي بـه
بـعـــــد أذان المـغـــــرب
فـــــهمْ يـبــــغي أكـلـه
مـنـه ولـو بـالـتـــــعـب
عـــــالج مـــــا أمـكـنـه
يـطلـع فـــوق الخـــشـب
فـــراح مـــثـل مـــا أتـي
وجـــــوفـــــه في لـهب
وقـــال هـذا حــصــرم
رأيــتــــــه فــي حـلـب
قـــال لـه القـطف انـطلـق
ثـعـلـب ابــن ثـعـلـب
طـول لـســـان في الـهـــوا
وقـــصـــر في الـذنـب !

ويعبر البيت الأخير تعبيراً صادقاً ودقيقاً عن مغزى الخرافة عندما ردّ العنب نفسه علي الثعلب بالمثل الشعبي الشهير ، بأن كلام الثعلب عن اخضرار العنب ما هو إلا « قصر ديل » !

أصدّقتَ ، إذن أن ما يقوله الشامتون والحاقدون هو شهادة تقدير مصدرها « شدة إعجاب » مثل حب الثعلب ريثار للعنب لكنها تنقلب كراهية عندما يشعرون بعجزهم عن مجاراتك ! تماماً كما عجز الثعلب عن الوصول إلي العنب فذمه بدلاً من أن يلوم نفسه ويعترف بخيبته ؟! هل اقتنعتَ بعد هذه الأمثلة من الشاعر ، والأديب ، وعالم النفس ، أم تريد مثلاً آخر من الفلسفة ؟!

– وهل تؤيد الفلسفة بدورها هذه الفكرة ؟!

– نعم ! كان هيجل يقول ‹‹ كل شيء في هذه الدنيا سواء أكان من الأمور الجسمية أو الوجدانية يكمن الجدل في طبيعته ! ونحن نعرف أن الدرجات القصوي للألم والفرح تنقلب إحداها إلي الأخري ، فالقلب المفعم بالفرح يعبر عن فرحه بالدموع ، وغالباً ما يعبر الحزن العميق عن نفسه بابتسامة ! ›› . قال وقد هدأت نفسه قليلا :

ـ عجيب أمر هذه النفس البشرية ، أعماقها بئر ليس لها قرار !

حقاً ! كم من قلب غمره الفرح ففاضت العينان بالدموع ! تلك التي نسميها ‹‹ دموع الفرح ›› ، وكم من حزن عميق لم يجد من وسيلة متاحة أمامه سوي الابتسامة ! وكم من إعجاب شديد يشعر صاحبه بعجزه وقصر قامته فلا يجد أمامه سوي تحطيم كل شيء فلا يُبقي، ولا يذر !! سار معي خطوات ليودعني عند باب الخروج ، وقد تركته علي خير ما يرام ، وكما اعتدت أن أتركه وأن أراه في كل مرة : هاديء النفس ، منشرح الصدر ، باسم الثغر !

***

« إلى زوجتى ... ! »

كنتُ قد كتبتُ ، منذ أكثر من عشرين عاماً ، كتيباً صغيراً عنوانه « فن التفكير » عرضت فيه قواعد التفكير السليم ، والأسباب التي تؤدي بالإنسان إلي الوقوع في الزلل ، وكيف يستطيع أن يجتنب التفكير المعوج ، ثم استعرضت بعض الآراء التي ذكرها الفلاسفة في هذا الموضوع .. إلخ .. ولستُ أدري ما الذي جعلني أجد أنه من المناسب أن أهديه إلي زوجتي ، فكتبت إليها هذا الإهداء البريء علي صدر الصفحة الأولي من الكتيب :.

« إلي زوجتي .. فهي أحوج ما تكون إلي هذا الكتاب ! » .. كلمات بريئة وساذجة ! سطر واحد ليس فيه سوي تعبير عن مشاعر مكبوتة! لكن يومها حدث هرج ومرج ، لا أعرف سببهما حتي الآن ، وهبت في الجو عاصفة عاتية محملة بالكثير من الأتربة حتي تعذرت الرؤية تماماً ! ثم اكتست السماء بغيم كثيف أمطرت بعده بلحظات مطراً غزيراً ، فهدأت الأمور ، إلي حد كبير ، وصفا الجو ، وبدأت الرؤية تتضح . ! غير أن هذه العاصفة العنيفة بعثرت أوراق الكتيب في كل اتجاه حتي أنني لم أستطع جمعها بعد أن هدأت ، وكانت النتيجة أن الكتاب لم ير النور حتي الآن !

ثم اضطرتني ظروف كثيرة بعد ذلك إلي أن أعاود الكرة مرة أخري فأكتب لها إهداء آخر ! فقد نضج العقل ، وكبر السن ، وابتعدت عن الأفعال الطائشة ، وتعلمتُ الحذر قبل أن أخطو خطوة واحدة ! ومن هنا فقد كتبت إهداءً رقيقاً في أول كتاب يصدر لي بعد هذه الحادثة ، وكان

بالمصادفة كتاباً يحمل عنوان «مدخل الفلسفة» اعتذرتُ فيه عما بدر مني في لحظة شجاعة نادرة وبسالة وعناد ! وندمتُ علي ما فعلت ! وطلبت العفو والسماح من سيدة الملاح! وتعهدتُ بعدم التسرع والاندفاع وراء مشاعر جسورة ، لكنها مزيفة .. !! تذكرتُ هذه الحادثة وأنا أقرأ عن ذلك المفكر «الجسور» الذي ماتت زوجته ، فكتب علي شاهد قبرها : «هنا ترقد زوجتي ..» «هي في سلام... وأنا كذلك ...» !!

أتراه كان يجرؤ علي أن يفض مكنونات صدره علي الورق لو كانت لا تزال «حية» .. ؟! لقد انتظر المسكين حتي واراها التراب ، ثم أظهر شجاعته النادرة فكتب كل ما يريد !! أكلُّنا هذا الرجل ؟! ربما أجاب المفكر المسكين :

- أنت تتناول الموضوع من بُعدٍ واحدٍ ، أو قل إن نظرتك أحادية الجانب! نعم ! ذلك نوع من الشجاعة الزائفة ، فليكن ! وأنا أول مَنْ يعترف بذلك ، لكنها ترضيني أنا نفسي ، ثم هي توفر لي الجهد والوقت ، فليس عندي من الجهد أو الوقت ما أضيعه في الدخول في معارك فرعية ، أو أمور هامشية تبعدني عن عملي أولاً ، وتشغل وقتي وتفكيري ثانياً ، ثم هي أمور لا جدوي منها ثالثاً !! ومع ذلك فهي بالفعل شجاعة مزيفة وجرأة غير حقيقية .. !! إنها شجاعة ذلك الجندي الذي عاد إلي بلدته بعد واحدة من تلك الحروب العنيفة بيننا وبين إسرائيل ، فراح يروي علي جماعته طرفاً من بسالته في ميدان القتال ، وكيف أنه زحف ذات ليلة حالكة الظلام ، وبهدوء شديد حتي لا يحس به أحد ، إلي أن وصل إلي أحد الجنود الإسرائيليين ، ثم أخرج خنجره وقطع ساقه ! فسأله أحد المستمعين في دهشة :

- ساقه .. ؟! ولماذا لم تقطع رقبته ؟ ! فأجاب :

- لأنها كانت مقطوعة .. !!

شجاعة زائفة هي كل ما يملكه الأديب أو المفكر أمام زوجته - بل كل مَنْ يحمل القلم ! .. مما يُذكّرك بقول السيد المسيح « لا كرامة لنبي في وطنه ! » أو قول الشاعر العربي .. « والعود في أرضه نوع من الحطب !! » - فهو أديب ومفكر أمام الناس ، وخارج المنزل لا في داخله ! ولا سيما إذا كانت الزوجة مثقفة ! ذلك لأنها تقف وراءه في حالة يقظة تامة ؛ لتعد عليه حركاته وسكناته ، وتفهم ما يكتب وما لا يكتب ، أعني أنها تقرأ وتفهم ما بين السطور حتي وإن كان غامضاً علي الآخرين !!

أما إذا كانت « غير مثقفة » ـ ومن النادر منهن مَنْ تعترف بذلك ، فإن كانت بغير « شهادات » فقد علمتها الحياة ، ومن مدرسة الدنيا تخرجتْ ! - فربما كانتْ سليطة اللسان مثل زوجة سقراط ، وربما تعرّض لهذا السبب لمواقف أشد صعوبة ، كتلك التي كان يتعرض لها سقراط العظيم ! فقد كانت زوجته تنفر بشدة من وقوفه مع تلاميذه في الشارع لساعاتٍ طويلة أمام باب المنزل يتحاورون في موضوع من موضوعات الأخلاق ! فيكفي أن يخرج سقراط من منزله قاصداً السوق، ويلتقي علي باب المنزل بتلميذ يقول له : « صباح الخير يا سقراط » ! حتي يبدأ النقاش ساعات عن معني « الخير» ! وماذا نقصد بالأفعال الخيّرة والأفعال الشريرة ؟! .. إلخ إلخ .

وتفتح الزوجة النافذة لتجد سقراط مازال أمام باب المنزل ، وتظل تصرخ لعلّه وتلاميذه يتحدثون قليلاً بعيداً عن بيتها ! فإذا لم تجد استجابة لصراخها أحضرت دلواً كبيراً مملوءاً بالماء وأفرغته ، من النافذة ، فوق رؤوسهم ! عندئذٍ يقول سقراط لتلاميذه ، وهو ينفض قطرات الماء عن ثوبه :

– لا بأس ! الواقع ، أيها الأصدقاء ، أن زوجتي كالسماء ترعد أولاً ثم تمطر بعد ذلك .. !! ورغم ذلك كله فقد كان الفيلسوف .. يحثُّ تلاميذه علي الزواج ولم يحرضهم قط علي الرهبنة – بل كان يقول لهم :

– تزوجوا .. ! فإما أن تكونوا سعداء في حياتكم الزوجية ، أو أن تصبحوا فلاسفة ... مثلي !! ..

وقد لا يستطيع المفكر أو الأديب أن يعبر عما يجيش في صدره من مشاعر مكبوتة ، فيلجأ إلي انتهاز الفرصة المناسبة للتعبير عنها مع واحد من تلاميذه ! فقد ذهب أديب شاب يحمل باكورة إنتاجه إلي أستاذه يستفتيه في كتابة إهداء جيد ، وإلي مَنْ يتجه بإهدائه هذا ؟ ! ولما كان الأستاذ قد قرأ ما كتبه الأديب الشاب ولم يعجبه ، فلم يتردد إلا قليلاً فيمن يختاره ؛ ليتجه إليه بإهداء هذا الإنتاج الركيك – فقال الأستاذ :

– اسمع ! هناك مجموعة كبيرة من المؤلفين أهدت كتبها إلي «الزوجة » فلم لا تحذو حذوهم ؟! أم تراها لم تؤثر فيك ؟ ! يخيل إليّ أنها ساعدتك كثيراً ، فهذا واضح من إنتاجك .. !! فأجاب الشاب :

– بلي ! ساعدتني كثيراً ! وكان لها دور كبير في سنوات عمري !

– إذن اجعل الإهداء علي النحو التالي : « إلي التي لولاها ما خرج هذا الكتاب إلي النور ، وبهذه الصورة ... إلي زوجتي » ، لكن الأديب الشاب قال معترضاً :

– لا ! إنها أمية ، لا تقرأ ولا تكتب ! لقد ساعدتني كثيراً لكن في أمور أخري غير التأليف والكتابة ! بل ربما كانت من هذه الزاوية عاملاً معوقاً لا مساعداً !! فقال الأستاذ :

– إذن اجعل الإهداء علي النحو التالي : ‹‹ إلي التي لولاها لكان هذا الكتاب أكثر عمقاً وأشد خصوبة : إلي زوجتي ›› !! فاعترض الشاب من جديد:

– لكنها لن تفهم هذه العبارة ؟ ! فقال الأستاذ : عدّل الإهداء ؛ ليكون هكذا : ‹‹ إلي التي لولاها ، لكان هذا الكتاب أكثر عمقاً ، وأشد خصوبة .. إلي التي لن تفهم هذه العبارة .. إلي زوجتي .. !! ›› فقال الشاب متسائلاً :

– لكن أتعتقد يا سيدي ؛ أنها لن تغضب من هذا الإهداء ؟ ! أنا لا أريد مشاكل !! فقال الأستاذ :

– ألم تقل أنها لا تقرأ ولا تكتب أصلاً !

– نعم ! لكن افرض أن أحداً قرأ لها هذا الإهداء ، ثم افرض أنها فهمته ، فماذا يكون موقفي ؟ ! تخيل الأستاذ نفسه في شبابه وراح يقول لتلميذه :

– عليك أن تطيب خاطرها بكلمات حلوة ، وتقنعها أن هذا الإهداء سوف يخلدها في عالم الثقافة !! ألا تعلم أن الرجل العظيم هو الذي اخترع تلك الحكمة البليغة التي تقول : ‹‹ وراء كل عظيم امرأة .. !!›› ؛ ليضحك بها علي زوجته ؟ ! وبكلمات كهذه تستطيع أن تصل إلي قلبها بدون مشاكل ! اقتنع الأديب الشاب بهذا الإهداء المثير ... إلي زوجته ، وخرج مبتسماً ، والأستاذ يودعه وهو يقول : إنني أنا نفسي أريد أن أكتب إهداء إلي زوجتي أقول فيه : ‹‹ إلي زوجتي .. كنتِ ورائي .. ولهذا كنتُ عظيماً .. فوراء كل عظيم امرأة!››

ثم أغلق الباب وراء تلميذه وهو يتمتم : ‹‹ نعم ! وراء كل عظيم امرأة .. في يدها خنجر مغروز في ظهره ! ››

« عُـــــذْر الظالــــــم ... ! »

عُـذر الظالم .. ؟ ! وهل يمكن أن يكـون للظالم عـُذر .. ؟ ! أيمكن أن تجد للظلم مـبررات ، أو أن تقول عن الظالم أنه « مـعذور » فيمـا يفعله بالناس ..؟! أو أن ترى أفعاله المشينة فتقول : لعل وراء ذلك ما يُغفر. ؟!

الجواب بالإيجاب في رأي شاعرنا « العقاد » الذي « يعذر » الظالم إذا ظلم ، ويقدم هـذا العذر في بيت شهير يقول فيه :

أنصفتَ مظلوماً ، فأنصف ظالماً في ذِلةِ المظلوم عـُـــذر الظالم !

فـها هـو الـشاعـر قـد جعل لـلظالم « عذراً » فـيـمـا يأتيه مـن أفعـال مشينة وسلوك سيء ، أما هـذا العذر فهو ، في رأيه ما يبديه المظلوم من ذلة ومهانة !

والحق أنك تجد من الناس مَنْ يسـتعذب موقف الذليل المهـان بحيث «يجبرك » علي أن تقف مـنه موقف السيـد المستبد ، ويسمح للظالم أن يعربد في ظلمه ! إننا إذا مـا صدقنا ما يرويه أفلاطون ، نقلاً عن الشاعر اليـونانـي «هـزيود» ، من أن الناس « مـعـادن » لوجـدنا أن من البـشـر إناساً ركـبِّت طبائعهم من معـادن نفيسة رفـيعة القدر كـالذهـب ، فهم لا يقـبلون المواقف الذليلة لأن لديهم من عـزة النـفس مـا يرفـعـهم عن السعي وراء الدنيا والصغائر ! لكن منهم مَنْ مـزج تركيبه الطبيعي من حديد ، أو نحـاس ، أو برونز ، أو غيرهـا من المعادن الخسيسة ولهذا كان ذليلاً بطبـعه ، يسـتمريء الذل ، ويستطيب الوضـاعة ، فيقـدم بسلوكه المهني عذراً للظالم في ظلمه !

وفي مـقـال عن « الكبـش الجـريح » صـور أسـتـاذنا الدكـتـور زكي نجيب محـمـود [في كتابه « جنة الـعبيط »] ، في صـورة أدبية جـميلة

ذلك الإنسان الذليل النفس – عندما وثب الذئب علي الكبش [وهو رمز للإنسان الضعيف المتهاون في حقوقه] فمزق منه وانتهش ، وفرح الذئب ؛ لأن في طبيعته أن ينهش ويمزق « كذلك فرح الكبش ، ولم أكن أعلم أن في طبيعته ما يستطيب النهش والتمزيق » ! فلقد خلق الله للذئب أنياباً تنهش ومخالب تمزق ، فإذا ما استخدمها فليس عليه في ذلك لوم ولا تثريب ، وإنما يقع اللوم والتثريب علي صاحبنا «الخروف » الذي استمرأ ضرب المخالب ، واستلذ وقع الأنياب ، دماؤه تسيل وعلي شفتيه ابتسامة ، ويلغّ الذئب فيه ويلعق وفي عينيه نظرة استسلام ورضي !!

وإذا كان علم النفس الحديث يحدثنا عمن يستعذب الألم فيتلقي في سعادة غامرة ، ما يوقعه عليه « المحبوب » من أذي أو ألم سواء أكان أذي نفسياً ، أم بدنياً برضي وحبور ! وهو ما يسمونه «بالماسوشيه أو المازوكية Masochism » ، فإن من البشر أيضاً من «يريد » لنفسه أن يكون ضعيفاً وضيعاً مهاناً ، لأنه يستلذ مواقف الضعة والإهانة ! ولذلك تراه يبحث ما وسعته الحيلة عن أمثال هذه المواقف كما يبحث العاشق الولهان عن حبيبته ! ينحني حيث لا مجال للانحناء حتي لتراه مقوس الظهر من طول الركوع لغير الله ، تراه يستعطف مع أن الأمر لا يستدعي استعطافاً لأنه يطلب حقاً من حقوقه! تجده وقد ألقي بنفسه تحت الأقدام ويلذ له النوم هناك ، فلا يغضب ولا يثور عندما تدوسه هذه الأقدام ، بل يريدها أن تفعل ! كل صاحب منصب أو جاه فهو سيده ! شعاره في الحياة « بت مظلوماً » ! ولئن كنت في هذه الدنيا مظلوماً مهاناً فسوف تكون في الآخرة من الفائزين ! لكنه لم يقرأ قوله تعالي : ﴿ **ومن كان في هذه أعمي ، فهو في الآخرة أعمي وأضل سبيلاً** ﴾ (آية ٧٢ من سورة الأسراء)

وليس العمي هنا فقدان البصر ، وإنما فقدان البصيرة !

لم يعرف أن الإسلام يكره الخانعين الأذلاء ، المستضعفين في الأرض وينذرهم بعذاب أليم ، ولسنا ندري ماذا يقول هؤلاء لو قرأوا الآية الكريمة التي تجعل الذين « يظلمون أنفسهم » قبل أن يظلمهم الناس ، والمستضعفين في الأرض الذين يقبلون الذل ، ويرضون الهوان ، على صعيد واحد مع الكفار وتتوعدهم بأن لهم نار جهنم وسوء المصير : ﴿ **الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم .. قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .. ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ..** ﴾

(آية ٩٧ من سورة النساء)

والآية الكريمة تذكرني بقصة لواحد من الأدباء الأمريكيين المعاصرين ، لعله « إرنست همنغواي » – عن حاكم ظالم في مدينة صغيرة العدد ، أنهك شعبه جوراً حتى تعب الناس وفاض الكيل : وتساءلوا ماذا يمكن لهم أن يفعلوا برجل ظالم على هذا النحو ؟! ماذا في أيديهم « وهم مستضعفون في الأرض » ؟ وجاءتهم الإجابة من ذات أنفسهم واضحة مدوية : أرض الله واسعة فلتهاجروا إليها !

وهكذا اجتمع الناس في المدينة وتداولوا أمرهم بينهم واستقر الرأي على أن يغادروا المدينة جميعاً ! وتحت ستار من ظلمة الليل هربوا واحداً إثر واحد إلي غابة لا تبعد كثيراً عن مدينتهم الأصلية ، وقرَّ رأيهم على العيش فيها بعيداً عن الظلم والطغيان ! واستيقظ الحاكم الطاغية ذات صباح فلم يجد في المدينة أحداً : الشوارع خاوية ، والمتاجر مغلقة ، والريح تصفر في الدور فتصطك نوافذها .. !!

واحتار الرجل ماذا يصنع .. ؟ إنه يريد أن يكون حاكماً ، ولا يمكن أن يكون حاكماً بغير رعية ، فالحاكم والراعي من الكلمات المتضايفة ،

كما يقول المناطقة ، أي التي لا تُفهم وحدها بل لابدّ من ارتباطها بطرف آخر : فلا حاكم بلا محكومين ، ولا راعي بدون رعية .. ! ومن ثَمَّ فقد أسرع الحاكم يهبط إلي الغابات المجاورة بحثاً عن شعبه ، وراح يقنع الناس بالعودة إلي المدينة مرة أخري فهو لن يعود أبداً سيرته الأولي ، فلا ظلم ، ولا جور من الآن فصاعداً بل عدل ورحمة !

والقصة تقول باختصار شديد : إن الناس هم الذين يخلقون الطاغية عندما يلجأون في سلوكهم إلي الضعف والاستكانة مع أنه لا ظالم بغير مظلوم يقبل الظلم ويرضاه ! فالمظلوم هو الذي يخلق الظالم ! تمام كما أن العبد هو الذي يخلق السيد ! إنك حين تسلك مسلك العبيد فأنت تجبر الشخص الآخر في الحال أن يكون سيداً ، فسلوكك هو الذي رفعه إلي مصاف « السادة » ! إذ لا عبد بغير سيد ، وموقف الذل هو الذي يخلق الظالم ويعطيه عذره ! والقاعدة الذهبية التي علينا جميعاً أن نتعلمها هي أننا نحن الذين نخلق الطغاة بسلوكنا المهين حين نقف موقف الذل والخنوع ، ونقبل علي أنفسنا الضيم والهوان !

لكن لا تحسبن المسألة ذات طرفٍ واحد فحسب ! فقد تبدأ من الطرف الآخر ، حين « يستأسد » فلانٌ من الناس « ليجس النبض » فإن وجد أمامه « خروفا » أنشب فيه مخالبه وافترسه ! وبمعني آخر إن الظالم قد يبدأ عدوانه بالحذر حتي إذا ما أمن مغبة الاعتداء ملأته الشجاعة فأقبل على العدوان بكل قدرته وهو مطمئن .. !

وباختصار : حيثما فرط إنسان فى حقه ظهر لذلك الحق طاغية يستبد به ، وكلما وضعتَ نفسك موضع المهانة والضعة ، انبثق الظالم الذى يتلمس له شاعرنا « العقاد » العذر فى بيته الشهير !

فهل تتفق يا صديقي القارىء مع « العقاد » ، في عُذر الظالم إذا ظلم؟! أراك تقول : نعم ! وأذل الله مَنْ أذل نفسه !.

« كمـا يمـوت الكلـب ... ! »

استيقظ الشاب من نومه ، كما اعتاد كل صباح ، وظل في فراشه منتظراً الخادم ؛ ليحضر له طعام الإفطار ، غير أن انتظاره طال هذه المرة ! ثم فتح الباب لكن القادم لم يكن الخادم الذي يحمل الطعام ، بل دخل رجلان يزعمان أنهما يمثلان الشرطة وإنهما قد أقبلا لإلقاء القبض عليه ! ويقول أحدهما في شيء غير قليل من الغلظة : -

« عليك أن تنهض وأن تضع ثيابك ، ثم تلحق بنا في الغرفة المجاورة لكي نبدأ معك التحقيق !! »

ويظل الشاب لحظات بين اليقظة والنوم مندهشاً لما يجري ، شديد الضيق بهذين الرجلين المتطفلين ! ولكنه مع ذلك مضطر أن يطيعهما فينهض متثاقلاً ؛ ليرتدي ثيابه ، ويلحق بهما في الغرفة المجاورة ، وإذا به يجد الشرطيين قد أكلا طعامه في صفاقة عجيبة دون أن يأبها به ! ثم يشرع كل منهما بالتناوب ، في توجيه مجموعة من الأسئلة هي غاية في السخف !! ثم يقال له ما معناه : « أنت الآن حر ، وفي استطاعتك الذهاب حيث تشاء وأن تمارس عملك في البنك الذي تعمل فيه كالمعتاد ، ولكن عليك أن تعلم أنك متهم ، وأن التحقيق لم ينته بعد، بل إنك سوف تُدعى ذات يوم - لم يحدد حتى الآن - إلى المثول بين يدي القضاء ؛ ليسألك عن التهمة الموجهة إليك ، وليصدر حكمه الفاصل في هذه القضية !

وينصرف الشرطيان ويتركان الشاب في حالة من ذهول كامل أية قضية؟! وما هي التهمة الموجهة إليّ على وجه الدقة ؟! ويظل الشاب

يسأل نفسه وهو في طريقه إلي عمله في البنك دون أن يظفر بجواب. وينخرط في عمله كما تعود أن يفعل . لكن قلقاً قد أستولي علي نفسه وبدأ يساوره الشك شيئاً فشيئاً بأنه متهم بالفعل ، وأنه ارتكب «جرماً» وإن كان لا يعرف بالضبط ما هو ! لكن من حقه أن يدافع عن نفسه ، وأن يثبت براءته من هذه الجريمة المجهولة ، وذلك بأن يفند التهمة من ألفها إلي يائها ! ... آه ! لو عرف ما هي هذه التهمة علي وجه الدقة ، إذن لأعد العدة للدفاع وإثبات البراءة ! لكن الغريب في الأمر أنه لا يعرف ماذا فعل ، ولا ماذا يجري !

***

علي هذا النحو الشيّق يصور الروائي النمساوي فرانز كافكا Franz Kafka « ١٨٨٣ – ١٩٢٤ » قلق الإنسان الحديث وإحساسه العميق بالإدانة ، فهو يشعر أنه « مدَان » لكنه لا يعرف ماذا فعل بالضبط ؟ ! أو قل أنه يصور الإنسان الخاطيء بصفة عامة الذي لا يشك قط في خطيئته ، وإن كان لا يعرف طبيعة هذه الخطيئة ، كلا ! ولا يعرف كيف وقع فيها ، ولا كيف يخلص منها ، ولا أين يذهب ؛ ليدافع عن نفسه ! ومن النقاد من يري أن قصة « المحاكمة » أو « القضية » إنما تصور حياة « كافكا » نفسه بدليل أنه يجعل اسم البطل « جوزيف ك » أي أول حرف من اسم المؤلف !

***

مهما يكن من شيء فما هي إلا أيام قليلة ويدق جرس التليفون فيقول له قائل:

- « هل أنت « ك » ؟!

ـ عليك أن تحضر إلي المحكمة في اليوم الفلاني ، أتعرف مكانها ؟! إنها في المكان الفلاني .. ويدله الصوت علي مكان غريب لا صلة بينه وبين الأماكن المعروفة بدور القضاء ، أو حتي بدور الشرطة !

فإذا كان اليوم الموعود ذهب «جوزيف ك» إلي المكان الذي حدده له صاحب الصوت فرأي عجباً : داراً كبيرة قذرة متداعية ، تكثر فيها السلالم والدهاليز ، ولا يهتدي الناس فيها إلي طريقهم إلا بعد جَهد شديد ... وهي فضلاً عن ذلك داراً مسكونة كغيرها من الدور التي يسكنها الفقراء وأوساط الناس ! ويشرع الشاب في السؤال والبحث حتي يصل أخيراً إلي غرفة المحكمة ، فيري جمهوراً من الناس غريبا ويري جماعة من الموظفين قد جلسوا مجلس القضاء ، فيقول لهم ويسمع منهم وهو لا يفهم عنهم ، كما أنهم لا يفهمون عنه ، كما أن الحضور لا يفهم ، عنه ولا عن هؤلاء الموظفين شيئاً .. ! ثم ينصرف وقد استقر في ذهنه مرة أخري ، إنه متهم وإنْ لم يعرف طبيعة التهمة ! لكنه يصر أن من حقه أن يبريء نفسه أمام القضاء ! غير أن المشكلة تكمن حقاً في أنه لا يعرف مَنْ هم هؤلاء القضاة ، ولا أين يكونون ولا كيف يصل إليهم لأنه هم هؤلاء القضاة ، ولا أين يكونون ولا كيف يصل إليهم لأنه لم يرَ في المحكمة إلا جماعة من صغار الموظفين .. ! ويظل الشاب ينفق وقتاً طويلاً في محاولات مريرة ؛ ليعرف تهمته وليدافع عن نفسه ، فيتصل بكبار المحامين وصغارهم ، وبآخرين لا علاقة لهم بالمحاماة ، ويعده الجميع بالدفاع عنه وتبرئته ، وإنهم سوف يبذلون ما يستطيعون من جهد في تحقيق هذه الغاية ، لكن أحداً منهم لا يبيّن له طبيعة التهمة الموجهة إليه ، ولا يدله علي مكان القضاة ، ولا يلمح له بطريقة الدفاع عنه ، بل كلما ظهر أمل ، أعقبه يأس ، ثم تبعه

أمل جديد ، فيأس وحيرة مهلكة للنفس ، وذات مساء يقبل عليه رجلان في زي رسمي فيخطر له في بداية الأمر أنهما مغنيان ، يأخذه كل منهما من إحدي ذراعيه ويمضيان به فيخرج معهما دون مقاومة ، حتي يصلا به إلي خلاء خارج المدينة ، ثم يطرحانه أرضاً ويأخذان في ذبحه ، وهو يري ذلك كله دون أن يقاوم ، ولا يحاول حتي مجرد محاولة أن يقاوم ، وعندما يشعر بوخز الخنجر ويعرف أنه سيموت يقول العبارة التي تنتهي بها القصة – والتي جعلناها عنوانا لهذا المقال : «كما يموت الكلب .. !»

***

تفسيرات كثيرة ذكرها النقاد في مغزي هذه القصة منها أنها تصور علاقته السيئة بوالده وبالسلطة ومنها موقفه السيء أيضاً من الدين بل ذهب البعض إلي أن المسألة كلها أن «كافكا» ينظر إلي «العالم اليهودي» من منظور مسيحي ! أو أنه يحكم علي العالم اليهودي الذي ينتمي إليه بمعايير يستمدها من الديانة المسيحية ! لكنهم جميعاً يتفقون علي أن العالم الذي يقدم هذا الروائي الكبير يحمل وجهاً مشوهاً حتي الجنون ، ربما بسبب التناقضات الكثيرة التي كان يعيشها : تناقضات في الجو الديني اليهودي ، والعادات والتقاليد في مجتمعه ، حتي ذهب بعض الباحثين إلي أن التجارب الرئيسية في حياته لم تكن سوي ضروب من الاغتراب ، فهو يتحدث الألمانية في مدينة تشيكية ، وهو يهودي بين وثنيين ألمان وتشيك في فترة يسودها الحماس القومي ، وهو رجل مليء بالشكوك لكنه متعطش للأيمان في نَهَمٍ ، وهو رجل مريض يعيش بين أصحاء وهو محب وعاشق لكنه عِصَامي وسط علاقات شهوانية إلي أقصي حد ..

ومن هنا ظهرت في كتابات ‹‹ كافكا ›› تصورات وجودية عن العيش في القلق واللامعني واللامعقول – لكنه علي خلاف الوجوديين المتأخرين لم يستخلص من هذه الأفكار أية قيمة إيجابية ، فجعل الإنسان يعيش في عالم لا معقول حياة عبثية لا معني لها ، ثم يموت ‹‹ كما يموت الكلب ›› !

***

سابعاً : فى الأخلاق :

١ – أخلاق الانفعال .. !

٢ – أخلاق الإنسان نسبية أم مطلقة .. !

٣ – الكذب الأبيض .. !

٤ – الأخلاق طبيعة ثانية .. !

« أخلاق الانفعال ... ! »

غريبة الأطوار هذه السيدة ! لم أكن أتوقع ، عندما زارتنا هذا الأسبوع برفقة زوجها ، وأولادها ، أن تكون علي هذا النحو :منشرحة الصدر ، تفيض حيوية ، وتمتليء سعادة وحبوراً ! أيمكن للإنسان ببساطة أن ينتقل من النقيض إلي النقيض علي هذا النحو ؟! تأملتُ سعادتها ، وأنا أقول لنفسي : سبحان من له الدوام ! كم من مرة جاءتني بحكم ما بيننا من صلات رحم ووشائج قُربي ؛ لكي تقول في انفعال شديد : إنها لا يمكن أن تعيش مع زوجها بعد الآن لحظة واحدة ! فقد أصبحت الحياة معه ، مرة لا تطاق ومرة أخري مستحيلة ! وليس في قدرة امرأة علي ظهر الأرض أن تتحمل ما تحملته هي من غلظة وجفاء ، وقسوة وسوء معاملة وإهدار لكرامة الإنسان ! وكنت في بداية الأمر أتأثر بقوة وأتناول المسألة بجدية شديدة وقد أظل أياماً في نكدٍ دائمٍ ، وأنا أحاول أن أصلح ذات البين : من أجلِ الأولاد تارة ومحافظة علي سمعة الأسرة تارة أخري ! وكم أضعتُ من عمري في عمليات التوفيق الفاشلة! طاف بي شريط الذكريات وأنا أتأمل الأسرة سعيدة بغير أحزان ولا هموم ! وسألت نفسي من أين جاءت ، إذن ، هذه الهزات العنيفة التي كادت تطيح بحياة الأسرة أكثر من مرة وتهددها بالخطر سنوات .. ؟! ولم أرهق نفسي كثيراً في البحث عن الإجابة : أن هذه السيدة تقيم أحاكمها وقيمها وأخلاقياتها علي أساس من الإنفعال ! وأنا أعني بالأخلاقيات هنا ، تقييمها للناس وحكمها عليهم بالدرجة الأولي ، إنها تصدر أحكامها في لحظة الانفعال، ولهذا تراها تنتقل بحرية شديدة من الضد إلي الضد ، تماماً علي نحو ما ينتقل الإنسان من الحزن إلي الفرح ، أو من الألم إلي السرور ! وتلك هي أخلاق الإنسان البدائي غير المتحضر – أو قل غير الناضج عاطفياً ! ولكي

تتضح هذه الفكرة فلابد أن نعرج قليلاً علي موضوع الانفعال كما يفهمه ، علماء النفس المعاصرون :

حياة الإنسان ، كما يقولون لا تمضي علي وتيرة واحدة ، وإنما هي في العادة مليئة بالخبرات والتجارب المنوعة التي تبعث فيها مشاعر متباينة وأحاسيس متضاربة : فالإنسان يشعر بالحب حيناً ، وبالبغض حيناً آخر ! وهو يشعر بالخوف والقلق تارة وبالأمن والطمأنينة تارة أخري ، أو يشعر بالفرح والسرور بعض الوقت وبالخوف والكآبة في بعضه الآخر ، وقد تنتابه أحياناً الغيرة الشديدة أو يتملكه حيناً آخر شعور بالإخلاص والتفاني والتضحية ! وقد يتملكه أحياناً الغضب الشديد فيثور وقد يخلد أحياناً إلي الهدوء والسكينة وينعم بلذة الحياة ... وهكذا يصور لنا علم النفس حياة الإنسان الانفعالية حُولا قُلبا تطرأ عليها تحولات مستمرة وتغيرات دائمة ، ولا شك أن هذه التحولات تُضفي علي الحياة البشرية جانباً كبيراً من قيمتها ومتعها ، لكن هذه الانفعالات قد تُسبب من ناحية أخري ، الكثير من الآلام والشقاء : فالغيرة الشديدة والمخاوف الكثيرة والقلق الدائم من أهم أسباب شقاء الإنسان وتعاسته !

ويُعرّف علماء النفس الانفعال بأنه اضطراب حاد يشمل الفرد كله ويؤثر في سلوكه وخبرته الشعورية ! وهو « اضطراب حاد » لأنه يتميز بحالة شديدة من التوتر والتهيج ، فقد ينتصب الشعر في حالات الانفعالات الشديدة، يزداد اتساع العين ، وشعيبات الرئة ! ويقل إفراز الغدد اللعابية ويسرع القلب في دقاته [لوحظ أن سرعة النبض قد تزيد إلي الضعف أثناء الإنفعال من (٧٢ إلي ١٥٠) نبضة في الدقيقة الواحدة وينتج عن ذلك زيادة كمية الدم التي يرسلها القلب إلي البدن مما يؤدي إلي زيادة ضغط الدم] وتتوتر العضلات ويفرز الكبد السكر في الدم ، ويزداد إفراز العرق .. إلخ .. إلخ .

لهذا كله ينصحنا علماء النفس بتجنب البت في الأمور الهامة أثناء الانفعال ، لأن الانفعال يعطل التفكير ، ويشل قدرة الإنسان علي رؤية الأشياء علي وجهها الصحيح ، ولهذا كان الإنسان معرضاً لإصدار الأحكام الخاطئة حين يكون منفعلاً ، ومن هنا فإنك تجد باستمرار علي لسان الطبيب النفسي هذه النصيحة ‹‹ يحسن بك أن تتحاشي البت في أي أمر هام أثناء الانفعال ، لا تحكم علي الأشياء الآن .. انتظر حتي تهدأ ›› !! لكننا كثيراً ما نتجاهل هذه النصيحة الهامة لننساق وراء انفعالاتنا ، ناسين أو متناسين أن من أهم السمات في شخصية الإنسان المتحضر قدرته علي ضبط النفس .. ولهذا نجد القرآن الكريم يلح عليها كثيراً فيمتدح ﴿ الكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ﴾

(١٣٤ – آل عمران)

﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ (٣٧ – الشوري)

ويكره المنساق وراء أهوائه الانفعالية ‹‹ ولا تتبع الهوي فيضلك عن سبيل الله ›› (ص – ٢٦) وهو ينظر إلي أمثال هؤلاء الناس باحتقار شديد : ﴿ أرأيت مَنْ اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ (٤٣ – الفرقان) .

والحق أن الأخلاق بصفة عامة ، والحكم علي الناس بصفة خاصة ، لا يصح أن يقوم علي أساس الانفعال ، لأن الصفات الخيرة أو الشريرة في السلوك البشري لابد أن تكون مستمرة ودائمة في حين أن الانفعال وقتي ، وسريع ، وعابر ، وهذا هو السبب الذي جعل أرسطو قديماً يذهب إلي أن الفضائل الخلقية – أو الرذائل – لا تكون كذلك إلا إذا تحولت إلي عادات مستمرة ، فالرجل الكريم لا يكون كريماً إلا إذا اعتاد أفعال الكرم بحيث يكون طابعه المستمر أن يقوم بمثل هذا

السلوك ، كذلك لا يكون الرجل سكيراً أو مدمناً لأنه ثمل مرة واحدة في حياته بل عندما يعتاد السكر ! ولهذا تجد القرآن يبشر المتقين ﴿ الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء ﴾ (١٣٤ – آل عمران)

أي الذين اعتادوا الكرم والإحسان ، ولم يكن إحسانهم نزوةً عابرةً من نزوات الانفعال ! وكما أن ظهور عصفور واحد في السماء لا يدل علي أن الربيع قد بدأ ، فكذلك لا يكون الإنسان خيراً لأنه سلك سلوكاً فاضلاً مرة واحدة في حياته ، ولا يكون شريراً لأنه ارتكب سلوكاً رذلاً مرة واحدة !

لا بدّ من ثبات الصفة الأخلاقية التي نحكم بها علي سلوك الفرد لكي يجيء حكمنا سليماً ، والفرد الذي لا تثبت لديه الصفة الأخلاقية يخرج من دائرة الأخلاق بالمعني الدقيق لهذه الكلمة ، لأنه يقيم أخلاقياته علي أساس من الانفعال الوقتي العابر ، أى أن الانتقال من صفة أخلاقية إلي ضدها هي سمة الإنسان المتخلف ولهذا ينتشر بين القبائل البدائية والمجتمعات المتخلفة عموماً: الطرفان القصيان : الكرم وحسن الضيافة من ناحية والسلب والنهب والقتل من ناحية أخري ، الوداعة واللين والدعة حيناً ، والعنف والوحشية حيناً آخر ، الإذعان والاستسلام في لحظة معينة ، والتمرد والعصيان في لحظة أخرى : إنه الانفعال السريع العابر الذى ينقلب في نفس اللحظة من أقصي اليمين إلي أقصي اليسار ! أذكر ضمن مجموعة من التجارب التي أجريت في صعيد مصر لقياس درجة الانفعال – إن الطالب كان في بداية الاختبار حيياً خجولاً وديعاً لكنه ينقلب إلي وحش كاسر إذا ما سألته ، مثلاً عن اسم أمه ! ويروي عن قبائل المغول إنها كانت طوال التاريخ تجتاح المدن والحضر كالسيل الجارف ؛ لتقوم بكافة أنواع السلب والنهب مع أنها كانت في الوقت ذاته من أشهر القبائل في الكرم وحسن الضيافة ! إنها

أخـلاق الانفـعـال التي تنتـقل بك فـي سـهـولة ويسـر من النـقـيض إلي النقيض ، أخلاق الإنسـان غير المتحضـر الذي يُحسـن وفادتك ، لكنه لا يمانع أبداً في أن يقتلك لكلمة بدرت منك ، وربما كانت غـير مقصودة ! ومن هنا يهتز كيان الأسرة التي تقيم أحكامـها وأخلاقياتها علي أسـاس الانفعال في حين أنه يستقر وطيـداً عندما يشيـد علي أسـاس من الفكر والروية !

***

أخـلاق الإنســـان ...
نسبيـــة أم مطلقـة ؟ !

لستُ أذكر علي وجه الدقة ، مَنْ من الفلاسفة « ولعله أحد مفكري الإغريق القدماء » هو صاحب العبارة التي تقول : « لو أنك جمعت في كومة واحدة سائر العادات والتقاليد والفضائل التي تُعدّ في بلد ما مقدسة وأخلاقية ، ثم نزعت منها جميع العادات والتقاليد التي تُعدّ في بلد آخر كفراً ولا أخلاقية ، فلن يبقي في الكومة شيء يذكر .. ! » بل إنها تتغير بتغير العصور في المجتمع الواحد ، فما كان بالأمس فضيلة يمكن أن يتحول اليوم إلي رذيلة أو يمكن علي أقل تقدير أن ينظر إليه علي أنه « عادة » قديمة طواها النسيان ، ولم تعد تعيها ذاكرة الإنسان وما يكون فضائل في بلد قد يكون رذائل في بلد آخر في نفس العصر!

وليس أيسر علي أصحاب هذه النظرة – التي تري أن الأخلاق الإنسانية نسيبة متغيرة – من ضرب عشرات الأمثلة لكننا سوف نكتفي منها بأربعة :

– أوضح هذه الأمثلة تلك العادة الهندية التي تسمي « سوتي Sutte» والتي كانت تقضي علي الزوجة أن تحرق نفسها في جنازة زوجها ، وفاءً له ، حتي ترقد إلي جوار شريكها في قبره معلنة للعالم بأسره مدي إخلاصها ووفائها ! ولو أن امرأة خرجت عن هذه العادة المتوارثة لنبذها المجتمع وطردها ؛ لتعيش في عزلة . وظلت تلك العادة قائمة حتي منعها الإنجليز بالقوة ـ بعد احتلالهم للهند ـ وعانوا كثيراً من معارضة الهنود لهم !

تلك عادة كانت فضيلة في المجتمع الهندي وواجباً أخلاقياً تفرضه التقاليد الموروثة علي الزوجة إذا فقدت زوجها ، لكنها أصبحت الآن رذيلة في نفس هذا المجتمع ، فضلاً عن أنها كانت رذيلة في مجتمعات أخري – غير المجتمع الهندي – في نفس العصر !

– خذ مثلاً آخر ، لقد كنا في مجتمعاتنا العربية وحتي عهد قريب جداً ‹‹ وربما مازال بعضنا حتي الآن ›› – نستنكر الشاب الذي يدخل علي قوم ينبغي عليه احترامهم وهو حاسر الرأس – فالكبير الذي ينبغي عليك احترامه– لسنه أو لمكانته في العمل أو لخبراته – لابدّ لك أن تضع غطاء الرأس قبل أن تدخل عليه ، في الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الأوروبية ، ولا تزال تنظر علي العكس إلي الرجل الذي يدخل علي قوم ينبغي احترامهم ، وهو يضع غطاء الرأس ، نظرة اسهجان ! ذلك لأنه ينبغي عليه أن يرفع ‹‹قبعته›› وهو في حضرتهم !

– خذ مثلاً ثالثاً إعتاد سكان الملايو النظر إلي علاقة الابن بوالديه نظرة غريبة ، فقد كان من تمام البر بالوالدين المريضين وأدهما إذا ما بلغا سناً تُصبح معها الحياة عبئاً ثقيلاً عليهما ، بسبب المرض أو الشيخوخة فالابن ‹‹البار›› حقاً بوالديه هو الذي يساعدهما علي التخلص منها !! لكن كثرة من المجتمعات الأخري ، وربما سكان الملايو أنفسهم الآن – تنظر إلي مثل هذا العمل علي أنه سلوك ‹‹ لا أخلاقي ›› ! إن لم يكن جريمة بشعة يعاقب عليها القانون !

– خذ مثلاً رابعاً : كانوا في الصين إذا ما عاد صديقٌ صديقاً عزيزاً عليه وهو مريض وجب عليه أن يحمل معه ‹‹ كفناً ›› ‹‹ أو تابوتاً ›› علي سبيل الهدية تعبيراً عن محبته لصديقه – ولا سيما إذا ساءت صحة الصديق ووصلت إلي مرحلة خطرة ! أما نحن فكنا ولا نزال نستهجن هذا السلوك ‹‹ اللاأخلاقي ›› ! وربما امتعض القاريء وهو

يطالع أمر «« الهدية الثمينة »» ومطَّ شفتيه وهو يقول : هـــذا صديق «« عديم الأحساس »» ! كيف يحمل لصديقه مثل هذا «« الفال السيىء »» حتي ولو كان في حالاته الأخيرة ؟ ! ومن أيسر الأمور كما قلنا أن نسوق مئات المئات من الأمثلة التي تبّين اختلاف العادات والتقاليد بين المجتمعات البشرية وهو اختلاف يبلغ في بعض الأحيان حد التناقض ، بحيث يكون «« الموقف »» هنا فضيلة ويكون هو نفسه في مجتمع آخر رذيلة !

غير أن السؤال الذي ينبغي علينا أن نطرحه هو ألا يمكن أن يكون الاختلاف في الظاهر فحسب ؟ ! ألا يمكن أن نجد «« مبدأ »» واحداً وراء هذه المظاهر المتغيرة جميعاً ؟ ! ألا يجوز أن يكون السطح الخارجي هو الذي يتلون بلون المجتمعات المختلفة أما المبدأ الأخلاقي فهو ثابت ودائم أعني أنه مطلق لاحدَّ له ولا حدود ؟! ذلك ما أعتقده وسوف يسعدني أن نلتقي في وجهة النظر الآتية :

في ظني أن أخلاق الإنسان لا تقوم علي مباديء متغيرة تختلف من مجتمع إلي آخر ، فأخلاق الإنسان واحدة في كل زمان ومكان ، وليس ثَمَّة فضيلة تتحول يوماً إلي رذيلة ، ذلك لأن المباديء الأخلاقية ثابتة لا تتغير وهي مطلقة وليست نسبية ، وأن كانت تلك المباديء تغلفها كثرة كثيرة من القشور السطحية ، ومن ثم كان دورنا نحن أن نتعرف كما يقول «هيجل» علي الأبدي الذى يختفي خلف ما هو حاضر ، ذلك لأن المبدأ العقلي يظهر في صورة من الصور ، والأشكال والتجسيدات لا حد لها !! إنه أشبه بإله البحر بروتيوس Proteus في أساطير اليونان المتلون الذي يتخذ أشكالاً وأدواراً مختلفة ! خذ الأمثلة التي ذكرناها واحداً بعد واحد .

– العادة الهندية التي توجب علي الزوجة أن تحرق نفسها ‹‹ وفاءً ›› لزوجها تجد أن القشرة الخارجية ‹‹ إحراق الزوجة أو انتحارها ›› تُغَلِّف مبدأ أخلاقياً ، لا يزال قائماً حتي الآن في الهند والسند وفي كل مجتمع ، وهذا المبدأ الأخلاقي يقول : ‹‹ ينبغي علي الزوجة أن تكون وفية لزوجها ›› أما كيف يمكن للمجتمع أن يعبِّر عن هذا المبدأ فهو متروك لظروفه ، المبدأ الأخلاقي واحد وكل مجتمع يشكله بطريقته الخاصة ! فإذا كان الإنجليز عندما دخلوا الهند أجبروا أهلها علي إبطال هذه العادة ، فإنهم هم أنفسهم كانوا في بلادهم يأخذون بنفس هذا المبدأ الأخلاقي ‹‹ ينبغي علي الزوجة أن تكون وفية لزوجها ›› وإن كانوا يمارسونه بطريقتهم الخاصة ، فلم يقل الانجليز للهنود عليكم إبطال هذه العادة لأن من حق الزوجة أن تخون زوجها أو أن لا تكون أمينة عليه !! بل حاولوا استبدال الصورة التي يتشكل فيها المبدأ الأخلاقي ؛ ليضعوا مكانها صورة أخري !

فقد تشيِّد الزوجة لزوجها قبراً ، أو تقيم لروحه ليلة دينية أو ذكرى سنوية ، أو ترتدى عليه ثوب الحداد طوال عمرها ، أو تقيم باسمه « سبيل ماء » يرتوى منه الظمأى ، أو تضع على قبره زهرة ، أو تقرأ على روحه الفاتحة ـ وهو أضعف الإيمان ! ، وتلك كلها أمثلة متنوعة على الوفاء تختلف باختلاف المجتمعات ، لكن يظل المبدأ الأخلاقى واحداً وهو « ينبغى على الزوجة أن تكون وفيّة لزوجها ! » .

– أما المثال الثاني الذي يجعل من العادة العربية عادة وضع غطاء الرأس – الضد المباشر للعادة الأوروبية ‹‹ برفع القبعة ›› تعبيراً عن احترام الكبير – فالواقع أن هذا الاختلاف ‹‹ الصارخ ›› ! ليس إلا تنويعا لمبدأ أخلاقي واحد هو : ‹‹ ينبغي عليك أن تحترم الكبير ›› سناً أو خبرة ... إلخ ، وقد تجد في بعض المجتمعات الشرقية عادة ‹‹ تقبيل اليد ››

وهي مظهر آخر لاحترام الكبير – وفي هذه الأمثلة كلها لا تجد إلا مبدأ أخلاقياً واحداً يتلون بلون المجتمع الذي يعيش فيه !

وقل مثل ذلك في المثال الثالث : فالمبدأ الأخلاقي هو « ينبغي عليك أن تكون باراً بوالديك .. » والمجتمع القديم ، كالمجتمع الحديث تماماً ، يستهجن عقوق الأبناء مهما تكن المبررات ! وإذا كنا نجد في قتل الوالدين لإراحتهما من المرض في المجتمعات القديمة ضرباً من الوحشية ، فإن الموقف نفسه يعود فيكرر نفسه الآن في إنجلترا – وفي أميركا – بسبب حادثة طلب فيها أب مريض بالسرطان وميئوس من علاجه من ابنه أن يريحه من عذاب المرض وآلامه ويقتله برصاصة، وامتثل الابن لرجاء الأب المعذب المتألم فقتله في وضح النهار ، وفي قلب المستشفي الذي كان يعالج فيه ، وقامت الدنيا ولم تقعد بعد فما زالت المشكلة يتدارسها فلاسفة الأخلاق – في أحدث ما صدر من مؤلفات ودراسات – باسم « الموت الرحيم » أو القتل رحمة بالمريض ، أتجيزه الأخلاق بغض النظر عما تقول به الشرائع ، والعادات والتقاليد وقوانين المجتمع أم أنه سلوك لا أخلاقي ؟!

وقل مثل ذلك في المثال الرابع والأخير « ينبغي عليك عيادة الصديق إذا مرض .. » أما أن تحمل معك « ورودًا » أو حلوي أو « كفناً » أو تضع تحت وسادته مبلغاً من المال ، فتلك قشرة خارجية لا علاقة لها بالمبدأ الأخلاقي !

إنه يستحيل عليك أن تجد طوال التاريخ كله مجتمعاً يقيم دعائمه علي مباديء « لا أخلاقية » مثل « اسرق » أو « اكذب » أو « ازن » أو « لا تتعاون مع غيرك أو كن جباناً » .. إلخ .. إلخ .. لكنك تجد تنويعات مختلفة للمباديء الأخلاقية الدائمة ، ذلك لأن المبدأ الأخلاقي « مبدأ عقلي » دائم لا يتغير لكنه كغيره من المباديء العقلية الأخري عندما

يتحقق في عالم الواقع لا يتحقق وحده ، لأن الإنسان ليس عقلاً صرفاً، وإنما هو شعور ، ووجدان ، وحس ، وعاطفة .. إلخ ، وألوان كثيرة من الأمور « اللاعقلية » ومن ثم تغلف المبدأ الأخلاقي العقلي بكثير من هذه الأغلفة ، وعلينا نحن أن نغوص تحت هذه الأغلفة ، تحت هذه المظاهر السطحية ؛ لنعثر علي النواة « العقلية » ! .

أفكان سوفكليس إذن علي حق عندما قال علي لسان أنتيجونا « إن القوانين الأخلاقية أبدية وخالدة ولا أحد يعلم من أين جاءت ، وهي تسبق كل ما شرعتموه من قوانين وضعية ! »

إنه لما يلفت النظر حقا أن تجد شاعراً آخر . حديثاً هذه المرة – هو «سرفانتيز » يكب في قصته الشهيرة « دون كيشوت » عن وجود مباديء أخلاقية حتي بين المجرمين ! ءذ يمر الفارس وتابعه بعصابة من اللصوص علي رأسها كبيرهم يُقسّم الغنائم بين أفراد العصابة ، ويراعي « العدل » في توزيع المسروقات عليهم .. وعندما انتهي من هذه القسمة العادلة التفتَ إلي دون كيشوت قائلاً : « إنني إذا لم التزم العدل بين رجالي ، تعذرتْ عليَّ الحياة معهم .. ! » فقال « سانكو » تابع دون كيشوت بسخرية : الظاهر أن العدالة شيء جميل ينبغي التمسك به حتي بين اللصوص !! وعندئذ أوشك اللصوص أن يفتكوا به لا لأنه أثني علي العدالة ، بل لأنه اجترأ فأسمي اللصوص لصوصاً !

من هذه اللفتة البارعة نخرج بأمرين : الأول أن العدالة تظل مبدأ أخلاقياً ضرورياً حتي بين اللصوص : والثاني أن اللص يؤذيه جداً أن يعلم أنه لص أو أن يقال عنه أنه كذلك ! تلك هي الأخلاق الإنسانية ، أخلاق الإنسان بما هو إنسان لا شرق فيها ولا غرب .

* * *

« الكـذب الأبيـض ... ! »

هل للكذب ألوان ... ؟! أهناك كذب أبيض ، وآخر أصفر ، أو أخضر ، وثالث أسـود أو أزرق ... ؟! أم أن الـكذب كـذب أياً كان نوعـه وهو رذيلة أخلاقـية لا يجـوز أن يقترفـها المرء مـهما كـانت الظروف ... ؟! وإذا صحّ أنها كذلك ، فلماذا نقـول أحيـانـاً أن « هذه مـجرد كـذبة بيضـاء لا تضـر ... ؟! » ولماذا شاعت هذه العبارة بين الناس شيوعاً جعلها هي نفسـها أقرب إلـي « المُسلَّمة الأخـلاقـية » - علي مـا في ذلك من مـفارقـة ... ؟! الغـريب أنك لا تجـد أن رجل الشـارع هـو وحـده الذي يستخدم هذه العبارة - فيقول « هذه مجرد كذبة بيضاء لا تضر ... » - بل إنك لتجـد مـن الفلاسـفة أنفسـهم مَنْ يوافق علـي هذا الكذب « الأبيض » - ويقدم لـك المبررات الفلسفية - أعني الأسـانيد العقلية - التي تحتم قـبـول هذا اللـون من الكذب !! من أفلاطون Plato في القـرن الرابع قبل الميلاد حتي برتراندراسل ... B.Russell ١٨٧٢ - ١٩٧٠ في القرن العشرين !

أما أفلاطون فهو يقول في « محاورة الجمهورية » :

« أمـا الأكـذوبـة الملفـوظة فـقـد تـكون في بعض الأحـيان نـافـعة لا بغـيـضـة ... ومن أمـثلة ذلـك الكذب علي الأعـداء أو حين يـوشك أولئك الذين نعدهم أصدقاءنا علي أن يرتكبوا عملاً طائشاً مدفوعين بالغضب أو سوء الفهم ، عندئذ تكون للأكذوبة فائدتها ، وتعد نوعاً من العلاج أو الوقاية .. » ص ٢٤٧ من الترجمة العربية للدكتور فؤاد زكريا » .

وهـو يـصـف هذا « الـكذب الأبـيض » في مـكان آخر بـأنـه « دواء »

ومن ثَمَّ يري إباحة الكذب بوصفه دواء لحالات معينة علي ألا يقوم به إلا حُكام مخلصون «ص ٣٤٦» .

ويضرب أفلاطون مثالين لهذه الحالات «المعينة» التي يكون فيها الكذب – أو هذا الدواء مفيداً وناجحاً :

يقول في المثال الأول : «افرض أن صديقاً قد أودع لدي أسلحة وهو في كامل قواه العقلية ، ثم أراد أن يستردها بعد أن أصابه مسٌ من الجنون ... أتراني ملزماً بردها إليه ؟! لن يقول أحد إنني ملزم بذلك ، أو إننى أكون على حق لو فعلت ذلك ، كما أن أحداً لن يعتقد بأن من واجبي قول الصدق لمن كان في مثل حالته» .. «ص ١٧٩ من الترجمة العربية» .

أما المثال الثاني – وهو الذي يسميه أفلاطون «بالأكذوبة الضرورية» فيتلخص في ضرورة قيام الحاكم بإقناع الناس بالأسطورة التي تقول : إن بعض الناس وُلد من معدن الذهب ، وبعضهم ولد من معدن الفضة ، والبعض الآخر من معدن الحديد أو النحاس «.. والله الذي فطركم قد مزج تركيب أولئك الذين يستطيعون الحكم منكم بالذهب ، ولهذا كان هؤلاء أنفسكم ، ثم مزج تركيب الحراس بالفضة ، وتركيب الفلاحين والصناع بالحديد والنحاس .. «ص ٢٩١» أي أن أفلاطون يري أن «يكذب» الحكام علي الناس «كذبة بيضاء» حتي يقنع كل منهم بوضعه الطبقي ، ويرضي بحكم القدر الذي جعله من النحاس أو الحديد وجعل غيره من الذهب أو الفضة فتلك مسألة لا حيلة له فيها ، ومن ثم فإن عليه أن يستسلم بوضعه داخل جمهورية أفلاطون !! ثم عليه طاعة الحكام الذين هم من معدن مختلف هو «الذهب» !!

ويضرب برتراندراسل مثلاً آخر علي ضرورة أباحة «الكذب

الأبيض ›› في حالات معينة فيقول : افرض أنني رأيت مجرماً يطارد شخصاً ؛ ليقتله ، وإن هذا الشخص اختبأ في مكان أعرفه ، ثم جاء المجرم الذي يطارده وفي يده السلاح ؛ ليسألني : هل رأيت هذا الشخص ؟ أتعرف أين يختبيء ؟! أتبيح لي الأخلاق أن أكذب علي هذا المجرم فأقول له إنني لا أعرف مكانه ، أم أنها تجبرني علي قول الصدق ، فيتمكن المجرم من إرتكاب جريمته ؟!

والواقع أن المباديء الأخلاقية التي نُسلِّم بها جميعاً كثيراً ما تتعطل أو تكسر ولا سيما إبان الحروب ، وذلك لمنع مزيد من الشرور ، بل إن المباديء الأخلاقية حتي في غير أوقات الحروب كثيراً ما يتصارع بعضها مع بعض كالصراع الذي يقوم بين المبدأ الأخلاقي الذي نتحدث عنه الآن والذي يوجب علي الإنسان قول الصدق والامتناع عن الكذب ، والمبدأ الأخلاقي الذي يوجب الكذب والامتناع عن قول الصدق إنقاذا لحياة إنسان يسأل عنه مجرم يريد الفتك به : أو إشفاقاً علي مريض بالقلب يستفسر عن مصير ابنه ممن يعرف أنه مات ! ولا يمكن أن يقال أنه حلاً لهذا الإشكال فإن عليك أن تلوذ بالصمت ، فذلك لا يعفيك من المشكلة إذ أن الصمت قد يوحي بالحقيقة التي تهدد حياة إنسان ! ولهذا فإن المثال الأول – لا الثاني الذى ضربه أفلاطون وكذلك المثال الذي ذكره راسل – تبيح فيه الأخلاق ما يُسمي باسم ››الكذب الأبيض ›› لأنني في الواقع استهدف تحقيق مبدأ أخلاقي أعلي قد يكون ›› حياة إنسان ›› أو مصير دولة ، بل إن الدبلوماسي مثلاً يتعيَّن عليه أن يكذب متي ترتب علي كذبه منع حرب عالمية ثالثة ! ومن ثَمَّ فلا ضرر من الناحية الأخلاقية من الإقدام علي شر ضئيل ›› هو الكذب ›› من أجل منع شرور أكبر وأعظم !! فالمبدأ الأخلاقي الذي يقضي بقول

الصدق قد يتنافي مع مبدأ أخلاقي آخر يوجب «خدمة الوطن» ، ومن ثَمّ يباح للأسير أن يكذب علي آسريه عند الضرورة إنقاذاً لوطنه وإلا فكيف تقضي الأخلاق بأن يصدق الأسير مع أعدائه حين يطلبون منه أن يفشي لهم أسرار بلاده أو أسرار معركة حربية ، أو الأماكن التي يختبيء فيها زملاؤه من الجنود !! غير أننا هنا لابدّ أن نسوق كلمة تحذير : فلا ينبغي أن يظن ظان أن الأخلاق تبيح تحقيق غايات طيبة بوسائل شريرة !! إن ذلك يجعلنا نقف علي أرض زلقة يتعذر الاستقرار عليها!! فليس ذلك من مباديء الأخلاق في شيء !!

والواقع أن الأخلاق عندما تبيح «كسر» القانون الخلقي في حالات خاصة جداً ، فإنها تفعل ذلك بشروط أساسية أهمها شرطان :

الأول : أن يكون في الإمكان تعميم «كسر» القاعدة الخلقية في كل ظروف مشابهة ، بمعني آخر إن عليَّ أن أسأل نفسي : هل يجوز لشخص آخر يكون في نفس هذا الموقف أن يفعل نفس الشيء ؟ وهكذا نتبين أن كسر القانون الأخلاقي لا يكون من أجل مصلحة شخصية . أو في سبيل غاية خاصة أو نزوة أو شهوة ، فكل مَنْ يكون في نفس موقفي لن يقول الصدق عندما يري مجرماً يطارد شخصاً ؛ ليقتله ويسألني عن مكانه ولن يقول الصدق عندما يسأله الأب مريض القلب عن ابنه ، ولن يقول الصدق عندما يسأله الأعداء عن أسرار بلده .. إلخ، فليست المسألة هنا شخصية ، ولا هي من أجل نزوة خاصة إذ لا يجوز عصيان القانون الأخلاقي إشباعاً لنزوة أو تحقيقاً لمصلحة ذاتية أياً ما كانت الظروف ! أما الشرط الثاني فهو: إن كسر القانون الأخلاقي لا يجوز إلا إذا كان من أجل قاعدة أخلاقية أسمي ! إن ذلك يعني توقيفاً لمبدأ أخلاقي خاص في سبيل مبدأ أخلاقي أعم !! فالأسير الذي يكذب

يكسر قاعدة أخلاقية من أجل قاعدة أخلاقية أعلي هي ضرورة الولاء للوطن ، وحماية المواطنين ، وصيانة أسرار المعارك الحربية .. إلخ ، فليس الدافع إلي الكذب مصلحة شخصية أو هوي طاريء ! كذلك عندما يكذب الطبيب علي المريض المشرف علي الهلاك ، أو عندما نكذب إنقاذاً لحياة إنسان .. إننا هنا نُعلّق الواجب طاعة لواجب أسمي !! إننا نوقف مبدأ أخلاقياً لكي نحقق مبدأ أخلاقياً أعلي !!

فإذا ما طبقنا هذين الشرطين علي الأكذوبة الضرورية عند أفلاطون لوجدنا أنه يستهدف من ورائها طاعة الحاكم ! ولما كانت طاعة الحكام لا تمثل مبدأ أخلاقياً فإن أكذوبة أفلاطون تتحول إلي كذب أسود أعني رذيلة أخلاقية واضحة ، أو قل إن أفلاطون هنا يخلط في الواقع بين الأخلاق والسياسة ! فتمرد المواطن ورفضه طاعة الحاكم هو حق من حقوقه السياسية ولا علاقة له بالأخلاق ! وقد نعود إلي هذه الفكرة في مقال آخر ! .

***

« الأخلاق طبيعة ثانية »

كنا طلاباً بالجامعة من كليتين مختلفتين : الآداب والحقوق ، نلتقي عند صديقٍ للدرس والمذاكرة حيناً ، والمناقشة والسمر حيناً آخر، وذات مساء حمل إلينا زميل (حقوقي) كتاباً لأستاذ جليل في القانون أنساني الزمن اسمه – جاء يستفتينا في أمر عبارة صدَّر بها الأستاذ كتابه وحرنا جميعا في تفسير مدلولها ، فلو أنك فتحت هذا الكتاب لطالعتك الصفحة الأولي فيه خالية تماماً إلا من جملة تتوسطها تتألف من ثلاث كلمات هي : (... والقط يأكل ويشرب)(*) . بهذه الكلمات الثلاث يصدر الأستاذ الجليل كتابه بغير زيادة وبلا شرح أو تفسير أو تعليق ! وحرنا جميعاً في أمر تلك العبارة الغريبة العجيبة ، تُري ما الذي يقصده الأستاذ بهذه الكلمات البسيطة . ؟ وما دخل القط بالقانون . ؟ وهل يقول الأستاذ جديداً حين يخبرنا أن القط يأكل ويشرب . ؟ أم تراه يريد أن يتحدث عن « حقوق » الحيوان ؟!

وأشهد أنني قضيتُ زماناً طويلاً لا أحسن فهم هذه العبارة الغامضة ، أو قل ، بمعنى أكثر دقة ، إننى لم أحسن فهم المغزى الذي ترمى إليه أو الدلالة التى تعنيها ، ولكنى أخيراً وقفت على معناها :

إنه يريد أن يقول ببساطة أن القط ليس كائناً أخلاقياً يلتزم بقانون ومباديء في حين أن الإنسان هو الموجود الأخلاقي الذي يضع القانون ويلتزم به ويحقق به كيانه الإنساني : ومن ثم فإنك لا تكون إنساناً على الأصالة إلا إذا حققت الجانب الإنساني فيك ، وهو الجانب الذي

(*) راجع مقالنا السابق « ... والقط يأكل ويشرب » ص ٣٩ .

يُمـيّزك عن الحـيوان : جـانب الفكـر والمعـرفـة من الناحـيـة الـنظرية والسلوك الأخلاقي الملتزم من الناحية العملية ، أما إذا اقتصرتْ مهمتك في الحياة علي أن تأكل وتشرب ، فإنك تبقي في مرتبة الحيوان لأن القط أيضاً يأكل ويشرب .. ! فهي إذن دعوة تهيب بنا إلي التعالي ، وإلي الارتفاع عن مستوي الحيوان ، والسمو إلي آفاق روحية تحقق ماهية الإنسان وذاته الحقة التي هي جديرة حقاً بأن تكون خليقة الله في الأرض !

وهذا يعني أيضاً أن هناك طبيعتين للإنسان : الطبيعة الأولي هي الطبيعة الحيوانية التي تتحكم فيها الغرائز والشهوات والدوافع والميول الطبيعية وهي لا أثر فيها للحرية أو للأخلاق . ثم هناك الطبيعة الأخلاقية الحرة التي تتحكم أولاً في الطبيعة الحيوانية وتحد من اندفاعها وتهورها ، وتكشف ثانياً عن الماهية الحقيقية للإنسان .

والإنسان عادة يبدأ بطبيعته الأولي الحيوانية أو بالفطرة ثم يدخل في سلسلة طويلة من التهذيب والترويض والدربة ، والحد من اندفاع الغريزة : يتعلم من أبويه في الأسرة ، ومدرسيه في المدرسة ، ورفاقه في الحياة ، ومَنْ يلتقي بهم في مجتمعه ، بل إنه ليتعلم من قوانين المجتمع ونظمه الكثير من أنماط السلوك وكبح جماح الغرائز ، والميول الطبيعية ، والاندفاع لإشباع الشهوات ... إلخ ، رحلة طويلة وشاقة يبتعد فيها الإنسان عن (الفطرة) ويتحرر من الطبيعة الأولي ويصل إلي الطبيعة الثانية ؛ ليصبح كائناً أخلاقياً .

وفي الحديث الشريف إشارة إلي عملية التكوين هذه بما معناه :

(يولد الطفل علي الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه ..) فالطفل

يولد علي الفطرة لا يملك سوي طبيعته الحيوانية ثم تُدخله الأسرة في إطار ديني معين وبالتالي في أنماط معينة من القيم والمباديء الأخلاقية

لكن كيف يمكن أن ننفي كل سلوك أخلاقي عن الحيوان . ؟! ألسنا نتحدث في كثير من الأحيان عن صفات أخلاقية للحيوان سواء أكانت صفات حميدة أو ذميمة فنصف هذا السلوك الحيواني بأنه (فاضل) وذاك بأنه (رذل أو شرير) ؟ .

فكيف يمكن أن نقول بعد ذلك أن الحيوان يقف عند الطبيعة الأولي فحسب ؟! – الواقع أن ما يقال أحياناً عن أخلاق الحيوان ليس إلا أكذوبة كبيرة أو هو محض خرافة !

صحيح أننا كثيراً ما نتحدث عن : شجاعة الأسد ، وجبن الأرنب ، ووفاء الكلب ، وخبث الثعلب ، وإخلاص الحصان ، وغدر الذئب ، ووداعة الحمل ، وخيلاء الطاووس ، وصبر الحمار .. إلخ . لكن ذلك كله ليس إلا لونا من ألوان المجاز وإسقاط القيم البشرية علي سلوك الحيوان تماماً كما تقول تبسم الزهر وضحكت الورود .. إلخ بل إننا كثيرا ما نصف الحيوان أيضاً بالضحك وهو ما يحذرنا منه شاعرنا العربي بقوله :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

وإذا كان الليث لا يبتسم فهو أيضاً لا يسلك سلوكاً شجاعاً ، فليس أمام الأسد إذا جاع إلا أن يُهاجم فريسته فهو : (مكره أخاك لا بطل) ! وهذا المثل الشائع يعطينا التفسير الصحيح للسلوك الأخلاقي الذي لا يتصف به الحيوان ، ذلك لأن الفعل الخلقي فعل إرادي وأبسط تعريف للفعل الإرادي هوأنه : (ذلك الفعل الذي كان يمكن للفاعل أن

يختار سواه) . وفي استطاعتنا إذن أن نقول : أننا لا نلتقي عند الحيوان بأمثال هذه الأفعال الإرادية ، وإنما تتحكم الغرائز والميول الفطرية في أفعاله كلها ، وليس وفاء الكلب إلا لونا من ألوان الارتباط الشرطي بين الجوع وصاحبه الذي يقدم له الطعام ، ولك أن تتخيل ما الذي كان يحدث لو أن صاحب الكلب بدلاً من تقديم الطعام اعتاد أن ينهال عليه ضرباً كل صباح !

إن السلوك الأخلاقي يتطلب أولاً وجود حرية عند الكائن الأخلاقي بحيث يجد أمامه طريقين : كان يمكن أن يسلك علي نحو كذا ، لكنه سلك علي نحو مخالف ! كان يمكن أن يسرق لكنه آثر أن يكون أميناً ، كان يمكن أن يكذب لكنه يفضل قول الصدق ، كان يمكن أن يزني لكنه يفضل العفة ... إلخ . ومن هذا الاحتكاك والصراع بين طريقين متعارضين تظهر الأخلاق ، ولهذا فإن الرجل الذى يعيش وسط مغريات المدينة يسلك سلوكاً فاضلاً أعلي بكثير جداً من سلوك الراهب الذي يعيش في صومعة في قلب الجبل أو وسط الصحراء لا يتعرض لمغريات ولا يرتكب الموبقات ، لأن الرجل في الحالة الأولي يمنع نفسه بإرادته من ارتكاب الإثم ويسلك طريق الفضيلة باختياره ، أما الراهب فهو (فاضل رغم أنفه !) إن صح التعبير وهو قد يقول في داخل نفسه مع الفيلسوف الألماني (نيتشه) : «كم اشتهي ارتكاب خطيئة !» ، الإنسان إذن هو وحده الكائن الأخلاقي والأخلاق بالنسبة له (طبيعة ثانية) تجاوز طبيعته الحيوانية الأولي وتسمو عليها ، ولهذا فإن من الفلاسفة مَنْ يعرف الإنسان بأنه ذلك الكائن الأخلاقي الذي لا يتحدد وجوده إلا من خلال القيم فهي همزة الوصل بين التاريخ الطبيعي والتاريخ البشري أو قل إنها همزة (الفصل) بينهما .

فإذا رأيت رجلين يتشاجران بالأيدى والأرجل أو العصى كما تفعل الديوك ، فاعلم ، حفظك الله ، أنهما قد توقفا عند الطبيعة الأولي ! وإذا رأيت مَنْ يكذب أو يسرق أو يرتشي أو من تزني أو تخون – فاعلم أن المسافة ما تزال جد بعيدة بينهم وبين الطبيعة الثانية أو الإنسان ذلك الكائن الأخلاقي أو الموجود السامي ولا يغرنك أنهم يأكلون ويشربون .. (فالقط يأكل ويشرب !) ..

***

ثامناً : عن الثقافة

١ – أحمق من يعير كتاباً ..!

٢ – الهوة الثقافية .. !

٣ – أزمة ثقافية .. !

٤ – تأثير الكلمة .. !

٥ – القاريء وكاتبه .. !

٦ – تشجع واعرف .. !

٧ – رهان .. !

« أحمق مَنْ يُعير كتاباً »

- .. وأحمق منه من يرده .
- للحصول علي كتاب بالمجان افعل كما فعل المتنبي .
- القديس يسرق الجلود .. والطالب يسرق الكتب .

يُروي عن الشيخ مصطفي عبد الرازق ، رحمه الله ، أنه كان يجوب شوارع القاهرة وأزقتها حيث توجد المكتبات العتيقة – بحثاً عن كتاب يحتاج إليه واحد من طُلابه ، فإذا ما وجده أسرع إليه ، جذلاناً فرحاً ، حتي وإن كان في ساعة متأخرة من الليل – يطرق باب بيته ؛ ليعطيه الكتاب الذي كان يبحث عنه ! ويروي لنا تلاميذه أنه كان يجد متعة كبيرة في حصول طلابه علي ما يبحثون عنه من كتب ومراجع لما يقومون به من بحوث ! إذ كان يشعر أنه بذلك يدفع البحث العلمي إلي الأمام ، ولا سيما الدراسات الإسلامية التي كان يحث تلاميذه علي التخصص فيها . وقبل ذلك كله فقد فتح لهم بيته وأعارهم ما كان يملك من كتب ! ومعني هذا أن الشيخ الجليل لم يكن يعرف تلك الحكمة البليغة التي تقول « إن ذلك الذي يعير الكتاب إنسان أحمق ، وأحمق منه ذلك الذي يرده !! » .

والغريب أن بعضاً من تلاميذه ممن رووا عنه هذه الحكايات كان يتصرف علي نحو مخالف لسلوك هذا الشيخ الجليل . بمعني أنه كان يرفض رفضاً قاطعاً أن يعير طلابه كتاباً واحداً مهما تكن الحجج والأعذار التي يبديها الطلاب ، ومهما بلغت حاجة الطلاب إلي هذا

الكتاب ، ولقد مرت أعوام طويلة وأنا أعجب كيف يكون هؤلاء تلاميذ للشيخ الجليل الذي وهب مكتبته ووقته وماله إلي طلابه ! لكني قرأت حواراً بين أحد رجال القانون الأثرياء وابنه – بعد أن نال شهادته الجامعية مباشرة . ألقي الكثير من الضوء علي تفسير هذه الظاهرة ، وكان الحوار يدور علي النحو التالي :

الأب : أما وقد نلت شهادتك العليا ، فقد قررت أن أهدي إليك هذه المكتبة العظيمة علي شرط واحد وهو : ألا تعير منها كتاباً لأحد !

الابن : ولماذا يا أبي تشترط هذا الشرط الغريب ؟ ألا يجوز أن يحتاج زميل أو باحث كتاباً لا يجده في مكان آخر فأفيده إذا ما أعرته إياه؟ .

الأب : ألم يسبق أن طلبت مني كتاباً للزملاء والأصدقاء ورفضت ذلك؟

الابن : بلي ، وقد عجبت يومها تماماً ، كيف ترفض مع أنك تملك مكتبة ضخمة وثراء لا بأس به ؟ ثم أنت رجل القانون الكبير !

الأب : السبب ، يا بني ، بسيط للغاية ، وهو أنني جمعت هذه المكتبة التي تراها عظيمة من الكتب التي كنت أستعيرها من الآخرين ! .

وهنا أدركتُ أن صاحب الحكمة البليغة قد جمع مكتبة من الكتب التي كان يستعيرها من غيره ويبقيها عنده ! وأدركتُ أيضاً أن كل مَنْ يرفض إعارتك كتاباً ، عملاً بهذه النصيحة الجليلة ، فإنه يخشي أن تفعل به ما فعله هو بغيره .. ! أعني ألا ترد إليه الكتاب ، وأن يزداد رصيدك من الكتب علي حساب الآخرين !

وأحمد الله أن بعضاً من أساتذتنا الفضلاء لم يأخذوا بهذه

النصيحة لسبب بسيط هو أنهم فيما يبدو جمعوا مكتبتهم عن طريق شراء الكتب وليس استعارتها من الآخرين ، ولهذا لم يخطر في ظنهم قَط أن يبخلوا علي واحد من تلاميذهم بكتاب يحتاج إليه ومن هولاء أستاذنا الكبير الدكتور زكي نجيب محمود ، أمد الله في عمره(*) ، فلم يكن يتردد لحظة واحدة في إعارة طلابه ما يحتاجون إليه من مكتبته ، بل إنني أذكر أنه طلب مني ذات مرة ألا أجد حرجاً في دخول مكتبه لأخذ ما أحتاج إليه من كتب كنت قد سألته عما إذا كانت موجودة عنده – وكان يومها مريضاً لا يغادر الفراش ولما أعتذرت لأنني كنت اطمئن لوجودها عنده فقط ، ألحّ هو علي ضرورة ذهابي إلي مكتبه لأخذها ، وأذكر أنني استعرت منه مرة كتاباً ضخماً تزيد صفحاته عن ستمائة صفحة ((وهو كتاب ((ستيس)) عن هيجل الذي قمتُ بترجمته فيما بعد)) – ووقعتُ بسببه في حرج شديد ذلك لأن الكتاب سقط من يدي علي أرض الغرفة فانشطر نصفين بالتمام والكمال ! ولم ينقذني من هذا المأزق سوي صديق فاضل كان يعرف رجلاً بارعاً في فن تجليد الكتب الأجنبية أعاد الكتاب كما كان عليه ، وأسرعتُ برده قبل أن يحدث له شيء آخر .

ومن أساتذتنا الفضلاء الذين لم يضنّوا بكتبهم علينا أيضاً ، مهما تكن الأعداد التي نستعيرها ، أستاذنا الفاضل الدكتور فؤاد زكريا – وكانت له معي حادثة طريفة كذلك ، فقد اعتدنا أن نأخذ من مكتبته – أنا والزميل الدكتور محمود رجب – ما نشاء من كتب بغير حساب كما اعتاد غيرنا أيضاً أن يفعل ذلك ، فهو لا يضنّ علي أحد بكتاب يحتاجه علي الإطلاق – لكني فوجئت به ذات يوم يطلب مني الانتظار ،

(*) توفى أستاذنا العظيم ـ رحمه الله ـ فى سبتمبر عام ١٩٩٣ .

بعد أن تأبطتُ الكتب وهممت بالخروج ، وكان ذلك منذ ما يقرب من عشرين عاماً – وامتثلت لطلبه وانتظرت ! وإذا به يبحث في أدراج مكتبه عن ورقة صغيرة يدون فيها أسماء الكتب واسم المستعير ! وأغاظتني جداً « هذه الحركة » ولا سيما وأنا أعرف جيداً أن ذاكرة الدكتور فؤاد لن تسعفه ، بعد يوم واحد فقط ـ لا بأسماء الكتب ولا بمكان الورقة التي سجل فيها هذه الكتب ، فلماذا إذن هذه « التهويشة » ؟! وخرجتُ وأنا أسرها في نفسي ، وعزمت ألا أرد إليه هذه الكتب أبداً ، عملاً بالمبدأ القائل إن سرقة الكتب حلال لأن الثقافة ينبغي أن تكون ملكاً شائعاً بين الجميع ، القادر وغير القادر ! وانتظرتُ بعدها لأرى ماذا سيفعل ، وقد حدث ما توقعته بالضبط : لم يطلبها ولم يسأل عنها بل نسيها تماماً ، ومن ثم فقد احتفظت بهذه الكتب سنوات طويلة ، إلي أن شعرت ذات مرة بتأنيب الضمير ، عندما كان يبحث عن كتاب معين ولم يجده فاشتكي لي أن فلاناً « وكان موجهاً للفلسفة بالقاهرة » قد استعار الكتاب ، ولم يرده عندئذٍ وجدت نفسي مضطراً، لنفي التهمة عن رجل مظلوم وأخبرته أن الكتاب عندي وأعدته إليه. ومرة أخري كان يستعد لإصدار الطبعة الثالثة من كتابه عن الفيلسوف الألماني « فردريك نيتشه » F.Nietzsche وكان من بين الكتب التي استعرتها منه كتاب هو في حد ذاته كنز ثمين لأنه يضم جميع مؤلفات «نيتشه » في مجلد واحد وشعرت من جديد بتأنيب الضمير الذي استيقظ بعد أن نام سنوات ، فوجدتُ نفسي مضطراً لإعادة الكتاب إليه! وليس في استطاعتي بالطبع أن استرسل في ذكر أسماء بقية الكتب لأنه سيقرأ هذا المقال ! لكني أردت فقط أن أعبّر عن صدق المثل السائر « لا يقع سوي الشاطر » ! .

السرقة ... حلال !

هل يمكن أن تجد تبريراً ، مهما يكن نوعه ، للسلوك اللاأخلاقي ؟ هل يمكن أن تقول أنه ما دامت « النوايا » حسنة فكل شيء مباح .. حتي السرقة والسحر والدجل والشعوذة ؟! لقد أجاب عن هذا السؤال السياسي الفرنسي الشهير « ريشيليو Richelieu » (١٥٨٥ – ١٦٤٢) عندما ألقي القبض علي ساحر دجّال في فرنسا في القرن السابع عشر ، وأراد الرجل أن يلتمس لنفسه الأعذار ولعمله المبررات بأن قال : وماذا أفعل يا سيدي ؟ إنه ينبغي لي أن أعيش ! لكن « ريشيليو » أجابه ببراعة السياسي المحنك : ينبغي أن تعيش ! ولماذا ؟! إنني لا أري في ذلك ضرورة ! وبالمثل ، فإننا نستطيع أن نرد علي أي سلوك سيء يلتمس لنفسه المبررات بالنوايا الحسنة ، بما أجاب به « ريشيليو » !

كان لنا صديق ، ونحن طُلّاب بالجامعة يعتقد أن سرقة الأميركيين حلال ! كما كان يؤمن بأن سرقة الكتب عمل ليس فيه ما يعاب لأننا نسرق فكراً وثقافة ، وإذا كان الأمر كذلك فإن سرقة الكتب من مكتبة السفارة الأمريكية بالقاهرة تصبح واجباً بل وضرورة أخلاقية ! فنحن بذلك ، كما يقول ، نسترد بعضاً مما سرقوه منا ، بل ومن جميع دول العالم الثالث الفقيرة ! ومن هنا فقد تخصص هذا الصديق في السطو علي مكتبة السفارة الأمريكية بالقاهرة، وهي مكتبة كانت بطبيعتها تسهل عملية السطو نفسها ، إذ أنها لا تعرض سوي الكتب الأمريكية، مؤلفة أو مترجمة ، ذات الطبيعة الثقافية الخاصة ، والتي تضمن برواجها انتشار لون معين من الثقافة تريد هي نفسها رواجه لأنه يحمل مجموعة الأفكار الأمريكية ، ولهذا فقد كانت تتساهل جداً في عملية استعارة الكتب ، وقد تتغاضي إذا لم ترد إليها !

ويذكرني هذا الطالب بأحد القديسين الإيطاليين في القرن الثالث الميلادي ‹‹ حوالي ٢٨٦ ›› وهو القديس ‹‹ كريسبين St. Crispin ›› راعي صناعة الأحذية كما يسمونه ، فهذا الرجل علي الرغم من تدينه الذي جعله قديساً ، وعلي الرغم من أنه من أسرة رومانية نبيلة – رحل إلي سواسون Soissons في فرنسا حيث مارس عملاً غريباً إلي جانب الوظيفة الدينية ـ وهو سرقة الجلود !! فقد دأب هذا القديس علي مساعدة الفقراء وتقديم العون لهم بطريقته الخاصة وهي سرقة الجلود التي تصنع منها أحذية تقدم لهم بالمجان ، وغضب الإمبراطور وحكم عليه بالموت ، واستطاع الفرار ، لكنهم عثروا عليه ونفذ فيه حكم الإعدام بالمقصلة . لكن الغريب أن يوم إعدامه وهو يوم (٢٥ أكتوبر) أصبح عيداً يُحتفل به كل عام ، وهو عيد القديس كريسبين ويقوم فيه صانعوا الأحذية بالدور الأكبر ، حتي أنهم يؤجلون زواج أبنائهم وبناتهم إلي هذه المناسبة وقد أشار إليه ‹‹ شكسبير ›› في مسرحية ‹‹ هنري الخامس ›› الفصل الرابع المنظر الثالث ! .

طريقــة المتنبي

ولعل أسهل وأرخص طريقة للحصول علي الكتاب وهو أن تفعل ما فعله شاعرنا الكبير أبو الطيب المتنبي الذي يروي عنه أنه جلس إلي ورّاق فوجد عنده كتاباً من كتب الأصمعي ، كان الكتاب صغيراً في حجمه ، إذ لم تزد ورقاته عن الثلاثين ورقة لكنه كان هاماً وعظيماً في قيمته ، فأخذ المتنبي يتفحصه طويلاً ، ويقلب صفحاته بين يديه ، عندما قال له الورّاق : يا هذا ، الكتاب الذي تقلبه بين يديك للبيع وليس للفرجة .. أنا أريد أن أبيعه لكنك بحمله وتفحصه طوال هذا الوقت تمنع غيرك أن يراه فيشتريه !

لم يكن مع المتنبي ثمن الكتاب ، وعزّ عليه أن يتركه ، فعاد يقلب

صـفـحـاته من جـديـد ! فـقـال له الورّاق : يـا هـذا ، إن كنت تـظن أنك تستطيع حفظه في هـذه المدة القـصيرة ، فذاك أمر بعيـد المنال ، فقال له المتنبي : ‹‹ وإن اسـتطعت حـفظه ؟ قـال الـورّاق : ‹‹ أهبـه لك بالمجـان ! ›› فعاد المتنبي يقلب صفـحات الكتاب في شيء من التأني هـذه المرة إلي أن انتهي من صـفحاته الثلاثين ثم أعطاه للوراق ؛ ليسأله فيه !

وأخـذ الـورّاق الكتـاب وراح يسـأل وأبو الطيب يجـيب ، ويتلوه عليـه صفحة صـفحة إلي أن وصل إلي نهايته فـأخذه من يد الـورّاق وجعله في كمه وقـام فلحق به الـوراق يسأله عن ثمنه فقـال المتنبي : ألم نتفق ؟ ألـم أحفظه ؟ فلِمَ لا تهبه لي كما وعدت ؟ فتركه الـورّاق له .

فإذا أردت ، يا صديقي القارئ ، أن تحصـل علي الكتاب بالمجان فما عليك إلا أن تقـوم بحفظه شريـطة ألا تدخل مكتبـة علّق صاحبـها لافـتة تقول : ‹‹ ممنوع تصـفح الكتب والمجلات ›› .

شو يـجدد تحياتـه !

وأقـسـي شـيء علي الـنفس من عـدم رد الـكتـاب المسـتـعـار أن تُهـدي فلاناً كتاباً من تأليفك ، ثم تعثر عليه عند شـخص آخر ، أو مطروحاً في سلة المهملات ، أو أن تجده معروضـا للبيع في محل للكتب المستعملة ! وذلك مـا حـدث مع الأديب الإنجـليـزي ‹‹ برنارد شـو G.B.Show ›› فقـد أهدي كـتاباً مـن كتبـه لواحد من أصـدقـائه وكتب إليـه إهداء علي صـدر الصفـحة الأولي يقول فـيه ‹‹ إلي العـزيز فلان مع تحيـات جورج برنارد شو ›› . وبعد نحو عام توقف ‹‹ شو ›› عند أحدي المكتبات القديمة التي تبيـع الكتب المستـعملة ، فأدهـشه أن يجد الـكتـاب نفسـه الذي أهداه إلي صـديقـه في العـام الماضي مـعـروضـاً للبـيع ! ولا يزال يحـمل إهداءه وتوقيـعه ! فاشـتراه من المكتبة ، وأعاد إرساله بـالبريد إلي صديقـه وقد كتب تحت الإهـداء القديم : ‹‹ جورج برنارد شـو يجدد تحياته..!››

«« الهوّة الثقافية ... ! »»

أقبل الصيف بأنسامه الحارة ، وغباره الخانق وكان علي المصلح الاجتماعي أن يستعد كما هى الحال كل عام ، للفرار من سموم المدينة إلي هواء البحر المنعش غير أن زوجته كانت تشعر بشيء غير قليل من الملل والسأم للرتابة التي أعتادت الأسرة أن تقضي بها الصيف كل عام ، فهي منذ سنوات طويلة تهرب من المدينة الكبيرة إلي مدينة أخري كبيرة مع فارق واحد ، هو أن هذه الأخيرة تقع علي شاطيء البحر الأبيض ! أفلا نستطيع التغيير هذا العام ؟! بدلاً من الروتين الممل اقترحتْ علي زوجها «« أن نقضي الصيف هذا العام في ريفنا الجميل بين المروج الخضر ، والطبيعة الخلابة ، والهواء النقي ، هناك ستجد الوحي والإلهام ، والخيال الخصب والفكر الخلاق .. ! »» وانتقلت الأسرة إلي الريف لقضاء الصيف !

غير أن صدمة المصلح كانت كبيرة ! فما أن وطأت قدمه أرض القرية حتي التقي في أزقتها الضيقة بأكوام القاذورات ، تنبعث منها روائح كريهة تزكم الأنوف ، ويحف بها من كل مكان ألوان من الحشرات يصعب وصفها ! خاب أمله ، وضاعت الأحلام التي نسجتها الزوجة وتبخرت وعودها جميعاً ! قالت ستقرأ كما يحلو لك في الظلال الوارفة والمياه الجارية ، وها نحن نقضي يوماً كاملاً في البحث عن شجرة واحدة في هذا الريف اللعين ، فلم نجد إلا شجرة السنط التي ربطوا فى جذعها البهائم بعلفها وروثها !! .

قالت : «« سنذهب إلي جنات تجري من تحتها الأنهار »» ! لكنه لم يجد سوي هذه الترعة الصغيرة التي تسبح فوقها جثة حمار نافق منتخفة !

جلس الرجل إلي مكتبه في أول ليلة يقضيها في القرية وأصوات البعوض تطن في أذنيه ، حزيناً مهموماً ، تحسراً علي خياله وأجازته وآماله جميعاً ! وفي ظلمة الليل البهيم يخرج له فجأة شيطان ((فاوست)) ليقلب حزنه فرحاً وضيقه فرجاً بصفقة يعقدها معه : أن يحول الشيطان هذه القرية القذرة إلي مدينة نموذجية تسر أعين الناظرين ، فينقلها من مرحلة التخلف إلي حضارة القرن العشرين دون أن يكون له سوي شرط واحد : هو أن يكون المصلح الكبير صادقاً فيخبر الناس أن الشيطان هو الذي أنعم عليهم بما يرفلون فيه من رغد العيش وجمال المنظر ! تردد المصلح أولاً ، ثم لم يجد أمامه في النهاية سوي أن يرضخ .

وفي طرفة عين تحولت القرية القذرة إلي مدينة حديثة ، شوارع نظيفة وطرق سريعة وواسعة ، حدائق عامة تنتشر في كل مكان مبانٍ جميلة ، مجموعة كبيرة من ((الفيلات)) تحيط بها حدائق صغيرة ، ويدخل فلاح وزوجته من أهل القرية مسكنهما الجديد ، الأثاث فاخر ، والمبني جميل تتوفر فيه أحدث الأجهزة التي أنتجتها حضارة القرن العشرين : ثلاجة ، وغسالة ، وموقد ، وجهاز للتليفزيون ، والفيديو وثالث للتسجيل ! وتقف الزوجة مشدوهة أمام جهاز ضخم من أجهزة الراديو تتأمله وتتحسس معالمه ثم تقول لزوجها : انظر ! يا له من برج حمام رائع ! أتعتقد أن هناك مكاناً أنسب منه لتربية الحمام .. ؟! لكن الزوج مشغول عنها بتأمل الثلاجة الكبيرة يفتح بابها ويغلقه بفرح وهو يقول : إن هذا الصندوق الكبير هو المكان الصالح لتخزين الدقيق حيث لا يصله سوس ولا تنفذ إليه حشرات !!

فى ((الفيلا)) المجاورة التي تتألف من طابقين يفضل أصحابها سكنى الطابق الأرضى ؛ ليتركوا الطابق الأعلى لسكنى الماعز ((لأن

للماعز أربعة أرجل ، أما الإنسان فليس له سوي رجلين فقط ! ومنْ هنا كان من السهل علي الماعز الصعود والهبوط بغير مشقة ، أما بالنسبة للبشر فتلك عملية بالغة الإرهاق »» ؟!

ويريد المصلح الكبير أن يتأكد مما أصاب قومه من سعادة ونعيم ، فيرسل في استدعاء أحقر الفلاحين وأفقرهم ، وكان قد رآه في الصباح بائسًا معدمًا – ويحضر الفلاح في ثياب زاهية متحضرة ، ووراءه زوجته في ثياب جميلة ويسأله المصلح : ماذا تعمل عندما تعود من الحقل ؟! كيف تشغل أوقات فراغك ؟! فتجيب الزوجة نيابة عن زوجها: يمضي الليل مع إخوانه في احتساء المشروبات والمخدرات .. ! ويدافع الفلاح عن نفسه بأن زوجته موتورة منه لأنه يريد أن يتزوج عليها زوجة أخري ! وعندما يسأله المصلح في عجب : ولِمَ تريد أن تتزوج بأخري ؟! . يجيب باستخفاف لا حد له : ولِمَ لا ؟! حالتي طيبة ، ونقودي كثيرة ، فلماذا لا أمتع نفسي ؟! ويتساءل المصلح : ولماذا لا تمتع نفسك بقراءة لكتاب جيد ، أو الإصغاء إلي إذاعة لطيفة أو الاستماع إلي موسيقي عذبة أو محادثة زوجتك في موضوع شيّق ؟!

– وهل هذه «« متع »» ؟! المتع الحقة أن تأكل ما لذَّ وطاب وأن تشرب ما يساعد علي اعتدال المزاج ، وأن تتزوج مثني وثلاث !!

علي هذا النحو ، أو ما يقرب من ذلك ، يصور أحد أدبائنا في إحدي مسرحياته الهوّة الثقافية والتخلف الثقافي الهائل في مجتمع من المجتمعات بحيث تتغير العناصر المادية ويظل الإنسان من الداخل كما هو !

ذلك لأن التغير المادي في المجتمع سهل ميسور ، فمن السهولة بمكان أن يتعلم الشخص العادي قيادة السيارة بعد تدريب لبضع ساعات ، لكن يصعب عليه جداً أن يقود بطريقة متحضرة ! لأن التغير

الثقافي في أي مجتمع بطيء للغاية ، فطبيعة الإنسان نفسه تجعله يقبل الانتقال إلي مسكن جديد أكثر نظافة من مسكنه القديم ، لكنه يرفض التخلي عن عادةٍ قديمة حتي ولو كانت سيئة ، إلي عادة أخري قد تكون أكثر منها فائدة !! أو يتخلي عن آرائه وأفكاره القديمة ؛ ليقبل آراء وأفكارا جديدة ، أو يتنازل عن عرف اجتماعي ألِفَه لسنوات طويلة في سبيل عرف جديد يفد عليه من الخارج ، فالإنسان دائم التحمس للقديم الذي ألفه واعتاد عليه : « والناس عبيد ما ألفوا » كما يقول المثل السائر !

وهكذا تحدث « الهوّة الثقافية » بين الجانب المادي المتطور ، والجانب الثقافي المتجمد ، فينشب صراع وتناقض حاد بين القديم والجديد . فالقيم الاجتماعية القديمة الموروثة لا تزال تعمل في نفوس الغالبية العظمي من أعضاء المجتمع ، وتوجه سلوكهم عن طريق العادات ، والتقاليد ، والأفكار ، والتصورات القائمة بالفعل في حين أن الجانب المادي المتغّير قد انتقل إلي مرحلة جديدة لم يعهدوها من قبل ، وكان المفروض أن تتغير التصورات القائمة ؛ لتلائم التطورات الجديدة التي حدثت في المجتمع ، لكن التصورات القديمة بقيت علي حالها : كتصور العلاقة مثلاً بين الرجل والمرأة في محيط الأسرة ، أو تصور العلاقة بين الرئيس والمرءوس في محيط العمل ، أو مكانة المرأة في المجتمع ، أو العلاقة بين رب الأسرة وأفرادها ، أو كيفية مواجهة الفرد أو الجماعة للمشكلات التي تعترضه ، أعني طريقة التفكير السائدة والتخطيط للمستقبل .. إلخ ، وإنك لتجد هذه « الهوّة » واضحة جداً علي المستوي الفردي والجماعي في آنٍ معاً .

تغيّرت حياتهم الخارجية ، لكن ينقصهم ما هو أهم : أن تتغير

النفس ، فثروة المال شيء وثروة النفس شيء آخر ، الحياة الأفضل هي المعني الأفضل للحياة ! إصلاح النفس هو الأساس ، فالنفس هي جوهر الإنسان ، هي المبتدأ وكل ألوان التقدم حدَّث عنها وخَبِّر .. ! وهي ما لا يستطيع إصلاحه شيطان ! .

هذا الجانب الثقافي هو معيار التقدم البشري ، فالحضارة سلوك وأفكار، وقيم ، ومثل عليا ، وطرق في التفكير ... إلخ وليس بما تملك من سيارات أو آلات أو أجهزة ! وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الفرنسي المعاصر جبرائيل مارسل G.Marcel ‹‹ ١٩٨٩ – ١٩٧٣ ›› في تفرقته الرائعة بين الوجود والملك Eter et Avoir بين ما تكون عليه حقاً وبين ما تملكه ! فمن الخطأ أن نعتقد أن قيمة الإنسان تعلو بمقدار ما تزداد ممتلكاته لأن الممتلكات مهما كانت قيمتها ، مادية أعني أنها تظل إضافات خارجية لا ترفع من قدر الإنسان في كيانه الداخلي قليلاً أو كثيراً . والكيان الداخلي هو الأكثر أهمية لأن ﴿ **الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (١١ – الرعد)

فالتغير الحقيقي هو التغير الداخلي ، من داخل النفس لا من خارجها ، وذلك يحتاج إلي إرادة أقوي من الشيطان !

***

«أزمـــة ثقافيـــة ... !»

شاهدتُ ، منذ أيام قلائل ، حواراً طريفاً بثه تليفزيون الكويت مع أديبنا الكبير «نجيب محفوظ» وكان مما استرعي انتباهي في هذا الحديث ما ذكره عن «الأزمة الثقافية» التي يمر بها المجتمع العربى الآن ، ولا سيما في مصر ، وقد ركز حديثه عن الكتاب الذي يعانى أزمة واضحة ، وكان مما قاله الأديب الكبير : أنه علي الرغم من أن لدينا الآن في مصر ما يقرب من خمسة عشر مليونا من المتعلمين ، فإن أى كتاب لا يُطبع منه سوي بضعة آلاف قليلة ، ربما ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف على الأكثر ! ـ ولا توزع إلا بعد سنين طويلة ! والسبب أن هذه الملايين الكثيرة لا تقرأ ، ولو أنها كانت تقرأ ، كلها أو حتي نصفها ، لارتفع توزيع الكتاب الواحد إلي مئات الألوف من النسخ ولنفدت كلها في عام واحد ! فكيف علل أديبنا الكبير هذه الظاهرة ... ؟! قال إنها ترجع إلي «التربية» فنحن علي حد قوله لم نعد نعلِّم الأطفال سواء في المدرسة أو البيت عادة القراءة أو الاطلاع أو نحبب لهم الكتاب ، وضرب مثلاً من حياته هو أيام الدراسة الثانوية فقال : إنَّ مصدر حبه للغة العربية كان من المدرسين ، فقد كان مدرس اللغة العربية بارعاً يشرح المقرر الدراسي ـ الذي هو بطبيعته جاف ـ بأسلوب سهل مشوق ، ثم يضرب ، في كثير من الحالات ، أمثلة بأبيات من الشعر الجيد السهل السلس لكي يلُقي الضوء على معانٍ غامضة أو أبياتٍ أخري صعبة ومعقدة ، فكانت الأبيات الجميلة التى يأتى بها المدرس من قراءاته الخاصة الخارجية عاملاً أساسياً فى حبه للغة ، وعندما استفسر

منه عن مصدر هذه الأبيات أحاله إلي كتاب « الكامل » للمبرد ... إلخ ، ثم استطرد أديبنا الكبير فيقول : إن ذلك لم يعد يحدث الآن ، فلا المدرس يقرأ ولا هو يوجه تلاميذه إلي القراءة !

وأنا أتفق مع أديبنا الكبير في تشخيص الأزمة الثقافية التي يمر بها مجتمعنا ، وإن كنتُ أختلف معه في جانب من « التعليل » الذي قدمه لهذه الظاهرة ـ لأنه فى ظنى « تعليل » يحتاج إلى « تعليل » آخر أسبق منه !

فإذا كان المدرس الآن لا يقرأ ـ ونحن طبعاً نستثني من هذا الحكم العام القلّة التي مازالت تحذو حذو أساتذتها القدامي – إذا ما قورن بالمدرس القديم ، فإن علينا أن نتساءل عن سبب هذه الظاهرة نفسها ولا نكتفي بالوقوف عندها !

في ظني أن الحالة الاقتصادية ، وما ترتب عليها من قلق بالنسبة للمستقبل ، – تأتي في المقام الأول : فالمدرس الذي لا يقرأ الآن كما كان يفعل سلفه في عهد تلمذة نجيب محفوظ – « معذور » لأن دخله لم يعد يسمح له بالحد الأدني المطلوب للحياة الكريمة ، فما بالك بتنمية مستواه الثقافي ! » – فهو لا يستطيع بهذا الدخل المحدود أن يواجه ضرورات الحياة لأسرته – دع عنك أن يتطلع إلي توفير مستقبل مأمون لهذه الأسرة ! وحتي إذا ما اتجه بعضهم إلي الدروس الخصوصية مصدراً للربح الإضافي ، فإنه يضع في ذهنه مواجهة مطالب الأسرة في المستقبل . « شراء شقة للابن أو توفير تكاليف الزواج للابنة ... إلخ » دون أن يفكر لحظة واحدة في رفع مستواها الثقافي ! لأن « القيم » و « المثل العليا » من حوله لم تعد ثقافية كما كانت من قبل !

والمسألة بالطبع ليست مقتصرة علي المدرس وإنما تمتد إلي «المتعلم» بصفة عامة . لقد كانت الطبقة الوسطي في العهد الذي يتكلم عنه نجيب محفوظ - وهو طبقة الموظفين - هي صاحبة الدخل المعقول ، ولذلك كان حصول المتعلم علي «وظيفة» يعني أنه ضمن مستقبلاً باهراً ، وأنه سوف يشق طريقه إلي الزواج وتكوين الأسرة بخطي ثابتة ومأمونة ! ولقد كانت هذه الطبقة هي التي تقرأ ، وكان من الطبيعي أن تضع دور النشر عينها عليها فتصدر لها الكتب الجيدة أو السلاسل الخاصة ، كما فعلت دار المعارف ، مثلاً ، عندما أصدرت سلسلة «اقرأ» الشهرية بثلاثة قروش وكتب فيها عمالقة الفكر والثقافة في ذلك ، الوقت . طه حسين ، والعقاد ، والمازني ، وتوفيق الحكيم ، وعلي الجارم ، وزكي نجيب محمود ... وغيرهم وغيرهم ، وكان من المألوف أن يتأبط الموظف في بداية كل شهر عدد «إقرأ» الجديد، ومعه جريدته اليومية التي كان يكتب فيها هؤلاء العمالقة أيضاً

ودار الزمن دورته وهبط دخل الموظفين إلي حد الكفاف ! وأصبح المال في يد طبقة أخري هي بطبيعتها لا تقرأ ، وأعني بها طبقة الحرفيين ومن لفَّ لِفَّهم من الانفتاحيين وتجار العملة ! وهي طبقة ارتفع دخلها ارتفاعاً واضحاً في البداية ، ثم جنونياً في عصر الانفتاح - دون أن يرتفع مستواها الثقافي درجة واحدة - ولك أن تقف قليلاً أمام الأرقام الهائلة في دخول «ميكانيكي» السيارات ، أو السباك مثلا ، وتسأل عن تأثير هذا التدخل في مستواه الثقافي - وستكون الإجابة : لا شيء علي الإطلاق ! ولهذا كان من الطبيعي أن يعاني المجتمع أزمة ثقافية حادة ، فيهبط توزيع الكتاب هبوطاً حاداً وتخسر «دار المعارف» نفسها ملايين الجنيهات سنوياً !

غير أن « أزمة الثقافية » ليست مقتصرة في الواقع علي هبوط مستوي الكتاب توزيعاً ومضموناً - فالثقافة ليست كتاباً فحسب ، وإن كان الكتاب أهم عناصرها ! بل إننا نستطيع أن نلاحظ الهبوط نفسه في ميدان الفنون جميعاً وللسبب نفسه : فمن هو « الموظف » أو «المتعلم » القادر علي متابعة أشرطة الكاسيت التي تملأ الأسواق ويدفع في كل واحدة منها أربعة جنيهات ؟! الواقع أن القادر علي ذلك هم أفراد الطبقة التي انتقل إليها المال - من الانفتاحي الصغير إلي الانفتاحي الكبير ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يظهر في الأسواق مطرب مثل « أحمد عدوية » ويفرض نفسه فرضاً بعد أن قاطعته الإذاعة سنوات طويلة ، وتملأ أغنياته الهابطة ، وكلماته المسفة كل شارع ! فأنت تجدها فى المقهي الشعبي ، وفي الراديو الذي يحمله عُمّال البناء أو الحفر أو غيرهم بل حتي في سيارات الأجرة التي تفرض علي ركابها الاستماع إليها ، رغماً عنهم وبالتالي ترديدها ، بفعل الإيحاء الخارجي - بغير وعي !!

ومن الأغاني الهابطة إلي الأفلام الهابطة التي يروجها « الڤيديو » والتي تعمل علي الكسب السريع بأية وسيلة ، وهناك كثرة من غير المثقفين في مصر يملكون هذا الجهاز ! وهناك أيضاً كثرة من الأفلام الهابطة تنتج لهذا الجهاز وحده ! والكسب السريع ، بغض النظر عن الوسيلة ، سمة أساسية للانفتاحي بصفة عامة ، ولابدّ أن نقول بهذه المناسبة أنك تجد من المفارقات الغريبة في عالمنا العربي اللامعقول أن تقوم شركات في دول الخليج - بهدف الكسب السريع أيضاً - بالإنفاق علي معظم المسلسلات التليفزيونية الهابطة واحتضانها وتوزيعها : من إستوديوهات عجمان إلي شركات الرياض إلي إستوديوهات أثينا - ثم تجأر هذه الدول نفسها بالشكوي من هبوط هذه المسلسلات وتعتبر الفن المصري « وحده » مسؤولاً عن هذا الهبوط !

وسبب آخر هام أيضاً لأزمة الثقافة التي نعانيها الآن هو « الحكم العسكري » الذي هو بطبيعته ضد الثقافة والمثقفين ، ذلك لأن الثقافة « فكر » والفكر حوار ، إنه كالتنفس : أخذ وعطاء ، وإذا انقطع هذا الحوار اختنق الفكر ومات ! في حين أن طبيعة القائد العسكري أن يُملي أوامره فينصاع الجنود للأمر حتي ولو كان خطأ ! فالطاعة هي الفضيلة الكبري للجندي إزاء قائده ! ولهذا رفع العسكريون – في جميع أنحاء العالم – مبدأ شهيراً هو « نفذ الأمر حتي ولو كان خطأ ، ثم لك بعد ذلك أن تشكو أو تتظلم ، إذا شعرت أن الأمر ترتب عليه ضررك ! » وينقل القائد العسكري إذا ما قُدِّر له أنى حكم ، ولا سيما في العالم الثالث الذي ينفرد فيه الحاكم بالرأى .

ينقل هذه العلاقة ؛ لتكون الأساس بين الحاكم والمحكوم ، وإذا كان لا يجوز للجندي أن يناقش ضابطه أو ينقده أو يطلب إليه إذا أخطأ أن يعتزر ، فإنه لا يجوز « للمحكوم » أن يفعل ذلك – ومن ثَمَّ كان من طبيعة الحكم العسكري أن يكره الثقافة وهو لا يروج لها إلا إذا حملت له قدراً من الدعاية والإعلام يفيد ولا يضر ! أو إذا أدت مباشرة إلي تدعيم بنائه ! أما إذا أحدث المثقف « قلقاً » بفكره ، فإن الحاكم لا يتردد أبداً في البطش به !

وقد يلجأ الحاكم العسكري مع المثقفين إلي الترغيب والترهيب علي طريقة « المعز لدين الله الفاطمي » يوم دخل القاهرة ووقف يخطب في الناس في الجامع الأزهر فسأله القوم عن أصله وفصله ، حسبه ونسبه ! فأخرج من جيبه قبضة من الجنيهات الذهبية ، بذرها علي رؤوس الناس في المسجد وهو يقول « هذا حسبي » ! ثم استل سيفه من غمده قائلاً : « وهذا نسبي !! » هكذا يفعل الحاكم

العسكري أحياناً فيجذب إليه مجموعة من المثقفين فيفسدهم بما يقدم لهم من مال ، أو منصب ، أو يعتدى علي مجموعة أخري فيقذف بهم في السجون أو المعتقلات – أو يدفعهم إلي الهجرة إن أسعدهم الحظ !

ما الذي يترتب علي هذا التحول الكبير : أعني ارتفاع دخل الطبقة العمالية دون أن يصاحبه ارتفاع في المستوي الثقافي : طريقة التفكير، العادات ، السلوك ... إلخ ، أعني دون أن يكون هناك ارتفاع « بالإنسان العامل » لصالح هذا الإنسان نفسه ! فضلاً عن الحكم العسكري الذي هو بطبيعته « عدو للفكر الآخر » – يترتب عليه تحول في « القيم » و« المثل العليا » في المجتمع فتختفي الحكمة القديمة « مَنْ طلب المعالي سهر الليالي » لأن الوزير الموجود الآن لم يفعل ذلك ، ومن ثم فهناك طرق أخري للوصول إلي المعالي !

ويترتب عليه أيضاً أن يلتقي العاملان في حادثة شهيرة رأيناها جميعاً : أن يقوم عمال مأجورون بضرب الدكتور عبد الرزاق السنهوري في مكتبه بمجلس الدولة ـ وهو الذي قالت عنه الموسوعة الميسرة بالحرف الواحد : « إنه قام بوضع التقنين المدني في كل من مصر والعراق وسوريا وليبيا ، ووضع أسس التقنيات الحديثة بالكويت» مجلد ٢ ص ١٠٢٤ – وينظمون مظاهرة صاخبة «فاضحة» تهتف في الشارع « يسقط العلم ، ويحيا الجهل !! » منظر لا أنساه لأنني شاهدته بنفسي ، وشاهده معي جميع الزملاء الذين كانوا في ذلك الوقت طلاباً أو أساتذة بجامعة القاهرة !!

ومعني ذلك كله أن « الثقافة » لم تعد هي المعيار الأول : إن عليها الآن أن تتوارى ، لتحل محلها معايير أخري جديدة يفرضها النظام الجديد . وهكذا يهبط رجل مثل « طه حسين » كان يقود أمة عام ١٩٢٦ وينقلها من عصر إلي عصر ؛ ليصبح محرراً في جريدة

الجمهورية يتحكم في رزقه كاتب ألمعي اسمه «« محمد أنور السادات »» ! وقصة «« الشيكات »» التي حُجِبتْ عن طه حسين لأن النظام لا يرضي عنه ، معروفة علي الأقل لدي المثقفين جميعاً ... ! والأمثلة لا أخر لها ! ويكفيك من البحر قطرة ؛ لتعرف ملوحته !!

والخلاصة التي نريد أن نصل إليها هي أن الأزمة الثقافية التي نعانيها ترجع إلي سببين رئيسيين ، إلي جانب أسباب أخري كثيرة – هما :

١ ـ دورة المال في يد طبقة لم تكن تهتم بالثقافة ... ولم يهتم أحد بتثقيفها ، إذ يبدو أن العناية بها كانت لأسباب سياسية خالصة ! .

٢ ـ والأمر الثاني الحكم العسكري الذي يكره بطبيعته الفكر والثقافة ، لأن الفكر حوار ، والثقافة جوهراها نقد وتنوير ، وذلك كله غير وارد في مثل هذا النمط من الحكم علي الإطلاق ! .

ولذلك كانت الرأسمالية الليبرالية تفاخر بأنها هي التي أنجبت «« ماركس »» و«« أنجلز »» و «« لينين »» في الوقت الذي لم يتسطع فيه الحكم الشيوعي المنغلق أن ينجب ماركس آخر ! لأن الحوار إذا توقف اختنق الفكر كما قلنا من قبل !

***

‹‹ تأثير الكلمة ... ! ››

قال فيما يشبه العتاب :

– أراك تبالغ كثيراً في انفعالاتك ! وهو أمر قد يدل علي عدم نضج عاطفي لا أرضاه لك ، ولا سيما إذا افترضنا وجود النضج العقلي . !!

– ماذا تقصد ... ؟!

أقصد أنك بالغت كثيراً في غضبك من ‹‹ الكلمة ›› التي قالها صديقنا فلان ، مع أنها مجرد كلمة لا تجلب شيئاً ، ولا تؤدي إلي شيء .. !! أه ! مجرد ‹‹ كلمة ›› .. ! لكن مِنْ الكلمات ، يا سيدى ، ما يؤذي القلب ، ويدمي الفؤاد !

– إلي هذه الدرجة . ؟!

– ألم تسمع حديث رسولنا الكريم ﷺ مع السيدة عائشة عندما قال لها : « يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته ..! » .

– وماذا كانت هذه الكلمة ؟!

– كانت عن السيدة خديجة ، وكل ما قالته عنها « .. رحمها الله » لقد كانت قصيرة !! ... أرأيت أن من الكلمات ما يدمي القلب ويجرح الفؤاد .. ومنها ما لو مزج بماء البحر لمزجه !! فالمسألة يا صديقى، ليست ‹‹ مجرد كلمة ›› تقال وانتهي الأمر ، بل المهم هو ما تحمله هذه الكلمة من شحنات مؤثرة !! ولكي تزداد فكرتي وضوحاً دعني أقُصّ عليك القصة الآتية : هناك قصة تروي عن فيلسوفنا الكبير الشيخ الرئيس ابن سينا مع القطب الصوفي الكبير سعيد أبي الخير ،

وملخصها أن ابن سينا كما هو معروف كان طبيباً ماهراً ، فهو صاحب كتاب «القانون» الشهير في الطب والذي قيل عنه أنه فخر الأطباء، ومعجزة الشرق الإسلامي ، لدرجة أن من كان يريد الشهرة من أطباء أوروبا كان يكتب علي كتابه عبارة تقليدية هي : « علي غرار كتاب القانون لابن سينا » – وأنا أروي لك ذلك ، كي أقول أنه كان من الطبيعي أن يستنكر الفيلسوف ما لاحظه من التجاء القطب الصوفي إلي علاج المريض ببعض الكلمات يقولها علي رأسه أو بعض الدعوات يتلوها ، وهو يلمس مكامن المرض.. إلخ ، وعندما التقيا قال القطب الصوفي لابن سينا :

– لقد سمعتُ أنك تستنكر علاجي لمريضي بالكلمات ! أصحيح هذا ؟!

– بلي ! وهل يمكن للكلمة أن تشفي مرضاً ؟!

– أجل هذا ممكن .. لكن ماذا تدري أنت من هذه الأمور .. إنك حمار .. ! فما أن سمع الفيلسوف هذه الكلمة حتي بدا علي وجهه الاحتقان الشديد ، فنفرت عروق وجهه ، وصعد الدم إلي عينيه وكان جسده كله يغلي .. ولاحت عليه أعراض الحالة المرضية التي يصاب بها المحموم ! وكان هذا هو مقصد القطب الصوفي من توجيه هذه الكلمة الجارحة إلي الفيلسوف ، فإن أبا الخير بادر بإنقاذ ابن سينا من هذه الحالة المؤلمة قائلاً :

– لا عليك مما سمعت الآن ، فأنا لم أقصد إهانتك ، لكنها مجردة «كلمة» ، أرجو أن تعتبرها «زلة لسان» ، ومن ثم فإني أرجو أن تغفر لي هذه الكلمة الجارحة غير المقصودة ، فنحن جميعا نعرف مكانتك ، ونحترم علمك ، ونقدرك حق قدرك ! عندئذ هدأ «ابن سينا» نفساً ، وبدأ يعود إلى حالته الطبيعية وها هنا قال له القطب الصوفى :

أرأيت ؟! لقد أردت فقط بهذا الذى حدث كله أن أذكرك بحقيقة

هامة ينبغي عليك ألا تغفلها ، وهي أن الإنسان قد تمرضه «كلمة» ، فترفع درجة حرارته ؛ لتصل بها إلي حالة المحموم ، وقد تداويه «كلمة» وتعود به إلي حالته الطبيعية التي كان عليها من قبل حتي ولو كان هذا الإنسان هو أعلم علماء عصره كالشيخ الرئيس ! ومن ثم فالمريض الذي تمرضه «كلمة» قد تشفيه «كلمة» أيضاً ..

– وهل توافق علي ما يقوله القطب الصوفي من أن الكلمة قد تشفي مريضاً .. ؟!

– نعم ! إذا كان ما أمرضه كلمة أيضاً .. ! صحيح أن المرض إذا كان يعود إلي أسباب عضوية ، فلابدّ أن يكون علاجه عضوياً أيضاً ، لكن المرض النفسي قد يشفي بمواقف نفسية ، وبعلاج نفسي أيضا ! وهذا هو السبب في أن زيارة الأضرحة قد تشفي من بعض الأمراض ، ذلك لأن المسألة هنا «نفسية خالصة» – إذ يعتقد المريض أن مجرد الزيارة سوف يجعله يبرأ تماماً ويتخلص مما هو فيه ، فإذا ما قام بها شفي تماماً ، وهي حالة أقرب إلي ما يسميه علماء النفس باسم «الإيحاء الذاتي» .

– لكنا نتكلم عن تأثير الكلمة لا عن الحالات النفسية ..

– أنا أقصد أن الكلمة قد يكون لها تأثير نفسي ، فقد ينطق بها الناطق لتكون ناراً تشوي الأنفس والأجساد معا ، فإذا هي النار التي أراد لها أن تكون . وقد ينطق بها ؛ لتكون نوراً يهدي إلي سواء السبيل فإذا هي النور الذي ابتغي لها أن تكون .. ! ولهذا فقد تحدث القرآن الكريم عن «الكلمة الطيبة» ـ وجعلها كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾ (آية ٢٤ – إبراهيم)

أما الكلمة الخبيثة فهى كشجرة الحنظل التى لا ثبات لها ولا فرع

ولا ثمرة .. ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار** ﴾ (آية ٢٦ - إبراهيم)

ـ كذلك يتحدث السيد المسيح عن تأثير مماثل للكلمة فما يخرج من الفم لا ما يدخل فيه هو الذي يدنسه : « ومن فضلة القلب يتكلم الفم » وأيضا « بكلامك تتبرر ، وبكلامك تدان » (متي١٢ : ٣٥ - ٣٧) وهو يشبه أيضا الكلام الطيب بالشجرة الطيبة التي تعطينا ثماراً طيبة !

- لقد تذكرت الآن ، بمناسبة تأثير الكلمة ، بيتًا لشاعر عربي يقول فيه :

فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب أولها كلام

وكأنما أراد الشاعر أن يكشف لنا عن خطر الكلام ، وإن كنت أعتقد أنه إذا كانت بداية الحرب كلاماً ، فنهايتها كلاماً أيضاً !

- أجل ! فهذا نوع من إيمان الشاعر العربي بقوة الكلام ، وبسلطان الكلمة ! بل لقد تجلي ذلك علي نحو أوضح في أعتقادهم بأن الكلمة يمكن أن تؤثر في « الحجر » لا في الإنسان فحسب ، وما قولك في قصة يقف فيها الإنسان أمام الجبل ؛ ليقول : « افتح يا سمسم ! » وإذا بالجبل يهتز ، ثم ينشق وتتحرك الحجارة؛ لتفسح الطريق أمام الداخلين إلي المغارة ، فإذا ما تفوه بكلمات أخري « أغلق يا سمسم » إذا بالجبل يعود كما كان !

- هذا حق ! لقد أعتقد الإنسان أن الكلمة يمكن أن تحرك الجبل وتؤثر فيه ! فما بالك بوقعها علينا نحن البشر ؟! ومن هنا جاء المثل الذي يقول « إن راحة الدنيا كلام في كلام » ! اللهم أحسن قولنا وأجعل وقعه علي القراء مريحاً ! .

«« القاريء وكاتبه ... ! »»

ينشأ ضرب من الألفة ، في العادة ، بين القاريء وكاتبه المفضل الذي أعتاد أن يطالع كل ما يكتب ، وتكون العلاقة بينهما أوثق وأرسخ كلما ازدادت قراءة القاريء لمؤلفاته ، حتى أنه ليبدأ في رسم صورة خاصة لهذا الكاتب في خياله ، وكثيراً ما تجيء الصورة خَلْقًا كاملاً للقاريء نفسه ، فكلما قرأ شيئا رسم جانباً من جوانب هذه الصورة ثم عاد إليها بين الحين والحين ؛ ليكمل «« الرتوش »» النهائية ، ويضع اللمسات الأخيرة ! تماماً كما يفعل الفنان الماهر!– وإلي هذا الحد فلا غرابة في الأمر ، لكن الغريب حقاً ، والعجيب حقاً ، أن القاريء عندما يتصادف ويلقي كاتبه : في محاضرة ، أو ندوة أو يتعرف عليه ، مصادفة ، في الطريق العام – يندهش عندما يجد أن الصورة التي رسمها بخياله للكاتب لا تنطبق علي عالم الواقع في هذا الجانب أو ذاك! بل الأغرب والأعجب أن ينحو القاريء باللائمة علي الكاتب نفسه، وكأنه هو المسؤول عن الفجوة التي حدثت بين الصورة المثالية التي أبدعها القاريء بذهنه ، وبين حقيقة الكاتب في دنيا الواقع ! فإذا كانت هناك ألوان من القصور ، أو جوانب معيبة في هذه الصورة المثالية فالسبب يرجع إلى الكاتب نفسه ، وكأنه كان من المفروض أن يجيء على غرار الصورة التى تخيلها قارئوه !

أذكر أن صديقاً ، ونحن طلاّب فى جامعة القاهرة ، كان يتمنى أن يرى أحد أساتذة الفلسفة القدامي في جامعة عين شمس ، فراح يبحث عن مواعيد محاضراته حتى عرفها ، واستعد للذهاب إلى الجامعة

للاستماع إلي محاضرة الأستاذ فأخذ يرتدي أفخر ملابسه ، واشتري ربطة عنق – لأول مرة في حياته – وضمخ نفسه بالطيب وكأنه عريس في ليلة عرسه ! وجلس في قاعة الدرس ينتشر ، وإذا بالأستاذ يدخل دافعاً الباب بقدمه ، حاملاً في يده جريدة تجلدت لكثرة ما علق بها من حبات العرق ، وهو يضع فيها كتاباً من كتبه ، ثم يجلس الي المنصة الرئيسية في القاعة ويفتح الكتاب ؛ ليقرأ منه دون أن يلتفت أدني التفاته إلي الحضور ! وأصيب الصديق بإحباط شديد ، أهذا هو فلان العالم والباحث الذي نقرأ عشرات الكتب له مؤلفة ومترجمة – في أعقد موضوعات الفلسفة ؟!

وأذكر أن زميلاً آخر من القطر السوري الشقيق كان يسألني ذات مرة عن هذا الأستاذ نفسه ، فقد قرأ له كثيراً ، ربما كل ما كتب دون أن يراه قط – ومن ثمّ فقد رسم له في ذهنه صورة خاصة لم أتبينها بوضوح ، لكني أدركتُ الهوة بين الصورة المثالية وبين « الأصل » الواقعي ، عندما طلب مني أن أعرفه بهذا الأستاذ ثم أخذه العجب ومال يسألني : أحقاً ما تقول ؟! أصحيح أن هذا هو فلان الذي ألف أكثر من مائة وخمسين كتاباً ؟! ومصدر العجب هنا هو ، كما قلت ، أن «الواقع» لم يأتِ مطابقًا « للمثال » أي للصورة المثالية التي رسمها الزميل في ذهنه ! لكن الأعجب أن يرد القصور إلي « الواقع » لا إلي الصورة المرسومة بريشة الخيال !

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول أن الفيلسوف الإنجليزي «هربرت سبنسر H. Spencer » (١٨٢٠ – ١٩٠٣) كان علي حق من هذه الزاوية ، عندما أغلق علي نفسه باب داره ، ورفض رفضاً قاطعاً السماح لأي من قرائه بزيارته أو التحدث معه ! وعندما سأله الإمام محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) وكان من القلّة القليلة جداً التي سمح لها « سبنسر » بزيارته – عن سبب هذه العزلة ، أجابه الفيلسوف بما

نقوله الآن : أن القاريء يرسم في العادة صورة مثالية بذهنه أو خياله الجامح للكاتب الذي يهواه ، أو المفكر الذي يقرأ له ، ويعجب بأفكاره ، وكثيراً ما تكون هذه الصورة رائعة بحيث يرتاح لها صاحبها ، لكنه إذا ما هبط بها إلي دنيا الواقع صدم صدمة كبيرة عندما يجد الهوة واسعة بين الصورة المثالية ودنيا الواقع الحي ... فلماذا نصّر نحن علي أن نصدمه ؟! دعه ينعم كما يشاء بالصورة التي رسمها بخياله لكاتبه !

وليست هذه العلاقة العجيبة بين « القاريء وكاتبه » مقتصرة علي فئة دون غيرها من القرّاء ، بل أن الأمر ليكاد يصبح ظاهرة عامة ، وشائعة بين جميع القرّاء وعلى اختلاف مستوياتهم الثقافية ، ومراكزهم الاجتماعية – فيروي مثلا أن « أبراهام لنكولن A. Lincoln» (١٨٠٩ – ١٨٦٥) محرر العبيد في امريكا الذي شن حرباً عنيفة علي الولايات المتحدة الجنوبية المتمردة – كان قد قرأ قصة الروائية الأمريكية الذائعة الصيت « هاريث بيشرستو ١٨١١ – ١٨٩٦ H.B. Stowe » . « كوخ العم توم : أو الحياة وسط المساكين » وكانت قد أحدثت ضجة هائلة وقت ظهورها .

وعندما التقي « لنكولن » السياسي الكبير بالروائية « ستو » لأول مرة عندما قدمها له أحد الأصدقاء التفتَ إلي الرجل دهشاً وهو يقول : « أهذه هي المرأة الصغيرة التي أشعلت نار الحرب الكبيرة..؟!» مشيراً إلي الدور الهائل الذي لعبته قصة « كوخ العم توم » عندما ألهبت الحماس وأثارت المشاعر نحو تحرير الرقيق في الولايات المتحدة!

بل قد تحدث هذه الهوة بين الواقع والمثال لعدد كبير من الناس وهم جميع ! فعندما كتب الشاعر الألماني « شيللر J.C. Shiller » (١٧٥٩ – ١٨٠٥) مسرحية « قُطّاع الطرق » ومثّلت لأول مرة علي المسرح في مدينة « مانهايم » بحضور المؤلف الشاب الذي كان يعمل وقتها طبيباً في الجيش ، ضجت القاعة بأصوات الاستحسان ،

وارتفعت الأيدي بالتصفيق الحاد ، وفقد المشاهدون السيطرة علي أنفسهم أمام عمل جديد يتأجج بالعبقرية ! وتصور من سعوا إلي التعرف علي صاحب هذه العبقرية الوليدة أنهم سيلقون شابا متأجج الحماس ، ملتهم الحديث ، ينظر كالصقر ، ويختال بقوته وسلاحه ، من نوع بطل مسرحيته التى شاهدوها فإذا بهم يجدون أنفسهم أمام شاب معتدل خجول شديد التواضع !

ولقد وصفته فتاة اسمها « مينا شتوك Minna Stock » فقالت : «رأيت شاباً أشقر الشعر أزرق العينين متواضعاً ، تمتليء عيناه بالدموع ، ويتملكه الخجل فلا يكاد يجرؤ علي مبادرتنا بالحديث !! » بل يروي عن شيللر أنه كان يختار الطرق التي يعتقد أنه سيكون فيها وحيداً بعيداً عن الأنظار ، والشوارع غير المطروقة التي لا يسير فيها أحد !!

فليس الكاتب مسؤولا في الواقع ، عن الصورة المثالية التي يرسمها له القاريء بخياله ، ويضيف إليها كل ألوان الحسن والجمال التي حبها وينبهر بها ، وإنما هي مسؤولية القاريء نفسه الذي ينبغي عليه أن يفصل بين الأفكار والآراء التي يقرأها ويعجب بها وبين شخصية كاتبها ، إنه يقبل أو يرفض ، يعجب أو يدهش أو ينفرد بما يشاء ، من الآراء والأفكار وليست الأفكار متحدة مع شخصية قائلها فى هوية واحدة !

ومهما يكن من شيء ، فإنني لأرجو من القاريء الكريم ، إنْ هو أصرَّ علي رسم صورة لكاتب هذه السطور أن يترفق بها ويتواضع ويتبسط إلي أقصي حد حتي لا يخيب أمله ويصاب بإحباط شديد للهوة التى يجدها بين الواقع والمثال !

***

« تشجع ... واعرف ... ! »

استغرقتني هذا الأسبوع قراءة مقال ممتع للفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل كانط « ١٧٢٤ - ١٨٠٤ » عن « معني التنوير » الذي ساد القرن الثامن عشر . والذي عاش كانط في قلبه ولخصه بفلسفته النقدية ، فكان أعظم تعبير عنه ! . ولقد ترجم المقال إلي اللغة العربية ترجمة دقيقة وقدَّم له بمقدمة شيقة صديقنا الدكتور عبد الغفار مكاوي، وكأنه بذلك يستشعر ما نتعطش إلي معرفته ، ذلك لأننا في مجتمعنا العربي ما زلنا حتي الآن نكافح لكي نبقي في عصر التنوير الذي بدأ في الثلث الأخير من القرن الماضي متجهاً في البداية وجهة « التنوير الديني » علي يد الأفغاني ومحمد عبده ، ثم متجهاً في أوائل القرن الحالي وجهة علمية علي يد شبلي شميل وإسماعيل مظهر وسلامة موسي ، ثم تتسرب أشعة التنوير ؛ لتضيء جوانب مختلفة من حياتنا الثقافية : في الفلسفة ، والأدب ، والفن .. إلخ فتظهر حركة شاملة تستهدف النهوض بالحياة الفكرية العربية في كل أرجائها .

ومن هنا كان من الأهمية بمكان أن نعرف ما المقصود بالتنوير ؟! يعرفه كانط بأنه : « خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه ، وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان أخر .. ! » بمعني أوضح وأصرح التنوير في رأي كانط هو رفع الوصاية عن الإنسان ، والاعتراف بأنه قادر علي التفكير المستقل ، وأن من حقه أن يتسخدم عقله استخداماً حراً بلا خوف ولا قلق ! ومن الطريف أن كانط يلخص عصر التنوير كله فى عبارة للشاعر الروماني

«هوراس» تقول : «تشجع .. علي المعرفة !» وهي عبارة يمكن أن تكون أمراً مطلقاً يتوجه به الفيلسوف إلي كل إنسان مازال يتخبط في ظلمات العصور الوسطي وتسيطر عليه السلطة أياً كان نوعها : السلطة الدينية ، أو السلطة المدنية ، أو سلطة النصوص والشروح .. إلخ . فهي دعوة إلي التفكير الحر المستقل بعيداً عن الوصاية التي عاني منها الإنسان في الفترات السابقة !

والحق أنني وقفت طويلا أتأمل هذا الشعار الذي لخّص فيه كانط عصر التنوير «تشجع علي المعرفة !» أو «تشجع ... واعرف !» أو «انهض .. واعرف !» انهض من السبات والاسترخاء والاعتماد على الحلول الجاهزة التي يقدمها لك الآخرون وأعرف «بنفسك ولنفسك» - أقول إننى وقفت أتأمل هذا الشعار لسببين : الأول أننا مازلنا في المجتمع العربي في حاجة ماسة إلي رفعه وكتابته في كل شارع ، وعلي كل جدار ، وتدريسه في كل مدرسة ومعهد حتي ينهض الفرد - والمجتمع ! .. لينفض عن نفسه ما ران عليها من جهل وخرافة ، ويبدد ما حوله من ظلمات القرون التي سادها الحكم التركي بصفة عامة ! والسبب الثاني : إننى أخذت أسأل نفسي عن المعني الذي يتضمنه هذا الشعار العجيب «تشجع .. واعرف !» هل المعرفة تحتاج إلى شجاعة؟! وكيف يكون ذلك .. ؟!

لا تبدأ المعرفة إلا نتيجة مشكلة ، غير أن المشكلات لا تفرض نفسها بنفسها علي الإنسان ، وإنما الإحساس بالمشكلة هو وحده الذي يوقظ المعرفة ، وهو الدليل علي بزوغ الروح المعرفية الحقة ، ومن هنا قيل إن كل معرفة هي حل لمشكلة ، أو بمعني أخر هي إجابة عن سؤال، وإذا لم يكن ثمة سؤال فلن تكون هناك معرفة - وهذا يفسر لك لِمَ لا

يستفيد الطلاّب عندنا مما يعرض عليهم من معلومات وثقافة ؟ لأن لديهم بالفعل من الأجوبة أكثر بكثير مما لديهم من الأسئلة !

المعرفة إذن تحتاج إلي طرح السؤال ، وطرح السؤال يحتاج إلي شجاعة ! لقد رفع سقراط العظيم شعاره «« أيها الإنسان ، اعرف نفسك! »» ودار في الأسواق يوقظ الناس لكي يعرفوا وكان يقول عن نفسه «« أنا ذبابة الخيل التي أرسلها الله إلى لاناس لكي تزعجهم ، وتباغتهم ، وتوقظهم من سباتهم العميق »» ! ولهذا وُصِفَ سقراط بأنه «« الرجل الذي جرؤ علي السؤال ! »» أرأيت كيف يتطلب طرح الأسئلة «« جرأة »» وشجاعة !

ـ إن المعرفة تؤدي في النهاية إلي بناء الشخصية المستقلة التي تفكر لنفسها وتجمع أفكارها بنفسها ، والاستقلال يعني الانفصال، بمعني ألا تكون الشخصية الجديدة مجرد تكرار للشخصية القديمة أو «« نسخة »» منها ، وإنما لابد لها ، علي العكس ، أن تقف في وجه القديم؛ لتقول : لا ! أنا إنسان يريد أن يعرف نفسه ، ويكون شخصية خاصة به لا أن يكون فرداً في قطيع ، ومثل هذا الموقف الصلب في مواجهة الماضي من ناحية ومواجهة الحاضر المتعفن من ناحية أخري يتطلب شجاعة لا تخفى !

– المعرفة التي نتحدث عنها الآن ، والتي تحتاج إليها مجتمعاتنا العربية ، لابدّ أن ترتكز علي الحرية ، وليست ممارسة الحرية مسألة هينة ذلك لأن الوجه الثاني من العملة بالنسبة للحرية هو المسؤولية ، أنت حر فأنت إذن مسؤول ، مسؤول عن أفعالك ، ومسؤول عن أفكارك التي جمعتها بمحض اختيارك ! والقدرة على تحمل المسؤولية تحتاج إلى شجاعة قد لايقوى عليها الكثيرون ! ولهذا نجد من الناس منْ

يهرب من ممارسة الحرية ، الذى هو نفسه هروب من تحمل المسؤولية ! ذلك أن تسأل نفسك لِمَ تحتاج كل « ورقة » رسمية فى بلادنا إلى توقيعات لا حصر لها ؟! لأن كل موظف لا يريد هو نفسه أن « يتحمل المسؤولية » يعني لا يريد أن يكون حراً : إنه يهرب من ممارسة الحرية، فيضطر إلي إلقاء المسؤولية علي غيره ، يريد من الآخرين أن يمارسوا هم الحرية ! وهكذا تستطيع أن تحكم وأنت مطمئن بأن « البيروقراطية » تعني « العبودية » . وأن المجتمع البيروقراطي مجتمع من عبيد يرفضون ممارسة الحرية وتحمل المسؤولية !

ـ المعرفة التي نتحدث عنها ويحتاج إليها مجتمعنا العربي – هي المعرفة العلمية التي تفسر الأشياء والظواهر تفسيراً علمياً لا خرافياً ، ونحن نخطيء كثيراً عندما نظن أن هذه المعرفة الجديدة التي ننشدها سوف تحل فى ذهن فارغ أو أن هناك إنساناً يمكن أن نقول عنه أن ذهنه « صفحة بيضاء ! » ، وبعبارة أخرى أننا قد نتصور ، خطأ ، أنه يمكن أن يكون هناك إنسان يحمل عقلاً بلا بنية ولا معارف ! ومن ثم نذهب إلي القول بأن المعرفة تخرج من الجهل كما يخرج النور من الظلمة ..

ويفوتنا كما يقول الفيلسوف الفرنسي المعاصر جاستون بشلار « ١٨٨٤ – ١٩٦٢ » G. Bachelard « إن الجهل إنما هو نسيج من الأخطاء الموضوعية الصلبة المتماسكة ، وهكذا لا نضع في أذهاننا أن الظلمات الروحية لها بنية .. Structure ، وأن كل معرفة موضوعية سليمة يجب أن تكون تصحيحًا لخطأ ذاتى ! » فالإنسان الجاهل ليس جاهلاً لأن ذهنه يخلو من كل معرفة ، بل هو كذلك لأن لديه معارف خاطئة ، والمجتمع المتخلف ليس متخلفًا لأنه لا يفسر ظواهر الطبيعة أو أحداث

التاريخ ، وإنما هو متخلف لأن لديه تفسيرات ومعارف كلها خاطئة ! فالمعرفة العلمية الجديدة سوف تحل محل معرفة قديمة غير علمية – وأنت عندما تقول للفرد تشجع .. واعرف ! فإنك تقول له تشجع وتخلص من المعارف القديمة ، كن جريئاً واطرح ما لديك من معلومات خاطئة !

– وفضلاً عن ذلك كله فإن المعرفة الجديدة تحتاج إلي صبر ومعاناة وجلد، تحتاج إلي إرادة قوية لا تخاف عندما تصحح ما لديها من أخطاء، لديها الجرأة في أن تضع لنفسها قيماً ومثلاً عليا جديدة ، إرادة تسهر الليل ؛ لتقرأ وتطالع لا لتسمر مع الأصدقاء ، تفضل الكتب علي الوجبة الدسمة ، تقول لنفسها إن «غذاء الفكر» أهم من «غذاء البدن» لأن الإنسان إنما يكون إنساناً لأنه «يفكر» و«يعرف» و «يعقل» – وليس لأنه يأكل ويشرب ويمارس الجنس !

نعم ! المعرفة تحتاج إلي إرادة شجاعة تنقل الفرد من حظيرة الحيوان إلي مرتبة الإنسان ! ومن ثم فإن الشعار الذي يقول لك «تشجع .. واعرف !» يقول لك في الوقت نفسه «تشجع واستخدم عقلك !» تشجع .. وفكر .. باختصار «تشجع .. وكن إنسانا !» .

***

«« رهـــــان .... ! »»

احتدم النقاش طويلاً بين جماعة من الأصدقاء في ليلة من ليالي الخريف حول «« عقوبة الإعدام »» ، وذهب أغلبهم إلي القول بأنها عقوبة لا إنسانية ، فهي فاسدة ومنافية للأخلاق ، ولهذا ينبغي إلغاؤها على أن تحل محلها عقوبة السجن المؤبد !

لكن أحد الأثرياء البارزين تدخل في الحوار قائلا : أنا لا اشاطركم الرأي ، فعقوبة الإعدام في رأيي أكثر إنسانية من السجن المؤبد ؛ ذلك لأنها تقضى على حياة المرء دفعة واحدة ، فى حين أن السجن يقضي علي حياته بإيقاع بطئ ! وقال قائل : الحق أنهما معاً فاسدتان، فهدفهما واحد هو إزهاق روح بشرية بسرعة أو ببطء ! ولما كان الإنسان ليس هو الخالق فلا حق له أن يأخذ مالم يعط ، واشترك في الحديث محام شاب في منتصف العقد الثالث من عمره فقال : لو خيرت بين عقوبتي الإعدام والسجن مدي الحياة لما اخترت سوي السجن ، فالحياة حتي وإن كانت سيئة تعيسة فهي أفضل كثيراً من الموت !

غضب الثري من فكرة المحامي الشاب فرد في انفعال ظاهر :

– ليس صحيحًا ما تذهب إليه – فأنا أراهنك بمليونين من الجنيهات ، إنك لن تستطيع البقاء في السجن خمسة أعوام !

فأجاب المحامي بهدوء : وأنا أقبل الرهان إذا كنت جاداً ، ولن أبقي في السجن خمسة أعوام كما تقول بل خمسة عشر عاماً !

وانقلب النقاش بين الأصدقاء إلي مغامرة جنونية ، عندما وافق الثري علي اقتراح المحامي الشاب ، وأشهد الحضور وهو يقول .. أنتم شهود ، لقد راهنت بمليونين ، وأنا أقامر بهما في سبيل تنفيذ الفكرة!

– فأجاب المحامى : أنت تقامر بمليونين ، وأنا أغامر بحريتى ! .

وأعدَّ الثرى حجرة خاصة في حديقة قصره يسجن فيها المحامي، وعَيَّن لهذا السجن «الخاص» حارساً علي مدار الساعة ! وقضي المحامي في هذا السجن الاختياري خمسة عشر عاماً لم يخطو خارجه خطوة واحدة ، ولم تقع عيناه علي مخلوقات فقد كان يحق له فقط مطالعة الكتب ، وكتابة الرسائل ، والشراب ، والتدخين ! وكانت صلته الوحيدة بالعالم الخارجي نافذة بقضبان حديدية أشبه بما هو قائم في السجون ، وكان عليه أن يطلب حاجاته بواسطة بطاقة يكتب عليها ما يشاء !

ومن المذكرات التي كتبها المحامي السجين ، نتبيَّن أنه تألم كثيراً من عزلته خلال السنة الأولي . أما السنة الثانية فقد اقتصرت طلباته علي الكتب الكلاسيكية ـ دون سواها ... وفي غضون أربعة أعوام كان قد التهم مئات المجلدات ! وبعد انقضاء عشر سنوات علي سجن المحامي عكف علي دراسة الكتاب المقدس ، ثم استهوته مطالعة تاريخ الأديان ، وخلال سنوات سجنه الأخيرة قرأ كثيراً في العلوم الطبيعية ، وفي الشعر ، والطب ، والرسائل الفلسفية !

انقضت المدة المتفق عليها ووقف الثري يخاطب نفسه : غداً ظهراً تعود إلي السجين حريته ، وسأضطر إلي دفع مليونين من الجنيهات، وفي ذلك خراب ما بعده خراب ! عندما بدأ الرهان لم يكن هذا المبلغ يساوي شيئاً أما اليوم فلم تعد ثروتي كلها كافية لسداده !

في الثالثة صباحاً خرج الثري العجوز إلي حديقة القصر عازماً علي قتل المحامي السجين حتي يتخلص نهائيًا من هذا المأزق ! ونادي حارس السجن فلم يجيبه فاستبشر خيراً وهو يقول لنفسه : حسناً ! إذا قتلته الآن فسوف تحوم الشبهات حول الحارس !

وهكذا دخل الثري العجوز السجن متسللاً ؛ لينفذ خطته ، فوجد السجين يجلس إلي منضدته وقد راح في سبات عميق ولمح بجواره رسالة كتب إلي الرجل الثري «« ظهر غد أستعيد حريتي ، لكني أود أن أقول لك بضع كلمات .. إنني أُعلن أمام الله ، إنني ازدري الحياة التي تعيشونها .. لقد قرأتُ خلال خمسة عشر عامًا آلاف الكتب التي مكنتني من العيش في حياة أخري أجمل وأخصب من حياتكم الفارغة: لقد أنشدتُ الأغاني ، وتنزهت في الغابات ، وأحببت نساء فاتنات ! لقد تسلقت الجبال واستمتعت بالفجر ، وغروب الشمس إنَّ الكتب التي قرأتُها منحتني الحكمة الحقة ، ولهذا اعتبرتُ كل ما لديكم زائف وسخيف ، ولكي أبرهن لك عن احتقاري هذا لدنياكم ، فأنا أتنازل عن المليونين من الجنيهات التي أستحقها ، والتى يسعى الناس جميعاً إليها كأنها الطريق إلي الجنة ! لقد قررت أن أغادر السجن فور انتهاء الخمسة عشر عاماً المتفق عليها وأنا حزين ، لكني مضطر كي أحول بيني وبين الحصول علي هذا المبلغ !

***

تلك قصة قصيرة كتبها أعظم كتاب القصة القصيرة في روسيا «أنطوني تشيكوف Anton Chekhov «« (١٨٦٠ - ١٩٠٤) الذي كان يعالج موضوعاً رئيسياً في مئات من قصصه القصيرة ، هو : العزلة المطلوبة علي نحو جوهري للإنسان ـ وهو هنا كما لو كان يردد مع غاندي : «« مَنْ تمكنتْ منه عادة القراءة سهلتْ عليه الوحدة ، وهانت عليه عزلة السجن ! »» .

والمغزي الذي يريده تشيكوف هو إبراز أهمية الثقافة عامةً ، والقراءة خاصة ، فالواقع أن القراءة تضيف إلي عمر الإنسان أضعافاً

مضاعفة من السنوات بحسب القدر الذي يقرأه ونوعية هذه القراءة ، فأنت تضيفه إلي خبراتك وأفكارك إضافات ضخمة توسع من آفاق دنياك ولاسيما إذا كنت تقرأ لعمالقة المفكرين والأدباء من أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا وابن رشد ، وديكارت وكانط وهيجل في ميدان الفلسفة ، ودانني وشكسبير والجاحظ والبحتري وأبو تمام والمتنبي وأبو العلاء في ميدان الأدب وغيرهم وغيرهم ، فأنت تضيف إلي عمرك عمراً جديداً من حيث الطول والعرض والعمق ، فإذا كنت تستخدم كلمة « الحرية » فارجع إلى معناها عند « لولو » « ورسو » « ومل » وغيرهم ؛ لتجد خصوبةً وعمقاً ، لم يكن لك بهما عهد من قبل ، ولتضيف خبرات هؤلاء الفلاسفة العظام إلي خبرتك أنت فتثري! أكان عبثا أن يفتتح القرآن العظيم بصيغة الأمر : « اقرأ ؟ » وأن تكون القراءة والكتاب والعلم أول خطاب إلهى يوجه إلي المسلمين .. ؟! ألا فليقرأ كل مَنْ له عينان ..!!

***

تاسعاً : الفرد والمجتمع

١ - أنتجونا تطرح المشكلة ... !

٢ - القضاة القتلة ... !

٣ - وفاة أعزب ... !

أنتيجونا تطرح المشكلة ... !

أما أنتيجونا فهي بطلة إحدي المسرحيات الشهيرة للشاعر اليوناني العظيم « سوفكليس Sophocles » (٤٠٦ ق . م) . أما المشكلة التي تطرحها فهي لو حدث تعارض بين أخلاق الفرد وقوانين الدولة فأيهما يطيع ؟ أيجوز للمواطن أن يسلك وفقا لما يمليه عليه ضميره بغض النظر عن القانون ؟ أم أن عليه أن ينفذ ما تأمره به قوانين الدولة ضاربا عرض الحائط بأية مشاعر أخلاقية تفرضها قيم الأخلاق ؟ تلك هي المشكلة باختصار شديد .

وتدور القصة حول شقيقي أنتيجونا Antigone : الأول هو إيتوكليس Eteocles وهو شاب وطني مخلص لبلاده امتاز بالشجاعة والإقدام فوقف مدافعًا عن قومه حتي استشهد فاستحق أن تقام له الطقوس الدينية الواجبة التي تؤدي لعظماء الرجال !

أما الثاني : وهو أساس المشكلة ، فهو بولينيس Polynices ، شقي طُرد من وطنه ، فانضم إلي أعداء البلاد ، وعاد إليها ومعه جيش من العدو أراد أن يدمر المدينة ويحرق أسوارها ، لكن الشقيق الشرير قُتل في المعركة وبدأت المشكلة في الظهور : قوانين المدينة تُحرّم دفن جثته لأنه خائن – كما تحرم البكاء عليه ، أو إقامة أية طقوس جنائزية علي روحه ، بل إنها تُلزم الجميع أن يطرحوا جثته في العراء فريسة الوحوش وبغاث الطير !

وتبدأ المسرحية بأنتيجونا ، وهي تحاول إقناع شقيقتهاإاسمينا Ismnene بمساعدتها في دفن جثمان شقيقهما البائس مع علمها بالعاقبة « : إن منْ يخالف أوامر المدينة وقوانينها سوف تكون عقوبته الموت رجماً بالحجارة – تلك هى قوانين المدينة أعرف ذلك جيداً ! لكن هناك الواجب

: واجب الأخوة وما يفرضه من إلزام ، فهل أنت خليقة بهذا الدم الطاهر أم لا..؟! ››

لكن شقيقتها ترفض الاشتراك في هذا العمل الذي يخالف قوانين البلاد فتعلن ‹‹ أنتيجونا ›› أنها سوف تقوم به وحدها ، مؤدية ما يفرضه عليها ضميرها ، وما تقره الآلهة : ‹‹ سوف أحاول أنا تأدية الواجب ، وإقامة القبر لهذا الأخ العزيز ، ولئن مِتُّ فسوف أرقد بجوار أخي الذي أحبه ! ›› ، وتقوم فعلاً بتنفيذ فكرتها وتدفن جثمان شقيقها إرضاء للضمير ، ولقانون السماء محطمة قوانين البشر ! .. وهكذا يكون موقف أنتيجونا ، ممثلاً ، للواجب والضمير والأخلاق . ويجيء علي النقيض منه موقف كريون Creon الملك الذي يعلن منذ البداية أنه يمثل الدولة ، وما فيها من قوانين ونظم ينبغي طاعتها حتي ولو تعارضت مع الأخلاق الشخصية ، ولهذا يعلن بوضوح شديد أنني لا أستطيع إلا أن ازدري ذلك الذي يؤثر منفعة الصديق علي منفعة الوطن! وهكذا إذا ما حدث تعارض بين الواجب في القانون ، بين الأخلاق والسياسة ، فأنه بوصفه حاكماً عليه أن يتخذ جانب القانون والسياسة يقول : ‹‹ لن يكون صديقًا لى من هو عدو للدولة ، فإني واثق كل الثقة أن سلامتنا من سلامة الدولة ، وأن وجود الأصدقاء – سهل ميسور إذا جرت سفينة المدينة آمنة هادئة ›› .. !

وتصل المواجهة إلي قمتها بين الضمير والأخلاق من ناحية، والقانون والسياسة من ناحية أخري عندما تلتقي ‹‹ أنتيجونا ›› ممثلة الأخلاق بالملك « كرين » المسئول عن تنفيذ قوانين المدينة ، ويسألها الملك : كيف جرؤت علي مخالفة قوانين الدولة التي تُحرم دفن المارقين وكيف تؤدي الشعائر الجنائزية علي جثته ؟! وتجيب بأن هناك قانوناً أعلي من كل قوانين الدولة هو قانون الواجب الذي يحتم عليها أن تفعل ذلك :

ـ «« لست أدري كيف تستطيع أنت أيها الرجل الفاني ، أن تلغي قوانين السماء الخالدة غير المكتوبة وأن تعبث بها ؟ ! إن هذه القوانين لم توجد اليوم ولا الأمس ، ولكنها خالدة أبدية ، وليس هناك شخص يستطيع أن يعلم متي وجدت هذه القوانين غير المكتوبة التي لا يعرف أحد مصدرها هي التي ينبغي أن يكون لها الغلبة علي قوانين الدولة ؟! ألم يكن من الحق علي أن أذعن لأمر الآلهة دون أن أخشي أحداً من الناس .. ؟! لقد كنتُ أعلم أن العقوبة هي الموت ... لكني كنت أتوخي لما هو أشد لنفسي إيذاء لو أني تركت بالعراء أخًا حملته الأحشاء التي حملتني .. ! »»

ويشيد سوفكليس بأخلاق «« أنتيجونا »» عندما تعزف الجوقة : هذه هي أخلاق أديب تظهر واضحة : في هذه الأخلاق شدة لا تعرف اللين، وعزّة لا ينال منها الشقاء !!

***

هذه هي المشكلة التي تطرحها «« أنتيجونا »» عندما تتعارض مفاهيم الأخلاق مع قوانين الدولة : أيهما نطيع .. ؟ أنضمت «« أنتيجونا »» إلي جانب الأخلاق علي أن مفاهيمها لم يضعها البشر ، وإنما هي خالدة مطلقة وليست نسبية ، وهل يمكن أن يكون الصدق ، والأمانة ، والوفاء ، والصداقة ، والإخاء ، والتعاون ، والشجاعة والإخلاص والمحبة ... إلخ إلخ . فضائل عند قوم ورذائل عند آخرين ؟ ! كلا إنها واحدة علي الدوام وهي واجبة ملزمة لسلوك الناس في كل عصر ! وهذا حق !

وليست المشكلة التي طرحتها «« أنتيجونا »» قديمة عفي عليها الزمان ، لكنها لا تزال قائمة حتي يومنا الراهن : فهب أن شقيقًا لك أرتكب جريمة ـ لا قدر الله !ـ وأراد أن يختبيء عندك طالباً حمايتك من الشرطة .. أتقوم بحمايته كما تفرض عليك واجبات «« الأخوة »» أم تسلمه إلى الشرطة كما تحتم قوانين الدولة ؟ ! قد تختلف إجابات

القراء ، لكنى أعتقد أن الإجابة الصحيحة هي أن ينبغي تسليمه إلي الشرطة واحترام قوانين الدولة ، ذلك لأن شقيقك ارتكب جريمة تستوجب العقاب ، ومن ثم لابد أن ينال عقابه ، ومن ناحية أخري فقوانين الدولة لم توضع لمصلحة شخص ما ، وإنما هي شرّعت لصالح الجميع ، ومن هنا وجب تغليب المصلحة العامة علي المصلحة الشخصية ، لكن قد تسأل وأين هي في هذه الحالة ومتطلبات الأخلاق ؟ أين واجبات الأسرة ؟! أين روابط الأخوة ؟! وأجيب من جديد : أن الأسرة الصغيرة تدخل ضمن دائرة الأسرة الكبيرة ، وبمعني آخر إن ولاءك للأسرة إنما يقع داخل ولاءك للدولة وليس العكس ، لأنك تستطيع أن تعيش بغير أسرة ، ولكنك لا تستطيع أن تعيش بغير دولة!

إن القيم الأخلاقية ليست علي درجة واحدة ، وإنما يمكن أن تعطل قيمة أخلاقية أو « توقف » أو « تعلّق » في سبيل قيمة أخلاقية أعلي ، فمثلاً يجوز لي أن أكذب علي مجرم يجري وراء شخص يريد قتله ويسألني عن المكان الذي اختبأ فيه ، فأقوم بتضليله ، وأنا في هذه الحالة قد عطلت قيمة « الصدق » لكن في سبيل قيمة أعلي هي المحافظة علي حياة إنسان (*)! وقل مثل ذلك في المثال الذي ضربناه تواً: إن القيمة الأخلاقية التي تفرض عليك مراعاة صالح الأسرة وروابط الأخوة يمكن أن تعطل « مؤقتاً » في سبيل قيمة أخلاقية أعلي هي صالح المجتمع ككل ! ومن هنا تستطيع أن تقول في اطمئنان : لقد أخطأتْ « أنتيجونا » في مخالفتها لقوانين المدينة ، وأصاب « كريون » في محافظته علي تطبيق القانون ، حتي ولو طبق علي خطيبة ابنه (وكانت أنتيجونا بالفعل مخطوبة لابنه !) .

ويقدم لنا تاريخ الفلسفة موقفاً آخر تغلبت فيه المصلحة العامة أو

(*) راجع مقالنا « الكذب الأبيض » ص ٣١٨ من هذا الكتاب .

ذلك عندما نجح تلاميذ سقراط في رشوة السجّان واتفقوا معه علي تهريب أستاذهم من سجنه (وكان قد حكم عليه بالإعدام في قضية ظالمة ومحاكمة جائرة !) لكن سقراط العظيم رفض أن يهرب من السجن وردّ علي تلاميذه بعبارته الشهيرة : «إنَّ علينا أن نطيع قوانين المدينة ! .. ويمضي سقراط في محاورة « أفلاطون » مفسرا رأيه : « هب أن قوانين أثينا سألته : لماذا يحاول أن يثور عليها فماذا هو قائل ؟ أيقول لأنها أساءت إليه ؟ عندئذ قد تجيبه القوانين بأن ذلك يخالف ما بينهما من اتفاق وعهد ، فإنه قد جاء إلي هذا العالم في ظلها، ونشأ وترعرع في كنفها فإذا لم تكن توافقه فلماذا لم يترك أثينا ويقصد إلي حيث يشاء من بلاد الأرض حيث تطيب له القوانين ؟ ! ولكنه علي عكس ذلك عاش في أثينا سبعين عاماً متصلة ، وهو أمد طويل لم يتوفر لأحد غيره من أبناء المدينة .. إلخ ثم افرض إنك هربت إلي مدينة أخري لم تعجبك قوانينها ماذا أنت فاعل ؟! أتهرب إلي ثالثة ورابعة أم تبحث عن دولة بلا قوانين ؟ ومن ذا الذي يرغب في الحياة في دولة لا قوانين لها ؟ ! وهب جدلا أنه أستطاع أن يجد مثل هذه الدولة ، أيستطيع بعد ذلك أن يمضى في إلقاء دروس الفضيلة علي الناس .. ؟ ! » وهكذا أعلن سقراط أنه يفضل طاعة قوانين أثينا وأن يموت في ظلها ، حتي ولو كانت جائرة عن أن يهرب إلي مدينة أخري !

***

لكن قد يقال : افرض أن قوانين الدولة كانت ظالمة ألا يجوز للفرد أن يقوم بتعديلها وفقاً لفهمه الخاص « للعدالة » ؟ ثم افرض أيضاً أنها كانت عادلة لكنها لا تطبق كما ينبغي ، أيجور له في هذه الحالة أن يقوم « وحده » بتطبيق هذه القوانين » ؟!

ولكي نجيب عن هذه الأسئلة : أرجو أن تقرأ المقال التالي عن «القضاة القتلة » !

((القضـــاة القتلـــة ... !))

لست من هواة السينما الأمريكية ولا سيما إذا لجأت إلي العنف أو الإثارة وبعدت عن الفن الأصيل ! لكني مع ذلك لابدّ أن أعترف بأنني بين الحين والحين أجد فيها بعض الأفلام التي تعرض لقضايا إنسانية هامة تستحق المناقشة ! منها ذلك الفيلم الذي رأيته هذا الصيف ، وإن كنت لا أعرف سنة إنتاجه ، ولا شخصيات الممثلين باستثناء ابن ((كيرك دوجلاس)) الذي قام بدور الشخصية الرئيسية فيه .

والقضية التي يعرضها باختصار ، هي الثغرات الموجودة في القانون الأمريكي ، وكيف يلجأ الدفاع إذا كان بارعًا إلي تبرأة المتهم بالتشكيك في شكليات الإجراءات التي تمت مما يضطر القاضي – مع يقينه بإدانة المتهم – إلي الحكم بالبراءة ! أو رفض القضية التي عرضتها النيابة ! وليست المسألة خاصة بالقانون الأمريكي ، فهذه ((الشكليات)) التي يلجأ الدفاع إلي إيجاد ثغرات في الإجراءات للتشكيك فيها ، موجودة في جميع القوانين ، ومن هنا كانت القضية عامة ! ولست أنسي موقفًا مماثلاً عندما أُحيل بعض المتهمين ببيع الإمتحانات إلي مجالس تأديب ، أو لسرقات هنا وهناك ، ويحكم عليهم بالإدانة ، بل إن بعضهم فُصل من عمله فعلاً ! ثم يستطيع محامٍ بارع أن يجد ثغرة في شكليات القوانين ، ويعتمد عليها في دفاعه فيحكم لصالح المتهمين وتتم البراءة ، بل والعودة إلي العمل مع صرف كافة المستحقات ! وكثيراً ما يقول الحكم ((إن المحكمة لم تنظر إلي مضمون هذه القضية ، ولم تحكم فيه بشيء ، لكنها نظرت إليها من حيث الشكل، فوجدت أن الإجراء التي تمت خاطئة ففيها كذا وكيت من الثغرات ، وبناء عليه أى مادام الشكل القانونى باطل ، وما يبنى على

باطل فهو باطل - فإن القرارات التي صدرت بالفصل باطلة ، وعليه يعود المتهم إلي عمله وتصرف مستحقاته !» .

ومعني ذلك أن الأدلة قد تكون دامغة ، لكن براعة الدفاع تبحث عن ثغرات في شكل الإجراءات القانونية لكي تنسف الاتهام من أساسه، وتنتهي إلي تبرئة المتهم ! وهذا ما يعالجه الفيلم الأمريكي الذي بدأت به هذا المقال !

فهناك خمس جرائم قتل لنساء عجائز ، وتبحث الشرطة عن المجرم ، وبالمصادفة البحتة تلتقى إحدي دوريات الشرطة في السادسة صباحاً بصعلوك في الشارع فتتبعه ، لكنه يفلت منها ويتضح فيما بعد أنه كان يحمل مسدسا ألقي به في صفيحة القمامة ، وأن هذا المسدس هو بعينه الذي استخدم في جميع الجرائم السابقة ! وتستطيع الشرطة بعد مطاردة مثيرة أن تقبض علي هذا « الصعلوك » وتقدمه للمحاكمة بتهمة قتل خمسة من النساء ! لكن الدفاع البارع يلجأ إلي حيلة غريبة جداً عندما يدفع ببطلان الدعوي لأن الشرطة قامت بتفتيش صفيحة قمامة « خاصة » كانت أمام أحد المنازل (وهي التي ألقي فيها المتهم بمسدسه) دون أن تحصل علي إذن من النيابة ! ذلك لأن الملكية الخاصة ، وفقا للقانون لا يجوز تفتيشها إلا بإذن قضائي ! وتحكم المحكمة ، مضطرة أمام براعة الدفاع بإخلاء سبيل المتهم ، ويخرج المجرم مرة أخري إلي الشارع بسبب شكلية الإجراءات أو ثغرات القانون وبراعة الدفاع رغم أن الجميع علي يقين من أنه «المجرم» وأن مسدسه هو أداة الجريمة !

ثم تُعرض علي نفس القاضي قضية مماثلة :

سيارة أوقفتها الشرطة للاشتباه ، ثم قام رجال الشرطة بتفتيشها فعثروا فيها علي « حذاء طفل » كان قد قُتل قبل ذلك بيومين بعد أن

استخدمه الجناة في تصوير أفلام جنسية ثم قتلوه وألقوا بجثته في الغابة ! ومرة أخري يدفع المحامي البارع ببطلان الإجراءات حيث تم التفتيش بدون إذن النيابة ! والملكية الخاصة تحتاج وفقا للقانون لإذن قضائي قبل تفتيشها ! ومرة أخري أيضاً يضطر القاضي نفسه إلي إخلاء سبيل المجرم (وهم مجموعة من المتهمين) مع أن والد الطفل كان يتابع الجلسات ، وقد قام بعرض صورة جميلة لأبنه علي القاضي قبل الجلسة لكي يستحثه علي إنزال أقسي العقاب بهؤلاء الوحوش البشرية : لكن القاضي يرد عليهم بأسي : إنه الآن يقوم بالفصل في نقطة قانونية هي التي أثارها الدفاع وهي مدي قانونية تفتيش السيارة ، وليس مدي إدانة المتهمين !

وفي اليوم التالي تكتشف الشرطة جريمة مماثلة يُقتل فيها طفل في العاشرة من عمره : بنفس الطريقة أى : ممارسات جنسية لأفلام الدعارة يقتل بعدها الطفل ، وتلقي جثته في الغابة ! ويشعر القاضي بألم نفسي شديد ، وبتأنيب ضمير لا حدّ له ، إذ يشعر أنه ساهم في قتل الطفل عندما أفرج عن هذه الوحوش الأدمية ، فساهم بذلك ، بطريق غير مباشر ، في مقتل طفل جديد !

وهكذا يصمم القاضي نفسه علي تنفيذ القانون بطريقته الخاصة بعيداً عن شكليات الإجراءات القانونية ! فيتفق مع مجموعة من زملائه القضاة الذين مروا بتجارب مماثلة ، علي تكوين ما يشبه « المحكمة الخاصة » تكون مهمتها إعادة النظر – وكأنها محكمة استئناف – في جميع القضايا التي مرّت عليهم وبُرِّيء فيها المتهم بسبب شكليات القانون ! وهكذا اجتمع تسعة قضاة في منزل واحد منهم لدراسة كل قضية علي حدة ، بعد أن حصلوا علي ملفها ، دراسة جيدة ثم يأخذون الأصوات علي الحكم الذي يصدرونه . واستأجروا قاتلاً محترفاً يقوم بتنفيذ الأحكام التى كانت كلها « الإعدام » على هؤلاء المجرمين ! وكان

شعارهم في غاية البساطة «نحن القضاة» أي نحن القانون ، وعلينا أن نقوم بتنفيذه بعيداً عن الشكليات !!

***

مرة أخري نجد أنفسنا أمام المشكلة التي طرحتها «أنتيجونا» الفرد بضميره أمام المجتمع بقوانينه ، وإن كانت هنا بشكل مختلف ، وهذا الشكل الجديد هو : أيجوز لي أن أقوم بمفردي بتطبيق القانون حتي ولو كان عادلاً – دع عنك أن يكون القانون ظالماً» . فأقوم أنا بتصحيحه ؛ ليكون عادلاً وأنصّب نفسي مشرعًا وممثلاً للعدالة إذا كانت الثانية مرفوضة فكذلك الأولي أيضاً لأن المبدأ في الحالتين خطأ وبالغ الخطورة !

وما دمنا نتحدث عن الأفلام فلا بأس من الإشارة إلي أحد الأفلام العربية التي عالجت الموضوع نفسه وكان اسمه فيما أذكر «الأوغاد أو الأوباش» ستة من هؤلاء الأوغاد يغتصبون عروساً ليلة زفافها بعد ضرب العريس حتي الموت وطرحه خارج السيارة ، ثم يتناوبون اغتصابها ! وتنهار الفتاة وتصاب بصدمة عصبية عنيفة تنقل علي إثرها إلي مستشفي الأمراض العصبية حيث يرقد أحد الصحفيين الذين مروا بحادث مماثل ، فخطيبته اغتصبها الأوغاد أيضاً ، وتزوجها لأنه علي يقين بأنها بريئة ولا ذنب لها ، لكن ليلة العرس لا يستطيع نفسياً أن يقترب منها ، وتشعر الفتاة أن ذكري اغتصابها مازالت عالقة في ذاكرته فتضطرب وتفر هاربة من البيت إلي الشارع حيث تصدمها سيارة مسرعة وتموت ، ويصاب هو باضطراب عصبي لأنه يشعر بأنه المسئول عن مقتلها ! فيحال إلي مستشفي الأمراض العصبية، حيث تصل «العروس المنهارة» ويتعاطف معها ، ويشفق عليها ، ويصمم علي الانتقام لها ولزوجته ، فيخرج من المستشفي ؛ ليتتبع خيوط الجريمة وحده ، وبطريقته الخاصة يقتل هؤلاء الأوغاد واحداً أثر الآخر!

نعود إلي طرح السؤال مرة أخري : أيجور هذا ؟ أيحق للفرد أن يقوم بنفسه بتطبيق القانون ؟ أيجوز له أن يمثل الوطن ، كما فعل الجندي سليمان خاطر عندما قام بإطلاق الرصاص على مجموعة من الإسرائيليين ـ لأسباب لاتزال مجهولة حتى الآن فهو يحدد العدو ويصدر الحكم ويقوم بتنفيذه ؟! وأجيب مرة أخري : بالقطع لا ! حتي ولو كان متأكداً من صواب عمله ، ونبل مقاصده ، بل ومن جرم الآخرين ! فالقانون في النهاية هو الذي ينبغي أن تكتب له السيادة مهما يكن من أمر الإجراءات وثغراتها ، وطرد المحاكمات ورداءة التنفيذ ! ذلك لأن براءة عشرة مجرمين أفضل ألف مرة من إدانة بريء وإعدامه دون ذنب سوي اقتناع شخص بأنه مجرم علي نحو ما حدث في القضاة القتلة الذين يحكمون علي أحد المتهمين بالإدانة مع أن الفيلم وسير الأحداث تكشف عن براءته ! لا يجوز للفرد أن يتصرف في أمور عامة طبقاً لما يمليه عليه « ضميره » وما يراه « صالحاً » للمجتمع وللناس مهما بلغ يقينه بأن ذلك هو « الصالح العام » ! إن الجندي في المعركة يعلم تمام العلم أن ما يحاربه هو « عدوه » وعدو وطنه ، وأنه جاء إلي ميدان القتال ؛ ليقتله ، ومع ذلك كله فلا يجوز له أن يتصرف من تلقاء نفسه مكتفيا بذلك كله ، وإنما عليه أن ينتظر الأمر من قائده، فقد يترتب علي إطلاقه رصاصة واحدة ضرر أكثر ألف مرة من قتله لجندي من جنود الأعداء ! ليست المسألة فردية خالصة : رأيت خطأ فأقوم بتصحيحه زاعماً لنفسى وللآخرين، أنني أنفذ مقتضيات « الصالح العام » !! لا أستطيع ، مثلاً ، أن أقف عند إشارات المرور فأحصل غرامات من المخالفين أو الذين يقفون في الممنوع ، فهناك جهات اختصاص أستطيع أن أساعدها بإبلاغها بما أراه من خطأ ، لكني لا أقوم بنفسى بتصحيحه ! لكن قد يثار هنا إعتراض هام هو : ماذا نقول في أمر الحديث الشريف « **مَنْ رأي منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان** » .

أقول إن هذا الحديث الشريف أُسيء فهمه إساءة بالغة ، ونظرة متعمقة إليه تكشف عن سواء الفهم السائد : فالحديث لم يقل فليغيره « بيده » وتوقف عند هذا الحد كما يريد كثيرون أن يفهموه علي هذا النحو ، لكنه يحدد لنا عدة مجالات لكل منها وسيلة خاصة : فأنا أقوم بتغيير المنكر بيدي في المجال الذي يبيح لي فيه القانون أن أفعل ذلك : كالأسرة مثلاً فالأب يغير بيده - أى بتدخله المباشر - ما يراه معيبا في سلوك أبنائه ، وكذلك يفعل المعلم ، لكن الاثنين لا يفعلان ذلك عندما يصادفان منكراً يحتاج إلي تدخل جهات أخري لتصحيحه كأمثلة المرور التي ذكرناها آنفا ! ومن هنا جاء المجال الثاني الذي استخدم فيه « اللسان » فأقوم بتبليغ الشرطة أو الرؤساء أو جهات الاختصاص أياً ما كانت !

والحديث هنا يخدم الديمقراطية التي تتطلب منك الكشف عن عيوب المجتمع والناس ، والقانون ، والأنظمة ، عندما تقف تحت قبة البرلمان إنْ كنت نائباً ينوب عن الناس ! أو أن تكشف عن هذه العيوب في الصحافة إن كنت كاتباً... إلخ ، فهذا دورك تماماً علي نحو ما يكون دور الأب أن يتدخل بشكل مباشر؛ ليصحح تصرفات أبنائه دون أن يلجأ إلي جهة أخري !!

فإن عجزت عن تغيير التصرفات السيئة بالتدخل المباشر لأنها في مجال لا يخضع لإشرافك المباشر ، وإنْ عجزت عن تغيرها بالاتصال بالشرطة أو جهة الاختصاص أو البرلمان أو أجهزة الإعلام ... إلخ فلا تقف عند هذا الحد لكن لابد للقلب أن يظل رافضاً لها مزدرياً منها ، وهذا أضعف الإيمان ، لأن « الإيمان الحقيقي » هو ما وقر في القلب وصدقه العمل ! أي لابدّ أن يتحول من القلب إلي السلوك الخارجي ! .

«وفـاة أعــــزب ... !»

قالت السـيدة العـجوز للطبـيب بعد أن أيقظته من نومـه : « إن حالة سيدي سيئة ، فهل تتكرم بزيـارته فوراً . ؟! » عرفها الطبيب في الحال فهي مـديرة منزل صديقه الـقديم ، ذلك الثري الأعـزب الذي أضـرب عن الزواج رغم إلحـاح أصدقـائه جميعـاً ، وبقي حتي بلغ سن الشيـخوخـة وها هـو يموت وحيداً ! لم تشأ السـيدة العـجوز الأنتظار فقد كان عـليها أن تذهب لإبـلاغ صـديقين آخرين: الأول أديب ، والثـاني تاجـر - لأن سيدها يرغب في رؤيتهما أيضـاً...!

وعندمـا وصل الطبـيـب إلي قـصـر الصـديق الثـري الأعـزب فـتح له الخـادم وهـو بـادي التـأثر شـديد الحـزن ، وبادره بقـوله : « لقـد توفـي سـيدي منذ ربـع ساعـة ! » تنهـد الطبيب بـعمق ودخل الغـرفـة؛ ليلقي نظرة وداع علي صـديق عـمـره وهـو جثة هـامـدة علي السـرير ! آه ! كم مـرة ألححت عليك بالزواج حـتي تسـتمـتع بحيـاتك ، فلا تقـضـى أيامك الأخيـرة وحيداً علي هـذا النحو ، وحـتي تنجب طفلاً من صـُلبك يـحمل اسـمك من بـعـدك ويرث هـذه الثـروة الطـائلة ! لكنك بعـنادك وإصـرارك أبيت إلا أن تمـوت هـكذا وحيداً معزولاً !

سـمـع في الخـارج صـوت عـربة تتـوقـف ، وبعـد لحظة دخل صـديق آخـر هـو التاجـر المعروف في المدينة سلّـم علي الطبيب ، وهـو يقـول في دهشــة : « كـيـف حـدث هـذا ..؟! » فـرد الطبـيب « حـتي لو أمـكـنني الوصـــول فــي الوقــت المناســب لما استطعــت انقاذه ! فقــال التاجـر : « تصـور إنني كنت أتحدث إليه منذ أسبوع واحد وأدعوه للعشاء لكنه كان

مرتبطاً بموعد من مواعيده السرية !! ›› فابتسم الطبيب وهو يردد ‹‹ لا تزال لديه هذه العادة الغريبة – عادة المواعيد السرية بعد أن أقلع عن الزواج العلني ! ››

وبعد لحظات قليلة أقبل صديقهم الأديب مهرولاً ، ألقي التحية وهو يلهث ‹‹ ماذا حدث ؟ ›› ولم ينتظر الجواب فقد تقدم نحو الحجرة؛ ليري جثمان صديقه الأعزب الثري مطروحاً علي الفراش ! فأخذ يتمتم: ‹‹ عندما كنا نلحّ عليه بالزواج قبل أن تدركه المنية – كان جوابه باستمرار ! تُري مَنْ منا سوف يغادر هذه الدنيا الفانية قبل سواه ! وها هو يغادرها قبلنا جميعاً دون أن يعيش حياته بعمق !! ›› .

قال التاجر : ‹‹ إنه لغريب حقاً أن يدعونا جميعاً إليه – فهل أحب أن يرانا مجتمعين ، لآخر مرة ، حوله حتي وإن كان جثة هامدة ؟! أم أن لديه أمراً هاماً يريد أن يخبرنا به .. ؟! ››

كان الطبيب مشغولاً بمسألة أخري يجري حوارها بداخله : كيف صبرت وأن الطبيب النشط الدائب الحركة بين المستشفي والعيادة الخاصة ، أن أبقي صديقاً لثري أعزب ، صديقا لرجل لا مهنة له ، ولم يقم في حياته بمزاولة أي عمل ! لو لم يكن الراحل ثرياً تري أي حرفة كان يمكن أن يمتهنها .. ؟! انتبه الطبيب لدخول الخادم فسأله إنْ كانت لديه فكره عن السبب في دعوة سيده لهم ؟ فناوله الخادم قصاصة ورق قائلا : إن سيده دون فيها منذ سبع سنوات اسماء الأصدقاء الذين يود دعوتهم إلي فراش موته – وأخذ الطبيب الورقة فقرأ فيها خمسة اسماء ثلاثة منهم : الطبيب ، والتاجر ، والأديب – وهم حضور بالفعل – واثنين أحدهما توفي والآخر لا يعرفه أحد منهم ، وإن كان الخادم قد أوضح أنه من رجال الصناعة ، وأن المرحوم كان يزوره بمنزله منذ عشر سنوات ولم يدعه لأنه نسي عنوانه !

نظر الطبيب إلي مكتب المرحوم فعلق بصره بمظروف كتب عليه من الخارج «إلي أصدقائي» فصاح في الحاضرين : «هذا الخطاب لنا..!» وأشار إلي الخادم الانصراف ، وأخذ يقرأ الخطاب : «منذ حوالي ربع ساعة لفظت أنفاسي ، إنكم مجتمعون حول جثتي ، وعلي استعداد لقراءة هذه الرسالة معاً .. إذا كانت لا تزال موجودة فقد أعود إليها ذات يوم وأقرر تمزيقها .. !»

«إنني أحبكم جميعا لكن بطريقتي الخاصة ، كما تحبونني أيضاً بطريقتكم الخاصة ... إنني وأنا أغادر هذه الدنيا الفانية لابد أن اخفف من أوزاري .. وأنا أطلعكم علي السر في رفضي للزواج ، وربما كان الدافع إلي هذا الإفشاء ما يسمونه بتوبيخ الضمير .. إنه القدر أيها الأصدقاء الأعزاء ، ولم يكن في وسعي رده ! أما السر الذي أود أن أطلعكم عليه : فهو إننى كنت علي علاقة بزوجاتكم جميعاً ! أجل لقد عشقت زوجاتكم .. كل زوجة علي حدة .. ! لكن الظروف مع كل واحدة كانت مختلفة بطبيعة الحال ، فمع أحداهن عشتُ كما لو كنا متزوجين منذ عدة شهور .. أما الثانية فقد قضيتُ معها ما تواضع الناس جميعاً علي تسميته بالمغامرة الجنونية ، أما الثالثة فقد بلغت علاقتي بها حداً وددت معه أن يصيرا جسداً واحداً .. والرابعة دفعتها من أعلي السلم لأنها خانتني مع شخص آخر ! ، والأخيرة كانت عشيقتي في مناسبة واحدة فقط ، لقد كانت تلك أيها الأصدقاء الطيبون ، أمتع ساعات حياتي وحياتهن ... هذا كل ما لدي ، سوف أطوي الرسالة وأضعها في درج مكتبي حيث ترقد إما أن تصل إليكم ، أو اغير رأى فأمزقها ، لكنها لن تصل إليكم أولا فى الساعة التي ألفظ فيها أنفاسى الأخيرة ... وداعاً أيها الأصدقاء !!»

كانت هذه القصة لطبيب نمساوي هو ‹‹ أرثر شنتزلر – Schnitzler Arthyur , ١٨٦٢ – ١٩٣١ اعتزل الطب ، ليعمل في الأدب فألف الكثير من القصص والمسرحيات ، وهنا يسخر لا فقط من خيانة الثري الأعزب لأصدقائه ، وإنما أيضاً من هؤلاء الأصدقاء ، فرغم أن الأديب كان يتمتم ‹‹ اللعين ›› ! فإنه كان أيضًا حين يستعيد صورة زوجته تلوح له وجوه سيدات أخريات كان يعتقد أنه نسيهن من زمن بعيد ! خيانات كثيرة طواها الزمن!.. ويتذكر الطبيب أنه في فترة من فترات حياته هجر زوجته وأولاده : وفي تلك الحقبة دخل في طور من حياة الطيش والجنون لعبت فيه امرأة غريبة دوراً بارزاً ثم انتحرت بسبب عشيق آخر !

وهكذا كانت لكل واحد منهم قصة عشق وغرام يخفيها عن نفسه ، حتي فجرها هذا الأعزب الثري الذي مات لكنه رفض أن يحمل أسراره معه ، لأن ضميره قد استيقظ في اللحظة الأخيرة ! كم من سر تخفيه ، عزيزي القاريء، في صدرك ولم يطلع عليه أحد ؟! راجع نفسك وكن أميناً معها .. !!

***

عاشرا : دراسات قرآنية

١ - الأخلاق فى القرآن

٢ - الزمان فى القرآن

٣ - القرآن والبحث التجريبى

((الأخلاق فى القرآن .. !))

احتدم النقاش في موضوع لا خلاف عليه ، فلم يقل واحد من الحاضرين برأي مخالف ، ولم يعترض أحد علي الفكرة المطروحة وهي: أن القرآن الكريم لابدّ أن يكون المنطلق في كل ما نقوم به ، ولابدّ أن يكون البداية التي نبدأ منها ...

لهذا أخذت أسأل نفسي : فيم إذن ، كل هذا النقاش الحاد ؟! أهو لون من التأكيد المستمر علي الفكرة نفسها ؟ أم إنه إعزاز وتقدير لها يريد كل من الحاضرين أن يكون له شرف السبق في التأكيد عليها ؟! أم إنه تعبير عن الارتياب والتشكك في فهم الحاضرين ؟

بقيت صامتاً أتأمل النقاش الدائر لكني رفضت جميع التفسيرات السابقة كلها ، ذلك أن خاطراً واحداً ظل يلح علي ذهني في وطأة ضاغطة حتي أعتقدتُ أنه وحده يفسر الموقف تفسيراً سليماً وهو : أن هؤلاء القوم يشعرون بالقلق والحيرة لأنهم لا يؤمنون بهذه الفكرة إيمانا قوياً ولا يعرفون السبيل الصحيح لتحقيقها : كيف يمكن أن تتحول من مجرد ((كلمات)) إلي ((عمل)) من فكرة في الرأس إلي واقع ملموس في العالم الخارجي ... ؟ !

هنا قفز إلي ذهني ذلك العمل العظيم الذي حول فكرة مماثلة إلي جهد علمي ممتاز ، وأعني به ذلك البحث الذي تقدم به المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز لنيل درجة الدكتوراة من جامعة السوربون وعنوانه ((دستور الأخلاق في القرآن)) حاول فيه أن يقدم النظرية الأخلاقية التي يعتقد أن القرآن الكريم جاء بها والرائع ، حقا في هذا البحث أنك تشاهد أحد شيوخ الأزهر يناقش الأخلاق السقراطية

وينقدها ، ثم ينتقل منها إلي كانط ، ويعود إلي القرآن الكريم ، ويرجع إلي أفلاطون وأرسطو ثم ينتقل إلي برجسون وهارتمان وغيرهما من الفلاسفة المعاصرين .. إلخ وعلي هذا النحو يصول ويجول في تاريخ الفلسفة يعرض ، ويناقش ، ويفسر ، ويشرح معبراً عن إلمام دقيق بجميع المذاهب الفلسفية في الأخلاق ، وعن هضم وتمثل لكل ما قاله الفلاسفة مع نقدها وتحليلها من زاوية إسلامية وعرض وفهم لنظرة أخلاقية متكاملة يستخرجها الباحث من القرآن العظيم ..

وليس في استطاعتي أن أقدم لك ، يا صديقي القارئ ، خلاصة وافية لهذا العمل العلمي الجاد الذي زادت صفحاته عن خمسمائة صفحة ـ في هذا المقال القصير ، لكني سأحاول أن أعرض عليك بعضاً من الأفكار الجميلة التي عرضها الباحث لعلها تغريك بدراسته من ناحية ، وتدفعك من ناحية أخري إلي البحث العميق والتنقيب الجاد في آيات الكتاب الكريم ؛ لتقدم لنا بحثاً مماثلاً فننقل الفكرة التي لا يختلف عليها أحد منا ، من مجال الكلام إلي مجال العمل والدراسة .

يبدأ الباحث بإلقاء هذا السؤال : كيف يصور القرآن عناصر الحياة الأخلاقية .. ؟ ويجيب علي النحو التالي :

أولاً : من حيث مصدر الإلزام الخلقي فلا شك أن القرآن يتحدث عما يمكن أن نسميه بالحاسة الخلقية .

ويصورها علي أنها فطرية وأنها انبعاث داخلي في باطن الإنسان ، فلقد علمنا الكتاب أن النفس الإنسانية قد تلقت في تكوينها الأول الإحساس بالخير والشر . **﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾** (الشمس آية ٧)

ومعني ذلك أن النفس من البداية قادرة علي التمييز بين الفجور والتقوي أو الخير والشر ، وأن الإنسان يستطيع أن يميز بين السلوك

الحسن والسلوك القبيح بفطرته أو بهذه الحاسة الخلقية الموجودة بداخله والتي نسميها أحيانا بالضمير فكما أن الإنسان وُهِبَ مَلَكَة اللغة والحواس الظاهرة فإنه زود أيضًا ببصيرة أخلاقية ﴿ **بل الإنسان علي نفسه بصيرة ولو القي معاذيره** ﴾ (آية ١٤ سورة القيامة)

فلقد هدى الإنسان طريقي الفضيلة والرذيلة ﴿ **ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين وهديناه النجدين** ﴾ (يوسف : آية ٥٣)

ولكن الإنسان قادر علي أن يحكم أهواءه : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوي فإن الجنة هى المأوى** ﴾ .. (النازعات : آية ٤٠)

ففي الإنسان إذن قوة باطنة لا تقتصر علي نقده وهدايته فحسب بل إنها توجه إليه بالمعني الصريح أوامر بأن يفعل أولا يفعل .

لكن هل معني ذلك أن الإنسان قادر علي أن يستقل عن الدين لوجود هذا النور الفطري بداخله .. ؟ لا شك أن ذلك ظاهر البطلان لأن الضمير الفطري أولاً فردي في حين أن الأخلاق جماعية ، أي أنها لا توجد إلا بوجود قانون أخلاقي عام يعم الجميع ، ومن ناحية أخري فهذا النور الفطري في الإنسان قد لا يظهر إلي الوجود بسبب عوامل تعمل علي إخفائه منها التربية والبيئة التي نشأ فيها الفرد ودرجة ثقافته والمصالح البشرية - إلخ ، فذلك يلقي ظلالاً كثيفة علي النور الفطري الموجود بداخلنا : ولهذا فإن القرآن يرشدنا إلي أن الإنسان يحتاج إلي سلطة أخري إلي جانب ما لديه من نور فطري ، وهذه السلطة لا يمكن أن تكون هي سلطة المجتمع لأنه لا يعرف جوهر النفس سوى خالقها ولا يعرف ما وضع في هذه النفس من فجور وتقوي أو خير وشر إلا الله : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** .. ﴾ (الملك : آية ١٤)

فمن ذلك النور الإلهي تستمد النفس نورها الخاص ، وإلي ذلك النور الأخلاقي المطلق يجب أن اتوجه لهداية ضميري ﴿ وعسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسي أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون .. ﴾ (البقرة : آية ٢١٦)

ففي قلب كل مؤمن يستقر نوران النور الفطري الفردي ، والنور الإلهي المطلق وهذا هو معني رمز النور المزدوج في قوله تعالي : « نور علي نور » (النور ٢٥) ، لكن هل معني ذلك أن هناك مصدرين مختلفين للإلزام الخلقي .. ؟ كلا ! بل هما مستويين لمصدر واحد أقربهما وهو النور الفطري أو الضمير ثم النور الإلهي ، لكن إذا كان النوران الفطري والإلهي ينبعثان من مصدر واحد فيجب أن نخرج أخيراً بأن الله هو الذي يرشدنا دائماً إلي فعل الواجب ما ظهر وما بطن ، ومن ثم لا ينبغي أن يكون لدينا سوي سلطة تشريعية واحدة ، والقرآن ذاته لا يفتأ يؤكد لنا هذه الفكرة في كثير من آياته : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ (الأنعام ٥٧ يوسف آية ٤٠) ﴿ ألا له الحكم ﴾ (الأنعام ٦٢) ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ .. (الرعد ٤١) ـ وقد بعث الله فينا رسولاً هو أول مَنْ يخضع لهذه الشريعة : ﴿ قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرتُ ، وأنا أول المسلمين ﴾ (الأنعام : آية ١٦٢)

ثانياً : ولكي تكون هناك أخلاق فإنه لابدّ أن تكون هناك شخصية مستقلة قادرة علي المقارنة والتقويم والاختيار ، ومن هنا فإن القرآن الكريم يقف موقفاً بالغ الحدة أمام عدوين أساسيين للأخلاق العدو الأول هو اتباع الهوي بغير روية أو تفكير : « ولا تتبع الهوي فيضلك .. » (ص : آية ٢٦) وينظر إلى الإنسان الذي يسير علي هواه باحتقار شديد : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا .. ﴾

(آية ٤٣ الفرقان)

أما العدو الثاني فهو الانقياد الأعمي . أي الاستسلام بحيث يكون المرء إمعة للآخرين ، أي ليس له شخصية ﴿ **قال مترفوها إنا وجدنا أباءنا علي أمة وإنا على** آثارهم **مقتدون ..** ﴾ (آية ٢٣ من سورة الزخرف) ومعني ذلك كله أن الإنسان لابدّ أن تكون له شخصية قائمة بذاتها لا يقلد فيها غيره أو كما قال ڤولتير : « كن رجلاً ولا تتبع خطواتي » .. كذلك لا ينبغي أن يترك أمر قيادته للهوي أو الغريزة فيكون كالأنعام بل أضل سبيل : إن عليه أن يستخدم ماهيته الأساسية كإنسان وهو العقل أو التفكير والروية .

ثالثاً : قانون الواجب :

لابدّ أن تتحول الأخلاق في النهاية إلي قانون ، وكل قانون لابدّ أن يكون عاماً يخضع له الأفراد جميعاً بغير استثناء وإلا سقطت عنه صفة القانون ، ويتجلي طابع الشمول في القانون الأخلاقي في القرآن في أنه يتجه إلي الإنسانية جميعا : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا** ﴾ (الأعراف ١٥٨) . ﴿ **ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ (الفرقان آية ١) ولا بدّ أن يكون القانون علي نسق واحد سواء طبقه المرء علي نفسه أم علي الآخرين : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ (البقرة ٤٤) ﴿ **كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو علي أنفسكم** ﴾ (النساء ١٣٥) ويجب أن يكون الحكم واحداً علي الأصدقاء وعلي الأعداء علي حد سواء . ﴿ **ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ علي ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوي ...** ﴾ (المائدة ٨) وهو يمتدح الإنفاق الذي يحدث علي وتيرة واحدة: ﴿ **الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء** ﴾ (آل عمران ١٣٤) ويمتدح الشجاعة التي تتحدي الجوع والعطش والنصب : ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، ولا نَصَبٌ ، ولا مخمصة ..** ﴾ (التوبة ١٢٠) ويندد بالذين يحتجون ويتكاسلون عن أداء الواجب اعتذاراً بظروف معينة ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر : قل نار جهنم أشد حراً ..** ﴾ (التوبة ٨١)

رابعاً : إمكان العمل :

من المباديء الأساسية التي تقوم عليها القواعد الأخلاقية أن يكون في قدرة الإنسان واستطاعته تنفيذها ، والحق أنه من نافلة القول أن نؤكد فكرة الإمكان المادي للعمل كشرط أساسي لا غني عنه للفعل الخلقي فلقد قيل دائماً : « إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع » فلابدّ أن يكون في قدرة الإنسان القيام بالفعل الأخلاقي ، وهذا ما يرد في كثير من النصوص القرآنية: ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها** ﴾ (الطلاق ٧) ﴿ **لا تكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ (الأنعام ٥٢ والمؤمنون ٦٢) ﴿ **ولا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وُسْعَهَا** ﴾ (البقرة ٢٨٦)

خامساً: اليسر العملي :

ها نحن أولا: قد أقصينا من مجال التكليف كل مالا يمكن أن يخضع خضوعاً مباشراً أو غير مباشر لقدرتنا واستطاعتنا ، لكن هذا الإقتصاد لا يمكن أن يكون وقفاً علي الأخلاق الإسلامية بل يجب أن تعتبره السمة المشتركة بين جميع المذاهب الأخلاقية العادلة والمعقولة .
لكن النصوص القرآنية لا تكتفي بنفي كل ما هو مستحيل وإنما هى تنفي كذلك كل تكليف لا تقر العادة إمكان تحمله كما تنفي كل مشقة يمكن أن تستنفذ قوي الإنسان حتي لو كانت في حدود طاقته ، يقول تعالي ﴿ **يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر** ﴾ (البقرة ١٨٥) ويقول : ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ (الحج ٧٨) – ويقول ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم** ﴾ (النساء ٢٨) ويقول ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (الأنبياء ١٠٧) ويقول : ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته علي الذين من قبلنا** ﴾ (البقرة آخر آية)

علي هذا النحو الرائع يسير الأستاذ الدكتور في تكوين نظرية متكاملة عن الأخلاق القرآنية أقدمها مثلاً لكل من أراد أن يقوم بعمل جاد أو دراسة عظيمة أكاديمية لهذا الكتاب الكريم .

« الزمان ... فى القرآن »

لو أنك طلبت من صديقك أن ينتظرك في الساعة الخامسة ، لما وجد أدني صعوبة في فهم ما تقول ، ولو كانت لديه الرغبة في لقائك فسوف ينتظرك في الموعد المحدد ، ففكرة الزمان «شائعة» في أحاديثنا اليومية ، حتي لقد ظن الناس ، من فرط إلفهم لها ، إنها فكرة بالغة السهولة والبساطة ، ولهذا فقد تدهش حين نقول لك أن عقولاً عظيمة ظلت لعدة قرون تناقش طبيعة الزمان دون أن تصل إلي رأي حاسم فيها : منذ فجر الفلسفة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد حتي «أينشتاين» في القرن العشرين : من «أفلاطون» الذي ذهب إلي أن : «الزمان هو الصورة الحسية للأزل» و «أرسطو» الذي جعل الزمان مقدار الحركة ، أو علي حد تعبيره : «الزمان هو مقدار الحركة من جهة المتقدم والمتأخر» - حتي القرن العشرين حيث الفيلسوف الفرنسي «برجسون» يقسم الزمان إلي : زمان رياضي أو كمى وهو الذي نعرفه بدوران الأفلاك ونقبسه بالساعة ، وزمان حدسي أصيل هو زمان الديمومة أو ما نشعر به داخليا من مجري الزمان ، و «اينشتاين» الذي جعل الزمان بُعداً رابعاً للمكان في نظريته عن النسبية الخاصة[1] .

ليس الزمان ، إذن ، فكرة بسيطة سهلة تنتهي بالنظر إلي ساعتك

---

(١) في استطاعتك أن تجد تعريفات كثيرة للزمان في المقال القيم عن «الزمان» في دائرة المعارف الإسلامية في المجلد العاشر ص ٢٨٧ وما بعدها ، وكذلك في كتاب «برجسون» للدكتور زكريا إبراهيم - العدد الثالث من نوابغ الفكر الغربي - وقارن أيضا «ولتر ستيس» «الزمان والأزل» ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم بيروت عام ١٩٦٧م - والزمان الوجودي للدكتور بدوي مكتبة النهضة المصرية - وكتابنا «مدخل إلي الفلسفة» مؤسسة دار الكتب بالكويت الطبعة السادسة عام ١٩٩٣ .

فتعرف الوقت وتسرع للقاء صديق ، ويكفي أن تسأل نفسك : كيف يمكن لك أن تعرف الزمن لو تعطلت ساعتك ومعها ساعات الآخرين جميعًا ؟ قد تقول : نعرفه بدوران الأرض . فكلما دارت الأرض حول نفسها دورة قسمنا المدة التي استغرقتها أقساما متساوية ثم قسمناً الأخيرة أقساماً متساوية أيضاً .. وهكذا ، وكلما دارت حول الشمس مرة قسمنا المدة التي أستغرقتها بحساب الأقسام السابقة (الأيام) ؛ لنجد أنها تستغرق ٣٦٥ يومًا أو قسماً .. وهكذا نصل إلي العام كما وصلنا من قبل إلى اليوم ، والساعة والدقيقة ... إلخ ، وهذا صحيح ، لكن المشكلة تنشأت حين أقول لك أن هناك كواكب أخري تدور حول الشمس (وسوف تكتفي بضرب المثل بالمجموعة الشمسية فقط) ومن ثم فهناك تفاوت كبير في المدة التي تستغرقها الكوكب في دورانها حول الشمس ، مما يؤدي إلي اضطراب في حساب الزمن السالف الذكر ، فعطارد هو أقرب الكواكب إلى الشمس يقطع المسافة فى ٨٨ يومًا ، ويليه كوكب الزهرة الذي يقطعها في ٢٢٥ يومًا ، ثم الأرض في ٣٦٥ يومًا ، والمريخ في ٦٨٧ يومًا ، وكلما ابتعدنا عن الشمس وجدنا الكوكب يدور حولها في مدة أطول .. فالمشتري يقطع هذه الرحلة في ١١ سنة ، وزحل في ٢٩ سنة ، أما «بلوتو» وهو أبعد الكواكب عن الشمس فيقطعها في ٢٤٨ سنة .! فبأي هذه الأزمنة تأخذ؟ وأيها أصدق من الأخري ؟ أهو الزمان الذي نقيسه بدوران كوكبنا الأرضي ، أم أنها كلها أزمنة حقيقية ؟ وما هو الخيط المشترك بينها الذي يجيز لنا أن نطلق عليها اسماً واحداً . ؟ وعليك بعد ذلك كله أن تلاحظ أننا قصرنا الحديث علي المجموعة الشمسية وحدها ، وهي ليست سوي « جزء » من مجرة ، والمجرة ذاتها ليست سوي « جزء » من مجموعة هائلة من المجرات التي يزخر بها الفضاء الخارجى .

وتزداد المشكلة تعقيداً لو نظرنا إليها بمنظار دينى : فما الذى

نقصده علي وجه الدقة حين نقول أن الله تعالي خلق الكون في «لحظة» معينة . ؟ وهل هناك « لحظة » من الزمان خرج فيها العالم إلي الوجود . ؟ وهل يعني ذلك أنه وجدت قبلها « لحظات » لم يكن العالم فيها موجوداً . ؟ وباختصار : ما هي العلاقة الزمانية بين الله والعالم . ؟ وما الذي نعنيه حين نقول أن الله موجود من قبل جميع العوالم . ؟ وهل هناك « قبل » و « بعد » في الأزل ؟ وهل الزمان البشري إن صحّ التعبير يقابل النظام الإلهى أو الأزل .

وهناك آيات أخري تتحدث عن هذا النظام الأخير : النظام الإلهي أو الأزل ، وهي شديدة الوضوح وبالغة الدقة ، وسوف نتحدث عنها فيما بعد ، لكن هناك آيات تعبر عن مرحلة انتقال من الزمان إلي الأزل صيغت في ثوب الزمان الأرضى حتى تستطيع العقول في ذلك العصر فهمها واستيعابها، لكن القرآن الكريم الذى يلبى حاجة العصور جميعاً ، ينسخ هذه الآيات حتي لا تستقر في أذهان الناس ، ويبين أن هذا الثوب الأرضي للزمان ليس هو المقصود بذاته ، وإنما المقصود منه إعطاء صورة تقريبية مجازية فحسب ، وهاهنا كان الخلط والاضطراب والحيرة عند كثير من الناس الذين لم يضموا فى أذهانهم أن القرآن يتحدث عن نظامين هما : الزمان والأزل ، وأن هناك آيات تمثل مرحلة وسطي بين الطرفين لأنها تعبر عن العلاقة بينهما . فإذا كان الزمان يمثل النظان الأراضي القائم في العالم ، وإذا كان الأزل يعبر عن النظام الإلهي فإن العلاقة بين الله جل جلاله والعالم هي بالطبع علاقة الخالق بالمخلوق ، ومن ثم كانت الآيات التي نتحدث عنها ، والتي تمثل مرحلة وسطي بين الزمان والأزل هي الآيات التي تتحدث عن عملية الخلق ، مثل : **﴿ لقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾**[2] ، أو **﴿ الذي خلق الأرض في يومين ﴾ . ﴿ وقدر فيها أقواتها في أربعة**

(٢) آية ٣٨ من سورة ق .

أيام ﴾ [٣] و﴿ ربكم الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ [٤] .

ولكننا لا نستطيع أن ننظر إلي هذه الآيات الكريمة نظرتنا للآيات السابقة ، فنتوهم أن عملية الخلق قد استغرقت ستة أيام من أيامنا البشرية ، أعني أنها قد استغرقت أسبوعاً كاملاً كما قد يظن السذّج ، وإلا ضاع منا المغزي الدقيق لهذه الآيات التي ليست سوي قنطرة ومعبر من الأزل إلي الزمان البشري ، أو من الله سبحانه وتعالي إلي العالم ، فهي تريد أن تعبر عن تلك الرابطة بين الله الخالق الأزلي وبين العالم المخلوق الحادث ، ومن هنا كانت تتحدث بلغة الأيام (لغة العالم الحادث) لكنها لا تقصد معناها الحرفي لأنها صادرة عن النظام الإلهي (الأزل الخارج عن الزمان ، أي أنها تتحدث بلغة اللازمان) .

ولقد أخذ اليهود بالمعني الحرفي فذهبوا إلي أن الله تعالي قد خلق العالم في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع ، بعد أن تعب من العمل المضني ستة أيام كاملة ! ولقد سخر منهم القرآن الكريم لسذاجتهم **أولاً** ولفهمهم الحسي الحرفي **ثانيا** ، قال تعالي : **﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لغوب ﴾** [٥] . (واللغوب التعب والإعياء) ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية : ‹‹ لقد نزلت هذه الآية في يهود المدينة الذين زعموا أن الله تعالي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع

---

(٣) آية ٩ و ١٠ من سورة فصلت .

(٤) آية ٥٤ من سورة الأعراف . وهناك آيات أخرى كثيرة تدل على المعنى ذاته قارن : آية ٣ من سورة يونس وآية ٧ من سورة هود وأيضا آية ٥٩ من سورة الفرقان ، وآية ٤ من سورة الحديد .. الخ .الخ .

(٥) آية ٣٨ سورة ق .

فجعلوه راحة ، فكذبهم الله تعالي في ذلك (٦) ، ولهذا نجد القرآن الكريم يسخر منهم أيضاً لتقديسهم يوم السبت ، يوم الراحة المقدسة ، الذي حرموا فيه العمل تماماً ومنعوا حتي سعي الناس لأرزاقهم من صيد وحرث ، (وهذا واضح في معارضتهم للسيد المسيح كلما التقط من الأرض شيئا يوم السبت وفي رده عليهم : « إنما السبت للإنسان ، وليس الإنسان للسبت »(٧) ..) ، أقول أن القرآن الكريم سخر من فكرتهم هذه سخرية مريرة حتي أن الله تعالي كان يبعث إليهم بالأسماك والحيتان شارعة الرؤوس ظاهرة للعيان لا تحتاج إلا لمن يجمعها ، تملأ البحيرة يوم السبت بالذات ويمسكها عنهم بقية الأسبوع ، فلا يظهر منها شيء لأهل القرية ، قرية (كفر ناحوم) الذين كانوا يشتغلون بصيد الأسماك ، قال تعالي . ﴿ **وسْئَلْهُم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم** .. ﴾(٨) وسخرية القرآن الكريم من اليهود الذين تصوروا أن عملية الخلق قد تمت في ستة أيام من أيامنا البشرية واستراح الله في اليوم السابع ، تعطينا بداية الخيط في الفكرة التي نزعمها وهي أن الآيات التي تتحدث عن عملية الخلق ، ينبغي ألا تؤخذ بمعناها الحرفي لأن الصورة هنا رمزية أو مجازية فحسب أو هي تعبير عن الأزل في صورة زمانية لأنها تصور عملية هي همزة الوصل بين النظام الإلهي والنظام الطبيعي ، بين الخالق والمخلوق ، بين الأبدي والحادث ، يقول الإمام محمد عبده في تفسير

---

(٦) « الجامع لأحكام القرآن الكريم » لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ، المجلد السابع عشر ص ٢٣ - ٢٤ الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م .

(٧) - انجيل متي - وانظر أيضاً الإصحاح الأول من سفر التكوين الذي يصور فكرة اليهود عن الخلق

(٨) آية ١٦٣ من سورة الأعراف .

هذه الآية : (أما هذه الأيام الستة فهي من أيام الله التي يتحدد اليوم منها بعمل من أعماله يكون فيه ، فإن اليوم في اللغة هو الزمن الذي يمتاز بما يحصل فيه من غيره كامتياز أيامنا بما يحدها من النور والظلام ، وأيام العرب بما كان يقع فيها من الحروب والخصام ، وأيام الله التي أمر موسي أن يذكر قومه بها هي أزمنة أنواع نعمه عليهم ، ولا يعقل أن تكون هذه الأيام الستة من أيام أرضنا التي يحد ليل اليوم ونهاره بأربع وعشرين ساعة من الساعات المعروفة عندنا ، فإن هذه الأيام إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض فكيف يكون أصل خلقتها في أيام منها) (٩) ويريد الأستاذ الإمام أن يقول أن الزمان مخلوق مع بداية خلق العالم ، فكيف يكون هناك زمان قبل الزمان ؟ والأيام تحددت علي أساس دوران الأرض ، فكيف يكون هناك أيام قبل خلق الأرض ؟

والواقع أن الفكرة اليهودية عن عملية خلق العالم هي التي شاعت في التراث البشري بأسره خصوصاً عند التفسيرات الدينية حتي أن بعض المفسرين المسلمين قد شايع هذه الأقوال إلي أن «« الله خلق التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلي الليل »» (١٠) – وهو تفسير ظاهر البطلان: –

أولاً : – لأن الأيام من السبت حتي الجمعة سبعة أيام لا ستة ، مع أن الآية التي يفسرها تتحدث أصلاً عن ستة أيام .

---

(٩) تفسير المنار الجزء الثامن ص ٤٤٥ طبعة دار المنار – القاهرة ١٩٥٢ .

(١٠) ذكره النسفي في تفسيره وآخرون .

ثانياً : – لأن تقسيم الأيام إلي سبت ، وأحد .. إلخ مرتبط بدوران الأرض فكيف يمكن أن توجد قبلها ؟

ثالثاً : – الأخذ بالمعني الحرفي لأيام الخلق فيه مسايرة شديدة للتفكير اليهودي الذي سخر منه القرآن أكثر من مرة .

رابعاً : – هناك آيات كثيرة ، سوف نتعرض لها بعد قليل ، تنسخ هذه الأيام الستة التي اجتهد المفسرون في تفسيرها وتصنيف ألوان الخلق فيها .

ونحن نريد أن نفهم النسخ هنا بالمعني «« الهيجلي »» لكلمة «الرفع» أي الحذف والإبقاء في آن معا . ومن الآيات التي تنسخ الآيات السابقة قوله تعالي : **﴿ وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾**[11] ومعني ذلك أن عملية الخلق لم تستغرق ستة أيام فقط كما تصورنا في البداية حين أخذنا بالمعني الحرفي للآيات السابقة ولكنها أستغرقت ستة آلاف سنة من حسابنا الزمني ، وهذا هو المعني الذي أخذ به القرطبي حيث يقول : «« ستة أيام أى من أيام الآخرة ، كل يوم ألف سنة ، وذلك لتفخيم خلق السموات والأرض»»[12] ، أي أن القرآن يريد أن يبيّن لنا مقدار ضخامة خلق العالم ، كما يعتقد القرطبي فذكر أن اليوم ليس يوماً عادياً ولكنه يساوي بحسابنا ألف سنة ، لكني أعتقد أن مغزي الآية الكريمة أعمق من ذلك بكثير : إنها تريد أن تحذف معني «« اليوم »» الذي نعرفه تمام ، تريد أن تمهد للانتقال إلي اللحظة الإلهية الأبدية التي تخرج تماما من نطاق الزمان ، وهكذا تنقلنا الآيات القرآنية بالتدريج من عالم الزمان الذي ألفناه إلي عالم الآلوهية الأبدي . عالم الخلود .

---

(١١) آية ٤٧ من سورة الحج.

(١٢) – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – المجلد السابع ص ٢١٩ دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .

والواقع أن اليهود بتركيبهم المادي والحسي الذي لا يؤمن إلا بما هو مادة وبما هو محسوس(١٣) ، لم يكن في استطاعتهم فهم النظام الأزلي أو النظام الإلهي اللازماني أو الأبدية الخالصة المجردة من كل ما هو محسوس ، في حين أن القرآن يكشف عن هذا النظام بالتدريج ، فإذا كانت هناك آيات هي بمثابة القنطرة التي تمكننا من أن نعبر بواسطتها من النظام الزماني إلي النظام الإلهي ، تتحدث عن الخلق في ستة أيام ، فإن القرآن يحرص بأن يخرج « اليوم الآلهي » تماماً عن نطاق الزمان ، يقول تعالي : ﴿ **.. ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾(١٤) فكان الخلق قد تم في ستة آلاف سنة كما ذكر القرطبي ، لكن الرائع حقا أن نجد القرآن يحرص علي ألا يستقر هذا المعني في أذهان الناس لأن السنوات الكثيرة الضخمة هي في النهاية سنوات ، أعني جزءاً من الزمان ، في حين أن القرآن يريد أن يصل بنا إلي النظام الإلهي إلي اللازمان ، ومن هنا نجد نسخاً لهذه الآيات السابقة، فليس المقصود ستة آلاف سنة بشرية ، بل المقصود إعطاء صورة بالغة الضخامة عن اليوم الإلهي يقول تعالي : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾(١٥) وهكذا نصل إلي خطوة أعلي ودفعة إلي الأمام علي طريق الأبدية ، فاليوم الواحد يعادل خمسين ألف سنة، كأن عملية الخلق تمت في ثلاثمائة

---

(١٣) التركيبة الحسية لليهود ظاهرة بوضوح في تاريخهم بأسره وهي السبب الرئيسي في اهتمامهم بالمال والتجارة والاشتغال بالمسائل الاقتصادية عموماً اكثر من الأمور المعنوية ، وهذا واضح في إصرارهم منذ بداية تاريخهم الأول علي عدم الإيمان بالله إلا بعد رؤيته رأي العين : « وإذ قلتم يا موسي لن نؤمن لك حتي نري الله جهرة » .. وتدل غضبة القرآن الكريم العنيفة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون .. » علي روعة الفهم القرآن ودقة تصوره لله ، فما يري « جهرة » هو المادة ، ومن هنا كان استحالة مطلبهم وغبائه في الوقت نفسه

(١٤) آية ٥ من السجدة .

(١٥) آية ٤ من سورة المعارج .

ألف سنة مضروبة في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً (هو مقادر السنة) ؛ لتجد أنها استغرقت أكثر من مائة «« مليون»» يوم ! لكن حتي هذه الملايين من الأيام ليست مقصودة بذاتها وإنما هي رمز يعبر عن اللحظة الإلهية ، ويريد أن يقول إن عملية الخلق تمت في لحظة هي ذرة من الأبدية تخرج تماماً عن نطاق الزمان .

هذه اللحظة الإلهية ليس فيها يوم ولا أمس ولا غد ، لأنها كما قلنا تبعد عن مجري الزمان فهي آن أبدي ، أو حاضر سرمدي يعلو فوق جميع اللحظات ولا يخضع للتغير أو التطور ، ولهذا فقد كان الشيخ عبد الجليل عيسي دقيقاً في تفسيره لآية الخلق في ستة أيام حين قال: «« المراد باليوم هنا مدة من الزمن لا يعلم مقدارها إلا علام الغيوب ، وكل ما ذكر فيه من قبيل التقريب لعقولنا »»[١٦] ، أي تقريب معني الأبدية للعقل البشري . ويمكن للمرء أن يتصور معني الأبدية تصوراً خاطئًا فيظن أنها زمان لا نهاية له أو هي الزمن غير المحدد ، وهذا بالطبع تصور فاسد ، هو الذي أطلق عليه الفيلسوف العظيم «« هيجل »» اسم اللامتناهي الزائف الذي يعبر فقط عن الكثرة أو الضخامة دون التعبير عن اللاتناهي الحقيقي ، إن الزمان الذي لا نهاية له يتكون من آنات أو لحظات ، كل لحظة منها لها «« قبل »» و «« بعد »» ، فهي من ثم محدودة ، ومجموع المحدود مهما تبلغ ضخامته محدود أيضًا ، أما الأبدية فهي اللازمان ، هي الحاضر الدائم الذي يبعد تماماً عن شريط الزمان

والواقع أن القرآن الكريم يصور هذه الأبدية الآلهية تصويراً رائعاً للغاية حين يسقط الماضي والحاضر والمستقبل بضربة واحدة بحيث لا

---

(١٦) المصحف الميسر ص ٢٠١ من الطبعة الرابعة – دار الشروق ، وقارن أيضا ص ٥٤٥ وص ٧٦٥.

يكون قائماً سوي الآلهي الذي هو جزء من الأزل : ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾[١٧] وهكذا ببساطة شديدة يصور القرآن الكريم المرحلة الثالثة مرحلة النظام الآلهي : لا أيام ولا أسابيع ، لا أشهر ولا سنوات: ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ [١٨] فكما يقول صاحب الميزان : «« إن الذي يفيض منه تعالي لا يقبل مهلة ، ولا نظرة ولا يتحمل تبدلاً ولا تغييراً »» [١٩] وهذا هو الوصف الصحيح لعملية الخلق : «« كن ، فكان كل شيء »» وهو أيضاً الوصف الصحيح لكل أمر الهي : ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً علي إبراهيم** ﴾[٢٠] ولهذا يتساوي الليل والنهار ، أو قل لا ليل ولا نهار إلا عندنا نحن البشر : ﴿ **أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** ﴾ [٢١] .. ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ [٢٢] ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾[٢٣] لأن فعله تعالي غير تدريجي (أي لا يحتاج إلي وقت أو زمان أرضي) ونستنتج من هنا أن كل موجود تدريجي فله وجه غير تدريجي به يصدر عنه تعالي كما قال : «« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »»[٢٤] ويقول الأشعري : «« إن الله هو القادر منذ الأزل ، وهو الذي يخلق إذا شاء ،

---

(١٧) – آية ٤٠ من سورة النحل ولقد تكرر هذا المعنى فى كثير من الآيات انظر مثلا آية ١١٧ من سورة البقرة – وآية ٤٧ من آل عمران – وآية ٣٥ من سورة مريم – وآية ٦٨ من سورة غافر .

(١٨) آية ٥٠ من سورة القمر .

(١٩) « والميزان فى تفسير القرآن » – تأليف السيد محمد حسين الطباطبائى المجلد السابع عشر ص ١١٦ – مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م .

(٢٠) آية ٦٩ من الأنبياء .

(٢١) آية ٢٤ يونس .

(٢٢) آية ٣٨ من الأحزاب .

(٢٣) آية ٤٧ من سورة النساء .

(٢٤) « الميزان فى القرآن » للطبطبائى المجلد الأول ص ٢٦١ .

ومتي شاء وما شاء ، ولكنه غني عن الخلق ، وهو بخلقه لعالم المادة يضع له حدود الزمان والمكان في الوقت نفسه [٢٥] ويوم يذهب المؤمنون للقاء ربهم يوم القيامة فإنهم يلجون باب الأبدية ولهذا يقال لهم : ﴿ أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾[٢٦] لم يعد يوماً عادياً لكنه يوم الدوام والبقاء : يوم الأبدية ولهذا فإن القرآن يطلق علي الجنة ﴿ دار المقامة ﴾[٢٧] أي دار الإقامة الدائمة .

لا يجوز إذن الحديث عن النظام الإلهي بألفاظ من النظام الزماني البشري الذي يتألف من لحظات كل لحظة هي «قبل» التي تليها ، «بعد» التي تسبقها ، وبمعني أوضح ليس هناك ماض وحاضر ومستقبل بالنسبة لله، لأنه تعالي في حاضر أبدي أو في آن دائم ، وفهم هذه الفكرة جيداً سوف يحل في سهولة جانباً معقداً من مشكلة حرية الإدارة البشرية .

***

(٢٥) – دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثامن ص ٤١٣ .

(٢٦) آية ٢٤ من سورة الأحقاف .

(٢٧) آية ٣٥ من سورة فاطر .

« القرآن والبحث التجريبى »

تمهيـــــد :

في القـرن الـرابع قبل مـيلاد السـيد المسـيح وقف سـقـراط يدافع عن نفسـه ضد التهم التي وجـهها إليه «« مليتس »» ومنهـا اهـتمامـه بدراسة الطبيـعة والبحث في ظواهـرها المخـتلفة فهو «« طُلعة يصعد البـصر إلي السـمـاء ومـا تحـتـوي ثم ينفـذ به تحت أطبـاق الثـري ... »»[1] ولقـد دفع الفيلسـوف عن نفسـه هذه التهمة «« البشـعة »» بـكلمات هامة يحسن أن نسـوقـها بـنصـها مـترجـماً : قـال سـقـراط في دفـاعه : «« ... لأشـد مـا يسـوؤني أن يتهمني مليتس بمثـل هـذا الاتهام الخطير . أيها الأثينيون ! الحق الصراح أني لا أتصل بتلك الدراسـة الطبيعية بسـبب من الأسباب ، ويشـهد بصدق قولي كثيـر من الحضـور ، فإليهم احتكم ، انطلقوا إذن ، يا منْ سـمعـتم حـديثي وأنبئـوا عني جيرانكـم ، هل تحدثت في مـثل هـذه الأبحـاث كـثيـراً أو قليـلاً ... ؟ انصـتوا إلي جـوابهم ؛ لتـقطعـوا في سائر الاتهام بصدق مما يقررون ... »»[2] ولقد كان سـقراط صادقاً فـعلاً في نفي الاتهام ، إذ لم يعـرف عنه أنه مال إلي دراسـة الظواهـر الطبيـعية أو شـغف بالبحث التجريبي اللـهم إلا مـرة واحدة عندما وقع عند صـديق علي كـتـاب للفـيلسـوف اليـونـاني «« أنكسـاجـوراس »» عـنوانه : «« في الطبـيـعـة »» ولم يـكن مـا جـذبـه في الكتـاب عـنـوانه وإنما تلك العـبـارة

---

(١) محاورات أفلاطون – ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ص ٤٩ – لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة عام ١٩٦٦ (محاورة الدفاع) – وانظر أيضا للدكتور زكي نجيب محمود كتابه «« نحو فلسفة علمية »» مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٥٨ .

(٢) محاورات أفلاطون – الترجمة السابقة ص ٤٩ .

الشـهيـرة التي يقـول فـيهـا المؤلف إن «« العـقل يحكم العـالم ... »» أو أن الطبيعة وظواهرها تجسيد للـعقل : «« لإشدَّ ما اغتبطتُ لذكر هذا الذي كان باعـثاً علي الإعجاب وخـالـجني أمل إنني سوف أجد مـُعلماً يبيّن لي كيف أن الطبيعة تنسجم مع العقل ...[٣] »» ... لكنني لم أستسلم طويلاً لهـذا الأمل فلشدَّ مـا كـانت خـيبـة أمـلي عندمـا عكفتُ علي كـتـابات أنكسـاجـوراس فـوجـدته بدلاً من أن يـلجـأ إلـى العـقـل يلجـأ إلي علل خارجـية : كـالهـواء والأثيـر ، والماء ، وما إليـهـا ... »» [٤] وموقف سـقـراط هنا يكشف لنا عن حـقيقـتين هامتين تتـميـز بهما الحـضارة اليـونانية كلها وتتضـحـان في فلسـفة أعلامها : سقراط وأفلاطون وأرسطو .

الحـقيقـة الأولي هي : أن فلاسـفة اليـونان كانوا ينفـرون من دراسـة الظواهـر الطبيعية وكل ما يتصل بالمادة .

والحـقيقـة الثانيـة : أنهم كـانوا يميلون حين تجـذبهم هـذه الظواهـر لسبب ما ، إلي دراستها دراسة عقلية وليسـت تجريبية .

فـعلي نفس الدرب صـار أفـلاطون الذي كان وفـيـاً لتـعاليـم أستـاذه فـذهب إلي أن عـالم الـطبـيـعـة ومـا فـيـه من ظواهـر وأحـداث ليس عـالماً حقيقياً ، ولكنه مجرد ظلال للعالم الأصلي الحقيقي ، عالم المثل ، الذي يُدرَك بالعقل وحـده ، ومن ثم فالمعرفـة الحقة هي معـرفة المثل وهي في جوهرها معرفة عقلية ويـصل هذا التيار العقلي الذي هو قلب الفلسـفة اليونانيـة وعمـودهـا الفـقري ، إلـي قمتـه في منطق أرسطو أو قل إن هـذا المنطق لم يكن سـوي تعبيـر وتلخيص للروح اليـونانية بأسـرهـا ، ولقد

(٣) النصـوص مـقـتبـسة مـن مـحـاورة فـيدون لأفـلاطون من ٩٧ حـتي ٩٨ د . وفي الترجـمـة السابقة ص ١٧٩ وما بعدها .

(٤) نفس المرجع السابق – وقارن مـا يذكره هيجل عن هـذه القصة في ترجمتنـا العربية لكتابه «« محاضرات في فلسفة التاريخ »» الجـزء الأول ص ٧٦ – ٧٧ ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٧٤ .

ظل منهجه الاستنباطي سائداً طوال العصر الوسيط.. « إلي أن ظهر في تاريخ العلم ذلك النشاط الذي تفجر .. في القرن السابع عشر وأسماه رجال ذلك العهد بالفلسفة الجديدة وأسموه : الفلسفة التجريبية ...»[٥] علي حد تعبير أحد الباحثين ! وهذه العبارة نفسها أكبر شاهد علي عقلانية الفلسفة اليونانية وبُعدها عن الدراسات التجريبية التي اعتبرت كشفاً هائلاً في القرن الثالث عشر عندما أشار روجر بيكون R.Bacon (١٢٩٤) إلي التجربة كطريقة جديدة من طرق المعرفة ، أو في القرن السابع عشر عندما نظم فرنسيس بيكون F.Bacon (١٦٣٩) هذه الطريقة ونسقها وجعل منها منطقاً جديداً أسماه : « الأرجانون الجديد Novum-Organun » أو الأداة الجديدة في الكشف العلمي التي جاءت ؛ لتعارض الأداة القديمة عند أرسطو .

والحق أن هذه الطريقة التجريبية لم توجد « بغتة » ولم تكن كشفًا هائلاً إلا بالنسبة للأوربيين الذين بدأوا يستيقظون في عصر النهضة من غفوتهم (.. ففي الوقت الذي أخذت فيه شمس الحضارة العربية في العصر الإسلامي تمثل إلي الغروب ، وبدأ مدّها العالي في الانحسار ، جعلت أوروبا تفيق من سباتها الطويل ، فتتلقي إشراقة شمس الحضارة العربية ويغمرها فيض العالم العربي ، فقد أدرك الأوروبيون تخلفهم عن العرب ، وحاجتهم إلي الاغتراف من هذا المعين الجديد والنهل من هذا النبع الصافي ، فترجموا كتب العرب إلي اللغة اللاتينية » ..[٦] لكننا مع ذلك كله لا نود هنا أن نتحدث عن فضل العرب وعلمائهم علي أوروبا من أمثال جابر بن حيان ،. والخوارزمي ،

---

(٥) جيمس كونانت : « مواقف حاسمة في تاريخ العلم ... » ص ٨١ – ترجمة الدكتور أحمد زكي – دار المعارف بمصر .

(٦) دكتور عبد الحليم منتصر في كتابه « تاريخ العلم : ودور العلماء العرب في تقدمه » ص ١٣٣ من الطبعة الثالثة – دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ م .

أو ثابت بن قرة ، أو الرازي ، أو ابن يونس ، أو الحسن بن الهيثم أو البيروني أو ابن النفيس ... إلخ ، إلي آخر تلك الأسماء اللامعة التي تزدان بها حضارة العرب (٧) . – وإنما نود أن نطرح مشكلة أخري قد تكون غريبة عن البعض وهى : ألا يمكن أن نلتمس في القرآن الكريم «روح» البحث التجريبي ؟!

يقول محمد إقبال في عبارة مضيئة : إن الفلسفة اليونانية كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام لكن علي الرغم من أنها وسعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام ، فإنها حجبت عنهم رؤية الجانب التجريبي في القرآن ، وهو يضرب مثلاً بسقراط الذي كان يقصر همه علي عالم الإنسان وحده ، وكان يري أن معرفة الإنسان معرفة حقة إنما تكون بالنظر في الإنسان نفسه لا بالتأمل في عالم النبات والهواء والنجوم ويعلق علي ذلك بقوله : « ما أشد مخالفة هذا لروح القرآن الذي يري في النحل علي ضآلة شأنه محلاً للوحي الإلهي: ﴿ **وأوحي ربك إلي النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ..** ﴾ . والذي يدعو القاريء دائماً إلي النظر في تصريف الرياح المتعاقبة وتعاقب الليل والنهار ، والسحب ، والسماء ذات النجوم ، والكواكب السابحة في فضاء لا ينتهي .. » (٨) .

ونحن لا نزعم أن هناك ألواناً من المعارف أو المعلومات أو القوانين والنظريات العلمية في القرآن ، أو أنه سبق العلم في العصر الحديث وكشف عن كذا وكذا من القوانين التي يفاخر بها العلماء ، فلم يخطر لنا ذلك علي بال ، ولن نكون من السذاجة بحيث نؤول آيات الكتاب

---

(٧) آية ٦٨ من سورة النحل .

(٨) محمد إقبال « تجديد التفكير الديني في الإسلام » . ترجمة عباس محمود ، ص ٨ – ٩ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٥ م .

الكريم تأويلاً يخرج بها عن مضمونها الدقيق(٩) . فالقرآن كتاب هداية ودين وليس كتاباً في علم الطبيعة أو الأحياء أو الفلك أو غيرها من العلوم ولا ينبغي له أن يكون لأن هذه العلوم « جزئية » تبحث في جوانب معينة من الكون بحيث يتخذ كل علم «شريحة » واحدة لتكون موضوعًا لدراسته . أما القرآن الكريم فهو يقدم مفاهيم عامة وتصورات كلية وخطوطاً تعتبر مؤشرات علي ألوان من التفكير ، ومن هنا انصب بحثنا الحالي عن « التصور القرآني للكون أو المنحي الفكري الذي يحثنا عليه القرار عندما نبحث في ظواهر الطبيعة » وباختصار : هل تتفق « روح القرآن » مع « روح » البحث التجريبي الذي هو عماد العلم الحديث أم لا .. ؟! سوف نتحدث فيما يلي عن النقاط التى تُعتبر في رأينا أسساً للبحث التجريبي ، أو تمثل الأركان الرئيسية التي يقوم عليها بناء المنهج العلمي الحديث ، ومن هذه الأركان ، مثلاً ، أن يتم تفسير ظواهر الطبيعة بظواهر طبيعية أخري ، نعني أن يكون هناك ربط مادي بين الظواهر، ثم أن يكون هذا الربط دائماً ومستمراً بحيث نستطيع أن نستخرج منه قانوناً، ومنها أيضاً عدم كسر الإطراد بين أحداث الطبيعة بإدخال قوي خارقة تسيِّر الظواهر أو تفسر الأحداث ، وكذلك الاهتمام بالملاحظة التي هي بداية السُلَّم بالنسبة للباحث ، ومنها أيضاً استخدام الحواس في البحث التجريبي ، وأخيرا نتحدث عن احترام العلم والعلماء وتقدير القرآن الكريم لمكانتهم .

---

(٩) اظر نقد إحدي هذه المحاولات الساذجة التي تحاول تأويل مسألة خلق آدم وذريته لكي تتفق مع نظرية دارون – كتاب الدكتور علي فهمي : « الحركة والسكون » ص ٢٠٩ وما بعدها – دار مكتبة الفكر ، الطبعة الأولي طرابلس ج . ع . ل عام ١٩٧٢ م .

ا - الربط المادي بين الظواهر ...

ربما كان الأساس الأول للتصور العلمي للكون أن تفسر الظواهر المادية التي تحدث فيه بظواهر مادية أخري دون أن تدخل في تفسيرك عنصراً غيبيًا يكون سبباً في إحداث الظاهرة ، يقول الدكتور زكي نجيب محمود في هذا المعني : ‹‹ المفروض في المنهج العلمي أن تربط الظاهرة المادية التي تريد تفسيرها بظاهرة مادية أخري ، وليس من العلم في شيء أن نربط الظواهر التي أمامنا بأخري مما لا يمكن مشاهدتها ولا إخضاعها للتجارب ، كالأمور الغيبية ، أو الأشياء الخارقة للطبيعة›› (١٠) . وهو يستطرد ؛ ليوضح لنا هذه الفكرة فيضرب مثلا لظاهرة واحدة يفسرها العالم تفسيراً علمياً سليماً حين يربطها بظاهرة مادية أخري ، ويفسرها الرجل الجاهل تفسيراً خرافياً حين يربطها بأسباب غيبية – يقول : ‹‹ خذ هذه القصة التي (يرويها سير برس نن .Sir Percy . Nunn) ، كان رحالة علمي التفكير ، متنقلاً علي هضبة من جبال الأنذير ، ومستصحباً معه دليلاً من أهل الجبل ، فلاحظ الرجلان وهما علي قمة الهضبة ، حين أراد طهو طعامهما من البطاطس ، أن البطاطس لا تنضج بالرغم من غليان الماء ، فعلل الدليل لهذه الظاهرة بأن وعاء الطهو حلت به الشياطين فمنعت البطاطس من النضج، أما الرحالة ذو التفكير العلمي فقد وجد في هذه الظاهرة مثلاً واضحاً يبين كيف تتوقف درجة غليان الماء علي ضغط الهواء ، فلما كان ضغط الهواء علي قمة الجبل العالية قليلاً ، تطلب غليان الماء درجة من الحرارة أقل من الدرجة التي يغلي عندها وهو علي سطح البحر ، وهكذا تري الرجلين إزاء موقف واحد من وقائع محسوسة ، إلا أن كلاً

---

(١٠) المنطق الوضعي ، الجزء الثاني ، ‹‹ في فلسفة العلوم ›› – ص ١٤٥ الطبعة الرابعة مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٦٦ م .

منهما ذهب مذهباً يختلف عن مذهب زميله في التعليل . فواحد يربط المحسوس بالغيبي فلا يكون عالماً ، وآخر يربط المحسوس بمحسوس غيره فيتوافر فيه شرط المنهج العلمي ، ومن هنا لا نعد الأساطير علماً حتي وأن اتسقتْ أجزاؤها ، لأنها تعلل الأشياء بقوي خارقة للطبيعة »[11] .

هاتان طريقتان في تفسير ظواهر الطبيعة ، فإلي أي منهما يوجه القرآن الكريم نظر الإنسان ؟ هل يدعوه إلي تفسير ظواهر العالم بظواهر أخري مادية ، أم أنه يفسر الظواهر الطبيعية بالشياطين والأرواح ... وما إلي ذلك من أمور غيبية .. ؟ خذ مثلاً الآيات الكريمة الآتية : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ..** ﴾[12] ﴿ **ثم شققنا الأرض شقًا ، فأنبتنا فيها حبًا ، وعنبًا وقضبًا ..** ﴾[13] ها هنا آيات تتحدث عن ظواهر طبيعية تماما : ظاهرة نمو النبات الذي يخرج من التربة الأرضية متعدد الأنواع فيه الحبوب والبقول والفواكه وغيرها من ألوان الزرع ، لكن كيف يصور القرآن الكريم ظهور هذه الألوان المختلفة من النبات ، وكيف يعلل نموها وتنوعها ؟ .. أتراه يلجأ في تفسيره لهذه الظواهر المادية إلي عناصر «غيبية » أم أنه ينبهنا إلى الركيزة الأولي في قيام البحث التجريبي، عندما يوجه نظر الإنسان إلي ربط الظاهرة المادية بظاهرة مادية أخري تكون علة لها .. ؟ فلنتأمل هذه الآيات التي تعلل ظهور النبات من تربة الأرض وتفسر استمرار نموه : ﴿ **وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.** ﴾[14] كأن اهتزاز الأرض

---

(١١) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(١٢) آية ٧ من سورة ق .

(١٣) آية ٢٦ ـ ٢٨ من سورة عبس .

(١٤) آية٥ من سورة الحج .

ونشوتها بعد أن كانت جثة هامدة ، ونشأة النبات سببه سقوط المطر ! أرأيت أروع من هذا الربط المادي بين الحوادث ؟! وهل تتطلب منا النظرة العلمية إلي ظواهر الكون غير هذا اللون من الربط ؟ **﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة .. ﴾**[١٥] أمامك الأحداث وتفسيرها : اخضرار الأرض (ظاهرة مادية) سببه سقوط الأمطار (ظاهرة مادية أخري) ! بل أنك لتجد ما هو أروع من ذلك ! لأن القرآن الكريم لا يرد اخضرار الأرض إلي علة مادية فحسب بل إنه ليبارك هذه العلة المادية فيصفها تارة بأنها ماء « مبارك » وتارة أخري بأنها ماء طهور ! **﴿ ونزلنا من السماء ماءً مباركًا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد .. ﴾**[١٦] **﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورًا ، لنحي به بلدةً ميتًا ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسي كثيرًا .. ﴾** [١٧] .

وهذا الوصف في تصورنا بالغ الدقة : فالماء لابد أن يكون «مباركا» و « طهورا » ؛ لأنه يعمل ، من ناحية علي بث الحياة في الجثة الميتة التي هي الأرض والتي كانت قبل سقوطه عليها « هامدة » كما يصفها القرآن **﴿ ... وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا بها الأرض بعد موتها .. ﴾** [١٨] كما يعمل الماء من ناحية أخري علي توفير الرزق للبشر وللحيوانات المختلفة : **﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾**[١٩] **﴿ وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة.. ﴾**[٢٠] .. **﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلي الأرض الجرز فنخرج به**

---

(١٥) آية ٦٣ من سورة الحج ..
(١٦) آية٩ من سورة ق .
(١٧) آيات ٤٨ – ٤٩ من سورة الفرقان .
(١٨) آية١٦٤ من سورة البقرة .
(١٩) آية ٣٢ من سورة إبراهيم .
(٢٠) آية ٦٠ من سورة النمل .

زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون.. ﴾[٢١] .. ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾[٢٢] وبدهيّ أن القرآن يتحدث حديثاً عاماً ؛ فهو لا يقصد بالحديث عن لون معين من ألوان الفاكهة أن يقدم لنا قوانين هذا الفرع من علم النبات ، ذلك لأنه كما قلنا ليس كتاباً في علم معين بالمعني التجريبي لهذه الكلمة ، لكنه يعطي للإنسان اتجاهاً عاماً ، أو بلغة الفلسفة « مبادىء كلية » أو مؤشرات للتفكير ! إذا ما كان موضوع التفكير ظاهرة من ظواهر الطبيعة يكون لون التفكير المناسب هو كذا ، وإذا كانت فكرة عقلية يكون لون التفكير المناسب هو كذا . وهذا هو السبب في أنك تجد القرآن في آيات كثيرة يدعو إلي النظر العقلي في بعض الأمور وإلي البحث التجريبي في بعضها الآخر ، فإذا ما كان الحديث عن ظواهر الطبيعة فإن التفكير المناسب هو التفكير العلمي التجريبي الذي يربط السبب بالمسبب ، أو العلة بمعلولها ، ربطا يمكن التحقق منه بالمشاهدة والملاحظة وإجراء التجارب ، وبالتالي يستبعد أية عناصر «غيبية » أو قوي لا نستطيع إخضاعها للملاحظة الحسية .

ومعني ذلك أن الحديث السابق عن « الثمرات » أو « الحدائق » أو «العنب » أو « حب الحصيد » .. إلخ ليس سوي أمثلة ترشدنا إلي الفهم الصحيح الذي ينبغي أن نأخذ به إن أردنا تفسير سير الأحداث في العالم ، وربط الظواهر الطبيعية بعضها ببعض بطريقة تجعلنا في النهاية نصل إلي القوانين التي تسيطر عليها ونتحكم في مسارها . فالآيات هنا « توجه » أنظار الناس وترشدهم إلي « المنحي العلمي » السليم لفهم العالم وظواهره ، إنها مرشد إلي البحث التجريبي دون أن

(٢١) آية ٢٧ من سورة السجدة .
(٢٢) آية ٥٤ من سورة طه .

تكون «منهجاً علمياً» محدد الخطوات، فذلك متروك للإنسان لكي يضعه بناء علي «الخطوط العريضة» التي أشار إليها القرآن: تماما كالدستور (لاحظ أن كلمة الدستور كلمة فارسية معناها: القانون الأساسي) الذي يضع الأسس العامة لحياة المجتمع، ثم يترك التفصيلات الجزئية تحددها القوانين. فنحن هنا أمام دستور في التفكير يرشدك إلي ما هو مناسب للموضوع الذي تدرسه ويترك لك التفصيلات الجزئية، وذلك هو الوضع الأسلم والأدق لحياة الإنسان، وقد يقول الكسالي: ولماذا لا يعطينا التفصيلات الجزئية، والقوانين والنظريات .. إلخ؟ والرد واضح: إن ذلك يقضي علي حياة الإنسان وتطوره وكدحه وجهده، نعني أنه لا يجعل له دوراً علي الإطلاق، ولا يجعل لحياته، معني وبالتالي فهو يقضي عليه بالتجمد والفناء ..

نعود إلي تفسير الظواهر المادية كما نراها في آيات القرآن الكريم، لقد أشرنا بما فيه الكفاية إلي ربطه بين نزول الماء» «وظهور النبات» أو اخضرار الأرض بسبب فعل الماء، لكن أيقف القرآن عند هذا الحد؟

بمعني آخر: كيف يفسر القرآن سقوط المطر، وما هو التصور الذي يقدمه لنزول الماء من السماء ..؟ أيفسر هذه الظاهرة المادية بعلة «خارقه» للطبيعة، أم بعلة مادية أخري ..؟ ونترك الإجابة لآيات القرآن نفسها: ﴿ **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلي بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها** ﴾[٢٣] وعلينا أن نلاحظ سلسلة الحوادث المادية الكثيرة، وكيف ترتبط الواحدة بالأخري: الرياح تثير سحابا، فيؤدي هذا السحاب الذي هو، بلغتنا العلمية الحديثة، هواء مشبع ببخار الماء حين يقابل سطحاً بارداً، إلي سقوط الأمطار التي

---

(٢٣) آية ٩ من سورة فاطر.

تسقي الأرض « ترويها » ، فتهتز وتخضر بعد جفاف وموات ! وقد يعطي القرآن أمثلة أخري لسير السحاب : ﴿ **ألم تر أن الله يُزجي سحابا ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً فتري الودق يخرج من خلاله.** ﴾[(٢٤)] .

نحن نعرف أن « الماديين » الذين يعز عليهم ألا يتعارض القرآن مع العلم ، بل علي العكس ، يرونه يحض علي التفكير العلمي ويحث الإنسان علي البحث التجريبي ـ نعرف أنهم سوف يعترضون علي هذا التفسير الذي نسوقه بحجة أن الآيات مثلاً ، لا تتحدث عن علل مادية لظواهر الطبيعة « دائما » ألا تري ، هكذا نتصور المعترض الواثق من صدق دعواه ـ أن الآيات تقول إن « الله يزجي » ، أو إن « الله الذي أرسل الرياح .. » .. إلخ ، فهي هنا لا تتحدث عن « علة مادية » ! لكن الاعتراض ساذج جداً ؛ لأن الله هو الخالق ، ونحن لم نقل أن القرآن يخلو من الموجودات الروحية . كالملائكة أو الروح .. إلخ فهو كما سبق أن ذكرنا كتاب دين وهداية ، لكننا نقول : إن جانب الروحانيات كلها بما فيها الإلهيات ، إنما تقع في الجانب الخاص بالدين والعقيدة ، أى أنها تقع خارج التفسير الذي يقدمه القرآن لظواهر الطبيعة : فأنت حين تقدم علي دراسة أحداث طبيعية ـ أي مادية نعني ما يقع داخل الكون ـ لا تجد القرآن يتحدث عن تفسيرات غيبية لظواهر الطبيعة علي الإطلاق . لكنه كثيراً ما يتخذ هذه الظواهر الطبيعية ، كما سوف نري بعد قليل ، دليلاً علي وجود الله ، وعلي وحدانيته ، تأمل قليلاً هذه الآية : ﴿ **... ومَنْ يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ أءله مع الله** ﴾[(٢٥)] تجد أنها لا تفسر ظاهرة الرياح بقدر ما تستهدف تأكيد وحدانية الخالق .

---

(٢٤) أية ٤٣ من سورة النور .

(٢٥) أية ٦٣ من سورة النمل .

فليس هناك تفسيرات غيبية لظواهر الطبيعة ، ولا حديثاً عن علل أو قوي « خارقة » أو عناصر لا يمكن مشاهدتها تؤثر في الأحداث الطبيعية ، أليس مما يدعو إلي الدهشة والتعجب والتأمل معاً أن تجد من الناس في القرون الوسطي المسيحية من يعتقد أن سقوط المطر ليس إلا دموع المظلومين الذين تصعد أرواحهم إلي ربهم تشكو ظلم الناس علي الأرض ! أو يذهب غيرهم إلي أن نزول الماء من السماء هو الدليل علي أن الملائكة تغسل السماء ! في الوقت الذي يلفت فيه القرآن الكريم أنظار الناس إلي هذا الربط المادي بين ظواهر الطبيعة الذي هو الأساس الأول في بناء المنهج العلمي ؟؟ (٢٦) .

وفي استطاعتنا أن نسوق عشرات ، بل مئات ، من الآيات القرآنية التي تتحدث عن ظواهر الطبيعة وتربطها ربطاً وثيقاً بعضها ببعض دون دخل من عناصر غريبة ، وبغير إقحام لقوي لا يمكن التحقق منها تجريبياً ، أعني تفسرها علي النحو الذي تتطلبه النظرة العلمية الدقيقة فإلي جانب الرياح التي تحرك السحب ، ونزول الأمطار علي تربة الأرض ، ونمو النبات وتعدد أنواعه بفعل الظواهر الطبيعية السابقة هناك عملية التلقيح التي تقوم بها الرياح ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾(٢٧) ، ﴿ **ومن المُعْصِرَاتِ ماءً ثَجَّاجًا..** ﴾(٢٨) ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي**)(٢٩) ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء..** ﴾(٣٠) .

---

(٢٦) انظر ، مثلاً ما يقوله اندرو ديكسن وايت في كتابه « بين العلم والدين » ترجمة إسماعيل مظهر ، وقد أصدرته دار العصر للطبع والنشر عام ١٩٣٠ – وقارن أيضاً كتاب ج . ب . بيوري « حرية الفكر » ، وقد ترجمه محمد عبد العزيز إسحق عام ١٩٤٦ م . وقارن أيضاً للدكتور توفيق الطويل « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » دار الفكر العربي بالقاهرة عام ١٩٤٧ م .

(٢٧) آية ٢٢ من سورة الحجر .

(٢٨) آية ١٤ من سورة النبأ .

(٢٩) آية ٣٠ من سورة الأنبياء .

(٣٠) آية ٥ من سورة النحل .

﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا .. ﴾[٣١] .

٣ - الاطراد في الحدوث ...

إذا كان الأساس الأول للبحث التجريبي هو الربط المادي بين الظواهر ، فإن الأساس الثاني هو « دوام » هذا الربط .. بمعني أن العلم لا يكتفي بالربط بين ظاهرتين ماديتين ، بل يتطلب استمرار ترابطهما وتلازمهما في الوقوع ، وإلا كان الربط « صدفة » أو اتفاقاً ... إلخ . ومن هنا فإن العلم يلغي الصدفة والاتفاق والعرضية والشذوذ من قاموسه ليضع مكانها الاطراد ، والتلازم في الحدوث ، والربط الدائم ... إلخ . فالعلة كما يقول فلاسفة العلم تدور مع معلولها وجوداً وعدمًا ، بمعني أنها توجد كلما وجد ، وتختفي إذا غاب . وهم يقولون أيضًا : إنك إذا ربطت بين ظاهرة مادية وأخري غيبية خرجت إلي الخرافة أما إذا ربطت بين ظاهرة مادية وأخري مادية ، لكنهما لا يرتبطان إلا عرضيا ، فقد خرجت عن نطاق العلم ، فقد تربط بين حادثة وقعت لك وبين رؤيتك لقطة سوداء ، ظاهرة مادية بظاهرة مادية أخري لكنك تخرج عن نطاق العلم بهذا الربط العرضي ؛ لأن ذلك مجرد صدفة، وليس من المحتم أن تقع لك حادثة كلما رأيت قطة سوداء! العلم ، إذن ، يتطلب الربط الدائم بين الظواهر، والاطراد المستمر في وقوع الحوادث ، والغريب أن هذا المطلب هو ما يحققه القرآن تماماً ، فهو يلغي وقوع الأحداث مصادفة ، ويرفض السير الاتفاقي للأحداث ، كما ينفي العبث في ظواهر الطبيعة ...

يتساءل محمد إقبال : ما طبيعة العالم الذي نعيش فيه كما صوره القرآن؟ ويجيب : إن أول ما يقرره هو أن العالم لم يخلق عبثاً : « وما

---

(٣١) آية ٨٠ من سورة النحل .

خلقنا السموات والأرض ، وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. ›› [٣٢] بل إن القرآن الكريم لا يكتفي بنفي الشذوذ ، أو السير الاتفاقي للأحداث ، وإنما هو يدعو الإنسان في لون من ألوان التحدي إلي البحث والتأمل في ظواهر الكون لعله يجد ‹‹ثغرات ›› أو ‹‹ جوانب قصور ›› أو ‹‹ نقص ›› أو ‹‹ قطع ›› لحلقات مسلسلة الأحداث المادية المترابطة : حاول وتمعن ، وتأمل ، وارسل البصر في جوانب الأرض جميعًا ؛ لتشعر بعدها بالخزي : ‹‹ الذي خلق سبع سموات طباقا ما تري في خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل تري من فطور .. ؟! ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .. ›› [٣٣] وهو يشير إلي أن العلماء وأصحاب التفكير السليم هم وحدهم الذين يكتشفون النظام والاطراد والتلازم بين أحداث الكون وخلو العالم من العبث والصدفة : ‹‹ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلي جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك .. ›› [٣٤] فالطبيعة ، كما يقول إقبال ، ليست ركاماً من مادية بحتة شاغلة للفراغ ، بل هي بناء من حوادث أو منهج منتظم من السلوك ، ولهذا فإن الطبيعة فى التعبير القرآنى الرائع هي ‹‹ سُنَّة الله ››[٣٥] . وهو تعبير يعني النظام ، والترتيب ، والتناسق ، والاطراد والتلازم في الوقوع بمقتضي قوانين ثابتة وضعها الله لهذه الظواهر منذ الأزل فهي لا تتبدل ولا تتحول بل مستمرة ودائمة ، وذلك ينفي بالطبع وجود أحداث بلا سبب أو ظواهر

---

(٣٢) آية ٣٨ – ٣٩ من سورة الدخان وأيضا الآية رقم ١٦ من سورة الأنبياء .

(٣٣) الآية ٣ – ٤ من سورة الملك .

(٣٤) آيات ١٩٠ – ١٩١ من سورة آل عمران .

(٣٥) محمد إقبال ‹‹ تجديد التفكير الديني في الإسلام ›› ص ٦٨ .

تقع مصادفة ، فالكون ليس فيه شيء يسير علي هواه ! وإذا كان القرآن الكريم ينفر من الإنسان الذي يجعل من الهوي والصدفة والعشوائية مبدأ لحياته فيسير بغير نظام ، ولا تدبر ، ولا تعقل ، أى أن يعيش كما نقول عنه في التعبير الحديث : حياة بوهيمية ، وإذا كان القرآن يرفض هذا السلوك : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه .. ؟ أفأنت تكون عليه وكيلاً ؟ !** ﴾ (٣٦) وإذا كان هذا هو مبلغ كراهيته للفوضي إذا كانت مبدأ للإنسان العاقل ، فكيف بالظواهر المادية اللاواعية .. ؟ أليست هي بالحري خاضعة لنظام صارم دقيق لا تحيد عنه ؟ ! أليست هذه هي الحتمية التي يتحدث عنها العلم .. ؟ أليس هذا هو المبدأ الذي يقوم عليه القانون العلمي .. ؟

والحق أن القرآن الكريم يعبر عن هذه الحتمية الشاملة ، وهذا الاطراد المستمر ، والنظام الدقيق في ظواهر الكون ، بتعبيرات مختلفة، لكنها في النهاية تؤدي إلي معني واحد : هو نفي العشوائية وتثبيت النظام ، فأحيانا نجده يعبر عنها بكلمات «القدر» و«التقدير» ، بمعني أن كل شيء يسير بحساب دقيق ﴿ **إنما كل شيء خلقناه بقدر ..** ﴾ (٣٧) وكل ما في الكون يظهر بمقتضي سنة ثابتة لا تتغير ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ (٣٨) الذي وضع القوانين بميزان دقيق ﴿ **كل شيء عنده بمقدار ..** ﴾ (٣٩) وتلك مشيئته وإرادته في تدبير الكون ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً ..** ﴾(٤٠) .

وكثيراً ما يستخدم القرآن لوصف هذا النظام كلمة «التسخير»،

---

(٣٦) آية ٤٣ من سورة الفرقان .

(٣٧) آية ٤٩ من سورة القمر .

(٣٨) آية٩٦ من سورة الأنعام وكذلك آية ٣٨ من سورة يس وأيضا آية ١٢ من سورة فصلت.

(٣٩) آية ٨ من سورة الرعد .

(٤٠) آية ٣٨ من سورة الأحزاب .

وهي كلمة دقيقة ؛ لأنها تنفي « الإرادة » أو « الوعي » عن ظواهر الطبيعة ، وتجعل أحداث العالم كلها تسير سيراً حتميًا لأنها جميعاً « مسخرات بأمره » : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسخَّرات بأمره .. ﴾[٤١] فالكواكب تسير بمقتضى قانون إلهي لا تستطيع أن تحيد عنه : ﴿ وسخَّر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ﴾[٤٢] ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم .. ﴾[٤٣] .

وأحياناً يستخدم القرآن لوصف هذا النظام تعبير « التسبح » ، وإنه لما له دلالة خاصة أن تكون الآية الأولى التي يفتتح بها القرآن خمس سور واحدة تقريباً : « سبَّح لله ما في السموات والأرض » فهي الآية الأولى من «الحديد والحشر » والصف و « يسبِّح له ما في السموات وما في الأرض » الآية الأولى من « الجمعة » و « التغابن » ولا جدال في أن التسبيح المقصود هنا هو الخضوع للأمر الإلهي ، أو هو الامتثال « لسنَّة الله » ، كما يشير إقبال ، وأعني بها القوانين الأزلية التي وضعها الله للكائنات ، ولما كان كل شيء في الكون يخضع لقانون ، ولما كنا لم نكتشف جميع القوانين في الكون، التي هي في الأعم الأغلب قوانين لا تنتهي ، فإن ذلك كله تجمعه الآية الكريمة : ﴿ وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم.. ﴾[٤٤] كل شيء في هذا العالم من جبال وأنهار ، وكواكب وأفلاك ، ورعد وبرق، وطير وشجر يسبِّح بحمد الله : ﴿ ويسبِّح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته.. ﴾[٤٥].

٥

---

(٤١) آية ١٢ من سورة الحل .
(٤٢) آية ٢٩ من سورة لقمان ، وأيضا آية ١٣ من سورة فاطر ، وكذلك أية ٥ من سورة النور
(٤٣) آية ٣٨ من سورة يس .
(٤٤) آية ٤٤ من سورة الأسراء .
(٤٥) آية ١٣ من سورة الرعد .

والتعبير الأخير الذي يستخدمه القرآن للدلالة علي خضوع ظواهر الطبيعة لقوانين دقيقة وصارمة هو تعبير السجود .. **﴿ ولله يسجد مَنْ في السموات والأرض طوعاً وكرها .. ﴾**(٤٦) **﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض ﴾** (٤٧) **﴿ والنجم والشجر يسجدان .. ﴾**(٤٨) ولقد أرسل أحمد بن المعتصم بالله رسالة إلي الكندي فيلسوف العرب الأشهر يطلب منه تفسير هذه الآية الكريمة ›› والنجم والشجر يسجدان ‹‹ . ولقد كتب الفيلسوف الكبير رسالة طويلة يرد فيها علي هذا الاستفسار هي الرسالة المعروفة في تاريخ الفلسفة الإسلامية باسم : ›› الإبانة عن سجود الجرم الأقصي وطاعته لله عز وجل ‹‹ ، راح في بدايتها يحلل معني ›› السجود ‹‹ في اللغة العربية ، ويتكلم عن المعاني المختلفة لهذا اللفظ ›› السجود المعروف في الصلاة من وضع الجبهة علي الأرض ، وإلزام باطن الكفين والركبتين الأرض ‹‹ (٤٩) . كما يقال لفظ السجود أيضاً بمعني ›› الطاعة ‹‹ فيما ليست له جبهة ولا كفان ، ولا ركبتان ، وجملة ما لا يكون فيه السجود الذي في الصلاة ، فمعني سجوده : ›› الطاعة ‹‹ (٥٠) . وهو يستشهد بالكثير من أبيات الشعر العربي للنابغة وغيره ورد فيها لفظ السجود بهذا المعني . ولما كانت الكواكب والأفلاك والأشجار لا تسجد سجود الصلاة ؛ لأنها ليس لها الأعضاء التي لذلك ، فالسجود هنا بمعني ›› الانتهاء والامتثال إلي أمر خالقها ، وجريانها وفقاً لتدبيره المحكم ، بحيث تكون لها

---

(٤٦) آية ١٥ من سورة الرعد .

(٤٧) آية ٤٩ من سورة النحل ، وأيضا آية رقم ١٨ من سورة الحج .

(٤٨) آية ٦ من سورة الرحمن .

(٤٩) رسائل الكندي الفلسفية تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ٢٤٥ – الناشر دار الفكر العربي بالقاهرة عام ١٩٥٠ م.

(٥٠) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .

حركتها المنظومة المرسومة المطردة التي نسميها اليوم « بالقوانين الطبيعية » .

٣ - المعجـــــزة ...

يرتبط بتثبيت الاطراد ودعم القوانين الطبيعية فكرة أخري نسوق عنها كلمة سريعة ، وهي « عدم كسر هذا الاطراد » . فالملاحظ أن القرآن الكريم لا يلجأ أبدا إلي المعجزة التي تحطم قوانين الطبيعة أو التي تخرق نظام الكون ، فليس هناك « مشي علي الماء » مما يناقض قانون الجاذبية ، أو تحريك جبل ، أو تسخير سحاب أو رياح ، أو إحياء موتي ... إلخ . صحيح أنه يذكر معجزات كثيرة حدثت في الماضي لتأكيد نبوة بعض الرسل ، لكنه هو نفسه لا يعتمد في تأكيد دعوته علي معجزة من هذا القبيل ، هذا شيء أول . والشيء الثاني أنه حين يذكر المعجزات السابقة لا ينسبها أبداً إلي فعل بشري ، لكنه يصفها دائما بأنها « فعل إلهي » : ﴿ **فأوحينا إلي موسي أن اضرب بعصاك البحر ..** ﴾[٥١] ، ﴿ **وإذا استسقي موسي لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ..** ﴾[٥٢] ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبريء الأكمه والأبرص بإذني ، وإذا تخرج الموتي بإذني..** ﴾[٥٣]. (لاحظ كيف تكررت كلمة « بأذني » في كل فعل تأكيدا لأنه لم يكن فعلا بشريا ؛ لأن البشر لا يستطيعون تحطيم قوانين الطبيعة) .

﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلامًا علي إبراهيم** ﴾[٥٤] والشيء الثالث: إنه حين يطلب كفار قريش من النبي ﷺ أن يثبت لهم نبوته بعمل

---

(٥١) آية ٦٣ من سورة الشعراء .
(٥٢) آية ٦٠ من سورة البقرة .
(٥٣) آية ١١٠ من سورة المائدة .
(٥٤) آية٦٩ من سورة الأنبياء .

خارق للطبيعة ، أو بمعجزة من تلك المعجزات التي تعطل القوانين وتعد خرقاً لنظام العالم يدور الحوار الرائع التالي :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتي تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقي في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتي تنزل علينا كتاباً نقرؤه : قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً .. ﴾(٥٥) فالمطالب التي يجعلها الكفار شرطاً لإيمانهم هي كلها من قبيل الأفعال الخارقة للطبيعة التي لا يلجأ إليها القرآن أبداً ، والسبب بالطبع واضح : لقد آن الأوان للبشرية أن تضع قدمها علي طريق البحث التجريبي وأن تقيم العلم الذي سيكون أساس الحضارة المقبلة ، ولما كان الإسلام هو آخر الديانات بمعني « تمام الدين » أو القمة التي تصل إليها الأديان ، فلا ينبغي له أن يلجأ إلي شيء يتطلب تصحيحا ؛ إذ لا تصحيح بعد ذلك ، بل لا بد أن يشير إلي الخط السليم الذي ينبغي أن يسير فيه الباحثون عن قوانين الطبيعة والمتطلعون إلي السيطرة علي ظواهرها .

ويسوق « مالك بن نبي » موقفا آخر يدعم هذه الفكرة تدعيماً قوياً ، يقول : « **في يوم دفن ولده الوحيد الذي** رآه **يكبر (إبراهيم) ، حدث كسوف كلي ، وفسر الناس الظلمات المفاجئة بأنها** آية **علي مشاركة الطبيعة للنبي ، ولكنه صحح في حزم خطأ صحابته قائلاً : إن الشمس والقمر** آيتان **من** آيات **الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ..** » (٥٦) فلم يعد الالتجاء إلي كسر قوانين الطبيعة ، أو حتي تعطيلها أو الاستعانة بأمور

---

(٥٥) آيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الأسراء .

(٥٦) الحديث رواه البخاري . وانظر كتاب « مالك بن نبي » « الظاهرة القرآنية » - ص ١١٠ ترجمة د . عبد الصبور شاهين - الناشر دار العروبة بالقاهرة عام ١٩٥٨ م .

خارقة للطبيعة – أمراً مطلوباً لتدعيم النبوة ، لأن البشرية قد وصلت إلي مرحلة ينبغي فيها أن تعتمد علي التفكير والتعقل ، واستخدام المواهب والملكات التي منحها الله للإنسان ، بهذا وحده يتم الإيمان لمن أراد أن يؤمن ، أما المكابر المعاند الذي يصر علي موقفه ، فلن تجدي معه المعجزات حتي ولو رآها بعينه فسوف يتهم نفسه بالغفلة ، أو السحر ، أو السكر لكي يظل علي رأيه ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ..** ﴾(٥٧) .

ونحن نود أن نلفت نظر القاريء هنا إلي أن هذه الخطوة بالغة الأهمية فالمحافظة علي النظام ، ورفض اللاحتمية ، والنفور من الخلط والعشوائية في سير الظواهر والأحداث الطبيعية ، ورفض الصدفة ، ذلك كله يمثل تقدمًا هائلاً في الفكر البشري ، ولك أن تقارن هذا الموقف القرآنى العظيم الذي يضع أركان البحث التجريبي ويشيد دعائم المنهج العلمي ، بموقف أرسطو ، مثلا ، عملاق الفكر اليوناني ، والمعلم الأول .. إلخ فمن المعروف أن الصدفة كانت تلعب دوراً هاماً في مذهب أرسطو ، ومن ثم سمح بوجود أحداث عرضية ، أي أشياء عشوائية تحدث اتفاقاً ، والعرضي لا يندرج بالطبع تحت نظام معين ، وهو لهذا يفلت من نظام الحتمية والضرورة ، والوقائع التي تفلت من نظام الحتمية والضرورة هي أحداث تقع بغير سبب ، فتعريف العرضي والعفوي ، والعشوائي وما يقع مصادفة هو « ما لا سبب له » ، وما لا سبب له لا يمكن أن يكون موضوعًا لعلم من العلوم ، إذ يشترط في موضوع العلم أن يكون من الممكن التنبؤ به ، في حين أن الصدفة لا يمكن التنبؤ بها ، وما لا سبب له لا تستطيع أن تتنبأ به ، وهكذا تتحطم الأركان الأساسية لقيام العلم بالمعني الدقيق لهذه الكلمة .

---

(٥٧) آيات ١٤ – ١٥ من سورة الحجر .

وأخيراً نود أن نختتم هذا الجزء بملاحظتين :

الأولي : أن حديثنا عن المعجزة لا يتنافي بالطبع مع القول بأن «القرآن نفسه معجزة» ، لكنها ليست معجزة تعطل قوانين الطبيعة أو تناقض سيرها، بل علي العكس ، نستطيع أن نقول إن من إعجاز القرآن عدم التجائه إلي المعجزات الطبيعية !

والثانية : أن ذلك لا يمنع من أن ظواهر الطبيعة ، وما فيها من تناسق دقيق ، ونظام محكم ، وتدبير بديع تعد هي نفسها «معجزات» لله ، نعني آيات تدل علي حكمة وتدبير وعناية إلهية : فالكون بأسره آية من آيات الخالق القادر .

٤ – الاهتمام بالملاحظة ....

تعتبر الملاحظة ركناً أساسياً في البحث التجريبي ، فالربط بين الظواهر، ومعرفة الاطراد ودوامه ، لا يصل إليها الباحث إلا إذا لجأ إلي ملاحظة الظواهر الطبيعية لكي يستخلص منها قانوناً عاماً ، وهكذا نجد أن الملاحظة هي الخطوة الأولي في طريق البحث العلمي ، فهي البداية التي تؤدي في النهاية إلي الصياغة العقلية للقانون العلمي ، والأمر الذي يدعو إلي الدهشة حقاً هو أن نجد القرآن الكريم يوجّه أنظار الناس إلي ملاحظة ظواهر الطبيعة واستخلاص الفكرة الكلية التي نسميها بالقانون ، أعني أن يستخرجوا من الملاحظة مضمونها ومدلولها ومغزاها العقلي ، يقول محمد إقبال : «إن الأمر الجدير بالتنويه هنا هو توكيد القرآن لجانب الملاحظة ، ولنذكر بعض الآيات الدالة علي ذلك

﴿ إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك

التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[٥٨] .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ... ﴾[٥٩].

﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذي أنشأ كم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبًا متراكبًا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه ، انظروا إلي ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون .. ﴾[٦٠] .

﴿ ألم تر إلي ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا ﴾[٦١] .

﴿ أفلا ينظرون إلي الأبل كيف خلقت ، وإلي السماء كيف رفعت ، وإلي الجبال كيف نصبت ، وإلي الأرض كيف سطحت .. ﴾[٦٢] .

﴿ فلينظر الإنسان إلي طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبًا وعنبًا وقضبًا ، وزيتونًا ونخلاً ، وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًا ، متاعًا لكم ولأنعامكم .. ﴾[٦٣] .

---

(٥٨) آية ١٦٤ من سورة البقرة .
(٥٩) آية ٥ من سورة الطارق .
(٦٠) أيات ٩٧ – ٩٩ من سورة الأنعام .
(٦١) أيات ٤٥ – ٤٦ من سورة الفرقان .
(٦٢) أيات ١٧ – ٢٠ من سورة الغاشية .
(٦٣) أيات ٢٤ – ٣٢ من سورة عبس .

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتي عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون .. ﴾(٦٤) .

لا نود أن نستطرد في ذكر الآيات الكريمة التي توجه الأنظار إلي ظواهر الطبيعة وتحث الإنسان علي ملاحظة ما فيها من نظام واتساق مما يدخل ضمن أساس من أسس البحث العلمي ، ونعني به الملاحظة : ‹‹ ففي القرآن ما يزيد علي التسعمائة آية تدخل جميعها تحت نطاق العلوم ، وفيه العديد من الآيات التي لم تتضح بعد حقيقة ما تعنيه أو ما ترمي إليه .. ›› كما يقول أحد العلماء المسلمين المعاصرين (٦٥) ويعلق محمد إقبال علي الآيات التي توجه أنظار الإنسان إلي ملاحظة ظواهر الطبيعة بقوله : ‹‹ ولا شك أن أول ما يستهدفه القرآن من هذه الملاحظة التأملية للطبيعة هو أنها تبعث الشعور في نفس الإنسان بمن تعد هذه الطبيعة آية عليه ، ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هو الاتجاه التجريبي العام للقرآن . مما كون في أتباعه شعوراً بتقدير الواقع ، وجعل منهم آخر الأمر واضعي العلم الحديث ››(٦٦) .

وبدهي أن القرآن لا يتوقف عند حدود الملاحظة أو عرض التفسير الصحيح لظواهر الطبيعة ، أو صياغة قواعد البحث التجريبي ، فلقد سبق أن ذكرنا أنه ليس كتاباً في العلم أو فلسفة العلوم ، وإنما هو

---

(٦٤) آيات ٣٦ – ٤٠ من سورة يس .

(٦٥) الدكتور محمد جمال الدين الفندي ‹‹ القرآن والعلم ›› ص ٩ – دار الناشر المعارف بالقاهرة عام ١٩٦٨ م .

(٦٦) محمد اقبال : ‹‹ تجديد التفكير الديني ›› ص ٢٠ – ٢١ .

كتاب دين وهداية ، ولهذا كان من المنطقي أن يواصل السير من ملاحظة ظواهر الطبيعة إلي الإيمان بالله : « وذلك لأن طريق الملاحظة يؤدي إلي العلم ، ولكنه لا يتوقف عند هذا الحد ، لأن العلم يقتحم أبواب الإيمان ، ولأن معرفة الواقع تكشف عن علّة الأشياء »(٦٧) فمتي أخذ الإنسان يسائل نفسه عن حقيقة العالم ومعناه ، وحين يعمق علمه ويكتشف قوانين الطبيعة ، وما للكون من اتساع مذهل ، وما استتر فيه من طاقة ، وما في حركة الذرات من تعقد وما للجسم الحي من بناء عجيب كامل ، وأخيرا عندما يكتشف ظاهرة الفكر البشري الخارقة للعادة يقول : إن كل هذه الأشياء المتناسقة فيما بينها تمام التناسق ، في وحدة الكون لا يمكن أن تكون وليدة مصادفة عشواء أو نتيجة قوي فوضوية تصدر عن طبيعة لا تعرف أين تسير »(٦٨) .

٥ – الحواس ... أداة البحث التجريبي ....

إذا كان الربط المادي بين الظواهر ، والاطراد ، وعدم خرق القوانين والابتعاد عن الصدفة والعشوائية ، والالتجاء إلي الملاحظة ... إلخ . إذا كان ذلك كله يمثل أركاناً أساسية في ميدان البحث التجريبي ، فإنها لن يكون لها قيمة ، اللهم إلا إذا استخدمت الحواس الخمس التي هي أدوات البحث التجريبي علي الأصالة ، ولهذا فإن من مطالب البحث العلمي الرئيسية احترام الحواس وما تأتي به من معلومات ، ولعل هذا هو السبب في تأخر نشأة البحث العلمي عند اليونان : « فلقد كان تقصير اليونان في مجال الملاحظة الحسية ، والتجارب العلمية ناتجا في جانب

---

(٦٧) الدكتور أحمد عروة في كتابه « الإسلام في مفترق الطرق » ص ٤٠ ترجمة الدكتور عثمان أمين ـ دار الشروق بالقاهرة عام ١٩٧٥ م .

(٦٨) نفس المرجع السابق ص ٤١ .

كبير منه لازدرائهم لكل ما من شأنه استخدام الحواس ، وهو ازدراء مرجعه في أغلب الظن إلي ازدراء الجسم بالنسبة للعقل ، لأن الجسم كتلة مادية فانية ، في حين أن العقل كائن روحاني خالد ... ومن هنا فقد كان المفكر النظري البحت الذي يتأمل ويستنبط دون حاجة منه إلي استخدام حواسه ويديه أولي بالتقدير من المفكر العملي الذي ينظر بعينيه ويجري التجارب بيديه ، فلا غرابة بعد ذلك كله أن نجد رجلا مثل أفلاطون يقترح أن يتولي قيادة الناس فيلسوف ، ويجعل من أفحش الأخطاء السياسية أن يشترك « عامل » في إدارة الحكم ... »(٦٩) .

وإنه لما يجدر ذكره في هذا الصدد أن أرشميدس (٢٥٧ – ١٢٢ ق.م) قد مهر في العلوم التجريبية ، فاستخدمه ابن عمه أمير سرقصة في اختراع آلات حربية يستعين بها في حماية مدينته من هجمات الرومان المغيرين ، فترى المؤرخ اليوناني « بلوتارك » حين يؤرخ لأرشميدس يعتذر عن اشتغاله باختراع الآلات ، كأنما أحس أنه عمل لم يكن يليق برجل مهذب من علية القوم أن يعمله ، فيلتمس العذر في ذلك قائلاً : إنه اضطر إلي ذلك اضطراراً ليعاون قريب الأمير في ساعة الخطر ! »(٧٠) .

ولك أن تقارن هذا الموقف بالاتجاه القرآني الرائع الذي يلفت الأنظار إلي البحث التجريبي ويحترم أدواته ، ولما كانت الأداة الرئيسية لهذا البحث هي الحواس فأنت تراه يحترم الحواس ويقدرها ، بل ويعتبرها من أعظم نِعَم الله علي الإنسان : ﴿ **وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار**

---

(٦٩) الدكتور زكي نجيب محمود « المنطق الوضعي » الجزء الثاني ص ١٥١ .

(٧٠) نفس المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

والأفئدة.. ﴾[71] . ثم تراه يذهب إلي مدي أبعد من ذلك فيطلب من الإنسان استخدام حواسه فيما يجلب له النفع والتقدم والرقي ، وإنه سوف يحاسب علي هذا الاستخدام يوم القيامة : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾[72] .. ذلك لأن : ﴿ **أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾[73] هنا إنما تقع علي طريقة الاستخدام وحسن استغلال هذه النِعَم ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[74] . ومعني ذلك أن القرآن الكريم يضع الثقة في الحواس وما تأتي به من معارف ومعلومات ، وهذا بالطبع إلي جانب ثقته الكاملة في العقل الذي يستخلص الفكرة الكلية من ظواهر الطبيعة التي تراها الحواس أو تسمعها أو تلمسها .. إلخ ، لكن ما تجدر ملاحظته هنا هو عناية القرآن بالحواس واهتمامه بها وبدورها في عالم الظواهر المادية ، في عصر كان لا يعبأ بالمحسوسات ولا بوسيلة إدراكها ، وكما يقول إقبال : « إنه لأمر عظيم حقاً أن يوقظ القرآن تلك الروح التجريبية في عصر كان يرفض عالم المرئيات بوصفه قليل الغناء.. »[75] . ولهذا تراه يسخر من الذين وهبهم الله نعم الحواس ولا يستخدمونها في مشاهدة الكون وفهم أسراره ، ويعتبرهم حيوانات ، بل هم ‹‹ شر الدواب ›› ، أولئك الذين يسمعون ولا يفقهون ويبصرون ولا يفهمون وتشهد عليهم بالغيبة وهم حضور ﴿ **وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾[76] . أي تماثيل تنظر ولا تري ومن لا

---

(٧١) آية ٧٨ من سورة (المؤمنون) .
(٧٢) آية ٢٤ من سورة النور .
(٧٣) آية ٣٦ من سورة الاسراء .
(٧٤) آية ٧٨ من سورة النحل .
(٧٥) تجديد التفكير الديني في الإسلام – ص ٢١ .
(٧٦) آية ١٩٨ من الأعراف .

يستخدم حواسه؛ ليتأمل ويري ، فهم ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمي أبصارهم ..** ﴾[٧٧] فالقرآن الكريم دائم الحض علي مشاهد الكون وأعمال الحواس في ظواهره ، والتأمل في نظامه لفهم أسراره وهو يحث الإنسان : علي ملاحظة السماء ذات النجوم ، والنهار المضيء ، والأرض المكسوة بالنبات والأشجار دانية الثمار ، والأنعام المسخرة لطعامه ، ومعاشه ، والماء الذي جعل منه كل شيء حي ، والإنسان نفسه وهو أعجوبة الأعاجيب . وكل جزئية تشريحية ، وكل مرحلة من مراحل نموه وتعقله ، وكل شيء فيه يلقنه دروساً رائعة تحدثه عن الله وتبرز هذا التقريع الإلهي المحرك للانفعال : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك ، فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ..** ﴾[٧٨] ‹‹ والقرآن يبصرنا بحقيقة التغير العظيمة التي لا يتسني لنا بغير تقديرها والسيطرة عليها بناء حضارة قوية الدعائم، ولهذا أخفقت ثقافات آسيا لأنها تناولت الحقيقة بالنظر العقلي ثم إتجهت منه إلي العالم الخارجي فأمدها هذا المسلك بالتفكير النظري المجرد من القوة وليس من الممكن أن تقام علي النظر المجرد وحده حضارة يكتب لها البقاء ... ›› [٧٩].

ومنْ يرفض الخروج إلي العالم الخارجي لمشاهدة ظواهره ، ودراسة أحداثه فيغمض العين لكي لا تري ، ويصم الأذن حتي لا تسمع ويعطي ، لعقله ‹‹أجازة ›› فهو يهبط إلي مرتبة البهائم و﴿ إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون .. ﴾[٨٠] . وهؤلاء لا أمل فيهم ولا

---

٧٧ – أية ٢٣ من سورة محمد .

٧٨ – أية ١٧١ من سورة البقرة وانظر أية ١٨ ايضا من سورة البقرة .

٧٩ – أية ٦ – ٨ من سورة الانفطار والنص مقتبس من كتاب الدكتور احمد عروة ‹‹ الإسلام في مفترق الطرق ›› ص ٣٩ ترجمة الدكتور عثمان أمين .

٨٠ – محمد اقبال ‹‹ تجديد التفكير الديني في الإسلام ›› ص ٢٢ .

رجاء ، فهم ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ..** ﴾[٨١] وماذا يمكن أن نصنع مع من يغمض العين لكي لا ترى أو يصم الأذن حتى لا تسمع ؟ : ﴿ **أفأنت تسمع الصم ، أو تهدي العمي ؟** ﴾ [٨٢].

٦ - تكريم العلم والعلماء ...

الفكرة الأخيرة التي نود أن نختم بها هذا الدراسة هي تكريم القرآن للعلم والعلماء ، صحيح أنها لا تدخل مباشرة ضمن أركان البحث التجريبي الذي يقوم علي الربط والاطراد واستخلاص القانون عن طريق الملاحظة واستخدام الحواس في اجراء التجارب ، لكنها تُعَد دفعة من الخارج للسير بالعلم قُدمًا وللاهتمام بالبحث التجريبي بصفة عامة ، وأقل ما يقال فيها أنها شاهد صدق علي أن القرآن لا يعاد العلم، ولا يناقضه كما يزعم بعض المفكرين الواهمين الذين يريدون تقليد الفكر الغربي بشتي الطرق[٨٤] .

يقول الدكتور عبد الحليم منتصر في هذا المعني : ‹‹ لقد رفع الإسلام الحنيف من قدر العلم والعلماء ، وحثَّ علي طلب العلم ، ثم إن معجزته ‹‹ كتاب ›› هو القرآن الكريم ، وأولي آياته : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾[٨٥] ، و﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم**

---

(٨١) آية ٢٢ من سورة الأنفال .

(٨٢) آية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٨٣) آية ٤٠ من سورة الزخرف وكذلك آية ٤٢ من سورة يونس ، وأيضا آية رقم ٤٥ من سورة الأنبياء ، وأيضا آية ٨٠ من سورة النحل ، وآية ٥٢ من سورة الروم .

(٨٤) انظر مثلا كتاب الدكتور صادق العظم ‹‹ نقد الفكر الديني ›› ص ٢٩ وقد صدر في في بيروت عام ١٩٦٩ – وراجع مقالنا ‹‹ الخبرة الدينية والإيمان ›› – مجلة الفكر المعاصر العدد ٦١ مارس عام ١٩٧٠ القاهرة .

(٨٥) الآية الأولي من سورة العلق .

درجات ...﴾[٨٦] و﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٨٧] ومن أقوال الرسول : «« غدوة في طلب العلم أحب إلي الله من مائة غزوة »»[٨٨] وقوله : «« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء »» «« ثم لموت قبيلة أيسر من موت عالم »» . وقوله «« اطلبوا العلم ولو في الصين وقوله : «« الناس عالم ومتعلم والباقي همج »» وقوله : «« لا يزال طالب العلم عالماً حتي إذا ظَّن أنه علِمَ فقد جهل »»[٨٩] .

والحق أن تكريم العلماء في القرآن الكريم ظاهر جداً ، حتي أنه يضعهم بعد الملائكة مباشرة فيمن يشهد بوحدانية الله ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[٩٠] وهؤلاء هم الذين يعرفون الله ويخشونه ﴿ **إنما يخشي الله من عباده العلماء ..** ﴾[٩١] و﴿ **بل هو** آيات **بينات في صدور الذين أوتوا العلم...** ﴾[٩٢] وبالغاً ما بلغ حظ الإنسان من العلم فهو ضئيل : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[٩٣] ولهذا السبب فإن القرآن يحثه إلي السعي للاستزادة من العلم : ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾[٩٤] . والمسلم لا يطلب العلم لنفسه ، أو ليضن به علي الآخرين أو يترفع عليهم ، وإلا لما كان لعلمه ذاك أدني قيمة . وإنما هو يتزود به ؛ ليزود به الآخرين ، وينقله كل جيل إلي الجيل اللاحق لكي ينمو العلم وتزدهر الحضارة إن خيركم من تعلم العلم وعلّمه »» .

---

(٨٦) آية ١١ من سورة المجادلة .
(٨٧) آية٩ من سورة الزمر .
(٨٨) الأحاديث في كتاب الدكتور عبد الحليم منتصر – ص ٤٩ .
(٨٩) انظر في ذلك كله كتاب الدكتور عبد الحليم منتصر «« تاريخ العلم : ودور العلماء العرب في تقدمه»» ص ٤٩ من الطبعة الثالثة – دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ م.
(٩٠) آية ١٨ من سورة آل عمران .
(٩١) آية ٢٨ من سورة فاطر .
(٩٢) آية ٤٩ العنكبوت .
(٩٣) آية ٨٥ من سورة الأسراء .
(٩٤) آية ١١٤ من سورة طه .

والناس يتفاوتون بالطبع في الاستعداد الطبيعي ، وبالتالي في مدي استفادتهم من العلم ، وهذا التفاوت يستتبع بالضرورة أن يتسفيد البعض من علِم البعض الآخر ، وأن يتبادلوا المعرفة وما لديهم من معلومات وخبرات .

وتلك هي الحكمة من درجات العلم وتنوع المعرفة : ﴿ **نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ..** ﴾(٩٥) . ومن مظاهر تكريمه للعلماء أيضا أنه لا يحجز عليهم في البحث ولا يحدد لهم مجال الدراسة ولا يقيدهم بأية قيود ، فإذا كانت هناك بعثات تجوب أرجاء الأرض باحثة في الحفريات والآثار ، وقمم الجبال ، وطبقات التربة ، عن أصل الخلق وبداية تطور الكائنات الحية فإنه يباركها : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ...** ﴾(٩٦) .

وفي الوقت الذي يقول فيه فيلسوف مثل نقولا مالبرانش N.Malebranche (١٦٣٨ – ١٧١٥) في القرن الثامن عشر : ‹‹ إن فكرة الطبيعة هي بالضرورة فكرة معادية للمسيحية ، أو هي ضد المسيحية علي الأصالة ، وإنها بقايا من الفلسفة الوثنية احتفظ بها اللاهوتيون نتيجة لحماسهم الطائش ››(٩٧) تري فيلسوفاً مسلماً مثل محمد اقبال يذهب إلي أن الكشف عن قوانين الطبيعة هي في نظر القرآن لون من ألوان الاتصال بالله ، فكأنه عبادة ، أو هو صلاة ! ... ‹‹ وعلي هذا فإن الرأي الذي اصطنعناه يُضفي علي العلوم الطبيعية معني روحياً جديداً فالعلم بالطبيعة هو العلم ‹‹ بسنة الله ›› ، ونحن في ملاحظتنا

---

(٩٥) آية ٧٦ من سورة يوسف .

(٩٦) آية ١٩ من سورة العنكبوت .

(٩٧) ‹‹ روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ›› ص ٥٥٦ ترجمة د . إمام عبد الفتاح إمام ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٧٣ م . من الطبعة الثانية .

للطبيعة إنما نسعي في الحقيقة وراء نوع من الاتصال الوثيق بالذات المطلقة ، وما هذه إلا صورة أخري من صور العبادة .. »(٩٨) ومعني ذلك أن العالم الذي يقوم بأبحاثه التجريبية في معمله ، إنما يصلي لله في خشوع العابدين ، لأنه يتصل به وهو يشاهد آياته » أرأيت أروع من ذلك تكريما للعلم والعلماء .. ؟ ! وبدهي أننا ينبغي ألا نكون من السذاجة فنظن أن لفظ « العلم » الوارد في القرآن والأحاديث النبوية إنما هو مرادف للعلم الديني من فقه وتفسير ... إلخ . فقط كما يزعم الذين يريدون أن يحفروا الهوة بين الدين والعلم بشتي السبل (٩٩) فالعلم المراد هو علم العصر ، وربما كان في عصر من العصور علماً دينياً فقط ، وربما اتسع معناه فأصبح يشمل العلوم الدنيوية أيضا . خصوصا وأن القرآن لم يحدد نوع العلم من ناحية ، وأن اتجاهه إلي البحث التجريبي واضح من ناحية أخري ، فمن التعسف إذن الاقتصادر علي معني واحد للفظ العلم ، ثم كيف يمكن في حكم العقل أن يطلب العلم « الديني » في الصين .. ؟! إن العلم المراد هو العلم كما هو سائد في العصر الذي يعيش فيه الإنسان ، وبكل ما تحمله كلمة العلم من معني .

***

(٩٨) محمد اقبال تجديد التفكير الديني في الإسلام ص ٦٨ .
(٩٩) انظر الدكتور صادق العظم في كتابه السالف الذكر .

أحـد عـشـر : عـن الـيـهـود

١ - الألوهية في أسفار اليهود .

٢ - أخلاق اليهود من أسفارهم .

٣ - من أسفارهم تعرفونهم .

الألوهية فى أسفار اليهود ....

١ - تمهيــــد :

هناك عبارة جميلة للمفكر المسلم ‹‹ مالك بن نبي ›› يقول فيها : «إن الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته ، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في ظواهرها ، وكلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته ، أو في المراحل البدائية لتطوره ، الاجتماعي ، فإنه سيجد سطورا من الفكرة الدينية[١] . وهو يكشف لنا هنا عن حقيقتين هامتين :

الأولي : هي فطرية الدين ، وملازمته للإنسان في جميع مراحل تطوره .

والثانية: أن الظاهرة الدينية تتطور مع تطور الإنسان وتقدمه بحيث يجوز لنا أن نقول : إن هذا الدين هو أكثر تطوراً وتقدماً من الديانات السابقة.

وليس ثمة شك في أن الدين لازم الإنسان في جميع مراحل تطوره، وتغلغل في ألوان الحضارات المختلفة المزدهرة والمتخلفة معاً، ولهذا تعددت صوره وأشكاله بتعدد المجتمعات البشرية وتغير وضعه في سلّم التقدم بمقدار تغير وضعع المجتمع نفسه ، وربما كان ذلك من الأسباب التي من أجلها استطاع الدين أن يلبي حاجات الإنسان ومطالبه دوماً ، ولعل ذلك أيضا هو السبب الذي من أجله تعددت رسالات السماء ، ولم تقتصر علي رسالة واحدة ، أو تكتف بدين واحد

---

(١) مالك بن نبي : ‹‹ الظاهرة القرآنية ›› ترجمة عبد الصبور شاهين . ص ٢٨ - مكتبة دار العروبة بالقاهرة عام ١٩٥٨م .

ومن ثم كانت الديانات الثلاث الكبري : اليهودية ، والمسيحية، والإسلام ثلاث خطوات كبري علي طريق الحضارة البشرية تشكل في نفس الوقت مراحل صاعدة تصل إلي قمتها في الإسلام .

ولسنا نهدف في هذا المقال إلي دراسة الديانة اليهودية «كما ينبغي أن تكون» ، بحيث نكشف عما فيها من عناصر سماوية سامية ، وما شابها من عناصر بشرية وأوجه تحريف ... إلخ ، لكننا نريد أن نلقي الضوء علي تطور الديانات الثلاث الكبري بادئين باليهودية ، كما هي بالفعل ، نريد أن نفهم الديانة اليهودية كما يفهمها اليهود ، لا كما نتمني لها أن تكون ، ومن ثم فلن نقحم أنفسنا فى مشكلات لا سبيل إلي حلها من ناحية ، ولا غناء فيها من ناحية أخري ، لا سبيل إلي حلها؛ لأننا لا نستطيع أن نقول علي وجه الدقة ما الذي كانت عليه التوراة السماوية الأولي التي لم يرها أحد ولم يعرف مضمونها أحد ، ولا غناء فيها من ناحية أخري ، ؛ لأننا حتي إذا فعلنا فلن يكون في استطاعتنا أن نغير مما دأب عليه اليهود وما اشتمل عليه تراثهم طوال سنين تعد بالآلاف ! فليس من مهمتنا إذن أن نقول كيف كانت التوراة أو ما الذي ينبغي أن تشتمل عليه بوصفها كتاباً منزلاً من عند الله ، أو أن نستنكر أن يرد فيها هذا الخبر أو ذاك ، فليس المطلوب منا ، كما ذكرنا ، أن نقوّم ما اعوج في دين اليهود ، ما دمنا ننتمي أصلاً إلي ديانة أخري أتم وأكمل ، ولو فعلنا ما استمع إلينا أحد ! صحيح أن الديانة اليهودية علي نحو ما هي عليه عند أصحابها تحتوي علي : «آيات من البلاء شنيعة نعوذ بالله من قليل الضلال وكثيره ...» علي حد تعبير ابن حزم[٢] . لكن ذلك لا يعنينا ما دمنا لا نقف منها موقف

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» - تصنيف الإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري - مكتبة المثني ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة - المجلد الأول - ص ١٣٠ - ويذكر ابن حزم أشياء كثيرة جدا عما في الديانة اليهودية من حسية وتفكير أسطوري =

المؤمن أو المصدق ، بل موقف الناقد المتأمل الذي يفكر ليستخلص المضمون والمغزي ثم يمضي .. ! .

لو أنك تأملت الديانات الثلاث الكبري : اليهودية ، والمسيحية، والإسلام لوجدت أنها تمثل بناء يكتمل في الإسلام ، كما لو أن الديانتين السابقتين كانتا خطوتين ممهدتين في سبيل الوصول إلي الديانة الثالثة وهكذا تبدو كل ديانة منهما « أحادية الجانب » : تركز اليهودية علي المادة في حين تركز المسيحية علي الروح ، لكن الإسلام يجمع بينهما .. وتأخذ كل منهما بنظرة جزئية عن الإنسان ، بينما ينظر الإسلام إلي الإنسان نظرة كلية شاملة . وهذا هو المغزي العميق الذي ترمي إليه آخر آيات القرآن الكريم : ﴿ .. **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا** ... ﴾[3] ، أو قوله تعالي: ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[4] ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه** ... ﴾[5] فكيف يمكن أن نفهم هذه الآيات التي تكاد تنكر الديانتين السابقتين .. ؟ نفهمهما جيداً حين ننظر إلي الإسلام علي أنه حوي جوهر الديانتين السابقتين أو أنه جمع بين النظرتين ، فأصبحت نظرته كلية شاملة ... ونحن لا نقول ذلك انطلاقاً من تعصب ديني أو نعرة قومية ، وإنما نتيجة لتأمل هاديء في تطور المضمون الديني في

= وخرافي كقولهم: إن هناك نهراً يخرج من جنة عدن فيسقي الجنان ، ثم يفترق فيصير أربعة رؤوس أحدها النيل هو محيط بجميع بلاد زويلة التي فيها « الذهب » والثاني جيجان الذي يحيط ببلاد الحبشة ، والثالث نهر دجلة، والرابع الفرات ... إلخ – ص ١١٨ وبعد أن يروي ابن حزم تفصيلات كثيرة يكتفي بالقول بأنها : « أقوال فاسدة متناقضة لا يخفي فسادها علي أحد » ص ١١٦ .

(٣) آية ٣ من سورة المائدة .

(٤) آية ١٩ من سورة آل عمران .

(٥) آية ٨٥ من سورة آل عمران .

الديانات الثلاث الذي يمكن أن نقول عنه : إنه يمثل مثلثاً هيجلياً كبيراً يسير من القضية إلي النقيض إلي المركب ، فلو أنك تأملت قليلاً جوهر هذه الديانات لوجدت أن اليهودية تلتصق بالجسد والحس والمادة بصفة عامة ، في حين أن المسيحية تقترب أكثر من الروح والقلب ، في حين أن الإسلام يخاطب الإنسان جسداً وروحًا ... اليهودية هي ديانة الموضوع ، والمسيحية هي ديانة الذات ، والإسلام هو ديانة الموضوع والذات في آن معاً ، اليهودية تعمل من أجل الدنيا وما فيها من ذهب ومال ، والمسيحية تستهدف ملكوت السموات ، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، ولا ينقب سارقون ولا يسرقون ››(٦) ، أما الإسلام فهو يعمل للدنيا والدين في وقت واحد : ‹‹ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ... ››.

فاليهودية تركز علي الخارج ، بينما تهتم المسيحية بالداخل ، في الوقت الذي يجمع فيه الإسلام بين الخارج والداخل في مركب واحد ...! ونحن نأمل أن نعالج هذه الأفكار بشيء من التفصيل في مقالات قادمة، فنركز في مقالنا هذا علي الفكرة الأولي وهي : كيف كانت اليهودية دين الخارج والحس والمادة والدنيا .. إلخ ، معتمدين أساساً علي ‹‹ فكرة الألوهية فى أسفار اليهود على اعتبار أن فكرة الألوهية تركز المحور في كل دين ، فإذا كانت هذه الفكرة نفسها حسية كانت مؤشراً علي ما نجده في الجوانب الأخري من هذه الديانة من ارتباط بالطبيعة ، وبالأرض ، وبالمادة وما نجده عند المؤمنين بها من حب للمال واهتمام بالتجارة واشتغال بالاقتصاد وما يستتبع ذلك من انهيار أخلاقهم ... إلخ . ثم ننتقل في مقال آخر إلي عرض جوهر المسيحية كما يتمثل في ‹‹ فكرة المحبة ›› واحتقار للدنيا ، وكبت

---

(٦) إنجيل متي : الإصحاح السادس عدد ٣٩ .

للغرائز والميول الفطرية . إلخ أي النقيض الكامل لما تنادي به اليهودية . ثم نعرض في مقال ثالث كيف جمع الإسلام ما في الديانتين من مزايا وعناصر أساسية ، أو كيف اهتم «بالجوهر وأسقط الأعراض فخاطب الإنسان كإنسان لا بوصفه موجوداً طبيعياً ولا بوصفه كائناً روحياً، وإنما بوصفه مركباً من جسد وروح ، لكل منهما مطالبه وحقوقه .. !

٢ - اليهود ... وعبادة الطبيعة :

لا شك أن الديانة اليهودية كانت نقطة تحول بين العبادات القديمة ولا سيما عبادة قوي الطبيعة والحيوان ، وبين العبادات في الديانة الكتابية(٧) . ولعل هذا هو السبب في أنها لم تتخل عن الشرك من ناحية ، وعن عبادة موضوعات طبيعية من ناحية أخري . يقول ول ديورانت Will Durant : «لم يتخل اليهود قط عن عبادة العجل الذهبي(٨) لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر ، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزاً لألهم ..»(٩) حتي بعد خروجهم من مصر يستمرون في تقديس

---

(٧) عباس محمود العقاد : «الله : كتاب في نشأة العقيدة الدينية» ص ١١٠ من الطبعة السادسة - دار المعارف بمصر .

(٨) لاحظ أنهم حتي حين يختارون «عجلا» يعبدونه يحرصون علي أن يكون من «ذهب» ! فهم منذ بدايتهم الأولي يضفون علي الذهب لونا من التقديس ، ولهذا فأننا نجد السيد المسيح ، وهو أقرب إليهم منا وأصدق في الحكم عليهم لأنه عاشرهم وظهر بينهم ، واجههم بهذه الحقيقة : «ويل لكم أيها القادة العميان القائلون : من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم ! أيها الجهال والعميان . أيهما أعظم : الذهب أم الهيكل ... ؟!» إنجيل متي الإصحاح الثالث والعشرون عدد ١٦ .

(٩) ول ديورانت : «قصة الحضارة» الجزء الثاني من المجلد الأول الخاص بالشرق الأدني ترجمة الأستاذ محمد بدران ص ٣٣٨ لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة ثالثة بالقاهرة سنة ١٩٦١ م .

الحيـوان المقدس عند الفراعنة «« فمن المعروف أن العـجول كانت مـؤلهة في مـصـر ، وإذا مـاتت حنطوها ودفنوهـا في مـقبـرة خـاصـة في جـهة سقارة تسـمي سـرابيوم ... »»[١٠] . ولقد روي سفر الخروج ، أحد أسـفار التوراة الخمسة ، قصة عـبادتهم للعجل عندما ذهب موسي لمناجاة ربه في سيناء ، فـاستبطأه قـومه ، فطلبوا من هـارون أن يـصـنع لهم إلهاً ، : «« ولما رأي الشـعب أن مـوسي أبطأ فـي النزول من الجـبـل ، اجـتـمع الشعب علي هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسـيـر أمامنا ، لأن هذا الرجل موسى الذي أصعدنا من أرض مصـر لا نعلم ماذا أصابه ... فقال لهم هـارون انزعـوا أقـراط الذهب التي في آذان نسـائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بهـا ، فنزع كل الشـعب أقـراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بهـا إلي هـارون ، فـأخـذ ذلك من أيديهم وصـوره بالأزمـيل وصنعـه عـجـلاً مسبوكاً ... »»[١١] ونلاحظ في هذا النص حقيقتين أساسيتين لن تفارقا الديانة اليهودية علي الإطلاق :

الحقيقة الأولى هى : التـصـوير الحـسي المادي للألـوهية ، حـتي أنهم وهـم فـي قـمة انتصـارهـم ونجاتهم مـن ظلـم فرعون لا يمانـعون في «« عبادة العـجل »» بل يسـعون إليهـا ويطلبونها ، لأن موسـي تأخر فوق الجبل «« عشرة أيام أخـري »» وكان قد أخبرهـم أن غيبـته لن تطول أكثر من ثلاثين يوماً[١٢] .

والحقيقة الثانية هى : التصوير السيء لأنبيائهم ، «« فهارون »» هو الذي يصنع العـجل بيـده (يروي القرآن أن من صنع العـجل رجل

---

(١٠) عفيف عبد الفتاح طبارة : «« اليهود في القرآن »» ص ٢٢٤ من الطبعة الثانية – دار الكتب بيروت .

(١١) سفر الخروج : الاصحاح الثاني والثلاثون من ١ إلي ٤ .

(١٢) قـارن قوله تـعالي : «« وواعدنا مـوسي ثلاثين ليلة ، وأتممناهـا بعشـر ، فتم مـيقـات ربه أربعين ليلة »» آية ١٤٢ من سورة الأعراف .

ماكر من بني إسرائيل اسمه السامري)[١٣] – وهو الذي يبني مذبحاً أمامه ثم ينادي : ‹‹ غداً عيد للرب فبكروا في الغد وقدموا الذبائح ››[١٤] وفي اليوم التالى أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبي[١٥] سوف نري فيما بعد صوراً أخري كثيرة لهاتين الحقيقتين : التصور الحسي لله ، والتصور الحسي اللأخلاقي لأنبيائهم ، مما جعل ابن حزم يضرب كفا بكف مما رآه في أسفارهم من عجب عجاب : ‹‹ تا الله ما رأيت أمة تقر بالنبوة وتنسب إلي الأنبياء ما ينسبه هؤلاء الكفرة !››[١٦] والقرآن الكريم يصور لنا أنهم لم يطلبوا هذا المطلب الغريب من هارون فقط لكنهم طلبوا من موسي نفسه أن يصنع لهم أصناماً دون أن يجدوا في مطالبهم هذا حرجا ولا غضاضة : ‹‹ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر، فأتوا علي قوم يعكفون علي أصنام لهم ، قالوا يا موسي اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون .. ››[١٧] .

ويظهر للباحث المتأمل في أقدم سفرين من أسفار توراتهم ، وهما سفر التكوين وسفر الخروج ، أن فكرة الألوهية ظلت مضطربة في عقولهم إلي نهاية المرحلة التي تم فيها تدوين هذين السفرين ، أي إلي نهاية القرن التاسع قبل الميلاد (بعد موسي بنحو خمسة قرون) ، وحتي عندما تبلورت فكرة اتخاذ ‹‹ يهوه ›› إله اليهود القومي الأوحد فإنهم جعلوه ذا صفات بشرية[١٨] ولا شك أن موسي عليه السلام بذل

---

(١٣) ‹‹ فأنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ›› آية ٨٣ من سورة طه .

(١٤) سفر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثون عدد ٥ .

(١٥) ديورانت ‹‹ قصة الحضارة ›› الجزء الثاني من المجلد الأول ترجمة محمد بدران ص ٣٣٨.

(١٦) ‹‹ الفصل في الملل والأهواء والنحل ›› ص ١٤٧ من المجلد الأول .

(١٧) آية ١٣٨ من سورة الأعراف .

(١٨) الدكتور علي عبد الواحد وافي : ‹‹ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ›› ص ٢٤ دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة ١٩٧١ .

جهداً كبيراً في دعوتهم إلي التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان . فلا يعقل أن يكون هناك نبي يدعو الناس إلي الشرك وعبادة الأوثان علي نحو ما تصور اليهود ! ، ويقال أنه هو أول من أطلق علي الإله اسم « يهوده »، وهو اسم لا يعرف اشتقاقه علي التحقيق ، فيصح أنه من مادة «الحياة» ، ويصح أنه نداء لضمير الغائب ، وقد عبدو الإله باسم «إيل» أى القوى فى اللغة الآرامية[١٩] .

٣ - الإلـــه ... البشـــرى :

ولقد ظل اليهود إلي ما بعد أيام موسي عليه السلام ينسبون إلي الإله أعمال الإنسان وحركاته : فذكروا أنه كان يتمشي في الجنة ، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ، وينتشي من رائحة القرابين ، ويغشي مركبات الجبال ، وأنه دفن موسي حينما مات في موآب[٢٠] وباختصار! لم يكن للأمم القديمة إله آدمى في كل شيء كإله اليهود[٢١] فقد جعلوا منه إلهاً صارماً ذا نزعة حربية ، صعب المراس ليس عليماً بكل شيء ، شاهد ذلك أنه يطلب من اليهود أن يميِّزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يهلك أبناءهم علي غير علم منه مع مَنْ يهلكهم من أبناء المصريين[٢٢] . كذلك لا يعتقدون أنه معصوم من الخطأ ، ويري أن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ، ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم ، وعلى ارتضائه أن يكون شاؤل ملكا[٢٣] .

---

(١٩) عباس محمود العقاد في كتابه « الله » ص ١٠٨ .

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٢١) ول ديورانت في « قصة الحضارة » الجزء الثاني من المجلد الأول ص ٣٤٠ .

(٢٢) نفس المرجع السابق ص ٣٤٠ .

(٢٣) المرجع نفسه في الصفحة نفسها .

وسوف نضرب مجموعة من الأمثلة التي تصور إله اليهود في رأيهم تصويرا بشرياً خالصاً :

فالله في قصة الخلق يأخذه التعب ، وينال منه الكلال بعد مجهود دام ستة أيام خلق فيها العالم فاستراح في اليوم السابع وقدّسه وأصبح من الضلال العمل فيه : ‹‹ وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل ››[(٢٤)] . وهكذا أصبح يوم السبت من الأيام المقدسة التي ينبغي أن يراعي اليهودي حرمتها : فلا يجوز له العمل في هذا اليوم ، ولا القيام بالأعمال التي تؤدي إلي نفع . ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالعمل فيه يكون قد ارتكب إثماً كبيراً (لاحظ أن السبت هو شبات Shabbath في العبرية بمعني الراحة ، فهو اليوم الذي فيه الرب استراح)[(٢٥)] . وواضح أن الصورة التي يصور فيها اليهود عملية خلق العالم صورة ساذجة بمقدار ما هي بشرية ؛ لأن الإله الذي ينال منه التعب ليس إلهاً ! ولهذا السبب نجد أن القرآن يرد عليهم ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾[(٢٦)] أي ولم يمسنا تعب ولا أرهاق بحيث نحتاج إلي راحة ! لكن طبيعة اليهود المادية وتركيبهم الحسي تمنعهم من الفهم الصحيح لطبيعة الفعل

---

(٢٤) سفر التكوين الإصحاح الثاني ١ – ٣ – وقارن ايضا كيف اصبح هذا اليوم من الأيام المقدسة في الوصايا العشر التي يعرضها سفر الخروج حيث يقول : ‹‹ اذكر يوم السبت لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك . وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك . لا تصنع عملا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك ، لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه ›› الاصحاح العشرون من ٨ إلي ١٢ .

(٢٥) عفيف عبد الفتاح طبارة ‹‹ اليهود في القرآن ›› ص ٣٠٩ .

(٢٦) آية٣٨ من سورة ق .

الإلهي الذي يقول للشيء : كن فيكون ! ولقد أشار القرآن الكريم أكثر من مرة إلي هذه الطبيعة الحسية المادية لليهود التي تمنعهم من فهم طبيعة الذات الإلهية فهمًا حقيقياً ، فأشار إلي أن هذه الطبيعة الحسية قد جعلتهم يظنون أنه من الممكن رؤية ذات الله ، بل إنهم علقوا إيمانهم بموسي ورسالته علي رؤيتهم لله ، ذلك لأنهم تصوروه تصوراً حسياً مادياً وكل ما هو حسي مادي يمكن أن يُري : « وإذا قلتم :يا موسي لن نؤمن لك حتي نري الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون »(٢٧) ولو أنك تأملت الغضب الذي يبرزه حرف « الفاء » في كلمة «فأخذتكم» ، لتبيّن لك مقدار ما في مطلبهم من سخف وتناقض . لكن التوراة لا تري في ذلك أية غضاضة ، وتنسب إلي موسي نفسه أنه هو الذي توجه بالطلب وأن الله أخبره أنه لا يستطيع أن يريه وجهه، لكنه سيطلعه علي ظهره فحسب « ... أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتي أجتاز ، ثم أرفع يدي فتنظر ورائي ، وأما وجهي فلا يُري ! »(٢٨) .

وهناك العديد من الشواهد من أسفارهم علي أنهم تصوروا الله تعالي في صورة مجّسمة ، فهو أحيانا يسكن الجبال : « أما عبيد ملك آرام فقالوا له : إن آلهتهم آلهة جبال ، لذلك قووا علينا »(٢٩) ولهذا يقول ول ديورانت « يلوح أنه كان في البداية إلهاً للرعد يسكن الجبال »(٣٠) . ثم تحول إلي إله للحرب يقود الجيوش ويدعو للفتح ، ويحارب من أجل شعبه : « فالرب رجل حرب »(٣١) .

---

(٢٧) أية ٥٥ من سورة البقرة .

(٢٨) سفر الخروج – الإصحاح الثالث والثلاثون عدد ٢٣ .

(٢٩) الملوك الأول – الإصحاح العشرون عدد ٢٣ .

(٣٠) قصة الحضارة – الجزء الثاني من المجلد الأول ص ٣٤٠ .

(٣١) سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر عدد من ١ – ٩ وايضا من ٢٣ حتي نهاية الإصحاح .

وفضلاً عن ذلك فإن سفر التكوين يروي لنا ، إيغالاً في التصور الحسي للألوهية ، أن لله تعالي أولاداً من الذكور ، وأن هؤلاء الذكور قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللآتي كان عددهن قد كثر في الأرض فاتخذوهن خليلات ، وولد لهم منهن نسل امتاز ببسطة كبيرة في الجسم ، وهم الجبابرة الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان ، ويستمر سفر التكوين في عرض التصور الحسي لله ، فيروي في قصة إهلاك قوم لوط ، وتدمير قريتي « سدوم » و«عموراء » أن ثلاثة رجال هم : الله وملكان معه قدموا علي إبراهيم وهو جالس أمام خيمته ، وأن إبراهيم قد عرف الله من بينهم فأسرع لاستقبالهم ، ورجا الله ومن معه أن يستريحوا عنده بعض الوقت ، وأن يتكئوا تحت شجرة قريبة من الخيمة ليزول عنهم بعض ما ألمَّ بهم من تعب السفر ، وقدم إليهم ماء ليغسلوا منه أرجلهم ، وقدم إليهم كسرة خبز ليسدوا رمقهم ، ثم أسرع إبراهيم إلي الخيمة وأمر زوجته « سارة » أن تصنع لهم خبزاً طازجاً وفطائر وذبح عجلا حنيذا لطعامهم فانتحي ثلاثتهم تحت ظل شجرة وأخذوا يأكلون مما قدمه إليهم ، وإبراهيم جالس علي مقربة منهم ، ثم يذكر ذلك السفر أن الله تفقد سارة زوجة إبراهيم وسأله عنها وأخذ يبشرها ويبشر إبراهيم بأنه سيمر في هذا الموعد من السنة القادمة فيجدهما قد رزقا غلاماً ذكياً ، ثم يشترك مع إبراهيم في نقاش وجدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد أهلاكهما بغية أن يثنيه عن ذلك لأن بعض أهلها أتقياء ولا يصح أن يأخذ المحسن بذنب المسيء ولو أنك قارنت بين هذه القصة كما يرويها سفر التكوين وبين رواية القرآن لها نجد اختلافا كبيرا فالقرآن يذكر أن الذين وفدوا علي إبراهيم كانوا ملائكة مشكلين في صورة بشر ، ثم هو من ناحية أخري ينفي أن يكون الملكان قد تناولا شيئا من الطعام لأن الموجودات الروحية لا تأكل ولا تشرب خلافاً لما تصوره طبيعة اليهود الحسية : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشري ، قالوا : سلاماً قال سلام ، فما لبث أن جاء

بعجل حنيذ ، فلما رأي أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف : إنا أُرسلنا إلي قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .. ››[٣٢] .

لكن لعل من أعجب ما يذكره سفر التكوين عن الطبيعة البشرية لله هو قوله إن الله لقي يعقوب ذات ليلة وأخذ يصارعه حتي مطلع الفجر ! والأعجب أن الله لم يستطع التغلب علي يعقوب ! وحينئذ ضرب حُقَّ فخذه فانخلع : ‹‹ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي علي حُقّ الفخذ إلي هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب علي عرق النسا ››[٣٣] ولما بلغ الوهن من الله مبلغه دون أن يجد سبيلاً إلي التخلص من يعقوب ، طلب منه أن يخلي سبيله ، لأنه قد طال أمد المصارعة وبزغ الفجر ، لكن يعقوب لم يقبل أن يطلقه إلا إذا باركه ، فقبل الله تعالي شرطه وباركه وسأله عن اسمه ، فقال يعقوب ، فقال الله: لن تسمي بعد الآن يعقوب بل تسمي ‹‹ إسرائيل ›› لأنك كنت قويا علي الله[٣٤] .

ويقول ابن حزم : ‹‹ إنه لذلك أسماه إسرائيل ، و‹‹ ايل ›› بلغتهم هو اسم الله تعالي ، فمعناه أسر الله تذكيرا بذلك الضبط الذي كان بعد المصارعة ، إذ قال له دعني فقال له يعقوب : لا أدعك حتي تبارك علي....إلخ››[٣٥] .

وكذلك يروي سفر الخروج أن الإله يفيد من الضحايا التي تُقَدَّم إليه وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها[٣٦] . بل إن بعض

(٣٢) أيات ٦٩ - ٧٠ من سورة هود - وقارن ابن حزم في كتابه ‹‹ الفصل ›› حـ ١ ص ١٣٠ - ص ١٣١ .

(٣٣) سفر التكوين الاصحاح الثاني والثلاثون عدد ٣٢ .

(٣٤) نفس المرجع عدد ٢٤ ص ٢٩ .

(٣٥) ‹‹ الفصل في الملل والأهواء والنحل ›› - لابن حزم المجلد الأول ص ١٤٢ .

(٣٦) سفر الخروج الاصحاح التاسع والعشرون عدد ٣٨ - ٤١ .

فقرات هذا السفر لتدل علي أن إلههم كان يطلب إليهم أن يقدموا أولادهم ضحايا محرقة لارضائه والتقرب إليه ، فقد ورد أن فرعون لم يسمح لبني إسرائيل بالخروج من مصر : فأنزل الله نقمته علي المصريين فكان يهلك أول مولود لكل أبوين من المصريين ، وأول مولود لكل أنثي من الحيوان في سائر بلاد مصر ، ولما رأي فرعون وقومه ما حل بهم من العذاب استجابوا لرغبة بني اسرائيل ، وأذنوا لهم بالخروج من مصر ، وكان هذا الخروج أكبر حدث في تاريخهم وإليه يرجع الفضل في تحررهم من الاستعباد وفيما أصابوه من عز وسلطان فيما بعد ، ولكي يظل بنو إسرائيل ذاكرين فضل الله عليهم في هذا الحدث ، فرض عليهم أن يخصصوا للرب أول ما تلد كل أنثي من الإنسان والحيوان ، أي أن يقدموه ضحية له ، ولكن خفف عنهم فيما يتعلق بأول مولود من الآدميين، فشرع لهم فدائه بذبح من الضأن ، وشرع لهم كذلك هذا الفداء فيما يتعلق بالحيوانات غير مأكولة اللحم(٣٧) .

وكذلك يذكر سفر «اللاويين» في أكثر من موضع أن الضحايا المحرقة (وهي التي تحرق أجزاؤها في المذبح تحت إشراف أحد الكهنة اللاويين) يرتاح لها الإله ويفيد منها ، وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها ، وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم إليه ، أو إذا قُدمت إليه في غير الصورة المقررة في شريعتهم ، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه علي المقصرين أو غير المراعين لمراسم التقديم ، فيرسل عليهم ناراً تحرقهم ، كما فعل مع ولدين من أبناء هارون لم يحسنا تقديم الأضحية ، ومن ثم كانت طريقة حرق الأضحية وتصاعد دخانها

---

(٣٧) الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام» ص ٢٧ .

هي الطريقة المقررة لديهم في معظم أنواع الأضحية والقرابين حتي قرابين البنات وما يصنع منه كالفطائر وما إليها[٣٨] .

وأعجب العجب أن نجد التصور الحسي لله يأخذ مداه ، فيصف اليهود جسم خالقهم وطوله وعرضه ! فقد ذكر ابن حزم أن هناك سفراً من أسفار التلمود يسمي سفر توما ، قد وصف جبهة خالقهم وعظم مساحتها فقال : إنها من أعلاها إلي أنفه خمسة آلاف ذراع ، وأنه قد جاء في سفر آخر من أسفار هذا الكتاب أن في رأس خالقهم ، تاجًا فيه ألف قنطار من الذهب ، وفي إصبعه خاتم تضيء منه الشمس والكواكب ، وأن الملك الذي يخدم ذلك التاج اسمه : « صندلفون »[٣٩].

كما وصفت بعض أسفار اليهود كيف يقضي الله يومه ، فقالت أنه يقضي الساعات الثلاث الأولي من النهار في مذاكرة الشريعة ، والساعات الثلاث الثانية في شئون الحكم بين الناس ، والساعات الثلاث الثالثة في تدبير العيش للخلق ، وأما الساعات الثلاث الأخيرة فيقضيها في اللعب مع الحوت ملك الأسماك ، وهو حيوان كبير جداً يتسع حلقه لسمكة طولها ثلثمائة فرسخ بدون أن تضايقه ، وقد رأي الله أن يحرمه من أنثاه حتي لا يتناسلا فيملأ الدنيا وحوشاً تهلك مَنْ فيها وتأتي علي الحرث والنسل ، ولهذا حبس الذكر بقوته الإلهية ، وقتل الأنثي وملحها وحفظها لطعام المؤمنين في الفردوس . وأما ساعات الليل فيقضيها الإله في مذاكرة التلمود مع الملائكة ، ومع ملك الشياطين الذي يصعد إلي السماء كل ليلة ثم يهبط منها إلي الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية . ولقد تغير هذا النظام بعد أن قرر الله هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل . فقد اعترف الإله بخطئه في هذا

---

(٣٨) الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي « الأسفار المقدسة » ص ٢٧ – ٢٨ .

(٣٩) قارن المرجع السابق ص ٢٨ – ٢٩ – و« الفصل في الملل » لابن حزم ص ١٦٣ .

الصـدد وندم علي مـا فـعل وخـصص ثلاثة أرباع الليل للـبكاء والندم ، وكان إذا بكي سـقطت من عينيه دمعـتان في البحـر فيسمع دويهـما من في الآفـاق ، وتضطرب المياه وترتجف الأرض ، فـتنجم عن ذلك الزلازل ، ويزعم التلمـود أن الله يردد في أثناء بكائـه ونحيبـه عبارات تدل علي ندمه عمـا فعل فيقـول : «تبا لي أمرت بخراب بيتـي ، وإحراق الهيكل، وتشـريد أولادي». ويقـول حين يسـمع الناس يمجـدونه : «طوبي لمن يمجـده الناس وهـو مسـتـحق لذلك ، وويل للأب الذي يمجـده أبناؤه مع عدم استـحقاقه لذلك ، لأنه قد قضـي عليهم بالتشـريد والشقاء» [٤٠] .

ويقــرر التلمـود كـذلك أن الله قــد تسـتـولي عليـه نزوة غـضـب ، فـيـقـسم ليـأتين أعـمـالاً شـريرة أو غـيـر عـادلة ، ثـم يثـوب إلي رشـده فـيـتحـلل من قـسـمـه كـمـا حـدث يوم أن غـضـب علي بني إسـرائيل في الصـحراء ، وأقسـم أن يبيدهـم ، ثم رجع عن عزمه وتحلل من يمينه بعد أن انقشـعت نزوة غضـبه[٤١] . وبعـد أن اضطر مـوسـي إلي أن يراجـعـه حـتي يمتلك عـواطفـه فيـقـول لـه : «ارجع عن حمـو غضـبك واندم علي الشـر بـشـعـبك» – « .. فـندم الرب علي الشـر الذي قـال : أنه يفـعله بشعبه...»[٤٢] ثم يريد «يهـوه» أن يفـني الـيهـود أصـلاً وفـرعـاً لأنهم عصـوا مـوسـي ، ولكن موسي يسـتـثير فيـه عـواطفـه الطيبـة ، ويأمره أن يفكر فيما يقول الناس عنه إذا سـمعوا بفعلته .

٤ – أخلاقيــــات :

رأينا في نهـايـة الـفـقـرة الســابقـة كـيف كـان يتــحلل «يهـوه» من قسـمـه وكـيف «ندم علي مـا ارتكـب في حق شـعـبه من شـرور ، ويقدّم

---

(٤٠) د . علي عبـد الواحد وافي ص ٢٩ وانظر أيضـا الدكتـور محمـود بن الشريف في كتابه «الأديان في القرآن» ص ١١١ – ١١٢ دار المعارف بمصر عام ١٩٧٢ ط ٢ .

(٤١) د . وافي في المرجع السابق ص ٣٠ .

(٤٢) سفر الخروج – الاصحاح الثاني والثلاثون عدد ١١ – ١٤ .

لنا « ول ديورانت » جانباً آخر من أخلاقيات إله اليهود فيقول : « أن اللعنات التي يتهدد بها يهوه شعبه المختار إذا ما عصاه لجديرة بأن تكون نماذج في القدح والسبب ، ولعلها هي التي أوحت إلي الذين حرقوا الكفرة في محاكم التفتيش »(٤٣) ... وهاك نموذجا لها .

« ملعوناً تكون في المدينة ، ومعلوناً تكون في الحقل ... ملعونة تكون ثمرة في بطنك وثمرة أرضك ... ملعوناً تكون في دخولك ، وملعوناً تكون في خروجك ، يرسل الرب عليك اللعنة والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتي تهلك وتفني سريعا من أجل سوء أفعالك ، إذا تركتني يلصق بك الرب الوباء حتي يبيدك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها ، يضربك الرب بالسل والحمي والرعشة والالتهاب والجفاف واللفّح والذبول فتتعبك حتي تفنيك وتكون جثتك طعاما لجميع طيور السماء ووحوش الأرض وليس مَنْ يزعجها ...

يضربك الرب بقرحة مصر ، وبالبواسير ، والجرب ، والحكة حتي لا تستطيع الشفاء . ويضرب الرب بجنون وعمي وحيرة قلب فتتلمس في الظهر كما يتلمس الأعمي في الظلام ولا تنجح في طرقك ... تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها . تبني بيتاً ولا تسكن فيه ، وتغرس كرمًا ولا تستغله . يذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه ، يغتصب حمارك من أمام وجهك ولا يرجع إليك، تندفع غنمك إلي أعدائك وليس لك مُخلّص ...

وتكون مجنوناً من منظر عينيك الذي تنظر ، يضربك الرب بقْرح خبيث علي الركبتين وعلي الساقين حتي لا تستطيع الشفاء من أسف

(٤٣) قصة الحضارة – المجلد الأول – الجزء الثاني ص ٣٤٢ .

قدمك إلي قمة رأسك ... يجعل الرب ضرباتك وضربات نسلك عجيبة ضربات عظيمة راسخة وأمراضاً رديئة ثابتة ، ويرد عليك جميع أدواء مصر التي فزعت منها لتلتصق بك . أيضا كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتي تهلك ... ››[٤٤] ، وهذا الإصحاح من ‹‹ سفر التثنية ›› زاخر بهذه اللعنات وهذه الألوان من السباب ، لكل من عصي الرب أو خرج عن وصاياه . ولعلك تلاحظ أن جميع العقوبات مادية وكلها دنيوية ، فالملاحظ كما يقول ابن حزم بحق ‹‹ أن التوراة التي بأيدي اليهود ليس فيها ذكر ما لنعيم الجنة أصلا ، ولا الجزاء بعد الموت››[٤٥] ، وهذا يدلك علي مدي التصاق الديانة اليهودية بالأرض وبالحياة الدنيوية ، ومبلغ ما تنضح به طبيعة اليهود الحسية من بعد عن الروحانية وإغراق في المادية إن جاز أن يوصف دين بالمادية ! هذه العقيدة التي تنكر وجود حياة أخري يجازي فيها المحسن علي إحسانه، والمسيء علي إساءته تؤدي بالإنسان إلي الانزلاق في هاوية المنكرات، واقتراف الآثام ، وتجعل المادة ، واللذات الجسدية الهدف الذي من أجله يعيش ويحيا ، وهذا ما جعل اليهود قومًا ماديين يحرصون علي جمع المال بمختلف السبل ، وليس في تاريخ البشرية أمة اشتهرت بحب المال والسعي إلي جمعه كما اشتهر اليهود ، فقد سلكوا في ذلك كل الطرق المشروعة وغير المشروعة ، حتي ما كان

---

(٤٤) سفر التثنية الاصحاح الثامن والعشرون عدد ١٦ – ٢٨ والسفر مليء بهذا اللون من السباب والقذف واللعنات لكل من عصي الرب !

(٤٥) ‹‹ الفصل في الأهواء والملل والنحل ›› جـ ٢ ، ص ٨٦ – وقارن أيضا الدكتور محمود ابن الشريف في كتابه ، ‹‹ الأديان في القرآن ›› ص ١٠٧ – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية عام ١٩٧٢ – وقارن أيضا عباس محمود العقاد في كتابه : ‹‹ الله ›› ص ١٠٩ حيث يقول ‹‹ وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلي أو الحب أو شيول هي الهاوية التي تأوي إليها الأجسام بعد الموت ولا نجاة منها لميت . وان الذي ينزل إلي الهاوية لا يصعد ›› .

بعيداً عن المروءة ، وأسرفوا في الحرص علي جمع المال إلي حد العبادة، وربما ظل العجل «الذهبي» عالقًا في ذاكرتهم علي الدوام ، ولقد بلغ غرامهم بالمال حداً جعل السيد المسيح يواجههم بكلمات حاسمة « لا يقدر أحدكم أن يخدم سيدين : لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر: لا تقدروا أن تخدموا : الله والمال »[٤٦] .

والغريب أن صورة المرابي الجشع أو التاجر الذي يقرض الناس برباً فاحش قد ارتبطت في أذهان الناس « بالرجل اليهودي » ، ولقد صوَّره شكسبير أروع تصوير في مسرحيته « تاجر البندقية » في شخصية « شايلوك » المرابي الجشع ! ولقد كنت أشعر أن الناس لأسباب كثيرة، بعضها علي الأقل سياسي ، يبالغون في رسم هذه الصورة ، بل في تشويهها أحيانا . حين يجعلون الرجل اليهودي يقدم زوجته إذا لزم الأمر لمنْ يدفع في سخاء ! وربما تستر عليها هو نفسه إذا ما عرف أنها عشيقة لرجل غني يمكن أن يستفيد منه بفوائد لا حصر لها ! أقول كنتُ أظن ذلك مبالغة وإمعاناً في تشويه الصورة حتي وقفت في سفر التكوين ، أول أسفار التوراة عندهم ، علي مشهد يقوم به نبي من أنبيائهم . ونحن نروي القصة كما جاءت في كتبهم هم وعلي عهدتهم هم لنستخرج منها أخلاقهم « هم » ، مؤمنين بالطبع أن إبراهيم « كان صديقً نبياً » .

والقصة بإيجاز كما يرويها سفر التكوين أنه حدثت مجاعة وجدب في فلسطين فارتحل « إبراهيم » إلي مصر ومعه زوجته « سارة »، وفي الطريق أخبرها بأنه يخشي عليها وعلي جمالها من المصريين إذا ما وقعت أعينهم عليها ، وأنهم لن يتورعوا عن قتل زوجها إذا ما علموا أنها متزوجة ، واتفق معها إبراهيم لأجل أن تسلم له حياته أن توافق

---

(٤٦) انجيل متي – الاصحاح السادس عدد ٢٤ .

علي أن تقول إنها أخته ! وتستمر القصة فتقول أن ملك مصر ، وكان من عمالقة الهكسوس ، علم بجمال سارة بعد أن أخبرته الحاشية أن امرأة جميلة وفدت إلي مصر مهاجرة ومعها رجل ، فاستدعاهما الملك إلي قصره ، وعلم من إبراهيم أنها ليست متزوجة وأنها أخته ، فاتخذها الملك من نسائه بعد أن بالغ في إكرام إبراهيم ، ومنح له قطعاناً من الغنم والثيران والحمير !

ثم سرعان ما ظهر وباء في القصر الملكي أصاب الملك وحاشيته، وعرف الملك أن هذا الوباء لا ينزل بجماعة إلا إذا ارتكبت فيها فاحشة كالزنا أو الكذب ، وما لبث الملك أن استدعي إبراهيم وبالغ في تأنيبه لافترائه وكذبه وزعمه أن سارة أخته لا امرأته ، وما تمخض عن هذا الكذب من تفشي الوباء في قصر الملك وارتكابه الفاحشة ، إذ عامل الملك سارة كأحدي نسائه في الوقت الذي مازالت فيه تحت إبراهيم وفي عصمته .

ويقول سفر التكوين ، أن إبراهيم بعد أن طرده الملك من مصر هو وسارة وبعد أن سمح له فرعون بأن يحمل معه جميع ما وهب له من مال ومتاع ، هاجر إلي منطقة « جرار » ومثل أمام حاكمها الدور الذي مثله أمام فرعون مصر ، وكان الحاكم - ويدعي : « أبيمالك » - يرتكب الاثم مع سارة برضا إبراهيم وتحت سمعه ، لولا أن الحاكم رأي رؤيا في منامه أطلعه الله فيها علي حقيقة سارة ، فاستدعي إبراهيم ولامه ووبخه ... ثم منحه هبة من نعاج وثيران وعبيد علي أن يحمل عصاه وامرأته وما معه ويرحل إلي منطقة أخري ![٤٧] .

(٤٧) سفر التكوين - الاصحاح الثاني عشر عدد ١١ -٢٠ - وانظر في قصة « أبيمالك » سفر التكوين - الاصحاح العشرون عدد ١ - ١٥ .

وهكذا تصور أسفار اليهود إبراهيم علي أنه يتاجر بامرأته . كأي يهودي ضال تائه لا أخلاقي – ، إذ ينتقل بها من بلد إلي آخر كاذباً مخفياً الحقائق هادفاً جمع المال ، والهدايا ، والعطايا ، مستخفاً بالشرف مستهينا بالطهر في سبيل أن تسلم له حياته ، وأن يحصل علي ما يبتغيه من المال(٤٨) .

٥ - خاتمـــــة :

تلك صورة موجزة للألوهية في أسفار اليهود ، وللمادية المتغلغلة في هذه الديانة ، وهي ديانة تقترب من الديانات البدائية ، تعبد العجل تارة ، وتعبد الأنبياء تارة أخري ، كما حدث حين عبد اليهود عزرا Es-dras وأشار إليه القرآن الكريم : ((وقالت اليهود عزيز ابن الله))(٤٩) . وهي في جميع الحالات لم ترتفع إلي مرتبة التوحيد . يقول ول ديورانت في هذا المعني ((لم يكن يهود الإله الوحيد الذي يعترف اليهود بوجوده أو يعترف هو نفسه بوجوده . وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه في الوصية الأولي من الوصايا العشر : هو أن يكون مقامه فوق مقام سائر الأرباب ، وهو يقر بأنه إله ((غيور)) ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم))(٥٠) ويقول موسي في أغنيته الشهيرة : ((من مثلك بين الآلهة يارب))(٥١) . ويقول سليمان ((إلهنا أعظم الآلهة)) – ويصيح أرميا : ((علي عدد مدنك صارت آلهتك يايهوذا))(٥٢) .

وأينما ذهبت سوف تجد التركيب الحسي لليهود هو المنظار الذي ينظرون منه إلي كل شيء إلي الله ، والأنبياء ، والرسل ، إلي المباديء،

---

(٤٨) الدكتور محمود بن الشريف ((الأديان في القرآن)) ص ١١٥ – ١١٦ .

(٤٩) آية ٢٩ من سورة التوبة .

(٥٠) ول ديورانت ((قصة الحضارة)) الجزء الثاني من المجلد الأول – ص ٣٤٣ .

(٥١) سفر الخروج : الاصحاح الخامس عشر عدد ١١ والاصحاح الثامن عشر عدد ١١ .

(٥٢) سفر أرميا : الاصحاح الثاني عدد ٢٨ .

والأخلاقيات ... إلخ . لا تجد في تراثهم كله سوي الارتباط بالأرض وبالتراب . وهذا هو ما أشار إليه تيلور R.Taylor حين ذهب إلي أن الإيمان الديني بالآلهة قد ينشأ لمبررات أخري غير المبررات الميتافيزيقية أو النظرية الخالصة : « فهناك حضارات بأكملها ، كالحضارة الإسرائيلية القديمة : لم تعرف قط شيئاً عن الميتافيزيقا أو التفكير النظري ، حتي أنك تستطيع أن تقول : أن هذا اللون من التفكير كان غريباً عن هذه الحضارة ، رغم أنها كانت حضارة دينية »(٥٣) أجل فقد فهمتْ الدين بمنضور حسي خالص ، ولهذا السبب ، فإننا نجد السيد المسيح يضعها في ضفة ، ويضع نفسه في الضفة المقابلة تماماً لأنهما نقيضتان : إحداهما ترتبط بالأرض ، والأخري تحلق في السماء ، واحدة تتمسك بالدنيا والأخري تتطلع إلي الآخرة . أمن الغريب إذن أن يضع السيد المسيح هذه التفرقة بينه وبين اليهود .. ؟ .. « .. أنتم من أسفل ، أما أنا فمن فوق . أنتم من هذا العالم ، أما أنا فلستُ من هذا العالم ... »(٥٤) .

***

---

(٥٣) Richard . Taylor : Metaphysics P . 84 Foundations of Philosophy - London 1947 .

(٥٤) انجيل يوحنا : الإصحاح الثامن عدد ٢٣ .

«أخلاق اليهود .. من أسفارهم»

تمهيـــد :

يتغلغل اليهود في العالم علي نحو ما يفعل الإخطبوط الضخم الذي يمد أطرافه في جميع الاتجاهات لاحتواء فريسته . وهم لا يضيعون فرصة ولا مناسبة إلا انتهزوها لبث سمومهم ونشر آرائهم وأفكارهم بطريقة علمية مدروسة ، بغية السيطرة علي عقول الناس بما يروونه من أكاذيب وأباطيل عن دورهم الخارق في الماضي ، وإسهامهم الفذ في بناء حضارة الإنسان ، وتثبيت أقدامه علي الأرض ! ثم تطلعهم إلى المستقبل للقيام بدور المخلص لهذا الإنسان من آثامه وشروره وخطاياه وانحرافاته ، والعودة به إلي طريق الجادة والهدي : إنهم باختصار – وتلك هي الخلاصة التي يريدون لها أن تبقي مترسبة في أذهان الناس – أمل البشرية في الخلاص : وهم «البركة» لشعوب الأرض جميعًا ، كما أنهم كانوا «الأصل» في كل قيم الإنسانية وأخلاقياتها في الماضي ! وهذا هو السر في بقائهم في الماضي رغم التشتت والضياع ، وهو المبرر الذي يحتم علي البشرية أن تقبل بقاءهم في المستقبل وتسعي إليه !

ويكفي أن نسوق مثلاً واحداً علي ما نقول لكاتبة اشتغلت رئيسة لتحرير إحدي الصحف(١) ، فراحت تبث أفكار اليهود وخططهم وأباطيلهم في صحيفتها ثم جمعت أفكارها ونشرتها في كتاب شهير أطلقت عليه اسما ذا مغزي وهو : «البقاء اليهودي» ، ناقشت فيه

---

(١) هى الكاتبة اليهودية الصهيونية « تروى فايس روزمارين » رئيسة تحرير مجلة (جويش سبكتاتور) الصهيونية الأمريكية المعروفة.

دعوي الصهيونية الزاعمة بأهمية بقاء ((شعب الله المختار)) الذي هو صفوة الشعوب جميعاً ، شارحة للعقل الأوروبي بأسلوب لا مثيل له في الحذق والمهارة والالتواء والخبث ! – كيف أن اليهودية هي صاحبة الفضل الأول علي حضارة الغرب ، وأنها الأساس في الماضي ، والأمل في المستقبل في جميع القيم التي يقيم عليها الرجل الغربي حياته ، وأن كل ما حققته حضارته من أصول للحكم ، أو استقرار في الأسرة، أو ما بقي في وجدانه من معاني الحب ، والرحمة ، والتعاطف ، والتسامح ، والبذل ، والعطاء ، والود ، والصفاء ، في العلاقات بين الناس إنما مرجعه إليها ، والفضل فيه لليهودية وحدها ![٢] .

وتري الكاتبة أن الوجود اليهودي ، من ثم ، ضروري لأنه : ((بركة لشعوب الأرض جميعاً بما أتاحوه لها من مشاركة في الاستبصارات الدينية ، والخلقية للحياة الطيبة علي أرضنا ..))[٣] فاليهود : ((هم الذين اكتشفوا الحقيقة الخالدة التي تقضي بأن الله يريد من الإنسان أن يمارس العدالة ، وأن يحب الرحمة ، وأن يتمشي في تواضع مع الله ...))[٤] .

وإذا كان المؤرخون علي إجماع بأن ما في التراث اليهودي من أخلاق حميدة وخصال نبيلة لم يكن أصيلاً عندهم ، وإنما منقول من التراث المصري الفرعوني الذي عرفوه ودرسوه جيداً إبان إقامتهم في مصر التي استمرت أربعة قرون – وإذا كان جيمس هنري برستد يقول :

(٢) راجع مناقشة قيمة لهذا الكتاب بقلم الدكتور صبرى جرجس فى كتابة ((التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى:
اضواء على علم الأصول الصهيونية لفكر سجمند فرويد)) .من صفحة ١١٣ حتى ١٣٩ – الناشر عالم الكتب بالقاهرة عام ١٩٧٠

(٣) المرجع السابق ص ١١٥.

(٤) نفس المرجع ص ١١٨.

‹‹ صار من الواضح الآن أن المثالية الاجتماعية التي قامت علي سمو التقدير للأخلاق ، والتي هي أقدم ما عُرف لنا من مذاهب ـ قد ظهرت في مصر قبل سنة ٢٠٠٠ ق.م . وكانت نفس الكتب التي تحتوي عليها يقرؤها في ‹‹ أورشليم ›› أولئك الرجال الذين أنتجوا تلك الكتابات التي نسميها الآن بالعهد القديم ... ››[٥] وإذا كان يقارن في صفحات طويلة بين أسفار العهد القديم (ولا سيما سفر إشعيا وسفر إرميا ، وسفر الأمثال ...) وبين أقوال أمينوبي الحكيم المصري القديم ، ويري أن بعضاً من مزامير داود قد نقلت نصاً من أقوال هذا الحكيم[٦] ... إذا كان هذا هو رأي المؤرخين ـ فإن الكاتبة اليهودية ترفضه وتري أنه من الضلال أن يقول ‹‹ برستد ›› وغيره من المؤرخين إن اليهود نقلوا الدستور الخلقي ـ الذي ضمّنوه التوراة ـ عن المصريين القدماء : ‹‹فلو كان المصريون هم مبتدعو الضمير لبقوا هم ، ولم يبق اليهود ، ولكن العكس هو الصحيح ؛ لأن الضمير هو مساهمة اليهود للبشرية ، وهو المساهمة المميزة الوحيدة لهم..››[٧]

أصحيح هذا ... ؟ أصحيح أن اليهودية هي التي ابتدعت الضمير ودستور الأخلاق ، وقيم الحياة ... إلخ ، وهي التي ألهمت البشرية سواء السبيل... ؟ : أكان اليهود هداة للبشرية ، وأئمة وروادا لفعل الخير وتجنب الشر .. ؟ : وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا كرههم الناس؟: ولماذا كانت صورتهم بغيضة في جميع العصور وفي كافة المجتمعات ؟: لماذا لفظهم الناس ، أفراداً وجماعات ، ونفروا منهم ، وودوا القضاء عليهم : من هامان رئيس وزراء فرعون مصر رمسيس الثاني ـ الذي

---

(٥) جيمس هنرى برستد : (فجر الضمير)ص ١٤٠ ترجمة الدكتور سليم حسن الناشر مكتبة مصر بالفجالة .

(٦) قارن كتاب برستد السالف الذكر ابتدادا من صفحة ٣٦١ وما بعدها ، لاسيما ٣٩٠ -٣٩١، وأيضا ٣٩٨ -٤٠٩ .

(٧) التراث اليهودى الصهيونى ـ ص ١١٩ .

أمر بقتل كل غلام ذكر يولد لهم في القرن الثالث عشر قبل الميلاد - حتي هتلر في القرن العشرين الذي نكل بهم أشد تنكيل ومزقهم شر ممزق ؟ : ولماذا تنبأ ((فرانكلين)) في الخطاب الذي ألقاه في مناسبة الاحتفال بعيد الدستور عام ١٨٧٩ بخطرهم علي أمته فقال في خطبته هذه : ((أيها السادة : هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر هو : اليهود . أيها السادة . حيثما استقر اليهود نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب ، ويزعزعون الخلق التجاري الشريف ، إنهم لا يندمجون بالشعب ، لكنهم يقيمون حكومة داخل الحكومة ، وإذا وجدوا معارضة من أحد قاموا بخنق الأمة مالياً كما حدث في البرتغال وأسبانيا ... إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور ، ففي أقل من مائة سنة سوف يتدفقون علي هذه البلاد بأعداد ضخمة ، تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ..))[8] ولماذا طرد اليهود، تقريباً ، من جميع البلاد التي دخلوها : من انجلترا عام ١٢٩٠ م ، وفرنسا عام ١٣٠٦ ثم عام ١٣٩٤ ، والمجر عام ١٣٦٠ وأثينا عام ١٥٨٢ وبلجيكا عام ١٣٧٠م ، والنمسا عام ١٤٢٠م ، وهولندا عام ١٤٤٤م وايطاليا عام ١٥٤٠م إلخ إلخ .. ولماذا ظهرت أسطورة ((اليهودي التائه)) الذي قضي عليه أن يظل تائهاً حائراً هائماً علي وجهه في الأرض إلي يوم الدين .؟:[10] وما سبب الكراهية المتبادلة بينهم وبين غيرهم من شعوب وأمم ؟ : أتكون شعوب الأرض كلها علي خطأ ، واليهود وحدهم

---

(٨) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة تأليف الدكتور محمد سيد طنطاوى،الجزء الأول الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٣ - منشورات مكتبة الأندلس بنغازى (من المقدمة) .

(٩) قارن فى ذلك بالتفصيل كتاب اليهود فى القرآن ص ٩٦ - ٩٧ تأليف عفيف عبد الفتاح طبارة - الطبعة الرابعة عام ١٩٧٤ دار العلم للملايين بيروت .

(١٠) يقال أحياناً أن هذة الأسطورة ترجع فى الأصل إلى الرجل اليهودى الذى سخر من السيد المسيح وهو سائر نحو الصليب ، فقضى اللة علية أن يظل تائهاً إلى يوم الدين ؛ وهى شائعة فى غرب أوربا. ولقد إستغلت هذه السطورة فى الأدب ، وعالجها كتاب كبار من أمثال:جوتة، وشليجل، وموللر،وشيلى...وغيرهم.

علي صـواب . ؟ : ليس لنا أن نجيب عن هـذا الـسـؤال حـتي لا نتـهم بالعـصرية والتـعـصب ومعـاداة السـامية ـ مع أننا سـاميـون ـ إلي آخر النغمة اليهودية المعروفة ، ولكننا نفضل أن نكشـف عن دستور الأخلاق عند اليـهـود من أسفـارهـم المقدسة حـتي تكون حـجة دامغة عليـهم . : فماذا يقول كتابهم المقدس عن أخلاقهم وسلوكهـم . ؟؟

يهـوه ... يشكـو !

الغريب أنك عندمـا تقلب صفـحات قليلة من أسفـار اليهود المقـدسة سوف تجد أنها تكـاد تكون هي نفسها سجلاً حافـلاً لشرورهـم وآثامهم وخطاياهم ، فهي التي تخبرنا أنهم ارتكبو كل صنوف الموبقات ، وكيف أنهم مارسو الخيانة والكذب والغدر في علاقاتهم بعضـهم ببعض ، وفي علاقتهم بغيرهـم ، وكيف أصمـوا الآذان عن صـوت الـرب ، وكيف خالفوا الشـريعة التي أنزلهـا لهـم، وإلي أي مـدي خانـوا العـهـود والمواثيق التي قطعـها عليـهم المرة تلو المرة حـتي انتـهوا إلي الـكفـر ، وعبادة الأصنام والأوثان من دون الله ! فـي كل طور من أطوار حـياتهـم لـهم قـصة تدل علي سوء أخـلاقهم ، وفي كل حـقبة من أحقاب حيـاتهم لهم حكاية عن انعـدام الـضمـير ! فـما من سـفـر من أسـفار الـتـوراة الخـمـسة (الأسفار الأولي وهي المسـمـاة بأسفـار مـوسـي) – إلا ويزخـر بعبارات السـخط والغضب التي سـبها الرب عليـهم في كل عهودهـم : منذ أن أنقذهـم من أيدي المصريين فـأخرجهم من مـصـر غانمين ، إلـي أن أهلكهم ، وقضي بخراب ديارهم !

وإذا بدأنا من الـبداية لـوجـدنا « يـهـوه » – إله الـيـهـود – يغـضب عليـهم ويصـفـهم بالعناد ، والـصلف ، ويطلب من مـوسـي أن يتـركه يقضي عليهم : « قـال الرب لموسي : رأيت هـذا الشـعب ، وإذا هو شعب صلب الرقـبـة ، فـالآن اتركني ليـحمي غـضـبي عليـهـم وأفنيـهـم .. »[11]

---

(١١) سفر الخروج : الإصحاح الثانى والثلاثون:أعداد من ١–١٠.

لاحظ أن ذلك يجيء بعد خروجهم من مصر مباشرة ! – ويضطر موسي إلي مراجعته حتي يتمالك نفسه ويضبط عواطفه ويمسك أعصابه فيرجع عن تهديده بإفنائهم :(١٢) . ويرضخ ((يهوه)) مؤقتًا ، لكنه يعود إلي الشكوي من جديد ((وقال الرب لموسي : حتي متي يهينني هذا الشعب ؟! وحتي متي لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم ؟! . إني أضربهم بالوباء وأبيدهم .))(١٣) لكن الشكوي ، فيما يبدو ، لا تثمر ولا ينصلح حال الشعب ، وينفذ صبر ((يهوه)) – وللصبر حدود – ((فكلم الرب موسي وهارون قائلاً : حتي متي أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليَّ .؟! قل لهم : حَي أنا، يقول الرب ، لأفعلن بكم كما تكلمتم في حقى .. أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليَّ ، في هذا القفر يفنون وفيه يموتون ...))(١٤) . وييأس ((يهوه)) من إصلاحهم ويعلن إفلاسه من هذا الشعب: ((جيل أعوج ملتو ، الرب تكافئون بهذا يا شعب غبيٌ غير حكيم سمنت وغلظت واكتسيت شحماً !؟..))(١٥) : ((إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم . لو عقلوا لفطنوا لهذه ، وتأملوا آخرتهم ... إن يوم هلاكهم قريب ! إنهم جيل متقلب ، أولاد لا أمانة فيهم ، هم أغاروني بما ليس إلهاً ، أغاظوني بأباطيلهم ؟!))(١٦) تصور : يصل بهم الفجور إلي حد إغاظة الرب : إلي هذا الدرك يبلغ سوء سولكهم : يغيرون الرب ويغيظونه بآلهة غيره ، بل وبما ليس إلهًا: لكنه سوف يرد عليهم بالمثل ويكيل لهم الصاع صاعين : ((أنا

---

(١٢) نفس المرجع السابق أعداد:١١–١٢.

(١٣) سفر العدد: الإصحاح الرابع عشر :١١–١٢

(١٤) نفس المرجع السابق أعداد:٢٦:٣٥.

(١٥) سفر التثنية : الإصحاح الثانى والثلاثون أعداد ٥ –٦.

(١٦) نفس المرجع أعداد ٢٨, ٣٥ .

أغيرهم بما ليس شعبا ، يا أمة غبية أغيظهم . أنه قد اشتعلت نار بغضبي فتتقد إلي الهاوية السفلي ، وتأكل الأض وغلتها ، وتحرق أسس الجبال .. ››[١٧] وهو علي قدر ما كان يبتهج بنجاحهم وتزايدهم ويفرح بتفوقهم فإنه الآن يفعل العكس تماما : ‹‹ وكما فرح الرب ليحسن اليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم ، فتستأصلون من الأرض ... ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلي أقصائها ... لا تطمئن ، ولا يكون لك قرار لقدمك بل يعطيك الرب هاك قلبا مرتجفا ، وكلال العينين وذبول النفس ... ويردك الرب إلي مصر .. فتباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماء وليس مَنْ يشتري ››[١٨] وفي النهاية يعلن ‹‹ يهوه ›› : أنه لا مفر من أن يمسحهم مسحاً لأنهم لم يكفوا يوما واحدا عن إغاظته كما سبق أن قدمنا : ‹‹ أمسح أورشليم كما يمسح أحد الصحن : يمسحه ويقلبه علي وجهه ... لأنهم عملوا الشر في عيني وصاروا يغيظونني من اليوم الذي فيه خرج آباؤهم من مصر إلي هذا اليوم ››[١٩] .

لكن ‹‹ يهوه ›› لم يكن فريداً في شكواه من هذا الشعب الغريب ، فالأنبياء أنفسهم يشكون ويتذمرون من سلوك هؤلاء الناس ، فها هو موسي يجأر بالشكوي منهم بعد أن خرج مهاجراً من مصر مباشرة : فقد كان اليهود آنذاك لا يكفون عن التذمر والتمرد عليه ، حتي أرهقوه ارهاقاً شديداً ، وجعلوه يصرخ إلي ربه متمنيا الموت ! فلنستمع لما يقوله سفر العدد في هذا الموقف :

---

(١٧) نفس المرجع أعداد ٢٠- ٢٢

(١٨)سفر التثنية: الإصحاح الثامن والعشرون: ٦٣ - ٦٨.

(١٩) سفر الملوك الثانى :الإصحاح الحادى والعشرون : ١ـ ١٥ .

« فعاد بنو إسرائيل أيضا وبكوا ، وقالوا : مَنْ يطعمنا لحماً ؟ قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ ، والكراث والبصل والثوم ، والآن قد يبست أنفسنا ... فلما سمع موسي الشعب يبكون بعشائرهم كل واحد في باب خيمته ... ساء ذلك في عيني موسي ، فقال موسي للرب : لماذا أسأت إلي عبدك ؟ ولماذا أجد نقمة في عينيك حتي أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليَّ ؟! ألعلي حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلي ولدته ؟! : من أين لي لحم حتي أعطي جميع هذا الشعب ، لأنهم يبكون عليَّ قائلين أعطنا لحماً لنأكل .؟ : لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشعب لأنه ثقيل عليَّ فإن كنت تفعل بي هذا فاقتلني قتلاً ، إن وجدت نعمة في عينيك ، فلا أري بليتي ![20] وبعد ذلك اختار موسي سبعين رجلاً من شيوخ اليهود وأشركهم معه في تدبير شئون هذا الشعب المتمرد ! »[21] .

ولم يكن « موسي » هو النبي الوحيد الذي ضجَّ بالشكوي من هذا الشعب فها هو « إرميا » يصرخ فيهم :

« أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً ، وتبخرون للبعل ، وتسيرون وراء آلهة أخري لم تعرفوها ، ثم تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت ؟ هل صار هذا البيت مغارة لصوص في أعينكم ؟! »[22]

والغريب أن « إرميا » لم يوجه حديثه إلي العامة فقط ويستثني «الأنبياء» و « رجال الدين » ـ لكنه كان يعتقد أن الجميع ارتكبوا الكثير من الموبقات والآثام :

---

(٢٠) سفر العدد : الإصحاح الحادى عشر : ٤ : ١٥.

(٢١)« اليهود :نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم » تأليف ذكى شنودة المحامي ص ٣٤:٣٥ الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة

(٢٢)سفر إرميا : الإصحاح التاسع والعشرون : ٢٣.

‹‹ لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعاً ، فلابد أن يحل بهم الهلاك ! من أجل أنهم عملوا قبيحاً في إسرائيل ، وزنوا بنساء أصحابهم : ››[٢٣]

وسوف نذكر فيما بعد كثيراً من الحكايات التي ترويها أسفار اليهود عما ارتكبه أنبياؤهم من خطايا وآثام ! فليس ثمة ما يمنع كتابهم المقدس من الحديث عن سلوك الأنبياء ورجال الدين الشائن : ‹‹ رأيتُ في أنبياء السامرة حماقة ››[٢٤] ‹‹ وفي أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعر منه ، يفسقون ويسلكون بالكذب ، ويشدون أيادي فاعلي الشر حتي لا يرجعوا الواحد عن شره ، صاروا كلهم كسدوم وسكانها كعمورة . هكذا قال رب الجنود عن الأنبياء ولهذا››[٢٥] فسوف يسقيهم ! ‹‹ ماء العلقم ؛ لأنه من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق في كل الأرض ، هكذا قال رب الجنود : لا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم ، فإنهم يجعلونكم باطلاً ››[٢٦] . وليس أدل علي تفشي الفجور ما يقوله النبي ‹‹ إرميا ›› علي لسان الرب مخاطباً إسرائيل :

‹‹ كيف أصفح لك عن هذا .. ؟ ››

‹‹ بنوك تركوني .. ولما أشبعتهم زنوا .. ›› :

‹‹ وفي بيت زانية تزاحموا ... ››

‹‹ صاروا حُصنا معلوفة سائبة ... ››

‹‹ صهلوا كل واحد علي امرأة قريبه ... ››!![٢٧] .

---

(٢٣) نفس المرجع.

(٢٤) سفر إرميا ٢٣ : ١١.

(٢٥) نفس المرجع – و قارن أيضا (في الأنبياء انسحق قلبي آن اآرض امتلآت بالفاسقيين).

(٢٦) نفس المرجع .

(٢٧) سفر إرميا ٢٣ : ١١.

هوامش اليهود من أسفارهم–ص ٤٩–٥٠

وإذا كانت أسفار اليهود تشهد عليهم بالانحراف عن الشريعة الحقة، والأخلاق الحميدة ، فإن أسفار غيرهم من الديانات تقول عنهم نفس الشيء ، فليس من قبيل المصادفات أن يستخدم السيد المسيح في مخاطبته لفقهاء اليهود الذين كانوا معروفين بالكتبة والفريسيين ألفاظا قريبة من الألفاظ التي نعتتهم بها أسفارهم من قبل . يقول : « الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، فإنكم تغلقون ملكوت السماوات أمام الناس ، فلا أنتم تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون ... الويل لكم لأنكم تأكلون بيوت الأرامل بحجة أنكم تطيلون صلواتكم ... »[٢٨] : « ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشئ ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم .. »[٢٩] : « أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم »؟! ثم يهتف : « يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين ، كم من مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم يريدوا ؟! »[٣٠] .

وإنك لتجد كثيراً من آيات القرآن الكريم تثبت كذلك انحرافهم « واتخذ قوم موسي من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين »[٣١] ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ... ﴾[٣٢] . « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات

---

(٢٨) إنجيل متى ؛ الإصحاح الثالث و العشرون :١٣-١٥.

(٢٩) نفس المرجع رقم ١٦

(٣٠) إنجيل متى الإصحاح الثالث والعشرون :٢٧؛وأيضا إنجيل لوقا١٩ :٤٣-٤٤ .

(٣١) آية ١٤٨ من سورة الأعراف ..

(٣٢) آية١٥٢ من سورة الأعراف .

أحلّت لهم ، بصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما .. »».

هذا هو حكم الكتب المقدسة علي اليهود ، ورأيها في سلوكهم وأخلاقياتهم، أما كراهية الناس لهم فإنها ترجع في الواقع إلي أسباب كثيرة ربما أمكن القول بأن استعلاء اليهود وتعصبهم ، وانغلاقهم وبعدهم عن الناس ، فضلاً عن طابعهم المادي الحسي ، وبعدهم عن الجانب الروحي . وسوف نحاول فيما يلي أن نرسم صورة موجزة لأخلاق اليهود من أسفارهم حتي يتكشف لنا مدي بعدهم عن «« المثالية »» التي يزعمونها لأنفسهم :

الانغلاق والتعصب :

أول ما يطالعنا من أخلاق اليهود هو بعدهم عن الناس واستعلائهم وترفعهم مما أدي إلي انغلاقهم علي أنفسهم وتعصبهم لكل ما هو يهودي وتقديسهم له في الوقت الذي يحتقرون فيه كل ما لدي الأمم الأخري من قيم ومثل حتي لقد غدت كلمة «« الأمم »» و «« الأممي »» مرادفة عندهم «« للوثني »» أو «« الدنس »» أو «« المحتقر »» أو «« النجس »»

ولقد كان ذلك السبب الرئيسي لكراهية المصريين لليهود إبان فترة وجودهم في مصر بعد أن ظلوا ينعمون بحياة رغدة فترة طويلة : ««فقد ظل اليهود طوال عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسع عشرة يعيشون بمصر في سلام . ويتوالدون ويتضاعف عددهم ويتفاقم خطرهم ، إذ كانوا يعيشون بين المصريين في عزلة تامة عنهم . فكانوا بمثابة شعب داخل شعب ودولة داخل الدولة . وكانوا قوما مجبولين علي الخيانة والغدر ، كثيري العصيان والتمرد فلم يلبث الفراعنة أن توجسوا منهم خيفة ، وبدأوا ينتبهون إلي ما قد ينشأ عن وجودهم من تهديد لمصر وشعبها ، فراحوا يتشددون في مراقبتهم ويضيقون

الخناق عليهم ، خوفاً مما قد يرتكبونه من الخيانة أو يثيرونه من الفتنة أثناء حروبهم مع البلاد المحيطة بهم ، فوضعوهم تحت رقابة صارمة ، وسخروهم في بناء المدن ، وفي قطع الأحجار ، وصناعة قوالب اللبن ، وغير ذلك من الأعمال الشاقة ، تحت إشراف رؤساء من المصريين الحازمين ، وعملوا علي الحد من مواليدهم حتي يوقفوا ازديادهم السريع وكثرتهم المخيفة ››(٣٤) .

ويذهب كثير من الباحثين إلي القول بأن انغلاق اليهود وتعصبهم ربما كان يعود في جذوره البعيدة إلي تصورهم لله . ذلك لأن الله ليس إلها للخلق أجمعين ، ولكنه إله خاص بهم وحدهم ، فالتوراة تجعل من ‹‹ الرب الإله ›› رباً لإبراهيم أول الأمر (سفر التكوين ، إصحاح ١٢ : ١ -٣) وأيضاً (إصحاح ٣ : ١٤ - ١٨ ، وكذلك إصحاح ١٥ : ١٨ - ٢٠) ثم بعد إبراهيم جاء ابنه إسحق الذي قال له الرب : ‹‹ أنا إله إبراهيم أبيك ›› (تك ٢٦ ك ٢٤) وبعد إسحق جاء ابنه يعقوب الذي قال له الله في الحلم : ‹‹ أنا الرب إله أبيك إبراهيم وإله إسحق ›› (تكوين ٢٨ : ١٣ ، وأيضا ٢٢ : ٩ ، و ٣٦ : ٤) .

ثم تنتقل بنا التوراة بعد ذلك إلي موسي فتروي لنا أن الله قال له : ‹‹ أنا إله أبيك ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ويعقوب ›› . ‹‹ وهكذا تقول لبني إسرائيل ‹‹ يهوه ›› إله آبائكم إله إبراهيم ، وإله اسحق ، وإله يعقوب أرسلني إليكم هذا اسمي إلي الأبد ... ››(٣٥) .

وتنتقل التوراة خطوة أخري في مفهوم ‹‹ الإله ›› بعد ذلك فتصوره إلها لبني إسرائيل كلهم ، ولقد بدأ ذلك بحديث دار بين الرب

---

(٣٤) (اليهود نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم) تأليف ذكى شنودة المحامي ص ٢٢-٢٣ الطبعة الاولى عام ١٩٧٤ متبة النهضة المصرية.

(٣٥) سفر الخروج : الإصحاح الثالث ٦و١٥ ؛ و الإصحاح الرابع عدد ٥ .

وموسي وطلب فيه الرب أن يقول لبني إسرائيل أنه سيخرجهم من تحت أثقال المصريين ليعلموا أنه هو الرب إلههم(٣٦) . ويتعذر علينا أن نتعقب أو أن نحصي عدد المرات التي تحدثت فيها التوراة صراحة بعد ذلك عن الرب بأنه إله إسرائيل فإنها تتجاوز عشرات المرات ، وحتي الأسفار الأخيرة رغم أنها حاولت أن تخرج بمفهوم الله من إسرائيل إلي غيرها من الشعوب ، فقد ظل المعني المتضمن في مفهوم الله أنه في المقام الأول : إله إسرائيل(٣٧) . وأنه اختار هذا الشعب وحده دون سواه ليعطيه الشريعة والهداية ويجعله « الرائد » للبشرية(٣٨) ..

وإذا تساءلنا عن المغزي الذي يمكن أن نستخلصه مما ورد بالتوراة بصدد هذا المفهوم الضيق لله – لكان الجواب المباشر هو : أن إله إسرائيل لم يكن هو الله كما تفهمه البشرية في ديانات التوحيد اليوم، فهو ليس الإله الذي وصفه القرآن بأنه « رب العالمين »(٣٩) ، و « رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس »(٤٠) وليس الرسول أو النبي « للناس كافة » لكنه قاصر علي الشعب اليهودي وحده ! وبالتالي فليس لديهم الفكرة الواسعة التي جاء بها القرآن الكريم في قوله : « يا موسي إني أنا الله رب العالمين »(٤١) . أو قوله « فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول ربِّ

---

(٣٦) سفر الخروج : الإصحاح السادس : عدد ٦ و ٧.

(٣٧) دكتور صبرى جرجس (التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى) ص ٥١-٥٢

(٣٨) يذهب بعض اليهود لاسيما « فرويد » إلى القول بان اللة لم يختر الشعب اليهودى فحسب ،لكن الشعب اليهودى قام بدورة في اختيار اللة !! فالأختيار هنا متبادل ومن هنا فان (اللة واسرائيل شريكان فى العهد لأن حاجة اللة إلى طاعة اسرائيل وولائهم لا تقل عن حاجتهم إلى شريعتة ـ المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣٩) الفاتحةوالصافات آية٨٢ .

(٤٠) آية ١ – ٣ من سورة الناس .

(٤١) آية ٣٠ من سورة القصص .

العالمين ››[٤٢] . فالقرآن ينفي هذا الانغلاق الضيق : ‹‹ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفا..››[٤٣] .

والواقع أن إله إسرائيل كان مجرد ‹‹ إله قبلي ›› خاص ببني إسرائيل علي غرار الآلهة التي كانت للحضارات الأخري المعاصرة . ومن هنا كان من السهل أن ينتقل بنو إسرائيل من عبادة ‹‹ يهوه ›› إلههم إلي عبادة غيره من الأرباب المتاخمين والمعاصرين[٤٤] .

ومادام الله ليس إلهاً للبشرية جمعاء لكنه ‹‹ إله اليهود ›› وحدهم ، وما دام قد ‹‹ اختارهم ›› دون غيرهم من الشعوب والأمم ليعطيهم مملكته ويؤثرهم بحبه ونعمته – فإنه سوف يترتب علي ذلك خاصية أساسية في الخلق اليهودي وأعني بها سمة : ‹‹ استعلاء اليهود ›› علي غيرهم من الشعوب ، ونظرتهم إلي أنفسهم نظرة السيد بالنسبة لمن عداهم من الناس . وتنتشر خلال أسفار اليهود الكثير من النصوص الدينية التي تبرز عناية ‹‹ الرب ›› بإسرائيل وحرصه عليها ، ورعايته لأبنائها وتذكره الدائم لهم :

‹‹ وقالت صهيون قد تركني الرب ! وسيدي نسيني . هل تنسي المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها .. ؟ حتي هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك ... إرفعي عينيك حواليك وانظري ... هكذا قال الرب : ها إني أرفع إلي الأمم يدي ، وإلي الشعوب أقيم رايتي ، فيأتون بأولادك في الأحضان ، وبناتك علي الأكتاف يحملن . ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك . بالوجوه إلي الأرض يسجدون لك ، ويلحسون غبار رجليك فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزي منتظروه ››[٤٥] إلي

---

(٤٢) آية ١٦ من سورة الشعراء

(٤٣) آية ٦٧ من سورة آل عمران.

(٤٤) The Great Religions ByWhich Men Life ,P.106,By Ross,F. X Hills,t

(٤٥) سفر اشعياء : الإصحاح التاسع والاربعون : ١٤ ـ ٢٤ .

هذا الحد يرعي الرب الشعب اليهودي المختار لدرجة أنه يجعل ملوك الشعوب الأخري تسجد له وتلحس غبار أقدامه : وإنك لتقرأ في أسفار اليهود الكثير من عبارات الغزل التي يوجهها « يهوه » إلي صهيون حيث يرفعها عاليا فوق جميع الأمم :—

« قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك ، لأن ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس للأمم . أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يري . فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء اشراقك...»(٤٦) . وكل الأمم تضع أموالها وثرواتها تحت أقدامها ، والأمم التي لا تستمد نورها من ضياء « الحسناء » تغدو خرابا لأنها تبيد وتهلك . « تفتح أبوابك دائما : نهارا وليلا لا تغلق ليؤتي إليك بغني الأمم وتقاد ملوكهم ، لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم .. »(٤٧) .

ولما كان المصريون يرعبون الشعب اليهودى طوال تاريخه ، ويسببون له القلق والخوف والذعر ، فإن الرب سوف يرعب المصريين ويسلط بعضهم على بعض إكراماً لعيون الغادة :

« هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة ، وقادم إلى مصر ، فترتجف أوثان مصر من وجهه ، ويذوب قلب مصر داخلها ، وأهيج مصريين على مصريين فيحاربون كل واحد أخاه ، وكل واحد صاحبه ، مدينة مدينة ، ومملكة مملكة وتهراق روح مصر داخلاه وأفنى مشورتها فيسألون الأوثان والعَرافين وأصحابها التوابع والعرافين ، وأغلق المصريين فى يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود »(٤٨) .

---

(٤٦) سفر أشعياء : الإصحاح الستون :١-٣ .

(٤٧) نفس المرجع فى نفس الاصحاح عدد ١١-١٢

(٤٨) نفس السفر : الإصحاح التاسع عشر ١-٤ .

وإنك لتقرأ عبارات الغزل التى يوجهها الرب إليهم فتعرف فى الحال من أين جاء وهم اليهود بأنهم شعب مختار أو أنهم منفصلون عن الأمم ، أو أنهم وحدهم موضع العناية والرعاية الربانية وبالتالى أمل البشرية فى الخلاص : اسمع ما يقوله الرب فى « أورشليم » من عبارات الغزل والتدليل :

« بسطت ذيلى عليك وسترت عورتك ، وحلفتُ لك ودخلتُ معك فى عهد يقول الرب، فصرت لى ، فحممتك بالماء وغسلتُ عنك دماءك ، ومسحتك بالزيت وألبستك مطرزة ، وحليتك بالحلى فوضعت أسورة فى يديك وطوقاً فى عنقك . » فهل حافظت أورشليم على هذه العطايا الربانية ؟! وهل أوفت الغانية بعهودها ؟! لنرى ماذا كانت النتيجة :

« اتكلت على جمالك وزينت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر ، وأخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشاة وزنيت عليها ، وأخذت أمنية زينتك من ذهبى ومن فضتى التى أعطيتك وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها فى رأس كل طريق بنيت مرتفعاتك ورجست جمالك وفرجت رجليك لكل عابر ، وأكثرت زناك ، وزنيت مع جيرانك ، بنى مصر الغلاظ اللحم وزدت فى زناك لإغاظتى »(٤٩) .

لكن اليهود يبرزون آيات الغزل وعبارات الهيام التى يوجهها « يهوه » إلى إسرائيل أو صهيون أو « أورشليم » ولايفتأون « يباهون » بها الأمم ، ويستعلون على غيرهم من الشعوب ؛ لأن الله حباهم وحدهم بالعطف والحب والرعاية !

ويرددون العبارات التى يعتقدون أنها جاءت على لسان الرب تمجد إسرائيل وشعبه ومدنه وأرضه وتعتبرها جميعاً مقدسات ، فهى قد

(٤٩)سفر حزقيال : الإصحاح السادس عشر عدد ١٥-١٦

أعطيت لهم باسم الرب وهى خاصة بهم وحدهم دون غيرهم من الأمم : وفى نفس الوقت تراهم يغضون الطرف عن العبارات التى تصفهم بالكفر ، والجحود ، والنكران ، وارتكاب كل ألوان الإثم والشر ، وممارسة كل ضروب الفسق والفجور مما قد لا يخطر على بال ! اسمعه يقوله لأورشليم « بيته المقدس » .

« فعلت كل هذا فعل إمرأة زانية سليطة .. أيتها الزوجة الفاسقة تأخذ أجنبيين مكان زوجها ! لكل الزوانى يعطون هدية ، أما أنت فقد أعطيت كل محبيك هداياك ، ورشيتهم ليأتوك من كل جانب للزنا بك ! وصار فيك عكس عادة النساء فى زناك إذا لم يزن وراءك ، بل أنت تعطين أجرة ، ولا أجرة تعطى لك .. »(٥٠) ثم يصدر حكم الرب عليها أحكم عليك أحكام الفاسقات الساقطات الدم .. »(٥١) .

اليهود لا يذكرون أمثال هذه العبارات التى تحط من قدرهم ، ولا تجعل مدنهم مقدسة بل نجسة لكنهم يذكرون فقط عبارات التمجيد التى يتباهون بها ويفاخرون غيرهم بأن الله فضلهم، وأنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه - وهى صفات نفاها القرآن تماماً عنهم : « قالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء »(٥٢) ولقد غالى اليهود فى عملية « الاختيار » و « التفضيل» و « الاستعلاء » حتى انتهى بهم الأمر إلى القول بأن ! « الله قد منح اليهود السلطة على مقتنيات وحياة كل الشعوب » وأنه « كما يسمو الإنسان على الحيوان كذلك يسمو اليهودى على باقى أهل الأرض ذوى الطبيعة البهيمية » وبالتالى فإن « أملاك غير اليهود تعتبر كالمال المتروك الذى يحق

(٥٠) سفر حزقيال : الإصحاح السادس عشر عدد :٣٠-٤

(٥١) نفس المرجع السابق : عدد٣٨ .

(٥٢)أية ١٨ من سورة المائدة .

لليهودى أن يمتلكه ! » والفرق بين الإنسان والحيوان الفرق بين اليهودى والأممى ، فالتلمود يعتبر الأمم كلاباً لأنه ذكر فى سفر الخروج أن الأعياد المقدسة ليست للكلاب ولا للأجانب بل إن الكلب خير من الاجنبى : لأنه مصرح لليهودى أن يطعم الكلب فى الأعياد ، وغير مباح له بأن بقدم لحماً للأمم : يقول الحبر « أباربانيل » أن الشعب المختار هو الذى يستحق الحياة الأبدية ، أما الأمم فمثلهم كمثل الحمير ، ولا قرابة بين اليهود وبين الأمم الخارجة عن الدين اليهودى لأنهم حمير ، وبيوت العبادة عندهم لا تزيد عن حظائر ! أما الرابى « مناحيم » فيقول أن اليهود من بنى البشر لأن أرواحهم من الله ، أما باقى الأمم فليسوا كذلك ، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجس : ومن رأى الحاخام « أريل » أن الأمم خنازير ، ويلزم للمرأة اليهودية المغتسلة ، أن تعيد إستحمامها إذا رأت نجساً كالكلب ، أو الحمار ، أو الخنزير ، أو الأممى :

أما لماذا خلق الله « الأممى » أى غير اليهودى على هيئة الإنسان فهذا ليكون أكثر ملائمة لخدمة اليهودى ، لأنه لا يناسب الملك أن يخدمه حيوان ! وإذا مات عبد مسيحى عند يهودى فلا تقدم التعازى لسيده فهو حيوان نفق .. !

ومن الجائز لبنى إسرائيل أن يغشوا سواهم حسب ما ورد فى التوراة : « مع الأعوج تكون ملتوياً » : بل إن من المحظور على اليهودى أن يحيى أممياً كافراً بالسلام إلا فى حالة خوفه من أذاه ! ومن هنا يستنتج الحاخام « ايشاى » أن النفاق مباح فى التلمود ، وأن اليهودى

يمكن أن يكون مؤدباً مع الكفار ليتقي شرهم(٥٣) .

ومن هنا فقد منعت عليهم أسفارهم المقدسة الاختلاط ببقية الأمم ورفضت بل وحذرتهم من مصاهرة غيرهم ، ولقد جاء في سفر عزرا أن الرؤساء شكوا إليه من أن شعب إسرائيل والكهنة واللاويين لم ينغرزوا من شعوب الأرض لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم نساء فاختلط الدم الطاهر بأمم الأرض فمزق « عزرا » ثوبه ونتف شعر رأسه ولحيته ولبث متحيراً وناجى الرب إلهه واعتذر إليه(٥٤) يقول :

« تقدم إليَّ الرؤساء قائلين لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويين عن شعوب الأرض حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحيثيين ، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأرض ، وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة أولاً ، فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيراً »(٥٥) .

وفي سفر « يشوع » أيضاً تحذير من مخالطة غيرهم أو مصاهرتهم وإنذار لهم بالخذلان وعدم النصر على الأعداء إن هم خالفوا ، بدلاً من أن يرشدهم إلى التمسك بدينهم ودعوة غيرهم إلى هداه ، وكأن شعبهم « المختار » ليس من طينه البشر ولا من تراب الآدميين : ولقد جاء في هذا السفر أن « يشوع » فتى موسى والمقدم في بني إسرائيل أنه لما طعن في السن جمع شيوخ إسرائيل وقضاتهم وعرفاءهم وذكرهم بما فعل الرب إلههم بكل تلك الأمم لأجلهم

---

(٥٣) « الاخلاقيات::في محيط الفكر والديانات للدكتور عزت ذكي ص ١٣٩-١٤٠ دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ، القاهرة عام ١٩٧٤.

(٥٤) « اليهود من كتابهم المقدس » تأليف كمال أحمد ص ٩٠ وما بعدها - دار الشعب .

(٥٥) سفر عزاز : الإصحاح التاسع عدد ١-٤ .

وأوصاهم بالتمسك بتوراة موسى وألا يختلطوا بهذه الأمم الباقية ولا يذكروا اسم آلهتهم قائلاً : « فاحتفظوا لأنفسكم جداً بأن تحبوا الرب إلهكم ، ولكن إن ارتددتم واختلطتم ببقية هؤلاء الأمم الذين بقوا معكم ، وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم ، فاعلموا أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الأمم من وجهكم بل يصيرون لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم وشوكاً فى أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التى أعطاكم إياها الرب إلهكم .. »(٥٦) .

أخلاقيات الجنس :

أول ما يطالعنا بهذا الصدد ما نسبته التوراة للجد الأكبر لبنى إسرائيل : « إبراهيم » ـ الذى أعطى البركة ومنح الميثاق من استهانة يعرض زوجته صوناً لحياته من خشية توهمها وطمعاً فى كسب رجا أن يناله . فقد ذكرت على لسان إبراهيم بمناسبة اعتزامه التوجه مع زوجته « سارة » إلى مصر هرباً من القحط أنه قال « إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأة جميلة فيقتلوننى ويستبقونك . قولى إنك اختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك .. »(٥٧) وأضافت القصة أن ذلك قد حدث فعلاً ... فأخذت المرأة (أى سارة) إلى بيت فرعون ، فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها وصار له خدم وبقر وحمر وعبيد وإماء وأتن وجمال .. »(٥٨) ثم أعادت التوراة هذه القصة ذاتها مرة أخرى حين نزل

---

(٥٦) سفر يشوع : الإصحاح الثالث والعشرون عدد ١٣١١ .

(٥٧) سفر التكوين : الإصحاح الثاني عشر : ١١ – ١٤ .

(٥٨) نفس المرجع : ١٥-١٦ . اخلاق اليهود من أسفارهم -٢

إبراهيم وامرأته مغتربين فى أرض جرار وهى المنطقة المسماة اليوم أم «جرار» جنوبى غزة وشرقى « خان يونس »(٥٩) .

ـ فروت على لسان إبراهيم أنه قال عن سارة أنها أخته مما دعا «أبيمالك » ملك جرار إلى أخذها عنده ، فلما اكتشفت الحقيقة عنف إبراهيم على خداعه إياه ، ولكنه فى الوقت نفسه أعطاه غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وألفا من الفضة ورد إليه امرأته(٦٠) وهكذا تصور أسفار اليهود إبراهيم على أنه يتاجر كأى يهودى ضال تائه لا أخلاقى بامرأته إذ ينتقل بها من بلد إلى بلد آخر كاذباً مخفياً الحقائق هادفاً جمع المال والعطايا (٦١) .

ولم تكتف التوراة بحادثى إبراهيم ، ولكنها روت نفس القصة مع ابنه إسحق حين قصد إلى أرض « جرار » ليقيم فيها : « وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى أختى ، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة (زوجته) لأنها حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هنا لو أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من كوة ونظر فإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته ، فدعا أبيمالك إسحق وقال : إنما

(*) تروى الأسفار ان سليمان كان مثل أبية مولعا بالنساء « أحب الملك سليمان نساءغريبة كثيرة مع بنت فرعون : مُوآبّيات و عمونيات..من الامم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل لاتدخلوا اليهم ؛ فالتصق سليمان بهولاء بالمحبة ؛ وكان لة سبع مئة من النساء السيدات وثلاث من السرارى فامالت نشؤة قلبة » سفر الملوك الأول الإصحاح الحادى عشر ١-٣ .

(٥٩) « اليهود نشأتهم وعقيدتهم » تاليف زكى شنودة المحامى ص ٦ مكتبة االنهضة المصرية١٩٧٤.

(٦٠) سفر التكوين الاصحاء السادس والعشرون :٧-١٠ .

(٦١) د. إمام عبد الفتاح إمام : الألوهية فى أسفار اليهود ، بمجلة الشورى عدد ٦ مايو ١٩٧٧ .

هى امرأتك فكيف قلت هى أختى ؟ فقال له إسحق لأنى قلت لعلى أموت بسببها فقال أبيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً »(٦٢) .

وهكذا نجد أن هذه القصص الثلاث التى نسبتها التوراة إلى إبراهيم واسحق تنطوى على إيحاء ضمنى بإباحة استخدام الزوجة اتقاء لضرر متوهم أو ابتغاء لكسب مرجو ، وهو ما أفسح منذ أقدم العصور أمام اليهود مجالاً فريداً لتطبيق القاعدة اللاأخلاقية : الغائية تبرر الواسطة ، أياً كانت الغاية وأياً كانت الواسطة(٦٣) وتنتقل بنا التوراة بعد ذلك إلى لون آخر من أخلاقيات الجنس ترويه بنفس البساطة وكأنه من الأحداث العادية المألوفة فى حياة الناس فعندما غضب الله على قوم لوط أهلك « سدوم وعمورة » لآثامهما : س وأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً ، وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض »(٦٤) وذلك بسبب كثرة صراخهما : « إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيتهم قد عظمت جداً .. »(٦٥) فهلك كل من فيهما حتى امرأة لوط نفسها التى نظرت من ورائه « فصارت عمود ملح » كما تروى التوراة ، ولم يبق من البشر سوى لوط وابنتيه فصعد بهما الجبل وسكن هو وابنتاه مغارة فى أعلى الجبل ، لكن لم يعد هناك بشر فكيف تفسر التوراة وجود البشر مرة أخرى : من أين يا ترى يوجد النسل البشرى من جديد ؟! هاهنا تطالعنا التوراة بقصة من

---

(٦٢) سفر التكوين : الإصحاح السادس والعشرون : ٧ – ١٠ .

(٦٣)دكتور صبرى جرجس : « التراث اليهودى والصهيونى والفكر الفرويدى » ص ٦٢-٦٣

(٦٤)سفر التكوين : الإصحاح التاسع عشر :٢٢-٢٦.

(٦٥) نفس المرجع

أعجب القصص : إذ تروى لنا أن البشرية قد خرجت إلى النور من جديد سفاحاً : فقد تآمرت الفتاتان على أبيهما ليمارسا معه الجنس وهو ثمل بعد أن سقياه الخمر حتى لا يعى : « وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه فنحى من أبينا نسلاً »(٦٦) ونفذت المؤامرة بالفعل فسقتا أباهما خمراص فى تلك اللية ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها »(٦٧) وفى الليلة الثانية حدث نفس الشئ مع الصغرى : «وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى نسقيه الليلة خمراً فادخلى واضطجعى معه فنحى من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها »(٦٨) وكانت نتيجة المؤامرة أن « حبلت ابنتا لوط من أبيهما » فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب ، وهو أبو الموآبين إلى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابناً ودعت اسمه بَنْ عميّ وهو أبو نبى عمون إلى اليوم »(٦٩) « وهاتان الأمتان من أكثر الأمم شراً وطغياناً فكانوا سبب متاعب لشعب الله وخلال فترة حكم القضاة استعبدوا بنى إسرائيل مراراً ولمدد طويلة ، فهذه ثمار الخطيئة التى إذا حبلت تلد إثماً وإذا كملت تنتج موتاً » كما يقول أحد المفسرين المصدقين لهذا الهراء(٧٠) :

---

(٦٦) نفس المرجع ١٩: ٣٢-٣٤

(٦٧) تلك ١٩ :٣٣-٣٤.

(٦٨) المرجع نفسة .

(٦٩) تلك ١٩ :٣٦-٣٨.

(٧٠) قارن، على سبيل المثال، مايسوقة دكتور حمدي صادق من تفاهات سخيفة لتبرير هذا اللغو الفارغ فى كتيبة الصغير ((تفسير سفر التكوين))الجزء الثانى ص ٧٨ وهو من منشورات بطريركية الاقباط الارثوذكس بالإسكندرية عام ١٩٧٦ .

ومن الأنباء العجيبة التى يرويها سفر التكوين أيضاً مضاجعة راؤبين الابن البكر ليعقوب ، وأكبر الأسباط سناً ، لامرأة هى فى مكانة أمه وأعنى بها « بلهة » سريه أبيه وأم « دان » و « نفتالى » أخويه وذيوع الخبر بين جميع الإسرائيليين ومن العجيب أن الإصحاح الذى روى هذه القصة لم يسجل أثراً لهذا العار وإنما يرويه فى بساطة شديدة فى سطر واحد « وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً فى تلك الأرض أن راؤبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل .. »(٧١) وانتهى الخبر إلى هذا الحد !

وكثير من القصص الجنسية تروى فى أسفار اليهود بغير حرج سواء بالنسبة للأنبياء ، أو لأولادهم وبناتهم ! فنوح حسب ما يزعم سفر التكوين شرب مرة نبيذ العنب الذى غرس كرمه بيده بعد الطوفان دون أن يعلم خاصته المسكرة ، ففقد وعيه وانكشفت عورته ، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه ، وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافث لكن هذين كانا أكثر منه أدباً فحملا رداء وسارا به القهقرى نحو أبيهما حتى لا يقع نظرهما على عورته ، وسترا به ما انكشف من جسمه فلما أفاق نوح وبلغه ما كان من موقف أولاده حياله لعن كنعان بن حام ودعا على نسله أن يكونوا عبيداً لعبيد أولاد سام ويافث(٧٢) وهم بذلك يريدون بالطبع تبرير الأوضاع الشاذة الظالمة لتى كان يسير عليها بنو إسرائيل حيال الكنعانيين إذ يقتلون رجالهم ويسبون نساءهم وأطفالهم ويتخذون منهم عبيداً وإماء زاعمين أنهم بذلك يحققون دعوة نوح عليهم ويرجعونهم إلى الوضع الذى كتب عليهم فى الأزل أن يكونوا عليه(٧٣) .

---

(٧١) سفر التكوين : الإصحاح الخامس والثلاثون : ٢٢

(٧٢) تلك ٩ :٢٠-٢٩.

(٧٣) الدكتور علي عبد الواحد وافى :((الاسفار المقدسة فى الاديان السابقة للإسلام)ص ٣٩ دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة ١٩٧١.

ومن الأقاصيص الجنسية الغريبة أيضاً ما ترويه أسفار اليهود عن نبيهم وملكهم « داود » الذى كان يمشى فى صباح يوم من الأيام على سطح قصره الملكى فوقع بصره فى المنزل المجاور له على امرأة رائعة الجمال وهى تستحم عارية متجردة تماماً من ثيابها فشغف بها حباً وسأل عنها فقيل له إنها زوجة « أوريا الحيثى » أحد الجنود المرسلين فى حملة حربية تحت قيادة يؤاب فبعث داود فى طلبها فجئ بها إليه ، وبعد أن قضى معها ليلة عادت إلى منزلها وقد حملت منه ، فأرسلت إليه تخبره بنبأ حملها ، فاستدعى « داود » زوجها من الخطوط الأمامية وراح يسأله عن أخبار الحملة وحالة قائدها وأعمالها ونفحه بعض الهدايا وطلب إليه يذهب إلى منزله ليستريح هذه الليلة وكان داود يرمى من وراء ذلك أن يجامع الرجل زوجته فينُسب الحمل إليه ولا تعلق بداود أيه شبهة ولكن الرجل أبت عليه شهامة الجندى ووطنيته أن ينعم بالراحة واللذة فى بيته بينما جيش بلاده مشتبك فى معركة مع الأعداء ، فلم يذهب إلى بيته وقضى ليلته نائماً مع خدم القصر الملكى ولما علم داود بذلك استدعاه مرة ثانية وسأله عن سبب احجامه عن الذهاب إلى بيته فأجابه بأن نفسه لم تطاوعه بأن يرتاح فى بيته وجيشه يحارب خارج البلاد فى العراء ! فطلب إليه داود أن يبقى يوماً آخر ، ودعاه إلى الطعام والشراب وحرص على أن يسكره حتى يفقد وعيه ويذهب إلى زوجته ، ولكن « أوريا » لم يفقد رشده ، فقضى ليلته هذه كما قضى ليلته السابقة نائماً مع خدم داود فى القصر الملكى : ولما ضاق داود به ذرعاً ، ولم تفلح معه حيلة أمر بعودته إلى الجبهة ، وأرسل إلى « يؤاب » قائد جيشه أن يضع أوريا فى أخطر منطقة فى ميدان القتال وأن يتخلى عنه حتى يقتل فصدع القائد للأمر وقتل أوريا فى الميدان وعندئذ أتيح لداود أن يضم زوجته إلى نسائه بعد أن انقضى

حدادها على زوجها ووضعت حملها وهى فى عصمة داود ، وخفى بذلك على جميع الناس ما ارتكبه داود من جرائم بشعة : فقد زنى بامرأة متزوجة وعمل على قتل زوجها الشجاع وهو يذود عن حياض بلاده ، مع أنه كانت له زوجات وجوار كثيرات جداً(٧٤) فأرسل الله « ناثان » النبى الذى قص عليه قصة رجلين يملك أحدهما قطعاناً كبيرة العدد من الأبقار والنعاج بينما لا يملك الآخر إلا نعجة واحدة وفى أحد الأيام قدم ضيف على الغنى فمد يده إلى نعج الفقير واغتصبها منه وذبحها لضيفه فغضب داود من فعلة هذا الغنى وقال لناثان إن هذا الرجل يستحق الموت ، لكن ناثان قال له « إنك هذا الرجل بما ارتكبت من قبيح وازدريت به الرب . إن الرب يؤذنك بأن السيف لن يفارق بيتك إلى الأبد جزاء فعلتك ، وأنه مثير عليه الشر من بيتك وهكذا قال الرب أنا آخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر . وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل ، وقدام الشمس »(٧٥) فالرب يهدده بأنه سيأخذ زوجاته ويدفع بهن إلى غيره فيدخل عليهن فى وضح النهار وأمام عيون الإسرائيليين : عقاباً له على اغتصابه زوجة رجل آخر (والغريب أنها هى نفسها التى أنجب منها ابنه سليمان الذى سيرثه فى ملك إسرائيل)(٧٦) .

وفى نفس هذا السفر ـ صموئيل الثانى ـ قصة اغتصاب مشابهة لكنها ليست من داود هذه المرة وإنما من ابنه لأخته : أجل فهذا السفر يروى قصة اغتصاب أمنون بن داود بالدهاء أخته ثامار العذراء ابنة داود

(٧٤) المرجع السابق ص٤٤-٤٥ وانظر القصة بالتفصيل فى سفر صموئيل الثا نى الاصحاح الحادى عشر كلة .

(٧٥) سفر صموئيل الثانى : الإصحاح الثانى عشر ٧ -١٣.

(٧٦) نفس المرجع : عدد ٢٤ .

أيضاً : : والقصة تبدأ فتروى أن هذا الشاب أراد أن يغتصب أخته الجميلة فأشار عليه صاحبه وهو ابن عمه فى نفس الوقت ، وكان رجلاً « حكيماً » أن يلزم الفراش ويتمارض « وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختى فتأتى وتطعمنى خبزاً وتعمل أمامى الطعام لأرى فآكل من يدها »(٧٧) .

ونجحت الحيلة وأرسل داود ابنته إلى بيت أخيها لتعد له الطعام وبخاصة « كعكتين » طلبهما ليأكل من يدها كما زعم : وأخذت الفتاة : « العجين وعجنت وعملت كعكاً أمامه .. فأبى أن يأكل وقال أخرجوا كل إنسان عنى فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار : ائتنى بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك فأخذت ثامار الكعك الذى عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها : تعالى اضطجعى معى يا أختى ! فقالت له : لا يا أخى لا تذلنى ، لا تعمل هذه القباحة فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها »(٧٨) والغريب أن هذا السفر يستمر فى رواية القصة على نحو يفيد أن الفتاة استساغت ما فعله فيها أخوها وكل ما طالبته به هو أن يبقيها عنده خليلة له ! فعندما أراد أن يطردها سألته : وهل من سبب لطردك لى ؟! إن هذا العمل هو أعظم شراً مما فعلته من قبل س فلم يشأ أن يسمع لها ، بل دعا غلامه الذى كان يخدمه وقال اطرد عنى هذه خارجاً واقفل الباب وراءها ، وكان عليها ثوب ملون لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن جبات مثل هذه فأخرجها خادمه إلى الخارج وأقفل الباب وراءها »(٧٩) .

ويمضى السفر ليخبرنا أن الفضيحة التى ارتكبها أمنون ابن الملك

---

(٧٧) نفس المرجع : الإصحاح الثالث عشر ٥-٦

(٧٨) نفس المرجع : إصحاح ١٣ : ٨ -١٨

(٧٩) صمو ئيل الثاني ١٣: ٢١ .

مع أخته قد بلغت داود نفسه فغضب ولكنه لم يفعل شيئاً : « ولما سمع الملك داود بجميع هذه الأمور اغتاظ جداً»(٨٠) ووقف عند هذا الحد ! وبعد سنتين استطاع أخ لها هو « أبشالوم » أن ينتقم لأخته عندما تآمر على « أمنون » بأن أعد له مؤامرة تفوق المؤامرة التى دبرتها شجرة الدر للانتقام من أيبك ! فقد أعد له وليمة حافلة بألوان الطعام والشراب حتى إذا وصل إلى حد السكر أمر خدمه بضربه وكانت تعليماته لهم « متى طاب قلب أمنون بالخمر ، وقلت لكم اضربوا أمنون فاقتلوه ! لا تخافوا ! أليس أنى أنا الذى أمرتكم ؟ فتشددوا وكونوا ذوى بأس!»(٨١) . وهذه الوليمة كان « أبشالوم » قد دعا فيها أبناء الملك جميعاً يعنى كل الأخوة يعنى الكرام لكنهم عندما رأوا أخاهم يقتل لاذوا بالفرار » فقام جميع بنى الملك وركبوا كل واحد على بغله وهربوا .. »(٨٢) .

ويروى سفر صموئيل الثانى أيضاً قصة تمرد « أبشالوم » على أبيه داود حيث كان هذا الفتى جميلاً فأسر قلوب بنى إسرائيل ، وقامت فى رأسه فكرة التمرد على أبيه والمناداة بنفسه ملكاً ، وأخذ يبث الدعوة لنفسه ، فلما استوثق من النجاح ذهب إلى جرون بإذن من أبيه ، وهناك أعلن عصيانه ونادى بنفسه ملكاً وأخذ بنو اسرائيل ينصتون إليه مما أثار الذعر فى قلب داود ، وجعله يخرج من أورشليم مع عبيده وأخصائه إلى شرق الأردن فاراً من ابنه ، وكانت محنة شديدة على بنى إسرائيل - والغريب أن السياق يروى أن « أبشالوم » استولى على أورشليم بعد فرار أبيه منه ، ودخل على سرارى أبيه أمام جميع إسرائل « فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم على

---

(٨٠) نفس المرجع : عدد ٢٨.

(٨١) نفس المرجع : ٢٩.

(٨٢) صموئيل الثاني : الإصحاح السادس عشر : ٢٢.

سرارى أبيه أمام جميع إسرائيل »(٨٣) .

كأنما جاءت هذه المحنة بما فيها هذا الحادث الخلقى البشع تحقيقاً لنذير الله لداود جزاء فعلته الآثمة التى اغتصب فيها زوجة أوريا وقتله وهو ما تنبأ به ناثان النبى(٨٤) بل إننا نجد ما هو أعجب عندما نقرأ أن أسفار اليهود تقر أقبح أنواع الفحساء : « فقد ورد فى التلمود أن الولد إذا زنا بأمه الأرملة لا يقام عليه الحد ولا يلام ، بل ينبغى له أن يستمر معها على هذا الوضع حتى بعد زواجه ، رعاية لما وجب لها عليه من حق وأن الوالد الذى زنا بابنته بعد وفاة زوجها لا يقام عليه الحد كذلك ولا يعاقب ولا يلام ، لأن لعمله هذا ما يبرره ، وهو أنه يجنبه تبذير ماله مع العاهرات الأجنبيات(٨٥) .

أخلاقيات الحرب :

أخلاقيات الحرب الواردة فى أسفار اليهود كثيرة فلا حصر للأمثلة التى يمكن أن تذكر بشأنها ، وحسبنا أن نذكر منها أمثلة قليلة تبرز لنا مدى ما فيها من بشاعة ووحشية يصبغونها بصبغة تقديس حين يذهبون إلى أن الله أمرهم بهذا التدمير والتخريب ، وهو الذى أرشدهم إلى قتل أعدائهم وسفك دمائهم فى قسوة ووحشية ! بعد خروج اليهود من مصر كلم الرب موسى قائلاً : « انتقم نقمة لبنى إسرائيل من الميديانيين ثم تضم إلى قومك »(٨٦) فماذا كانت نتيجة هذه الوصية ؟ « فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر »(٨٧) .

وعلينا أن نتذكر أن موسى سبق له أن تزوج من آل مديان هؤلاء

---

(٨٣) « تاريخ بني إسرائيل » تاليف محمد عزة دروزة ص ١٥١ المكتبة العصرية بيروت عام ١٩٦٩.

(٨٤) الدكتور علي عبد الواحد وافي : الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام

(٨٥) سفر العدد الحادى والثلاثون :١-٣.

(٨٦) نفس المرجع : ٧.

وهم الذى أووه عندما هاجر إليها هارباً من مصر لكن ذلك لم يشفع لهم عند اليهود ، اسمع ما فعلوه : « سبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم ، وجميع مواشيهم ، وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم ومساكنهم وجميع حصونهم بالنار ، وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم » وقال لهم موسى : « اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلاً بالمضاجعة أما إناث الأطفال اللواتى لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم »(٨٨) وجاء فى سفر تثنية الاشتراع ما يأتى :

« إذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها فادعها أولاً إلى السلم ، فإذا أجابتك إلى السلم ، وفتحت لك ، فجميع الشعب الذى فيها يكونون تحت الجزية ويستعبدون لك . وإن لم تسالمك بل حاربتك فحاصرها ، فإذا أسلمها الرب إلهك إلى يدك ، فاضرب كل ذكر بحد السيف وأما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما فى المدينة من غنم فاغتنمها لنفسك ، وكل غنيمة أعدائك التى أعطاكها الرب إلهك . هكذا تصنع بجميع المدن البعيدة منك جداث التى ليست من مدن أولئك الأمم هنا .. »(٨٩) .

أما المدينة القريبة فأخلاقيات الحرب فيها كما يلى :

« وأما مدن أولئك الأمم التى يعطيها لك الرب إلهك ميراثاً فلا تستبق منهم نسمة بل أبسلهم إبسالاً ... »(٩٠) (أبسلوا : أسلموا للهلاك) « تنقضون مذابحهم ، وتكسرون أصنامهم ، وتقطعون غاياتهم وتحرقون بالنار تماثيلهم ، لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، وأباك اصطفى(٩١) .

وهكذا تكون قداسة الشعب اليهودى المدعاة موجبة لدى الرب إبادة

(٨٨) نفس المرجع ٩،-١٠.

(٨٩) سفر التثنية : الإصحاح العشرون عدد ١٠-١٥.

(٩٠) سفر التثنية : الإصحاح العشرون عدد ١٦-١٧ .

(٩١) نفس السفر :٧ عدد ٥-٦.

الآخرين : « إن قلت فى نفسك هؤلاء الأمم أكثر منى فكيف أستطيع أن أطردهم ، فلا تخفهم .. الرب إلهك يستأصل أولئك الأمم من بين يديك قليلاً قليلاً .. » أى أن أسفار اليهود تعدهم باستئصال تدريجى لجميع الأمم ومزيد من الإبادة ولإفناء الغير حتى ينعم عيناً بما ورث !

ويقول صموئيل النبى الذى أرسله الرب إلى الملك « شاؤل » ملكاً على شعبه إسرائيل : «هلم الآن واضرب عماليق وأبسل جميع ما لهم ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل الرجال والنساء والرضع والبقر والغنم والإبل والحمير »(٩٢) ومن الطريف وسط هذه الشرور المستطيرة أن اليهود صنعوا ما تمليه عليهم طبيعتهم من حب الدماء وسفكها وعبادة الأموال وجمعها ، فلم ينفذوا تماماً وصية « صموئيل » فبعد أن قضوا على جميع شعب العماليق بالسيف - والعمالقة هم الذين اعترضوا أباءهم عندما خرجوا من مصر - أبقوا على الملك ليساوموه ، كما أبقوا على خيار الأموال والمتاع ، غير أنهم لم ينعموا بها ، فبعد أن « عفا شاؤل والشعب عن أجاج (الملك) وعن خيار الغنم والبقر وكل سمين والحملان وكل ما كان جيداً ، ولم يحبوا أن يبسلوها ، لكن كل ما كان حقيراً مهزولاً أبسلوه » فكان جزاؤهم أن غضب الرب عليهم ونزل ملكه من شاؤل وحوله إلى ملك آخر (داود) ولم ينج ملك العماليق بل قتله صموئيل بيده(٩٣) .

ومن يقرأ كتبهم المقدسة يثير انتباهه الفظائع التى ارتكبوها فى المدن التى أغاروا عليها ، واعتماد أكثرهم على الغدر ، تأمل ما فعلوه فى أريحا : « وأبسلوا جميع ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف .. »(٩٤) .

---

(٩٢)سفر صمو ئيل الأول : الإصحاح الخامس عشر ١-٤.

(٩٣) نفس المرجع السابق .

وتحضهم أسفارهم المقدسة على استئصال الأمم الموجودة بالتدريج فليس لهم أن يبقوا أحداً بين ظهرانيهم متى أمكنتهم الفرصة من القضاء عليهم ؛ لأن بقاء أحد من هذه الأمم ليس سوى وخزٍ في عيون إسرائيل ، وحروب في جنوبهم ، ومجلبة لنقمة الرب « إن لم تطردوا أهل الأرض من وجهكم كان من تبقونه منهم كإبرة في عيونكم ، وكحربة في جنوبكم ، يضايقونكم في الأرض التي أنتم مقيمون بها فيكون أني كما نويت أن أصنع بهم أصنع بكم»(٩٥) ثم لا يكفيهم مع هذا مجرد القتل والإبادة ولكنهم ينفننون في صنوف التشفي والتعذيب والانتقام فالمدينة التي ترفض أن تفتح أبوابها أمامهم يأمرهم الرب بضربها من كل جانب ، وإبادة كل نسمة في المدينة من إنسان أو حيوان ، وفي مدينة « أريحا » أشعلوا فيها النيران وشقوا بطون جميع من بها من الحوامل ، ولم يستثنوا سوى بغي وأهل بيتها ساعدت جاسوسين لهم وذلك بأمر يشوع الذي خلف موسى على قيادة بني إسرائيل إذ نادى يشوع الشعب قائلاً : « اهتفوا فقد أسلم الرب إليكم هذه المدينة ولتكن المدينة بكل ما فيها مبسلة للرب ، ولكن راحاب البغي تحيا هي وجميع من معها في بيتها ، لأنها أخفت الرسولين اللذين بعثناهما .. أبسلوا جميع ما في المدينة من رجل وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف ، وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها .. »(٩٦) .

---

(٩٤) سفر يشوع : الاصحاح السادس عدد (٢١).

(٩٥) سفر التثنية : ٣٣ : ٥٥.

(٩٦) سفر يشوع : ٦:١٨-٢١.

أخلاق المعاملة :

إذا كان الدين « المعاملة » كما يقال فى كثير من الأحيان ، أعنى أن الدين لابد أن يتحول إلى سلوك ومعاملات بين الناس ، فإن أسفار اليهود قد تضمنت تنظيماً كاملاً لشئون الدنيا فضلاً عن العبادات ، لكنها للأسف لم تقدم سوى أمثلة سيئة لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، فهى كلها نماذج من الحقد والكراهية حتى بين الأخوة ، ومن الغش والخداع ، والوصولية ، وتحقيق الهدف بأحط السبل .

فلو أننا أخذنا مثلاً علاقة الأخوة التى يقدمها لنا سفر التكوين ـ أول أسفار اليهود ـ لوجدناه يروى أحداث أسرة إسحق على الوجه التالى !

كانت رفقة زوجة إسحق عاقراً فدعا إسحق ربه أن يهبه منها أولاداً فاستجاب له ربه وحملت امرأته فتزاحم بطنها ولدان فمضت لتلتمس من الله علماً عما فى بطنها ، فقال لها الله فى بطنك أمتان متنوعتان عن توأمين أحدهما أكبر من الآخر (أى يولد قبل الآخر) وسيصبح كبيرهما مسخراً لصغيرهما . فلما أكملت أيام حملها خرج من بطنها توأمان ، خرج أولهما وهو الأكبر مكسو بفروة شعر ولذلك سموه عيسو ، ثم خرج أخوه وهو الأصغر يوده ممسكة بعقب عيسو ، ولذلك سمى يعقوب(٩٧) .

وهناك قصتان عن سلوك يعقوب مع أخيه التوأم عيسو الذى سبقه إلى الدنيا تكشف كل منهما عن أخلاق المعاملات اليهودية التى ستكون دليلاً بارزاً عليهم طوال تاريخهم :

فى القصة الأولى عاد عيسو من الصيد وهو جائع متعب ، فوجد أخاه يعقوب قد أعد طعاماً ، فسأله شيئاً مما أعد ، فماذا كان من أمر

---

(٩٧) تك : ٢٥ عدد ٢٤ – ٢٥.

يعقوب مع أخيه التوأم فى هذا الموقف ؟ لقد انتهزها فرصة لكى يستغل حاجة أخيه إلى العام فى الحصول على « بكوريته » (أى أسبقيته فى الولادة) وقبل عيسو بيع بكوريته لقاء وجبة طعام كان بأمس الحاجة إليها(٩٨) وعلى الرغم من أن ترتيب الولادة أمر ليس يجوز أن يكون موضع المساومة بيعاً أو شراء فإن العبرة المستمدة من هذه القصة تشجيع الوصولية والانتهازية حتى بين أقرب الأقربين ، واستغلال حاجة الغير إلى القليل لاغتصاب حقهم فى الكثير(٩٩) .

وأما القصة الثانية فهى قصة « البركة » التى اغتصبها يعقوب أيضاً من أخيه عيسو غشاً وخداعاً . ذلك أن أباهما إسحق حين تقدمت به السن قال لابنه عيسو : يا بنى قد شخت ولا أعلم يوم موتى فاخرج وصد لى صيداً واصنع لى منه طعاماً كما أحب وائتنى به لآكله كى أباركك قبل أن أموت » وسمعت رفقة زوجة إسحق وأم التوأمين ذلك الحديث ، وكانت تؤثر بحبها ابنها يعقوب دون أخيه فلما انصرف عيسو لتنفيذ ما طلبه أبوه منه أسرعت إلى يعقوب واتفقت معه متآمرة على أن ينتحل شخصية أخيه ويتقدم إلى أبيه بطعام تعده هى على أنه طعام الصيد الذى جاء به أخوه ، معتمدين فى ذلك على كلال بصر إسحق لشيخوخته وعندما قال لها يعقوب : « إننى أخشى أن يكشف أبى هذه الخديعة حينما يتحسس جسمى فيجدنى أجرد ، مع أن جسم أخى عيسو مكسو بفروة شعر فأجلب على نفسى لعنة لا بركة قالت له سأدبر حيلة لذلك ، وأخذت ثياب عيسو ابنها الأكبر وألبستها يعقوب ، ووضعت جلود جديين على يديه حتى إذا تحسس إسحق جسمه ظن أنه جسم عيسو وأعطت يعقوب الطعام فجاء به إلى أبيه

---

(٩٨) سفر التكوين : الإصحاح الثالث والعشرون ٢٧-٣٢.

(٩٩) دكتور صبحي جرجس ((التراث اليهودي)) ص ٦٧.

قائلاً : أنا ابنك عيسو بكرك أى أكبر ولديك ، وقد صنعت جميع ما قلت لى فاجلس وكل من صيدى وبارك على : فنال بذلك بركة كانت من حق أخيه الذى لم يكن قد عاد بعد(١٠٠) .

ويعلق ابن حزم على هذه القصة فيقول إنها تحوى الكثير من الفضائح والأكاذيب ، أولها قولهم عن نبى الله يعقوب أنه خدع أباه وغشه ، وهذا مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء فكيف من نبى مع أبيه وهو نبى أيضاً : ؟

وثانيها : إخبارهم أن بركة يعقوب إنما كانت مسروقة بغش وخديعة وحاشى للأنبياء عليهم السلام هذا ـ ولعمرى إنها لطريقة اليهود ، فما تكفى منهم إلا الخبث الخادع والشاذ !

وثالثها : إخبارهم أن الله تعالى أجرى حكمه وأعطى نعمة على طريقة الغش والخديعة!

ورابعها : أن إسحق قصد بتلك البركة عيسو ، فقد دعا لعيسو لا ليعقوب ، فأى فائدة أو منفعة للخديعة هنا لو كان لهم عقل(١٠١) .

وقصة يوسف وأخوته الشهيرة يسجل فيها بنو إسرائيل الذين أثبتوهم فى أسفارهم صورة جديدة من صور الأنانية القاسية من إخوة لأخيهم بدافع الحسد والغيرة ، ومهما كان فيها من قسوة وأذى وخديعة فهى قصة صحيحة بعدما سجلوا مثل هذه الصورة الأخلاق عندهم ، وكان لهذه المدونات فى أسفارهم أثر عميق فى سلوكهم ومعاملاتهم للآخرين(١٠٢) .

كذلك نجد أيضاً أن هارون أخا موسى ومريم أخته شعراً بلون من الحسد أو الحقد فتكلما فيما بينهما ضد موسى ، لأن الله صطفاه

---

(١٠٠) سفر التكوين : إصحاح ٢٧.

(١٠١) الفصل في الأهواء والملل والنحل - لابن حزم ص ١٠٩ .

(١٠٢) تاريخ بني إسرائيل تأليف محمد عزة دروزة ص ١٠٩.

دونهما مع أنه ، كما قالا قد خالف الشريعة ، لأنه تزوج من امرأة غير يهودية وهى « صفورة » التى قالت التوراة إنها من المديانيين (فقالا هل كلم الرب موسى وحده ؟ ألم يكلمنا نحن أيضاً ؟ فحمى غضب الرب عليهما فالتفت هارون إلى مريم ، وإذا هى برصاء فصرخ موسى إلى الرب قائلاً اللهم اشفها . فقال الرب لموسى تحجز سبعة أيام وبعد ذلك ترجع(١٠٣) .

تلك هى علاقة الإخوة بعضهم ببعض فما بالك بعلاقتهم بغيرهم من الناس ؟! يحكمها كل ألوان الخداع والغش والنصب والاحتيال : ولقد خدع اليهود جيرانهم ومعارفهم من المصريين فى ليلة خروجهم من مصر ـ بعد أن عاشوا بين ظهرانيهم أكثر من أربعة قرون ـ فاستعاروا منهم ما استطاعوا من الثياب والأمتعة والحلى ثم هربوا : وفى ذلك يقول سفر الخروج: « وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم ، فسلبوا المصريين »(١٠٤) وهكذا تسجل أسفارهم أن هذا الغش وهذا النهب كان لامر نبييهم موسي الذي استدعاه فرعون ذات ليلة وطلب منه أن يرحل وقومة قبل الصباح فاستعاروا كل ما استطاعوا استعارتة من المصريين اللذين لم يكونوا علي علم برحيل اليهود !

وهناك قصة ، نود أن نختم ببها هذا الحديث لأنها تصور أخلاق اليهود! أدق تصوير وهى تدور حول ابنة يعقوب وتسمي (دينة) اغتصببها شيكم ابن حمور رئيس الأرض التى وصل إليها يعقوب بعد عودته من عند خاله « لابان » الذى تزوج ابنته . المهم أن يعقوب وصل

---

(١٠٣) سفر العدد : الإصحاح الثاني عشر : ١–١٥.

(١٠٤) سفر الخروج : الإصحاح الثلني عشر : ٣٥–٣٦.

إلى منطقة شكيم ابن رئيس الأرض الفتاة (دينة) واشتهاها وأوصى إحدي قريباتة أن تقوم بدور الوسساطة فتعرفها بها ، وتم اللقاء بالفعل واتصل بها الفتي اتصالا جنسيا وأحبتة وبقيت عندة. لكن الفتي ندم علي اغتصابة للفتاة وتعلق بها فطلب من أبية أن يتخذها زوجته له.وذهب أبية إلي يعقوب يعتذر أولا عن فعلة ابنه، ويعلن ثانيا أنه يريدد أن يكفر عن هذا الخطأ بزواجه من الفتاة ،وييصرح ثالثا نة على استعداد لأن يدفع لها مهرا باهظا بل طلب من يعقوب أن يغالى في المهر واجتمع يعقوب بكبار القوم من اليهود لا سيما أبنائه وتشاورا في الأمر واجمع رأيهم علي الموافقة بشرط غريب هو اختتان الذكور من أبناء المنطقة ! (وتكلم حمور معهم قةائلا: شكيم ابني قد تعلقت نفسسه بابنتكم ، اعطوة اياها زوجة وصاهرونا تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتاً . وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم .. والذي تقولون لى ، واعطوننى الفتاة زوجة) (١٠٥). فماذا كان موقف بنو يعقوب من هذة العروض السخية ؟ كانوا (قد اغتاظوا جدا لانة صنع قباحة في اسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب ..) الاحظ الرد الذي يسوقة الكتاب المقدس :« فاجابوا بمكر وتكلموا بخبث ودهاء: اشترطوا اختتان الذكور جميعا لأنهم لايستطعون ان يزوجوا ابنتهم من رجل غغير مختتن ! (لانستطيع أن نفعل هذا الأمر أن نعطي أختنا لرحل أغلف لأنه عارعلينا . غير أننا بهذا نوافيكم :ان صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر ، نعطيكم بناتنا ، وناخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى.: (١٠٦) وحسن كلامهم فى عينى حمور وأبنه شيكم الذى بادر بحماس

---

(١٠٥) سفر التكوين : الإصحاح الرابع والثلاثون ٦ : ١٢.

(١٠٦) تك : ٣٤ : ١٣-١٧.

الشباب ، فأعلن موافقته وختن نفسة وطلب من بقية قومة ليعلنوا لليهود موافقتهم على الأتفاق ، فسمع الناس لهم واختتن الجميع .!

وانتظر بتو يعقوب لليوم الثالث عندما يكون وجع الاختتان شديدا اذ يلتهب الموضع خصوصا عند الكبار فلا يستطيعون الحركة ،واستغلوا هذة الفرصة وقام شمعون (رجل الله المستنير بالرب) على حد تعبيرهم (ولاوى خادم شريعة الرب وسلطانة)ـ بسيفهما وهاجما المدينة وذبحا كل ذكر وقتلا الرجل وابنه بحد السيف وأخذ (دينة) من بيت شيكم وخرجا . ولنستمع لوصف التوراة لما حدث لهذه المدينة البائسة التى صدقت وعود اليهود ومواثيقهم : « أتي بني يعقوب علي القتلى ونهبوا المدينة ،لأنهم بخسوا أختهم ، غنمهم ، وبقرهم، وحميرهم ، وكل ما فى المدينة وما فى الحقل آخذوة. وسبوا ونهبوا كل ثراوتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيوت »(١٠٧) وهذا جزاء كل من يجرؤ و،يتقدم لمصاهرة اليهود سادة الأرض ناسيا إن شعب اللة المختار لا يمكن ان يقبل تلويث اهله بالتناسل مع شعوب غريبة !

والواقع ان القصة تعطينا عدة قيم أخلاقية سائدة عند اليهود :الخديعة والغدر وعدم احترام العهود والمواثيق التى قطعت فى سبيل الوصول الى الهدف ، ثم تعطينا أيضا الجبن ،فهم لا يريدون ملاقاة خصومهم ، ومحاربتهم ، والانتصار عليهم ولكن بالحيلة وبأقل الخسائر يصلون الى غرضهم ويحققون اهدافهم ! أن من يتعامل مع هؤلاء الناس ينبغى ان يكون حزرا غاية الحذر ، وأن يضع فى ذهنة أنهم ممكن أن يغدورا فى أى لحظة ، فليس للمبادئ أية قيمة فى سبيل تحقيق مصلحتهم .

---

(١٠٧) تك ٣٤ : ٢٥-٢٩.

وعندما تضيف التوراة أن يعقوب غضب من السلب والنهب الذى حدث للمدينة ، فان علينا ان نتذكر جيداً أن سبب غضبه لا يرجع إلى ماانطوى علية الحدث من غدر وخسة وخيانة : (فما كان ليعقوب أن يغضب لغدر وخيانة وجبانه فيما روت التوراة ، إنما استوت علي الغدر وازدهرت بفضلة ، ولكن غضبة كان لأنة نفر قليل ، فيخشى أن يجتمع علية الكنعانيون ويضربوة فيبيدوه هو وبيتة.!) (١٠٨)فمن الواضح أن الامر هنا ليس في حقيقة أمره الغضب للعرض المثلوم ولكن الغضب فى هذا المقام كان تحسبا للمستقبل فهو يمثل بُعد نظر بالنسبة لما قد يحدث لليهود فيما بعد .

هذا دستور الآخلاق اليهودى الذى تقدمة الكاتبة الصهيونية ليكون المثل الاعلى لاخلاق البشرية ! القتل ، والغدر ، والسلب ، والنهب ، وعدم الالتزام بالعهود ، والمواثيق ، والإستعلاء ، والتعصب ، والغش والخبث ! لكننا لابد أن نعترف لهم بالدهاء والحيلة والسعى الدؤب لتحقيق أفكارهم وعدم الاكتراث بالواقع ، أو الخوف من الصعاب ، أليس كتاب (البقاء اليهودى)نفسة دليلا على ذلك !؟ ألا يمثل شبكة ضخمة من الجهود العلمية المنظمة لنشر الفكر اليهودى بشتى السبل !يتعاون على ذلك كل من على وجة الأرض من اليهود : الكاتب والمفكر ، والعامل ، والتاجر بصبر وأناة وكأنهم خلية نحل فى العمل الجاد والمثمر ؟! صحيح أنة لا يثمر إلا مصالحهم الخاصة ؛ ولا يفيد إلا الشعب اليهودى ، لكنة جهد على أى حال ، وهو تعاون فيما بينهم بالغاً ما بلغت كراهيتنا لمثل هذا الجهد ، أو حقدنا على مثل هذا التعاون .

---

(١٠٨) دكتور صبري جرجس ((التراث اليهودي)) ص ٦٤.

هوامش اخلاق اليهود -٣

(من أسفارهم تعرفونهم .. !)*

كنتُ ، وأنا شاب ، أطالع ما تروية الصحف ، كتابة أو رسماً ، عن الرجل اليهودي الذي يبيع امرأتة ، طواعية ، لقاء صفقة تجارية ، أو مبلغ من المال أو لينال حظوة عند هذا أو ذاك من أصحاب المناصب .. إلخ . فأظن الصحف تبالغ في تصويرها لانعدام الأخلاق عند اليهود : وهل يمكن لرجل أن يبيع امرأتة لقاء مبلغ من المال بالغاً ما بلغ عشقه للمال ؟! حتي شببت عن الطوق ؛ وقرأت أولاً مسرحية تاجر البندقية (لشكسبير) التي يصور فيها (شيلوك) المرابى اليهودى الجشع ، فوجدتة يقدم في لوحة أدبية رائعة كل ما كانت تقولة الصحف في مشهد واحد ! وما قولك في رجل تهرب ابنتة مع عشيقها ، فيحزن علي المال الذي سرقتة وحملتة معها ، أكثر من حزنة عليها أو علي شرفة ..؟! استمع إلية يقول : (من لي بابنتي ميتة عند قدمي ، والماستان في أذنيها ..) !!

لايهم أن تموت ؛ بل إنه يمتني موتها ،،، ولا قيمة للشرف فليس له رنين المال لكن الماستين هما كل شيء!!

وعندما قرأتُ أسفارهم ، بعد ذلك ، وجدت عالماً غريباً لم أسمع بة من قبل ! وأدركت لماذا تنبأ (فرانكين)في الخطاب الذي ألقاة في مناسبة الإحتفال بعيد الدستور عام ١٨٧٩ بخطرهم علي أمته عندما قال : (أيها السادة ، هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الامريكية؛ ذلك الخطر هو اليهود ! أيها السادة ، حيثما استقر اليهود

(*) سبق أن عرضنا لنفس الموضوع فى مقال سابق بعنوان « أخلاق اليهود من أسفارهم وقد آثرنا أن نثبت المقالين ، لأنهما يمثلان مراحل فى فكر المؤلف .

نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب ، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف ، إنهم لا يندمجون مع الشعب ، لكنهم يقيمون حكومة داخل الحكومة .. إلخ إلخ)! وفهمت لماذا طرد اليهود ، تقريباً من جميع البلاد التى دخلوهامن إنجلترا عام ١٢٩٠م ، وفرنسا عام ١٣٠٦ ثم عام ١٣٩٤ والمجر عام ١٣٦٠ وأثينا عام ١٥٨٢ وبلجيكا ... إلخ .

ولهذا يقول عنهم الرب : هذه الجماعة الشريرة المتذمرة علي ! فى هذا القفر يفنون ، وفية ويموتون عدد(١٤ : ٢٦ ـ ٣٥)، وييأس (يهوه) من إ صلاحهم ويعلن إفلاسة من هذا الشعب : (جيل أعوج ملتو ، الرب تكافئون بهذا يا شعبا غبيا غير حكيم ...؟! سمنت وغلظت وإكتسيت شحماً (تثنية) ٣٢-٥-٦ ((وإنهم أمة عديمة الرأى، ولا بصيرة فيهم ، لو عقلوا لفطنوا لهذه ، وتأملوا آخرتهم ..أن يوم هلاكهم قريب ! إنهم جيل متقلب لا أمانة فيهم ، هم أغاروني بما ليس إلهاً ، أغاظوني بأباطيلهم..؟!)) تثنية ٣٢ : ٢٨و ٣٥ إلي هذا الدرك يبلغ سوء سلوكهم ، يغيرون الرب ويغيظونه بألهة غيره ، بل وبما ليس إلها ، لكنه سوف يرد عليهم بالمثل ، ويكيل لهم الصاع صاعين : (أنا أغيرهم بما ليس شعباً يا أمة غبية أغيظهم ، إنه قد اشتعلت نار بغيظي فتتقد الي الهاوية السفلي ،وتأكل الأرض غلتها ، وتحرق أسس الجبال) (سفر التثنية ٣٢:٢٠-٢٢)وهو علي قدر ما يبتهج لنجاحهم وتزايدهم ، ويفرح بتفوقهم ، فانة الآن يفعل العكس تماما .. وكما فرح الرب ليحسن أليكم ويكثركم ، كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهللكم فتستأصلون من الأرض ..ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض الي أقصاها ..لا تطمئن ولا يكون لك قرار لقدميك ، بل يعطيك الرب هناك قلبا مرتجفاً وكلال العينين ، وذبول النفس .. ويردك إلى مصر فتباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماء، وليس منْ يشترى)!! تثنية

٢٨ :٦٣-٦٨ ، وفى النهاية يعلن (يهوه)أنه لامفر ان يمسحهم مسحاً لأنهم لم يكفوا يوماً واحداً عن إغاظتة كما سبق أن قدمناه (أمسح أورشليم كما يمسح أحد الصحن .. يمسحه ويقلبه على وجهه .. لأنهم عملوا الشر فى عينى ، وصاروا يغيظوننى من اليوم الذى خرج فيه آباؤهم من مصر إلى هذا اليوم) (الملوك الثانى ٢١ : ١-١٥) .

هذة عينة بسيطة مما تقوله أسفار اليهود عن سلوكهم وأخلاقهم؛ وقيمهم ومثلهم العليا ! وهى عينة بسيطة بالفعل ؛ لأن هناك ما هو أبشع : هناك الأنبياء الذين يبيعون زوجاتهم للحكام ؛ طواعية ، ليكسبوا عندهم حظوة ، أو ينالوا حفنة ضئيلة من المال ! وهناك أنبياء تغدر ولا تفي بما تعد ، وهناك أنبياء تسرق وتنهب وترسل بالرجل الي الصفوف الأمامية في ميدان القتال لكي تنال من امرأته! وهناك أنبياء تغش وتزور ، وتنقض العهد ، كما فعل يعقوب مع شقيقه عيسى؛ وكما فعل يعقوب أيضاً مع شكيبم بن حمور ، وكما فعل مع خالة (لابان) عندما أراد أن يتزوج ابنتة أو ربما عدنا فى حديث آخر لتفصيل أخلاقيات الجنس ، وأخلاق المعاملة ، والانغلاق ، والتعصب عندهم - لكننا نكتفى الآن أن نقول : إذا كان هذا قولهم فى أنبيائهم لا يراعون فى وقاراً ولا أدباً فما بالك بعامة الشعب (المختار) فيا من تلهثون وراء الاتفاق معهم ! واخذ العهود والمواثيق عليهم ؛تمهلوا ! أجل تريثوا يا سادة ؛ واقرأوا أولا ما تروية كتبهم المقدسة عن سلوكهم وأخلاقهم : فمن أسفارهم تعرفونهم ..!

مقالات فى الأدب

١ ـ حزن الأديب .. !

٢ ـ نجيب محفوظ .. والمسطول .

٣ ـ نجيب محفوظ .. والخيانة .

٤ ـ الرسم بالكلمات .

٥ ـ حوار مع القلم .

« حزن الاديب »

– نعم ، لابد للأديب أن يكون حزيناً ساخطاً !

–أيعنى ذلك أنه قد كُتِبَ عليه الشقاء ، بحيث لا يمكن أن يعرف الفرح أو السعد سبيلاً إلى قلبه .. ؟!

– لا ؛ فهو يمكن أن يفرح أو يسعد حيناً! لكننى أتحدث عن السمة الغالبة ؛ فرنَّة الحزن والأسى هى السائدة عنده ، وهى التى تطبع بطابعها تفكيره وكتاباته .

– ومن أين جاءه هذا الحزن ..؟!.

– مما يجده في صور الحياة في المجتمع من جوانب نقص ؛ لهذا تراه ـ عادة ـ يسخر منها ويهزأ ! بل إنك لتجده فى كثير من الأحيان يجعل من الإنسان مثاراً للسخرية والتهكم ، وربما سخر الأديب من نفسه ! . ومن هنا كانت روح « الدعابة » ، والسخرية بارزة في كل كتاباته الجيدة ! إنه يسخر من قصور الإنسان ، من انفعالاته الهوجاء ..

ـ هل هذه سمة الأديب وحده ؟!

ـ هى سمة الفنان بصفة عامة ، والأديب بصفة خاصة ، فليس كل إنسان قادراً علي أن يضيق ذرعاً بما يحيط به من أسباب الشقاء والبؤس ـ وتلك عجيبة تستوقف النظر في طبيعة البشر ـ فقد ترى الناس ألوفًا ألوفًا قد حرمتهم هذه الدنيا كل مقومات الحياة الأولية : فلا غذاء ولارداء ، ولا مأوي ، ومع ذلك لا يشعرون بما أصابهم من حرمان ، كأنما عُميت أبصارهم فلا ترى ، وصُمت آذانهم فلا تسمع، وتبلدت جلودهم فلا تحس ! حتى يقيض الله لهم نفراً تكون لهم

الأعين التى ترى أسباب البؤس ، والآذان التي تسمع أنين المتألم .. وغالباً ما يكون الأدباء – أصحاب الحس المر هف – في طليعة هؤلاء ؛ لأنهم عادة أول مَنْ يدرك النقص و الفساد .

– وماذا يكون الفارق بينهم وبين الثوار في كل عصر ؟!

–لا ! الفارق بعيد جد اً ، فالقلق الذي يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة و أوضاع المجتمع يصّبه في نغمة هادئة خفيفة هي أقرب إلي الأنين الخافت منها إلي العويل والصراخ ، أو قل : إن سخط الأديب أقرب إلي السخط الذي يعبر عنه الساخط بهزة في كتفيه أو مط في شفتية مصطبغاً بفكاهة لطيفة ، لا أن يكون سخطاً مما يدفع الساخط إلي تحطيم الأثاث وتمزيق الثياب .. إنه يكفيك أن تفتح أعين الناس وآذانهم ليروا ويسمعوا ما حولهم ، لتكو ن بعد ذلك علي يقين من إصلاح فعلى يأتى بعد حين قصير أو طويل .

وللأدباء طريقتهم في تنبيه الناس إلي أوجه النقص في حياتهم ؛ فهم لا يقدمون أبحاثاً علمية في الاقتصاد أو الاجتماع ، بل هم يرسمون صوراً من شأ نها تنبيه الغافل وإثارة الساكن ! فقد يصوغ الأديب سخطه ـ على الأوضاع القائمة منتقداً لما فى حياة الناس من نقص علي هيئة حلم أو قصة يُطلق فيها العنان لخياله الذى قد يبنى عالماً لا وجود له ، ومن خلاله يُبَلِّغ الناس رسالته الساخطة ! .

كان هذا طرفاً من حوار طويل دار بيني وبين أستاذنا الكبير زكي نجيب محمود – وكان الرجل يومها يتدفق حيوية ، وينفعل أحياناً بقوة ؛ لأن الفكرة بلغت من الوضوح في ذهنه حداً جعله يعجب أنْ لم يفهمها غيره !.

ورَنَّت فى أعماقى أصداء كلماتة المتدفقة : لابد أن يكون الأديب

حزيناً ؛ وهو حزين لما يجده في الحياة من نقص ؛ وهو يكتب لينتقد الحياة القائمة وما فيها من قصور ، وإلا كانت كتاباته بغير معني . أتراه يكتب لكي (يصور) لك الحياة ، أو ينقلها كما هي؟! وماذا يفيدنا من ذلك ؟ الحياة قائمة كما هي كتب أو لم يكتب ! إن دوره الحقيقي أن يكون ناقداً ناقماً ، لاواصفاً ولا ناقلاً .. إنه السوس الذي ينخر في البناء الاجتماعي المتد اعي ليعجل في انهياره ..!.

قد تقول : لكن إذا كان في الحياة جوانب نقص كثيرة، ففيها أيضاً جوانب كمال كثيرة ، نعم ! الحياة فيها جوانب كمال ، لكن هذا بالنسبة لمن يرضى بالكمال المنقوص ! ولهذا كانت الحياة تُحْزِنُ أكثر مما تسر بالنسبة للأديب صاحب الحس المرهف ؛ فهو أول مَنْ يلحظ هذا (الكمال المنقوص) فيركز علي الجزء الناقص .

ذكّرنى هذا الحديث بحوار كان قد أجراه الأستاذ الدكتور مصطفي سويف مع الشاعر أحمد رامي ونشره في كتابه (الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة) – قال الشاعر في هذا الحوار : إنني لابد أن أنظم الشعر في حجرة خاصة هي حجرتي التي يشيع فيها جو حزين ، وأحسن الأوقات التى أنظم فيها هو وقت الغسق . وحينما أشعر أنني مستيقظ والناس نيام ! ... ثم يستطرد الشاعر فيقول: (يسرني جداً أن أقرأ شعري فيبكي مَنْ يسمعني ، إنَّ الابتسامة أمرها يسير ، أما الدمع فأمره عسير كل العسر ، إن ألذَّ شيء عندى أن أبكي ، أحب البكاء دائماً) !!

وهذا البكاء يُذكرك ببكاء الصوفية ؛ فهم أيضاً من الذين تغلب عليهم رنة الحزن ، فمن أين جاءتهم رنة الحزن هذه ؟! من إدراكهم للهوة العميقة ، أو الفجوة البعيدة جداً التى تفصل بينهم وبين الكمال المطلق ، وهو الله تعالى ، فالصوفى العظيم فى حالات الكشف

والوجد يمكن أن يقترب جداً من الكمال المطلق ، لكنه يجد الهوة محفورة بعمق لا يستطيع أن يتجاوزها ولا أن يفهمها ؛ لأنها موضوع حدس لا تعقل ، أو كما قال ياكوبي Jacobi : (النور فى قلبى لكني كما حاولت إبرازه للفهم خبا السراج وانطفأ !) كذلك كان الحسن البصرى أول المتصوفة المسلمين حزيناً مهموماً دائماً حتى قيل فى التعريف به :

«حليف الخوف والحزن ، أليف الهم والشجن ، عديم النوم والوسن ، أبو سعيد الحسن »! فقد كان زاهداً في هذه الدنيا مزدرياً لها ، وكان يعبر عن زهده «بالحزن الدائم » ، ومن أقواله المعروفة: «المؤمن يصبح حزيناً ويمسي حزيناً ولا يسعه غير ذلك » ! كذلك كانت رابعة العدوية كثيرة البكاء والحزن ..حتي أن موضع سجودها كان كهيئة ماء المستنقع من دموعها !!..ولِمَ كانت حزينة ؟! (لأن محب الله لايسكن أنينه وحنينه حتي يسكن مع محبوبه) !! فالصوفى لا يهدأ إلا بالوصول إلي الله ، إلى الكمال المطلق ، وهو لا يقنع بما فى الحياة من « كمال منقوص» !!

وهذا ما يقوله رائد الوجودية « كيركجور» الذى كان أديباً وصوفياً فى آن معاً ! عندما عرّف الشاعر بأنه : إنسان تعس شقي استمع إليه يقول : «مَنْ هو الشاعر ؟! إنه إنسان شقى تعس ، يُخفي في صدره عذاباً عميقاً ، ولكن شفتيه خلقتا علي نحو يجعل الأنات والآهات تتحول إلي موسيقي ساحرة عذبة ..! إن حظه هو حظ أولئك الضحايا الأشقياء الذين تعذبهم نار هادئة داخل تمثال الثور النحاسي الذي أعده الطاغية فلاريس .. Phalaris(*)

(*) تروي الأساطير ان فلاريس Phalaris طاغية اجريجنتم Agrigentum كان يشوي المساجين في مملكتة بأن يضعهم داخل ثور نحاسي ضخم ، ويوقد تحته ناراً هادئة ،ثم توضع قصبتان تشبهان المزمار في منخار الثور بطريقة فنية بارعة ، بحيث تتحول انات المساجين وصرخاتهم حين تصل إلى أذنيه إلى ألحان موسيقية عذبة ..!!

لكن صرخاتهم لاتبلغ آذان الطاغية لتبث الذعر فى قلبه ، وإنما تصل أذنيه لترن رنين الموسيقي العذبة !«ويلتف الناس حول الشاعر وهم يقولون : غنِّ لنا مرة أخري . وكأنهم يقولون له تعذب من جديد ! مزق نفسك ! ولتزدد نفسك آلاما ! اجعل شفتيك تصوغان العذاب مرة أخري علي نحو ما فعلت من قبل ؛ إنّ الأنّات والآهات تؤلمنا ، أما الموسيقي فهي وحدها التي تبهجنا ..! صدقني أنا أُفضِّل أن أكون راعي خنازير تفهمه الخنازير عن أن أكون شاعراً لا يفهمه الناس ..!! » هذا رأي كيركجور في الشاعر – وهو نفسه أديب ومتصوف كما قلنا ـ وهو رأي يتفق تماماً مع الرأي السابق في حزن الأديب وشقائه وهو ما يقوله العقاد أيضاً عن الشاعر :

بني الأرض كم من شاعرٍ فى دياركم	غبين ، وغبن الشاعرين شديد
إذا عاش في بأسائه فهو ميت	وإنْ مات عاش الدهر وهو شهيد
شقاوته في الشعر وهو هناؤه	وليس له عن حالته محيد ..!

تلك أطراف متناثرة من آراء الآخرين حول حزن (الأديب) ... فماذا يقول الأدباء أنفسهم ، ولاسيما الشباب منهم ..؟!

نجيب محفوظ والمسطول

أما المسطول فهو «المثقف» الذي انسحب من الحياة العامة ،وأدمن المخدرات ، واكتفي بأن يغرق في غيبوبة فكر فَقَدَ قيمته وتحول إلى عبث لامعني له !

تلك كانت حالة بعض المثقفين المصريين - على الأقل في عهد عبد الناصر - كما صورها نجيب محفوظ عام ١٩٦٦ في روايته الرائعة «ثرثرة فوق النيل ».

وهي واحدة من ثلاث روايات أشادت بها اللجنة السويدية التي منحته جائزة نوبل - فكشف عن الموقف السلبي الهروبي اللامنتمي ، بصفة عامة ، وعن سلبية المثقف بصفة خاصة - كما قدم خلال الرواية بطريقة غير مباشرة ضرباً من النقد السياسي للسلطة ، وللقيادة الحاكمة في تلك الفترة ! أما جماعة المثقفين هؤلاء فتشمل: المحامي ، والناقد الفني ، والأديب ، وكاتب القصة ، ومدير الحسابات ، والمترجم بالخارجية .. إلخ كل منهم يمارس عمله في الصباح ، ثم يلتقون في المساء في عوامة علي النيل يمتلكها واحد منهم يتسامرون ويتعاطون المخدرات . وقد صدرت هذة الرواية قبل النكسة بعام واحد ، وكأنها تتنبأ بقرب وقوع الكارثة : فإذا غاب العقل ، وتحول كل شيء إلى عبثٍ لا معنى له ، وإذا أصبح الفكر بلا قيمة ، وإذا تقطعت الروابط بين المواطن ووطنه بحيث يفقد انتماءه ، ويهرب من مسؤوليته - فإن النتيجة المؤكدة هي النتيجة البشعة التى مازالت آثارها المدمرة تحبطنا حتى اليوم . يقول قائل منهم للصحفية التي جاءت لتكتب عنهم : «إنك تأسفين على وقتنا الضائع فى السهرات ، وتعتقدين أنه هروب من

أعبائنا الحقيقية ، وأنه لولا ذلك لقدّمنا الحلول النا جحة لمشاكل الوطن العربي ، والعالم ، والكون»! (ص ٩٤ من الطبعة السادسة)وهذا هو في الواقع موقفنا جميعاً منهم ، وهو موقف العقل تجاه القدرات المهدورة ، لكن المؤلف لايلبث هنا وهناك ، يسوق المبررات التي دفعتهم إلى الانسحاب والامتناع عن المشاركة في مشكلات وطنهم ، والوقوف موقف المتفرج من الأحداث الجارية – وعلي رأس هذه المبررات تسلط الحاكم وجبروته وتفرده بالرأى واتخاذ القرار ـ يقول واحد من هؤلاء المثقفين (لسنا أنانيين إلى هذه الدرجة ، ولكننا نرى السفينة تسير دون حاجة إلى رأينا أو معاونتنا ، وأن التفكير بعد ذلك لن يجدي شيئاً ، وربما جر وراءه الكدر وضغط الدم..) ص ٥٦ . هكذا فقدوا (إرادة الحياة) ، والرغبة في المساهمة بالرأي والمعونة ، ولم يصبح أمامهم سوي عبادة (العجل) ، والخوف من الحياة نفسها : (لم يبق من عبادتنا القديمة إلا عبادة أبيس . والدواء الحقيقي هو الخوف من الحياة لا الموت) ص ٩٧ ، وليست عبادة أبيس هذه جديدة علي المصريين سواء في عهد الفراعنة أو الفاطميين أيام الحاكم بأمر الله الذي اختفي بطريقة غامضة ! لكن الجديد حقاً أن يصدّق الحاكم نفسه ، ويتصور أنه قد أصبح إلهًا بالفعل : (وقال لنفسة إنه لم يكن عجبًا أن يعبد المصرين فرعون ولكن العجب أن فرعون آمن حقاً أنه إله ..!!)ص ٢١ ، وفى وسط هذا الجو المشحون بالزيف والنفاق والفساد : (تلوح الدنيا غريبة ، وتزداد غرابة عند تناول الأفكار : الهموم ، والتنابلة ، والأكلشيهات . المساطيل يتناقشون بأعين محمرة ، ويختفى القمر تماماً) ص ٩٣ .. (ويضيق الصدر بأية حكمة إلا حكمة تنعى جميع الحكم ..) ص ٩٨ . ويتحول كل شيء إلي عبث : (والعبث هو فقدان المعنى، معنى أى شىء ، وانهيار الإيمان : الإيمان بأى شىء ، والسير

فى الحياة بدافع الضرورة وحدها دون اقتناع وبلا أمل حقيقي ؛ وينعكس ذلك علي الشخصية في صورة انحلال وسلبية ، وتمسى البطولة خرافة وسخرية ،ويستوى الخير والشر ..وتموت القيم جميعاً ، وتنتهيى الحضارة) ص ١٠٢ . حتي التدين نفسه لم يعد يؤدى إلى شيء: (فالرجل المؤمن بينهم هو أعظمهم اتزاناً ، لكنه رغم ذلك ـ وربما بسبب ذلك أيضاً ـ يحزنه أنه شئ لا يقدّم ولا يؤخّر في الحياة ، وعلى ذلك يمكن أن نعد اهتمامه المشهور بالمشكلات الصغيرة ـ كإدمانه – نوعاً من الهروب من إحساس التفاهة الذى يطارده ..) ص١٠٥ . وكان الحاكم ـ كما قال المؤلف فى حديث صحفى ـ قد طلب من المصريين اعتزال السيا سة ؟ فتحول المصرى من كائن فعال إلي سلبى متفرج ،من موجود مشارك إيجابى إلى (هيكل عظمى) يتقبل أى شيء .. والأكثر من ذلك أنه سلب من داخل المواطن شجاعته ، وإحساسه بالكرامة ، وإحساسه بالأمان ، وهذا شيء فظيع إلى أقصى حد !.

(لعلك تقولين لنفسك إنهم مصريو ن ،إنهم عرب ، إنهم بشر ، ثم إنهم مثقفون ، فلا يمكن أن يكون هناك حد لهمومهم . والحق أننا لا مصريون ، ولا عرب ، ولا بشر ؛ نحن لا ننتمى لشئ إلا لهذه العوامة ..) ص ٥٥ .

(المسألة أنكم رجال في حالة من انعدام الوزن) ص ٩٠. وكلما حاولوا التفكير في المشاركة على نحو إيجابى فى حياة مجتمعهم ، صدتهم العقبات المنتظرة التي يستحيل التغلب عليها (راحوا يتساءلون ..كيف يحققو ن الاشتراكية على أسس شعبية ديمقراطية لا زيف فيها ولا قهر ؟!

وتدارسوا العراقيل المتحدية ، والأفكار التى قد تحيق بهم:

كمصادرة الأرزاق ، والاعتقال ، والقتل ..!!) ص ٩٥ . ولشدة الخوف ، ويسبب ما يعيشو ن فيه من رعب ، فقدوا الإحساس بكل شيء ، حتي الخوف نفسه !:

(لأننا نخاف ، البوليس ، والجيش ، والإنجليز ، والأ مريكان ، والظاهر ، والباطن ، فقد انتهي بنا الأمر إلى ألا نخاف شيئاً) ص ٣٤. إذا كانت الحياة الواقعية جادة ، وكل كائن حر يمارس حياته علي أساس من الجدية (ص ٧٥) وإذا كانت الجدية دعوة عامة إلى الاهتمام العلمى بالشؤون العامة أسوة بالشؤون الخاصة ..) (ص ١٣٢) ـ فإن المؤلف يبرز هذا الانفصام الكامل بين الواقع الجاد والفكر العابث : (فكل قلم يكتب عن الاشتراكية ،علي حين تحلم أكثرية الكاتبين بالاقتناء والإثراء ، وليالى الأنس فى المعمورة ..) ص ٥٢ . « وذلك أن العبث يقتصر عادة على الأدمغة .وقد تجد قاتلاً بلا سبب فى الرواية مثل رواية الغريب . أما فى الحياة الحقيقية فإن بكتْ نفسه أول مَنْ يسارع بإقامة الدعوى علي الناشر ، إذا أخل بشرط من شروط العقد الخاص بأى كتاب من كتبه العبثية ..!» ص ٧٥ .

الشخصية الرئيسية في هذه الرواية هي شخصية «أنيس زكي» الذي يعبر عن «الغيبوبة» التي راح فيها المثقف في ذلك العهد ! موظف بقلم المحفوظات بوزارة الصحة ، لكن المؤلف يشير أكثر من مرة إلى أنه «إنسان مثقف» ! ـ « طاف بكليات الطب والعلوم والحقوق ؛ فمضى بعلومها دون شهاداتها ، كأى رجل لا تهمه المظاهر ..»! ص ٣١ . كما يشير أيضاً إلى مكتبته العامرة : «مكتبة التاريخ منذ العصر الحالى حتى عصر الذرة ، مجال خياله وكنز أحلامه .. وهو من عادته أن يطالع ساعة أو ساعتين كل يوم قبل القيلولة» ص ١٦ ، لكنه مع هذه الثقافة ـ وربما بسببها ـ سلبى تماماً : «هارب من الحياة العامة، صامت لا

يتكلم إلا نادراً ، لكنة دائم الحوار مع نفسه فى شطحات ذات مغزي يوظفها المؤلف ببراعة ! وهو غائب عن الوعي والفكر أو الشعور ؛ لأنه يهيم في الملكوت » ص٣١ ؛ ولهذا استحق لقب «المسطول الأول » . ولما كان يدير جلسة المخدرات ، فهو ولىّ النعم ، ووزير شؤون الكيف في العوامة ! يصوره المؤلف فى العوامة تصويراً فنياً رائعاً منذ بداية الرواية ؛ فيرسم ببراعة شخصية المسطول وسلوكه فنراه يكتب تقريراً للمدير العام عن «حركة الوارد» بقلمٍ خالٍ من الحبر تماماً ! ويشير المؤلف فيما بعد إلى أنه القلم الذى تُكْتَبُ به معاهدات السلام ! وعندما يقول له المدير «عيناك تنظران إلى الداخل لا إلى الخارج كبقية خلق الله» ص ٩ ، فكأنه في الواقع يصف جماعة المثقفين هؤلاءجميعا . وتطوف برأسه ـ طوال عمله اليومي ـ خيالات مسطول حقيقى: رئيس القلم يتحول إلى كرة ضخمة من اللحم ، ويخف وزنه بطريقة مذهلة حتي يصبح كرة تصعد إلى أعلى كالمنطاد وتلتصق بالسقف وهي تتأرجح ! » ص ٦ . وهو يسخر من زملائه في العمل ويباهى بانسطاله: «يا ولاد الأقدمية المطلقة ! أنا بينكم معجزة تخترق الفضاء الخارجي بغير صاروخ ..» ص٦ . وعندما يقف أمام مكتب المدير العام خاشعاً «يظل رأس المدير الأصلع منكبًا علي أوراق يراجعها عارضاً لعينيه ظهر قارب مقلوب ، وطارد بالبقية الباقية له من إرادته أىّ خاطر يمكن أن يعبث به فيوقعه في مأزق وخيم العواقب ..» ص ٧ وعندما يسأله المدير:خبرنى يا سيد أنيس : كيف اختفى ما كتبته في التقرير ؟! تكون الإجابة مونولوجاً داخلياً بالغ الغرابة : «أجل كيف ! كيف دبت الحياة لأول مرة في طحالب فجوات الصخور بأعماق المحيط » ! ص٨ . وعندما يعود إلي العوامة ويجلس ليتناول طعامه يلمح برصاً صغيراً يزحف مسرعاً فوق الجدار يذكّره برئيس القلم ، ولكن لماذا ! ؟ «وألحّ

عليه سؤال مباغتُ : ترُى ، هل يوجد للمعز لدين الله الفاطمىّ ورثة يمكن أن يطالبوا ذات يوم بملكية القاهرة ..؟!» ص١٢ وهذه الشطحات الغريبة ذات المغزى العميق تمكّن القارىء من أن يفهم بجلاء شخصية «المسطول الحق الذى يتمتع باكتفاء ذاتى !» ص ٨٦ . كما أنها تحتمل تأويلات شتى ستحل الأشكال المجردة والتكعبية والسريالية والوحشية مكان الجازورينا والكافور والأكاسيا وعرائس العوامات ، أما الإنسان فيمتد إلي العصر الطحلبي .ولكن ما هى الأسباب التى حولت طائفة من المصريين إلى رهبان ؟!» ص ١٨ ، ويمكن بسهولة أن تلاحظ التسلسل العبثي للمنولوج :«وتجلت صلعة المدير العام كظهر قارب مقلوب في قبضة الظلام . ووضح تماماً أنه من سلالة الهكسوس ، فوجب أن يرتد إلى الصحراء ، مَنْ يا تري الرجل الذى قال : إن الثورات يدبرها الدهاة ، وينفذها الشجعان ، ثم يكسبها الجبناء..؟!ص ٢٤ – «وتكلم الظلام خارج الشرفة فقال : لا تكترث لشيء انحدر صوته مع شعاع نجم كابي الاحمرار قطع المسافة إلي غرزتنا فى مائة مليون سنة ضوئية ! وقال أيضًا لا تجعل من الحياة عبئاً . أجل حتي المدير العام نفسه سيختفى كما اختفى الحبر من قلمك » ص ٢٥. على أن هذه (الشخصية) المسطولة يجعلها المؤلف تنطق بالفكرة الرئيسية التى يريدها ؛ فما حدث في المجتمع من هزات ، وما تحمله أنباء الصحف وتبثه الإذاعة والتليفزيون من خطب حماسية مدوية وانتصارات كاذبة في كافة الميادين ليست حركة حقيقية ، وإنما الوطن يهتز كما تهتز العوامة التي يخيل إليك أنها تتحرك !ولهذا يفتتح المؤلف روايته في السطر الأول بعبارة ذات مغزى واضح : «إبريل شهر الغبار والأكاذيب ..!» وكأنه يمهد لما سيقوله بعد صفحات قلائل عن « الحركة الكاذبة » التى تشبه الحركة ، وليست منها ، فهى أقرب إلى

التعبير العسكرى (محلك سر) هى أقرب إلى هذة العوامة التى تهتز بفعل الأقدام التي تسير فوق الصقالة ؛ فتحسب أن الصقالة تتحرك، لكنها باقية في مكانها ! يقول أنيس زكي ساخراً : «لا توجعوا رؤوسنا ما أكثر ما نسمع ! ولكن ها هى الدنيا باقية كما كانت ، ولا شيء يحدث علي الإطلاق » ! ص ٢٢ ، أجل ! قد تظن أن هناك حركة دفعت بالمجتمع إلى الأمام ، لكن الحركة الموجودة عبثية ، إنها أشبه بحركة الوارد « حيث لا حركة البتة في الحقيقة » . حركة دائرية تتسلي بالعبث ، حركة دائرية ثمرتها الحتمية (الدوار) . وفي غيبوبة الدوار تختفى جميع الأشياء الثمينة ، من بين هذه الأشياء الثمينة : الطب ، والعلم ، والقانون » ! ص ١٠.

«وليس كالحزن شيء يقتحم عليك المأوى بلا دعوة . وأمس قال لى الفجر عند طلوعه : إنه فى الحقيقة لا اسم له » ! ص ١٤٠ .

وماذا تكون نتيجة ذلك العبث ؟ في الرواية جريمة ، وفي الواقع كارثة !فجماعة المثقفين ترتكب جريمة لا تُغتفر عندما يقومو ن بنزهة ليلية بالسيارة ويقتلون مجهولاً ويولون الأدبار هاربين من المسؤولية ! أما من حيث الواقع فهو يستلهم التاريخ «أيها الحكيم القديم » ايبو – ور :

«ماذا قلتَ لفرعو ن ؟!» وكأنه يريد أن يسأله ماذا أقول أنا لفرعون الآن ، ويجيب الحكيم : « إن ندماءك كذبوا عليك ..هذه سنوات حرب وبلاء . ما هذا الذي حدث في مصر ؟! إن النيل ما يزال يأتي بفيضانه ..ولكنك تترك الفساد ينهش في البلاد !! » ص ١٢٠ . وكم كان نجيب محفوظ بارعاً عندما قال : إن حقيقة ذلك كله تظهر في أتون المعركة ، وكأنه يتنبأ بالكارثة التي ستحدث بعد عام واحد – ومرة أخرى يستلهم التاريخ القديم ، ويقدم مشهداً له مغزاه العميق : مصر

في حالة انكسار بعد أن هزمها قمبيز ملك الفرس ، وسحق مدينة ممفيس ، وأثار شعور المصريين بانتهاكه ، عامداً ، حرمة ديانتهم «تأمل شطحات أنيس زكى الرائعة : «وتجلت لعينيه المأساة على حقيقتها فى ميدان المعركة ؛ إذ يجلس قمبيز ، ومن خلفه جيشه المنتصر ، وإلى يمينه قواده المظفرون ، وإلى يساره فرعون يجلس جلسة المنكسر ، والأسرى من جنود مصر يمرون أمام الغازى ، وإذا بفرعون يجهش بالبكاء ! فيلتفت قمبيز نحوه متسائلاً عما يبكيه ، فيشير إلى رجل يسير برأس منكس بين الأسرى ويقول : هذا الرجل شهدته وهو فى أُوج أبهته ؛ فعز على أن أراه وهو يرسف فى الأغلال ..!» ص٨٨ .

وشطحة أخري عن الحاكم الإله من أعماق التاريخ :«وصعد الحاكم بأمر الله إلى قمة الجبل ليمارس أسراره العلوية ، لم يعد حتى اليوم ، لم يعد ، ولم يُعْثَر له علي أثر ، وحتي الساعة لم يتوقف البحث عنه؛ لذلك أقول : إنه حي ، وقد رآه رجل أعمى ، ولكن لم يصدقه أحد . وغير بعيد أن يتجلى للمساطيل فى ليلة القدر ..! » ص ٥٧.

* * *

وزلزلت الأرض زلزالها ، وحدثت ضجة كبرى ، وأفاق المسطول بصعوبة ، وراح يتساءل متثاقلاً : ما لها ؟! قيل نال أديبنا العظيم نجيب محفوظ جائزة نوبل بعد كفاح مرير وجهاد شاق تخللته معارك طاحنة . لكن المسطول ردد وهو شبه مغمض العينين : «لكنه يحارب من معسكر الأعداء ، نعم ! إنه يقف معهم فى خندق واحد !! » ثم راح من جديد يهيم فى الملكوت ..!!

نجيب محفوظ .. والخيانة.. !

أصحيح أن الفنان العظيم «يصور» الواقع أو ينقلة كما هو ؟! وكيف يمكن أن يكون فناناً في هذه الحالة ، دع عنك أن يكون عظيماً ، ذلك الذي يفعل ما تفعله كاميرات التصوير ..؟! ثم كيف نفسر الثمن الباهظ الذي ندفعه لفنان عظيم يرسم لوحة لأبراج الكويت ، مثلا ، فى الوقت الذي تباع فيه الصور التي تلتقطها الكاميرا لهذه الأبراج نفسها بفلوس قليلة ..؟! كلا ! الفنان العظيم لا يصور الواقع . أتراه إذن ينعزل بعيداً في برج عاجى ليكتب قصة أو قصيدة أو يرسم لوحة؟!.. ولا هذه أيضاً ..!.

الفنان العظيم يستمد من الواقع الذي يعيش فيه «مادة خام » لفنه، ثم يعيد تشكيلها وفقاً لرؤيته الفنية . وهو هنا أشبه بمن يريد أن يبنى بيتاً : إنه يأتى بالمادة الخام من الطبيعة :الخشب ، الحديد ، الحجارة ، النحاس .. إلخ لكن لا يضع الخشب في المبنى على نحو ما كان عليه في جذع الشجرة ، وإنما يعيد تشكيله حسب ما يراه مناسباً ليتحول إلى أبواب ، ونوافذ ، وقواعد .. وقل مثل ذلك في الحجارة التى يقتطعها من الجبل ، أو من طين محروق ، ثم يخلقها خلقا آخر حتى لتختفى صورتها القديمة .. وهكذا !!.

ولعل أوضح مثال علي هذه الحقيقة ما فعله أديبنا العظيم نجيب محفوظ في روايتة الشهيرة «اللص والكلاب »- في عام ١٩٦٠ ضج المجتمع المصري بقصة «محمود أمين سليمان »الذي لقبته الصحف يومها «بالسفاح » -وهو شاب خانته زوجته فأقسم أن ينتقم منها ، وأطلق عليها الرصاص ، لكنه لم يصب منها مقتلاً ؛ فراح يتعقبها إلى

المستشفي الذي نقلت إليه ، وأخذت الشرطة تطارده .. وأصبحت قصته حديث الناس ! .

أخذ أديبنا الكبير من واقع مجتمعه فكرة «خيانة الزوجة» وثأر الزوج وقصاصه منها ، ثم مدّ الفكرة ليرى بعين الفنان أن الخيانة أنواع شتى : خيانة الزوجة ، وخيانة الصديق ، وخيانة المبادىء ..إلخ وهذة الأخيرة ـ عند نجيب محفوظ ـ أبشع أنواع الخيانات جميعاً ..

«سعيد مهران» الشخصية الرئيسية في الرواية : شاب بسيط يعيش وسط أسرة فقيرة «عم مهران الكهل بواب عمارة الطلبة ، العمل والقناعة والأمانة .. الرجل وامرأتة يتحدثان والطفل يلعب . ولإيمانه بالله اعتنق الرضى ، وكان الطلبة يحترمونه ، ونزهته الوحيدة الحج إلى بيت الشيخ علي الجنيدى !» ص ١١٢ ، ولما مات الأب ورث سعيد مهنته ، فأصبح بواباً لبيت الطلبة ، وساعده في الحصول على هذه الوظيفة شاب ثائر ، وهو «رؤوف علوان »الطالب بكلية الحقوق والمحرر بجريدة« النذير » ، وممثل الطليعة الثورية . أما الأم فقد جاءها نزيف حاد ، وطار بها ابنها إلى أقرب مستشفي « وجاء خدم كثيرون ، وما لبث أن وجد نفسه وأمه وحيدين فى الطريق المسقوف بالأغصان ، وبعد شهر من الحادث ماتت الأم في قصر العينى !» ص ١١٤«وفى غضون شهر المرض سرقتَ لأول مرة ، سرقتَ طالباً ريفياً من نزلاء عمارة الطلبة، واتهمك دون تحقيق ، وانهال عليك ضرباً حتى جاء رؤوف علوان فخلّصك من قبضته وسوّى المسألة بلا مضاعفات » ص١١٤ . وهكذا يصور المؤلف كيف كان « سعيد مهران » بطل الرواية ضحية لمجتمعه ، وأنه سرق لأول مرة مضطراً ، ثم شجعه «رؤوف علوان » الطالب الثائر ، وحامى المظلومين ، والكادحيين ، الذى قال له: « لا تخف ! الحق أنى أعتبر السرقة عملاً مشروعاً .. أليس عدلاً أن

مـايؤخـذ بالسرقـة ، فـبـالسرقـة يجب أن يُسـتـرد ؟! » ص ١١٤ . وهـكذا أصبح البطل لصـاً ، وتبدأ الرواية بخروج سعيـد من السـجن الذي دخله بسـبب وشـاية واحـد من أعـوانه ؟ « فـدفعـه إلي أن يخـسـر من الأعـوام الغاليـة أربعة غدراً » ص ٨ . ثـم طَلُقت زوجته أثناء سـجنه ليتـزوجهـا «عليش سـدرة» التابع القديم !

وهـكذا يـخـرج « سـعيـد» وهـو يحمل في صـدره شـحنة عارمـة من الرغبـة فى الانتـقـام من الخـونه « آن للـغـضـب أن يـنفـجـر وأن يحـرق ، وللخـونة أن يـيأسـوا حـتى الموت ، وللخـيـانة أن تكفّـر عن سـحـنتـهـا الشـائهة . نبـوية عليش ، كيف انقلـب الاسـمـان اسـمـاً واحد أ..؟!» ص٨ ونتبّين بوضـوح المرجل الذي يغلي بسـبب الخيانة ، لكن المؤلـف يجعل تيـار الشـعـور الداخلى المتـهـجم عند البطل يمتـد ليطبع بطابعـه الواقع الذى يراه أمامـه بعد خـروجه من السجن مـباشـرة ، فـالجو العـام خانق مليـىء بالغـبـار ، حـر لا يـطاق !«وهذة الطرقـات المثـقلة بالشـمـس ، والسـيـارات المجنونة ، والعابرين ، والجـالسين ، والبيـوت ، والدكاكين ، ولا شـفـة تفتـر عن ابتسـامة..!» ص ٨ . ويتـدفق المشـهد الدرامـي المركّز الذي يتـداخـل فـيـه : الحس ، والذهـن ، والشـعـور ، كـمـا يتـداخـل فـيـه الحاضر والماضـى متجهاً نـحو المستقبل مـستخدماً « الديمومة الواقعية » أو الزمـان الحى الذى أشـار إليـه «برجـسـو ن » الفـيلسـوف الفـرنسى المعـاصـر ، فـها هـى الذات تستشـعر اللحظة الحاضـرة ، وهـى فـى حالة فوران ، جالبة معـها خبرات الماضي المؤلمة ، متحفزة للانـتقام : «استـعن بكل مـا أوتيت مِنْ الدهـاء ، ولتكن ضـربتك قوية كـصبـرك الطويل وراء الجـدران ، جـاءكم من يغـوص فـي الماء كـالسـمكة ، ويطير فـي الهـواء كالصـقـر ، ويتـسلق الجدران كالفـأر ، وينفذ من الأ بـواب كـالرصـاص!» ص٨ . ولا يلبـث بين الحين والحين وهـو يتـجـه نحـو منزله القـديم ـ

حيث تعيش الزوجة الخائنة مع التابع الحقير- أن يعّبر عن مدى كراهيته لهذه الزوجة «تلك المرأة النابتة في طينة نتنة اسمها الخيانة» ص ٩. وينعكس تيار الشعور العابث المتجهم على الشارع الذى يسير فيه «عندما أقطع هذا الشارع ذا البواكى العابسة ، طريق الملاهى البائدة الصاعد إلى غير رفعة ، أشهد أنى أكرهك ، الخمارات أغلقت أبوابها ولم يبق إلا الحوارى التى تحاك فيها المؤمرات ، والقدم تعبر من آن لآن ، نقرة مستقرة في أطوار كالمكيدة ، وضجيج عجلات الترام يكركر كالسب ، ونداءات شتي تختلط كأنما تنبعث من نفايات الخضر ، أشهد أني أكرهك .. الويل للخونة !» ص ٩. « ولو أن الخيانة الكامنة ظهرت فى صفحة الوجه كما تظر آثار الحميات الخبيثة لما تجلى جمال فى غير موضعة ، ولأعفيت قلوب كثيرة من عبث المكائد » ص ٩٨، لكن الخيانة تسترت وراء الصداقة ، كما هى الحال مع «عليش سدرة» الذي «.. لعب دور الصديق الأمين ، ولم يكن صديقاً علي الإطلاق . وأعجب شىء أنى خدعتُ به ، وأنا الذكى الذى يخافه الجن الأحمر! » ص١٠٤. كان يحبنى ويتملقنى ويتجنب غضبى ، ويلتقط فتات العيش من كدى وشطارتى ! ص ١٠٤. لكنه اتفق مع الزوجة على التخلص منه «عليش سدرة » سأدل البوليس عليه لنتخلص منه ؛ فسكتت أم البنت، سكت اللسان الذى طالما قال لى بكل سخاء: أحبك يا سيد الرجال !» ص٤٨. وهكذا تخفّتْ الخيانة ـ هذه المرة ـ تحت رداء الحب ؛ فالزوجة التى كانت عاشقة لسعيد مهران ظهرت على حقيقتها عندما خانته مع واحد من أتباعه ، وما تزال ابنتهما فى عامها الأول !

وهكذا أصبحت تميل إلى الكلب وتعرض عن الأسد !ولكن القذارة فى طبعها ، قذارة تستحق القتل فى الدنيا والآخرة »! ص١٠٤. وصفة الكلب هنا يطلقها المؤلف على « الخائن» ؛ فإذا كان سعيد مهران لصاً

فالكلاب هم الخونة ، وإنْ كان قد سرق فقد بررها المؤلف بالفقر وقسوة المجتمع ؛ ولهذا كانت «أكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم .. ولكنهم بالفطرة يكرهون الكلاب !» ص ١٢٦. نعم ، السرقة رذيلة ، لكن قد يلجأ إليها بعض الناس مرغمين ، بسبب قسوة الظروف المحيطة بهم ، في حين أن الخيانة رذيلة لن تجد لها تبريراً ، ولهذا فنحن نكرهها « بالفطرة » على حد تعبير المؤلف !. ومنذ لحظة خروج سعيد مهران من السجن ، ونحن نجد الطريقَ أمامه مسدوداً والحلول المقترحة لمشكلته تنتهي إلى لا شيء ! فهو في البداية يذهب دماؤه تغلي ، لكنه يمسك انفعالاته لكي يتفاهم مع « الخونة » على استرداد ابنته الصغيرة «سناء» - ويصورها المؤلف علي أنها رمز الطهارة والبراءة والضياء «لاحظ دلالة الاسم نفسه !» « من خلال هذا الكدر المنتشر لا يبتسم إلا وجهك يا سناء!» ص٩. فهي الجانب الروحي النقي «إذا خطرت في النفس انجاب عنها الحر والغبار ، والبغضاء ، والكدر ، وسطع الحنان فيها كالنقاء غِبُ المطر »ص٨ .

لكن الطفلة الصغيرة تنكره وترفض أن تذهب إليه رغم إلحاح الحضور من أعوان عليش وشماتتهم .

«وتجلت في الأعين نظرات اهتمام وشماتة ، وآمن سعيد بأن جلَد السجن ليس بالقسوة التي كان يظنها» ص ١٧ ؛ فيعتصر الألم قلبه ويلقي التبعة «على الأم ، بل هاتوا أمها ، كم أرغب أن تلتقي العينان كي أرى سراً من أسرار الجحيم » ص١٦. « أريد أن ألتقي نظرة من عينيك ، كي أحترم من الآن فصاعداً الخنفساء والعقرب والدودة ، سُحقاً لمن يطرب لأنغام امرأة » ص ١٤ ، خانته زوجته وأنكرته ابنته ، واستولى الصديق على الزوجة والطفلة والأموال المسروقة ، وأصبح للخائن أتباع يحتشدون حوله ، وانتهت تصفية الحساب بالتفاهم !

الباب الذى يطرقه «سعيد مهران » بعد ذلك بحثاً عن حل لمشكلته هو باب السماء أو الدين ، يرمز له المؤلف بالشيخ على الجنيدى الصوفى المعتزل بين الجبل والمدينة فى بيت ليس فيه باب مغلق ص٢١. خفق قلبه عند دخوله المسكن ، إذ طافت بذهنه ذكريات قديمة :

«طفولة وأحلام وحنان وأخيلة سماوية ! المهتزون بالأناشيد يملأون الحوش . والله في أعماق الصدور يتردد .انظر ، واسمع ، وافتح قلبك، هكذا كان يقول الأب » ص ٢١. الذى كان من مريدى الشيخ واعتاد أن يصطحب الغلام معه ليستمع إلى حلقات الذكر المباركة ! لكن المؤلف يصور الشيخ جنيدى «لاحظ أن أبا القاسم الجنيد واحد من كبار الصوفية فى تراثنا فالاسم له دلالة خاصة» عاجزاً عن حل مشكلة البطل عندما يلجأ إليه ، فموقفه سلبى يكتفى فيه بالتقريع تارة وبالتفوه تارة أخرى بكلمات تحمل معنى غير معناها الحقيقى !بل يصاب البطل بضرب من الإحباط عندما يرى الشيخ يتهمه هو نفسه بطريق غير مباشر ، بالعقوق الروحى ، أو الخيانة لمبادىء الدين ، فها هو سعيد يقول «أود أن أقول : اللهم ارض عني ..!» لكن الشيخ يجيب كالمترنم : « قالت المرأة السماوية : أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟! » أى أنك عاق للجانب الروحى فيك ، خائن للسماء ، فكيف تطلب الآن رضاها ؟! وهنا يقطع المؤلف الحوار بين سعيد والشيخ ليقدم ضرباً من التهكم يكشف فيه عما أصاب البطل من إحباط «وضج الخلاء فى الخارج بنهيق حمار ختم بحشرجة كالبكاء ، وغنى صوت لا حلاوة فيه « البخت والقسمة فين » كما ضبطه أبوه وهو يغنى «حزر فزر » فلكمه برحمة وقال له «أهذه أغنية مناسبة ونحن فى الطريق إلى الشيخ المبارك ؟» ص٢٦. والمرارة التى يستشعرها البطل نتيجة للإحباط واضحة ؛ فقد جاء يشكوا من

الخونة ، فإذا به يتهم هو نفسه بالخيانة ! وإذا بمصيره يُترك في مهب الريح بين يدى القـــدر أو « البخت والقـسـمـة !» ..وتلك «ألغـاز »لا يستطيع تفسيرها ! وأقصى ما يستطيع الشيخ أن يقدمه من حل أن يقول له فى تكرار واضح عبارة واحدة لا يغيرها في رده علي كل سؤال «توضأ واقرأ !» أى تطهر وابدأ من جديد ، وهي صيغة أقرب إلي الوعظ : تُب إلى الله واندم على ما فعلت ، وانفصل عن الماضى الملوث ، وابدأ من جديد . ويقابل المؤلف ببراعة بين هذه الصيغة ، وكلمات رؤوف علوان القديمة حين زيَّن له أن « يثور » وأعطاه المسدس قائلاً « تدرب واقرأ » !

ولذلك ينتهى هذا الفصل بأن يسأل سعيد نفسه عن طريق بديل : « ماذا كان يعجبك فى إنشاد المنشدين ؟! لما بدا لاح منار الهدى ، رأيت الهلال ووجه الحبيب !.. لكن الشمس لم تغرب بعد ، أمامى ليلة طويلة وحدى مع الحرية ، أو مع الشيخ الغائب فى السماء ، لكن هل من مأوى آخر ؟! » ص٣٢ .

أجل ! هناك باب لم يطرقه بعد : الثائر القديم ! أستاذه ومعلمه وأول من فلسف له السرقة «سرقْتَ ؟ هل امتدت يدك إلى السـرقة حقاً ؟ براڤو ، كى يتخفف المغتصبون من بعض ذنوبهم ، إنه عمل مشروع يا سعيد !» ص٦٢. « وذات مساء سألك سعيد ، ماذا يحتاج الفتى فى هذا الوطن ؟» ثم أجاب غير منتظر جوابك «إلى المسدس والكتاب ، المسدس يتكفل بالماضى ، والكتاب للمستقبل : تدرب واقرأ » ص٦٢ . ومن دفتر التليفون عرف مسكنه « يالها من ڤيلاً خالية من ثلاث جهات ، والجهة الرابعة حديقة مترامية !.. لكن كيف ؟وفى هذه المدة القصيرة ؟حتى اللصوص لا يحلمون بذلك !» ص٣٦. ويتضح أن « رؤوف علوان » تحول من ثائر إلى انتهازى اشترته صحيفة غنية

هى « الزهـرة » ، « والاسم له دلالة أيضـاً ؛ فـهـو اسم إلهـة الجـمـال والجنس عند الرومـان » رؤوف علوان الثـائر القـديم صـاحب الشعـارات الرنانة ، والكلمـات الملتـهبـة «الـشـعب .. السـرقـة .. النـار المقـدسـة .. الثورة .. الجوع .. العدالة المذهلة ..» ص١٢٤.

أصبح يكتب عن «موضة السيدات » ومكبرات الصوت ، ويرد علي شكوي زوجة مجهولة »! ص٣٤. هذا هو «رؤف علوان » الذي يقول في صـفاقـة :«يا عم سـعـيد ، زال تمـامـاً مـاكان ينغص علـينا جمـيعًا صـفـو الحياة ! ص ٤١. ويقول سـعـيد لنفسـه وهو يتأمله .. «أنت مـجنون إنْ تصـورت أنه يرحب بك من قلبـه . مـا هى إلا مـجـاملة بنت حـيـاء ، ولـن يلبث أن يتبخر هذا الحياء..!» ص ١٤ .

ويهـتـز سـعيد من أعـماقه ؛ فـخـيانة المبادئ شىء فظيع حـقّاً ! « كل خيانة تهـون إلا هذه ، يا للفراغ الـذى يلتهم الدنيـا ..!» ص٤١، هذا هـو رؤوف علوان الـحـقـيـقة الـعارية ،جـثـة عـفـنة لا يواريهـا الـتـراب ص ٤٧، ومنذ هذه الحظة يـتـحـول انتـقـام سـعـيد ليـتـجـه نحـو الأسـتـاذ والمعلم «تخـلـقنى ثم ترتـد ؟ تغـيـربكـل بسـاطة فكرك بـعـد أن تجـسـد فى شـخـصى ! كى أجد نفسى ضائعاً بلا قيمة ، وبلا أمل ؟! خيانة لئيمة لو اندك المقطم عليها دكاً ما شفيت نفسى » ص ٤٧ « ترُى أتقر بخيانتك، ولو بينك وبين نفسـك ، أم خـدعـتـهـا كـمـا تحاول خـداع الآخـرين ؟! ألا يستـيـقظ ضـمـيـرك ، ولو في الظلام ، أود أن أنفـذ إلى ذاتك .. لكنى لن أجـد إلا الـخـيـانة !» سـأجـد نبـويـة فى ثيـاب رؤوف ، أو رؤوف فى ثيـاب نبوية ، أو عليش مكانهمـا ، وســـتعترف لى الخيانة بأنها أسمج رذيلة فـوق الأرض !» ص٤٧، وهكذا أصـبـح رؤوف الذى يمثل خـيـانة المبـدأ: «الـخـائن الـرفـيع المـمـتـاز .. وهو أهـم ، في الواقع ، من علـيش وأخطر » ص٧٨. «أنت الخائن الأول .. فـلكى يكون للحيـاة معنى وللمـوت معنى

يجب أن أقتلك ، ولتكن آخر غضبة أطلقها على شر هذا العالم ، وكل راقد في القرافة يؤيدني ، ولأترك تفسير اللغز للشيخ علي الجنيدى» ص ١٢٥ .

وببراعة الفنان يجمع المؤلف خيوط هذه الخيانات جميعاً في الحلُم الذى يراه «سعيد مهران » وهو يحتاج إلى واحد من علماء النفس لتحليله ـ بحيث يكشف عن التقاء رائع بين « اللاشعور» الكامن فى أعماق البطل ، ومعطيات الشعور كما خبرها فى الحياة اليومية : حلم بأنه يجلد فى السجن رغم حسن سلوكه ، وصرخ بلا كبرياء .. ورأى سناء الصغيرة تنهال بالصوط على رؤوف علوان .. وسمع قرآن يتُلي فأيقن أن شخصاً قد مات .. ورأى نفسه فى سيارة مطاردة عاجزة عن الانطلاق السريع .

واضطر إلى إطلاق النار فى الجهات الأربع ، وبرز رؤوف من راديو السيارة فجأة وخطف منه المسدس ..عند ذلك هتف : اقتلنى إذا شئت لكن ابنتى بريئة ، لم تكن هى التى جلدتك بالصوط ، بل أمها بإيعاز من عليش . ثم اندس فى حلقة الذكر التى يتوسطها الشيخ الجنيدى كى يغيب عن أعين مطارديه ؛ فأنكره الشيخ وسأله مَنْ أنت ، وكيف وجدت بيننا ؟! فلما ذكَّره بنفسه طالبه الشيخ ببطاقته الشخصية ليتأكد أنه من الخاطئين ، فقدَّم له المسدس قائلا : ثمة قتيل وراء كل رصاصة ناقصة ، لكن الشيخ أصر على البطاقة ؛ لأن تعليمات الحكومة لا تتساهل فى ذلك ، فعجب سعيد مرة أخرى وتساءل عن معنى تدخل الحكومة فى المذهب ، فقال الشيخ : إن هذا كله تم بناء على اقتراح الأستاذ الكبير رؤوف علوان المرشح لوظيفة شيخ المشايخ فعجب سعيد وقال : « إن رؤوف خائن ، فرد الشيخ إنه لذلك رشح للوظيفة الخطيرة ، ووعد بتقديم تفسير جديد للقرآن الشريف ،

يتضمن كافة الاحتمالات التى يستفيد منها أى شخص فى الدنيا تبعاً لقدرته الشرائية ..إلخ .. إلخ » ص ٨١ ـ٨٣ . ويصور هذا الحلم كيف تجمعت ألوان الخيانة فى بؤرة واحدة ! فجلد سعيد رغم حسن سلوكه إشارة إلى قسوة المجتمع الذى دفع البطل إلى السرقة فكان لصاً ! والجانب النقى المتمثل فى سناء ينهال علي الخيانة بالصوط ، والقرآن الذى يُتلى رمز لموت جانب الضمير فيه بعد السرقة ، ومن ثم يطارد فى السيارة . لكن رؤوف يظهر من الراديو إشارة إلي سيطرته علي أجهزة الإعلام ! بل إن حلقات الذكر نفسها دخلت الخيانة ؛ إذ أصبح الدين أداة في يد الخونة يتلاعبون به ؛ ولهذا يقفز رؤوف علوان إلى وظيفة خطيرة هى مشيخة المشايخ ، ويعد بأن يقدم تفسيراً جديداً للقرآن يستفيد منه كل صاحب مصلحة ما دام فى استطاعته أن يدفع .. إلى آخر وقائع هذا الحلم العجيب الذى يرشح فيه سعيد مهران أميناً للصندوق في إدارة التفسير الجديدة !

ينهي المؤلف قصتة بفشل « سعيد مهران » في قتل « الخيانة» ، بل إنّ رصاصته الطائشة تصيب الأبرياء لا الخونة ، مما يزيد فى إحساسه بالمرارة ! أى هزيمة جنونية ، أى : جريمة بلا جدوى ! يطيش الرصاص الأعمى فيصيب الأبرياء ، ويعمى عن الأوغاد والسفلة ! ص ١٠٤ . وتحاصره الشرطة فى القبور ..«وإذا بالضوء الصارخ ينطفىء بغتة فيسود الظلام ، وإذا بالرصاص يسكت فيسود الصمت .. وأخيراً : لم يجد بد من الاستسلام ؛ فا ستسلم بلامبالاة ..!» ص١٧٤ .

لماذا لم ينتصر سعيد مهران ؟! واضح أنه « لص » ، ومهما يكن من أمر الأسباب التى دفعته إلى السرقة فهى فى النهاية جريمة ، ولا يمكن لنا أن نكافح جريمة بشعة « كالخيانة » بجريمة أقل منها هي« السرقة» فهو لص وهم كلاب !!

هذا نموذج من أعمال نجيب محفوظ الفنان العظيم ، ضمير أمته ووجدان شعبه - الذى حلل الخيانة تحليلاً رائعاً منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ، وكشف عن بشاعتها ، ووصف خيانة المبدأ بأنها رأس الخيانات جميعاً ، وأكثرها خطورة وأشدها ضراوة وبشاعة . فكيف نصفه اليوم بها ؟! أم هانت علينا أنفسنا ؛ فهالنا أن يظهر بيننا عظيم ؟! فإذا ظهر رحنا نبحث عن المبررات التى تجعلنا نقذف به إلى معسكر الأعداء ؛ لأنه يستحيل علينا أن نصدق أن يكون هذا العظيم واحداً منا ؟!

* * *

الرسم بالكلمات

كما لو أن الزميل الدكتور عبدالغفار مكاوي قد أراد عندما أصدر كتابه الجميل «قصيدة وصورة» «عالم المعرفة بالكويت عدد ١١٩» – أن يحقق للشاعر نزار قباني «أمنية في الخلاص» التي كان يحلم بها بعد أن سُدّت أمامه كل الطرق فقال :

كل الدروب أمامنا مسدودة وخلاصنا .. فى الرسم بالكلمات !

« والرسم بالكلمات » تعبير جميل عن تلاقى الفنون المختلفة وتعاونها :وربما كانت العلاقة بين الشعر والرسم ـ على وجه التحديد ـ من أكثر الموضوعات التي شغلت الشعراء والنقاد ،أكثر بكثير من العلاقة بين الشعر وسائر الفنون الأخرى ؛ فلا شك أن الرسم قد ألهمَ عدداً من الشعراء طائفة من أجمل قصائدهم ،مما يدل على أن الشعر قد استوحى الرسم أكثر مما استوحى غيره من الفنون . ومن هنا كان تعبير « الرسم بالكلمات » تصويراً دقيقاً للعلاقة الوثيقة بين «القصيدة والصورة» ! فكما لو كان الشاعر يعيد رسم اللوحة الفنية ، لكنه لا يستخدم الفرشاة هذه المرة ، بل يرسمها بالكلمات !حتى أنك لتقف فى بعض الأحيان مشدوهاً أمام جمال القصيدة ؛ فتسأل نفسك أيهما أكثر ابداعاً « قصيدة الشاعر » أم لوحة الفنان ؟ الإبداع الأصلى أم لوحة الخلق ؟!عبّر الشاعر الأسبانى المعاصر « روفائيل البرتى .R. Alberti » عن هذه العلاقة الوثيقة بين الرسم والكلمات ، أو القصيدة والصورة ـ عندما أصدر مجموعة كبيرة من أجمل قصائده ونشرها تحت عنوان « إلى الرسم .. قصائد عن اللون والخط» وقد اختار منها الكتور مكاوى قصيدة استلهم فيها الشاعر لوحة شهيرة عن مولد

ڤينوس ـ نختار لك منها هذه الأبيات الرقيقة العذبة التي تصور ربة الجمال فى الميثولوجيا القديمة وكأنها نسمة صافية

الـــرقـــــــــــــة رقــت روح حـــنـــــــان رقّـــت
فى بســمــة شــفــة سكبت لمســة فــرشـــاة تســحــر
وتــثــنــت فـــى ريــح هــبــت
وهــواء صـــــــــــاف لامــع من لوح مـــصـــقـــول ناصع
يـــتـــكـــثـــف ..

« ص١٥٧ »

ومن أجمل القصائد التي تصادفك فى هذا الكتاب الجميل تلك القصيدة التى جسّدت فيها الشاعرة «أناليزة بونجرت » لوحة عن اللاجئين ، وجعلت قصيدتها تحمل الاسم نفسه « اللاجئون»! عندما تقرأها لا تستطيع أن تبعد عن خاطرك صورة إخوة لنا فى فلسطين حرموا من وطنهم ، وضاقت بهم الأرض على اتساعها ، وكأنهم لا حقٌ لهم ـ كبقية خلق الله ـ فى المواطنة ، ولا فى «الحياة»! استمع إلى الشاعرة تصور آلامهم وعذابهم ، وكأن القصيدة قد كتبت من أجل اللاجئين الفلسطنين :

نتـــجـــول عـــبـــر الــزمن بـــــــــــلا وطـــــــــــن
فـى أى مكـان لا نجــــد الأمـن ! لا نشـبع حتى مـن ضوء الشـمس !
لأن العـــــالم قـــــد ضَّن علـينـا بمـــكــــان إلا فـــى الـــظـــل ..!

وتستمر القصيدة فتصور تصويراً رائعاً عذاب الوحدة والوحشة فتقول : « إن الناس يظنون أن جهنم هى عذاب النار ، مع أن جهنم

الحقيقية هي قسوة الوحدة ! جهنم في هذه الوحدة »!جهنم في هذة الدنيا هى برودة الثلج التى يشعر بها مَنْ يعيش وحيداً بلا مأوى ، ولا وطن ، لا يحس بدفء العلاقة ، ولا حرارة العاطفة . إن الخاصية الأساسية للإنسان ـ كما قال بلزاك بحق ـ أن يكون له رفيق ، حتى إذا كان مريضاً أو صحيحا ، خاطئاً أو عاجزاً فإنه فى حاجة إلى أنيس وإلى رفيق ؛ لأن الوحدة عذاب لا يحتمله إنسان :

مَنْ يحسب أن جهنم ... من لهب النار فحسب؟!

فجهنم من ثلج الوحدة ... والبرد يلف القلب..!

مَنْ يذكرنا ..؟ ... مَنْ يرحمنا ..؟!

مَنْ يتضرع ... ـ وهو المتخم ـ

لله ويسأل أن يعطيه خبز اليوم ... كفاف اليوم ؟

أنسيتم أيام المحنة ..؟! ... جوع البطن

وذل النفس ..؟! ... وجراح الأمس هل اندملت

جراح الأمس ؟!

ثم تخاطب القصيدة الأثرياء الذين ماتت ضمائرهم فتجاهلوا الحق المعلوم للسائل والمحروم :

عميت أعينكم عما يفزع أمن القلب،

وضمائركم قد غطتها

سحب الكذب على الجار

المسكين المتعب !

أعماكم رغد العيش ، فما أبصرتم جوع الجائع عن قرب ، وشبعتم حتى التخمة !

هل ذقتم يوما

أو جربتم ... طعم الحب ؟!

هل نملك إلا أن نضرع

فى كل صلاة

كى يغفر لكم الرب ..؟! ص ٢٢٦ـ ٢٦٨».

إن هذه اللوحة الجميلة التي رسمت فيها الشاعرة «صورة اللاجئين » بالكلمات بدلاً من الفرشاة التي رُسمت بها اللوحة الأصلية تؤكد ما قاله أحد الشعراء الأمريكيين من أن« العمل الفنى المثمر حقاً هو ذلك الذى يحتاج تفسيره إلى مائة عمل من جنس أدبي آخر ! «والعمل الذى يضم مجموعة مختارة من الصور والرسوم هو نواة مائة قصيدة » ! فالعمل الفنى الأصيل هو الذى يوحى بأكثر من عمل فنى آخر ؛ لأن الإبداع فى فن من الفنو ن لابد أن يدفع المنتجين في الفنون الأخرى إلى المزيد من الإبداع ؛ فقراءة القصيدة ، أو تأمل اللوحة هو نوع من إعادة خلقها ، وهكذا يكون التفاعل بين الفنون حافزاً علي المزيد من الإبداع ! من ذلك مارسمه الفنان « فرانز مارك Franz Marc » ولاسيما لوحته الشهيرة التى عنوانها « الصلح » ، وهى التى اتجه فيها نحو المزيد من التجريد ، وهو تجريد تكسوه مسحة صوفية ، وكونية تلفّه فى غلالة رمزية وشعرية ، وتبعده عن النزعة الشكلية والهندسية بقوة التعبير وعاطفته الكامنة . وقد استوحت الشاعرة الألمانية « إلزة لا سكر ـ شولر » رسم هذا الفنان عن «الصلح» ، لكن كيف ياتُرى رسمت الشاعرة الألمانية « الصلح » بكلمات ؟!

استمع إليها تقول :

سيسقط فى حِجرى نَجم هائل ..!

نريد الليلة أن نسهر سهراً ...

أن نتعبد بلغات .

قُدَّت من نغم القيثارة سراً ..

تعال الليلة نتصافى ،

وسيغمرنا الله بِنعَم ثَّرة،

قلبى مع قلبك

طفلان اشتاقا للراحة ..! فى حضن النوم الحلو المرهف،

تاقا للقبلات ،

فلِمَ تتردد، ولِمَ الحيرة ؟!

آه يا حبى ،

أفلا يتجاوز مع قلبك قلبى ،

أولا يصبغ دمُك الفاتر

خدى حُمرة؟!

تعال الليلة نتصالح،

لو نتعانق

لا متنع عنا الموت ،

وزالت شوكته المُرّة،

ولسقط النجم الهائل

في حجرِى ... مرة !! » ص٢٦٢-٢٦٣«

أرأيت صلُحاً أعذب من هذا الصلح ...؟!لقد حوّلت الشاعرة لوحة الفنان الأصلية إلى لحن موسيقى رائع ... استغفر الله ! بل لقد أبدعت اللوحة من جديد ، وأعادت خلقها عن طريق : الرسم بالكلمات !

* * *

حـــوار مع القلـــم .. !

فى الجـو غُبـار خـانق وحـر لا يطاق . أصـوات السـيـارات المجنونة تعوى في الطـريق العام ؛ فأشـعر بها تجـرى فى عروقى ! مـاذا حدث ؟! ولماذا أردد هـذا البـيت السـخـيف والكئـيب معـًا : « أنا أمشى .. أمـشى .. وكأنى داخل نعشى..!» بل وكأنى أحمل العالم فوق رأسى ..!

جلستُ إلى مكتبي لأكتب فـأفرغ ما بداخلى على الورق ، وأخرجتُ القلم وأخـذت أملأ جوفـه من مداد الحـبر ؛ حـتى شبع ، فسـالت قطرات من فمه على المكتب ..! ونشرت أمامى مجموعة من الصـحـائف البيضـاء وشـرعتُ في الكتـابة بهـمـة ونشـاط لا مـثيل لهـمـا حتى خُيِّل إلى أن الصـفحـة أوشكت على نهايتها في أقل من دقـيقة واحدة ! سـبحان الله ! ما هـذا السيل الدافق من الأفكار ؟! وكـأنك كيـركجـور آخر ، فتـردد ما قـال : « يبدو لـي أنني أملك قلمـاً مُجَّنـحا ! أجل : وحـتي لو كـان عندي عشـرة أقلام مـا كان في اسـتطاعتى أن أحـافظ على السـرعـة ، أو ألاحق الأفكار الغنيـة الـتى تتـدفق من تلقـاء نفـسـهـا ..!» اللهم لاحـسـد ! فـلا يحسـد المال سـوى صـاحبـه كمـا يقولـون ! توقـفت لحظة وعدتُ أقـرأ ما كتـبت ، ولشـدَّ ما أذهـلنى أن أجد الصـفـحة بيضـاء من غيـر سـوء! ليس فـيها كلمـة واحدة ممـا كتـبت !! عـجبت مما رأيـت ، وتذكرتُ فى الحـال نجـيب مـحـفـوظ، وهـو يصـف الأسـتـاذ « أنيس زكـى » فى « الثـرثرة » حـيث يسـهـر ليلة كـاملة ليكتب تقـريراً من خـمس وعـشـرين صـفـحـة يرفعـه إلى السـيد المدير العـام عن : «حركة الـوارد في الشـهر المـاضى..» ثم يرسل له المدير يسـتدعيه فـي الصـباح ليسـأله وهـو يقلب الصـفـحات بين يديه :

ـ أين التقرير يا أستاذ أنيس!

ـ هاهو أمامك يا سيدى ..!

ـ ليس أمامى سوى نصف صفحة فقط ، والباقى آثار سن القلم !

لقد فرغ القلم من المداد وأنت تكتب ، لكنك واصلت تحفر فى الورق بسن القلم وأنت لا تدرى ، ولا ترى شيئاً ! فعيناك تنظران إلي الداخل لا إلى الخارج كبقية خلق الله!

تذكرتُ هذا الموقف من « ثرثرة» نجيب محفوظ، وقلتُ في نفسى : لكن الأستاذ أنيس زكى كان مدمناً ،أما أنت فلا تتعاطى شيئاً ، ولا حتى لفافة تبغ .. فماذا حدث ؟! كيف فرغ القلم بهذه السرعة ؟!

أم أنه لم يكن قد امتلأ جيداً..؟! أخرجت المحبرة مرة أخرى ، وعدت من جديد أملأ جوف القلم بالمداد ، وتركته لحظة فى قلب المحبرة كيما «ينهل » منها ويرتوى على مهل ! ثم هممت بالكتابة ، وإذا بى أسمع صوتاً يقول :

ـ لا تحاول ! لن أكتب حرفاً واحداً !

ـ ماذا تقول ..؟!

ـ أقول ما سمعت ..!

ـ ومَنْ أنت حتى تقول ذلك ..؟!

ـ أنا القلم الذى تكتب به منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً دون أن تغيّره !

ـ ليس من حقك أن ترفض ، أو حتى أن تناقش ..!

ـ لطول العشرة ..؟!

ـ لا ! وإنما لأننى أمتلكك ؛ فيجب أن تنصاع لما أقول ،

وتكتب ما يُملى عليك !

- تتحدث كما لو كنتُ أنا عبداً عندك !

- بالطبع ، أنت عبد عندى !

- أرجو أن تتكلم كرجل مثقف ، أنت تعلم جيداً أننى لست عبداً عند أحد ، وإنما أنا مثلك ، أعمل بأجر !!

- أجر ..؟!

- نعم أجر.. وماذا فى ذلك؛ ؟! هل هناك عمل في الدنيا بغير أجر ، أو بلا مقابل ؟! أنت تعمل لقاء نقود تأخذها لتملأ بجزء منها معدتك وأشياء أخرى ! أما أنا فأكثر منك قناعة إذ أكتفى بأن يكون أجرى هو ملء جوفى حبراً ، وليست عندى أشياء أخرى ! بل إننى أعيد هذا الحبر ، بعد هضمه - كما تفعل أنت تماماً ، فأسطره علي الورق أفكاراً ومواقف !!

- افرض أن ما تقوله صحيح ! وها أنت قد تناولت أجرك مقدماً ، وامتلأ جوفك بالمداد ، فلِمَ التمرد والعصيان..؟!

- لأنك في حالة مزاجية سيئة ، ومن هنا فلن تستطيع أن تكتب شيئاً جيداً ..

- اسمع يا هذا : لقد نفذ صبرى ! ألا فلتعلم أنك مجرد آلهة صماء، أستطيع أن أدمرها أو أطرحها كما هى فى صندوق القمامة ، وآتى بغيرها !!

-ألم أقل إنك في حالة مزاجية سيئة ..! ما تقوله الآن هو خير دليل علي ذلك ! وكأنك تمر بنفس اللحظات التي مّر بها الإمام الغزالي عندما ضاقت نفسه بالكتابة وبجحود الناس ؛ فهمّ أن يحطّم مغزله وهو يقول:

غزلتُ لكم غزلاً دقيقاً ولم أجد لغزلى نساجاً ؛ فكسرتُ مغزلى!

ثم لو أنك طرحتني أرضاً ، وأتيت بقلم جديد كما تقول ، أتراه يحل لك مشكلتك ..؟! أتريد مني نفاقاً ..؟! ألست أول مَنْ يشعر بلهب النار في أعماقك، وبالمرجل يغلى في صدرك ، وأنت تردد مع كيركجور «اندلعت النيران فى شىءلا يمكن أن يحترق ، اندلعت داخل نفسى !!»

ـ وما دخلك أنت ..؟

ـ ما دخلي ..؟! أولستُ أنا الذى أكتب ..؟! أولستُ أنا الذى أقوم بالعمل كله ؛ فأدّون ما كان بذهنك من أفكار خبيئة لا يراها الناس ، فأجّسدها أنا وأكسوها لحماً ، ثم أعرضها عليهم فى ثوب مسطور ؟!

ـ هذا حق ! لكن افرض أننى كتبت شيئاً رديئاً : فكراً غثاً ، ومواقف سخيفة في عبارات ركيكة .. فمن منا سوف يلام ، أنا أم أنت ؟!

ـ أنا لاأقوم بعمل لا أرضاه لنفسي ، ولا أرضاه لك ! ألا تعلم أن شيخك «هيجل» كان أكثر الناس خوفاً من« الكلمة المطبوعة » وأنه كان ينصح المفكر بأن يتردد طويلاً قبل أن يدفع إلى المطبعة بأى عمل مكتوب ؟!

ـ كان هيجل يقول ذلك عن تردد « أفلاطون » في الكتابة، وما رواه بعض المؤرخين من أنه نقّح وعّدل من أبواب «جمهوريته» سبع مرات!

ـ لا! كان يقول ذلك كمبدأ عام للمفكر ، بل كنصيحة لأى كاتب : ألا يتسرع فى الكتابة وأن يلجأ إلي الروية وإعمال الذهن ، كما كان يقول إنه هو نفسه : اضطر إلى تنقيح كتابه فى المنطق ، لا سبع مرات ، بل سبعاً وسبعين مرة !!

ـ هذا خروج عن موضوعنا على كل حال !

ـ بل هو صُلب الموضوع ! فالقضية كلها أننا أصدقاء ، عاشرتنى أكثر بكثير مما عاشرت أى إنسان آخر على هذه الأرض ؛ فأنا أعرفك قبل أن يعرفك أولادك ، بل وقبل أن تكون لك أسرة .

– أرجوك ، لا تدخل فى موضوعات فرعية .. ماذا تريد أن تقول ؟!

– أريد أن أقول إننا أصدقاء..وكلمة « الصديق» مشتقة من «الصدق» ، فصديقك من صدقك وأخلص لك النصيحة .. ومن هنا جاء اعتراضى على أن تكتب شيئاً الآن ، ومن هنا أيضاً تجيىء نصيحتى إليك، والتى أود أن تكون لك مبدأ هادياً وهى : أن تمتنع عن الكتابة عندما تكون فى حالة نفسية سيئة ! لن تكتب شيئاً جديداً وأنت على هذه الحال !

ـ مع أن التوتر مطلوب للكاتب !

ـ نعم ، التوتر مطلوب للكاتب ،ولأى عمل جاد ؛ فالاسترخاء موت ، لكن أى توتر التوتر الخفيف الذى يدفع إلى اليقظة والنشاط ، لا التوتر الحاد الذى يكسر ! فإذا صحّت حكمة الحكيم الذى قال «إن الفشل الذى لا يكسرنى يقوّيني »! فإنه يصح ذلك القول ، بأن التوتر الذى لا يحطم الإنسان يساعده على التفكير المتيقظ ، وعلى إعمال الذهن ، وقدح الملكات ، لأنه إذا كان الاسترخاء التام يجلب النعاس ، فإن التوتر العنيف يجلب الدمار . إن النفس ، يا صديقى ، أقرب ما تكون إلى وتر القوس : لابد من شدها لكى تنطلق إلى هدفها ، لكن الشد العنيف من ناحية ، يمزقها والاسترخاء التام ، من ناحية أخرى ، يمنعها من الطيران ، والوضع الأمثل أن تكون مشدودة بمهارة الفارس المحنك ، بحيث يبدو عليها السكون ، مع أنها فى حقيقتها تختزن العزيمة ، حتى تجيء اللحظة المنا سبة فتطير إلى هدفها ، واللحظة المنا

سبة هى تلك الحركة الخفيفة تتحرك بها أصابع الفارس ؛ فينطلق السهم إلي مرماه . فإذا أردتَ أن تكون فارسًا في ميدان الكتابة فخذ« بالوضع الأمثل » للنفس!

- صدقت! وما العمل الآن ؟ !

- أن تذهب لتنام ، وتهدأ نفساً ، وأن تقول ما قاله أحد الفلاسفة : إنّ أجمل اللحظات عندى «عندما أطفىء النور وأجذب اللحاف على رأسى ، وأنظر إلى الحجرة برضا يفوق الوصف ، وطابت ليلتك من تحت اللحاف !!» لكن قبل أن تفعل ذلك أرجوك أن تضعنى أنا أيضاً فى غطائى لأنام فى ركن صغير فى درج مكتبك كما اعتدت كل ليلة ، لا سيما وأنك أرهقتنى هذه الليلة بالحوار !

- لك ذلك ، وهذا هو « لحافك » ، أقصد ... غطاؤك !!

وطابت ليلتك..!

* * *

فى عالم الفلسفة

١ ـ أنت فيلسوف...!

٢ ـ فكر الفكر

٣ ـ قال الفتى..!

٤ ـ تكلم حتى أراك .

٥ ـ الماركسية أفيون الشعوب .

٦ ـ أفكار وجودية .

٧ ـ أفكار أخرى وجودية .

٨ ـ العميان .. والفيل...!

٩ ـ التاريخ لا يعيد نفسه .

١٠ ـ لا جديد تحت الشمس .

١١ ـ ثلاثية النفس .

أنت فيلســـوف

كلا .. لستُ فيلسوفاً ، ولا علاقة لى بالفلسفة، بل أنا لا أفهم منها إلا أنها مرادف طبيعي للطلاسم والألغاز .. فأنا رجل علم أو تاريخ ،أو أفهم فى الرياضيات ، والأرقام ، والآلات الحا سبة ـ ولم أفكر يوماً أن أتصف بصفة التفلسف هذه .. فمن الخطأ أن يلقى القول علي عواهنه فيقال عنى إنى فيلسوف..!

هكذا أتصور الرد السريع ـ صريحاً أو ضمنياً ـ لكل من يطالع عنوان هذا المقال ، ولا تكون له علاقة «رسمية» بالفلسفة ، لكنى أعتقد أنه سوف يتفق معى فى النهاية أن لكل واحد منا فلسفته الخاصة التى يسير فى حياته على هداها ، ومن ثم فكل منا فيلسوف دون أنْ يَدرى ! والواقع أننا سوف نقول : إن هناك لونين من الفلسفة ، اللون الأول : هو فلسفة الفلاسفة ـ إن صَّح التعبير ـ أو الفلسفة المذهبية : كفلسفة أفلاطون ، وأرسطو ، وكانط ، وهيجل .. إلخ. ثم هناك لون آخر: هو ما يمكن أن نسميه بالفلسفة الخاصة ، أو الفلسفة الشخصية التى يُقصد بها مجموعة المعتقدات التى يؤمن بها شخص ما ، مطلقين كلمة معتقدات بأوسع معنى لها بحيث لا يفهم منها المعنى الدينى فقط ، وبهذا نستطيع أن نقول : إنّ لكل إنسان بالضرورة فلسفة ما ؛ إذ لايوجد شخص يستطيع أن يرتب حياته وأن ينظمها بدون مجموعة من المعتقدات .

وهذه المعتقدات هى إجابة عن أسئلة نُلقيها على أنفسنا بغير وعى فى كثير من الأحيان ؛ فنظفر بالجواب الذى ننظم به حياتنا ، ناسين أو متناسين السؤال . ومَنْ منا لم يسأل نفسه الأسئلة الآتية:

هل هذا الكون الذى نعيش فية عبارة عن مادة ميتة أو جامدة فحسب ، أم أنه يحتوى على عناصر أخرى لا مادية ..؟ أهو يخضع لقوانين آلية حتمية صارمة ، أم أنه يتضمن خطة وغرضاً وهدفاً معيناً ..؟ ما هى وجهة النظر التى يمكن أن نأخذ بها عن العالم ؟! هل عقلى الذى يفكر الآن ، ويتعجب ، ويدهش ، ويتخيل .. إلخ ، شىء مختلف عن المادة ، أم أنه مجرد مجموعة من الذرات ، أم هو وظيفة من وظائف الجسم فحسب؟!

إنى إنسان حى ..فما معنى الحياة ؟ وبعد زمن طال أو قصر سوف أموت .. فما معنى الموت ؟ وكيف يكون مصيرى بعد الموت .. إلى أين أذهب ..؟ وسوف أقوم فى الغد بأعمال كثيرة ، وسوف يكون من بينها أعمال خاطئة وأعمال صائبة ، فما الصواب وما الخطأ ؟ إنى أرى الناس من حولى يتسارعون فى سبيل الحصول على المال والمجد والشهرة ، فهل هذة الأمور هى القيم العليا ..؟ هل هذا أفضل وأثمن ما فى الحياة، أم أن هناك قيماً أخرى أسمى وأفضل : كالسلام والمحبة ، والإيمان ، والتواضع ، والعمل ، والتذوق الفنى ، والبحث العلمى ؟ وما هى القيم التى تعتبر أجدر من غيرها ويجب على أن آخذ بها ..؟ هل معنى هذه الأسئلة أننى أستطيع أن أسأل أى سؤال ؟ وهل من الممكن أن أجد إجابة عن الأسئلة التى أسألها ، أم أن هناك حدوداً تقف عندها معرفة الإنسان ..؟! وما هى حدود المعرفة البشرية..؟!

إنَّ العالم من حولي مليىء بالموضوعات ، سواء كانت طبيعية أو فنية .. بعض المنازل فى مدينتى جميلة ، وبعض مناظر الطبيعة: كالشروق ، أو الغروب ، أو الغابات .. إلخ جميل ، بينما هناك مناظر أخرى كثيرة قبيحة ، فما القبح وما الجمال ؟ وما الذى يجعل الجميل

جميلاً ..؟ ولماذا تهفو نفسى إليه ، وتنفر من القبح ، وتتقزز منه ؟! وما هو ذلك الذي نستمتع به حين نستمتع بقطعة موسيقية ، أو حين نتأمل لوحة فنية ، أو حين نزور متحفًا أو معبد أو آثاراً فنية ..؟ إنى معجب بغروب الشمس ، ومنظر القمر وسط السحاب ، وبالأزهار وأوراق الخريف ، وخرير الماء وانحدار الشلالات .. إلخ أكان من الممكن أن تكون الطبيعة جميلة لو لم تكن هناك عَينٌ ترى ، وأذن تسمع وذهن يقدر ..؟!

هل أنا حر فى أفعالى التى أقوم بها ، أم أن هناك قوة علُيا تفرض علىّ كيف أسلك وأتصرف ..؟ ولو كانت الثانية ، فكيف تحاسبنى على سلوكى ..؟! ولو كانت الأولى فما هى علاقة فعلى بالفعل الإلهى..؟ ما المقصود بالقضاء والقدر ؟ كيف أفسر المصادفة والأعمال والأحداث التى تظهر دون أن أعلم لها سببًا ..؟ هل الأسئلة التى طرحتها كلها لها معنى ؟! وهل لها إجابة ؟؟

والواقع أنه توجد لدينا جميعاً إجابات صريحة أو ضمنية عن هذه الأسئلة ، ومن هذه الإجابات تتكون الفلسفة التى يؤمن بها عادة هذا الشخص أو ذاك ، وبهذا المعنى نقول : إن فلان هذا له فلسفة خاصة ، لكن إذا كان لكل إنسان فلسفته الخاصة ، فإن هناك ثلاثة اختلافات بين هذة الفلسفة الخاصة وبين الفلسفة المذهبية ، أو فلسفة الفلاسفة كما سبق أن ذكرنا ، هى على النحو التالى :

الاختلاف الأول :

أن الفلسفات الخاصة أو الشخصية تُصاغ عادة في لغة بسيطة ،

أما الفلاسفة فهم يعبّرون عن أفكارهم من خلال مصطلحات فنية خاصة بهم . فأنت مثلاً قد تقول : مـن سَرَقْ (محفظتى) ؟! ومَنْ خدش سيارتى ؟! ومَنْ كسر الزجاج ؟ ومعنى ذلك أنك تفترض بهذه الأسئلة أن لكل شىء سبباً ، أما الفيلسوف فهو يعبّر عن هذا الافتراض نفسه بمصطلح فلسفى هو فكرة السببية Causalit y، وهذه المصطلحات الفنية هى الحاجز الأكبر الذى يقف حائلاً بين عامة الناس وبين الفلسفة .

الاختلاف الثانى :

هو أن الفلسفة الخاصة توجد فى معظم الأحيان بصورة ضمنية ، على حين أن الفيلسوف يجعل تفكيره صريحاً ظا هراً . ففي المثال السابق نجد أن الشخص يدهش حين تقول له : أنت تؤمن بفكرة السببية . أما الفيلسوف فهو عادة يقول صراحة ، إنه يؤمن بهذا المبدأ أو لا يؤمن به .

والا ختلاف الثالث :

هو أن المذاهب الفلسفية تنطوى على قدر كبير من الاتساق والتنظيم والترتيب يكاد يكون من المؤكد أن الآراء الشعبية أو الفلسفية الخاصة تفتقر إليه ، حتى أن كلمة مذهب System تعنى فى الوقت نفسه التنسيق والترتيب . أما الفلسفة الخاصة فهى توجد ـ فى الأعم الأغلب ـ مفككة مبعثرة متناقضة فى بعض الأحيان .

لكن هذه الاختلافات لا تنفى وجود صلة بين الاثنين تجيز لنا أن نطلق عليهما معاً اسم «الفلسفة» ، وهذه الصلة هى أنهما معاً عبارة عن أفكار أو وجهات نظر عن الكون ، وما فيه من ظواهر ، وعن الإنسان فى مسيره ومصيره وعن العلاقة بينهما .

ولو أنك رفضت هذا المقال جملة وتفصيلاً وقلتَ : لا شىء مما جاء فيه يستحق النظر ، بل ولا شىء فى الحياة كلها له معنى ، ولا شىء معقول .. فأنت فى هذه الحالة أيضا تتفلسف . وتعطينا وجهة نظر عن المقال ، وعن الحياة ، وعن الإ نسان ..إلخ بل إنك بذلك لتبرهن على صدق العبارة التى ذكرها أرسطو قديماً فى ضرورة الفلسفة حين قال:

« إن علينا أن نتفلسف إن كان ثمة ما يدعو إلى التفلسف ، فإذا لم تكن هناك حاجة إلى التفلسف ، وجب علينا أن نتفلسف ؛ لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له »

أى أنك يا صديقى فيلسوف ، طوعاً أو كرهاً ، وكيف يمكن لك أن تهرب من الفلسفة ، وهى في النهاية : أفكارك ، ومبادئك ، وآراؤك..؟!

* * *

فكـــــر الفكـــــر ..!

أتسمح لي يا صديقي القارئ أن نقوم معاً بنزهة نجوس خلالها حديقة الفلسفة : نتعرف على أزهارها وورودها ، ونقطف من ثمارها ما نتمني ونشتهي ؟! لا أخالك ترفض بعد أن استمرت صحبتنا الأسبوعية فترة طويلة تناهز السنوات الثلاث ! لكنى أتوقع أن يكون جوابك كما يلى : « لستُ أمانع فى السير معك حيثما تشاء ، وكيفما تريد ، لكنى لن أخطو خطوة واحدة قبل أن تشرح لى ما الذى تقصده «بفكر الفكر» هذا الذى اتخذته عنواناً لمقالك .. » ! أتراك قد أفلستَ من الحديث الواضح السهل البسيط ؛ فهربت لتجد ملاذك في الطلاسم والألغاز والمعميات ؟! إنْ لم توضّح لى هذا العنوان العجيب الغريب ، فأنا منكر عليك حديثك ، رافض معك الصحبة والطواف ..! » .

وهأنذا أجيبك إلى طلبك شريطة أن تفى بعد ذلك بوعدك:

- « فكر الفكر » يا صديقى ، مصطلح فلسفي قديم استخدمه أرسطو فى الفلسفة اليونانية ، بمعنى لا نريد أن ندخل فيه الآن ؛ لأننى أريد أن أفهم هذا المطلح على نحو ما فهمه الفيلسوف الألمانى العظيم هيجل «١٧٧٠-١٨٣١» حين جعله مرادفاً للفلسفة، كما أن الفلسفة عند كثير غيره هى « فكر الفكر» أو هي «فكر ثان » ، أو « فكر لاحق » - وما دامت الفلسفة فكراً ثانياً ، فلابد أن يكون هناك « فكر أول» . وما دام هناك فكر لاحق ، فلابد أن يكون هناك فكر سابق - فما هو هذا الفكر الأول أو السابق ؟!

علينا أن نعود إلى حياتنا اليومية - المصدر الرئيسي للتفلسف - لنجد فيها مجالين أساسيين: أما المجال الأول فهو مستوى الحياة التى

يحياها رجل الشارع ، «وأنا أقصد به الإنسان العادى» ـ أما المجال الثانى فهو : ميدان رجل العلم . المجال الأول هو حياتنا اليومية ، إذ ترانا نعيش علي صلة مباشرة بالأشياء المادية من حولنا ، نلتقي بها لقاء مباشراً : فأنا أرى بعيني هذه الشجرة وهذا المنزل ، وألمس بيدى سطح الأشياء ، وأسمع بأذنى صوت الطيور ، وأنغام الموسيقى ، وأشم بأنفى الروائح المختلفة .. إلخ ولهذا فإننا كثيراً ما نقول إن هذا المجال المباشر هو «مجال الكيف» – أعنى وقع الأشياء علي حواس الإنسان .. وعلي هذا المستوى تجرى شؤون الحياة اليومية من بيع ، وشراء ، وزراعة وصناعة .. فهذه كلها أشياء تتم بالاتصال المباشر بين الإنسان من جهة ، وما عداه من جهة أخرى .

وواضح أنَّ ما يحصل عليه الإنسان في هذة الحالة هو دائما أشياء بعينها ، أعنى مفردات جزئية تشغل مكاناً معيناً وزماناً محدوداً : «هذه الورقة التي أكتب عليها الموجودة هنا والآن !» غير أن الإنسان لا يقف عند هذا المجال وحده ، أعني : أنه لا يكتفي بالجزئيات التي يجدها في حياته اليومية ، بل يحدث أن يتخصص بين الناس نفر يحاول تجاوز هذه المعرفة المباشرة ، أو هذا السطح الظاهر للأشياء ؛ ليعثروا علي «جوهرها» أو «ماهيتها» في شكل قوانين تتحكم فيها ، أعني : أن يحاول الوصول إلى القوانين العامة التى تضبط هذه المفردات أو الجزئيات ، وهؤلاء هم «العلماء» . كل عالم يقتطع لنفسه شريحة من الكون يتفرغ للبحث فيها عن القوانيين التي تتحكم في ظواهرها ، فإذا نزل علينا المطر ذات يوم وعشناه وسقينا منه الزرع والضرع ، وروينا أنفسنا من شرابه الطهور ـ كنا مانزال في المجال الأول الذى تدرك فيه الوقائع والأحداث إدراكاً مباشراً . أما إذا تفرغ واحد منا لبحث هذه الظاهرة لعلّه يجد لنا قوانينها الطبيعية ، كان ذلك (الواحد)عالماً

فى مـيـدان معين من مـيـادين الـتـخـصـص ، وأنت تراه ينتـقل ، في هـذه الـحالة من مجال « الكيف » إلى مـجال «الكم » . وهـذان مـجالان أساسـيان في حـياتنا ، ومـسـتويان من الإدراك مـخـتلفان : الأول مـبـاشـر، يعـرف الأشياء كـما هـي ، ويلتقي بها كـأفراد جزئية لقـاءً مباشـراً يشـاركنا فيه الـحيوان . أمـا الـثـاني فـهو غـيـر مبا شـر يريد أن يغـوص وراء الأشـيـاء ليـدرك الـخـبـيء منـهـا ، ومـا كـان مـسـتـتـراً أمـام النظرة الأولي . هـذه المنضـدة التي أكـتب عليـهـا جسم صُـلب جامـد سـاكن ثابت .. إلخ أمـام الإنسـان الـعـادى ، لكنها أمام الـعـالم ـ مجمـوعة من الذرات التي لا تكف عن الـحركة والدوران لما فيها من كهارب . فقد يقف اثنان مـن البشـر أمام ظاهـرة واحـدة ، وينظر كل منهـمـا إليـهـا من مـجـال مـخـتلف ، ومن مسـتوى إدراك مبـاين للآخـر ، خذ مـثلاً منظر خادمـة وهـي تغلـى الماء ـ موقف تمر به عشـرات المرات ، لـكنها تكـتفى بالـوقوف عند هـذا المستوى المباشـر من الإدراك ،، الذى لا يـجعل معرفتـها علمية . أمـا «العـالم» فإنه يغلي الماء نعم ، لـكنه يجـاوز الإدراك المباشــر عندمـا يسـعي إلي البـحث عن قـانون عـام ينطبق علـي كل حـالـة يغلي فـيـهـا الماء أينـمـا وقـعت الظاهـرة، وفى أى وقت حدثت ، ومـن هـنا كانت الصيغة التى ينتهي إليـها وهـي : « الماء » يغـلى فى درجـة حـرارة ١٠٠ » هـي وحـدهـا التى تجـعـله عالماً . وعلينا أن نلاحظ أن الاختلاف بين هـذين المجالين هـو اختلاف فى المنهج أو الـطريقـة لا فـى الموضـوع ، فـالموضـوع واحــد وهـو «الأشـيـاء المادية» ؛ فـرجل الشـارع «يفكر» ، ويجـعـل مـوضـوع تفكيـره الـجـزئيـة الواحدة ، والعالم « يفكر» ، ويجعل موضـوع تفكيره الـجزئيات الكثيرة التي يسـتخلص منها قانوناً عامـاً ، لـكنهما معـاً يفكران في أشياء مـادية ، سـواء كـانت مفـردات جزئيـة : كـهـذه الشـجرة أو تـلك الـوردة كما يـفعل الإنسـان الـعـادى ، أو مـفـرد ات الـشـجـر جـمـيـعـاً كـمـا يـفعل عـالـم الـنبات .

لكن هناك رجلاً ثالثاً لا يجعل موضوع تفكيره « الأشياء المادية » بل الأفكار والتصورات ـ فهو لا يفكر في الشجرة كما يفعل الرجل العادى ، وإنما يفكر في فكر الشجرة التي كونها الإنسان في حياته اليوميه ، أعني أن الرجل لا يفكر في شيء مادى ، لكنه يفكر فى «فكر» ـ وهذا هو : الفيلسوف ، وتلك هى الفلسفة التى لا يكون موضوعها شيئاً مادياً أبداً بل فكر باستمرار ، سواء جعلت مجالها حياة الناس اليومية ، أو موضوعات العلم بصفة عامة.

وعلى ذلك يكون تفكير الناس فى حياتهم اليومية هو «الفكر الأول» وفكر الفيلسوف عندما يدرسه هو « الفكر الثاني » أو الفكر الاحق . أو يكون فكر العالم هو « الفكر الأول » وفكر الفيلسوف هو الفكر الثانى وهكذا . الإنسان العادى يلتقى فى حياتة بالاشياء الجزئية ويكون أفكاراً وتصورات ، ثم يأتى الفيلسوف ليجعل موضوعة هذه الأفكار والتصورات ، ويتساءل مثلا : هل يمكن أن يكون لهذة التصورات درجات من العمومية والشمول بحيث يكون بعضها تحت بعض ويكون بعضها أعم من غيره؟! أيمكن أن تسلك فى سلسلة واحدة ؟! هل يضاد بعضها بعضاً ، وهل يناقض بعضها بعضاً ؟! أيستخدمها الناس بوضوح كاف وعن وعى وفهم لمعناها .. ؟ إلخ ويكون الرجل العادى أيضاً معتقدات خاصة ومبادىء للسلوك ، ثم يأتى الفيلسوف ليجعل من هذة المعتقدات والمعارف والمبادىء وهي كلها مجموعة من الأفكار ـ موضوعا لتفكيره ليستخرج أكثرها عمومية وشمولاً ، ويبرز للناس المبادىء الأولى التى يتخذون منها محاور لسلوكهم وحياتهم ... فالفلسفة هنا تحفر وراء الأفكار اليومية لتجد وراءها المبادىء العامة . ولهذا فقد كان سقراط يجعل شغله الشاغل العودة من الموقف الجزئى : كشجاعة فلان أو تقواه او عدالته ، إلى

معنى «التقوى» أو «الشجاعة» أو العدالة بصفة عامة ، وقل مثل ذلك فى ميدان العلوم : فما الذى نقصده حين نتحدث عن فلسفة العلم ؟! هل تقصد أن الفيلسوف يشارك العالِم ويزاحمه فى ميدان بحثه ؟! كلا لكننا نقصد أن الفيلسوف قد يجعل موضوع تفكيره «فكر العالم» نفسه ؛ فيتساءل : مالذى يفعله عالم النبات أو عالم الطبيعه أو الكيمياء عندما يدرس ظواهره ليصل الى قوانين ؟! ما هي طريقتهم في التفكير؟ ويستخلص فى النهاية طريقة تفكير العالم ، ويُسمى هذا الضرب «بفلسفة العلم» ، لكنة لا يكتفى بذلك خصوصا في ميدان العلوم الإنسانية، وإنما قد يحاول أن يضع نظرية تفسير العلم ، كما هي الحال فى فلسفة التاريخ أو فلسفة السياسة، أو اللغة .. إلخ ، لكن هنا أيضًا تظل الفلسفة هي« فكر الفكر » ! ففى التاريخ مثلاً هناك المؤرخ الذى يجعل موضوع تفكيره الأحداث والوقائع والوثائق والسجلات والآثار .. إلخ ، ويستخلص منها فكراً يربط فيه بين الأحداث و يجعلها سلسلة متصلة المعالم من تاريخ العالم فى عصر ما أو تاريخ بلد من البلدان . ثم يأتي الفيلسوف لا ليعيد دراسة الوقائع والوثائق والآثار ، وإنما ليدرس فكر المؤرخ ويحفر وراءه ، لعله يقع علي المبدأ الذى على اساسة حدثت الأحداث التي رواها ، كأن يقول مثلاً: إن الأساسى الكامن وراء أحداث التاريخ هو عقل كلى يسير الأحداث ويوجهها نحو غاية يريدها ، أو يقول : إن ذلك الأساس هو ما يحدث بين طبقات المجتمع من صراع ، أو: إن التاريخ هو سير البشرية إلى الله ، فمدنية الإنسان ليست سوى تمهيد لمدينة اللة !وليس ذلك فكراً تاريخيًا ، بل هو فكر عن الفكر التاريخي ، أو هو « فلسفة للتاريخ » أيعني ذلك أن الفلسفة لا يمكن أن يكون لها وجود إلابعد أن يكون هناك ألوان من النشاط بين الناس فى المجتمع ؟ نعم! فهى تظهر

دائماً متأخرة وهذا هو المعني الذى قصد إلية هيجل فى عبارته الشهيرة « إن بومة منيرفا minerva لا تبدأ فى الطيران إلا بعد أن يرخى الليل سدوله » ! وهو يرمز للفلسفة ببومة منيرفا إلهة الحكمة عند الرومان وهي فكرة سليمة تماماً ؛ إذ كيف يمكن أن تكون هناك فلسفة للتاريخ قبل أن يظهر التاريخ ؟! وكيف يمكن أن تكون هناك فلسفة للسياسة والقانون قبل أن تظهر النظم السياسية فى المجتمعات ؟! وكيف يمكن أن تكون هناك فلسفة للغة أو العلم قبل أن يظهر أى منهما ؟! بل كيف يمكن أن تظهر فلسفة للحياة ومثلها العليا قبل أن تدب الحياة والمعاملات بين الناس ؟! كلا! لابد أن يظهر الفكر الأول ثم يبدأ الفكر الثانى أو الفلسفة فى الظهور .

ذلك هو «فكر الفكر» ياصديقى القارىء ، ها قد أجبتك إلى طلبك ، فهل تفى بوعدك فنقوم معاً بنزهة في حديقة الفلسفة : نقطف من هنا زهرة ومن هناك ريحانة أو يا سمينة ؟!

***

قــــال الفـتـــى ..!

اعتاد الفتى أن يبقى صامتًا طوال الدرس ، لا يسأل ولا يعترض ، لكن ما أن تنتهى المحاضرة حتى يهرول مسرعاً ليلحق بى خارج المبنى ويغمرنى بسيل من أسئلة ؟ وقد يطول الحوار بيننا فى الهواء الطلق فترة ليست بالقصيرة ! وكثيراً ما حاولت أن أستفسر منة عن سبب صمتة فى قاعة الدرس . لِم لا تسأل فى المحاضرة لعل غيرك يستفيد من سؤالك؟! .

فيبتسم ولا يجيب ! . ولم أستطع أن أعلل لنفسي هذه الظاهرة : أهو الخجل ؟! ربما..! أهو الخوف من وجود الجنس الآخر ؟! ربما..! أهي تربية الشرق التي تجعل الفكر يسير في اتجاه واحد من أعلى إلى أسفل ، من الأب إلى الابن ، أو من المعلم إلى التلميذ فيكون التعليم تلقيناً ، ولايرتد الفكر مرة أخري ليكون حواراً ؟! ربما..!

كنا قد انتهينا من الحديث فى محاضرة اليوم عن التفكير الفلسفى: خصائصه، وخطواته، عندما أسرع الفتي ليلحق بي ، كالعادة، خارج المبنى ويستوقفنى هناك ليطرح أ سئلتة .

قال الفتى : استوعبت جيداً ما قلته ، وعرفت أن أخص خصائص التفكير الفلسفي ذلك الموقف الرافض أو السلب الذي أطلق علية «ديكارت R.Descartes «١٥٩٦- ١٦٥٠» اسم الشك المنهجى » أى الذى يبدأ فيه المفكر شاكا ، وينتهى منه إلي اليقين - وهو على خلاف الشك المطلق أو الهدام الذى يبدأ فية المنكر شاكاً وينتهى شاكاً دون أن تكون لة ثمار نافعة - وعرفت أيضاً أن الشك المنهجي الذى هو الخطوة الأولى فى التفكير الفلسفى موجود فى تراثنا عند فلا سفة الإسلام حتى لنجده بوضوح ناصع فى كتاب الإمام الغزالي « المنقذ من الضلال»

الذى يعقد الباحثون مقارنات كثيرة بينه وبين ديكارت في قواعد منهجة لكنى أريد أن أستوضحك أمرين : الأول : أيجوز الشك في جميع الأحوال أم أن هناك شروطاً معينة ينبغي توافرها في بعض الوان الشك ؟! بمعني آخر: أيصدق ذلك على ما يقال أحيانا من أن فلان من الناس يشك فى سلوك زوجتة ؟! أم أن هناك ضروباً من الضوابط والقيود لمثل هذا الشك ..؟!

أما الأمر الثانى فهو : أيكون الشك أو السلب أو الرفض خاصية للتفكير الفلسفي وحده أم أنه يمكن أن ينسحب إلى مجالات أخرى غير الفلسفة ؟!

وأجبت الفتى: أما الأمر الأول : فلا علاقة لة بموضوعنا لأن شك الرجل فى سلوك زوجتة هو شك أخلاقى تمامًا ، كما تشك الشرطة وترتاب فى سلوك فلان وأنه يتآمر مع عصبة من أصدقائه لسرقة مصرف ! وما نتحدث عنه الآن هو شك عقلى: شك ينصب على مجال الفكر وحده .

ـ اما الأمر الثانى فجوابه : أن الشك خاصية لكل فكر منتج ومبدع، لأن الشك يدعوك إلى تكوين شخصية مستقلة تنفصل بها عن سلطان الماضى الذى هو بمثابة السيطرة التى يفرضها الموتى على الأحياء! ولعلك تعرف أن كلمة «شاك» كانت تطلق عند اليونان القدماء على كل من ينظر بإمعان ، ومن يفحص باهتمام قبل أن يصدر حكمًا على شيء ما ، أو قبل أن يتخذ قراراً في أمرٍ ما ، فالإنسان الشاك هو الذى يواصل البحث والتحرى !!

وقال الفتى: أيعنى ذلك أن الشك يمكن أن يوجد فى مجالات أخرى غير مجال التفلسف ؟!

ـ نعم ، بل لابد أن يوجد في أى مجال يكون فيه إبداع ؛ لان الإبداع

اتصـــال يأتـى بجـديد ، لقـد ذهب بعـض علمـاء النفس إلـى أن منشــأ العبقـرية يكمن فى الصـراع الذى تتـعرض له الشـخصـيـة بين أهدافها الخـاصة ، والهدف المشـترك للجـماعة : ألا تراهم يـعرّفـون الإبداع بأنه تصـدع فى الارتبـاط بين « الأنا » و « الـنحن » أى : فى ارتبـاط الفـرد والجماعة ،أو هـو كسر فى استـمـرار الحياة الروتنية الرتيبة التى يحياها الفرد، والوقوف منها مـوقف الشك ثم الرفض الذى يجعله يبدع جديداً يحل محل القديم ! .

وكيف يمكن للمـصلح أن يقوم بدور فعال إذا كـان سلوكه وتكوينه مجـرد استـمرار لما يسـير عليه مـجتمعـه ؟! إذا كان مجـرد «نسـخة» مما هـو قائم فماذا يعنى الإصلاح والتجديد ؟!

ـ قال الفتى: أيفسر ذلك انعدام الإبـداع فى مجتمعنا العربى الآن ؟! لكن مـاذا تقول فى أمـر العقـول العـربية المبـدعة التى هاجـرت إلى أوربا وأمـريكا فكانت هناك ملء السمع والبصر ؟!

أما الشطر الأول فـالجواب عنه بالإيجاب ، ذلك لأنـنا لا نعوّد الطفل منذ صـغـره أن يقـول رأيه وأن يرفض : أن يـقول لا ، نـحن نربيـه على عقلية العبـيد : أن يقـول باستـمـرار ،نعم ! حتى وُصِـفْنا بحق بأننا بلاد السـمع والطاعـة، ولقـد نصح أحـد كـتابنـا المواطن العـربى فى كل مكان بقوله: « إذا مـا سُئِلْتَ : مـصرياً كنت أم عـراقياً أم خـليجـياً أم سـورياً ،أم مـغـربيًا .. إلخ إلخ .. من أى بـلاد الله أنت ؟! فـلا تجـهـد قـريحـتك فى التـذكـر، وأجب مـن فـورك : مــحـســوبكم من بلاد الســمـع والطاعــة!! فـالسـمع والطاعـة هما القـدر الذى يسـتـعبدنا ويصـوغ كل تصـرفـاتنا ويحـدد نوع حـيـاتنا وسلوكنا !! وتـربيـة السـمـع والطاعــة لا يمكن أن تخلق «مبدعاً» لأن الإبداع رفض وانفصـال لا سمع فيه ولا طاعه! .

أما الشق الثـانى من السؤال فهـو لا يعنى إلا أن العقل العـربى قادر

على الإبداع عندما يجد التربية المناسبة والمناخ الصالح، عندما تتاح له الفرصة أن يتربى على الرفض وينفطم على الشك ، أى : النظر بإمعان قبل أن يعتنق فكرة أو أن يتخذ قراراً .

قال الفتى: أيعنى ذلك أن الشك يمكن أن يمتد ليشمل كل شىء ، أم أن هناك حقائق لا يجوز الشك فيها ؟!

قلت : إن الشك هو الطريق المؤدى إلى الحقائق ، وهو المنهج الذى يثبت اليقين ويرسخه ، ويمكن أن أقول لك إن حجة الإ سلام «الإمام الغزالى» أخذ يشك فى كل شىء وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، لاسيما فى معتقداته المؤروثه ، ولقد كان هذا الشك هو أول دافع له إلى النظر العقلى الحر، ثم إلى يقين ما بعده يقين ، ولقد ترك لنا تجربته هذه فى كتابه « ميزان العمل » وهو يصفها هناك علي النحو التالى «لو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتندب للطلب فناهيك به نفعًا ، إذ الشكوك هى الموصلة إلى الحق . فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة والضلال ، ولا خلاص للإ نسان إلا فى الاستقلال» وهذا الشك المنهجى الذى دعا إليه الغزالى إنما كان ثمرة مطالعته لكتب الفلسفة !

– لاتخش على الحقيقة يا بنى من الضياع ، فسوف تنكشف وتبقى قائمة باستمرار ! يُحْكَى أن حريقًا شب فى منزل الفيلسوف الألمانى المعاصر «ادموند هوسرل» «١٨٥٩–١٩٣٨» E.Hussrel فألتهمت النيران عدداً غير قليل من مخطوطات الفيلسوف ، وجاء بعض أصدقائه المقربين يعزونه عن هذه الخسارة الفادحة ، فما كان منه سوى أن أجابهم بقوله: « إن شيئاً لم يضع : إنها الحقيقة ، والحقيقة لابد دائمًا أن تنكشف يوماً ما !! » الحقيقة لا تضيع ولا تتأثر بالشك والبحث والتحرى ، وإنما ما يهتز حقا هى الأفكار الساذجة الهشة التى لاتشكل أى قدر من الحقيقة !

الحقيقة لا تخشى الشك ولا تهاب النقاش ، أيمكن لك أن تخشى أن يتشكك أحد فى أن العشرة هى ضعف الخمسة ؟! له أن يتشكك كما يشاء فسوف تظل الحقيقة راسخة كما هى ! إن فائدة الشك الكبرى أنه يزيل الأباطيل ويكشف الأفكار الزائفة التى ترتدى ثوب الحقائق وهى ليست كذلك !!

قال الفتى : إنى يا سيدى أشعر كما لو أن عالماً فسيحًا ينفتح أمامى!! وماذا أيضاً من خصائص التفلسف ؟!

قلت : التفلسف «تواضع » لأنه تساؤل : والتساؤل المستمر شوق إلى المعرفة ، وإعلان عن نسبية المعارف التى وصلنا إليها حتى الآن ، إنه اعتراف بالقدر المحدود من العلم الذى حصلناه، إنه شعور عميق بالأبعاد اللانهائية للمعرفة التى لم نسبر أغوارها بعد !

ـ أما « اللاتفلسف »! أما من لا يشك وبالتالى لم يسأل ، فهو إنسان على قدر كبير جداً من الغرور ، لأنه بذلك يدعى كذبا أنه قد أحاط بكل شىء علمًا ! وأين هى تلك الأسئلة التى يمكن أن يطرحها فتنكشف له ـ لاسمح الله ـ معلومات جديدة لم يكن يعرفها ؟! اعلم يابنى ، أنه كلما قل حظ المرء من الذكاء بدا له الوجود أقل غموضاً ،إن الإنسان الجاهل هو الذى يشعر أنه ليس ثمة ما يدعوا إلى طرح السؤال

ـ التفلسف تحضُّر وتقدُّم ، لأنه تساؤل ، والتساؤل إدراك وفحص لما هو قائم ، ومحاوله لتحسينه ، والبحث عن أفضل السبل لتطويره وإصلاح مابه من نقص وقصور ؛ ولهذا لا توجد الفلسفة إلا فى الدول المتقدمة وحدها !!

أما انعدام السؤال فهو تخلف لأن الإنسان المتخلف هو الذى يجد كل شىء واضحًا وبسيطاً لا يحتاج إلى سؤال ولا إلى بحث ولا

استفسار ! وهو بذلك يلغى كل التفكير ! ولهذا أيضاً يستحيل أن تجد أى قدر من التفلسف فى مجتمع متخلف !

التفلسف حياة ؛ لأن طرح السؤال إعلان مستمر ، بأن صاحبه مازال حيًا ، مازال يواجة مشاكل الحياة اليومية ويحاول حلها ، أما اللاسؤال فهو موت ؛ لأن الموتى وحدهم لا يسألون عن شىء ولا يتعجبون من شىء !!

من لا يسأل ولا يستفسر ولا يسمح للهواء الطلق أن يدخل نوافذ عقله حتى تنعش أفكاره وتتجدد وتتنفس وتقوى ـ هذا الشخص فى الفلسفة Dogmatist ، وهو مصطلح عسير التعريب ؛ فقد يقال إنه إيقاني أو اعتقادى او دجماطيقى ـ إلخ ، لكن هناك لفظاً عربياً صحيحاً ، وإن كان يستخدم أحيانا استخداماً عامياً ـ وهو أن تقول إن فلان من الناس « قُفل» ! وهذا فى تصورى هو المعنى الدقيق لهذه الكلمة ! إنه شخص قَفل على نفسه وأغلق على أفكارة كل منافذ الهواء ، وعاملها على أنها معتقدات لا تمس ولا يجوز أن تناقش ! أذكر زميلاً من هذا النوع كان يقول لى ونحن طلاب بالجامعة « اشرح لى نظرية التطور لداروين وأنا أنقدها وأفندها لك !! إنه إنسان دجماطيقي Dogmatist اعتقادى يقطع بصحة كذا وكذا بغير برهان سوى أنه لم يؤمن بها ! ويحكم مقدماً علي الأفكار التى يظن أنها تخالفه بالخطأ والبطلان حتى قبل أن يعرف عنها شىء ، ولهذا قيل إن من صفات الدجماطيقية ايضاً الغرور والغطرسة

فقال الفتي : اللهم الهمنا روح التفلسف المتواضعة ، وجنبنا ما فى الدجماطيقية من غرور وغطرسة! .

تكلم .... حتى أراك !

كان سقراط يحاور تلاميذه كالمعتاد فى موضوع من موضوعات الأخلاق التى ملكت علية فكره ، وطال النقاش بين الأستاذ والتلاميذ ، بينما جلس إلى جوار الفيلسوف الكبير رجل لايعرفه ، ظل صامتاً والحوار سجال لايشترك فيما يدور من حديث ، ولا يعلق علي ما يجرى من نقاش ..! وفجأة التفت إليه سقراط يقول غاضباً : « ما بالك تجلس هكذا صامتًا ..؟! تكلم .. حتي أراك.. »! قرأت هذه القصة الطريفة ، ورحتُ أسأل نفسى عن مغزى ذلك السؤال السقراطى الغريب : ما بالك تجلس هكذا تكلم حتى أراك ؟! » ماذا يريد فيلسوف أثينا الأشهر بهذه العبارة ..؟ إن الرجل يجلس إلى جواره ، وهو يراه ببصره ، ويحسه ببقية حواسه ، فماذا يريد غير ذلك ..؟ وما الذى يرغب فى معرفته أكثر من ذلك ؟! وماذا تبقَّى من الرجل مجهولاً ؟!!

بقى الجانب المهم : جوهره ! إنَّ سقراط يريد أن يعرف ماهيته ، (بلغة الفلسفة) أعنى : من هو ..؟ وتلك معرفة يستحيل أن تظهر إلا إذا تكلم ؛ لأن الكلام تعبير عن الفكر ، والفكر ماهية الإنسان ، واللغة هى الوعاء الذى يُصب فيه التفكير ؛ فهو ، إذن ، يريد أن يعرف كيف يفكر هذا الرجل ، وأين يضع تفكيره بين أنواع التفكير الكثيرة . ذلك لأنه يصعب عليك أن تحكم على إنسان ما إلا بناء على تفكيره ، ويصعب أن تعرف كيف يفكر إلا إذا تكلم ، أعنى : حين يضع تفكيره فى إطار لغوى . إنك لا تستطيع أن تحكم على الناس بمظهرهم الخارجى ، فقد يعجبك الرجل من الخارج ، فإذا ما تحدث سقط من نظرك ، وعجبت كيف يمكن لكل هذه الأناقة أن تخفى وراءها كل هذا

الغثاء ! ولقد ذكَّرتني قصة سقراط بقصة مماثلة روها أحد مؤرخي الفلسفة عن الفيلسوف الألماني المعاصر « ماكس شيلر» MaScheler «١٨٧٤ – ١٩٢٨ » – فيلسوف القيم الشهيرة : « كان شيلر يقيم ندوة فلسفية يناقش فيها تلاميذه حول مشكلات فلسفية كثيرة : القيم ، الفكر ، الوجود ... إلخ ، وكان الجميع يجدون لذة كبرى فى مطارحته الآراء ، ومناقشته الأفكار ، بينما بقى طالب واحد لا ينطق بكلمة ، ولا يبدى أية ملاحظة، وأوشك العام الدراسى أن ينتهى ؛ فأراد «شيلر» أن يستحثة على إبداء رأيه فما كان من الطالب سوى أن أجابه بقوله : « إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب !» وعندئذ هب شيلر واقفاً وهو يصيح فى وجهه: «يالك من مزيف نقود ..!! » ولم يجانب الفيلسوف الألماني الصواب ، فإن رفض الحوار هو ضرب من الاستخفاف والامبالاة! والفيلسوف هنا إنما يضع عدم الاكتراث علي قدم المساواة مع الكذب ، والتضليل ، والتمويه ، والتشويه ، وشتى ضروب التزييف الفكرى . الحوار أساسى لإبراز ماهية الإنسان ، أعنى : كيف يفكر ، بل إن التفكير نفسه ضرب من الحوار ، حتى التفكير الذاتى هو لون من المونولوج الداخلى ، ولهذا قيل إن الحبال الصوتية تهتز حتى أثناء التفكير الصامت ، أعنى إذا لم يصب الإنسان أفكاره في عبارة منطوقة ، فهو يفكر أيضاً فى عبارات صامتة ! ولعل ذلك يفسر لنا لماذا ظلت العبارة التى ذكرها أرسطو في تعريفه للإنسان بأنه « حيوان ناطق » باقية حتى اليوم ، بل ظلت أشهر ما قيل من تعريفات للإنسان علي الإطلاق ، على الرغم من ظهور تعريفات أخرى كثيرة ، منها تعريف فوير باخ : «الإنسان حيوان متدين » ، وتعريف هيدجر : « الإنسان حيوان ميتافيزيقى » ، وتعريف كاسيرز: « الإنسان حيوان رامز» ؛ لأنه لا يستطيع أن يستغنى عن الرمز ، سواء فى التعبير عن

نفسه ، أو فى الاتصال بالآخرين ـ! أقول إن تعريف أرسطو للإنسان بأنه «حيوان ناطق» لا يزال حتى الآن هو التعريف الأشهر، غير أن أرسطو لم يكن يقصد بالطبع بكلمة « النطق» مجرد إخراج الأصوات ، وإلا ما تميزالإنسان عن غيره من الحيوانات التى تستخدم أيضًا الأصوات فى تحذير غيرها ، أو فى النداء على صغارها ، أو التعرف علي أنثاها .. إلخ إلخ لكنه كان يقصد بالطبع «النطــق الذى يحمل فكراً » أو اللغة التى تعبر عن قدرة الإنسان على التفكير ؛ فالفكر هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان بصفة عامة وإذا كان الفكر هو الذى يميز الإنسان بصفة عامة، وإذا كان الفكر هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان ـ فإن كل ما نصفه بأنه نشاط بشرى لابد أن يدخله التفكير ، وإلا لكان سلوكاً حيوانيًا يعبر عن غرائز الحيوان أكثر مما يعبر عن نشاط الإنسان . وفي استطاعة كل إنسان منّا أن يفكر، وأن يستخدم عقله ، وأن يصل إلى أفكار رائعة ؛ فالعقل ـ كما قال ديكارت ـ هو « أعدل الأشياء قسمة بين الناس !»حكّم عقلك وارجع إلى نفسك وإلى صوت ضميرك تجد أنك قد وصلت إلى أفكار بالغة الأهمية ، وكم يحدث لكل واحد منا أن يدرك الفكرة بعقله هو ، لكنه يمسك عن النطق بها استهانة بشأن نفسه، وإذا بهذه الفكرة عينها تجيء إليه فى أقوال النوابغ العظماء ، وعندئذٍ يتقبل رأيه الخاص صادراً إليه من غيره !!

إن كتب المنطق تقول لنا إن الإنسان يفكر تفكيراً طبيعيًا كما يأكل ويهضم ، ويجد موضوعات تفكيره فى البيئة من حوله على نحو يكاد لا يقع تحت حصر! بل إنه يفكر تفكيراً سليمًا حتى قبل أن يظهر علماء المنطق !تماماً كما كان يتكلم العربي بلسان سليم قبل أن يظهر النحاة ، ثم جاء هؤلاء وهؤلاء لتقنين التفكير السليم أو اللغة الجيدة

وتمييزها عن الفاسد. لكن يشترط لكي تفكر تفكيراً سليماً أن تستقل بفكرك ، وأن تعتمد على نفسك مستوحياً عقلك ، ومنصتاً إلى صوت ضميرك . وللأديب الفرنسي المعاصر أندريه جيد كلمة رائعة تدعو الشباب إلى تكوين شخصية فريدة متميزة يقول : « ما يستطيع غيرك أن يفعله ، لا تفعله ! وما يستطيع غيرك أن يقوله لا تقله .. بل حاول دائماً أن تخلق في نفسك - بكل صبر وأناة - ذلك الموجود الفريد الذي هيهات لغيرك أن يقوم بديلاً عنه..!! » فمن الضلال أن يكون المرء تابعاً بدلاً من أن يكون صاحب رأي مستقل ، إن المقلدين والأتباع انما يتطلعون إلى الوراء لا إلى الأمام ، في حين أن العبقرية هي أن تنظر إلى الأمام ، فالإنسان عيناه في مقدمة رأسه لا في مؤخرته !! .

لقد كان الشاعر الأمريكي العظيم « إمرسن ١٨٠٣- ١٨٨٢» يدعو قومه - بل يدعو كل فرد من البشر - إلى الاستقلال بفكره والاعتماد على نفسه . والمرء إذا ما أنصت إلى صوت ضميره وأحسن الإنصات ، جاء ت فكرته على أصالتها - معبرة عن حق يمكن لأي فرد آخر أن يدركه ؛ ذلك لأن الفرد الواحد من الناس ليس في حقيقة أمره فرداً قائماً بذاته ، بل هو ممثل للإنسانية كلها !! ومن الطريف أن « إمرسن » كان يزرع الثقة في نفوس مواطنيه لكي يستقلوا بتفكيرهم عن الأوربيين ، ويطالبهم بأن ينطق كل منهم بما توحي إليه نفسه ، وأن يقول مايدور في عقله الآن دون أن يخشى أن يناقض قولاً قاله بالأمس ، فالفزع من وقوعنا في التناقض كثيراً ما يفقدنا الثقة في أنفسنا - يقول : « هب أنك ناقضت نفسك ، فماذا وراء ذلك ؟!. إن الثبات السخيف علي رأي واحد هو فزع العقول الصغيرة ، هو الفزع الذي يخشاه صغار الساسة ، والفلاسفة ، ورجال الدين . أما الروح العظيم فلا شأن له بمثل هذا الثبات ، وإلا فكأنه يأبه لظله فوق

الحائط ، انطق بما تفكر فيه الآن فى ألفاظ قوية ، وانطق غداً بما تفكر فيه غداً فى ألفاظ قوية كذلك ، حتى إنْ ناقض كلٌ ما قلته اليوم ..! » .

غير أن « إمرسن » لايدعو الناس ، بالطبع ، إلى عدم الاكتراث بالاتساق المنطقى ، وإنما يدعوهم إلى المرونة في التفكير وعدم الجمود عند فكرة معينة والإعتزاز بها ـ لأن المرء قد اعتنقها يوماً ما ـ فلا بأس من التخلى عما يثبت تهافته حتي ولو كنا آمنا به فى الماضى ، إنه يدعوا الناس إلى التفكير فى كل لحظة ، والإعلان عما يفكرون فية ، وعما يعتقدونه حقاً حتى إنْ ناقض تفكير الأمس ! فما أحوجنا اليوم إلى أن نثبت الثقة بأنفسنا : لكى نفكر ، ونعود إلى ضمائرنا وعقولنا دون أن نخشى شيئاً !!

فيأيها الإنسان العربى فى كل مكان من الأرض العربية ، انطق بما تفكر فيه ، وتكلم ..حتى نراك !! .

* * *

الماركسية ... أفيـون الشعـوب !

أعلم علم اليقين أننى مقبل على موضوع يجر فى أذياله خصومات كثيرة مع أناس أكِنّ لهم كل تقدير واحترام . غير أن التقدير الذاتى والاحترام الشخصى شىء ، وتبرير الفكر الفلسفى بالدليل العقلى شىء آخر . وليس ثمة مايدعو إلى تذكيرهم بأنهم كثيراً ما يضعون الهيجلية تحت معاول النقد والتدمير ـ بالحق أو الباطل ، رغم أنهم يرتكزون فى كثير من أفكارهم عليها ، وينسون أن ماركس نفسه اضطر إلى القول ، إزاء الهجمات العنيفة على هيجل فى عصره .. «لذا بادرت وأعلنت صراحة أننى لست إلا تلميذاً لهذا المفكر العملاق ! » .

وعلى أية حال فقد يغفر لى أمران : الأول : أن كل ما أكتبه ـ إن صواباً أو خطأ ـ إنما يصدر عن إخلاص للفكر ، ولا يستهدف سوى طرح أفكار للنقاش ، وإجلاء الحقيقة بصددها أولاً وأخيرا ، ومن ثم فإذا ما اخطأت فإن لى أجراً واحداً على الأقل ، أما الأمر الثانى فهو : أن عنوان هذا المقال ليس من ابتكارى الخاص وإنما هو نتيجة ضرورية تلزم عن مقدمتين : فإذا سلمنا بما تقوله الماركسية من أن « الدين أفيون الشعوب » ـ من ناحية ـ ثم سلمنا ـ من ناحية أخرى ـ بما يقوله الفيلسوف الإنجليزى المعاصر « برتراندراسل» B.RUSSell (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) من أن الماركسية لا تقدم نفسها للناس على أنها مذهب فلسفى فحسب ، ولاعلى أنها مذهب في الاقتصاد السياسى فقط ، وإنما على أنها دين جديد جاء ليحل محل الديانات القديمة التى هدمتها ـ أقول إذا سلمنا بهاتين المقدمتين لكان لدينا فى الحال النتيجة التى جعلتُها عنوان هذا المقال ، وهى إذن ، لابد أن تكون «الماركسية .. أفيون الشعوب » !

أما المقدمة الأولى فقد ذكرها ماركس فى مقدمة كتابه « نقد فلسفة الحق لهيجل» – وهو يتحدث عن :« الدين بوصفه زفرة المضطهد ؛ فهو بمثابة القلب فى عالم بلا قلب ، والروح فى أوضاع خلت من الروح . إنه : أفيون الشعوب » وفى بعض الترجمات « أفيون الشعب » .

فالدين فى رأيه عزاء الإنسان المطحون عما فقده فى العالم الفعلى المحيط به ، وتخفيف لما يعانيه من بؤس وشقاء ، ومع ذلك من الصواب أن نقول إن الدين فى نظر ماركس « أفيون » ينقل البشر من عالم الواقع إلى عالم وهمىٍّ يتخيلون فيه أن مشاكلهم قد وجدت حلاً أبدياً لها ، وأن المظالم التى تحيط بهم قد اختفت إلى غير رجعة ، ومعني ذلك أن الدين ـ حسب رأى ماركس ـ لن يعود ضرورياً بمجرد أن يحقق الإنسان لنفسه نظاماً يختفى فيه الظلم والاستغلال . كانت تلك باختصار ، المقدمة الأولى ، وبقى أن نعرض بإيجاز أيضًا للمقدمة الثانية ؛ لكى نستخرج منهما معًا النتيجة الضرورية التى جعلتها عنواناً لهذا الحديث .

والمقدمة الثانية تقول : إن الماركسية تقدم نفسها للناس« إلى جانب أنها فلسفة ومذهب في الاقتصاد .. إلخ » على أنها ديانة جديدة ، أو أنها أخذت عن الدين مجموعة رئيسية من المفاهيم التي ترتكز عليها : وجود الإله ، والأنبياء، والكتب المقدسة ، والجنة والنار ، وإبليس أو الشيطان صانع الشرور والكوارث .. إلخ. إلخ ، والحق أن الصفات التي تخلعها الماركسية علي المادة هى كلها صفات تأليه : فالمادة خلاقة ، وهى قادرة على التشكل فى أى ضرب من ضروب الوجود ، وهي أزلية أبدية : أعنى بلا بداية ؛ لأنها موجودة منذ الأزل ، وهي أبدية ؛ لأنها ستظل قائمة إلى الأبد ، ووجودها « لامتناه » ، لكن لا تحسبن المادة : هى هذا الحجر ، أو تلك الشجرة ، أو هذا الجبل ، أو ذاك النهر .. إلخ ـ

فإذا سألت لينين N.Lenin «١٨٧٠ – ١٩٢٤» : هل هذه الأشياء ما تقصدونه بالمادة ؟ لأجابك : كلا ! ليست هذه هى المادة وإنما هى صور لها أو أشكال منها ، فإذا عدت تسأله : أهى الذرة ؟ لأجابك « إن المكتشفات العلمية الأخيرة تزيل الحدود التى نعرفها عن «المادة» ؛ فقد كان آخر ما عرفناه عنها إنها « ذرة» وأصبح ما نعرفه عنها اليوم أنها «إلكترون» وغداً سوف يزول ذلك أيضا ..فلو عدت تُلِحُّ فى السؤال : وما الذى يبقي ، إذن بعد زوال هذه الوقائع التى نعرفها ؟ لأجابك : يبقى التصور الفلسفى الذى يكمن خلف الأشياء الجزئية ! ولهذا فلم يخطىء «لينين»عندما قال : «المادة مقولة فلسفية تدل على حقيقة موضوعية ، إنها الحقيقة الموضوعية الموجودة فى الخارج والمستقلة عن وعى الإنسان وإرادته .. » وهذه عبارة فى غاية الأهمية لأنها تنتهى إلى القول بأن المادة عبارة عن فكر !!وماذا تعنى «المقولة الفلسفية»سوى أن تكون فكرة فلسفية ؟ صحيح أنها فكر موضوعى مستقل عن وعى الإنسان وإرادته ، وهكذا يكون الوجود الإلهى فى كثير من الديانات ! فالمبدأ الأول الذى تقول به الماركسية والذى أطلقت علية اسم « المادة » هو أيضًا الحقيقة الأزلية الدائمة الكامنة وراء المظاهر العابرة الزائلة التي نسميها بالوقائع المباشرة ! أما النصوص « النصوص المقدسة» فهى ما كتبه ماركس وإنجلز أولاً ثم كتابات «لينين» فيما بعد ومن كان فى شك من أنها نصوص مقدسة فليطالع ما يكتب عليها من شروح وتبريرات تذكّرك بما كان يفعله رجال الدين فى العصور الوسطى ! بل لك أن تطالع فحسب المجلد رقم ٣٨ من مجموعة مؤلفات «لينين» والمعنون با سم « الدفاتر الفلسفية» لتجد أنهم يصورون ما يكتب كما هو ، حتى علامات الصواب والخطأ، وتعليقاته فى الهوامش بخط يده وبلغات مختلفة ، كما لو كانت مُقدسات يُخشى عليها من تحريف

النسّاخ ! وهذه الكتابات نفسها كثيراً ما تسمى « إنجيل الماركسية » ! تماماً كما يطلق علي ماركس ، وإنجلز ولينين اسم «أنبياء الماركسية ! وأذكر أن صديقاً سَب أحد زعماء الماركسية بألفاظ نابية على مسمع من أحد الماركسين ، فكاد الأخير أن يفتك به !! وإنه ليصعب جداً أن يعترف واحد منهم بخطأ ما فى النصوص الماركسية أو بفشل « نبوءة » من نبوء ات ماركس «وأنا طبعاً أتحدث عن الماركسيين العرب الذين يضعون أنفسهم فى قوالب دوجماتية جامدة ، وإن كان سارتر « فى نقل العقل الجدلى» قد ذكر العيب نفسه فى الماركسيين الفرنسيين .

أما المجتمع الشيوعى الذى تسوده العدالة وتتحقق المساواة ويمتنع فيه الظلم والاستغلال وتختفى الحروب والفتن والأحقاد .. إلخ فهو « الجنة »عند المؤمنين وكما إنْ المؤمنين لا يعرفون متى وأين سوف تتحقق الجنة، فإن الماركسين لا يعرفو ن أيضًا متى وأين تتحقق الشيوعية كاملة، إن كل ما يعرفونه الآن أن ماهو قائم هو المجتمع الاشتراكى وهو خطوة أولى تسبق الأمل الكبير الذى تنتظره جماهير «المؤمنين » بالماركسية!! أما جهنم فهى الحياة فى المجتمعات الرأسمالية التى يعانى فيها الفرد آلاما لانهاية لها ، وعذاباً مقيماً لا أمل في الخروج منه إلا بالقضاء علي هذه المجتمعات ذاتها ، إن الفرد فى هذه المجتمعات يشعر «بقسوة مفرطة» وآلاماً نفسية حادة عندما يجد أن المظلوم المضطهد أو الإنسان المطحون محروم من مجرد الأمل فى حياة أخرى أفضل من حياته التعسة ولاسيما عندما تُحَارَبُ الشيوعية فى مجتمعه ! والنظام الرأسمالى نفسه هو إبليس أو الشيطان ، الذى يوسوس للناس بمعارضة الشيوعية ، ومخالفة تعاليمها وعدم الانصياع « وراء المؤمنين بها » ! وهى السبب فى كل ما يحيق بالبشر من آلام وكوارث ! فإذا سمعت عن كارثة أو مجاعة أو محنة أو نكبة ..فى

أى ركن من أركان الأرض فاعلم أن وراءها «شيطان الرأسمالية!» أو «إبليس الرأسمالى» !! .

هكذا راحوا يفسرون المقدمة الثانية التى تقول إن الماركسية تقدم نفسها بديلاً عن الأديان التى هدمتها واستفادت منها كثيراً ، ولو أننا سلمنا بهذا التفسير ثم جمعنا إليه المقدمة الأولى التى ذكرها «ماركس» لكان لابد لنا أن ننتهى إلى نتيجة محتومة وهى إذن: «الماركسية .. أفيون الشعوب» !! .

***

أفكــار وجوديـــة..!!

فى ظنى أن الفلسفة الـوجودية كانت سيئة الحظ فى بلادنا العربية إلى أقصى حـد ، فلم تحظ بالقدر الكافـى من الاهتمام الذى تسـتحـقه ! وربما كـان السبب ، فـيما أتصـور ، هـو ارتبـاطها بصـفة خاصـة ، باسم الفـيلسـوف الفرنسى «جـان بول سـارتر « ١٩٠٥ـ١٩٨٠» ؛ فـقد كانت كتبه التى ترجمت إلى اللـغة العربيـة ـ ولاسيما القصـص والمسرحيات ـ أول نافـذة يطل منـها العـالم العـربى علـى هذا الضـرب مـن التـفلسف ! ومن هنا جاء هذا الارتباط الـوثيق بين «سارتر والوجودية» فى ثقافتنا ، مع أن سـارتر لم يكن فى الـواقع سـوى واحـد من الفلاسـفة الوجـوديين اللامـعين فى حـقل هـذه الفلسـفـة ، ولـم يكن ينبـغى لـه أن يحـجب عنا أسـمـاء لامعـة أخـرى من أمـثـال : مارسـل، ولاڤل، ويسـبرز..وغـيـرهـم وغيرهـم !

كان هـذا الارتباط بين اسـم « سـارتر والـوجودية » سـبباً فـى كثـير من الأحكام المتـسرعـة والـخاطئـة : فلـما كـان « سارتر » ملـحـداً فقـد حكمنا علـى الفلسفة الوجودية بأنها «فلسـفة ملحدة » ! ناسين أو متجاهـلين ، أن مؤسسـهـا « سيرن كيركجـور١٨١٣– ١٨٥٥» كان أحد أقطاب الفكر الدينى فـى الدانمارك فى منتـصف القـرن الماضـى ، وكـان المـفـروض أن يعـمل قـسـيسًـا ، ولكنه رفض ؛ لأنه شـعـر أن الكنيـسـة القـائمـة قـد انحـرفت عن المسيـحـية الحـقيـقية ؛ فـوهب نفسـه لـخـدمة « مـسيـحـيـة المسـيح» ـ علـى حـد تعـبيـرة ـ لا مـسـيـحيـة الكهنة والـقسـاوسـة الذين وصـفـهـم بأنهم « من أكلة لـحـوم الـبـشـر»! وأن سلوكـهـم علي الدوام ، يناقض تمامًـا مـاقـاله الـسـيـد المسـيح ، ومن هنا كـرّس نفـسـه لـخـدمـة

المسيحية الأصلية لا الزائفة ! فرفض أن يتزوج أو يكوّن أسرة : فلا زوجة ، ولا أبناء ، ولا وظيفة ، ولا شيء سوى مهاجمة الكنيسة الرسمية القائمة ، وما تضمه من موظفين رسميين !! فليست الوجودية « إلحادا » إذن ، بل إن جميع الفلاسفة الذين ذكرناهم من قبل - مع غيرهم - يشكّلون ما يسمى بتيار «الوجودية المؤمنة!» لكن الطامة الكبرى تكمن فى الربط بين سارتر والوجودية حتى لقد أصبحا كالمترادفين !! ولما كان سارتر قد عاش مع رفيقة حياته «سيمون دى بوڤوار» بغير زواج رسمى، فقد اعتبرت الوجودية دعوة إلى البغاء والدعارة ! وتحلل من كل ارتباط أو التزام ! مع أن أساسًا هامًا من الأسس التى تقوم عليها الفلسفة الوجودية - ملحدة أو مؤمنة - هو «فكرة الالتزام » ، بل إن سارتر نفسه كان يفاخر بأنه لم يعقد قراناً دينياً أو رسمياً لزواجه من « سيمون دى بوڤار» ؛ لأنه لا يؤمن بالدين أو الكنيسة ، ومع ذلك فقد كان ، فيما يقول ، أكثر وفاءً وأشد إخلاصاً ، وأقدر التزاماً من كثيرين من الذين عقدوا قرانهم بطريقة دينية رسمية، ثم كانت حياتهم عبارة عن خيانة مستمرة لزوجاتهم . ولما كان «سارتر» قد اعتاد الجلوس فى المقاهى منذ عام ١٩٤٢، وهى الفترة التى بدأ فيها الكتابة ، ولاسيما مقهى فلور CAFE DE FLORE فى حى «سان جرمان» فى باريس ، ولما كان قد اعتاد أن يلتف حولة رواد المقهي وقد يكون بعضهم ممن لا علاقة لهم بالفلسفة على الإطلاق ، فقد قيل إن الوجوديين هم مجموعة من المتنطعين الخاملين والكسالى الذين لفظهم المجتمع ، حتى أنهم لم يكن لهم مأوى ولاعمل سوى ارتياد المقاهى !! مع أن هؤلاء ، في الواقع ، موجودون فى كل مجتمع ، وفى كل عصر : مرة باسم «الوجودية» ، ومرة باسم «السريالية» ، ومرة باسم « الهيبز» ... إلخ وهم أيضاً عندنا بأسماء مختلفة دون أن تكون لهم أدنى صلة لا «بالوجودية» ولا بالثقافة بصفة عامة. إنهم

حثالة المجتمع فى كل عصر ! . أرجو من القارىء الكريم ألا يفهم من هذا الحديث أن المسألة مجرد « دفاع عن الوجودية» من أحد أصحابها ! فأنا أختلف مع هذا المذهب في جوانب كثيرة ، لكن المسألة كما قلت قبل ذلك فى مكان آخر وبالحرف الواحد : « إنه على الرغم من أن كاتب هذه السطور لايدين بالوجودية مذهباً، فإنه يشعر بأهميتها وحاجتنا إلى دراستها بوصفها صرخة لإنقاذ الفرد من الطغيان ، والسيطرة: طغيان الجماعة ، وسيطرة السلطة أو التقليد الأعمى ، ودعوة لكل فرد أن يكون شخصاً منفرداً متميزاً لامجرد فرد فى قطيع » ، حتي ولو كان قائداً لهذا القطيع ! فشعارها « لأن تكون فرداً فى جماعة الأسود خير لك من أن تقود النعاج »! وإذا كان الوجودى يردد عبارة ڤولتير الشهيرة :« كن رجل ولا تتبع خطواتى »! فما أحوجنا إلى أن نصغى إلى ما يقول مهما يكن رأينا فيه بعد ذلك .. « من مقدمة كتاب الوجودية سلسة عالم المعرفة رقم ٥٨». ولعل أهم ماتصف به الوجوديون جميعًا هو اهتمامهم « بالموجود البشرى » ، لا بالكون ، ولا بالطبيعة . غير أن هذا الاهتمام ليس اهتماماً بالإنسان بصفة عامة وإنما بالإنسان « الفرد» . ونقطة انطلاقهم هى أنه «لا أحد يموت لى ، فلا أحد يعيش لى !» لا أحد يموت نيابة عنى عندما تحضرنى الوفاة ، لكننى « أنا هذا الموجود الفرد » لابد أن أموت ، إذن فإننى« أنا الموجود الفرد لابد أن أعيش » – وإذا كان ثمة فلسفة فينبغى أن يكون « هذا الفرد » هو محورها الأساسى . ومن هنا أراد الوجوديون للإنسان الفرد أن ينتمي إلى ذاته بحيث يصبح فردًا لانظير له UNIQUE، أن يكون كل منا «فرداً » لا يتكرر ، لامجرد « رقم » أو « نفر » وسط قطيع! وكأنهم يقولون مع « أندريه جيد»... ما يكون في استطاعة غيرك أن يفعله ، لا تفعله ، وما يكون فى استطاعة غيرك أن يقوله ، لا تقله.. بل حاول دائماً أن تخلق فى نفسك ، بكل صبر وأناة، ذلك

الموجود الفريد الذى هيهات لغيرك أن يقوم بديلاً عنه ..!! والإنسان الفرد الذي تهتم به الفلسفة الوجودية هو هذا الفرد الموجود الماثل أمامنا «بلحمه ، ودمه ، وعواطفه ، ومشاعره ، بهمومه ومخاوفه، وبآلامه وأماله، بفرحه وحزنه ، بتفاؤله وتشاؤمه. يقول الفيلسوف الأسباني أونامونو UNAMUNO «١٨٦٤– ١٩٣٦» وهو قطب آخر من أقطاب الوجودية المؤمنة : «الفلسفة هى نتاج لإنسانية الإنسان ، وكل فيلسوف هو إنسان من لحم ودم ، يتوجه بالحديث إلى أناس من لحم ودم .. وهو يتفلسف لابعقله فقط ، وإنما بإرادته ومشاعره ولحمه ودمه ، بكل روحة ، وبكل جسده : فالإنسان الفرد هو الذي يتفلسف ..!!.

سمة أخرى للفلسفة الوجودية هى : نظرتها إلى الموجود البشرى على أنه « ذات فاعلة »! فالذات الفردية التي تدرسها هى الذات الفاعلة لا الذات المفكرة ، وكانت الأخيرة هى محور اهتمام الفلسفات السابقة ، وهذا هو ما يميز الوجودية عن المذاهب الفلسفية الأخرى كالمثالية IDEALISM ، مثلاً ، التي اهتمت بالإنسان بوصفه ذاتاً مفكرة عاقلة ، فإذا كان ديكارت Descartes قد برهن على وجوده من عملية التفكير عندما قال عبارتة الشهيرة « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » ـ فإن الوجودية تجعل هذا البرهان نابعاً من الفعل أو العمل أو الإرادة :« أنا أعمل فأنا موجود » أنا أريد فأنا موجود »..! وإذا كانت الفلسفات السابقة التي اهتمت بالإنسان بوصفه ذاتاً مفكرة عاقلة قد استبعدت العواطف المتقلبة والأمزجة والمشاعر بوصفها عوامل معوقة للذهن الواضح والتفكير المستقيم ، واعتبرتها شيئاً لا يناسب مهام الفيلسوف ! فإن الفلسفة الوجودية تذهب إلى أن هذه بعينها هى الموضوعات التى جعلتنا نندمج بكياننا كله فى العالم ، وتتيح لنا أن نتعلم منه أشياء يتعذر علينا تعلمها عن طريق الملاحظة العقلية والتأملية ..! ومن هنا

قد أشاحت الفلسفة الوجودية بوجهها عن الموضوعات التقليدية التى كانت موضع اهتمام الفلسفة من قبل ، وبدأت تركز على موضوعات تستمدها من الذات البشرية مباشرة: كالحرية ، واتخاذ القرار ، والمسؤولية ، والمخاطرة ، والإثم ، والقلق ، والذات الحقة ، والزائفة ، والحب ، والجنس ، والموت ، والعذاب ، والألم، واليأس، والعبث.. إلخ إلخ .. فهذه فى نظرها هى الموضوعات التى تشكل جوهر الوجود البشرى وتميزة عن الحيوان ، من ناحية ، وعن الوجود ـ من ناحية أخرى ـ وفى استطاعتنا أن نقول ، بصفة عامة ، أن أعظم موضوعات الفلسفة الوجودية وأكثرها تألقاً هى الحياة العاطفية للإنسان»

هذا تعريف بالفلسفة الوجودية ، لكنا بحاجة إلى وقفة متأنية نعرض فيها لبعض أفكار أخرى لهذه الفلسفة .

* * *

أفكار أخرى..وجودية..!

من الصعب جداً أن نتحدث عن أفكار تجمع الوجوديين معًا تحت سقف واحد ، فكثير منهم ، وعلى رأسهم سارتر نفسة ، ظل فترة طويلة من حياته يرفض اسم « الوجودية » ؛ ولهذا قيل إنه لاتوجد نظرية عامة ينتمى إليها سائر الوجوديين ، بحيث يمكن أن نقارنهم بغيرهم من المدارس الفلسفية الأخرى ، وإنما هناك أسلوب عام متشابه فى طريقتهم فى التفلسف . ويمكن أن نقول إنهم جميعاً يبدأون من نقطة واحدة هى : «الإنسان الفرد» ، ويتخذون منه موقفاً موحداً ـ فى الأعم الاغلب ـ هو : أن وجود هذا الإنسان الفرد يسبق ماهيته» . وهذه بالطبع مصطلحات فنية خاصة ، لكنها يمكن أن تُفهم فى سهولة ويسر، إذا قلنا إنها تعنى أنك توجد أولاً ثم تبدأ فى تكوين شخصيتك بعد ذلك، متغاضين عن المعانى الفنية الكثيرة التى تحملها فى الفلسفة كلمة ماهية Essence . وإذا ما شبهنا الشخصية الإنسانية بالكتاب ـ لكي نزيد الأمر وضوحاً – قلنا إن الوجودية تبعثر أوراق هذا الكتاب أمامك فى طريق حياتك وعليك أنت أن تجمع هذه الأوراق فى سنوات عمرك .! يقول سارتر عن هذه الفكرة : « إننا نعنى بذلك أن الإنسان يوجد أولاً وقبل كل شيء ، ويواجه نفسه وينخرط فى العالم ، ثم يعرف نفسه فيما بعد » . وإذا كان الإنسان كما يراه الوجوديون غير قابل للتعريف ، فإن السبب هو : أن البداية لاشيء ، إنه لن يكون شيئاً إلا فيما بعد وعندئذ سوف يكون على نحو ما يصنع ذاته !» وعندما يقول الوجوديون (إنك فى البداية لا شيء) فذلك لا يعنى أن تكون عدماً ، بل المقصود أنك فى البداية لا شيء محدد من قبل ، ولا شيء محدد سلفًا ، ولكنك فى بداية حياتك مجموعة من الإمكانات

والاستعدادات : درجة ذكاء معينة ، قدرات جسدية ، ومهارات ، ومواهب خاصة ، واستعداد من نوع معين ، مزاج خاص ، وانفعلات .. إلخ ، ذلك كلة كامن لم يظهر بعد ولم يستخدم ، وعلى النحو الذي تستخدم فيه هذه الاستعدادات والإمكانات تتجه شخصيتك وتتحدد معالمها فى اتجاه معين ، وعلي نحوٍ خاص ، لكنها لاتتحدد مرة واحدة وإلى الأبد ، وإنما تظل تبنى فى هذه الشخصية (أو الماهية بلغة الفلسفة) إلى أن تموت ، ولهذا ذهبت الوجودية إلى أن حياة الإنسان (مشروع Project لايكتمل إلا بموته ، وسوف نعود إلى هذا المشروع بعد قليل . وكثيراً ما يستخدم الوجوديون تعبيرات فنية خاصة أيضًا فى شرحهم لهذه البداية غير المحدودة فيقولون : إن الخاصية الأساسية للموجود البشرى هى طابعه (الهلامى المتعالى) ، فأما الهلامى فهى كلمة تصف الوجود غير المحدد الذى يبدأ منه الإنسان (أى مجموعة من الامكانيات والاستعدادات التى تحدثنا عنها والتى تكون الموجود فى البداية).. أما (التعالى Transcendence) فهى تعنى أن الموجود البشرىّ قادر علي أن (يتجاوز وجوده) أو (يقف خارج وجوده) أى أنه يستطيع أن يتامل وجوده الحالى ثم يطرح الشخصية التى يريدها فى المستقبل ، ويعمل على تحقيقها ، يروى عن نابليون بونابرت (أنه كان وهو طفل صغير يرتدى حلة عسكرية للأ طفال ، ثم يقف أمام المرآة مؤدياً لنفسه التحية العسكرية وهو يقول : لابد أن أكون جنرالاً !) . ثم أصبح إمبراطورَ غيَّر خريطة أوربا كلها .

رأيت كيف يجاوز الموجود البشرى وجوده الحالى (وهو هنا وجوده كطفل) ثم يطرح ماهيته فى المستقبل ويعمل علي تحقيقها؟! وطبيعة الإنسان الهلامية غير المحددة تجعله ينجذب دائماً نحو وجود آخر يتخيله أمامة في المستقبل ويعمل علي تحقيقه وهكذا ينمو الإنسان أو (يتعالى) أو (يتجاوز) وجوده الحالى إلى وجود آخر ..!

وتلك خاصية لا نجدها فى أشياء العالم الجامدة ، فهذا الحجر ، وهذا المعدن يظل هو هو علي الدوام بصفاته المحددة والتى يوجد عليها منذ بداية وجوده ، ولهذا تذهب الوجودية إلى أن (وجود الحجر متحد مع ماهيته) منذ البداية (أى أن وجوده وماهيته شىء واحد) .

لكن ألا تصدق عملية النمو الإنسانى (أو التعالى أو تجاوز الوجود الحالى) على النبات والحيوان ؟! ألا ينمو النبات ويتطور الحيوان ؟! ألا يتجاوز بذلك وجوده الحالى إلى وجود أعلى ؟ الجواب بالنفى! على الرغم من أن وضع الكائنات الحية - النبات والحيوان - وسط بين الإنسان والأشياء الجامدة فإن الإنسان هو وحده القادر على أن ينعكس على ذاته ، ويتأملها ثم يطرح رغباته أمامه فى المستقبل ليحاول بإرادته الخاصة تحقيقها ، وتلك عملية لا يستطيع الحيوان ، دع عنك النبات ، أن يقوم بها الآن تطورهما بيولوجى خالص «أعنى أنه يخضع لقوانين طبيعية صارمة » !

ومعنى ذلك أن الإنسان هو وحده الحيوان القادر على الوقوف منفصلاً عن ذاته ليتأمل نوع الوجود الذى يوجد عليه الآن ، وليتدبر ما يريد أن يفعله، وما يريد أن يصبح عليه ، ومن ثم فإحدى السمات الأساسية للموجود البشرى هى تجاوزه لذاته أو تعاليه على وجوده الحالى ، وليس هناك وجود بشرى بمعزل عن العلو ! ويرى الوجوديون المؤمنون - كما هى الحال عند كيركجور ويسبرز وغيرهما - أن الوجود البشري يجاوز ذاته فى اتجاه الله ! وتري الوجودية الملحدة كما هى الحال عند سارتر - أن رغبة الإنسان الأساسية هى أن يكون إلهاً !! لكن الآخرين يشكلون عقبة أمامه فى سبيل تحقيق هذه الرغبة «التي يسعون إليها بدورهم » ومن ثم كان الآخرون هم «الجحيم» ! ولهذا يجاوز الوجود البشرى ذاته عندهم فى اتجاهه إلى العدم ! .

ويترتب على ذلك ظهور خاصية أخرى للموجود البشرى ترتبط ارتباطًا وثيقاً بالخاصية السابقة ، وهى أن الوجود البشرى مشروع Project .. كما قلنا ، وهم يستخدمون الكلمة بمعناها الحرفى Pro بمعنى أمام Jet بمعنى يلقى أو يطرح فالإنسان هو ما يطرحه أمامه ! أى أننا نصنع ماهيتنا الخاصة كل منًا بطريقته الفردية ، ودون أن يشترك مع غيره فى شيء ، ولايكتمل المشروع إلابالموت. إذ أن الإنسان يستغرق حياته فى بناء فى هذا المشروع !!.

خاصية أخرى وهى نتيجة منطقية للخصائص السابقة وهى أن يكون الموجود البشرى «حر الإرادة» وإلا فلن يستطيع إنجاز هذا المشروع ! «إنه يفعل، لكى يبنى، ويختار لكى ينجز» والفعل والاختيار يتضمنان الحرية فى الحال . ! ولا تكاد تجد موضوعاً أقرب إلى قلب الوجوديين من موضوع الحرية ، فهو يُعَالَجُ عند جميع الفلاسفة الوجوديين بإسهاب حتى أصبح الوجود البشرى والحرية عندهم تعبيرين مترادفين : فوجودك هو حريتك ، يقول سارتر : « لستُ السيد ولستُ العبد ، وإنما أنا الحرية التي أتمتع بها ..! » وأيضًا « إن الإنسان محكوم عليه بالحرية »! لكن لا تحسبن الحرية مرادفة للفوضى ، إنها ترتبط فى الحال بالمسؤولية، أنا حر فى أفعالي فأنا إذن مسؤول عما أفعل ، كما ترتبط الحرية أيضاً بالمخاطرة ، وبالقلق ؛ لأنها عبء ثقيل ، ولذلك تجد كثيراً من الناس يهربون منها !.

وإذا كانت الوجودية ترتكز أساسًا على الموجود الفرد ، فإن ذلك لا يعنى أنها تدعو إلى العزلة أو تنفر من المجتمع ، فباستثناء قلة قليلة ، فإننا نجد الوجودية تعترف أن الفرد لا يمكن له أن يوجد إلا فى البيئة البشرية ومع آخرين، ووسيلة اتصاله بالآخر خاصيتان هما : الجنس واللغة. فالوجوديون ينظرون إلى الجنس نظرة إنسانية تضفى عليه معانى المشاركة ، والالتقاء ، والتعاطف ، وهم يعتقدون أن الجنس

يشير إلى حقيقة هامة هي : أن الفرد لا يمكن أن يكتمل إلا مع شخص آخر! بل إن تركيب الجسم البشرى يعبر عن هذه الحقيقة أوضح تعبير فعلى الرغم من أن هذا الجسم يحتوى على أجهزة كاملة ومتعددة مثل الجهاز العصبى ، والحهاز الهضمى ، والجهاز التنفسى .. إلخ إلخ .. فإن لديه نصف جهاز التناسل فقط ، وهو على هذا النحو لا يكتمل بدون شخص من الجنس الآخر ! كما أن متعته الجنسية لا تتحقق إلا إذا رآها على وجه الشخص الآخر، وبذلك يستمتع بذاته أيضاً ، لكنهم مع ذلك ينظرون إلى البغاء على أنه «تشيؤ » أى أن يتحول الإنسان إلى «شىء» وبهذا لا تتحقق الغاية ولا المتعة ولا النشوة الجنسية ، لأن ذلك كله يستلزم معامله الآخر على أنه إنسان مثلك وليس شيئاً جامداً يؤدى دوراً آليًا بلا عواطف ولا أحاسيس!.

أما وسيلة الأتصال الثانية فهى اللغة التى هى بطبيعتها موجهة نحو شخص ما ، فأنت لا تتحادث مع الجماد أو الحيوان ! ولهذا كانت إحدى الوظائف الأساسية للغة تحقيق الاتصال بين الموجودات البشرية، والوجوديون يختلفون بعد ذلك فى نظرتهم إلى اللغه ؛ فسارتر يناقشها فى سياق ملاحظته عن الغواية أو الاغراء Seduction ؛ فلكى أجعل الآخر يحبنى لابد أن أجعل من نفسى موضوع إغراء أمامه ، أعنى موضوعًا يسحره ويفتنه ، وأنا لا أحقق ذلك إلا عن طريق اللغة بأوسع معنى للكلمة ، غير أن بعض أشكال اللغة لا تحقق مثل هذا الاتصال ! كتب كيركجور يقول: « يالها من سخرية أن يحط الإنسان من نفسه عن طريق الكلام ، فيهبط إلى مستوى أدنى من العجماوات ، ويصبح ثرثاراً! » ويستخدم « هيدجر» لفظ «الثرثرة» للتعبير عن ذلك الضرب من الحديث الذى لا يوصل شيئا ، ولا يكشف من الكائنات على نحو ما هى عليه .

وتتمثل الثرثرة أو الحديث غير الأصيل أيضاً فى قبول الفرد لآراء الآخرين أو التسليم بها على نحو أعمى!

أرأيت أننا فى حاجة إلى دراسة هذة الفلسفة ، وتفهم أفكارهم ، ثم الدخول معها فى ألف حوار وحوار ، لعلنا نشكل لأنفسنا فكراً خاصاً تسرى فيه دماء المعاصرة ، ولا تنعدم فيه الأصالة؟!.

***

«العميان .. والفيل.. !»

كثيراً ما صادفتنى هذه المشكلة ، التى ربما صادفتْ غيرى أيضاً ، وكنت باستمرار أجيب جواباً واحداً فى كل مرة . ومنذ أسبوع جاءنى طالب ممن يدرسون معى بعض المقررات الفلسفية ـ ليقول لى فى حيرة وأسى : عجيب أمر تلك المذاهب الفلسفية التى ظهرت فى تاريخ الفكر البشرى ! إن أمرها ليحيرني غاية الحيرة! ما أكاد اقرأ مذهبًا حتى أقتنع به وأطمئن إلى صدقه ، وأصبح من مريديه : إذ يبهرنى ما يقدمه أصحابه من حجج وأسانيد تشبع عقلى وترضى ضميرى ! لكنى ما أكاد أفرغ منه وأقرأ غيره حتى يقنعنى أصحابه بخطأ المذهب السابق وضلاله ! وأنهم وحدهم دعاة الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! فإذا ما قرأت الوجودية ودرست اهتمامها بالفرد وحريته ومسؤوليته شعرت أن هذا المذهب يخاطبنى أنا وحدى ! وإذا قرأت المذهب المادى ملتُ بفكرى إلى تفسير الأشياء والأحداث والتاريخ والإنسان تفسيراً مادَياً خالصاً !وإذا تعمقت المذهب المثالى كانت الروح عندى هى المبدأ والأساس : بها كل شيء كان ، وبغيرها لم يكن شئ مما كان ! وإذا طالعت الماركسية فأنا الابن البكر لماركس و« الرفيق » الأوفى «لإنجلز» ولينين! وإذا قرأت البرجماتية فأنا شيخ البرجماتيين فى أمريكا !..... إلخ .

أين الخطأ..؟! فى تركيبة عقلى أنا الذى تتجاذبه المذاهب الفلسفية، وتقذف به فى كل اتجاه كريشة فى مهب الريح ؟! أم فى المذاهب الفلسفية التى يضرب بعضها بعضاً ويدعى كل منها إنه كشف الحقيقة كاملة وأن بقية المذاهب تهذى ولا تقول إلا لغواً ؟!.

وأجبته فى يقين وصدق : الخطأ فى الاثنين معًا ! فالمنظور الذى

تنظر منه إلى المذاهب الفلسفية كان خطأ والادعاء الذى دعته هذه المذاهب لنفسها كان خطأ أيضا ! لكن ذلك يحتاج إلى قليل من الشرح والإيضاح فلنتأمل معاً هذه الأسطورة: يُرْوَى أن جماعة من العميان مرُّوا فى طريقهم بفيل ، وحاولوا التعرف عليه لأنهم كانوا يجهلونه ، فتحسس كل واحد منهم جانبًا منه: هذا يتناول الناب ، وذاك يتناول الذنب ، وثالث الساق ، ورابع القدم ، أو الأذنين.. إلخ إلخ ، ثم وصف كل واحد منهم الجانب الذى لمسه معتمداً على دقة حاسة اللمس لديه ، وكان وصفه هذا صادقاً ودقيقاً .. ولكنه أخطأ حين أصر على أن الجانب الذى لمسه ووصفه هو الفيل كله! وتلك هى الحال نفسها مع المذاهب الفلسفية المختلفة ! الفيل هنا هو الحقيقة ـ وجماعة العميان هم الفلاسفة أو المذاهب الفلسفية التى يلمس كل مذهب منها جانبًا من جوانب الحقيقة ، ويبلوره فى صورة مبدأ أساسى يقوم عليه ومحور تدور حوله فلسفته ـ لكنه يخطىء حين يظن أن المبدأ يعبِّرعن الحقيقة بأسرها وأن بقية المذاهب تهذى بلغوٍ فارغ . خذ المذاهب المادية تجدها ترتكز على المادة التى لا يستطيع أن ينكر وجودها ولا أهميتها عاقل ، لكنها لا تكتفى بذلك ، وإنما تراها تصر على أن كل شىء فى هذا العالم لابد أن يرتد فى نهاية تحليله إليها حتى العقل والفكر والروح .. الخ .فهى كلها ظواهر مادية معقدة ! يقول قائل منهم « إن المخّ يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء »! فليس فى التفكير ، إذن شىء متميز عن المادة .! وهنا تقع المادية فى الخطأ ! .

خذ المذاهب المثالية تجدها ، على العكس ، ترتكز على الفكر أو الروح أو العقل، وتجعل كل ما فى الكون يرتد إليها حتى المادة نفسها، فهى ليست سوى عقل أصيب بالتحجر ـ كما يقول واحد منهم ـ وهنا أيضاً تقع المثالية فى الخطأ حين تنفخ فى المبدأ الذى ترتكز عليه حتى يتضخم ويلتهم جميع المبادىء الأخرى..! إن الخطأ يكمن فى المبالغة أو

المغالاة فى أهمية الجانب الذى كشف عنه المذهب على حساب الجوانب الأخرى التى كشفت عنها مذاهب أخرى ، أو استبعاد هذه الجوانب تماما ، أو تفسيرها من منظور المذهب ! فالماركسية ، مثلاً ، تصر على أن الاقتصاد هو الأساس فى حياة الناس وهو محرك التاريخ والمجتمع ، ولذا فهو أجدر بالاهتمام والدراسة من الفرد ، فى الوقت الذى تصر فيه الوجودية علي أن الفرد هو الأساس « فلا أحد يموت نيابة عنى ، ومن ثم فلا ينبغي لأحد أن يعيش نيابة عنى !» كما يقولون ، ومن هنا فلابد أن يكون محياى ، ومماتى وقلقى ، وحريتى ، ومسؤوليتى ... إلخ هى محور كل اهتمام فلسفى ، فى حين تصر البرجماتية Pragmatism من ناحية ثالثة على أن العمل هو مقياس كل شيء ، فالفكرة هى ما تؤدى إليه الناس ، ومن ثم ينبغي للفكر أن يتحول إلى سلوك لكى تستطيع الحكم عليه!! ولاحظ أنه مذهب أمريكى نشأ فى مجتمع تجارى لا يهتم بالفكر إلا إذا حقق ربحاً .. إلخ ، ومهما يكن من أمر تلك المذاهب ، فهى كلها تكشف عن جوانب هامة وأجزاء هامة من الحقيقة .. لكن الاقتصار على أىٍّ منها يجعلك تقع فى خطأ ما نسميه « بالنظرة الأحادية.. One-sided » أو « النظرة وحيدة الجانب » لأنها تأخذ جانباً واحداً من الحقيقة متعددة الجوانب ، وتصر عليه على نحو ما فعل كل واحد من العميان في الأسطورة التى أسلفنا ذكرها !

فقد تجد مفكراً مثل غاندى « ١٨٦٩-١٩٤٨» يغيِّر تاريخ الهند بالفكر لا بالاقتصاد ، كما تجد الأديان طوال التاريخ تفعل فى الناس فعل السحر بما لها من تأثير روحى هائل فيستشهدون من أجلها لا من أجل صراعهم مع الطبقات الأخري ! والماركسية نفسها ليست سوى مجموعة من «الأفكار» التي غيرت المجتمع ! ... وهكذا تجد أن الاقتصاد عامل هام وحاسم ، لكنه ليس العامل الوحيد المؤثر فى حياة الناس : فليس بالخبز وحدة يحيا الإنسان ..! » .

لكن العكس صحيح أيضًا : فليس بالفكر وحده يحيا الإنسان..!»

وإنما المادة والفكر ، والجسد ، والروح ، والفرد ، والمجتمع ، والعمل والنظر .. إلخ إلخ ، هى كلها لبِنات فى صرح الحقيقة ، ذلك لأن الحقيقة «عينية Concrete »، وهذا مصطلح فلسفى يعنى أنها متعددة الجوانب وإغفال أى جانب منها ، والتعصب لجانب واحد بعينه هو خطأ من أفدح الأخطاء النظرية التي يمكن أن يقع فيها الإنسان المفكر الذى ينشد الفهم الصحيح ويسير مع الحقيقة أينما سارت ! .

لقد كان غاندى يقول ، فى عبارة مضيئة : « إننى أفتح نوافذ منزلى لتيارات الفكر جميعاً كى تهب عليه كما تشاء ، لكنى لا أسمح لأى منها أن يقتلعنى من جذورى » . وهذا هو الموقف الصحيح لكل من أراد أن يدرس المذاهب الفلسفية ولاسيما إذا كان مبتدئاً . إن عليه أن يمتص رحيقها دون أن يذوب فيها ـ أن يستوعبها ، ولا يسمح لها أن تستوعبه، ويحتويها دون أن تحتويه ،... وبالتالى يغزل لنفسه من خيوطها ثوباً خاصًا به ، أعنى وجهه نظرعن الكون ، والإنسان ، والعلاقة بينهما ، ويبنى لنفسه شخصية قوية تواجه التيارات المختلفة، تأخذ منها وتعطيها ، دون أن تخشى على نفسها أن تقتلعها لفحة هواءٍ عابرة ..!

* * *

لا جديد تحت الشمس..!

لم يشعر أحد منهما بمقدمي ، ولم أشأ بدوري أن أقطع عليهما حوارهما ...فجلستُ ساكناً أتتبع مستمعاً لما يدور بينهما من نقاش: الشيخ الوقور المهيب الذى حنكته الأيام ، وصقلته التجارب ، والفتى ، المتحمس للبحث والتنقيب المتحفز دائماً للرد والمحاجّة ... قال الفتى وهو يحاور شيخة :

ـ لكنك بذلك يا سيدى إنما تردد قول سليمان الحكيم « باطل الأباطيل ، كل شيء تحت الشمس باطل... »؟!

ـ فأجاب الشيخ مبتسماً : ليس ذلك تماماً ، لكني أقول : لاجديد تحت الشمس ، بل كل شيء فى ظواهر هذا الكون معاد ، لأن هذه الظواهر جميعًا تسير فى دورة رتيبة ، قد تسبب للإنسان الملل والضجر !

ـ لعلك تعني ما صوره أديبنا نجيب محفوظ فى روايته الشهيرة «ثرثرة فوق النيل» ـ عندما رسم ببراعة الفنان دورة الأفلاك الرتيبة، وما تجلبه من ملل ، وما تخلفه فى الإنسان أحياناً من شعور بالعبث واللامعقول...!

– قريب من ذلك ! فلاشك أن هذه الصورة الأدبية هى انعكاس لهذه الدورة المملة والتكرار الرتيب علي نفس الفنان المرهفة ! .

ـ لكنى لا أفهم ، كيف يمكن أن تكون الطبيعة دائرية حسب ، لا تكشف عن جديد ، بل تكرر ما سبق أن أظهرته ؛ فلا تأتى كل يوم إلاَّ بما هو قديم ، ألسنا تكتشف فيها كلَّ يومٍ شيئاً جديداً ؟!

الا يقوم العلماء منّا بالبحث والاستقصاء وإجراء التجارب ، واختراع الادوات والوسائل التى تمكّنهم من إجبار الطبيعة على أن

تبوح بما لديها من أسرار دفينة ومعلومات خبيئة - وهو ما يطلقون علية اسم «القوانين » ؟

خذ ما شئت من العلوم التى تدرس هذه الطبيعة وظواهرها : علم الكمياء مثلاً : تجد أن الإنسان قد مرّ بمراحل طويلة حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن ، وكل مرحلة تشكل تقدُّماً عن المراحل السابقة ! فقد بدأ اكتشاف العناصر الموجودة فى الطبيعة بصورة منفردة (أعنى تلك العناصر التى لاتتّحد مع غيرها كالذهب والفضة ، والحديد والنحاس ... إلخ) ثم فى مرحلة تالية اكتُشِفَتْ عناصر جديدة ، فلما كثرت العناصر التى تم اكتشافها قام العلماء بتصنيفها فى مجموعات تتضمن كل منها العناصر المتشابهه فى الخواص حتى جاء عالم الكيمياء الروسى « مندلييف «١٨٣٤ - ١٩٠٧» D.Mendeleev » فوضع الجدول الدورى الشهير الذى ارتبط باسمه - وهو أول جدول دوري للعناصر الكيميائية عام ١٨٦٩ - ووصنَّف فيه العناصر الكيميائية ورتبها ترتيبًا تصاعدياً من أخفها : «الأيدروچين» إلى أثقلها « اليورانيوم » ! .

- فقال الشيخ وقد أعجبه حماس الفتى : حديثك شيق، ويكشف عن مقدرة ، بل براعة ، فى الجدل ، ولكنه مع ذلك لا يخلو من مغالطة واضحة ! ذلك لأنك تخلط بين أمرين كان الأجدر بك أن تفرق بينهما :

الأول : هو الفكرة التى بدأنا بها الحديث والتى تقول : إن الطبيعة «لا تأتى بشىء جديد البتة لأنها تسير فى دورات متكررة ».

والثانى : هو معرفتنا بهذه الطبيعة فتاريخ أى ظاهرة طبيعية ليس سوى نسخة واحدة مكررة ؛ هذه الشجرة ، وهذا النهر ، وهذا الجبل الذى يختفى هنا ليظهر هناك ...إلخ إلخ . كل هذه ظواهر ليس فيها جديد.

أما معرفتنا بهذه الطبيعة فهى التى تشكل حقًا مراحل ، كل منها يمثل تقدماً عما سبق ، فلا شك أن هذه المعرفة تحمل كل يوم شيئاً جديداً يضاف إلى معلومات الإنسان . ولكى أزيد الفكرة وضوحاً خذ مثلاً ظاهرة من ظواهر الطبيعة ،ولتكن « سقوط الأمطار»

- صحيح أن تفسير الإنسان لها مر بأطوار متعددة لكنها ظلت هى هى دون تغير ، فالإنسان البدائى كان يعتقد أن هناك إلهاً - هو القمر فى الأعم الأغلب - ينزل الغيث ، ولهذا كان يقال : إنه حتى الضفادع تضرع إلى القمر لكى ينزل لها الغيث! ثم فسرتها بعض العصور على أن سقوط الأمطار ليس سوى دموع المظلومين الذين صعدوا إلى السماء يشكون ظلم الناس على الأرض ! وفسرتها بعض الطوائف الدينية فى العصور الوسطى بأن الملائكة تغسل قبة السماء! وأخيراً فسرها العلم الحديث التفسير الصحيح . ها هنا تجد أن الظاهرة الطبيعية ظلت باقية على حالها طوال العصور دون أن تتغير أو يظهر فيها جديد ؟ فما تغير هو المعرفة البشرية على مر العصور - فالجديد باستمرار انما يكمن فى مجال النشاط البشرى وهو هنا معرفته بظاهرة طبيعية !

- أتعنى أن الظاهرة الطبيعية تتكرر دائماً على وتيرة واحدة بحيث يصعب أن يكون لها تاريخ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؟!

- تماماً ! وهى فوق ذلك تتألف من عناصر مادية تتجمع بطريقة آليه فتشكل ظاهرة ما ، ثم تتفرق فتعود إلى سيرتها الأولى ، ثم تعود إلى التجمع والتفرق .. وهكذا دواليك !خذ مرة أخرى ظاهرة المطر التى كنا نتحدث عنها تجد أنها تقوم بدورة واضحة المعالم : فالمطر هو الذى كوّن الأنهار التى شقت بدورها طريقها إلى البحار والمحيطات ، ثم تسقط أشعة الشمس على مياه البحار والمحيطات ، فتحول بعضها إلى بخار يتصاعد فى طبقات الجو العليا مشكلاً سحبًا تدفعها الرياح

أمامها حتى تصطدم بمناطق باردة ، فتتحول إلى قطرات من ماء تسقط منهمرة مكونة الأنهار لتشق طريقها مرة أخرى لتصب فى البحار والمحيطات ! وتعود الظاهرة نفسها إلى التكرار آلاف الآلاف من المرات ! فأي جديد يمكن أن نلمسه فى هذه الدورة ؟! .

خذ مثلاً آخر ، إذا شئت للدورة الطبيعية : ثانى اكسيد الكربون يمتصه النبات من الجو ، ثم بواسطة الطاقة الضوئية وبخار الماء فى أوراق النبات الخضراء يتحول إلى « كربوهيدرات» فإذا مات النبات تحلل وتصاعد ثانى أكسيد الكربون مرة أخرى إلى الجو ! وحتى إذا افترضنا أن النبات لم يمت وكان غذاءً شهياً لحيوان ما ، فإن هذا النبات ـ نتيجة لعملية الهضم ـ يتم احتراق المواد الكربوهيدراتية الأمر الذى يؤدى إلى عودة ثانى أكسيد الكربون إلى الجو مرة أخرى! .

ـ يخيل إلىّ أن الفكرة أصبحت الآن واضحة وهى أن الظاهرة الطبيعية تظل ثابتة لا تتغير بينما تتغير معلومات الإنسان عنها ، وهذا ما نسميه « بالعلم » بهذه الظاهرة . ولكن وردت عبارة فى حديثك لا يزال يحفها الكثير من الغموض وتحتاج إلى إيضاح وهى قولك إن الجديد إنما يكون فى مجال الإنسان .

ـ نعم ، فالجديد يمكن أن يكون فيما يبدعه الإنسان : فى فنه ، وأفكاره ونظمه ،..باختصار فى ميدان التاريخ ، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ، أعنى تاريخ الإنسان بما هو إنسان : السياسى ، والفنى، والثقافى ، والاجتماعى.. إلخ.

ـ لكننا كثيراً ما نقول « إن التاريخ يعيد نفسه » فكأننا نصف به الطبيعة من تكرار ممل عقيم لا يكشف عن جديد !

ـ هذا خطأ شائع لأن أحداث التاريخ لا تتكرر أبداً وإنما هى جديدة باستمرار : فهى أشبه بأمواج البحر ، تبدو لك واحدة ومتشابهة مع أنها فى الحقيقة متجددة دوماً .. لكن ذلك يحتاج إلى حديث آخر!

«التاريخ لا يعيد نفسه.. !»

قال الفتى:

– لقد اقنعتني في المرة الماضية بأن الطبيعة تكرر نفسها في دورة مملة « فلا جديد تحت الشمس » – ولكنك لم تفسر لي كيف يمكن أن يكون الجديد في ميدان التاريخ ، والتاريخ وحدة ، مع أننا كثيراً ما نقول « ما أشبة الليلة بالبارحة » ، أو أن التاريخ يعيد نفسه؟!

ـ فأطرق الشيخ ملياً ثم قال :

ـ فلنتفق أولاً على عدة أمور هامة : منها مثلاً أن التاريخ الذى نقصده هو تاريخ البشر وليس تاريخًا لاية موجودات أخرى ، ومنها أنّ ما يميز البشر هو الفكر أوالعقل ، ولنتفق أخيراً علي أن العقل لا قيمة له مالم يكن الإنسان حراً ، لأن مهمة العقل الأساسية هى التفرقة والتمييز، بحيث يصبح من الممكن أن أختار بين عدة أمور ، فإذا امتنعت عملية الاختيار أصبح العقل بغير قيمة !

ـ فى اعتقادى أن الاتفاق بيننا تام ، فهذه قضايا يقينية لا يشك فيها أحد .

ـ ينتج من ذلك أننا سوف نتفق أيضًا على أن الفعل البشرى هو الفعل الحر الذى يأتى بشىء جديد ! وإذا كان التاريخ هو مجموعة أفعال البشر، فإن ذلك يعني أنه لابد أن يكون متضمناً جديداً باستمرار ومن ثم فلا يمكن أن يعيد نفسه ! إن التاريخ يسير فى دورة تكرر نفسها على نحو ما تفعل الطبيعة بصخورها وعناصرها الكيميائية ... إلخ ، لكننا ينبغى ألا ننسى أبداً أننا فى ميدان التاريخ نكون أمام فعل بشرى خلاق !

ـ ذلك يعنى أننا لن نستطيع على الإطلاق أن نتنبأ بسير التاريخ مادام ينتج باستمرار عن فعل بشرى حر ؟! مع أننا ، من ناحية ، كثيراً ما نتوقع أحداثاً معينة لا تلبث أن تتحقق بالفعل .. ومن ناحية أخرى نجد شيئاً من الدوام والاستمرار فى أحداث التاريخ بمعني أنها لا تتغير تغيُّراً عشوائياً !

ـ يمكن لتوضيح فكرتى أن أقول : إن التاريخ يشبه المسرحية فى خاصيتين على الأقل

الأولى: أن الممثلين فى تمثيلهم للمسرحية ينبغي أن يكونوا على درجة من الثبات دون أن يتغيروا على نحو تعسفى لتحقيق أهداف الرواية.

والثانية: أن المسرحية ينبغى ، مع ذلك أن تقدم لنا أحداثاً لا يمكن التنبؤبها ، فإذا أمكن للجمهور أن يتنبأ بأحداث الرواية فَقَدَ استمتاعه بها ، لأن ما يضفى على المسرحية عنصر التشويق هو عدم القدرة على التنبؤ بالأفعال الإنسانية !

ـ ذلك يعنى أن المؤرخ عليه أن يكون فى جانب منه مسرحيًا ، وفى الجانب الآخر عالماً !

ـ أجل ، فهو فى بحثه عن الحقائق يجب أن يكون رجل علم ، لكنه ينبغى عليه كذلك أن يكون ذا خيال فنى حتى يستطيع أن يلحظ القالب الدرامى الذى تبرره الأحداث ! أما ما ذكرتَه تواً من أننا كثيراً ما نتوقع أحداثا فتقع ، فهو لا يكفي لإمكان التنبؤ بأحداث التاريخ ! لأننا كثيراً مانتصيد من الأحداث ما يتفق مع ميولنا وتفكيرنا ونغفل عن آلاف الحقائق التى تتعارض مع هذه الأفكار والميول! خذ هذه الأمثلة : كم من مرة أخبرنا كثير من الحكماء والعارفون ببواطن الأمور من المحللين السياسين ـ معتمدين على القياس التاريخى ـ أن الحرب الباردة بين

المعسكر الغربى والمعسكر الشرقى سوف تتحول إلى حرب ساخنة ؟! وكم من مرة أكد غيرهم أن الحرب الكورية هى مقدمة لحرب عالمية ثالثة ؟! أو أن حرب فيتنام سوف تؤدى لا محالة إلى حرب شاملة لاتبقى ولا تذر ؟! أو أن مشكلة الشرق الأوسط سوف تؤدى إلى صدام مباشر بين القوى الكبرى ؟! وقد تحدث تنبؤات مضادة فمن المؤرخين من تنبأ قبيل الحرب العالمية الثانية باستقرار السلام فى العالم ! ثم كان ما كان ! والواقع أن « الذين يتوقعون الأحداث ثم تتحقق توقعاتهم » ينتظرون فى العادة حتى تقع الأحداث بالفعل ! فتراهم مثلاً يراقبون الحرب حتي تندلع ثم يكرس مئات منهم جهدهم لشرح كيفية حدوثها محاولين أن يثبتوا عن طريق بعض العوامل التى عرفوها أن الحرب كانت حتمية الوقوع !

– معنى ذلك أنه لا تاريخ للمستقبل ؟!

– نعم ، فالتاريخ بالمعني الدقيق لهذه الكلمة ، هو تاريخ للماضى فقط ، ذلك لأن الحاضر لا تاريخ له لأن الأحداث لاتزال تُصنع فيه فإذا اكتمل الحدث ودخل فى « ذمة التاريخ » كان ماضياً ! والمستقبل لا تاريخ له أيضاً فهو من قبيل الأحلام والرجاء ، فى حين أن التاريخ إنما يكون لأحداث ووقائع انتهت بالفعل ، ومن ثم فليس هناك مؤرخ للمستقبل!

– يخيل إلىّ أنك بذلك ترفض نظريات « اشبنجلر» و « توينبى » وغيرها فى تفسير التاريخ ، وهى النظريات التى تعتمد على وجود نمط واحد يتكرر ، ومن ثم تلجأ إلى الفكرة التقلدية القائلة بأن الطبيعة والتاريخ متماثلان فى مجرى الحوادث ؟!

– الواقع أن القول بتماثل التطور التاريخى والطبيعى – هو – فى

ظنى على الأقل ـ قول خاطيء ترفضة الحرية البشرية من ناحية ويكذبه إمكان التنبؤ بأحداث الطبيعة ، واستحالة ذلك فى حوادث التاريخ من ناحية أخرى ! إن جانباً كبيراً من أسباب الخطأ الذى يقع فيه الناس إنما يعود إلى الطبيعة البشرية التي تميل إلى إدراك « التماثل» أكثر من إدراك « الاختلاف» بين الأشياء والمواقف ، فإذا وقعت أحداث حاضرة اجتهدوا فى استخراج جوانب الشبه بينها وبين أحداث الماضى وأسرعوا إلى القول بأن التاريخ يعيد نفسه ! ناسين أن هناك انبثاقاً لا نهاية له لعوامل جديدة فى كل موقف مما يجعل قياس المماثلة أمراً مستحيلاً .

ـ أخشى ما أخشاه أن تؤدى بنا فكرتك إلى القول بأن التاريخ تحركه إرادة الأفراد بحيث يسير سيراً عفوياً لا رابط له !!

ـ كلا بالطبع ! إن التاريخ هو لقاء متغير لا نهائي بين الناس ، وفيه ترتبط كل حادثة ارتباطاً وثيقًا بالحادثة السابقة حتي المؤرخ يستطيع أن يقيم اعتباراً لرابطة السببية! وهى رابطة تشبه إلى حد ما ارتباط الأفعال البشرية بشخصية صاحبها لكن لا شىء منها يقع بتلك الجبرية التى ترجع إلى ضرورة طبيعية أو عقلية حتى إنه يصبح من الممكن التنبؤ بالمستقبل على أساس من أحداث الماضى .

ـ لكن ما الذى يجعل الإنسان يقع فى هذا الخطأ وهو يفسر أحداث التاريخ ؟!

ـ ربما كان ذلك راجعاً إلى أن الإنسان قد جمع الكثير من المعلومات والمعارف حول أحداث الماضى ، لكنه لا يعرف إلا أقل القليل عن أحداث المستقبل ، مما يجعله يشعر بالضجر والملل ، فيحاول القضاء بشتي السبل على تلك الحال بالنفاذ إلى ما وراء الغُلالة الرقيقة التى تحجب

المستقبل ، وعلى هذا النحو ظهرت فكرة التنبؤ بأحداث التاريخ المقبلة قياساً على أحداثه الماضية واستنادا إلى أن « التاريخ يعيد نفسه » !

فى حين أن فكرة ظاهرة البطلان قد تجد بين أحداث التاريخ تشابهاً كأن تقول إن ظروف نكسة ١٩٦٧ وتكتمل دول الغرب ضد عبد الناصر يشبه وقوف أوربا ولاسيما إنجلترا فى وجه «محمد على» مما أدى إلى مؤتمر لندن ١٨٤٠ الشهير الذى قلِّمَتْ فيه أظافر مصر، وانحصرت فى إطار حضارى محدود يجعلها عاجزة عن أن تلعب دوراً ذا قيمة فى المنطقة : إن هذ التشابه هو تشابه سطحى لكنه ليس «مماثلة» ؛ إذ يستحيل أن تجد حلاً لمشكلة الحاضر بناء على مثيلتها فى الماضى ، لأن الموقف الحاضر يحمل فى طياته باستمرار عوامل جديدة وعناصر لم تظهر قط فى الماضى ، ولم تكن فى الحسبان .. مما يجعلنا نقول فى اطمئنان : من المستحيل أن يعيد التاريخ نفسه ، أو أن يكرر أحداثه على نحو ما تتكرر ظواهر الطبيعة!

* * *

ثلاثية النفس...

لست أدرى من أين جاءت تلك الرابطة الغريبة بين النفس البشرية وبين العدد ثلاثة ..؟! أو كيف حدث هذا التقسيم الثلاثى الذى لا تخطئه العين العابرة لهذه « النفس » فى مجالات تختلف فيما بينهما تمام الاختلاف ، وعصور متباعدة أشد ما يكون التباعد ؟! لكن الذى أعلمه ، علم اليقين ، أن هناك فى تاريخ الفكر البشرى ، ظاهرة تستوقف النظر ، وهى لهذا قمينة ببحث متأنٍ ودراسة متعمقة ـ وهى أنك تجد تقسيمًا ثلاثياً للنفس البشرية فى مجال الفلسفة تارة ، وفى ميدان علم النفس تارة أخرى ! ومن يدري فلعل البحث المدقق يكشف لنا عن وجود هذة القسمة فى مجالات أخرى أيضاً !

ولو أننا بدأنا بأقدم نظرية عن النفس البشرية فى تاريخ الفكر ، لكنا أمام نظرية أفلاطون – الذى أطلق عليه المسلمون لقب «أفلاطون الإلهى » لمثاليته الرفيعة وروحانيته العالية – وهى نظرية تقسّم النفس تقسيمًا ثلاثياً ، وتجعل لكل قسم من هذه الأقسام مستقراً فى جسم الإنسان أدناها « النفس الشهوانية » ومقرها البطن ـ تحت الحجاب الحاجز ـ وهى غارقة فى صفات الحس من شَرَهٍ ، وجشع ، وميل إلى الشهوة ، وممارسة الغريزة .. إلخ ، بل إنها لا تجيد سوى هذه العمليات والوظائف الحسية بأنواعها المختلفة ، ومن ثم كانت فضيلتها «العفة» ! أما الضرب الثاني من النفس البشرية عند أفلاطون فهو : «النفس الانفعالية الغضبية »، ومقرها الصدر ، وتتغلب عليها الحمية والانفعال، وتميل إلى الاندفاع نحو حماية المقدسات ، والقيم .. إلخ، ولهذا كانت فضيلتها « الشجاعة » ! أما الثالثة ـ وهى أعلى الأنفس جميعاً ـ فهى «النفس العاقلة» ، ومقرها الرأس ، وهى مصدر الاتزان

والتعقل والفهم والحكمة. والبشر كالأنفس ، ثلاثة أنواع : رجل الشارع بصنوفه المختلفة من زراع ، وصناع ، وتجار .. إلخ ، وهي طبقة دنيا لا همّ لها سوى الجرى وراء شهوات الحس ، وتناول الطعام والشراب وممارسة الجنس .. ثم هناك طبقة الجند بما لها من همة وحماس في الذود عن الوطن . وأخيراً هناك طبقة الحكام شريطة أن ينقلبوا فلاسفة أو أن يكونوا هم أنفسهم فلاسفة .

هناك إذن عند أفلاطون قسمة ثلاثية للنفس البشرية تقوم عليها قسْمة ثلاثية أخرى لطبقات المجتمع وأفراد البشر ..!

فإذا ما انتقلنا من« أفلاطون الإلهى » إلى تلميذه أرسطوا الذى لقبه المسلمون « بالمعلم الاول » لغزارة علمه وشدة ثقافته الموسوعية، لوجدناه يكتب لأول مرة كتاباً خاصاً عن النفس.« De Anima» ويعتبرها مبدأ الحياة فى كل كائن حى - ولهذا عُدّ الكائن حياً لوجود «نفس» بداخله تقوم بعمليات الحياة « ومن هنا جاءت كلمة Animal التى تعنى الحيوان »على اعتبار أن الحيوان لابد أن تكون له ANima - أى نفس - أما الضرب الأول من النفس عند أرسطو فهو النفس النامية أو الغاذية التى تقوم بالعمليات البيولوجية المختلفة كالتغذية ، والهضم ، والإخراج ، والتنفس - إلخ « لاحظ الارتباط القوى بين كلمة «نفس» العربية وكلمة تنفس ونفس ، لأن النفس هى مصدر التنفس! » - ولما كان النبات هو أول الكائنات الحية فى سلم الموجودات وتقتصر العمليات الحيوية فيه على هذة الوظائف البيولوجية كانت «النفس النامية» دون الحس أو العقل .

أما الضرب الثاني من النفس فهو « النفس الحا سة » التى تقوم بوظائف الإحساس فى الحيوان كالإبصار والتذوق والشم والسمع .. إلخ ، ومركز الإحساس عند أرسطو هو القلب ، وحجتة أن شرط

الإحساس : الحرارة ، والقلب هو الذى يوزّع الحرارة مع الدم فى أطراف الجسم ! أما أعلى الأنفس الثلاث فهى النفس العاقلة أو الناطقة التى توجد فى الإنسان .. دون النبات والحيوان ـ وهى تقوم بعمليات الاستدلال المختلفة ، وتكوين المعانى العامة ، والتفرقة بين الخير والشر، والحق والباطل .. إلخ ، لكن لا تحسبن الأنفس الثلاث إنما توجد فى كائنات ثلاثة منفصلة ، بحيث توجد النفس النامية فى النبات فحسب ، والحاسة فى الحيوان فقط ، والنفس العاقلة أو الناطقة فى الإنسان كلا إننا كلما علونا فى سلم الموجودات وجدنا زيادة في درجة التعقيد ، وكثرة الوظائف والعمليات التى تقوم بها نفس واحدة ، فإذا كانت الوظائف التى تقوم بها أجزاء النبات تقتصر على العمليات البيولوجية ، بحيث لا تحتاج إلا إلى« النفس النامية » . فإن العمليات التى يقوم بها الحيوان أكثر عدداً وأشد تعقيداً كالإحساسات المختلفة فضلاً عن النمو ، والتوليد ، وبالتالى فهو يحتاج إلى نفس حاسة إلى جانب النفس النامية.

أما الإنسان وهو ما يهمنا الآن ، فإنه يبلغ درجة من التعقيد فى الوظائف التى يقوم بها تحتم وجود هذا التقسيم الثلاثى للنفس أعنى أن بداخلة ثلاثة أنفس – أو ثلاثة اقسام لنفس واحدة – هى من أحدى الزوايا نفس نامية ، ومن زاوية أخرى نفس حاسة ثم هى فى جانب ثالث النفس الأعلى أعنى النفس العاقلة ! .

فإذا ما تركنا حقل الدراسات الفلسفية قليلاً ، وأنتقلنا إلى ميدان الدين لوجدنا أن القرآن الكريم يكاد يتنبأ بالتقسيم الثلاثى للنفس البشرية الذى سيقول به « فرويد » ومدرسة التحليل النفسى فى القرن العشرين ! إذ تراه يحدثنا عن «النفس الأمّارة » « آية ٥٣ سورة يوسف» ، وعلينا أن نلاحظ جيداً كلمة « أمّارة» التى تعنى أنها كثيرة الأمر بارتكاب المعاصى والشرور ، إنها النفس التى تضغط على

صاحبها فى إلحاح مستمر ليشبع رغباته وغرائزه ويستمتع بشهواته غير عابئة بقيم أخلاقية أو جوانب روحية ..! حتى أن نبى الله لا يستطيع أن يبرِّيءَ نفسه من الوقوع فى الزلل بسبب هذه النفس ! ﴿ وما أُبَرِّىء نفسى • إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى .. ﴾ (سورة يوسف٥٣)

ثم يحدثنا القرآن الكريم أيضًا أن هناك نفسًا ثانية أو ضرب من النفس أعلى درجة هى « النفس اللوّامة» « آية رقم ٢من سورة القيامة» التى تُراعى القيم ، وتحافظ عليها ، ومن ثم تحاسب نفسها إذا ما أخطأت أو ارتكبت إثمًا ، وعلينا أيضاً أن نلاحظ أن تعبير « اللوامة » يعني أنها كثيرة اللوم والتأنيب وكأنها تقوم بدور الرقيب ، ولهذا فاننا نقول إنها تقوم بوظيفة أخلاقية !

ثم هناك ثالثًا أعلى هذه الأنفس الثلاث وهى « النفس المطمئنة » «آية ٢٧من سورة الفجر» النفس المثالية التى ترجع إلى ربها آمنة مطمئنة ، مؤمنة به مقبلة عليه ، راضية بثوابه ومرضية عند الله بعملها ، تلك هى أعلى الأنفس إنها الذات العليا التى تشعر شعوراً مستمراً ، بالمثول بين يدى الله ! .

فإذا ما انتقلنا مرة ثالثة من ميدان الدين إلى حقل الدراسات السيكولوجية لوجدنا « سيجموند فرويد ١٨٥٦-١٩٣٩» أعظم علماء النفس المعاصرين وأكثرهم عمقاً يقوم بدراسة العمليات العقلية وما فيها من مظاهر عادية أو شاذة ، ثم ينتهى من هذه الدراسة إلى هذا التقسيم الثلاثى للنفس البشرية :

١ـ جانب من النفس يمثل الشعاع السحيق الذى تختزن فيه جميع النزعات المكبوتة ، والميول الغريزية والشهوانية ، وأقوها جميعاً النزعة الجنسية العارمة التى تمثل القوى المضطربة الهائجة التى تريد أن

تنطلق من أسرها لتحقق لنفسها إشباعها بغض النظرعن أى اعتبار آخر ـ وذلك ما يسميه فرويد « بالهو.. Id » .

٢ـ ثم هناك من النفس ذلك الجانب الشعورى والذى يطلق عليه فرويد اسم « الأنا .. Ego » والتى تمثل حلقة الاتصال بين النزعات الغريزية ، ومثيرات العالم الخارجية ويقوم بوظيفة خلقية يحافظ فيها على القيم ويراعى التقاليد.

٣ـ الذات العليا أو ذلك الجزء من النفس الذى يعبِّر عن مثلها العليا ويطلق عليه فرويد اسم « الأنا الأعلى Super Ego » وهى بالفعل أعلى الأنفس الثلاث .

ولا أريد أن أطيل فى أمر هذه المقارنات التى ربما كانت سليمة وربما كانت خاطئة ، لكنها فى جميع الحالات تحتاج إلى باحث جاد يتعقب هذه الظاهرة العجيبة ، ظاهرة التقسيم الثلاثى للنفس البشرية، فى مجالات الفلسفة والدين وعلم النفس ـ ليقول لنا فيها القول الفصل ـ فيضيف إلى تراثنا شيئًا جديداً بدلاً من الاجترار المستمر للماضى ، والتباهى بحضارة الأقدمين ـ فنكون كالجائع : يبيت على الطوى ، ويقول : كان جدى، ألا رحم الله الأجداد . !!

* * *

عـن المـرأة

١ ـ ذكر وأنثى .

٢ ـ قصة المرأة .

٣ ـ المرأة ... ونيتشة .

٤ ـ المرأة فى حياة هيجل .

٥ ـ خدعوها .. فقالوا !

ذكر .. وأنثى !

عندما تطالع مذكرات « ابنة الشرق» بى نظير بوتو التى أصدرتها في كتاب يحمل هذا الاسم ، بعد أن تربعت علي كرسى الوزارة متحدية كل تراث الشرق العتيد ـ لابد أن ترد إلى ذهنك فى الحال ، تلك القضية الأزلية ، وأعنى بها قسمة الجنس البشرى إلى (ذكر ، وأنثى) ، وهى القسمة التى سخر منها القرآن الكريم ووصفها بأنها « قسمة ضيزى» أى جائرة، بل إن اللفظ نفسه لا يدل على الظلم فقط ، وإنما هو يحمل إلى القارىء مشاعر « النفور والضيق » ، حتى إنه ليشعر بالتقزز من هذه القسمة قبل أن يعرف معنى اللفظ نفسة!

تروى « بى نظير بوتو» فى مذكراتها كيف كافحت ، وقامت بدور الرجال عندما غاب رجال الأسرة ، فذهبت إلى القرية لتدبير مصالحها، ورعاية شؤون المزرعة .

« كنتُ أتجه إلى الحقول كل صباح ، إذ لم يبق أى مجال فى حياتى للتقاليد، لقد تجاوزت بطريقة ما ، الفرق بين الرجل والمرأة !! » .. ثم تجلس فى المساء بين أهل القرية لتحكم بين الناس بوصفها « قاضية» فهى تقوم بتسوية المنازعات بين أهل الريف ، وتتولى حل مشاكلهم ، ثم تحكم فيما نشب بينهم من شجار !!

فهل يقتنع أهل الشرق الآن بأن تلك القسمة بين الذكر والأنثى «قسمة ضيزى» ؟! وأن سائق سيارة « بى » أو « تاتشر» أو أنديرا غاندى » .... إلخ .. لا يمكن أن يكون أرجح منها عقلاً لمجرد أنه «رجل» وأنها « امرأة» ... أىُّ تخلف هذا ؟! أىُّ جهل بالفروق الفردية بين البشر؟! ومع ذلك فلستُ أظن أن الناس عندنا يمكن أن يتقبلوا بسهولة فكرة المساواة هذه !! .

حدثنى صديق ، وهو فى غاية الأسى والضيق ، أنه أدخل زوجة ابنه إحدى المستشفيات الخاصة بالقاهرة لتضع مولودها ، ولم تبق فى المستشفى سوى أيام معدودات دفع فيها ثلاثة آلاف من الجنيهات ! وصمت الرجل برهة ليقول : بالله عليك لو أنهم كانوا يصنعون الجنين هناك ، أكان يتكلف مثل هذا المبلغ ؟ ثم تنهد بعمق وهو يقول : وبعد هذا كله وضعتها أنثى ! وليس الذكر كالأنثى ، كما تعرف ! ثم راح يسترجع ذكريات الماضى البعيد ، كانت المرأة فى قريتنا إذا جاءها المخاض بعثوا فى طلب «القابلة» فإذا جاء المولود ذكراً نفحناها جنيهاً كاملاً ، ويسمح لها أن تخرج من باب الدار الأمامى ! أما إذا كانت المولودة أنثى فقد كان نصيبها نصف جنيه على أن تخرج من الباب الخلفى، كما لو أن المفروض أن تتحمل القابلة نفسها جانبًا من مسؤولية الجنين الذى ساعدت فى ولادته !!وإذا كان غريباً أن تتحمل «القابلة » جانباً من مسؤولية جنس المولود ولاسيما إذا جاءت أنثى فإن الأغرب حقاً أن يحمل الرجل زوجته المسؤولية كاملة عن إنجابها للإناث، ويهددها أحيانا بالطلاق ، وأحيانا أخرى بالزواج من امرأة أخرى تأتى له بالولد ، وكأنها تصنعه بيدها ! مع أن العلم الحديث قد برهن بما لا يدع مجالاً للشك على أن الرجل هو وحده المسؤول عن تحديد نوع الجنين :: فالمرأة لديها الاستعداد لإنجاب الذكر والأنثى على قدم المساواة ، ذلك أن صبغات الأنثى متماثلة ويرمز لها بالحرفين «XX» لكنها عند الذكر مختلفة الشكل والحجم والتركيب ، ويرمز لها بالحرفين « xy » ، وعند الإخصاب تعطى المرأة بويضات تحتوي على صبغى جنس « X » وصبغى جنس « y » فإذا أخصب حيوان منوى ذو صبغى « X » بويضة « XX » كان المولود أنثى ، أما إذا أخصب حيوان منوى صبغى الجنس « y» كان المولود ذكراً « xy» ... إلخ وهذه معلومات تدرس فى المدارس ، وتعرفها الفتاة المثقفة جيداً ، وربما

يعرفها الرجل أيضاً لكنه يتجاهلها ويكابر لأنه رجل ! ويسعى للزواج بأخرى لتلد له الذكور !

ولقد أدركت المرأة العربية فى الجاهلية بحسّها الفطرى البسيط هذه الحقيقة حتى قبل أن يؤكدها العلم الحديث ! فقد كانت الفتاة فى الجاهلية كما نعرف تُقْتَلُ لحظة ميلادها عندما يحفر لها الأعرابى بنفسه حفرة تلد الزوجة بجوارها ، فإن ولدت أنثى ألقت بها فى الحفرة وإن جاء ذكر احتضنته ! وقد ابتكر غيره طرقاً مختلفة كأن يقوم بذبح الأنثى أو إغراقها أو إلقائها من مكان شاهق .. إلخ .. إلخ .

أما الزوج « رقيق الإحساس » فقد كان يهجر بيته ، ويرتضى الإقامة عند جيرانه حتى لا يبقى مع زوجته فى بيت واحد فيراها وهى تحمل هذه المولودة الكريهة ! وقد عبّرت زوجة « أبى حمزة» عن تبعته هو وعدم مسؤوليتها عن إنجاب الأنثى فى هذههالأبيات الجميلة :

ما لأبى حمزة لا يَأْتِينَا	يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البَنِينَا	تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعْطِينَا	ونحن كالأرض لزارعينا

نُنبت ما قد زرعوه فينا ..!

هكذا أدركت المرأة العربية فى الجاهلية تلك الحقيقة العلمية التى تقول إن الرجل هو المسؤول عن تحديد نوع الجنين ، وبالتالى فإنه ينبغى ألا يهرب من المسؤولية . لكن الغريب حقاً أن المرأة العربية المعاصرة قد استسلمت لما يقوله الرجل عن مسؤوليتها عن الإنجاب وبالتالى فإن عليها أن تتحمل تبعة « هذه الجريمة » بصبر ورضى ! فذلك هو قدرها ! ولا تزال الأم المصرية تغنى لطفلها وهى تهدهده لينام تلك الأغنية الشعبية ذات الدلالة الواضحة :

لما قـــالوا دى بُنَيَّــة	شـمـتت العـدا فِـيَّــا
وجـابوا لى البيض بقشـره	وبدال السـمن مـيـه!
وأمَّـا قــالوا دا غـلام	قـالوا مـسـعـد الأيام
وجـابوا لى البيض مقشر	وعليـه السـمن عـام!

وفى رواية أخرى :

لَما قـــالوا دى بُنَيَّــة	شـمـتت العِـدا فـيَّــا
وأمــا قـــالوا دا ولـد	اتشـد ضـهـرى واتسند

كم كنا نود أن نسأل والدة السيدة « بى نظير بوتو » عن شعورها عندما ولدت ابنتها « ابنة الشرق» - أحقاً شمت الأعداء فيها ، وضحك عليها أهلها ؟! وما هو شعورها اليوم وهى تفخر بأن هذه « البنية » اعتلت كرسى الوزارة عن جدارة واستحقاق ؟ ألا يشعر الأعداء بالقهر والغيظ وهى تأكل ما يطيب لها من سمن وبيض ..؟ !

* * *

قصـة المـرأة..!

١ ـ علاقة متناقضة

علاقة الرجل بالمرأة علاقة وجدانية ، أو عاطفية بالدرجة الأولى وهى لهذا علاقة متناقضة ، مزيج من الحب والبغض ، من القرب والبعد ، من الرغبة والنفور ، من الإقدام والإحجام .. فهذا هو منطق العواطف: الجمع بين المتناقضات !

ولست أجد تصويراً لهذه العلاقة أروع من تلك الأسطورة الهندية القديمة التى تروى قصة خلق الرجل والمرأة ، فتقول إن «تواشتري» الإله المبدع الذى خلق الكائنات جميعاً ، بعد أن فرغ من خلق الرجل، وأراد أن يخلق المرأة اكتشف أن مواد الخلق قد نفدت كلها ، ولم يبق لديه من المواد الصلبة شيء يخلق منه المرأة ! وإزاء هذه المشكلة راح يصوغ المرأة من فتات وقصاصات يجمعها من هنا وهناك : « فأخذ من القمر استداراته ، ومن الشمس إشراقها ، ومن السحب دموعها ، ومن الأزهار شذاها ، ومن الورود ألوانها ، ومن الأغصان تمايلها ، ومن النسيم رقته ، ومن النبات رجفته ، ومن النارحرارتها ، ومن المها عيونها ، ومن الحمام هديله ، ومن الكلب وفاءه ، ومن الكروان صوته ، ومن العسل حلاوته ، ومن الحنظل مرارته .. » ومزج هذه العناصر كلها مزجًا خاصاً فكانت منها المرأة ، فوهبها للرجل الذى أقبل عليها، وأخذ بيدها ، وسار بها إلى جنته !

لكن لم يمض على وجودها معه سوى شهر واحد حتى أسرع الرجل إلى الإله المبدع وهو يجر المرأة من يدها بعنف ـ ليقول :

« يا إلهى ! هذه المخلوقة التى وهبتها لى قد أحالت حياتى جحيماً لايطاق ، فانقلب النعيم الذى كنت فيه شقاء ! فهى ثرثارة ، لا يكل

لسانها عن الكلام ولا يمل ! وهى تطالبني بأن أرعاها رعاية مستمرة ، وإذا رجعت من صيدى مرهفقا ونمت أيقظتنى لكى أسليها مدعية أنها مؤرقة ! فإذا خاصمنى النوم وأرقت ، نامت هى وآذتني بغطيطها ..! لهذا كله فقد جئت لأردها إليك لأنني لا أطيق العيش معها !» .

فقال الإله : « هاتها ..وانصرف »! .

ولم يمض على ذلك سوى شهر واحد حتى عاد الرجل ليقول: « يا إلهى ! لقد رددت هذه المخلوقة التي وهبتَها إليَّ .. ولكني أشعر منذ ذلك الحين بالوحدة! بل إننى أحس بوحشة لا تطاق ولم اكن أشعر بها من قبل كما أن حياتى أصبحت فراغاً ، لقد افتقدت أنسها ، وحديثها الممتع ، ودعابتها المرحة ، وعبثها المسلى .. فهلاً أرجعتها لى مرة أخرى ؟! فأنعم الإله النظر فيه ثم قال : أجل ، خذها فهى.. لك !!

وبعد أيام قليلة عاد الرجل يقول : «يا إلهى إننى فى حيرة ! إنها سر مغلق ، لا يمكن كشفه ! لغز محير لم أستطع فهمه! إننى لا أستطيع العيش معها ، لكنى لا أستطع العيش بدونها ...! » وتستمر الأسطورة لتكرر الشيء نفسه مع المرأة التي جاءت بدورها تشكوا من الرجل : يا إلهى ! إن هذا المخلوق الذى وهبتنى له ، قد ضقت ذرعاً بأنانيته ، وصلفه وقسوته وغروره ! إنه لم يحسن عشرتي إلا يومًا واحداً ، ثم بعد ذلك كان يقصينى إذا دنوت منه، ولا يصغي إلى إذا حادثته ، وإذا أشرت إليه برأى سفهه ، وإذا فعلت فعلاً قبحه ، وإذا هفوت هفوة أقام الدنيا وأقعدها !! اللهم اجعل بينى وبينه سداً ... »! .

فيبتسم الإله ويشير بيده فإذا الجنة التي كانا يسكنان جنتان بينهما سد عال ! لا تستطيع المرأة بعد أن ترى رجلها ! .. لكنها سرعان ما تعود بعد أيام قليلة لتقول للإله وهى تبكى : « لقد اكتشفت يا إلهى، فى الأيام القليلة الماضية إننى لا أستطيع أن أعيش بدونه لقد ظللتُ

طوال هذه المدة خائفة أترقب ! إذا تحرك غصن ذعرت ، وإذا عوى ذئب نهضت والرعدة فى مفاصلي ، وأغلقتُ الباب ، وبقيت فى ركن الحجرة أرتجف!... ولقد كنتُ من قبل أجوب الغابة أجمع الثمار غير هيابةٌ ؛ لعلمى أنه ورائى يحمينى ... كنت إذا دعوته هرع إلىَّ، وإذا استصرخته سارع لنجدتى ! لا .. لا إننى لا أقوى علي فراقه : إنه جارى وحصنى ، وأمانى ومعقلى وملاذى !! فأعادها الإله إليه وهو يقول : « اذهبى إليه ، هو لباس لك وأنت لباس له ، كل منكما يسعد صاحبه ويشقيه ، ويشكوا منه وهو راغب فيه ، كل منكما مرآة يرى فيها الآخر حسناته وسيئاته ومحاسنه وعيوبه » .

* * *

٢ ـ هى مصدر الشرور..؟!

ربما كانت القصة التى روتها التوراة أكثر شيوعًا فى العالم كلة ، فالإصحاح الثانى من سفر التكوين يروى أن الإنسان خلق من تراب الأرض . « وجبل الرب الإله آدم من تراب الأرض ، ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية .. » (عدد٧) لكن آدم كان وحيداً لا أنيس ولاجليس ولا أحد يسرى عنه ما يعانيه من وحشة : « وقال الربُ الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده ، سأصنع له معينا نظيره ..» (عدد١٨) ، فأوقع الرب الإله سباتاً على أدم فنام ، فأخذ واحده من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا ، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة ، وأحضرها إلى آدم ، فقال آدم : هذه الآن عضم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تدعى امرأة لأنها من أمريء أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً . (عدد ٢١ - ٢٤)

وعندما سُئل آدم عن اسمها قال : حواء ! ولماذا سميتها حواء ؟! قال: لأنها خُلقتْ من شيء حى !! وتستمر قصة التوراة فتجعل المرأة سببا لما يعانيه الرجل من شرور وآثام فهى التى استمعتْ إلى غواية الشيطان «الحية» وعصتْ الأمر الإلهى الذى حرم عليهما الأكل من شجرة المعرفة : « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل .. » (الإصحاح الثالث : عدد٦) .

وهكذا أدخلت المرأة بحماقتها جميع الشرور والمعاصى وتسببت فى طرد الإنسان من جنة عدْن التى كان يعيش فيها ، ويأكل من ثمارها بلا جهد ولا تعب ! والحق أن حماقة المرأة التى كانت سببًا فى إدخال الشرور والآلام إلى حياة الإنسان ـ ترويها الكثير من القصص القديمة بصور منوعة، ففى المثيولوجيا اليونانية نجد«بندور Pandora» المرأة

الأولى التى خلقها « هفاستوس » إله النار والحدادة ، فسواها من نفس الطين الذى خلق منه الرجل من قبل ، فجاءت آية من آيات الحسن والجمال ! وإن كان « هرمس» الخبيث أودع فى حواء : قلب كلب ، ونفس لص ، وعقل ثعلب..!! أما زيوس

« zeus » كبير الآلهة ، فقد أهداها صندوقًا مغلقًا ، واشترط عليها ألا تفتحه إلا بإذنه «.. فلا تتعجلى حتى يأتيك امره .. وإنه لقريب ! لكنها ، كعادة المرأة ، لم تطق عليه صبراً ، وجاهدت لفتح الصندوق ، وبعد محاولات مضنية انفتح الغطاء وسرعان ما انطلقت منه خفافيش سوداء هوت عليها تعضها وتجرح بدنها الغض !.. وكلما وخزها خفاش انطلق قائلاً : « أنا المرض » ! ويقول آخر « أنا الفقر! ».. ويقول «ثالث أنا الجوع » ! ورابع « أنا البخل » وخامس « أنا القحط! » .. وهكذا إلى آخر الرزائل والمصائب والشرور والآلام التى تزخر بها الحياة البشرية حتى يومنا الراهن !! غير أن هناك وجهة نظر حديثة تدافع عن المرأة فتقول إن الرجل هو الذى صورها هذا التصوير السيىء! وهو الذى هبط بها إلى مستوى الدونية ليقول : إنها من حيث النشأة والتركيب «البدنى والنفسى معاً » لا تصلح لشىء إلا للأعمال المنزلية ، فهى ليست مؤهلة لشىء سام أو رفيع ، وإنما أهلتها الطبيعة من جميع زواياها لتكون خادمة للرجل ! مما يذكرك بما كان يردده «برنارد شو» وهو يسخر من وضع الزنوج فى أمريكا حين قال : « إن الرجل الامريكى الأبيض يهبط بالزنجى إلى مستوى ماسح الأحذية ، لكى يستنتج من ذلك ان الزنجى لا يصلح سوى لمسح الأحذية..!! » .

٣ـ النفع المتبادل..!

فى إحدى الفكاهات الشائعة أن أحد الطيارين وجد أثناء طيرانه فى الجو أن حمولة الطائرة أثقل مما يجب ، فطلب من الركاب أن يتطوع

ثلاثة منهم ليلقوا بأنفسهم من الطائرة حتى يخف وزنها ، فتطوع ثلاثه رجال : إنجليزى ، وأمريكى ، ومصرى . ووقف الرجل الإنجليزى يقول : من أجل مجد انجلترا وحتي تعود من جديد إمبراطورية لاتغرب عنها الشمس أضحى بنفسي ، ثم ألقى بنفسه من الطائرة . وتلاه الرجل الأمريكى قائلاً : من أجل تقدم الولايات المتحدة وفى سبيل العالم الحر الذى تدافع عنة أضحى بنفسى ، وألقى بنفسه . ثم وقف المصرى يقول : من أجل ثورة يوليو المباركة ومستقبلها الزاهر فإننى أضحى بهذا الرجل الهندى الذى يجلس بجوارى .. وألقى به من الطائرة ! شيء من هذا القبيل ما فعله الرجل ، بالمرأة عندما فسر النفع المتبادل تفسيراً أنانيا خالصًا فجعله يعنى أن تساعده المرأة طوال حياته فى الحقل ، وفى المنزل ، وفى تربية الحيوان والإنسان معاً .. ثم إذا جد الجد وأراد أن يضحى للإله تقدم بها قرباناً ، وأقام الاحتفالات الضخمة لكى يتقدم بأنثاه للآله عرفاناً وامتناناً أو تقرباً وزلفا ! أما أن المرأة ساعدت الرجل فهذا ثابت على مدار التاريخ ، بل إنه ليقال إنها هى التي اكتشفت الزراعة عندما سقط أمام كوخها ، فى يوم مطير ، بعض البذور ، فوجدتها فى أيام تالية نباتات يانعة فاستنتجت من ذلك انها تستطيع أن تعيد الكرة بإرادتها هذه المرة ، فبدأت تبذر البذور،وتنتظر.. ثم تحول الأمر إلى زراعة مساحات من الأرض أخذت تزداد يوماً بعد يوم إلى أن ظهر ذلك الإنقلاب الهائل فى تاريخ البشرية، وأعنى به: تحول الإنسان من مرحلة الرعى إلى مرحلة الزراعة !! ومن الثابت فى كثير من الحضارات القديمة ، وفى القبائل البدائية حتى الآن أن العبء الأكبر للأعمال الزراعية يقع على كاهل المرأة ، ولاسيما مراحل العمل الزراعى التى تتطلب دقه فى بذر البذور أو شتل النبات .. ولا تزال المرأة فى « غنيا الجديدة » تزرع أنواعًا كثيرة من النباتات ، وفى الفلبين يصطاد الرجال فى جماعات ، بينما تعمل المرأة فى البساتين

منفردة فى معظم الأحيان ، والفلبينيون يحبون الفاكهة التى تزرعها المرأة فهى فى معظمها تكون حلوة المذاق أما ما يزرعة الرجل فهو مر! وفى مصر القديمة عندما استبدل الفلاح المصرى المحراث الذى يجره ثوران بالمحراث البدائى ، كانت المرأة هى التى تقودهما ، فى حين كانت مهمة الزوج مقتصرة على توجيه الطريق ..!!

ومع ذلك كله فعندما كان الرجل يريد أن يتقرب من الآلهة أو أن يقدم لها القرابين ـ فإن القربان ، فى معظم الأحيان ، يكون أنثى ! فقد اعتاد المصريون القدماء أن يقدموا إلى النيل « هدية » وقت الفيضان تعبيراً عن امتنانهم وشكرهم وكانوا يختارون أجمل الفتيات ـ وليس أقوى الفتيان مثلاً ـ لتكون « عروس النيل » ـ ويقام مهرجان كبير يحضره فرعون ، وتزدان السفن ، وتزدحم ضفتا النيل بالناس ،ثم يلقى بالفتاة فى أعماق النهر! ولقد صور أمير الشعراء أحمد شوقى هذا الاحتفال تصويراً جميلاً فى قصيدته الشهيرة التى وصف فيها كيف تلقى الفتاة بلا مهر ولا صداق ، ومع ذلك تتنافس الفتيات ، ويشعرن بالغيرة والحسد من الفتاة التى يأتى دورها لتزف إلى « ملك الملوك » !

فى كل عـــامٍ درةٌ تُــلقى بلا	ثمن إليك وحـرة لا تُصدقُ
حولٌ تسائل فيه كل نجيبةٌ	سبقت إليك .. متى يحول فتلحقُ ؟
زُفت إلى ملك الملوك يحثها	دين، ويدفعها هوى وتشّوقُ
ولربما حسدت عليك مكانها	ترب تمسح بالعروس وتحدق!

ولقد ظل المصرى يعتز بهذا التقليد الحميد الذى يلقى فيه بالأنثى

فى النيل ويسميه عيد « وفاء النيل » ، حتى اضطره ـ إنشاء السد العالى منذ سنوات قليلة إلى الإقلاع عن هذه العادة العزيزة إلى قلبه والتى كانت تعطل فيها المصالح الحكومية ، والمدارس ، والجامعات ويحضر الاحتفالات مندوب عن الملك ، ثم عن رئيس الجمهورية بعد الثورة مع فارق واحد ، هو تحول « العروس » الحقيقة إلى «دمية»!! وكأنما أراد المصرى أن يظل الرمز قائمًا ـ القاء المرأة فى النيل ـ انتقاما مما فعلته به على مدار التاريخ ! فقد روى المؤرخ اليونانى «هيرودوت» ـ أبو التاريخ ـ أن المرأة كانت مسيطرة فى مصر القديمة « وكانت طاعة الزوج لزوجته فى وادى النيل من الشروط التى ينص عليها فى عقد الزواج ..! ويقول أيضاً : « إن أول فوج من السياح الإغريق الذين زاروا مصر القديمة استولت عليهم الدهشة عندما شاهدوا المراة المصرية، وقالوا بعد عودتهم : إن المرأة فى مصر سيدة بيتها ، والرجل متى تزوجها اقسم على طاعتها والخضوع لها ..» على أن عادة التضحية بالمراة لم تكن «عادة فرعونية » ينفس بها الرجل المصرى عن مكنونات صدرة فحسب ، وإنما هى ـ فى الأعم الأغلب ـ رغبة دفينه عند الرجل فى كثير من المجتمعات ، فلا تزال عند بعض قبائل أمريكا الجنوبية عادة التضحية بفتاة شابة جميلة يقطع جسدها أشلاء ثم ينثر شلواً شلواً أمام خطوط المحراث ، لأن سفك الدماء أمام خط المحراث كفيل أن يضمن لهم حصاداً وفيراً ونوعاً جيداً من المحصول ! وربما تساءل المرء فى سذاجة : إذا كانت المسألة « دماء أمام المحراث » فلماذا لا تكون دماء الرجل ولم الإصرار على أن تكون التضحية بالأنثى ..؟!

ولا تزال بعض القبائل البدائية تقطع رأس فتاة شابة فى موسم نضوج الذرة ! أما فى نهاية الموسم ، فإنهم يعمدون إلى بتر رأس امرأة عجوز ، ثم يقومون بسلخ جلدها ليتلفع به الكاهن وهو يقوم بتأدية الطقوس والشعائر ...!! بل من المجتمعات من تقتل الأنثى وهى

رضيعة وتريح نفسها منذ البداية « كعادة وأد البنات فى كثير من المجتمعات » ومنها مجتمعات تصر على أن تحرق المرأة ثوبنفسها مع زوجها المتوفى كما هى الحال فى الهند ، وفى بلدان البحر الأبيض ترتدى المرأة الحداد بقية حياتها إذا ترملت ، وفى مناطق أخرى من العالم تخنق الأرامل أو يُفرض عليهن الانتحار .. !! وهى كلها مناسبات مختلفة ينتهزها الرجل ليتخلص فيها من المرأة بألوان عديدة من الأساليب وبحجج وأعذار لا تنتهى !

وتذهب إحدى الباحثات المعاصرات إلى أن اللوم فى ذلك كله إنما يقع على عاتق المرأة فهى التى سمحت بإقتراف أمثال هذه الجرائم باسم القرابين ، مع انها هى نفسها التى سمحت بوجود الذكور واستمرارهم وسيادتهم ! وتقول « الباحثة » إن الإناث لو أردن لكان باستطاعتهن تدمير هذة السيادة ، سواء بتطوير أسلحة تعوض عن ضعفهن البيولوجى فى منازلة الذكور ، أو بوسائل أكثر فاعلية ولاسيما وأنهن مسيطرات سيطرة تامة على الولادة والرضاعة وإطعام الأطفال ، وتربيتهم فى مرحلة طويلة فى الصغر ، وكان بوسعهن إنقاص عدد الذكور بإماتتهم فى فترة الطفولة .. لكن المرأة لم تفعل لرقة قلبها وحنانها ، فبقيت السيادة للذكور !!

٤ ـ بين البعل الإله .. و « البعل » الزوج .. !

كانت العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة موضوع تقديس فى جميع الحضارات القديمة ، بل توشك الشعوب القديمة جميعها أن تعبد الجنس على صورة من الصور ؟ وكثيراً ما ربط القدماء بين الأرض والمرأة ، فاليونانيون ينظرون إلى الارض على أنها الأنثى ، أو هى الإلهة «جيا» أما الذكر فهو « أورانس » أو السماء ومن زواجهما نشأت الحياة على الارض ، حيث كان المطر المتساقط يقوم بدور الحيوانات المنوية

التى تخصب الارض ..! لقد اعتقد الإنسان أن قوة الجنس هى قوة الحياة التى تجعل الحنطة تنمو فى الحقول ، وأشجار الكروم تثقل بالعناقيد وأشجار الزيتون تزهر وتقدم إنتاجها المبارك ! وتجد هذة القوة أسمى صورها فى قوة استمرار الحياة فى الإنسان أعنى قوة الجنس . وهكذا نظر القدماء إلى الجنس بكثير من الإجلال والتقديس ، وصل بهم إلى حد التأليه!.

وكان الإله « بعل Bel » فى الحضارات الشرقية هو إله الجنس أو إله الخصب والنماء ، كما أنه إله المطر الذى يعمل على إخصاب الأرض التى هى باستمرار رمز للمرأة ؟ فى حين كانت الإلهة « عشتار Ishtar» أو «عشروت» « إلهة الجنس الأنثى» ، « وما زلنا نستخدم هذا اللفظ حتى الآن بهذا المعنى الجنسى فنقول عشرت أو أعشرت الناقة أى حملت ! ».

ومن هنا اتسمت العملية الجنسية بمسحة دينية واعتبرت مشاركة لا هوتية تقوم فيها المرأة بدور إلهة الجنس «عشتار» ويمثل الرجل «البعل» إله الجنس : (وكلمة « البعل » السامية تعنى فى الأصل «المالك») . ولقد تنبه لهذا المدلول الدينى لإله الجنس النبى العبرانى «هوشع» فدعا إلى محاربته عندما قال : «يقول الرب : إنك تدعونى رجلى ، فلا تدعونى بعد : بعلى» « الإصحاح الثانى عدد ١ .. » ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإله فى الآية ١٢٥ من الصافات : ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين .. ﴾ . وهكذا نتبين أن الجنس كان موضع قداسة ، ولم يكن مجرد إشباع شهوة أو إطفاء نزوة حسية ، ومن هنا قد انتشر فى الشرق الكثير من المعابد والهياكل الدينية لإلهة الجنس، وكان يقوم على خدمتها «رجال دين » أو نساء دين بالمعنى الأصح هن كاهنات المعبد أو راهبات المعبد ، ثم أطلقت اليهودية عليهن « زانيات المعبد » . وكانت كل امرأة لابد أن تؤدى فريضة دينية هى الاستسلام مرة واحدة لرجل غريب ، وكانت الحرائر من النساء يجلسن بجوار

جدار المعبد ثم يخطر الرجل الغريب أمام النسوة ، ويلقى بقطعة من النسيج فى حجر من يقع اختياره عليها ، وعندئذ لم يكن لهذه بد من اللحاق به ، فهذه شعائر واجبة الأداء ، لكن ما أن تؤدى المرأة ما عليها لإلة الجنس ، حتى لا يبقى فى الإمكان إغراؤها مهما يبذل لها من مال !! فعليها بعد ذلك ان تستسلم لزوجها وتخلص له ! وهكذا تكون قد أدت الفريضة الدينة « للبعل » الإله ثم عليها بعد ذلك أن تنتقل إلى « البعل» الزوج لتؤدى له فرائضه هو الآخر !!

٥ ـ «سى السيد » الهندى.. !

مازال من المطلوب حتى الآن أن تقوم المرأة الشرقية بتأدية فروض الولاء والطاعة «للبعل» الزوج الذى جسده أديبنا نجيب محفوظ فى «الثلاثية» فى صورة « السيد أحمد عبد الجواد » الشهير « بسى السيد ! » الرجل الحازم المسيطر على البيت والزوجة والأولاد رغم ما له من حياة خاصة لا تخلوا من هفوات كثيرة ، ولا بد أن يدب الرعب فى قلب الزوجة «الأمينة» وهى تسمع وقع خطواته على درجات السلم وهو عائد قرب الفجر بعد سهرة ليس فيها شئ من البراءة !

لكن هذه الصورة الأدبية المشهورة التى رسمها نجيب محفوظ للرجل الشرقى لاتقارن بالرجل الهندى ، أو « سى السيد الهندى» — كما رسمتة مجموعة شرائع « مانو » فى الهند ـ فعلى الرغم من أنك قد تعتقد أنه لا يوجد عند الرجل الهندى سوى « البابا » و« الماما » دون أن تكون هناك شهامة الرجال ونخوتهم ـ فإن ذلك هو ما تكذبه شرائع «مانو» التى تضع المرأة فى الدرك الأسفل من المجتمع ، ويكفى أن نقرأ فيها :

« إن مصدر العار هو المرأة ، ومصدر العناء فى الجهاد هو المرأة »!!

« ومصدر الوجود الدنيوي هو المرأة .. وإذاً فإياك والمرأة ..وإذاً فإياك والمرأة »!!.

وفى فقرة أخرى :

« إن المرأة لا تقتصر قدرتها على تضليل الأحمق عن جادة السبيل فى هذه الحياة ، بل هى كذلك قادرة على تضليل الحكيم»!!.
وباختصار فإن الروح العامة فى تشريعات « مانو » تعتبر المرأة جسداً يكاد يخلو من الروح ، منزلتها أحط كثيراً من الرجل ، ليس لها حق مستقل عن حق أبيها أو زوجها أو ابنها ، فهى مجرد« متاع » فحسب ، لا اعتراف بحقوق ، ولا اعتداد بروح أو عواطف أو وجدان ! فهى لا تستطيع أن تهجر زوجها فى أى حال حتى لو أصيب بالجنون أو الشلل . وليس غريباً بعد ذلك أن تنظر تعاليم «مانو» إلى المرأة على أنها مخلوق نجس ، يجب التحرر منه . أما بالنسبة لزوجها «..فإن الزوجة الوفية ينبغى أن تخدم سيدها كما لو كان إلها ، ولا تأتى بشىء يؤله مهما تكن حالته ـ حتى وإن خلا من كل الفضائل !! » ، وينبغي على المرأة الهندية أن تخاطب زوجها فى خشوع قائلة:

« يا مولاى .. ويا سيدى .. ويا إلهى..» !!.

وهكذا يتفوق « سى السيد » الهندى فى تشريعات « مانو » ، على « السيد أحمد عبد الجواد » فى ثلاثية نجيب محفوظ ! الأمر الذى يحتم على المرأة عندنا أن تحمد الله ـ الذى لا يُحمد على مكروهٍ سواه ـ لأن وضعها أفضل كثيراً من وضع زميلتها الهندية.. ! » .

* * *

المرأة .. ونيتشه ... !

« أذاهبٌ أنت إلى المرأة ؟ .. إذن لاتنس سوطك » . « كل ما فى المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز سوى مفتاح واحد هو : الحمل ! » ، « روح المرأة سطحية، فهى صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح ! » . « ليس الرجل بالنسبة للمرأة إلا وسيلة ، أما غايتها فهى الطفل ! » . « لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة ، فما هى إلا هرة ، وقد تكون عصفوراً، وإذا أرتقت أصبحت بقرة! » ليحذر الرجل المرأة عندما يستولى عليها الحب ، وليحذر المرأة عندما يستولى على قلبها البغض ..!»

« إذا كان قلب الرجل قاسياً ، فقلب المرأة مكمن للشر .. »!

يمكن أن نقول إن هذة الكلمات القاسيةُ تلخص موقف الفيلسوف الالمانى فردريش نيتشه ـ F.Nietzsche « ١٨٤٤ـ١٩٠٠» من المرأة لكننا بذلك نقفز إلى النتيجة دون أن نعرض لمقدماتها ، ويمكن أن يعد ذلك تلخيصاً مسرفاً فى التبسيط ، بل ظلما للفيلسوف إن لم يكن للاثنين معاً : « نيتشه .. والمرأة! » . ومن ثم فإن علينا أن نعرض للظروف التى مر بها فى علاقتة بالمرأة ـ كمقدمات للنتيجة ـ حتى نستطيع أن نفهم موقفه منها فهماً جيداً ومنصفاً أيضاً وأول ما ينبغى أن نذكره هو أن علاقات نيتشه النسائية كانت محدودة ـ ومن ثم كان صادقًا كل الصدق عندما قال على لسان نبيه زرادشت Zarathustra: « من الغريب أن ينطق زارا بالحق عن النساء ، وهو لا يعرفهن إلا قليلا..! » وإذا ما بدأنا من البداية لو جدنا فريتس Frits – اسم الدلع لفردريش الطفل » يعيش فى بيئة نسائية خالصة بعد وفاة أبيه ، وهو فى الخامسة من عمره ، ويعد أن كون عنه صورة خيالية رائعة ! وكانت هذه البيئة تتألف من خمس نساء هن : أمه ، وأخته ، وجدته لأمه ، وعمتاه

العانستان ، ولهذا قيل عن الفيلسوف إن نشأتة الأولى كانت فى وسط ناعم فجاءت تربيته رخوة ضائعة ، وطفولتة حالمة زاهلة ، وربما كان هذا هو السبب فى عشقه للقوة فيما بعد وظل يتغنى بها طوال حياتة ، ووصف « إرادة القوة» بأنها سر الوجود ، وكره المسيحية ، لما فيها من دعوة إلى الرحمة بالضعفاء واعتبرها تناقضاً وتمويهاً وعبودية وتطلعا إلى الغلبة من أحط السبل ! ومن هنا قيل بحق « لقد كان لنيتشه روح فتاة ترتدى درع جندى مقاتل ! » فهذه الروح الحالمةالضعيفة كانت تشتهى القوة وتتمناها !

وهذا التناقض ـ فى حياة الفيلسوف وفى فلسفتة ـ كثير كثرة لا آخر لها ؛ فمن المعروف مثلاً أنه ابن قس بروتستانى، ، وسليل أسرة من رجال الدين سواء من جهة أبيه أو أمه ، بل لقد كان من المفروض أن يدرس « نيتشه » الاهوت ليكون كأبيه قساً ، لكنه فى سن السابعة بدأ يتفتح اللامام ذهنه ما فى المسيحية من تناقض وتضارب ، وجوانب لا يقبلها ، فبدأ التوتر بينه وبين هذة الديانة ، لكنه كان يكتفي بأن يقول لاصدقائه : « الواقع أن المسيحية فى حقيقتها تتعلق بالتعاليم الأساسية للمسيح ، ولا يمكن التعبير عنها إلا بوصفها حقائق أساسية للقلب البشرى وأنها « رموز ! » حتى بلغ سن العشرين عاد من الجامعة فى إجازة عيد الفصح ولاحظت شقيقته إليزابيث أنه متجهم وقبل أن تسأله عما به أعلن قراره : « لقد قررت أن أقلع عن دراسة اللاهوت !» ونشب شجار عاصف بينه وبين والدته التى انفجرت باكية ، كما أن القرار قد أزعج شقيقته أيضاً !

وكان ذلك الصدام الأول العنيف مع البيئة النسائية التى تربى فيها هذا الطفل الرقيق المهذب ، الذى كانت عيناه تدمعان من فرط التأثر ، وهو يتلو آيات الكتاب المقدس ، حتى أطلق عليه أترابه فى المدرسة اسم «القس الصغير !» وهكذا استمر الشقاق بين الفيلسوف وبين الضعف

كما تمثله المرأة والدين معاً ! حتي أنه كتب إلى شقيقته إثر مرض ألم به عام ١٨٧٩ ، وكان يشعر أنه مشرف على الهلاك :

« عدينى إذا مت ألا يقف حول جثمانى سوى الأصدقاء ، وألا يدخل الفضوليون من الناس عليه ، ولا تدعى قسيساً ينطق بالأباطيل والأكاذيب على قبرى ، فى وقت لا أستطيع فيه الدفاع عن نفسى . أريد أن أهبط إلى قبرى وثنياً شريفاً! »

لكن إذا كان عداؤه للمسيحية وما فيها من ضعف وأخلاق العبيد ـ على حد تعبيره ـ قد استمر حتى النهاية فإن كراهيته للمرأة لم تكن كذلك فقد تخللتها على الأقل فترات حب وغزل !

مشكلة المرأة عند « نيتشه » كما قال أحد الباحثين أنه أحبها ، وتعلق بها أكثر مما يجب ، ومن ثم كرهها وأحتقرها أكثرمما يجب أيضاً ، ظنا منه أن هذا الارتباط العميق هو ضرب من العبوديه ، تأباه روحه الحرة! وهو « تعميد » بلغة المسيحية، لتجارب الفشل التى مر بها !! تجربتان فاشلتان مع المرأة مر بهما نيتشه ، تؤيدان هذا التفسير : الأولى مع «لو سالومى » ، والثانية مع « كوزيما » .

أما الأولى : فهى على درجة عالية من الذكاء والحيوية ، طموحة ، فى العشرين من عمرها ابنة جنرال روسى كانت تدرس بجامعة «زيورخ» وقد انجذب إليها عدد من العظماء منهم الشاعر الألمانى «ريلكة RILLKE » « ١٨٧٥ – ١٩٢٦» كما كانت صديقة حميمة «لفرويد Freud» « ١٨٥٦ – ١٩٣٩» ولفيلسوفنا « نيتشه » ! وكان صديقة «يول رى» هو الذى امتدح له مواهبها حتى تاقت نفسة لرؤيتها ، وعندما قابلها ظن أنه وجد فيها ضالته المنشودة ، فالفتاة ممتازة بمواهبها العقلية : آه لو أصبحت تلميذة له ! فذلك يرضى نزعته إلى الظفر بتلاميذه والحصول على أتباع لفلسفته ! إنه يستطيع أن يسير إليها

بأعمق أفكاره ! لكن الفيلسوف أحبها ، أحبها كامرأة قويه فهى « أذكى نساء الأرض جميعاً نظرتها ثاقبة كالنسر ! » على حد تعبيره ! وروت الفتاة أنه هام بها عشقاً وكان يقول لها : « أية نجوم تلك التى جمعتنا معًا ، وجعلت كل واحد منا يدور فى فلك الآخر ! » كما أنها تأثرت ، بدورها ، بصوته ، الهادىء وملبسه الأنيق ، وبعد أقل من ثلاثة أشهر تقدم إليها الفيلسوف طالباً الزواج ، لكن حتى طلبه هذا كانت تغلفه الانفة والكبرياء ، « إننى أشعر حتى أحميك من القيل والقال ، أننى مضطر لأن أتقدم إليك لكى أطلب يدك » ، هكذا كان خطابه إليها ! فهو يعبر عن حبه وعن إعتزازه بنفسه فى وقت واحد !!

وبسبب هذا الحب نشب شجار حاد فى بيئته النسائيه الناعمة التى تربى فيها ، فقد عارضت والدته « المحافظة » فكرة زواجه من «سالومى» كما عارضت شقيقته أيضاً ! فقد كانتا تعتقدان أن مجرد فكرة الارتباط بالآنسة ، «سالومى» فكره شريره، وتحولت شقيقته إلى عدو لدود «لسالومى» ، كما يقول الفيلسوف نفسه ـ وكتبت شقيقته تقول : « إن أمى المسكينة تعتقد أنه لم يعد أمام فريتس Fritz سوى ثلاثة احتمالات كلها سيئة : إما أن يتزوج سالومى ، أو يقتل نفسه ، أو يصاب بالجنون !..» أكان« نيتشه » يحبها حقا ..؟! هذا أمر لا شك فيه ، كتب فى هذة الفترة يقول : « إن على أن أتحمل العذاب والذكريات المروعة ، فهى ... لاتفارق ذاكرتى لحظة واحدة ! إن أمى تقول عنى إنى جلبت الخزى والعار لقبر والدى ! » .

ويزداد تمزق الفيلسوف بسبب المرأة ، وتكتمل تعاسته وبؤسه عندما ترفض الفتاة نفسها أن تتزوج منه ! ثم ترحل مع صديقه، «بول رى» ليتزوجا بعد ذلك ! ويصدم الفيلسوف صدمة كبيرة حتى أنه يحاول الانتحار بتناول كمية كبيرة من الأقراص المنومة التى اعتاد تناولها بسبب النساء ! ومن الطبيعى أن تتفجر فيه طاقة عنيفة من

الكراهية للنساء جميعاً ، حتى كتب إلى واحد من أصدقائه يقول : « أنا لا أحب أمى ، كما أنه أصبح من المؤلم لى أن اسمع صوت شقيقتى ، إننى أشعر بالغثيان عندما أكون معهما ، فلقد كنا باستمرار نتشاجر حتى الصيف الماضى ! » . وكان من الطبيعى أن تنعكس هذة الحالة النفسيه السيئة على كتاباته ، فيكره الجنس ويصفه الرجال الذين يجرون وراءه بأنهم كلاب الشهوة! » يقول فى كتابة الرئيسى « هكذا تكلم زرادشت » : « لو أنك تفرست فى رجال المدن لشهدت لك نظراتهم أنهم لا يرون فى الأرض شيئًا أفضل للرجل من مضاجعة امرأة ! مع أنه أفضل للرجل أن يقع بين براثن سفاح من أن تحدق فيه أشواق امرأة جامحة ملتهبة! » ، ولهذا يقرر أن يعتزل الناس: « أحب الغاب ، فما تسهل حياة على، وقد كثر فيها عبيد الشهوات! » .

أما تجربة الحب الثانية ، فقد كانت مع « كوزيما ڤاجنر Cosima wagner » زوجة الموسيقار الكبير « ريتشارد فاجنر » الذى أعجب به نيتشه إعجاباً شديداً فى فترة من الفترات ، ثم انقلب الإعجاب إلى عداء عنيف وربما كانت كوزيما من بين الأسباب التى جعلته ينقلب على صديقه ! كانت امرأة ناضجة ، ذكية ، واسعة الأطلاع ، تكبره بست سنوات ، أسرته بجرأتها منذ اللحظة الأولى ، فأعجب بها نيتشه إعجاباً صامتاً، وأحبها بعمق ، ولكنه لم يستطع البوح بهذا الحب ، فظل يكتمه فى نفسه حتى غاب عن حياته العاقله ! فكشف عن هذا الحب الصامت القديم ، واتضح ان حبه لكوزيما قد لعب دوراً مهماً فى حياته النفسية ، وليس من المستبعد أن تكون كراهيته لڤاجنر تعبيراً غير مباشر عن حبه لزوجته ـ كما ذكرنا ـ وإحساسًا منه أن ڤاجنر لا يستحق هذه المرأة التى لم يصادف بين النساء من تعادلها ذكاء وجرأة ! .

من خلال هذه التجربة الفاشلة مع المرأة التى بدأت من المنزل الذى يخلو من رجل كان يتمناه الطفل الصغير ، وانتهت بزوجة صديقه

مارة بالآنسة سالومى التى لهث وراءها فى نصف القارة الأوربية ـ نصل إلى النتيجة التى بدأنا بها هذا المقال ، فلو أن نيتشه مر بتجربة حب واحدة ناجحة ، لكانت غيرت هذه النتيجة .

والخلاصة : أن كراهية نيتشه « الشديدة العنيفة للمرأة » ترجع إلى حبه العنيف لها ، أيضاً وهو الحب الذى لم يتحقق فانقلب إلى ضده! وجعل الفيلسوف ينشد الوحدة ويغوص فى أعمق أعماق ذاته ، فلا شريك ، ولا قرين ، ولا حتى شبيه ..كتب الى أخته يقول : « آه ! لو كنت أستطيع إعطاؤك فكرة عن إحساسى بالوحده ، فلست أجد من بين الأحياء ولا من بين الأموات من أحس أن بينى وبينه شبهاً أو قرابة! وهذا مخيف مخيف ، إلى أقصى حد! أهو الحب الذى لم يتحقق ؟! أم هى لعنة المرأة التى كانت تطارده فتجعله ينزوى فى وحدة قاسية يشعر فيها ببرودة قاسية ، مع أنه تمنى أن ينعم بالدفء بجوارها ؟! أم أن فقدان الأب فى سن الطفولة الغض جعله يكون عنه صورة خيالية يستحيل عليه أن يكون قد خبرها ؟! أم أنه البصر «الضعيف» الذى جعله يكره الضعف فى كل صوره ؟! ربما كانت هذه الأسباب مجتمعة هى التى جعلته يشكل هذه الصورة القاتمة عن المرأة !! .

***

المرأة فى حياة .... هيجل

يبدو أن المثلث الجدلى قد رافق هيجل أيضًا فى علاقته بالمرأة ، فهناك ثلاث نساء كان لهن دور بارز فى حياة الفيلسوف الألمانى الكبير « هيجل ـ ١٧٧٠ ـ ١٨٣١ » .

أما الأولى فهى شقيقته « كريستينا .. Christiana » التى كانت تصغره بثلاثة أعوام ، « ولدت عام ١٧٧٣ » وبقيت بدون زواج ، وظلت تعمل مربية أطفال حتى مرضت عصبيًا ، ثم انتحرت غرقًا بعد وفاة الفيلسوف بأشهر قليلة ، وعلى وجه التحديد فى «٢ فبراير ١٨٣٢» ...

١ ـ ارتباط روحى بالأخت

ولقد ارتبط هيجل بشقيقته كريستينا ارتباطًا روحيًا وثيقًا تكشف عنه غيرة الأخت من زوجة الفيلسوف ! بل يكشف عن انهيارها عندما سمعت بزواجه ، ثم شكواها للحارس من زوجة أخيها ، وسخطها حتى كانت تقضى يومًا كاملاً فى بكاء لا ينقطع ، وقلبها مفعم بالحزن العميق !

لكن الأهم من ذلك نظرة الفيلسوف نفسه إلى هذه العلاقة الروحية التى نقلها فيما بعد بحسه فى فلسفته عندما نظر إلى العلاقة بين الأخ وأخته على أنها أسمى العلاقات العائلية جميعًا ـ والمثل الحى الدائم فى ذهنه هو « أنتيجونا Antigona»(*) بطلة رواية سوفكليس الشهيرة .

(*) أنتيجونا ابنة الملك « أوديب » رمز الوفاء الأسرى ، والأخلاق فى معارضة قوانين المدينة السياسية ، عندما حرم خالها الملك « كريون » دفن شقيقها الذى كان يقاتل مع الأعداء ، وأمر أن تترك جثته باعتباره خائنًا فى العراء للسباع وطيور البرية ـ لكنها قامت بدفن الجثة ـ فكانت بذلك مثلاً للإعلاء من شأن الواجب الأخلاقى ، ولعلاقة الأخت بشقيقها ؛ وبهذه الصفة يذكرها هيجل فى معظم كتبه ولاسيما « ظاهريات الروح » . وقد عرضنا قصتها فى مقال سابق بعنوان : « أنتيجونا تطرح المشكلة » .

ويرى هيجل أن الأخ والأخت ، وإن كان يجرى فى عروقهما دم واحد ، فإن كل واحد منهما يمثل بالنسبة إلى الآخر «فردية حرة» وتجمع بينهما ما هية أخلاقيه هى بمثابة علاقة متبادلة بين وعى ذاتى حر ، ووعى ذاتى آخر ، ولما كانت علاقة الأخ بالأخت علاقه روحية لاجنسية ، أو هى علاقة إنسانية ينتفى معها كل طابع شهوانى ، فليس من الغريب أن تكون هذه العلاقه هى قمة العلاقات العائلية، وخصوصاً أنها أبعدها جميعًا عن الطابع الحيوانى أو الطبيعى . وهذا هو السبب فيما يقوله هيجل من أن « موت الأخ يمثل بالنسبة إلى أخته خساره فادحة لا يمكن أن تعوض ..!

وهذا ما عبرت عنة أنتيجونا بقولها : إذا مات الزوج فإن رجلاً آخر يستطيع أن يحل محله ، وإذا مات الابن فإن رجلاً آخر يستطيع أن يعطينى ابناً ثانيًا .. لكنى لم أعد أستطيع الآن ، أن آمل فى مولد أخ جديد .. !

ومن هنا كانت أنتيجونا تشعر أن واجبها نحو أخيها هو واجب أسمى ، لا يمكن أن يعدله أى واجب آخر ! وهذا هو السبب فى أن أنتيجونا كانت باستمرار تجسد أمام هيجل شقيقته كريستيانا ..

ب ـ الثانية .. والابن غير الشرعى

اما المرأه الثانية فى حياة هيجل فهى تحمل نفس الاسم ـكريستيانا علاقته بها هى الضد المباشر للعلاقة السابقة مع شقيقته التى كانت علاقة روحية خالصة أما هذه فهى علاقه جنسية خالصة أيضاً . تعرف إليها فى مدينة « بنيا » واسمها الكامل « كريستينا شارلوت يوحنا فيشر» Christiana charlotte Johanna Fischer كانت فى الثامنة والعشرين من عمرها عندما التقى بها هيجل لأول مره عام ١٨٠٦، تصغره بثمانى سنوات ، وكانت زوجة مهجورة عملت عند هيجل مشرفة على

منزلة، ويبدو أنه كان قد عزم على عدم الزواج ، ومن ثم عاشر هذه المرأة ، وبعد عام - وعلى وجة التحديد فى ٥ فبراير ١٨٠٧ - وضعت غلامًا هو «لودفيج Ludvig.» . الابن غير الشرعى لهيجل ، والذى ظل مصدر متاعب للفيلسوف حتى بعد أن ضمه إلى أسرته ، ورحل هيجل عن مدينة بنيا « واستقر فى مدينة نورمبرج » ناظراً لمدرستها الثانوية ، وهناك تعرف على المرأة الثالثة فى حياته « ماريا فون توتشر Maria von Tucher » وهى فتاة من أعرق الأسر فى مدينة «نورمبرج » . ويقال إنها كانت فاتنة ، وكان جمالها وسمو شعورها ولطف شمائلها السبب فى إشعال نار الحب فى قلب هيجل الذى أحس عندما تعرف إليها أنه استرد شبابة « وبعد أن كان يشعر بالمرارة فى نهاية عام ١٨١٠، شعر بسعادة غامرة فى بداية ١٨١١ حتى إنه نظم قصيدة غرامية بعث بها إليها بتاريخ ١٢ أبريل ١٨١١ . وبعد أيام كتب إلى صديقه «نيتامر Niethammer » يقول : « تعرفت على فتاة بالغة اللطف والطيبه اسمها ماريا فون توتشر ، أرجو أن يكون الأمر سراً .. والسبب فى أن والد الفتاة - وكان عضواً بمجلس الشيوخ فى نورمبرج - اشترط لعقد الزواج أن يكون هيجل فى مركز محترم - أستاذاً بالجامعة مثلاً ! وهى وظيفه كان يتطلع إليها هيجل نفسه . ومن ناحية أخرى ، فقد كان على هيجل بوصفه موظفا فى الدولة أن يحصل على إذن بالزواج من جلالة الملك مباشرة . كتب إليه صديقه يقول .. سيكون فى وسعك الحصول على إذن بالزواج على نحو أكثر سهولة بوصفك مديراً لمدرسة نورمبرج الثانوية ذلك أن الاعتبار الرئيسى الذى يحسب حسابه عند منح الإذن بالزواج هو المعاش الذى يكفل للأرملة حياة كريمة وهذا أسهل بالنسبة للمؤسسات التعليمية ذات الميزانية المنتظمة أكثر منه بالنسبة إلى جامعة لا تملك بعد أموالاً منتظمة ، وفى خطاب آخر يقول هيجل لصديقه « إن المسألة حلت من تلقاء ذاتها : ذلك أن إعلان

الخطوبة قد تم من تلقاء نفسه ، عندما قدمنى والد ماريا إلى جدها.. وهو عندما ينطق بأول الحروف الهجائية فإنه ينطق بكل الحروف بعد ذلك !وهكذا صرنا نتصرف أمام الناس كخطيبين » .

كانت علاقة هيجل الأولى بالمرأة روحية خالصة ، مع شقيقته ، فى حين كانت علاقته الثانية جنسية خالصة مع عشيقته ، وها نحن نصل إلى المركب فى علاقته الثالثة مع ماريافون توتشر التى تنتهى بالزواج فى ١٦ سبتمبر عام ١٨١١ .. فالزواج كما يقول هو نفسه فى «فلسفة الحق » : « هو مركب من اللحظة الجنسية والحب » بحيث تتحول هذه الوحدة إلى وحدة روحية أعنى تتحول إلى حب واع لذاته « فقر ١٦١» .

جـ ـ العنصر العرضى

لكن الزواج ـ هذا الجوهر الأخلاقى الذى يربط بين فردين برباط لاينفصم ـ لايخلو من عنصر عرضى تمثله النزوة الطارئة ، وهذا ما حدث فى حفل زواج هيجل إذ يتدخل عنصر العرضية : عنصر النزوة والهوى فى صورة كريستينا عشيقة هيجل فى الحفل ، وهى تحمل طفلها فى الرابعة من عمره ـ هو ابنه غير الشرعى لودفيج ـ وهى تصرخ وتصيح باكية عارضة على المدعويين ورقة كان الفيلسوف قد كتبها بخط يده يتعهد لها فيها بالزواج . وتنتهى المأساة بأن يتعهد هيجل بالإنفاق على الطفل ، ويرسله بالفعل إلى شقيقة أحد أصدقائه وهى السيدة «صوفى بون Sophie bohn » ، وهى أرملة فقدت زوجها عام ١٨٠٣ .. وانتقلت إلى يينا عام ١٨٠٧ لتشرف على دار الأطفال ، وعندما ينتقل هيجل من « نورمبرج » ليشغل كرسى الفلسفة فى «هايدلوج» يكتب إلى « فرومان Fromman» شقيق السيدة صوفى فى ٢٨أغسطس ١٨١٦ يقول : « لقد قررنا ـ زوجتى وأنا ـ أن ينضم إلينا لودفيج » ليعيش معنا من الآن فصاعداً وفى ربيع العام نفسه يلتحق

لودفيج بالأسرة التى أصبحت الآن تتألف من : لودڤيج فى العاشرة، وكارل فى الرابعة ، وإيمانويل فى الثالثة .

وعندما بلغ « لودڤيج » الثامنة عشرة كتب إلى أخته من أمه يشكو من أن آماله قد خابت عندما أنضم إلى الأسرة ؛ لأن زوجة أبيه كانت تفضل ابنها « كارل » الذى لمع بعد ذلك كأستاذ للتاريخ ، وإمانويل الذى اصبح فيما بعد راعياً رسوليا .. يقول فى هذه الرسالة : إننى أعيش دائمًا فى خوف وهلع محرومًا من حب الوالدين . إن علاقتى بهما تسبب لى ـ على العكس ـ توتراً دائماً ..

على الرغم من أن الشاب كان يتوق لدراسة الطب فإن والده رفض بشدة لأسباب غير مفهومة ، وأصر على أن ينخرط فى الأعمال التجارية ليصبح من رجال الأعمال ، فيبعث به إلى تاجر فى اشتوتجارت ـ مسقط رأس الفيلسوف ليتدرب عنده على الأعمال التجارية ، وعندما رفض لودڤيج توقف هيجل عن مساعدته مما جعل الشاب يقول « لن أسميه أبى بعد ذلك .. وأخيراً التحق لودڤيج بالخدمة العسكرية وذهب إلى Batavlia حيث مات هناك بالحمى فى ٢٨ أغسطس عام ١٨٣١ ، وقبل موته كتب إلى أخته يشكو من أن والده لم يكلف خاطره عناء توديعه قبل أن يذهب إلى الجيش وهو يسألها عن معلومات حول أمنا العزيزة ، والظروف التى أحاطت بها قبل وفاتها، وعلاقتها بالسيد هيجل ...

فأنا لا أدرى شيئًا عن ذلك كله ، مع أنها أمور بالغة الأهمية بالنسبة لى ..

د ـ الشرف والأخلاق

وهكذا ينسدل الستار على العنصر العرضى فى المركب الخاص

بعلاقة هيجل الثلاثيه بالمرأة : الروحية ، والجسدية ، والزوجيه ، التى تجمع الاثنين معًا ، وفيما عدا ذلك فقد كانت حياة هيجل الزوجية هادئة منتظمة ، يعنى بشؤون بيته بكل اهتمام ، وبكل تدقيق ويسجل جميع المصروفات ـ التى يتولاها بنفسه كما يفعل أهل الأقليم ـ فى دفتر خاص ثم يجمع الحساب فى آخر الشهر ، ويقال إنه لم يكن يتوسع فى الإنفاق ، وإنما كان يجنح إلى الاعتدال ، وظل على هذا النحو حتى حين صار أستاذاً فى جامعة برلين ، ثم مديراً لها ، أعنى عندما صار رفيع المكانة موفور الدخل .

وأخيراً فإن هيجل يلخص رأيه فى المرأة فى هذه العبارات التى لاتخلو من التحامل .. « لابد أن تلاحظ بصدد العلاقات الجنسية أن الفتاة عندما تسلم جسدها للرجل تفقد شرفها . أما بالنسبة للرجل فإن الأمرمختلف. ذلك لأن له مجالاً للنشاط الأخلاقى خارج الأسرة، فالفتاة مخصصة من حيث ما هيتها لرابطة الزواج ولهذا الهدف وحده ومن هنا فالمطلوب منها أن يتخذ حبها شكل الزواج . وأن تبلغ اللحظات المختلفة فى الحب علاقتها العقلية الحقيقية بعضها مع بعض» . « ملحق للفقرة ١٦٦ من فلسفة الحق » .

ويقول أيضا : « الفرق بين الرجال والنساء هو كالفرق بين الحيوانات والنباتات ، فالرجال يناظرون الحيوانات ، والنساء ، النباتات لأن تطورهن أكثر هدوءاً ،. والمبدأ الذى يحكمه هو الوحدة الغامضة إلى حد ما للشعور أو الوعى ، وعندما تتولى النساء زمام الحكم تصبح الدولة فى الحال فى خطر . لأن النساء لاينظمن سلوكهن وفقًا لمتطلبات الكلية ، بل بواسطة الميول والآراء التعسفية .. « ملحق للفقرة ١٦٧» .

أكانت هذه الأحكام التعسفيه نتيجة لتجارب هيجل ؟

يكفى على أية حال أن نقول : إن الواقع يكذب ذلك ، حيث تتربع «مارجريت تاتشر» على قمة الحكم فى إنجلترا ، ومن قبلها كانت إنديرا غاندى فى الهند ، وجولدا مائير فى إسرائيل ـ وهى التى ذقنا المرَّ على يديها .!!

* * *

« خدعوهـا ..فقـالوا!»

دخلت تتعثر فى مشيتها وهى ترفل فى ثوبها الفضفاض ، فأشرت إليها بالجلوس ، وانتظرت حتى تلتقط أنفاسها من آثار صعود الدرج العالى ! ثم قلت وأنا أقدم لها فرصة الحديث :

ـ خيراً !

كنت أنا مرشدها فى اختيارها للمواد التى سوف تدرسها فى الفصل الدراسى القادم ، وكنت قد فهمت من حديث سابق لها عقب المحاضرة أنها تعانى من مشكلة فى هذه المواد ! قالت وغصة الخجل تمنعها من الانطلاق فى الحديث:

– لاأريد أن أدرس معه تلك المادة التى وجهتنى إليها فى المرة السابقة !

– ولِمَ ؟!

– يقولون عنه إنه.. كافر !

– أعوذ بالله ! احذرى يا ابنتى إلصاق التهم بالناس ، فليس فى ذلك شىء من التدين ، ولا هو من مكارم الأخلاق !

– هذا ما يقولونه عنه بحسم يكاد يشبه اليقين

– ومن ذا الذى يستطيع أن ينصب نفسه قاضياً فيقضى بدخول فلان إلى الجنة ويزج بغيره إلى عذاب السعير ؟! ليس اتهام الكفر يا ابنتى ، بالأمر الهين ، ومن هنا كان الحديث الشريف الذى يدعو الناس إلى التفكير ألف مرة ومرة قبل إلصاق هذه التهمة البشعة بالناس ـ يقول الرسول الكريم ﷺ : « من كفر مسلماً فقد كفر »! .

والمغزى العميق الكامن وراء ـ الحديث الشريف واضح وهو أن الرسول ﷺ يريد أن يضم الناس إلى حظيرة الإيمان ، فلنختلف، ونحن فى قلب الإسلام ، وليكن لكل منا رأيه الخاص الذى يعارض به آراء الآخرين جميعًا ، لكنا مع ذلك نتفق فى أننا ننطلق بآرائنا من أرض واحدة هى أرض الإسلام الرحبة التى تسمح بتعدد الآراء واختلاف وجهات النظر !

– يقولون : إنه فى واحد من كتبه أنكر وجود الله !

– كتبه موجوده ! وأكون شاكرًا لو تفضلت فأتيتنى بالكتاب المشار إليه ولتستخرجى منه عبارة واحدة يقول فيها ذلك علانية – أو حتى ضمنا – وعندها سوف أتفق معك فى كل ما تقولين !

– كلا ! إنه لم ينكر وجود الله صراحة ، ولكنه قال إن الكون يسير وفق قوانيين أزلية ثابته لا تتغير !

– الله اكبر ! وماذا فى ذلك ؟! أيعنى هذا صراحة أو ضمنًا إنكار وجود الله ؟! إنك لو تأملت ما كتبه الفلاسفه من أدله على وجود الله ، لوجدت من بينها ما يسمى بالبرهان الخامس فى البراهين الكسمولوجية « الكونية » وهو المسمى «برهان النظام»! وسوف تجدين أنهم يذهبون إلى أن ما نراه فى الكون من نظام هائل وشامل ، وقوانين دقيقه ثابتة ومحكمة لا يخرج عنها شىء من ظواهر العالم ، هى دليل قاطع وحاسم على وجود «منظم» أو «علّة منظمة» ـ وهذه العلة المنظمة ، لابد بالضرورة أيضًا أن تكون عاقلةً فكل علة منظمة لابد أن تكون علة عاقلة . والعلة المنظمة العاقلة لهذا العالم هى «الله» تعالى !

– هذا ما يقوله الفلاسفة !.

– وماذا فى ذلك ؟! هم قوم مؤمنون حتى العظام ، وصلوا فى

درجات الإيمان إلى القمة ! بل إن منهم من تخطى مرتبة الفلسفة إلى طبقات الصوفية كأبى حامد الغزالى مثلا - أم تشكين فى إيمانه هو الآخر ؟!

– حاشا لله أن يكون إيمان « حجة الإسلام » موضع شك أو ريبة! لكنى أقصد فقط أن برهان النظام المستمد من القوانين الثابتة هو برهان الفلسفة لا الدين !

– لا ! الدين قبل الفلسفة يؤكد النظام والإطراد والثبات فى ظواهر الكون التى تحكمها قوانين أزلية هى التى يطلق عليها القرآن الكريم اسم السنن الإلهية ! ومن هنا ذهب « إقبال » إلى أن الطبيعة ليست ركاماً من مادة بحتة شاغلة للفراغ ، بل هى بناء من حوادث أو منهج منتظم من السلوك ، ولهذا فان الطبيعة فى التعبير القرآنى الرائع هى «سنة الله»! وهو تعبير يعنى النظام ، والترتيب ، والتناسق ، والإطراد والتلازم فى الوقوع بمقتضى قوانين ثابتة وضعها الله لهذه الظواهر منذ الأزل ، فهى لا تتبدل ولا تتحول ، بل هى مستمرة ودائمة ، وذلك ينفى بالطبع وجود أحداث بلا سبب أو ظواهر تقع مصادفة واتفاقاً ! بل إن القرآن ليتحداك أن تجدى عن « ثغرة » أو «نقص» أو «انقطاع» فى ترابط الأحداث المادية المترابطة المتلاحقة .

حاولى ، وتأملى ، وأرسلى البصر فى جوانب الأرض جميعًا لتشعرى بعدها بالخزى : **﴿ الذى خلق سبع سموات طباقًا ماتري فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل تري من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾** . (آية ٣ ,٤ من سورة الملك)

– هذا كلام رائع لاغبار عليه ! ولكن أليس فى ثبات القوانين الأزلية واستمرارها نفى لتدخل « الإرادة الإلهية .. » ؟!

- الإرادة الإلهية هى التى شاءت أن يكون الكون على هذا النظام

والاطراد ، ولقد عبر القرآن عن ذلك بتعبيرات مختلفة لكنها فى النهاية تؤدى إلى معني واحد هو نفى العشوائية وتثبيت النظام ، فنحن نجده أحيانا يعبر عنها بكلمات «القدر» ، و «التقدير» ، بمعنى أن الله قد قدر لكل شيء قدره ، وأن الظواهر تسير بحساب دقيق ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ (٤٩ ـ القمر) . وكل ما فى الكون يسير بمقتضى سنة إلهية ثابتة لا تتغير .. و ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ (٩٦ـ الأنعام) ، الذى وضع قوانين الظواهر بميزان دقيق لأن ﴿ **وكل شيء عنده بمقدار** ﴾ (٨ ـ الرعد) ، وتلك مشيئة الله وإرادته فى تدبير الكون ، ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ . (٣٨الاحزاب) .

وكثيرا ما يستخدم القرآن لوصف هذا النظام كلمة « التسخير» ، وهى كلمة دقيقه ؛ لأنها تنفى « الإرادة » أو « الوعى » عن ظواهر الطبيعة ، وتجعل أحداث العالم كلها تسير سيراً حتميًا ؛ لأنها جميعاً ﴿ **مسخرات بأمرة** ﴾ (١٢ـ النحل) . وأحيانا أخرى يستخدم القرآن لفظ «التسبيح» ، ولا جدال أن المقصود بهذا اللفظ هو الخضوع للإرادة الإلهية ، والامتثال للأمر الإلهي المطلق الذى هو « سُنة الله » وهو القانون ! كما يستخدم القرآن أيضًا لفظ « السجود » و ﴿ **لله يسجد من فى السموات والأرض طوعًا وكرهًا ..** ﴾ (١٥ –الرعد) و« لله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض » (٤٩ –النحل) ..و ﴿ **النجم والشجر يسجدان..** ﴾ (٦–الرحمن) .

ـ أهذه الآية الكريمة هى التى أرسل أحمد بن المعتصم بالله رسالة إلى الكندى فيلسوف العرب الأشهر يطلب منه تفسيرها ؟!

ـ نعم يا ابنتى ! وكتب فيها الفيلسوف رسالته الشهيرة المعروفة فى تاريخ الفلسفة الإسلامية باسم « الإبانة عن سجود الجرم الأقصى وطاعته لله عز وجل » راح فى بدايتها يحلل معنى « السجود » فى

اللغة العربية . ويتكلم عن المعانى المختلفة لهذا اللفظ « السجود المعروف فى الصلاة من وضع الجبهة على الأرض وإلزام باطن الكفين والركبتين الارض» ! كما يقال لفظ السجود أيضاً بمعنى « الطاعة » فيما ليست له جبهة ولا كفان ، ولا ركبتان وجملة مالا يكون فيه السجود الذى فى الصلاة ، فمعنى سجوده :« الطاعة » وهو يستشهد بالكثير من ابيات الشعر للنابغة وغيره ورد فيها لفظ السجود بهذا المعنى ، ولما كانت الكواكب والأفلاك والأشجار لا تسجد سجود الصلاة لأنها ليس لها الأعضاء التى لذلك ، فالسجود هنا بمعنى « الإنتهاء والامتثال إلى أمر خالقها وجريانها ، وفق تدبيره المحكم بحيث تكون لها حركتها المنظومة المرسومة المطردة التى نسميها اليوم « بالقوانين الطبيعية » !!

- لكن ألا تستطيع « الإرادة الإلهية » بما لها من قدرة وسلطان وسيادة أن تتدخل فى أى وقت لتقلب القوانين أو توقفها تماما ؟

- هذا يا ابنتى تصور ساذج «للإرادة الإلهية» لأنها لا تعبث ، ولا تشيع الفوضى والاضطراب فى الكون : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعِبين ما خلقناهما إلا بالحق * ولكن اكثرهم لايعلمون** ﴾ (٣٨ ، ٣٩ - الدخان) ، بل إن القرآن ليحتقر من يسير على هواه من البشر: ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ (٤٣ الفرقان) ، فما بالك بظواهر الكون التى لا إرادة لها ؟! إن ما تقولينه يا ابنتى هو تصور العالم الشرقى للعظمه ، فهى تعنى فى بلادنا كسر القوانين ! فيستحيل أن يكون العظيم عظيماً عندنا إن أطاع القانون حتى لو كان هذا القانون من وضعه هو ! لأن العبث بالقيود هى عندنا الحد الفاصل بين السيد والمسود ! فقولى لى إلى أى حد تستطيعين العبث بالقانون والنظام أقل لك فى أى مرتبة من مراتب المجتمع أنت ، ولقد نقلنا هذا التصور - للأسف - إلى العظمة الإلهية ، فتصورنا كمال الله وعظمته

وقدرته فى تعطيل القوانين كيف شاء وحيث شاء ، ولو فهمنا جيداً مايقوله فيلسوف مثل اسبنوزا من أن الصفات الإلهية ينبغى ألا تؤخذ فرادى بل مجتمعه، فلا ننظر إلى قدرة الله المطلقة فحسب ، بل أيضا إلى عدالته وإلى حكمته التى تأبى العبث بالنظام والقانون حتى ولو كانت القدره الإلهيه بمستطيعة ذلك من الناحية العقلية ، البحتة، لو فعلنا ذلك لعرفنا أن الإرادة الإلهيه نفسها تقتضى ثبات القوانين ودوامها !

ـ أطرقت الفتاة صامتة ثم قالت :

ـ أشعر كما لو كنت أدخل لأول مرة عالمًا رحبًا لم يكن لى به علم من قبل ! لقد ارتحت كثيراً إلى ما تقول ، ولاشك أن نقاشنا واختلافنا داخل حظيرة الإسلام أمر تسعد له السماء ! وإن كان هناك موضوع واحد ربما عدت إلى مناقشته معك :

هو موضوع « المعجزة » !

ـ على الرحب والسعه !

وانصرفت راضية مبتسمة مقتنعه أنهم خدعوها.!

* * *

الأطفـــــال

١ـ يا أطفال العرب اتحدوا..!

٢ـ براءة الأطفال..!

٣ ـ هالة حبيبتى ... « نشالة » ؟!

٤ ـ طفلٌ صغير ينتقم من كبير الآلهة

« يا أطفال العرب .. اتحدوا .. ! »

لم يكن من الممكن أن أتبين - فى غبشة الفجر - ملامح تلك الساحة الرحبة التى تجمع فيها هذا العدد الهائل من البشر ، ولا الأسباب الّتى دفعتهم إلى هذا التجمع فى هذه الساحة ، ولذا فقد حاولت أن أقترب قليلاً من مكان تجمعهم ، لكني وجدت قناة صغيرة لكنها غريبة ، تحول بيني وبينهم ..! والعجيب حقًا فى أمر هذه القناة أنها كانت تتسع عرضاً وعمقاً كلما اقتربت منها ! فاكتفيت بالسير جيئة وذهاباً على ضفافها ، لعلى أقف على شىء من أمر هؤلاء الناس أو أن أرقبهما يصنعون ! الأعداد غفيرة على نحو لم أشهده من قبل ، وهم فيما يبدو ، من أصل واحد ، أو تربط بينهم وشائج قربى وصلات رحم ، رغم اختلافهم فى كثير جداً من التفصيلات الجزئية : كالملبس والمأكل .. إلخ ، لكن ملامحهم واحدة ، وطريقتهم العابثة واحدة ، وسلوكهم اللامعقول هو نفسه واحد بينهم جميعاً ! شدنى سلوكهم أن أفهم ماذا يصنعون ! لكن القناة اللعينة كانت تزداد اتساعًا كلما اقتربت منها ، ومع ذلك فقد استطعت أن أقف على شىء غير قليل من أمرهم :

فى استطاعتك أن تقطع أنه لم يكن يجمع بينهم عمل واحد ، ولا هدف مشترك ! ولا معني واضح لسلوكهم ، فقد انشغلت مجموعة منهم بألعاب مختلفه لا معنى لها كلعب الورق أو النرد ..إلخ . بينما انغمست مجموعه أخرى مع طيور أليفة كالحمام تطوح به فى الهواء فيحلق عاليًا ثم يذهب بعيداً فى أعماق الفضاء الواسع ! فى حين انهمكت مجموعه أخرى باللعب مع طيور جارحة أظنها صقوراً أو نسوراً تحط على أكتاف القوم مرة وعلى أيديها مرات ، فتقذف بها فى

الهواء فى زهو فارغ وفرح غامر ، وتظل تتابعها بنظراتها فى سعادة بالغة وكأنها سفينة فضاء صنعتها هذه الأيدى بنفسها ، ودفعت بها إلى الكواكب البعيدة !

من بعيد ، تراءى لى مشهد دخان كثيف يملأ الأفق ، حسبته فى بداية الأمر حريقًا شب فى ذلك الركن الهادىء الذى كسته خضرة ظاهرة ، لكنى عندما اقتربت قليلاً وجدت الدخان أزرق اللون على نحو لم نألفه فى الحرائق من قبل ! ثم تبينت أنه «عادم» لمجموعة كبيرة من النراجيل المشتعلة أمام مجموعات من البشر حيث صُفَّتْ « الشلت» على صورة هلال كبير ، وفى نقطة الوسط من كل مجموعة استوت صنية نحاسية كبيرة جمعت النرجلية ولوزامها ، والقوم يجذبون أنفاسًا شرهة ثم يسعلون طويلاً فتلتهب حبات الجمر نافثة لسناً راقصاً من اللهب ، فيتصاعد ذلك الدخان الأزرق الذى يملأ المكان!

لكن أعجب ما رأيت من أمر هؤلاء القوم : جماعه منهم يقتتلون بكل شيء ، وبأي شيء ، بالعصى والسيوف والنعال .. لغير سبب ظاهر ! وكلما سقط قتيل أو جريح تقدمت مجموعه ، بهدوء تام ، وفى يدها محفة لتحمل جثة القتيل أو الجريح ، وتذهب به بعيداً لتخلوا الساحة لمزيد من القتال !

مجموعة رابعة أو خامسة كانت تقف صامتة مكتفية بفتل شواربها مزهوة بشبابها مستعرضة الأذرع والعضلات والسيقان ، وكأنها تشترك فى مسابقة لعرض كمال الأجسام !

وفجأة ، انطلق صوت من ضمير الغيب ينادى بقوة وإصرار « منْ كان منكم جاداً ، فليرمها بحجر ..!!»

وجم الجميع برهة ، وهم يصغون السمع إلى الصوت الغريب القادم من أعماق الكون البعيدة .. لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى ماهم فيه

من نشـاط فارغ ، فـانشغل كل فـريق بما يفـعل ! لكن الصـوت عـاد يلح ويكرر النداء مره أخرى : « من كان منكم جاداً فليرمها بحجر ..!!»

عندئذ تقدم طفل صغير شاقًا طريقه وسط هذه الجموع الغفيرة ، وكأنه يخرج من بين أرجلها ، وأمسك بقطعة من الحجر بكل ما تستطيع يده الصغيرة أن تقبض عليها وقذف بها بكل عزم وإصرار وقـوة وعناد ! ثم انحنى على الأرض يلتقط حجراً آخر ، واندهشت لجرأة الصغير وثباته واستعداده لتحمل نتيجة عمله ! لكنى أفقت على منظر طفل آخر يشق الصفوف وفى يده حجر ، ثم طفل ثالث ، ورابع وخامس ..!

وتكاثر عدد الاطفال ـ دون اتفاق سابق فيما بينهم ـ وكانت أرجلهم الصغيرة تهرول مسرعة لتقذف بالحجر ، ثم تعود تبحث عن حجر آخر بغير ملل أو نصب ، لكن أقدامهم الصغيرة المسرعة أثارت غباراً كثيفًا حجب عنى رؤية الكبار ..! وسمعت صوت الشاعر يشق عنان الفضاء وهو ينشد :

« يا أيها الأطفال..

من المحيط للخليج ، أنتم سنابل ،

وأنتم الجيل الذى سيكسر الأغلال ،

ويقتل الأفيون فى رؤوسنا ..

ويقتل الخيال ..

يا أيها الأطفال أنتم ، بعد ، طيبون ، وطاهرون ، كالندى والثلج ، طاهرون ، لا تقرأوا عن جيلنا المهزوم..يا أطفال ، فنحن خاطئون

ونحن مثل قشرة البطيخ ، تافهون ،

ونحن منخورون .. منخورون .. كالنعال

لا تقرأوا أخبارنا ،

لا تقتفوا آثارنا ،

لا تقبلوا أفكارنا

فنحن جيل القيء ، والزهرى ، والسعال ،

ونحن جيل الدجل ، والرقص على الحبال ،

يا أيها الأطفال :

يامطر الربيع .. ياسنابل الآمال ،

أنتم بذور الخصب فى حياتنا العقيمة ،

وأنتم الجيل الذى سيهزم الهزيمة .. ! »

سرت فى جسمى نشوة الأمل وأنا استمع إلى غناء الشاعر ، وجرى الأطفال .. فما زال أمامنا شعاع يهدى فى هذه الظلمة الحالكة ..

وإذا بى أهتف من أعماقى : « يا أطفال العرب اتحدوا..!! ».

أجل اتحدوا وقلّدوا أطفال الحجارة ! يا أطفال الحجارة ! يا أطفال العرب فى كل مكان ، كونوا نقابات باسمكم تدافع عنا نحن الكبار ـ نحن جيل الضعف ، والجبن والخور ـ لم يعد أمامنا من أمل سواكم ! اتحدوا يا أطفال العرب ، وأسقطوا كل نظام فاسد ! اتحدوا يا أطفال العرب وقوموا سلوك الكبار حتى يكون لحياتنا معنى ! اتحدوا يا أطفال العرب فى كل مكان فقد أصبحنا مضغه الأفواه ، وأضحوكة الناس فى أركان الأرض جميعا، ولن ينظر العالم لنا نظرة احترام وإكبار إلا إذا اتحدتم !

أسمعوا العالم كله أن العرب مازال فيهم عرق ينبض ، ومازالت هناك سواعد جادة تسطيع أن تلتقط الحجر ، وأن تقذف به فى عيون

الأعـداء فى الـداخل والـخـارج ، وفى عـيــون الحكام أيضـًـا ؛ لأن الأطفـال ليسـوا كالكبار يجيدون النفاق ، ويتلهون بالـحمد والثناء على كل فاسـق وآبق ! فـيـا أطفـال الـعـرب فى كل مكان .. اتحـدوا .. وأعـيـدوا لـنا الـثـقـة والأمل فى المسـتقبل بعد أن يئسنا من هذه الأمة اللاهية!

* * *

براءة الأطفـــال

صديقى .. ما أطيبه..!

عندما سمع «برنارد شو» نبأ مصرع «المهاتما غاندى» أخذ يردد، وهو فى غاية التأثر : لقد قلتها مراراً « إنَّ الرجل الطيب فى خطر! نعم: الرجل الطيب دائماً فى خطر ...! » .

والحق أننى أسمع هذا الوصف ـ « الرجل الطيب » ـ يقال على فئات مختلفة فيما بينها أتم ما يكون الاختلاف ، حتى أننى لم أستطع أن أحدد لنفسى ما المقصود على وجه الدقة بتعبير « الرجل الطيب»! فمنْ هو الشخص الطيب ؟ أهو الرجل المتعاون ؟ أهو الذى لا يحمل بغضاً لأحد ؟! أهو الذى يقبل على مساعدة الآخرين بغير دعوة ؟! أهو الشخص الساذج الذى يصدق كل شىء يقال بغير نقض أو تمحيص ...؟! أم أنه ذلك كله أو أكثر ؟ إننا كثيراً ما نطلق هذا التعبير لنمتدح به كثرة من الشمائل المختلفة ، والصفات الأخلاقية المتنوعه ، بل إننا فى بعض الأحيان حين نجد فى أنفسنا الرغبة فى الثناء على شخص ما ولا نجد فيه صفة معينة يمكن أن نذكرها على وجه التحديد ، نكتفى بقولنا : إنه « شخص طيب »! أو هو رجل طيب والسلام »! وصديقى الذى أريد ان أحدثك عنه اليوم هو من هذا النوع الطيب : إنه شخص خدوم يحب مساعدة الآخرين ، ولا يضمر حقداً لأحد ، ولهذا فهو دائما فى خطر كما قال « شو » لكن ليس خطر الموت لاقدر الله ، وإنما هو الخطر الذى يجلبه عبث الأطفال ، وخبثهم أحياناً ، وظروفهم أحياناً أخرى !

هذا الصديق تهابه لضخامة جسمه ، إذا لم تكن قد تشرفت بمعرفته، بل ربما يخالجك شىء من الرعب فى بداية حديثك معه ، لأنك بالقطع سوف تبدو أمامه صغيراً ضئيلاً مهما يكن حجمك ! فهو

عملاق ، عريض المنكبين ، وإن كان بغير وسامة فى الشكل ، ولا حسن فى الصورة ، متقدم البطن ، مضطرب الوجه ! لكنه رغم ذلك برىء براءة الأطفال ، قليل الحظ من الثقافة ، « طيب القلب » إلى درجة تكاد تبلغ حد السذاجة ! حتى أن الأصدقاء كانوا ـ وهم يداعبونه ـ يقولون له:

ـ « إنك تحمل « شاسيه دبابة ، وموتور دراجة ! » ، إشارة إلى ضخامة جسمه وطيبة قلبه ! فكان يكتفى فى رده عليهم بقوله : «قسمتى كده!! » أو « خلقة ربنا...!! » هذا الصديق الطيب عاشق للأطفال لدرجة الجنون ، ربما لقرب طباعه من طباعهم وسذاجتهم ، وربما لأنه لم ينجب ولداً ، وكان يتمني على الله ـ ولا يزال يدعو صباح مساء ـ أن يهبه أى عدد منهم !ـ والأطفال ، بدورهم ، يحبونه ويتعرفون عليه ـ دون سابق معرف ـ فى كل مكان ! ولهم معه نوادر كثيرة يتحملها هو بصبر وحلم لا يقدر عليهما إلا العاشقون ! شكا لى هذا الصيف أنه كان يسير على أحد شواطىء الإسكندرية يستمتع بنسيم العصر المنعش ، وينشط الدورة الدموية كجزء من برنامج «للرجيم» يتبعه ـ استغاثت به مجموعة من الأطفال لا يزيد سن أكبرهم عن العاشرة :ـ

ـ بالله عليك يا عم ! ساعدنا فى دفع هذا القارب إلى ماء البحر ، فقد أرهقنا ثقله ، ونحن عصبة ولم نتمكن من زحزحته قيد أنملة وابتسم « الرجل الطيب »، فها هى فرصة أتيحت له ليساعد أحباءه من الأطفال ...!

ـ حاضر من عينى !

وصدَّر كتفه العريض فى مقدمة القارب ، وأخذ يدفعه بقوة وعروق وجهه تنتفض من عبء المهمة وثقلها ! وانهمك صديقى الطيب فى هذا العمل الإنسانى ، ولم يفق إلاعلى صوت رجل يهرول نحوه وهو يصيح من بعيد :

ـ يا أستاذ ، يا أستاذ ، ماذا تفعل ؟!

لم يلتفت إليه الصديق الطيب وواصل دفع القارب ، وقدماه تغوص في الرمل ، وهو يحاول تثبيتهما ، ليتمكن من دفع القارب نحو البحر، وإذا بالرجل يجذبه من قميصه ... وهو يقول :

ـ أنت يا أستاذ... ماذا تفعل ؟!

فقال الصديق دون أن يلتفت إليه : ومن أنت ، وما شأنك ؟!

فقال الرجل : « أنا صاحب هذا القارب !!».

عندئذ أفاق الصديق من المهمة الشاقة ، وتوقف عن دفع القارب ، وتلفت حوله وهو يقول : « أساعد هؤلاء الأ.... » لكنه لم يجد حوله أحداً من الأطفال ، وكأن البحر ابتلعهم في لمح البصر ! أو كأنهم غاصوا جميعاً في الرمال الناعمه !!

شعر الصديق بخجل شديد ، وهو يقول لصاحب القارب معتذراً :

ـ « صدقني ! لقد كان هنا مجموعة من الأطفال تحاول في يأس دفع هذا القارب إلى الماء ، ولما عجزوا عن زحزحته ، طلبوا مني مساعدتهم ، لكني لا أعرف أين ذهبوا !» فقال الرجل بحنق لا يخلو من استهزاء : « أطفال صغار يضحكون عليك ، ويسخرون منك وتصدقهم !؟ مش عيب » !!

وواصل الصديق سيره ، وهو يجفف عرقه !

واستطرد يروي مشاكله مع الأطفال : « هكذا حياتي معهم ! فلا يخلو يوم من مشاكل ! فلا أنا أتعلم وأكف عن مساعدتهم ، ولا هم يتوقفون عن طلب المساعدة ! بالأمس فقط طلب مني طفل صغير أن «أضرب» له جرس باب منزلهم المغلق لأنه لا يطوله ، وأشفقت على الطفل الصغير ؛ فأصابعه الرقيقة لا تستطيع أن تصل إليه فعلاً ، حتى ولو « شبَّ » على قدميه ! لكن ما أن انفتح باب المنزل حتى كان الطفل قد فر في لمح البصر ، وكأنه فص ملح وداب ! واعتذرت للعجوز التي

فتحت لى الباب ، وهممت بالسير مسرعاً ، وأصداء صوتها الغاضب تلاحقنى وترن فى أذنى : « مش عيب على طولك ..!! » واستطرد الصديق : « ومع ذلك كله ، فأنا أحبهم ، وأعلم عنهم هذه «الشقاوة » التى تضعنى فى مواقف بالغة الحرج وأتمنى على الله صباح مساء أن يهبنى منهم « دستة» ، وبهذه الشقاوة!!..

يا أخى ، أنا لا أدرى كيف يمكن لأب أن يتضايق من « شقاوة » أطفاله!

صحيح أن الصبية ـ على وجة التحديد ، قد تقوم بكثير من الأعمال التى تثير حنق الشخص ، لكن الأب ينبغى عليه ألا يغضب، فهى شقاوة بريئة على كل حال !على سبيل المثال فقد دأب جارى «فلان » على طرد ولديه من منزله عندما تكون هناك مباراة لكره القدم فى التليفزيون بين الناديين الكبيرين « الأهلى والزمالك » ؛ لأن أحدهما «أهلاوى» والثانى «زملكاوى».. فإذا انتهت المبارة بالتعادل بين الفريقين كان خير وبركة ، أما إذا انتصر فريق أو انهزم الآخر قامت القيامة ودارت معركة طاحنة بينهما داخل المنزل ؛ لهذا اضطر الوالد إلى طردهما إذا ما كانت هناك مباراة بين هاذين الناديين الكبيرين ! لكنى استضفت الولدين عندى لمشاهدة المباريات الهامة ، واستطعت شيئاً فشيئاً أن أقنعهما بالإنضمام إلى النادى الأهلى ، فنحن جميعا «أهل» قبل كل شىء ، ونجحت محاولاتى ، وكللت بالتوفيق ! لكن هذا الأسبوع انهزم النادى الأهلى فقاما بتحطيم التليفزيون ! فقلتُ لهما ما ذنبى أنا ؟! ومع ذلك كله فأنا واثق أنى سوف أقنعهما بالتدريج بأن الرياضة غالب ومغلوب ، وأن الروح الرياضية تعنى تقبل الهزيمه بصدر رحب .. والله يوفقنى فى الأسابيع المقبلة !

ابتسمت ، ودعوت لة بالتوفيق فى مهمته الصعبة!

* * *

هالة حبيبتى..نشالة ؟!

لم تكن صغيرتى « هالة » قد بلغت الثانية من عمرها بعد ، عندما اعتدت حملها كثيراً ، ومداعبتها كثيراً ، كما اعتادت هى أيضاً أن تعبث بجيبى فتأخذ منه القلم لتضعه أحياناً فى فمها ، أو لتخط به أحياناً أخرى ، على يدها ، أو تلقى به على الأرض عندما تنتهى من اللعب ! ذلك كله مقبول ومفهوم ، ولم يكن يضايقنى ما تفعله الصغيرة بأقلامى ، لكن كم سببت لى هذه العادة « البريئة » من المواقف المحرجة التى لم أكن أتخيلها قط ، يومها لم يكن عندي سيارة فكنت استخدم «الباص» فى تنقلاتى أو مترو حلوان حيث كنت أقيم فى وسط الزحام : كنت أحمل صغيرتى عاليًا حتى لا تختنق ! ولكم أشفقت عليها من هذا الجو الخانق ، لكنها لم تكن تبكى أو تشعر بضيق ، وإنما كانت على العكس تحس بسعادة عامرة وسط الزحام ولم تطل دهشتى ، فقد أكتشفت أنها تمارس هوايتها المفضلة فى العبث بجيوب الرجال الذين يقفون بجوارى ! فإذا ما وصلنا إلى غايتنا ، وهممنا بالنزول كنت أجد فى كل يد قلمين أو ثلاثة حسب قدرتها فى القبض عليها ! فأعتذر وأتلعثم وأرد ما حملته فى يدها ، فى كثير من الأحيان ! لكنى كنت فى أحيان أخرى لا أجد الركاب أصحاب الأقلام ! ويضحك الناس ربما لبراءة الطفلة ، ويحمر وجهى خجلاً عندما يخطر ببالى أنه يمكن لهؤلاء الناس أن يظنوا أننى دربت هذه « القردة» فى المنزل على سرقة أقلام الركاب !! وكنت كلما اشتريت لها أقلامًا ازدادت فى إدمان هذه العادة الغريبة ، وإن كنت حمدت الله أنها توقفت عند هواية جمع الأقلام ، ولم تتعداها إلى حافظة النقود !!

رويت هذه القصة لمجموعة من الأصدقاء ذات مرة ونحن نتسامر،

فتنهد واحد منهم فى حسرة وهو يقول :

– والله ياأخى مشكلتك هينة بهذه الطفلة التى لم تتجاوز العامين ! وماذا أقول أنا فى مشكلتى ؟! إن ابنى الذى بلغ الرابعة لم تعجبه هواية فى الدنيا سوى سرقة الدجاج من البيوت المجاورة ! وهو يدخل عليها واضعاً سبابته على فمه وكأنه يقول لها : « صه ! كفى صياحاً ، لانريد إزعاجاً حتى لايستيقظ أهل الدار ! ويومياً يأتى إلينا بدجاجة أو أكثر .. والجيران تبحث وتسألنا عن دجاجها ونحن ننكر ـ على مضض ـ فماذا نقول ؟! ونكتفى بأن نطلق ما أتى به الطفل من دجاج فى الشارع لعله يعود إلى قنه مرة أخرى ! لو كان كبيراً لضربته ولقلت له إنك «لص » ! لكنه لا يفهم الآن فيما أظن ، معنى السرقة ، ولا أدرى كيف تعلم هذه الهواية اللعينة ! إنه يجرى وراء الدجاج ، ويتعثر ، وقد يجرح لكنه لا يبكى ! فذلك كله يهون أمام الصيد الثمين !.. فإذا ماوصل إليها وأمسك بها عاد الينا يترنح وهو جزلان كأنه أتى بكنز نفيس!!

فقال صديق آخر : أنا لاأعرف متى على وجه الدقه يبدأ الطفل الصغير فى معرفة المفاهيم الأخلاقية ؟! فى أى سن يمكن أن يلتزم بالفضيلة ويبتعد عن الرزيلة ؟! عندى طفل فى عمر ولدك ، تقريبًا دخل هذه السنة المدرسة لأول مرة ، صحيح أنها « روضة أطفال» لكنى قلت يكفى أن يعتاد أن يستيقظ مبكراً ويرتدى ثيابه ، ويبتعد عن الأسره فترة ، وهو ما يسميه علم النفس « بالفطام النفسى » للطفل . بدأ يذهب على مضض وهو يقول ـ لا أدرى بسذاجة أم بخبث : « لماذا تبعثوننى إلى المدرسة أنا لا أعرف أن أقرأ ؟! المهم أنه ذهب وانتظم ، ولكنى فوجئت بالمدرسة تقول لى : ابنك هذا ساذج أم خبيث ؟! وسألتها ماذا حدث ؟! قالت : « فى حصة الدين ـ جرت العادة أن يخرج الأطفال المسيحيون من الدرس ، وفوجئت به يخرج معهم : فسألته لماذا تخرج ؟! أجابنى : لأنى مسيحى !! فعدت أساله : وما اسمك ؟! قال

محمد !! فقلت : ارجع إلى مكانك .! فماذا تسمون ذلك كذب؟! خبث؟! لا أدرى !..

قال ثالث هذه مشكلة هينة ، ومقدور عليها ! إنكم لم تصلوا بعد إلى مستوى مشكلات أولادى !.. عندى ثلاثة ذكور فيما بين الثامنة والعاشرة ، هم فريق من « الجان الأحمر» الذى نسمع عنه ، كل يوم لهم مشكلة خاصة تختلف عن مشكلة الأمس : مرة اتفقوا على أن يفتحوا محلاً لبيع الدجاج مذبوحا فقسموا أنفسهم : وأحضروا مجموعة من الكتاكيت الصغيرة التى تربيها والدتهم فى حديقة المنزل، وراح واحد يذبح والآخر ينظف ، والثالث يلفها فى الورق !.. وهكذا أتوا على طيور المنزل !.. أما أمس ، فقد كادت تحدث كارثة لولا أن الله ستر !! أتفقوا على أن يشكلوا فريقًا لإطفاء الحرائق !! وأحضروا أدوات الإطفاء كلها ، لكن لابد من وجود حريق ليقوموا باطفائه ! وهكذا أتوا بمجموعة من الجرائد إلى ركن من صالون المنزل وأشعلوا فيه النيران ، وتحركوا مسرعين محدثين أصوات عربات الإطفاء لتقوم بإخماد الحريق !! ولولا أن أمهم تنبهت لرائحة الدخان لاشتعل المنزل بأسره ! ثم تقولون بعد ذلك إن عندكم مشاكل !! اتركوا المشاكل لأهلها ! لشد ما يثيرنى أولئك الدين يتحدثون عن براءة الأطفال ومكرهم ! إن هؤلاء الشياطين الصغار يسخرون منا نحن الكبار وينتقمون لأنفسهم من آبائهم كلما سنحت لهم الفرصة ؛ حتى يثبتوا أن الكبار هم السذج لا الصغار !

* * *

طفل صغير ... ينتقم من كبير الآلهة !

انفضّ المجلس بعد أن أفرغ كل صديق ما لديه من شكوى من أولاده ، وتفرق الأصدقاء ، وتركونى وحيداً أفكر فيما قاله الصديق الأخير بإنفعال عن « مكر الأطفال ، وخبثهم ، وانتقامهم » ؟! أصحيح أن الأطفال يمكن أن يكونوا كذلك ؟! أيًا ما كانت الإجابه فإن الموقف ليس جديداً تمامًا ، فقد روت لنا الأساطير اليونانيه شيئًا قريباً مما يقوله الصديق عن مكر الأطفال وانتقامهم ! فها هو « كيوبيد» إله الحب بجناحيه وكنانتيه المليئتين بالسهام يمر عليه أبوللوا إله الشمس ، وكبير الآلهه فى فتره من الفترات ، وصائد الحيتان والأفعوانات البحرية بحرابه السحرية ، فيجد كيوبيد يرتب سهامه ليصيد الظباء، فيقف ليسخر منه :

« كيوبيد يا ابن أفروديت ! أنت هنا تصيد الظباء الضعيفة ، وتطلق سهامك عليها ، وكأنك صائد بارع ، لكنك لا تجسر على اقتناص الأفعوانات البحرية المرعبة ، ومع ذلك لا تفتأ تفاخر الآلهة بسهامك التى لا تطيش ، ورمياتك التى لاتخيب ! كيوبيد ! أيها الطفل الصغير ! أولى بك أن تتنازل لى عن قوسك وسهامك الذهبية وتأتى إلى لأعلمك كيف تكون الرماية ، وكيف ينبغى أن تسدد السهام !! » شعر كيوبيد بإهانة مريرة لهذا التقريع الذى لا مسوغ له ، وقال فى عبارة ملتهبة متحدياً كبير الآلهة :

« أبوللو يا ابن لاتونا ! ألا فلتعلم أنى أمهر منك ألف مرة فى تسديد السهام وأقوى فى تأثير القوس . وإن كنت بعد حدثاً صغيراً على أننى ملقنك درساً لن تنساه ! وسوف ترى سهامى التى سأجربها فيك قريبًا !! » فضحك « أبوللو ملء شدقيه من تحذير هذا الطفل

المغرور ! غير أن الطفل الصغير - كيوبيد - شرع يدبر انتقامه ، ويرسم الخطط التى ينال بها من « أبوللو» فلا يستطيع أن يفلت !

كان « كيوبد» يحمل كنانتين يحتفظ فى الأولى بسهامه الذهبية التى يرشق بها القلوب ، فتشتعل حبًا وصبابة، ويحتفظ فى الثانية بسهامه الرصاصية التى يصيب بها القلوب فتمتلىء بغضاً وكراهية !!

وانتقى من كل واحدة سهمًا حاداً ثم انطلق إلى الأدغال يدبر أمراً حتى وجد حسناء بارعة الجمال تستحم فى غدير صافٍ ، ابتسم وهو يقول لنفسه : « هذه الحسناء البارعة فرصة نادرة لن أجعلها تفلت منى .. فهى جميلة تامة المفاتن .. لابد أن أسدد سهمًا رصاصيًا إلى قلبها الصغير فيمتلىء حقداً وبغضًا وكراهية لأول منْ تراه ..! » ، وأعدَّ السهم وأطلقه فى قلب الفتاة ، فانخلع قلبها من الذعر وراحت تعدو خوفاً وهلعاً !

تركها « كيوبيد » وطار يرف بجناحيه الصغيرين إلى حيث «أبوللو» ، وكان غير بعيد من مكان الغدير الذى تستحم فيه الفتاة ، فسدد إلى قلبه السهم الذهبى فاشعله حباً ووجداً .. وتلفت «أبوللو» ينظر ماذا أصابه ، فرأى الفتاة تعدو ، وسرعان ما جن جنونه بحبها ، لقد ملأه سهم كيوبيد حباً وهياماً ، على نحو ما ملأ سهمه الرصاصى قلب الحسناء بغضاً وكراهية ..!

انطلق « أبوللو» إثر الفتاة المذعورة يبكى ويتذلل ويتوسل إليها أن تقف ..لكن هيهات ! لقد كانت تمعن فى الهرب ، كلما جد هو فى الطلب .. فإذا نظرت إليه إزدادت مقتًا ونفوراً .. فى الوقت الذى يشتعل فيه قلبه وجداً وغرامًا ! وهكذا انتصر الطفل « كيوبيد » إله الحب ، وصاحب القوس الذهبىّ ، الصغير ، البرىء ، ذو الجناحين الرقيقين ، على« أبوللو » سيد الشمس ، وكبير الآلهة ، وسليل رب الأرباب !

عندما جعل الإله العظيم يبكى كالعاشق المخبول ، ويركع أمام الطفل الصغير متوسلاً : « كيوبيد ، ارحمنى واشفنى مما ألم بى ! أتوسل إليك أن تخفف عنى لهيب الغرام الذى أشعلته فى صدرى !»..

فيرق قلب الطفل الصغير ويقول : « بهذا السهم الرصاصى أشفيك !» ويتلقى « أبوللو » السهم طواعية ، فى قلبه ؛ ليبرأ مما ألم به، فيخبوا لهيب الغرام المشتعل فى صدره ، ويتعلم ألا يسخر من الطفل الصغير كيوبيد بن أفروديت !!

وهكذا علمتنا الأساطير ، ألا نسخر من الطفل الصغير ؛ فقد نكون نحن الكبار أشد سذاجة من الأطفال الصغار..!!

تم بحمد الله

* * * * *

* * *

مؤلفات الدكتور إمام عبدالفتاح إمام

أولاً التأليف :

١ ـ « المنهج الجدلى عند هيجل» ـ طبعة أولى ـ دار المعارف ـ بمصر عام ١٩٦٩ـ طبعة ثانية دار التنوير ـ ببيروت ـ عام ١٩٨٣«العدد الثانى من المكتبة الهيجليه » طبعة ثالثه ـ دار المعارف بمصر ـ عام ١٩٨٩ ، طبعة رابعة مكتبة مدبولى ١٩٩٥ .

٢ ـ مدخل الى الفلسفة ـ طبعة أولى ـ عام ١٩٧٢ ، دار الثقافة ـ طبعة خامسة ـ ١٩٨٢ ـ طبعة سادسة ـ مؤسسة دار الكتب بالكويت عام ١٩٩٣ .

٣ ـ كيركجور رائد الوجودية ـ المجلد الأول (حياته وأعماله) طبعة أولى ـ دار الثقافة ١٩٨٢ ـ طبعة ثانية ـ دار التنوير ببيروت ١٩٨٣ (العدد الثانى من سلسلة الفكر المعاصر).

٤ ـ دراسات هيجلية ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤ـ مكتبة مدبولى ـ بالقاهرة .

٥ ـ « توماس هوبز: فيلسوف العقلانية » دار التنوير ببيروت عام ١٩٨٥.

٦ ـ تطور الجدل بعد هيجل ـ المجلد الأول : جدل الفكر ـ دار التنوير ـ عام ١٩٨٥ ، العدد ٨ من سلسه المكتبه الهيجلية ـ مكتبة مدبولى ـ بالقاهرة .

٧ ـ تطور الجدل بعد هيجل ـ المجلد الثانى : جدل الطبيعه ـ دار

التنوير ـ عام ١٩٨٥، العدد رقم ٩ من المكتبه الهيجلية ـ مكتبة مدبولى ـ بالقاهرة .

٨ ـ « تطور الجدل بعد هيجل » ـ المجلد الثالث جدل الإنسان ـ دار التنوير ـ عام ١٩٨٥ ، (العدد رقم ١٠ من المكتبه الهيجلية) مكتبة مدبولى ـ بالقاهرة .

٩ ـ « دراسات فى الفلسفه السياسية عند هيجل » ـ مكتبة مدبولى ـ بالقاهرة .

١٠ ـ كيركجور: رائد الوجوديه المجلد الثانى ـ مكتبة مدبولى ـ بالقاهرة .

١١ ـ « أرسطو ... والمرأة » ـ مكتبة مدبولى ـ بالقاهرة .

١٢ ـ « الفيلسوف المسيحى ... والمرأة » ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة

١٣ ـ الطاغية : « دراسة فلسفية لصو من الاستبداد السياسى » عالم المعرفة ـ بالكويت ـ رقم ١٨٣ .

١٤ ـ « أفكار ... ومواقف » مكتبة مدبولى بالقاهرة .

ثانيا : بحوث ودراسات :

١ ـ المقولات بين : أرسطو ، وكانط ، وهيجل... دراسة بحوليات كلية التربية جامعة طرابلس ـ ليبيا .

٢ ـ « مفهوم التهكم عند كيركجور » دراسة بحوليات كلية الآداب ـ جامعه الكويت

٣ ـ الهيجلية دراسة للموسوعة الفلسفية التى يقوم على نشرها معهد الإنماء العربى ببيروت .

٤ ـ « الفلسفة الثنائية عند زكى نجيب محمود » عالم الفكر بالكويت مجلد ٢٠ ـ عدد ـ ٤ يناير ١٩٩٠ .

٥ ـ أفلاطون والمرأه ـ حوليات كلية الآداب جامعة الكويت ١٩٩٢ .

= سلسلة « الفيلسوف ... والمرأة » .

ثالثا : الترجمة :

١ ـ « الجبرالذاتى» ـ رسالة كتبها بالإنجليزيه الدكتور زكي نجيب محمود ـ الهيئة المصريه العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٢.

٢ ـ « العقل فى التاريخ لهيجل » ـ طبعة أولى ـ دار الثقافه ـ عام ١٩٧٢ ، وطبعة ثانية ـ دار التنوير ببيروت ١٩٨٠ ، « العدد الأول فى سلسله المكتبة الهيجلية ».

٣ ـ « روح الفلسفه المسيحية فى العصر الوسيط ـ إتين جلسون ـ دار الثقافة عام ١٩٧٢ ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٤ ـ « فلسفه هيجل » ـ تأليف ولترستس ، المجلد الأول « النطق وفلسفة الطبيعة » دار التنوير عام ١٩٨٣ ، «العدد الثالث من المكتبة الهيجلية » ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٥ ـ « فلسفة هيجل » تأليف ولتر ستيس : المجلد الثانى فلسفة الروح . الطبعة الثالثة عام ١٩٨٣« العدد الرابع من المكتبة الهيجلية » مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٦ ـ « أصول فلسفه الحق لهيجل » المجلد الأول طبعة أولى ـ دار الثقافة ١٩٨١ـ طبعة ثانية ـ دار التنوير بيروت عام ١٩٨٣« العدد الخامس من المكتبة الهيجلية » ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٧ ـ « موسوعه العلوم الفلسفية لهيجل » طبعة أولى عام ١٩٨٣» ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٨ ـ « العالم الشرقى » المجلد الثانى من محاضرات فى فلسفة التاريخ لهيجل ـ العدد التاسع ـ من سلسلة المكتبة الهيجلية ١٩٨٥

٩ ـ « الوجودية» ـ تأليف جون ماكورى ، سلسة عالم المعرفة ـ بالكويت ـ العدد ٥٨ ـ أكتوبر١٩٨٢

١٠ ـ أصول فلسفه الحق » لهيجل ، المجلد الثانى ـ دار التنوير بيروت « سلسله المكتبه الهيجلية »مكتبة مدبولى بالقاهرة .

١١ ـ « هيجل .. والديمقراطية » تأليف ميشيل ميتاس ـ دار الحداثة للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٩٠ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

١٢ ـ « أسس الليبرالية السياسية » لجون استيوارت مل ، بالإشتراك مع الزميل الدكتور ميشيل متباس ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

١٣ ـ « المعتقدات الدينية لدى الشعوب » تأليف چوفرى بارندر ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

* * *